

أكثر الكتب مبيعاً على لائحة نيويورك تايمز
بيع منه أكثر من مليون ونصف المليون نسخة
في أكثر من ثلاثين بلداً

عاملة المنزل

The Help

ثلاث نساء على وشك اتّخاذ خطوة استثنائية مشتَركة



رواية

كاثرين ستوكيت

Kathryn Stockett

عاملة المنزل

The Help

ثلاث نساء على وشك اتّخاذ خطوة استثنائية مشتَركة

رواية

تأليف

كاثرين ستوكيت

Kathryn Stockett

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL


عاملة المنزل
The Help



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Help
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Amy Einhorn Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-986-4



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

آيبيلين

الفصل الأول

آب|أغسطس 1962

وُلـــدت مـــاو موبلـــي في وقـــت مبكّر من صباح يوم أحد في آب/أغـــسطس 1960، ونحب أن ندعوها فتاة دار العبادة. إن الاعتناء بأطفال ذوي البشرة البيضاء هو ما أقوم به، بالإضافة إلى أعمال الطهو والتنظـــيف. لقد قمت بتربية سبعة عشر طفلاً، وأعرف كيف أجعلهم يـــنامون، وأوقفهـــم عن البكاء، وأصطحبهم إلى الحمام قبل أن تنهض أمهاتهم عن السرير في الصباح.

لكـــن، لم يسبق لي أبداً أن رأيت طفلة مثل ماو موبلي ليفولت. فعـــندما دخلتُ المنـــزل في اليوم الأول، كانت غاضبة جداً، وتصرخ بـــسبب المغـــص، وتحاول التخلص من تلك الزجاجة كما لو أنها لِفتة متعفّنة، نظرت الآنسة ليفولت إلى طفلتها. "ما الذي أقوم به بشكل غير صحيح؟ لماذا لا أتمكن من إيقاف ذلك؟".

ذلك؟ كانت الإشارة الأولى؛ هناك خَطب ما.

فأخذتُ تلك الطفلة زهرية اللون الصارخة بين ذراعيّ، وهدهدتها، لتحريك الغازات المحتقنة في معدتها، ولم تمضِ سوى دقيقتين حتى توقّفت الطفلـــة عن البكاء، وابتسمت لي. ولكن الآنسة ليفولت لم تكن تحمل

طفلـــتها طوال اليوم. لقد سبق لي أن رأيت العديد من الأمهات اللواتي يُصبن بالكآبة بعد الوَضع، وافترضتُ أنه السبب الكامن وراء تصرّفها.

كـــان هـــناك أمر ما في شأن الآنسة ليفولت؛ هي دائمة العبوس ونحـــيلة، وساقاها طويلتان وهزيلتان جداً كما لو أنهما ظهرتا إلى حيّز الوجـــود قبل أسبوع. كانت في الثالثة والعشرين من عمرها، ولكنها هـــزيلة كفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، بالإضافة إلى أن شعرها غير كثيف، بنّي اللون، ويمكن الرؤية من خلاله. تحاول تمشيطه، ولكنه يبدو أقل كثافة باستمرار أما وجهها فيشبه وجه الشرير الأحمر الموجود على علـــبة السكاكر المتوهّجة، في حين أن ذقنها مستدق الرأس. في الواقع، كان جسدها مليئاً بالعُقَد والزوايا الحادة، ولا عجَب في عدم تمكنها من تهدئـــة تلـــك الطفلـــة. فالأطفال يحبون البدانة – لأنهم يقومون بدسّ وجـــوههم عـــند ثـــنية الإبط، ويستسلمون للنوم – السيقان الكبيرة والسمينة أيضاً؛ هذا ما اختبرته بنفسي.

عندما بلغت عامها الأول، كانت ماو موبلي تتبعني حيثما أذهـب، فـــتحلّ الساعة الخامسة وهي لا تزال متمسكة بحذائي من نوع دكتور شـــول، وتجرّ نفسها على الأرض، وتبكي كما لو أنني لن أعود أبداً. فتنظر الآنسة ليفولت إليّ بعينين واسعتين كما لو أنني ارتكبت خطأً ما، وتُبعد تلك الطفلة الباكية عن حذائي. هذا ما تواجهونه عندما تدَعون شخصاً آخر يربّي أطفالكم.

بلغـــت ماو موبلي عامها الثاني، فاتضحت معالم عينيها الكبيرتين البنيّـــتين، وخُصل شعرها العسليّة المعقوفة. كانت هناك رقعة خالية من الـــشعر تقـــريباً في الجزء الخلفي من رأسها بسبب قيامها بالتخلص من بعض الملابس، ولديها التغضّن نفسه الموجود بين حاجبَي والدها. إنهما متشابهتان تقريباً، ولكن ماو موبلي سمينة جداً، ولن تغدو ملكة جمال.

أعتقد أن هذا الأمر يزعج الآنسة ليفولت، ولكن ماو هي طفلتي المفضَّلة.

* * *

لقد فقدتُ ابني تريلور قبل أن أبدأ بخدمة الآنسة ليفولت. كان في الرابعة والعشرين من عمره، وهي أفضل مرحلة في حياة الإنسان. ولكن لم يتسنَّ له العيش في هذا العالم لمدة كافية.

كان يمتلك شقة صغيرة في شارع فولي، ويواعد فتاة لطيفة حقاً تدعى فرانسز. أتساءل عما إذا كانا سيتزوجان، ولكنه بطيء في اتخاذ قرارات في شأن أمور مماثلة، لا لأنه يبحث عن الأفضل، بل لأنها طريقته في التفكير. كان يضع نظارة كبيرة ويطالع باستمرار، حتى إنه شرع بوضع كتاب عن كون المرء أسود البشرة، ويُقيم ويعمل في الميسيسيبي. يا الله، لقد كان مصدر فخر لي. واصل عمله ذات ليلة في مطحنة سكانلون - تايلر حتى وقت متأخر، وهو يجرّ بجهد مجموعات من ثمانية أكياس من الدقيق إلى الشاحنة لدرجة أن قفّازَيه قد تمزّقا. كان صغيراً وهزيلاً جداً على هذا النوع من العمل، ولكنه بحاجة إليه. شعر بالتعب، وكانت تمطر، فانزلق على رصيف التحميل والتفريغ، وسقط على طريق المركبات. مرّ جرّار ومن دون أن يراه السائق، سحق رئتيه قبل أن يتمكن من التحرك، وعندما اكتشف الأمر كان قد فارق الحياة.

في ذلك اليوم، غمرت الظلمة عالمي، وبدا الفضاء والشمس أسودَين، فاضطجعت في سريري، وحدّقت إلى الجدران السوداء في منزلي. كانت ميني تزورني كل يوم للتأكد مما إذا كنت أتنفس، وتُطعمني لإبقائي على قيد الحياة. لقد مرّت ثلاثة أشهر قبل أن أنظر إلى خارج النافذة، وأرى أن العالم لا يزال موجوداً. لقد تفاجأت أن الحياة لم تتوقف لأن حياة ابني توقفت.

بعد خمسة أشهر من المأتم، دفعت نفسي إلى خارج السرير. فارتديت لباسي الرسمي الأبيض، وأعدت وضع الرمز الديني المذهّب الصغير حول عُنُقي، وذهبت لانتظار الآنسة ليفولت لأنها كانت قد أنجبت طفلتها للتوّ. ولكن، لم يمرّ وقت طويل حتى لاحظتُ تبدّل أمر ما داخلي؛ لقد غُرست بزرة المرارة في نفسي، ولم أعد أشعر بالرغبة في التواصل كثيراً مع الآخرين.

* * *

قالت الآنسة ليفولت: "رتّبي المنزل، وقومي بعد ذلك بإعداد طبق من سلطة الدجاج".

إنه يوم نادي البريدج الذي يصادف كل رابع أربعاء من كل شهر، وكنت قد جهّزت كل شيء كالعادة، كويت شراشف المائدة في اليوم السابق، وأعددت سلطة الصباح. كانت الآنسة ليفولت في الثالثة والعشرين من العمر فقط، وتحب سماع نفسها تُملي عليّ ما يتوجب القيام به.

لقد ارتدت الثوب الأزرق الذي كويته ذلك الصباح، وهو يتضمّن خمساً وستين طيّة بالغة الصغَر عند الخصر لدرجة أنني نظرت شزَراً عبر نظارتي لكيّه. أنا لا أحمل الكثير من الضغينة في الحياة، ولكنني لست على وفاق تام مع هذا الثوب.

"تأكدي من ألا تدخل ماو موبلي إلى هنا الآن. أنا غاضبة منها جداً لأنها مزقت أوراقي إلى خمسة آلاف قطعة، ويتعيّن عليّ إعداد خمس عشرة رسالة شكر إلى رابطة الراشدات...".

فهيّأتُ ما طلبت مني تهيئته احتفاءً بصديقاتها السيدات، ورتّبتُ الأواني الجيدة المصنوعة من الكريستال، وأخرجتُ أواني المائدة الفضية. لا تضع الآنسة ليفولت طاولة أنيقة خاصة بلعبة الورق كما تفعل

السيدات الأخريات. انكببنا على إعداد مائدة غرفة الطعام، فوضعنا فوقها غطاء لإخفاء الشق الكبير الذي يشبه حرف L، ونقلنا آنية الزهور من الوسط إلى خزانة الغرفة لإخفاء الخشب المخدوش. فعندما تُعدّ الآنسة ليفولت لحفلة غداء، تحب أن تكون الحفلة مُتقَنة، وتحاول إخفاء العيوب لأن منزلها صغير. إنها ليست ثريّة، أنا واثقة من ذلك. فالأثرياء لا يبذلون قصارى جهدهم ليُظهروا ثراءهم.

لقد اعتدتُ العمل عند أزواج صغيري السنّ، ولكنني أعتقد أنه المنزل الأصغر حجماً الذي عملت فيه يوماً. يتألف من طابق واحد، غرفتها والسيد ليفولت كبيرة، وهي موجودة في الناحية الداخلية من المنزل، ولكن غرفة الطفلة صغيرة جداً، وغرفة الطعام وغرفة الجلوس العادية غير مفصولتين عن بعضهما. هنالك حمّامان فقط، وهما مصدر ارتياح لي، لأنني عملت في منازل تحتوي على خمسة أو ستة حمّامات، وكان يتطلّبني الأمر يوماً كاملاً لتنظيفها. ولا تدفع الآنسة ليفولت سوى خمسة وتسعين سنتاً في الساعة، أي أقل مما كنت أتقاضاه طيلة سنوات. ولكن، بعد وفاة تريلور، قبلتُ بالأجر المتوفّر لأن صاحب المُلك لم يكن لينتظر مدة أطول لتقاضي الإيجار. بالرغم من صغر حجم منزلها، تسعى الآنسة ليفولت لإظهاره بأفضل حلّة ممكنة. إنها تجيد استخدام ماكينة الخياطة، فعندما تكون عاجزة عن شراء غطاء جديد، تحصل على لوازمها الزرقاء وتخيطه بنفسها.

قُرع جرس الباب، ففتحته.

"مرحباً، يا آيبيلين". قالت الآنسة سكيتر التي تتبادل أطراف الحديث مع عاملات المنازل. "كيف حالك؟".

"مرحباً، يا آنسة سكيتر. أنا بخير. الطقس حار في الخارج".

كانت الآنسة سكيتر طويلة القامة ونحيلة، وشعرها أصفر وقصيراً حتى كتفَيها، وقد جعلته متجعّداً قبل عام تقريباً. هي الأخرى في الثالثة والعشرين من عمرها، على غرار الآنسة ليفولت والأخريات. فوضعت حقيبة يدها على الكرسي، ومرّرت يدَيها على ملابسها بتلهّف. كانت ترتدي بلوزة بيضاء بشريط ومزرَّرة، كما لو أنها ناذرة عفة، وتنتعل حذاءً منبسطاً، خُيِّل إليّ أنها تنتعله كي لا تبدو أكثر طولاً، وتظهر فتحات تنورتها الزرقاء عند الخصر. تبدو الآنسة سكيتر باستمرار كما لو أن شخصاً آخر يختار لها ملابسها.

رأيتُ الآنسة هيلي تركن سيارتها على الطريق الخاصة بالمنزل، وترافقها والدتها، الآنسة والترز، ثم أطلقت بوق السيارة. كانت الآنسة هيلي تقيم على مقرُبة منا، ولكنها تأتي بسيارتها. فأدخلتُها، ومرّت بجانبي من دون إلقاء التحية، وتخيّلت أنه وقت ملائم لإيقاظ ماو موبلي من قيلولتها.

عندما دخلتُ غرفة الطفلة، ابتسمت لي، ومدّت ذراعَيها السمينتين.

"أنت مستيقظة يا طفلتي؟ لماذا لم تصرخي لي؟".

فضحكت ورقصت رقصة سريعة تعبيراً عن فرحها في انتظار إخراجها من سريرها. فعانقتُها، وتخيلت أنها لن تحظى بالعديد من المعانقات الجيدة بعد عودتي إلى المنزل. فغالباً ما أجدها في مهدها لدى عودتي إلى العمل، وهي تطلق صيحات بسبب انشغال الآنسة ليفولت بماكينة الخياطة، مقلّبةً عينيها كما لو أنها هرّة ضالّة احتُجزت بين الباب الأساسي والشريط المُنخُلي. فالآنسة ليفولت ترتدي ثياباً أنيقة كل يوم، وتتبرّج على الدوام، ولديها براد فريجيدير ببابَين مع ثلاّجة مبيَّتة، وموقف لسيارتها. أنتم تروها في متجر جيتني 14 للبقالة،

ولا يمكنكم أبداً أن تتصوّروا أن في استطاعتها مغادرة المنزل تاركةً طفلتها في مهدها وهي تبكي على هذا النحو. فعاملة المنزل تواجه هذا الوضع على الدوام.

لكن ذلك اليوم كان يوماً جيداً لأن الفتاة تبتسم.

أقول: "آيبيلين".

فتقول: "آيب – إي".

أقول: "حُب".

تقول: "حُب".

أقول: "ماو موبلي".

تقول: "آيب – إي". ومن ثم تضحك وتضحك، وتكون مدغدَغة المشاعر عندما تتكلم، ولكن، سرعان ما ينتهي وقت الاستراحة، فأجد نفسي مضطرة إلى قول: "حان وقت العودة إلى العمل". لم يكن تريلور يتفوّه بأي كلمة حتى بلوغه عامه الثاني أيضاً. ولكنه بات يتكلم أفضل من رئيس الولايات المتحدة عندما أصبح في الصف الثالث، فيعود إلى المنزل مع كلمات مثل *تصريف أفعال وبرلماني*. دخل مدرسة الأحداث العالية، وكنا نمارس اللعبة المتمثلة بإعطائه كلمة بسيطة جداً على أن يجد مرادفاً توضيحياً لها. فأقول هرة *منزلية*، فيقول سِنّوري *جُعل أليفاً*؛ أقول *حلاطاً*، فيقول حجرة *مستديرة مقبّبة ومؤلّلة*. وقلت ذات يوم كريسكو. فحك رأسه ولم يستطع التصديق أنني فزت حقاً باللعبة بكلمة بسيطة مثل كريسكو. وأصبحت هذه الكلمة دُعابتنا السرّية التي تعني شيئاً ما لا يمكنكم توضيحه مهما حاولتم. بدأنا ندعو والده كريسكو لأنه لا يمكنكم إيجاد شرح لرجل فرّ من عائلته. علاوةً على ذلك، إنه الأكثر تلوّثاً بالشحم والأقل احتراماً للآخرين، وأعتقد أنه لم يسبق لكم أن رأيتم شخصاً مماثلاً.

حملتُ ماو موبلي إلى المطبخ، ووضعتها في كرسيّها العالي، مفكّرةً في عملَــين روتينيَّين كان يتعيّن عليّ إنهاؤهما في ذلك اليوم لأن الآنسة لـــيفولت مصابة بنوبة مَرَضية، وهما، فرز فُوَط المائدة التي بدأت تبلى، وترتيب أواني المائدة الفضيّة في الخزانة. كان عليّ القيام بذلك في أثناء وجود السيدات كما أعتقد.

أخــرجتُ صينية البيض المشوي إلى غرفة الطعام حيث جلست الآنسة ليفولت على رأس المائدة، وإلى يسارها الآنسة هيلي هولبروك، ووالـــدة الآنسة هيلي، الآنسة والترز، التي لا تكنّ لها هيلي أي احترام. وإلى يمين الآنسة ليفولت جلست الآنسة سكيتر.

مـــرّرتُ الــصينية للآنسة والترز المُسنّة أولاً لأنها الأكبر سنّاً. كان الطقـــس دافئاً هنا في الداخل، ولكنها تضع كنـــزة صوفية بنّية سميكة على كتفَـــيها. فغـــرفت بيضة، وكانت على وشك إفلاتها لأنها تعاني من داء الفـــالج. وانـــتقلتُ مـــن ثم إلى الآنسة هيلي، فابتسمت وتناولت اثنتين. وللآنـــسة هيلي وجه مستدير وشعر بنّي داكن بلون قفير النحل، وبشرتها زيتونية اللون وعليها نَمَش وشامات. هي ترتدي الكثير من القماش الأحمر المنقش بالمربعات، وتتثاقل حركتها من الأسفل. وبما أن الطقس حار، فقد كانـــت تـــرتدي ثوباً أحمر من دون كمين أو صُدرة. إنها إحدى أولئك الـــسيدات الناضجات اللواتي لا يزلن يرتدين كفتاة صغيرة ملابس تحتوي على شرائط معقودة، وقبّعات ملائمة، وغير ذلك. لم تكن المفضَّلة لديّ.

انـــتقلتُ إلى الآنـــسة ســـكيتر، ولكنها رفعت أنفها مغضّنةً إياه وقالت: "لا، شكراً". لأنها لا تتناول البيض. كنت أُبلغ الآنسة ليفولت بالأمر كلما اجتمعت لديها عضوات نادي البريدج، ولكنها تطلب مني باســـتمرار إعـــداد البيض لهنّ على كل حال. هي تخشى تخييب أمل الآنسة هيلي.

أخيراً، مرّرتُ الصينية للآنسة ليفولت. إنها المضيفة وهي آخر من يأخذ حاجته من البيض. ولدى انتهائي من تمرير الصينية، قالت الآنسة هيلـــي: "أرغـــب في المزيد منها من فضلك". وتناولت بلهفة بيضتين أخريين من دون أن يفاجئني الأمر.

"احـــزرن بمن التقيتُ صُدفةً في صالون التجميل؟". قالت الآنسة هيلي للسيدات.

"بمن؟". سألت الآنسة ليفولت.

"ســـيليا فـــوت. وهل تعرفن ماذا سألتني؟ إذا كان في استطاعتها تقديم المساعدة إلى الحفلة الخيرية".

قالت الآنسة سكيتر: "جيد، نحن بحاجة إلى ذلك".

"وضـــعُنا المالي ليس سيّئاً إلى هذه الدرجة. لسنا بحاجة إلى ذلك. لقد قلت لها: *سيليا، عليك أن تكوني عضوة في الرابطة أو مؤيّدة دائمة لتتمكني من المشاركة*. ما هي رابطة جاكسون برأيها؟ مؤسسة مفتوحة لكل المندفعات؟".

"ألـــن نـــناقش مـــسألة غير المنتسبات هذا العام بما أن الرصيد المخصص للحفلة الخيرية أصبح كبيراً؟". سألت الآنسة سكيتر.

قالـــت الآنـــسة هيلي: "حسناً، أجل، ولكنني لم أشأ إخبارها ذلك".

"لا يمكـــنني تـــصديق أن جوني تزوّج بفتاة عديمة الذّوق مثلها". قالـــت الآنسة ليفولت، وأومأت الآنسة هيلي برأسها. وبدأت بتوزيع ورق اللعب للبدء بلعبة البريدج.

ســـكبتُ السلَطة المبردة بالملعقة، وقدّمتُ شطائر اللحم المقدَّد من دون أن أتمكـــن من تمالك نفسي عن الاستماع إلى الثرثرة. فالسيدات يـــتحدثن عـــن ثلاثـــة أمـــور فقط، عن أبنائهنّ وبناهتنّ، ملابسهنّ،

وصـــديقاهّنّ. وتبادر اسم كنيدي إلى مسمعي، وأعلم أهنّ لا يناقشن الموضـــوعات السياسية. كنّ يتحدثن عما ترتديه الآنسة جاكي عندما تظهر على التلفاز.

عـــندما قدّمتُ الطعام إلى الآنسة والترز، لم تتناول سوى نصف شطيرة.

"يـــا أمي". صاحت الآنسة هيلي في وجه الآنسة والترز. "خذي شـــطيرة أخرى. أنت هزيلة كعمود الهاتف". نظرت الآنسة هيلي إلى الجالـــسات حول الطاولة. "أقول لها باستمرار إنه إذا لم تكن ميني تلك تجيد الطهو، ليس عليها سوى القيام بطردها".

انتصبت أذناي لدى سماع ذلك. هنّ يتحدثن عن عاملة المنـــزل. ميني هي صديقتي المفضَّلة.

قالـــت الـــسيدة والترز المسنّة: "ميني تطهو جيداً، ولكنني لم أعُد أشعر بالجوع كما في السابق".

كانت ميني أفضل طاهية في مقاطعة هيندس تقريباً، وربما في أنحاء الميسيـــسيبـــي كافة. فالحفلة الخيرية التي تنظمها رابطة الراشدات تقوم بجمـــع المعونات كل خريف، وتنتظر السيدات ميني لتقوم بإعداد عشر كعكات بالكاراميل لبيعها في المزاد العلني. كان ينبغي أن تكون عاملة المنـــــزل الـــتي يتم السعي للحصول على خدماها أكثر من أي عاملة منـــــزل أخرى في الولاية. لكن المشكلة تكمن في أن الألسنة تلوكها لأهـــا تجيب بفظاظة وقلة احترام على الدوام، فتتجادل يوماً مع مدير متجـــر جيـــتني جانغل للبقالة ذي البشرة البيضاء، وفي اليوم التالي مع زوجهـــا، وتـــتجادل كل يوم مع السيدة بيضاء البشرة التي تقوم على خدمـــتها. والسبب الوحيد لاستمرارها في خدمة الآنسة والترز هو أن هذه الأخيرة صمّاء كمقبِض باب.

صاحت الآنسة هيلي: "أعتقد أنك تعانين من سوء التغذية، ذلك أن مـــيني لا تُطعمك كي تتمكن من سرقة كل تحفة متبقية متوارَثة عن الأجـــداد". وقامـــت الآنسة هيلي عن كرسيّها بغضب. "أنا ذاهبة إلى غرفة الملابس. راقبنها، فهي قد تخرّ ميتة من الجوع".

عندما ذهبت الآنسة هيلي، قالت السيدة والترز بصوت منخفض، "أراهـــن علـــى أنكـــن أحببتن ذلك". تصرّف الجميع كما لو أنهنّ لم يـــسمعن شـــيئاً. وارتأيتُ أنه من الأفضل الاتصال بميني في تلك الليلة لأخبرها بما قالته الآنسة هيلي.

في المطبخ، كانت الطفلة واقفة في كرسيّها العالي، ووجهها ملوَّث بأكمله بعصير أرجوانيّ اللون. فابتسمت لي في أثناء دخولي من دون أن تـــبدي أي اعتـــراض بسبب وجودها في ذلك المكان بمفردها، ولكنني كـــنت أكره تركها بمفردها لمدة طويلة من الزمن، لأنني أعلم أنها تقوم بالتحديق إلى ذلك الباب بهدوء تام حتى أعود.

فـــربّتُّ علـــى رأسها الأملس، وخرجتُ مجدداً لسكب الشاي المثلَّج. عادت الآنسة هيلي إلى كرسيها وهي تومئ برأسها بسبب أمر آخر.

قالـــت الآنـــسة ليفولت، معيدة ترتيب أوراق اللعب: "آه هيلي، أرجو أن تكوني قد استخدمتِ حمّام الضيوف، لا تنظف آيبيلين الحمّام الموجود في الناحية الداخلية إلا بعد الغداء".

فرفعت هيلي ذقنها، وأطلقت بعد ذلك إحدى تنحنحاتها: "أح - حـــم". هي تتنحنح برِفق شديد بحيث إنها تلفت انتباه الجميع من دون أن تدرك ذلك.

قالت الآنسة هيلي: "لكن حمّام الضيوف هو المكان الذي تقصده عاملة المنـــزل".

لم يقـــل أحـــد شيئاً لثوان قليلة. ومن ثم، أومأت السيدة والترز برأسها، وشرحت الأمر برمّته. "هيَ مستاءة لأن الزنجية تستخدم الحمّام الداخلي على غرارنا".

لا، لـــيس مجدداً. نظرن أجمعهنّ إليّ في أثناء قيامي بتوضيب دُرج الأواني الفضية في الخزانة، وأدركتُ أن وقت مغادرتي قد حان، ولكن، قـــبل أن أتمكـــن من وضع آخر ملعقة فيه، نظرت الآنسة ليفولت إليّ وقالت: "اذهبـــي وأحضري مزيداً من الشاي، يا آيبيلين".

فلبّيت طلبها، علِماً أن أكواهنّ مليئة حتى الشفة.

بقيتُ في المطبخ لمدة قصيرة من الزمن من دون أن يكون هناك أي عمل متبقٍّ أقوم به. لذلك كان عليّ التواجد في غرفة الطعام لأتمكن من إنهـــاء توضيب الأواني الفضية، وترتيب خزانة فُوَط المائدة الموجودة في الـــردهة خارج الغرفة التي يجلسن فيها. لم أكن راغبة في إطالة البقاء في المنـــزل حتى وإن كانت الآنسة ليفولت تلعب الورق.

انتظـــرتُ بضع دقائق، ومسحتُ منضدة. وأعطيتُ الطفلة مزيداً مـــن اللحم المقدَّد، فالتهمته. أخيراً، تسللت خارج الردهة، وتضرعت كيلا تراني إحداهن.

كن ثلاثتهنّ يحملن سيجارة بيد، وورق اللعب باليد الأخرى. "يا إليـــزابيت، لـــو كنتِ تملكين الخيار". سمعتُ الآنسة هيلي تقول: "ألا تفضّلين بناء الحمّام في الخارج؟".

فـــتحتُ خزانة فُوَط المائدة بهدوء تام، قلقة من أن تراني الآنسة لـــيفولت أكثر من قلقي مما يقُلنه. لم يكن هذا الحديث جديداً عليّ. ففي كل منازل المدينة حمّامات لذوي البشرة الملوَّنة. ولكنني نظرت، ورأيتُ الآنسة سكيتر تراقبني، فتسمّرتُ في مكاني ظانّة أنني سأواجه مشكلة ما.

قالت الآنسة والترز: "أعرض ورقة كُبّة".

قالت الآنسة ليفولت، محدّقةً إلى أوراقها بوجه عابس: "لا أعلم، مـــع مباشرة راليه عمله الخاص قبل أقل من ستة أشهر وحلول موسم الضرائب... نجد أنفسنا في وضع حرِج الآن".

تـــتكلم الآنسة هيلي ببطء على غرار مدّ الناطف على الكعكة. "ليس عليك سوى إخبار راليه أنه سيستعيد كل سنت ينفقه على ذلك الحمّام عندما تبيعون هذا المنـــزل". أومأت برأسها كما لو أنها وافقت على ما قالته. "يبنون كل هذه المنازل من دون أن تكون هناك مساكن للخادمـــات؟ إنه أمر خطِر تماماً. الكل يعلمون أنهنّ ينقلن أنواعاً مختلفة من الأمراض أكثر مما ننقل. أضاعف الرهان".

فالـــتقطتُ كدسة من فُوَط المائدة بهدوء تام، وأردتُ أن أسمع ما ســـتقوله الآنسة ليفولت عن هذا الأمر. إنها من يستخدمني، وأعتقد أن كل شخص يتساءل عن رأي رئيسه به.

"سيكون من الجيد ألا تستخدم الحمّام الذي في المنـــزل". قالت الآنسة ليفولت، مدخّنةً سيجارتها ونافثةً الدخان. "أعرض ثلاث أوراق بستوني".

"لهـــذا الـــسبب بالـــتحديد قمت بتصميم *مبادرة تعزيز الصحة المنـــزلية*". قالت الآنسة هيلي: "كتدبير للوقاية من الأمراض".

فتفاجأتُ بمدى تصلّب حَلقي، وانتابني شعور بالعار، تعلّمت أن أكبته مدة طويلة من الزمن. بدت الآنسة سكيتر مُربَكة حقاً. "مبادرة... ماذا؟".

"مشروع قانون يقضي أن يكون في كل منـــزل يقطنه ذوو بشرة بيضاء حمّام منفصل لعاملة المنـــزل ذات البشرة الملوَّنة. حتى إنني أبلغت كبير الأطباء في الميسيسيبـــي بالأمر للتحقق مما إذا كان يؤيّد الفكرة. أتخلى عن دَوري في اللعب".

نظـــرت الآنسة سكيتر إلى الآنسة هيلي مقطَّبَة الجبين. ووضعت أوراقها على الطاولة ووجهها إلى الأعلى، وقالت: "ربما يتعيّن علينا أن نبني لك فقط حمّاماً خارجياً، يا هيلي".

ساد الهدوء تلك الغرفة.

فقالـــت الآنسة هيلي: "لا أظنّ أنه يجدر بك المُزاح في شأن وضع ذوي البـــشرة الملوَّنة، هذا إذا أردتِ أن تبقي محرّرة الرابطة، يا سكيتر فيلان".

أطلقت الآنسة سكيتر ما يشبه الضحكة، ولكن يمكنني الجزم أنها لم تعتبر الأمر مُضحكاً. "ماذا، ستطرديني لأنني لا أوافقك الرأي؟".

رفعت الآنسة هيلي أحد حاجبَيها. "سأقوم بما يجب عليّ القيام به لحماية مدينتنا. العبـــي الورقة الأولى، يا أمي".

دخلتُ المطبخ، ولم أخرج منه مجدداً حتى سمعت الباب يُغلَق وراء الآنسة هيلي.

* * *

عـــندما تأكـــدتُ من مغادرة الآنسة هيلي، وضعتُ ماو موبلي في حظيرة اللعب(*)، وسحبت وعاء القمامة إلى الشارع لأن الشاحنة تمرّ في ذلـــك اليوم. وفي نهاية الطريق الخاصة بالمنـــزل، نظرت الآنسة هيلي ووالـــدتها المخبولة إليّ وهما في سيارتهما، وصاحتا معبّرتين عن أسفهما الـــشديد. فدخلتُ المنـــزل وقد غمرتني السعادة لأن قدمَيّ لم تتعرضا للكسر.

لـــدى دخولي المطبخ، كانت الآنسة سكيتر في الداخل، منحنيةً على المِنضدة، وعلى وجهها نظرة جدّية، أكثر جدّيةً من المعتاد. "مرحباً يا آنسة سكيتر. هل أُحضر لك شيئاً؟".

(*) حظيرة اللعب Playpen قفص نقّال يلعب الطفل ضمنه بأمان.

ألقت نظرة إلى الطريق الخاصة بالمنزل حيث كانت الآنسة ليفولت تتحدث إلى الآنسة هيلي عبر نافذة سيارتها. "لا، أنا... أنتظر فحسب".

جففتُ صينية بمنشفة. وعندما اختلستُ نظرةً إليها، وجدتُ أن عينيها لا تزالان متّجهتين نحو تلك النافذة. هي لا تبدو كالسيدات الأخريات، ناهيك عن كونها طويلة القامة. فعظمتا خدّيها عاليتان حقاً، وعيناها زرقاوان ومُطبقتان جزئياً مما يُضفي عليها طابع الحياء. كان الجوّ ساكناً باستثناء ما يبثّه الراديو الموجود على المنضدة. لقد تمنّيت أن تخرج من هنا.

"هي عِظة المبشّر غرين التي يبثّها الراديو؟". سألت.

"أجل، يا سيدتي".

ابتسمت الآنسة سكيتر. "يذكّرني ذلك كثيراً بتربية خادمتي لي".

"آه، أعرف كونستنتين". قلت.

حوّلت الآنسة سكيتر نظرها من النافذة إليّ. "لقد أشرفت على تربيتي، هل تعرفين ذلك؟".

أومأتُ برأسي، متمنّيةً لو أنني لم أقل شيئاً. أعرف الكثير عن تلك الحالة.

"لقد حاولتُ كثيراً الحصول على عنوان عائلتها في شيكاغو". قالت: "ولكن أحداً لم يزوّدني بأي معلومات".

"لا أملك عنوانها أيضاً، يا سيدتي".

حوّلت الآنسة سكيتر نظرها نحو النافذة مجدّداً باتجاه سيارة الآنسة هيلي من طراز بويك، وهزّت رأسها قليلاً. "يا آيبيلين، ذاك الحديث الدائر هناك... حديث هيلي، أعني...".

التقطتُ كوب قهوة، وبدأت بتنشيفه جيداً بقطعة قماش.

"هل تتمنّين أن تتمكني يوماً... من تغيير الأمور؟". سألت.

فلم أتمالك نفسي، نظرت إليها متسائلة لأنه من أكثر الأسئلة غرابة التي سمعتها يوماً. وبدت على وجهها نظرة مُربَكة كما لو أنها أضافت الملح لا السكّر إلى قهوتها.

فاستدرت نحو غسيلي كيلا تراني أقلّب عينيّ. "آه، لا يا سيدتي، كل شيء بخير".

"ولكن ذلك الحديث هناك عن *الحمّام*...". مشدّدةً على تلك الكلمة، ودخلت الآنسة ليفولت المطبخ.

"آه، أنت هنا". ورمقتنا بنظرة غريبة. "آسفة، هل... قاطعتُ شيئاً؟". ووقفت كلتانا هناك متسائلتين عما يمكن أن تكون قد سمعته.

"عليّ الإسراع". قالت الآنسة سكيتر. "أراك غداً، يا إليزابيت". وفتحت الباب الخلفي وقالت: "شكراً يا آيبيلين على الغداء". وغادرت.

فذهبتُ إلى غرفة الطعام، وشرعتُ بتنظيف طاولة البريدج. وكما توقّعتُ، تبعتني الآنسة ليفولت وعلى وجهها ابتسامتها القلقة، وعُنقها ناتئ كما لو أنها تستعدّ لطرح سؤال عليّ. هي لا تحب أن أتحدث إلى صديقاتها عندما لا تكون موجودة، ولم تحب ذلك أبداً. هي تريد أن تعرف على الدوام ما نتحدث عنه. فمررتُ بجانبها ودخلتُ المطبخ، ووضعتُ الطفلة في كرسيّها العالي، وشرعت بتنظيف جهاز الطهو.

تبعتني الآنسة ليفولت إلى هناك، وتفحصت عَمداً وعاء كريسكو، ووضعته مجدّداً مكانه. فتحت الطفلة ذراعَيها كي تقوم والدتها بحملها، ولكن الآنسة ليفولت فتحت إحدى الخزائن مدّعيةً أنها لا ترى شيئاً، وأغلقتها بعد ذلك بقوة، وفتحت خزانة أخرى. أخيراً، وقفت هناك

فحسب. أما أنا فركعت متكئةً بيدَيّ على الأرض، وأدخلت رأسي في جهاز الطهو ذلك كما لو أنني أحاول خنق نفسي بالغاز.

"أنـــتِ والآنـــسة سكيتر بدوتما كما لو أنكما تتحدثان عن أمر جدّي للغاية".

"لا يـــا ســـيدتي، كانت تسألني فقط عما إذا كنت أريد بعض الملابـــس القديمة". قلت، وبدا الأمر كما لو أنني في حفرة بئر. وبدأت ذراعاي تتلطخان بالشحم، والرائحة في الداخل أشبه برائحة الإبط. لم يمـــرّ وقت طويل حتى بدأ العَرَق يسيل من أنفي، وكلما حاولت فركه تـــركتُ بقعة شحمٍ على وجهي. إن أسوأ مكان في العالم، هو داخل جهاز الطهو، حيث تقومون بالتنظيف أم يتمّ طهوكم. لقد عرفتُ الليلة معنى الحلم الذي كنت أرى نفسي فيه عالقةً داخل جهاز الطهو أُشعل فـــيه الغـــاز. لكـــنني أبقيت رأسي في ذلك المكان الشنيع لأنني أفضّل الـــتواجد في أي مكان على الإجابة عن أسئلة الآنسة ليفولت حول ما كانـــت الآنسة سكيتر تحاول قوله لي: تسألني عما إذا كنت أريد تغيير الأمور.

بعد قليل، غضبت الآنسة ليفولت، وخرجت إلى موقف السيارة. فتخـــيّلتُ أنها تبحث عن المكان الذي ستبني فيه حمّامي الجديد الخاص بذوي البشرة الملوَّنة.

الفصل الثاني

لن تكتشفوا أبداً أن منطقة جاكسون، ميسيسيبـــي، تحتوي على مـــئتي ألف شخص حتى وإن كنتم تقيمون فيها. كنت أرى مجموعات مـــنهم في الـــصحيفة، وأتساءل عن الأماكن التي يعيشون فيها، تحت الأرض؟! ذلـــك أنني أعرف كل من يقيم في هذا الجانب من الجسر، حيث توجد العديد من العائلات من ذوي البشرة البيضاء أيضاً، ولكن عدد كل هؤلاء لا يرقى إلى مئتي ألف شخص.

أَستقل الحافلة ستة أيام في الأسبوع عابرةً جسر وودرو ويلسون، لأبلـــغ المكان الذي تقيم فيه الآنسة ليفولت، وكل صديقاتها بيضاوات البـــشرة في حـــيّ يدعى بيلهافن. ويقع وسط المدينة، وعاصمة الولاية بجانـــب بـــيلهافن تمامـــاً. وهناك مبنى الكابيتول الضخم والجميل من الخـــارج، ولكن لم يسبق لي أن دخلته. لقد تساءلت عن الأجر الذي يدفعونه لقاء تنظيف ذلك المكان.

بعـــد عـــبور بيلهافن، تطالعنا هضاب وودلاند، وغابة شيروود القائمـــة على امتداد أميال من أشجار السنديان زاهية اللون التي نبت الطُحلُـــب على أقدامها. لم يكن أحد يعيش هناك بعد، ولكنه المكان الـــذي سيقيم فيه ذوو البشرة البيضاء عندما يقررون الانتقال إلى مكان

آخـــر. نصل بعد ذلك إلى الريف حيث تعيش الآنسة سكيتر في مزرعة القطـــن طويل الدالة. هي لا تعرف أنني عملت في قطف القطن هناك عـــام 1931، في أثناء فترة الركود الاقتصادي، عندما لم يكن لدينا ما نأكله باستثناء الجُبن الذي تقدّمه الولاية.

منطقة جاكسون هي مجموعة من أحياء متجاورة يقطنها ذوو البشرة البيـــضاء، ولكـــن الجزء المخصص لذوي البشرة الملوَّنة في المدينة هو أشبه بكَثـــيب كبير للنمل، وهو مُحاط بأرض حكومية ليست للبيع. وبازدياد أعدادنا، لا يمكننا التوسع، وتزداد الكثافة السكانية في الجزء المخصص لنا.

لقد استقللت بعد ظهر ذلك اليوم الحافلة رقم ستة، التي تنطلق من بـــيلهافن وصـــولاً إلى شارع فاريش ستريت. ولم تكن الحافلة تحتوي ســـوى علـــى خادمات متجهات إلى العمل بلباسهنّ الرسمي الأبيض، فتبادلنا أطراف الحديث، وابتسمنا لبعضنا بعضاً، وجلسنا حيثما شئنا لا لأننا مطمئنات على عدم وجود ذوي بشرة بيضاء بيننا، بل لأن شعوراً بالودّ كان يتملكنا.

رأيت ميني جالسة على المقعد الخلفي الأوسط. كانت قصيرة القامة، بديـــنة، ولـــديها خصلات شعر سوداء برّاقة، وتجلس وساقاها ممدودتان، وذراعاها السمينتان متشابكتان على نحو متصالب. إنها أصغر مني بعشرين عاماً، وفي استطاعتها ربما رفع هذه الحافلة فوق رأسها إذا أرادت ذلك. فواحدة متقدّمة بالسنّ مثلي محظوظة أن تتخذها ميني صديقة لها.

جلست على المقعد أمامها، واستدرت وأصغيت. فالجميع يحبون الاستماع إلى ميني.

"... لـــذلك قلت، يا آنسة والترز، لا يريد العالم رؤية مؤخرتك البيـــضاء بقـــدر ما يرفضون رؤية مؤخرتي السوداء. الآن، ادخلي هذا المنـــزل، وارتدي سروالك الداخلي وبعض الملابس".

"في المــدخل الخارجــي الأمامــي؟! عارية؟!". سألت كيكي براون.

"ومؤخرتها متدلّية حتى ركبتيها".

بدأت راكبات الحافلة بالضحك وهزّ رؤوسهنّ.

قالت كيكي: "يا الله، هذه المرأة مخبولة، لا أدري كيف تحصلين باستمرار على المخبولات، يا ميني".

قالت ميني لكيكي: "آه، وكأن الآنسة باترسون غير مخبولة؟ هي تدعو الشعر الملفوف للآنسة المخبولة ورقة سباتي". ضحك كل ركاب الحافلــة لأن مــيني لا تحب أن يقوم أحد بالسخرية من سيدتها ذات البشرة البيضاء باستثنائها. هذه وظيفتها ويحق لها ذلك.

عبرت الحافلة الجسر، وتوقفت للمرة الأولى في حيّ ذوي البشرة الملــوَّنة. نــزلت عشر خادمات، وجلستُ على المقعد الطويل بجانب مــيني. فابتــسمت ورحّبت بــي من خلال تسديد لطمة لي بمرفقها. وساد جوّ من الاسترخاء بعد ذلك على المقعد لأنه لم يكن عليها تعميق معرفتها بــي.

"كيف حالك؟ كان عليك كيّ الطيات هذا الصباح؟".

فضحكتُ وأومأتُ برأسي. "تطلّبني الأمر ساعة ونصف".

"مــاذا أطعمــتِ الآنسة والترز اليوم في اجتماع عضوات نادي الــبريدج؟ لقــد عملــتُ طيلة الصباح لإعداد تلك الكعكة الساذجة بالكاراميل، ولكنها لم تتناول أي كسرة منها".

لقــد جعلني هذا الأمر أتذكَّر ما قالته الآنسة هيلي على الطاولة الــيوم من دون أن تبدي أي من السيدات بيضاوات البشرة الأخريات أي اهــتمام، ولكنــنا أردنا كلنا أن نعرف ما إذا كانت الآنسة هيلي تسعى إلى إيذائنا. لم أعرف كيف أشرح الأمر لميني.

نظـــرتُ عـــبر النافذة في أثناء مرورنا أمام مستشفى ذوي البشرة الملـــوَّنة ومنصة الفاكهة. "أعتقد أنني سمعت الآنسة هيلي تقول شيئاً ما عـــن ذلك، عن غدوّ والدها نحيلة". قلت ذلك بأكبر قدر من الحِرص. "قالت إنها ربما تعاني من سوء في التغذية".

فنظرت ميمي إليّ. "لقد قالت ذلك، هل قالت ذلك؟". وقد أدى مجـــرّد ذِكـــر الاســـم إلى اتساع عينيها. "ما الذي قالته الآنسة هيلي أيضاً؟".

فارتأيتُ أنه من الأفضل إخبار ميني بما أشعر. "أعتقد أنها تتربّص بك شراً، يا ميني. كوني شديدة الحذر معها... فحسب".

"يجـــب على الآنسة هيلي أن تكون شديدة الحذر معي. ما الذي تقـــوله، لا أُجيد الطهو؟ تقول إن كيس العظام المسنّة تلك لا تأكل لأنني لا أُجيد إعداد الطعام؟". ووقفت ميني، ورمت بحقيبة يدها تحت ذراعها.

"آسفة، يا ميني، لم أخبرك بذلك إلا لتأمني جانبها...".

"تقـــول لي ذلك على الدوام، كما تقول إنها ستحصل على قطعة من ميني لوجبة الغداء". نـــزلت درج الحافلة بغضب.

فراقبتها عبر النافذة تتجه بخُطى غاضبة نحو منـــزلها. الآنسة هيلي ليـــست شخـــصاً يمكن العبث معه. ربما كان يُفترض بـــي الاحتفاظ بالمعلومة لنفسي.

* * *

بعـــد أيـــام قليلة، نـــزلتُ من الحافلة، ودخلت المجمّع السكني، قاصدةً منـــزل الآنسة ليفولت. كانت هناك شاحنة قديمة لنقل الأثاث المُهمَـــل مـــتوقفة أمام المنـــزل، وفي داخلها رجلان ذوا بشرة ملوَّنة، أحدهما يرتشف كوب قهوة، والآخر نائم وهو جالس بشكل مستقيم. دخلت المطبخ.

كان السيد راليه ليفولت لا يزال في المنـــزل ذلك الصباح، وهو أمـــر نادر الحدوث. وعندما يكون هناك، يبدو كما لو أنه ينتظر مرور الوقت بفارغ الصبر، ليقصد عمله المتمثل بمسك الدفاتر والمحاسبة. هو يعمل يوم السبت أيضاً، ولكنّ هناك أمراً مختلفاً هذه المرة.

"هـــذا منـــــزلي وأدفع لقاء كل لعنة تحدث فيه!". صاح السيد ليفولت.

حاولت الآنسة ليفولت التخفيف من حدة غضبه بتلك الابتسامة التي تعني أنها غير سعيدة. فاختبأتُ داخل غرفة الغسيل. لقد مرّ يومان علـــى سماعـــي أحاديث تجري داخل الحمّام، وكنت آمل في أن ينتهي ذلـــك. وفـــتح السيد ليفولت الباب الخلفي للنظر إلى الشاحنة المتوقفة هناك، وأعاد غلقه بقوة.

"لقد صبرتُ على الملابس الجديدة، وكل الرحلات اللعينة إلى نيو أورليانـــــز مـــع صديقاتك في النادي، ولكن هذا الأمر يتطلب مبلغاً طائلاً".

"لكـــنه يزيد من قيمة المنـــزل. لقد قالت هيلي ذلك!". كنت لا أزال في غرفة الغسيل، وأكاد لا أسمع الآنسة ليفولت وهي تحاول إبقاء تلك الابتسامة على وجهها.

"لا يمكنـــنا تحمّل تكلفة الأمر! كما أننا لا نأتمر بأوامر الزوجين هولبروك!".

ســـاد هدوء تام لدقيقة من الزمن، وسمعت بعد ذلك خُطى خُفَّي نوم.

"أبـــي؟".

خـــرجتُ من غرفة الغسيل، ودخلت المطبخ لأن ماو موبلي هي من ضمن عملي.

رأيت السيد ليفولت راكعاً أمامها، وعلى وجهه ابتسامة كما لو أنها مصنوعة من المطاط. "احزري يا حبيبتي؟".

فابتسمت، منتظرةً مفاجأة سارّة.

"لن ترتادي الكلّية لأن صديقات والدتك لا يدخلن الحمّام نفسه الذي تدخله عاملة المنـــزل".

فـتوجه إلى الـباب بخطى غاضبة، وأغلقه بقوة لدرجة أنه جعل الطفلة تطرف عينيها.

نظـــرت الآنـــسة ليفولت إليها، وبدأت بتحريك إصبعها. "ماو موبلي، تعرفين أنه لا يُفترض بك الخروج من سريرك!".

كانـــت الطفلـــة تنظر إلى الباب الذي أغلقه والدها بقوة، وإلى والدتها العابسة. لقد بدت طفلتي كما لو أنها تبذل جهداً كيلا تبكي.

مررت بجانب الآنسة ليفولت بسرعة، وحملت الطفلة. وهمستُ: "لـــنذهب إلى غـــرفة الجلوس ونلعب بالدُّمية الناطقة. ماذا يقول ذلك الحمار؟".

"هـــي تستمر بالنهوض. لقد أعدتُها إلى السرير ثلاث مرات هذا الصباح".

"لأن هناك من يحتاج إلى تبديل ملابسه. وووويبي".

قالت الآنسة ليفولت: "حسناً، لم أُدرك ذلك...". ولكنها كانت تحدّق عبر النافذة إلى شاحنة نقل الأثاث المُهمَل.

ذهـــبتُ إلى الناحـــية الداخلية من المنـــزل شاعرةً بغضب شديد لدرجة أن خطواتي أحدثت ضجيجاً. لقد بقيت الطفلة في ذلك السرير مـــنذ الثامـــنة مـــن مساء اليوم السابق، إنها بحاجة إلى تبديل ملابسها بالتأكيد! لقد حاولت الآنسة ليفولت الاعتصام لمدة اثنتي عشرة ساعة بسبب الحمّام، فبقِيَت جالسة و لم تقم بأي عمل!

وضعتُ الطفلة على طاولة تبديل الملابس، محاولةً كبت غضبـــي.
كانت الطفلة تحدّق إليّ في أثناء قيامي بنـــزع حفاضها. ومن ثم مدّت يدها الصغيرة ولمست فمي برِفق شديد.

قالت: "ماو مو سيّئة".

"لا، يــا طفلـــتي، أنت لست سيّئة". قلت، وملّستُ شعرها إلى الوراء. "أنت صالحة. صالحة جداً".

* * *

كـــنت أُقيم في جادة جيسوم حيث استأجرت منـــزلاً منذ العام 1942. في استطاعتكم القول إن لجيسوم شخصية مميزة. فالمنازل صغيرة ولكـــن كـــل فناءٍ أماميّ مختلف عن الآخر، بعضها مقيت الشكل ولا عـــشب فيه كرجلٍ عجوز أصلع، وتحتوي أخرى على شُجيرات دائمة الخضرة وورود وعشب أخضر غضّ. أظن أن فنائي ينتمي إلى فئة تجمع بين مواصفات تلك الفئتين.

كان لديّ عدد قليل من شُجيرات الكاميليا أمام المنـــزل، وينبت العشب في أماكن معيَّنة، ولا يزال يحمل آثار شاحنة تريلور الصغيرة التي بقـــيت مكانها طوال ثلاثة أشهر بعد الحادث. لا أشجار لديّ، ولكن الفناء الخلفي يبدو رائعاً. فهناك تزرع جارتي، آيدا بيك، خضارها.

لم يكن لدى آيدا فناء خلفيّ يمكنها الاعتماد عليه بسبب امتلائه بأغـــراض تافهة تخص زوجها؛ محركات سيارات، وبرّادات، وإطارات قديمـــة. هـــي أغراض يقول إنه سيُصلحها، ولكنه لا يقوم بذلك أبداً. لـــذلك، طلـــبتُ من آيدا أن تزرع في فنائي الخلفي. بهذه الطريقة، لا يكون عليّ جزّ العشب، كما تسمح لي بقطف ما أحتاج إليه، وادّخار دولاريـــن أو ثلاثة دولارات كل أسبوع. وتقوم بتوضيب ما لا نأكله في أكـــياس وأوانٍ، وتعطـــيني قسماً منه لفصل الشتاء، كاللفت الجيد،

الباذنجان، البامية، وأنواع القَرع واليقطين كافة. لا أعرف كيف تُبقي شـــتلات الطماطم بمنأى عن الحشرات، ولكنها تنجح في ذلك، وهي تُنتج حبات جيدة.

في ذلك المساء، كانت تمطر بشدة في الخارج. فأخرجتُ مرطباناً يحـــتوي علـــى ملفوف وطماطم، وتناولت آخر قطعة متبقّية من خبز الـــذُّرة. وجلـــست بعـــد ذلك لمراجعة مواردي المالية بسبب حدوث أمـــرين؛ ارتفاع تكلفة الانتقال بالحافلة إلى خمسة عشر سنتاً، وارتفاع إيجـــاري إلى ستين دولاراً في الشهر. كنت أعمل لدى الآنسة ليفولت ثمـــاني ســـاعات في اليوم، وستة أيام في الأسبوع باستثناء أيام السبت. وأتلقى كل يوم جمعة ثلاثة وأربعين دولاراً أي ما يعادل 172 دولاراً في الـــشهر. فهـــذا يعني أنه يتبقى لديّ سبعة دولارات وخمسون سنتاً في الأسبوع لبِقالتي وملابسي وتصفيف شعري ودفع ما هو متوجب عليّ لدار العبادة، ناهيكم عن تكلفة إرسال هذه الفواتير عبر البريد والبالغة ســـنتاً واحـــداً. وحذاء العمل رقيق جداً لدرجة أنه يبدو متضوّراً من الجـــوع، ويـــبلغ ثمـــن حذاء جديد سبعين دولاراً مما يعني أنني سآكل الملفوف والطماطم حتى أتحول إلى أرنب. أشكر الله على آيدا بيك وإلا لما توافر لي أي طعام.

رنّ هاتفي مما جعلني أجفل. وقبل أن أتمكن من قول *آلو*، سمعت صوت ميني. كانت تعمل حتى وقت متأخر في ذلك المساء.

"الآنسة هيلي تصطحب الآنسة والترز إلى منـــزل السيدة المسنّة. عليّ إيجاد عمل جديد. وهل تعلمين متى سأرحل؟ *الأسبوع القادم*".

"آه لا، يا ميني".

"أنا أبحث عن عمل، واتصلت بعشر سيدات اليوم. لم يُبدين أي اهتمام بالأمر".

آسـفة للقـول إنـني لم أتفاجأ. "أول ما سأقوم به يوم غد هو سـؤال الآنـسة لـيفولت عما إذا كانت تعرف من يحتاج إلى عاملة منـزل".

"انتظـري قليلاً". قالت ميني. وسمعتُ الآنسة والترز المسنّة تتكلم وتجيبها ميني: "ماذا تظنينني؟ سائقة سيارة؟ لن أوصلك إلى أي نادٍ ريفي تحت المطر المنهمر".

إن أسوأ ما قد تواجهينه في مهنتك كعاملة منـزل هو أن يكون لـديك لسان لاذع. ومع ذلك، فهي طاهية ممتازة مما يعوّض عن حدّة طبعها.

"لا تقلقي، يا ميني. سنجد لك شخصاً أصمّ كمِقبض باب، على غرار الآنسة والترز".

"تُلمح إليّ الآنسة هيلي بالذهاب للعمل لديها".

"مـاذا؟". قلـت بأكبر قدر من الصرامة. "اسمعيني، يا ميني، أنا مـستعدة للإنفـاق عليك ولكن لن أدعك تعملين لصالح تلك السيدة الشريرة".

"إلى مـن توجهين كلامك، يا آيبيلين؟ إلى حمار؟ يمكنني الذهاب أيضاً للعمل للكيه كيه. وتعلمين، لم أصرف النظر أبداً عن عرض العمل لدى يول ماي".

"آسـفة، يا عزيزتي". إنني أشعر بغضب شديد عندما يتعلق الأمر بالآنـسة هيلي. "سأتصل بالآنسة كارولاين في هانيساكل، وأرى إن كانـت تعـرف شخصاً ما. وسأتصل بالآنسة روث، إنها لطيفة جداً لدرجـة أنها تفطر لك قلبك. كنت أنظّف لها منـزلها كل صباح، ولم يكـن علـيّ بعـد ذلك سوى مرافقتها. توفّي زوجها بسبب الحُمّى القرمزية، مم - همم".

"شـــكراً لك، يا آي. الآن، هيا يا آنسة والترز، تناولي حبة لوبياء صغيرة من أجلي". وودّعتني ميني وأنهت الاتصال.

في صباح اليوم التالي، وصلت أيضاً تلك الشاحنة القديمة الخضراء لـــنقل الأثـــاث المُهمَل. وبدأ يُسمَع صوت ضجيج مدوٍّ، ولكن السيد ليفولت لم يكن يسير في الأرجاء بخطى غاضبة. أظن أنه أدرك خسارته لهذه الجولة أيضاً حتى قبل أن تبدأ.

كانـــت الآنـــسة ليفولت جالسة إلى طاولة المطبخ ببُرنس الحمام الأزرق تتحدث عبر الهاتف، وكان وجه الطفلة أحمر ودبقاً، وتتمسّك بركبتي والدها، وتحاول لفت نظرها.

قلت: "صباح الخير، يا طفلتي".

قالت: "ماما! ماما!". وحاولت الزحف إلى حِضن الآنسة ليفولت.

"لا، يـــا مـــاو موبلي". دفعتها الآنسة ليفولت برِفق إلى الأسفل. "الماما تتحدث عبر الهاتف. دعي الماما تتحدث".

"ماما، احمليني". بكت ماو موبلي متذمّرةً، ومدّت يديها لوالدها. "احملي ماو مو".

قالت الآنسة ليفولت هامسةً: "هُش".

حملتُ الطفلة بسرعة، واصطحبتها إلى المغسلة، ولكنها استمرت بالالـــتفات مـــن حولها، مادّةً عُنُقها وهي تقول باكيةً: "ماما، ماما". محاولةً لفت انتباهها.

"تمامـــاً كمـــا طلبتِ مني أن أقول". قالت الآنسة ليفولت على الهاتف، مومئةً برأسها. "عندما ننتقل يوماً ما، ترتفع قيمة المنـــزل".

"هيا، يا طفلتي. ضعي يدَيك هنا تحت الماء".

لكـــن الطفلة كانت تتلوّى بشدة، وحاولتُ وضع الصابونة على أصابعها. ولكنها التفّت حول نفسها كثعبان، وأفلتت من بين ذراعَيّ،

وركضت نحو والدها مباشرةً، وقرصتها بذَقنها، وهزّت سلك الهاتف بكل قوها. فأفلتت سمّاعة الهاتف من يد الآنسة ليفولت ووقعت أرضاً.

قلت: "ماو موبلي!".

أسرعتُ للإمساك بها، ولكن الآنسة ليفولت أمسكت بها أولاً، فتجعّدت شفتاها من شدة الغضب كاشفةً عن أسنانها كما لو أنها تطلق ابتسامة مُخيفة. وضربت الآنسة ليفولت الطفلة على الجهة الخلفية من ساقيها العاريتين بشدة لدرجة أنها قفزت من شدة الألم.

بعد ذلك، أمسكت الآنسة ليفولت ماو موبلي من ذراعها وهزّها بقوة. "لا تلمسي هذا الهاتف مجدداً، يا ماو موبلي!". قالت. "يا آيبيلين، كم مرة يجب عليّ أن أطلب منك إبقاءها بعيدة عني عندما أتحدث عبر الهاتف!".

قلت: "آسفة". وحملتُ ماو موبلي، وحاولتُ ضمّها إلى صدري، ولكنها كانت تصيح محمرّة الوجه محاولِةً الإفلات مني.

"هيا، يا طفلتي، لا بأس، كل شيء...".

فرمقتني ماو موبلي بنظرات عدائية، وانحنت إلى الوراء ووجّهت إليّ ضربة عنيفة على الأُذن.

أشارت الآنسة ليفولت إلى الباب وصاحت: "يا آيبيلين، اخرجا".

فحملتُها إلى المطبخ. كنت شديدة الغضب من الآنسة ليفولت لدرجة أنني عضضت لساني. لو تقوم هذه المخبولة بمنح طفلتها بعض الاهتمام لما حدث ذلك! وعندما نجحت في بلوغ غرفة ماو موبلي، وضعتها في الكرسي الهزاز. وانتحبت على كتفي، ففركتُ ظهرها، وكلّي سعادة أنها لا تستطيع رؤية الغضب على وجهي. لم أكن أرغب في أن تظن أنني غاضبة منها.

قلـــت هامـــسة: "هل أنت بخير، يا طفلتي؟". كانت أذني تؤلمني بسبب الضربة التي وجّهتها إليّ بقبضة يدها، وأشعر بسعادة كبيرة لأنها ضـــربتني بدلاً من ضرب والدها لأنني لا أعلم ما الذي كانت ستفعله بها. نظرتُ إلى الأسفل، فرأيت آثار أصابع حمراء على الجهة الخلفية من ساقيها.

"أنـــا هنا، يا طفلتي، آيبيلين هنا". وهدهدتها، وهدّأت من رَوعها مراراً وتكراراً.

لكن الطفلة استمرت في البكاء.

قرابة فترة الغداء، وعندما حان موعد برنامجي المفضَّل على التلفاز، ســـاد الهدوء في موقف السيارة. كانت ماو موبلي جالسة في حضني، وتـــساعدني علـــى إزالـــة خيوط اللوبياء. كانت لا تزال متوترة منذ الـــصباح، وأظن أنني كنت متوترة كذلك، ولكنني تمكنت من تخفيض حدة هذا التوتر.

دخلنا المطبخ، وأعددتُ لها شطيرتها الصغيرة. وفي الطريق الخاصة بالمنـــــزل، كـــان العمال جالسين في شاحنتهم يتناولون طعام الغداء. كـــنت سعيدة بالسلام الذي ننعم به. فابتسمت للطفلة، وأعطيتها حبة فـــراولة، وشعرتُ بالامتنان بسبب وجودي هناك في أثناء المشكلة التي حدثت مع والدها. كنت أكره التفكير في ما كان يمكن أن يحدث لو لم أكن موجودة. وأقحمَت حبة الفراولة في فمها، فابتسمت لي.

لم تكن الآنسة ليفولت موجودة، لذلك ارتأيتُ الاتصال بميني في منـــزل الآنسة والترز للتحقق مما إذا كانت قد عثرت على عمل أم لا. ولكـــن، قبل أن أقوم بالأمر، قُرع الباب الخلفي. ففتحته ورأيت أحد العمال واقفاً هناك. كان مُسنّاً جداً، ويرتدي ثوب العمل فوق قميص ذات ياقة بيضاء.

"مــرحباً يــا سيدتي. هل لي ببعض الماء من فضلك؟". سأل. لم أعرفه. لا بد من أنه يقيم في مكان ما جنوب المدينة.

قلت: "انتظر قليلاً".

ذهبت لإحضار كوب ورقي من الخزانة، التي لا تزال تتدلى منها بالونات الذكرى الثانية لميلاد ماو موبلي. كنت أعلم أن الآنسة ليفولت لا تريدني أن أقدّم إليه الماء في أحد الأكواب الزجاجية.

فــشرب الماء بجرعة واحدة، وأعاد إليّ الكوب. كان يبدو على وجهه التعب الشديد، وفي عينيه شعور بالوحدة.

سألته: "كيف تسير الأمور؟".

قال: "إنه العمل، لم نصل إلى أنبوب الماء بعد. أظن أننا سنُخرج أنبوباً من الطريق".

سألته: "هل يريد أحد زملائك شرب الماء؟".

"هــذا لطــف شديد من قِبَلك". وأومأ برأسه، وذهبت لأحضر لصديقه كوباً صغيراً أيضاً ذات مظهر غريب ملأته من حنفيّة المغسلة.

لكنه لم يحمله لصديقه على الفور.

قــال: "اعــذريني، ولكن أين...". ووقف هناك لنحو دقيقة من الزمن، ونظر إلى قدميه. "أين يمكنني الذهاب لقضاء حاجتي؟".

ورفــع نظــره، ونظرت إليه، واستمررنا بالنظر إلى بعضنا بعضاً الــوقت. إنه أمر غريب، ولكنه ليس شديد الغرابة بل يدعو للتساؤل. يــوجد في المنــــزل حمّامان ويتم بناء حمّام آخر، ومع ذلك لا يوجد مكان لهذا الرجل لقضاء حاجته.

"حسناً...". لم يسبق لي أن وُضعتُ في هذا الموقف من قَبل. ربما كــان في اســتطاعة روبــرت الأصغر سناً، والذي ينظف الفناء كل أســبوعين دخول الحمّام بسرعة من دون أن يلاحظه أحد، ولكن هذا

الـــرجل عجوز. فيداه متجعّدتان، وقد أحدث سبعون عاماً من القلق خطوطاً عديدة في وجهه كخارطة.

سمعـــتُ نفسي أقول: "أظن أن عليك الذهاب إلى الأجمة خلف المنـــزل". ولكنني تمنيت لو لم أكن من قال ذلك. "هناك كلب، ولكنه لن يزعجك".

قال: "حسناً إذاً، شكراً لك".

شاهدته يعود ببطء حاملاً كوب زميله.

استمر الحفر والضجيج طيلة بعد الظهر.

لقـــد قضوا اليوم التالي بالحَفر في الفناء الأمامي. و لم أطرح على الآنـــسة ليفولت أي سؤال عن الأمر، كما أنها لم تقدّم لي أي شرح. كانت تحدّق لساعات عبر الباب الخلفي إلى الخارج، لمراقبة ما يجري.

عند الثالثة، توقف الصخَب، وركب الرجال شاحنتهم، وغادروا. فأطلقت الآنسة ليفولت تنهيدة كبيرة بينما كانت تشاهدهم يبتعدون. ركـــبت بعد ذلك سيارتها، وذهبت للقيام ببعض الأمور لا سيّما وأن أولئك الأشخاص، ذوي البشرة الملوَّنة الذين يثيرون أعصابها، لم يعودوا بالقرب من منـــزلها.

بعد قليل، رنّ الهاتف.

"الآنسة ليف...".

"تخبر الجميع في المدينة أنني سارقة! لذلك لا أستطيع الحصول على أي عمـــل! لقد حوّلتني تلك... إلى عاملة المنـــزل المجرمة ذات اللسان اللاذع في مقاطعة هيندس!".

"تمهّلي، يا ميني، التقطي أنفاسك...".

"قـــبل العمـــل هـــذا الصباح، قصدتُ منـــزل عائلة رنفرو في ســـيكامور، وكانت الآنسة رنفرو على وشك أن تطردني من ملكيّتها.

لقــد قالــت لي إن الآنسة هيلي أخبرتها عني، وإن الجميع يعرفون أنني سرقت شمعداناً من منــزل الآنسة والترز!".

كان في استطاعتي سماع إحكام قبضتها على سمّاعة الهاتف كما لو أنها تحاول سحقها بيدها. لقد سمعتُ كيندرا تصيح وتساءلتُ عن سبب وجود ميني في المنــزل. فهي لا تغادر عملها في العادة حتى الرابعة.

"كــل مــا أقــوم به هو إطعام تلك المرأة العجوز طعاماً جيداً، والاعتناء بها!".

"يا ميني، أعرف أنك صادقة. الله يعرف أنك صادقة".

خــبا صــوتها كمــا يخبو صوت النحل في قرص عسل. "عندما دخلــتُ منــــزل الآنسة والترز، كانت الآنسة هيلي موجودة هناك، وحاولــت إعطائــي عشرين دولاراً. قالت: *خذيها. أعلم أنك بحاجة إليها*، وكنت على وشك البصق في وجهها، ولكنني لم أقم بذلك، و لم أجلــس". وبــدأت بإصدار ذلك الصوت المتلهّف للتجريح، وقالت: "قمتُ بأمور *أكثر سوءاً*".

"ماذا فعلتِ؟".

"لــن أخبرك. لن أخبر أحداً عن تلك الفطيرة. ولكنني أعطيتها ما تــستحقه!". وبــدأت بالــبكاء، وشعرتُ بخوف مُثبط للعزيمة، إذ لا خــلاص مــن قبــضة الآنسة هيلي. "لن أحصل على عمل بعد الآن. سيعمد ليروي إلى قتلي...".

وسمعــتُ بكاء كيندرا، وأنهت ميني المكالمة من دون توديعي. لم أعرف ما هي قصة الفطيرة، ولكنها تنطوي على أمر سيّئ لأنني أعرف طباع ميني.

في تلك الليلة، قطفتُ لوازم طبقٍ صغير من السلطة وحبّة طماطم مــن حديقــة آيدا. وجففت بعض اللحم المقدَّد، وقمت بإعداد مرق

اللحـــم لكعكـــي الطريّة. ومشّطتُ شعري، ورفعته، ولففته بلُفافات الشعر زهرية اللون، ورششته برذاذ غود ناف. لقد شعرت بالقلق طوال فترة بعد الظهر، وفكّرت في ميني. كان يتعيّن عليّ إخراجها من عقلي إذا أردتُ الحصول على فترة قصيرة من النوم.

جلست إلى المائدة لتناول الطعام، وشغّلت الراديو في المطبخ. كان ليـــتل ستيفي واندر يؤدّي أغنية **بصمات الأصابع**. لم يكن لون بشرة ذلك الفتى ذا تأثير كبير فيه. إنه ضرير في الثانية عشرة من عمره، وقد حقق نجاحاً في الإذاعة. وبعد انتهاء أغنيته، بحثتُ عن عظة الأب غرين، وتوقفت عند محطة دبليو بـــي أل أيه التي كانت تبثّ موسيقى البلوز.

أحـــب سماع تلك الموسيقى، وتناول الشراب عندما يخيّم الظلام وســـط عبـــيق الدخان. فذلك يحملني على الشعور أن منـــزلي مليء بالـــناس. وفي استطاعتي أيضاً رؤيتهم يتمايلون في مطبخي، ويرقصون علـــى أنغام موسيقى البلوز. وعندما أُطفئ الضوء المتدلّي من السقف، أتخـــيّل نفسي في الرايفن حيث الطاولات الصغيرة التي تغطيها الأنوار الحمـــراء، وأنني في شهر أيار/مايو أو حزيران/يونيو، وأن الطقس دافئ. وتُـــشعّ ابتـــسامة رَجُلي كلايد كاشفة عن أسنانه البيضاء، ويقول، *يا حبيبتي، هل تريدين تناول كأس؟* فأقول، *بلاك ماري*. وأضحك من ثم علـــى نفسي بسبب حلم اليقظة هذا لأن مشروب نيهي أرجواني اللون هو أقوى مشروب تناولته يوماً.

كانت ممفيس ميني تغنّي عبر الإذاعة أغنية تصف كيف أن اللحم قلـــيل الدِّهن لا يمكن قَليه، عانيةً بذلك كيف أن الحب لا يدوم. كنت أفكـــر من حين إلى آخر في أنه يمكنني العثور على رجل آخر ينتمي إلى مذهبـــــي. ولكن المشكلة تكمن في أنني لن أحب رجلاً من مذهبـــي بقدر محبتي لله. فالرجل الذي أرغب فيه يجب ألا يكون عاطلاً عن العمل

ويُـــنفق كل أموالي. لقد ارتكبت هذا الخطأ منذ عشرين عاماً. وعندما هجرني زوجي كلايد لأجل تلك المرأة الفاجرة في شارع فاريش ستريت التي يدعوها كوكوا، اعتبرتُ أنه من الأفضل لي عدم الارتباط بعد ذلك.

أصدرت سيارة في الخارج صوتاً حاداً أعادني إلى مطبخي القديم. فأطفأت الراديو والضوء، وبحثت عن كتاب الأدعية في حقيبة يدي. إنه مجـــرد رزمة من أوراق زرقاء اشتريتها من متجر بِن فرانكلين. وكنت أستخدم قلم رصاص كي أتمكن من محو ما أريد محوه قدر ما أشاء حتى أقتـــنع بمـــا أكتب. لقد دأبتُ على تدوين أدعيتي مذ كنت في مدرسة الأحـــداث العالية. فعندما أخبرت مدرّسة الصف السابع أنني لن أعود إلى المدرســـة لأنه يتعيّن عليّ مساعدة والدتي، صاحت الآنسة روس: "أنت الأكثر ذكاءً في الصف، يا آيبيلين، والطريقة الوحيدة للمحافظة على ذكائك تكمن في القراءة و*الكتابة* كل يوم".

هكذا، بدأت أدوّن أدعيتي بدلاً من تلاوتها، ولكن أحداً لم ينعتني بالذكاء مذاك الحين.

قلّـــبت صفحات كتاب الأدعية لاختيار الشخص الذي سأذكره هـــذا المساء. لقد فكرت مرات قليلة في ذلك الأسبوع بإضافة الآنسة ســـكيتر إلى لائحتي، ولم أكن واثقة تماماً من سَبب هذه الرغبة. كانت لطيفة على الدوام، ولكن ما أغضبني وحملني على التساؤل هو ما قالته لي في مطـــبخ الآنـــسة ليفولت عن رغبتي في تغيير الأمور، ناهيكم عن السؤال عن مكان تواجد عاملة المنـــزل كونستنتين التي قامت بتربيتها. لقـــد علمتُ بما جرى بين كونستنتين ووالدة الآنسة سكيتر، ولم أكن أريد أبداً إخبارها بتلك القصة.

لكـــن المشكلة تكمن في أنني إذا بدأتُ بالدعاء للآنسة سكيتر لن أتمكن من الامتناع عن إجابتها عن أسئلتها وتساؤلاتها عندما ألتقيها في

المرة القادمة، والمرة التي تليها، لأن جوهر الدعاء يقوم على التواصل بين الناس، إنه كالكهرباء التي تضيء على الجميع أياً تكن اختلافاتهم. وموضوع الحمّام لم يكن أمراً أريد مناقشته في الواقع.

ألقيت نظرة على لائحة من أدعو لهم، والتي تحتل فيها ماو موبلي المرتبة الأولى، تليها فاني لو التي تعاني من الروماتزم، وشقيقتاي إينيز ومابل في بورت غيبسون اللتان تعيشان وسط ثمانية عشر طفلاً يعاني ستة منهم من الإنفلونزا. وعندما يكون الأشخاص المتبقّون على اللائحة قليلي العدد، أذكر تلك المرأة ذات البشرة البيضاء ذات الرائحة النتنة التي تعيش وراء متجر الأغذية، تلك التي فقدت عقلها بسبب شرب مادة تلميع الأحذية. ولكن اللائحة كانت ممتلئة في ذلك المساء.

هناك من دوّنتُ اسمه أيضاً في تلك اللائحة، برترينا بيسيمر! فالكل يعرفون برترينا التي دعتني زنجية خرقاء بسبب تزوّجي بكلايد منذ سنوات.

قلت الأحد السابق: "يا ميني، لماذا طلبت مني برترينا الدعاء لأجلها؟".

في ذلك اليوم، كنا عائدتين من العمل إلى المنزل عند الواحدة بعد الظهر، وأجابت ميني: "تسري شائعة أنه يُستجاب لدعائك أكثر من الأدعية التنوعية المألوفة".

"ماذا قلتِ؟".

"عندما كسرت أودورا غرين وركها، وأُدرجت في لائحتك، تمكنت من السير مجدداً بعد أسبوع. وسقط إيسايا من شاحنة القطن، وبعد أن دعيتِ له تلك الليلة عاد إلى العمل في اليوم التالي".

لدى سماعي ذلك، تساءلت عن سبب عدم إدراج تريلور في لائحة دعائي. لهذا السبب ربما، أخذه الله بهذه السرعة لأنه لم يكن يريدني أن أدخل في جدال معه.

قالت ميني: "سناف واشنطن، لولي جاكسون. لقد أُدرجت لولي في لائحتك، وبعد يومين تخلّت عن كرسيّها المدولب. الكل في مقاطعة هيندس يعرفون تلك الحادثة".

قلت: "ولكنني لستُ من شفاها، إنه مجرد دعاء".

"ولكن برترينا...". وضحكت ميني وقالت: "تعرفين كوكوا التي هرب معها كلايد؟".

"هِهه. تعرفين أنني لا أنساها أبداً".

"بعد أسبوع من تخلي كلايد عنك، سمعتُ أن كوكوا استيقظت وكانـــت كمحارة متعفنّة. ولكن حالتها تحسنت بعد ثلاثة أشهر. لقد أخبرتني برترينا، صديقة كوكوا المقرَّبة، بذلك، هي *تعلم* أن دعاءك نجح في شفاء كوكوا".

فـــتحتُ فمـــي من فَرط الدهشة. لماذا لم تخبريني بذلك من قَبل؟

"تقولين إن الناس يعتقدون أنني أمارس الشعوذة؟".

"كـــنت أعـــرف أن هذا الأمر سيقلقك لو قمت بإخبارك. هم يظنون أنك مؤمنة أكثر مما هي حال معظم الآخرين".

بدأ إبريق الشاي يُحدث صوتاً على جهاز الطهو، مُعيداً إيّاي إلى الواقـــع. يـــا الله، لقد أردت إدراج الآنسة سكيتر في لائحتي، ولكنني تـــرددتُ في ذلك. لقد عدت بالذاكرة إلى ما لا أريد التفكير فيه، وهو أن الآنسة ليفولت تبني لي حمّاماً لأنها تظن أنني مريضة، وتسألني الآنسة ســـكيتر عمـــا إذا كـــنت راغـــبة في تغيير الأمور كتغيير جاكسون، ميسيسيبـــي مثلاً، أو لمبة.

كـــنت أزيـــل خيوط اللوبياء في مطبخ الآنسة ليفولت عندما رنّ الهاتـــف، وأملـــت في أن تكون ميني المتصلة، وتخبرني أنها عثرت على عمل. كنت قد اتصلت بكل من عملتُ على خدمتهنّ، وقالوا لي الأمر

نفـــسه: "لا نـــستخدم أحداً". ولكن ما كنّ يعنينه في الواقع هو: "لا نستخدم ميني".

كـــان يوم ميني الأخير في العمل قد انقضى قبل ثلاثة أيام، ولكن الآنسة والترز اتصلت بها سرّاً في تلك الليلة، وطلبت منها الحضور لأن المنـــزل يبدو فارغاً بعد قيام الآنسة هيلي بنقل معظم الأثاث. لم أكن أعرف بعد ما الذي جرى بين ميني والآنسة هيلي، وأظن أنني لم أشأ أن أعرف.

"منـــزل ليفولت".

"أمـــم، مرحباً. هل هذا...". وتوقفت السيدة وتنحنحت. "مرحباً. هل يمكنني... هل يمكنني التحدث إلى إليزابيت لير - فولت من فضلك؟".

"الآنـــسة ليفولت غير موجودة في المنـــزل الآن. هل يمكنني نقل رسالة ما؟".

"آه". قالت كما لو أنها اضطربت لسبب مجهول.

"هل يمكنني أن أسأل من المتصل؟".

"أنـــا... ســـيليا فوت. لقد أعطاني زوجي هذا الرقم ولا أعرف إليزابيت، ولكن... حسناً، قال إنها تعرف كل شيء عن الحفلة الخيرية ورابطـــة الـــسيدات". كنت أعرف ذلك الاسم، ولكن، لم أتمكن من تذكّـــره تمامـــاً. فالمرأة تتكلم كما لو أنها من الريف النائي، وتنمو في حذائها حبوب الذرة. وكان صوتها عذباً بالرغم من نبرته العالية، ومع ذلك، لم تبدُ مماثلة للسيدات المحيطات بـــي.

قلت: "سأُبلغها رسالتك، ما رقم هاتفك؟".

"أنـــا حديثة العهد هنا. حسناً، هذا ليس صحيحاً. أقيم هنا منذ مدة طويلة تعود إلى أكثر من عام. وأنا لا أعرف أحداً في الواقع. لا... أخرج كثيراً من المنـــزل".

تنحـــنحت مجـــدداً، وتساءلتُ عن سبب قيامها بقول كل هذه الأمور لي. أنا مجرّد خادمة، ولن تحظى بأي صديقة جرّاء التحدث إليّ.

قالت: "ربما كنت أفكر في إمكانية تقديم المساعدة للحفلة الخيرية من منـــزلي".

تذكّرتُ حينذاك من تكون. هي التي تسيء الآنسة هيلي والآنسة ليفولت التحدث عنها لأنها متزوجة بصديق الآنسة هيلي السابق.

"سأُبلغها الرسالة. ما رقم هاتفك؟".

"آه، أنـــا أستعد للذهاب إلى متجر البقالة. آه، ربما يُفترض بـــي الجلوس والانتظار".

"ستترك رسالة لك مع عاملة المنـــزل".

"لا عاملـــة منـــــزل لديّ. في الواقع، كنت أخطط لطرح هذا الموضوع معها أيضاً علّها تزوّدني باسم عاملة جيدة".

"هل تبحثين عن عاملة منـــزل؟".

"أكاد أنفجر من محاولة العثور على عاملة منـــزل يمكنها قطع كل تلك المسافة إلى مقاطعة ماديسون".

"أعـــرف عاملة منـــزل بارعة حقاً. هي تشتهر بطهوها، وتقوم بالاعتـــناء بالأطفـــال أيـــضاً. حـــتى إنها تستقل سيارتها للذهاب إلى منـــزلك".

"آه، حـــسناً... لا أزال أودّ التحدث إلى إليزابيت عن الأمر. هل أعطيتك رقم هاتفي؟".

قلـــت متنهّدة: "لا يا سيدتي، هيا، تفضلي". فالآنسة ليفولت لن توصي أبداً بميني بسبب أكاذيب الآنسة هيلي.

فقالـــت: "منـــــزل الـــسيد جوني فوت، إمرسون، رقم الهاتف 260609".

قلـــت تحسّباً: "اسمها ميني. هي تقيم في لايكوود، 804432. هل سجّلتِ الرقم؟".

شدّت الطفلة ثوبـــي وقالت: "بط - ني يؤلمني". ففركت بطنها.

فالتمعت فكرة في رأسي وقلت: "لحظة من فضلك، ماذا يا آنسة ليفولت؟ أه - هاه، سأقول لها". وأعدتُ وضع سمّاعة الهاتف على فمي وقلت: "يا آنسة سيليا، لقد دخلت الآنسة ليفولت للتوّ وهي تقول إنها لا تشعر أنها بخير، ولكن من الجيد أن تتصلي بميني. وتقول إنها ستتصل بك إذا كانت بحاجة إلى أي مساعدة للحفلة الخيرية".

"آه! أخـــبريها أنـــني أقول لها شكراً، وأنني آمل حقاً في أن تغدو بصحة أفضل، وأن تتصل بـــي في أي وقت".

"تُقيم ميني جاكسون في لايكوود، ورقم هاتفها 804432. لحظة من فضلك، ماذا؟". تناولتُ بسكويتة وأعطيتها لماو موبلي، مسرورةً بما أقوم به. فأنا أكذب ولا يهمّني ذلك.

قلـــت للآنـــسة سيليا فوت: "تقول ألا تخبري أحداً عن فكرتها المتعلقة بميني لأن كل صديقاتها يُرِدن استخدامها وسيشعرن باستياء كبير إذا اكتشفن أنها أوصت بها لشخص آخر".

"لن أشيع سرّها إذا لم تُشع سرّي. لا أريد من زوجي أن يعرف أنني استعنتُ بعاملة منـــزل".

حسناً، إن الخطة غير مُحكَمة ولا أعرف عاقبة ذلك.

عندما أنهينا المكالمة الهاتفية، طلبتُ رقم ميني بأقصى سرعة ممكنة. ولكن الآنسة ليفولت دخلت باب المنـــزل بينما كنت أقوم بذلك.

كـــان مأزقـــاً حقيقياً. لقد أعطيت الآنسة سيليا تلك رقم هاتف مـــيني في المنـــزل، ولكن ميني موجودة في منـــزل الآنسة والترز لأنها تـــشعر بالـــوحدة. وهكذا، عندما تتصل، سيعطيها ليروي رقم هاتف

الآنسة والترز لأنه مخبول. وإذا أجابت الآنسة والترز عبر الهاتف لدى اتصال الآنسة سيليا، تنكشف اللعبة برمّتها، وتخبر الآنسة والترز هذه المرأة بكل ما تشيعه الآنسة هيلي عن ميني. لذلك، كان عليّ التحدث إلى ميني أو ليروي قبل حدوث كل ذلك.

عادت الآنسة ليفولت إلى غرفة نومها، وأول ما قامت به، كما تصوّرتُ، هو استخدام الهاتف لمدة طويلة. فاتصلت أولاً بالآنسة هيلي، ومن ثم بمصفف الشعر. اتصلت بعد ذلك بالمتجر من أجل هدية زفاف، وتحدثت مُطوَّلاً. وعندما أنهت المكالمة الهاتفية، قدمت إليّ، وسألت عن العشاء الذي سأُعدّه طوال ذلك الأسبوع. فأخرجتُ دفتر الملاحظات، وألقيت نظرة على اللائحة. لا، هي لا تريد قِطَع لحم غنم، إنها تحاول حمل زوجها على تخفيض المصروف. هي تريد قِطَع لحم بقر مقلي وسلطة خضار، وما عدد السعرات الحرارية التي يحتوي عليها المِرَنغ برأيي؟ لا تُعطي ماو موبلي مزيداً من البسكويت لأنها سمينة جداً، وطلبات أخرى.

فبالنسبة إلى امرأة لا تطلب مني سوى القيام بهذا الأمر أو ذاك، واستخدام ذلك الحمّام من دون سواه، لقد وجدتُ أن تحدثها إليّ كما لو أنني صديقتها المفضَّلة، أمر مفاجئ. كانت ماو موبلي ترقص بعَجَلة ولهفة، محاولةً لفت انتباه والدها. وعندما كانت الآنسة ليفولت على وشك الانحناء، ومنح ابنتها بعض الانتباه، انطلقت خارج باب المنزل مسرعةً لأنها نسيت قضاء أمر ما في الموعد المحدد، وقد مرّت ساعة على ذلك.

أما أنا فلم أستطع طلب رقم الهاتف بسرعة.

"يا ميني! لقد تدبّرتُ لك عملاً، ولكن عليك البقاء قرب الهاتف...".

قالت ميني بصوت فاتر: "لقد اتصلت، لقد أعطاها ليروي الرقم".

قلت: "وأجابت الآنسة والترز".

"إنهـــا صمّاء كمقبض باب، ولكن حدثت أعجوبة. لقد سمعَت رنين الهاتف بينما كنتِ أدخل وأخرج من المطبخ غير منتبهة لما يجري، وسمعتُ اسمي أخيراً. وقام ليروي بالاتصال بـــي بعد ذلك وعرفت ما جرى". لقد بدت ميني مُرهَقة كما لو أنها لم تتعب من قَبل.

"حـــسناً. ربما لم تقم الآنسة والترز بإطلاعها على الأكاذيب التي أطلقـــتها الآنـــسة هيلـــي. لا يمكنك أن تعرفي". ولكنني لست مخبولة لأصدّق ذلك.

"حـــتى وإن لم تقم بإخبارها، تعرف الآنسة والترز كل شيء عن جدالي مع الآنسة هيلي. لا تعرفين الأمر الشنيع والمروِّع الذي قمتُ به. لم أشـــأ أبداً أن تعرفيه. أنا على ثقة تامة من أن الآنسة والترز أخبرت هذه المرأة أنني لست سوى شريرة". وبدا صوتها غريباً على غرار صوت أسطوانة مسجَّلة تجري ببطء شديد.

"آسفة. ليتني اتصلتُ بك من قَبل لتجيبـــي على ذلك الهاتف".

"لقـــد قمتِ بما تستطيعين القيام به. لم يعد في استطاعة أحد أن يساعدني بأي شيء الآن".

"سأدعو لك".

قالـــت، وقـــد خبا صوتها: "شكراً لك، وأشكرك لأنك حاولت مساعدتي".

فأنهيـــنا المكالمـــة الهاتفية، وشرعتُ بالتنظيف. لقد أخافني صوت ميني.

كانت على الدوام امرأة قوية ومناضلة. فبعد وفاة تريلور، كانت تحمل إليّ العشاء كل مساء طوال ثلاثة أشهر متواصلة، وتقول لي: "لا،

لـــن تتركيني بمفردي على هذه الأرض المؤسفة". كنت أفكر جدياً في الانتحار.

كـــنت قد ربطتُ الحبل عندما وجدته ميني، وهو كناية عن لفافة خاصـــة بتريلور كان يستخدمها في مشروعه العلمي المؤلّف من بَكَرات وحلقات. لم أكن واثقة باستخدامها لوضع حدّ لحياتي، لأنني لم أكن في كامـــل وعيي وأعرف أنها خطيئة. ومع ذلك، لم تطرح ميني أي سؤال عـــن اللفافة بل سحبتها من تحت السرير، ووضعتها في علبة، وأخرجتها إلى الشارع. وعندما عادت، ضربت يديها ببعضهما كما لو أنها تخلصت مـــن أمر ما، فميني هي كل ما تبقى لديّ. أما في ذلك اليوم، فلم تكن تبدو بخير، وراودتني فكرة إلقاء نظرة تحت سريرها في ذلك المساء.

ووضـــعتُ أرضاً دلواً للتنظيف من طراز صن شاين كنت أشاهد الـــسيدات على التلفاز يبتسمن على الدوام لدى استخدامه، وجلست طلَـــباً بعض الراحة. فقدمت ماو موبلي ممسكةً ببطنها، وقالت: "أزيلي الوجع عنه".

فألقـــت بوجهها على ساقي، وملّستُ شعرها مراراً وتكراراً حتى هـــدأت، شاعرةً بالحب في لمستي. وفكرتُ في كل صديقاتي وما فعلنه لأجلي، وما يفعلن كل يوم للنساء بيضاوات البشرة اللواتي يقمن على خدمـــتهنّ، وذلـــك الألم في صوت ميني، وميلور مَيت على الأرض. ونظـــرت إلى الطفلـــة التي كنت أعرف في أعماقي أنني لن أتمكن من الحـــؤول دون الـــتخلّق بأخلاق والدها. وشعرتُ بانقباض في النفس، وأغمضتُ عينيّ، وتلوت دعاء، ولكنني لم أشعر بأي تحسن.

يا الله ساعدني، ولكن أمراً ما كان على وشك الحدوث.

لقـــد تـــشبثت الطفلة بساقَيّ طوال فترة بعد الظهر، لدرجة أنني كنت على وشك السقوط عدة مرات، ولكنني لم أهتمّ للأمر. فالآنسة

لــيفولت لم تقل لي، أو لماو موبلي، شيئاً منذ صباح ذلك اليوم، بسبب انهماكها بالعمل على ماكينة الخياطة في غرفة نومها، محاولةً إخفاء أمر ما لا تحب النظر إليه في المنــزل.

بعــد قليل، دخلتُ مع ماو موبلي غرفة الجلوس العادية، وحملتُ مجمــوعة مــن قمصان الآنسة ليفولت، لكيّها على أن أقوم بعد ذلك بإعــداد لحــم مشويّ. كنت قد نظّفت الحمّامَين، وبدّلت الملاءات، وكنــست السجادات بالمكنسة الكهربائية. كنت أحاول على الدوام إنهاء أعمالي في وقت مبكّر لأتمكن من الجلوس مع الطفلة واللعب معاً.

دخلــت الآنسة ليفولت، وشاهدتني أكوي. كانت تقوم بذلك أحــياناً؛ تقطّب جبينها وتنظر، وتبتسم بعد ذلك بسرعة كبيرة عندما أنظر إليها، وتربّت على الناحية الخلفية من شعرها محاوِلةً نفشه.

"يا آيبيلين، لديّ مفاجأة لك".

كانــت تبتسم ابتسامة عريضة من دون أن تظهر أي سنّ كالعادة. "قررنا، السيد ليفولت وأنا، أن نبني لك حمّامك الخاص". ضربت راحتي يديها ببعضهما بعضاً، وأنــزلت ذقنها ناظرةً إليّ. "هناك في المرأب".

"أجل يا سيدتي". أين أمضيت كل هذا الوقت برأيها؟

"إذاً، مــن الآن فــصاعداً، وبدلاً من استخدام حمّام الضيوف، يمكنك استخدام حمّامك هناك. ألن يكون ذلك لطيفاً؟".

"بكــل تأكــيد يا سيدتي". واستمررت بالكيّ، وكان برنامجي التلفازي على وشك البدء. ومع ذلك، فقد بقيت واقفة هناك تنظر إليّ.

"إذاً، ستــسخدمين الآن ذلــك الحمّام الموجود في المرأب، هل فهمتِ؟".

فلم أنظر إليها، أنا لا أحاول التسبب بأي متاعب، ولكنها قالت ما لديها.

"ألا تـــريدين الحـــصول علـــى منديل ورقي والخروج إلى هناك واستخدامه؟".

"يا آنسة ليفولت، لا أشعر بالرغبة في الذهاب في هذه اللحظة".

أشـــارت مـــاو موبلي إليّ من حظيرتها النقالة، وقالت: "ماو مو عصير؟".

قلت: "سأحضر لك بعض العصير يا طفلتي".

"آه". وعـــضّت الآنسة ليفولت على شفتيها مرات قليلة. "ولكن عـــندما تـــريدين دخول الحمّام، ستذهبين إلى هناك وتستخدمين ذلك الحمّام الآن، أعني... هذا الحمّام فقط، أليس كذلك؟".

كانـــت الآنسة ليفولت تضع كمية كبيرة من مسحوق التبرّج مما جعـــل وجهها يبدو كالقشدة. وكان ذلك المسحوق المائل إلى الصفرة ممـــتداً حتى شفتيها أيضاً، لدرجة أنكم تكادون لا تلاحظون وجود فم لها. فقلت ما أعرف أنها تريد سماعه: "سأستخدم الحمّام الخاص بذوي البـــشرة الملوّنة من الآن فصاعداً، وأقوم بتنظيف الحمّام الخاص بذوي البشرة البيضاء بالكلوروكس مرة أخرى وبشكل جيد".

"حسناً، لا شيء يدعو للعَجَلة. أي وقت من اليوم يكون جيداً".

لكـــن وقوفها هناك، وتحريك خاتم زفافها بقلق، عنيا لي ضرورة القيام بالأمر في الحال.

فوضـــعتُ المكـــواة ببطء شديد، وشعرت ببزرة المرارة تنمو في صـــدري، تلك التي غُرست بعد وفاة تريلور. وعبق وجهي بالحرارة، وارتعش لساني. لم أكن أدري ما أقول لها. كل ما أعرفه أنني لن أقول ما أريد قوله، وأعرف أنها لن تقول ما تريد قوله أيضاً. كان يجري أمر غريب هناك لأن أحداً لا يقول شيئاً وعلينا الشروع بحديث ما.

مينى

الفصل الثالث

بينما كنت واقفة في ذلك المدخل الأمامي الخارجي لمنزل السيدة ذات البشرة البيضاء، قلت لنفسي، *صوني لسانك يا ميني*. عليّ التنبّه من زلات اللسان وبالتالي حماية ظهري. كنت أبدو كعاملة منزل تقوم بما يُطلب منها القيام به. في الحقيقة، كنت عصبية المزاج في تلك اللحظة بالذات لدرجة أنني قررت عدم الإجابة بوقاحة مرة أخرى إذا عنى ذلك الحصول على هذا العمل.

فجذبتُ جوربيّ نحو الأعلى كيلا يرتخيا حول قدمَيّ، وهذه مشكلة كل السمينات القصيرات في العالم. ومن ثم، كرّرت ما يتعيّن عليّ قوله وما يجب الاحتفاظ به لنفسي. تقدّمت، وضغطت على الجرس.

فرنّ جرس البابا بينغ - بونغ طويلة وملائمة لهذا المنزل الفخم الكبير في الريف. كان يبدو كقلعة ذات جدران مرتفعة من الآجرّ الرمادي في كبد السماء يساراً ويميناً، والغابات تحيط بالمَرج من كل جانب. فلو ذُكر هذا المكان في كتاب قصصي، لكانت هناك مشعوذات في تلك الغابات، مشعوذات تلتهم الأطفال.

فُتح الباب الخلفي حيث وقفت الآنسة ماريلين مونرو أو إحدى نسيباتها.

"مرحباً، لقد وصلتِ في الوقت المحدد. أنا سيليا، سيليا راو فوت".

مدّت السيدة ذات البشرة البيضاء يدها لي، وقمت بتأمّلها. قد تكون مشابهة لماريلين ببنيتها الجسدية، ولكنها لم تكن مستعدة لاختبار في التمثيل. هناك دقيق على تسريحتها الصفراء، وأهدابها المستعارة، وفي كل مكان من تلك البذلة النسائية زهرية اللون غير الأنيقة. فتساءلتُ عن كيفية تمكنها من التنفس بوقوفها في سحابة من الغبار، وارتدائها تلك البذلة الضيقة.

"أجل يا سيدتي. أنا ميني جاكسون". وملّستُ لباسي الرسمي الأبيض بدلاً من مصافحتها. لم أكن أريد تلويث يدَيّ بالدقيق. "أنت تطهين شيئاً ما؟".

قالت متنهّدة: "إحدى تلك الكعكات المقلوبة رأساً على عقبٍ من المجلة، لم ينجح الأمر جيداً".

تبعتها إلى الداخل حيث اكتشفت أن الآنسة سيليا فوت لا تعاني إلا من تلوّث ضئيل بسبب الدقيق، ولكن التلوث الأكبر موجود في بقية مطبخها. فمساحات العمل المنبسطة، والبراد ثنائيّ الأبواب، والخلّاط، مغمورة بنحو ربع بوصة من الدقيق. كانت الفوضى كفيلة بإصابتي بالجنون. فلم أحصل على العمل بعد، ولكنني بحثت عن إسفنجة في حوض الغسيل.

فقالت الآنسة سيليا: "أظن أنه عليّ تعلّم بعض الأمور".

قلت: "بالتأكيد". ولكنني عضضتُ بقوة على لساني. *لا تخاطبي هذه السيدة ذات البشرة البيضاء بوقاحة كما فعلتِ مع الأخريات. خاطبيها على هذا النحو وتصبحين في دار العجزة.*

لكن الآنسة سيليا ابتسمت، وغسلت يديها في حوض غسيل مليء بالأطباق. فتساءلتُ عما إذا كان بالإمكان العثور على سيدة صمّاء على غرار الآنسة والترز. لنأمل ذلك.

قالت: "لا يبدو أنني أجيد العمل المطبخي". ويمكنني القول إنها من الريف بالرغم من صوتها الهامس المماثل لصوت مارلين في هوليوود. ونظرتُ إلى الأسفل، ورأيت قدمَيها عاريتين وتبدوان كنفايات بيضاء. السيدات بيضاوات البشرة الجيدات لا يتنقّلن عاريات الأقدام.

إنها أصغر مني سناً ربما بعشرة أو خمسة عشر عاماً، كانت في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من العمر ورائعة الجمال، ولكن لماذا تضع كل تلك المادة الدَّبقة على وجهها؟ أراهن على أنها تضع ضعف كمية مسحوق التجميل الذي تضعه السيدات الأخريات بيضاوات البشرة. كما أن صدرها كبير مقارنةً مع حجم جسدها أيضاً. في الواقع، لقد كانت بحجمي تقريباً سوى أنها نحيلة وأنا بدينة. وأملتُ في أن تكون مُحِبّة للطعام لأنني طاهية، وهو سبب قيام الناس باستخدامي.

سألت: "هل أُحضر لك شراباً بارداً؟ اجلسي وسأحضر لك شيئاً ما".

لا بد من أن أمراً غريباً يجري هنا.

قلت عندما اتصلت بي منذ ثلاثة أيام، وسألت إذا كنت سآتي لإجراء مقابلة: "يا ليروي، لا بد من أنها مخبولة، لأن كل من في المدينة يعتقدون أنني سرقت الأواني الفضية الخاصة بالآنسة والترز، وأعلم أنها تعتقد ذلك أيضاً لأنها اتصلت بالآنسة والترز عندما كنت هناك".

قال ليروي: "ذوو البشرة البيضاء غريبو الأطوار، من يعلم، قد لا تشيع عنك تلك السيدة المسنّة إلا الأخبار الجيدة".

حدّقتُ إلى الآنسة سيليا راو فوت. لم يسبق أن طلبت مني امرأة بيضاء البشرة الجلوس لتقدّم لي شراباً بارداً. بدأت أتساءل عما إذا

كانت تخطط لاستخدام عاملة منــزلية بالفعل، أم أنها جرّتني كل هذه المسافة كتمرين رياضي فحسب.

"قــد يكــون مــن الأفــضل إلقاء نظرة على المنــزل أولاً، يا سيدتي".

فابتــسمت كما لو أن فكرة تعريفي إلى المنــزل الذي قد أقوم بتنظيفه لم تتبادر أبداً إلى ذهنها المكسوّ بشعر مرشوش بالرذاذ.

"آه، بالطــبع. تفــضّلي يا ماكسي، سأريك غرفة الطعام الخيالية أولاً".

قلت: "اسمي ميني".

قد لا تكون صمّاء أو مخبولة، بل غبية ربما. وشعّ الأمل في نفسي مجدداً.

سارت في أنحاء ذلك المنــزل القديم كافة، الكبير، وغير المرتَّب، وتبعتُها. كانت هناك عشر غرف في الطابق السفلي، وفي إحداها دب رمادي محشوّ يبدو كما لو أنه التهم الخادمة الأخيرة وهو منحنٍ لالتهام التالية. وهناك علم اتحادي محروق داخل إطار معلَّق على الجدار، وعلى الطاولــة مــسدس فضي قديم نُقش عليه اسم *الجنرال الاتحادي* جون فــوت. لقد راهنتُ على أن الجد الأكبر فوت كان يخيف بعض العبيد بذلك الشيء.

خــرجنا من تلك الغرفة، وبدأ المنــزل يبدو جميلاً كأي منــزل لذوي البشرة البيضاء. لكن، لم يسبق لي أن دخلت منــزلاً بهذا الحجم بأرضيّاته القذرة وسجاداته المكسوّة بالغبار، والذي يعتبره بعض الناس بالياً. ولكن، يمكنني تمييز المنازل الأثرية القديمة عندما أراها. لقد عملتُ في بعض المنازل الرائعة، وأملتُ في ألا تكون الآنسة سيليا ريفية لدرجة أنها لا تقتني مكنسة هوفر كهربائية.

"لا تدعني والدة جوني أزيّن أي شيء. لو عاد الأمر إليّ لفرشت سـجاداً أبيض من الحائط إلى الحائط، وزخارف ذهبية، واستغنيتُ عن كل هذا الأثاث القديم".

سألتها: "من أين تتحدّر عائلتك؟".

"أنـا من... شوغر ديتش". وانخفض صوتها قليلاً. فشوغر ديتش هي المنطقة الأكثر انخفاضاً في الميسيسيبـي، وفي كل الولايات المتحدة ربما. هي تقع في مقاطعة تونيكا لناحية ممفيس تقريباً. لقد رأيت صوراً عـنها في الـصحف ذات مـرة، وتظهر فيها تلك الأكواخ الوضيعة المستأجَرة. حتى إن الأطفال ذوي البشرة البيضاء يبدون كما لو أنهم لم يتناولوا وجبة طعام منذ أسبوع.

حاولـت الآنـسة سيليا الابتسام، وقالت: "هذه المرة الأولى التي أستعين فيها بعاملة منـزل".

"حسناً، أنت بحاجة إلى واحدة بالتأكيد". *حذارِ يا ميني...*

"كـنت سـعيدة حقـاً بالحصول على توصية بك من الآنسة والترز. لقد أخبرتني كل شيء عنك. قالت إن طهوك هو الأفضل في المدينة".

لم يعنِ لي ذلك أي شيء. هل الأمر صحيح بعد كل ما صدر مني حيال الآنسة هيلي وعلى مرأى من الآنسة والترز؟ "لم تقل... أي أمر آخر عني؟".

وصـعدت الآنسة سيليا درَجاً كبيراً مقوَّس الشكل. فتبعتها إلى ردهة كبيرة حيث أشعة الشمس تدخل عبر النوافذ. وبالرغم من وجود غـرفتي نـوم صفراوَين للفتيات، وغرفة نوم زرقاء، وأخرى خضراء للفتـيان، من الواضح أنه لم يكن هناك أي فتى أو فتاة في المنـزل. لا شيء سوى الغبار.

"لدينا خمس غرف نوم، وخمسة حمّامات هناك في المنزل الرئيس". وأشارت بيدها عبر النافذة، ورأيت بركة سباحة زرقاء كبيرة، منزلاً آخر وراءها. وخفق قلبي بقوة.

قالت متنهّدة: "هناك منزل البركة".

كنت مستعدة لتسلّم أي عمل في تلك المرحلة، ولكن منزلاً كبيراً مماثلاً يعود عليّ بأجر كبير. لم أمانع في أن أكون دائمة الانشغال، فأنا لا أخشى العمل. "متى ستُرزَقين ببعض الأطفال وتبدأين بملء كل هذه الأسرّة؟". وحاولتُ الابتسام والظهور بمظهر الشخص الودود.

"آه، سنُرزَق ببعض الأطفال". وتنحنحت، متململة. "أعني، الأطفال هم الوحيدون الذين يجدر بنا العيش لأجلهم". نظرت إلى قدمَيها، وبعد قليل عادت أدراجها إلى الطابق السفلي. فتبعتها، ولاحظت كيف تمسك درابزين السلّم بإحكام في أثناء نزولها كما لو أنها تخشى السقوط.

لدى عودتنا إلى غرفة الطعام، بدأت الآنسة سيليا تهز رأسها. قالت: "هناك كمّ هائل من العمل، كل غرف النوم والأرضيات...".

أجبت: "أجل يا سيدتي، إنه كبير". وفكرتُ في أنها قد تلوذ بالفرار على الأرجح إذا رأت منزلي الذي يحتوي على سرير طفل في الردهة، وحمّام واحد لست مؤخرات. "ولكن، لديّ الكثير من النشاط".

"... وهناك كل هذه الأواني الفضية التي يتعيّن تنظيفها".

فتحَت خزانة أوان فضية بحجم غرفة جلوسي، وأصلحَت وضعيّة شمعة تدور بشكل مسلٍّ في الشمعدان، وأدركتُ سبب ارتيابها.

فـبعد أن أشاعت الآنسة هيلي أكاذيبها في المدينة، أنهت ثلاث سيدات على التوالي مكالماتهنّ الهاتفية معي عندما ذكرتُ اسمي لهنّ. استعددت لتلقّي الصدمة. *قولي ذلك، أيتها السيدة. قولي ما هو رأيك بـي، وبأوانـيك الفضية*. شعرتُ بالرغبة في البكاء، مفكرةً في هذا العمل الـذي سيكون ملائماً لي، وفي ما فعلته الآنسة هيلي لمنعي من الحصول عليه. وركّزت نظري على النافذة، آملةً ومصلّيةً لئلا تنتهي المقابلة عند هذا الحدّ.

"أعلم، تلك النوافذ عالية جداً. لم أحاول تنظيفها من قبل".

تنفستُ الصعداء. فالتطرق إلى النوافذ أفضل من التطرق إلى الأواني الفضية بالنسبة إليّ. "لا أخشى أي نوافذ. كنت أنظف نوافذ الآنسة والترز من الأعلى إلى الأسفل كل أربعة أسابيع".

"هل كان منزلها مؤلّفاً من طابق واحد أو طابقين؟".

"حسناً، من طابق واحد... ولكن، هناك الكثير من العمل فيه. ففي المنازل القديمة الكثير من الزوايا والصدوع، كما تعلمين".

أخيراً، عدنا إلى المطبخ، وحدّق كلانا إلى طاولة الفطور، ولكن أيّاً منّا لم تجلس إليها. وأخذتني الحَيرة بما تفكر فيه، وبدأ العرق يتصبّب من رأسي.

قلت: "لديك منزل كبير وجميل، إنه الأفضل في هذه الناحية من الريف. هناك الكثير من العمل فيه".

بدأت بتحريك خاتم زفافها. "أعتقد أن العمل في منزل الآنسة والترز أكثر سهولة من العمل في هذا المنزل. أعني، هذا هو وضعه في الوقت الحاضر، ولكن عندما نُرزَق بأطفال...".

"تفكرين في الحصول على خادمات أخريات؟".

فتـــنهدَت. "قـــدمت مجموعة منهنّ إلى هنا. لم أجد... الخادمة المناسبة بعد". وقضمت أظافر أصابعها، وحوّلت نظرها عنّي.

انتظـــرتُ أن تقول لي إنني لست الخادمة المناسبة كذلك، ولكننا وقفـــنا هـــناك نتنفس ذلك الدقيق. في النهاية، لعبتُ ورقتي الأخيرة، وبُحت بمكنونات صدري لأنه كل ما تبقى لديّ لأقوله.

"تعلمـــين، لم أتـــرك العمل لدى الآنسة والترز إلا لأنها ستنتقل للعيش في منـــزل للراحة. لم تقم بطردي".

لكـــنها حـــدّقت فحـــسب إلى قدميها العاريتين ذات الأخمصين السوداوين من الأسفل لأنه لم يتم تنظيف الأرضيات منذ انتقالها إلى هذا المنـــزل الكبير، القديم، والقذر. من الواضح أن هذه السيدة لا تريدني.

قالت: "حسناً، أقدّر قيامك بالقيادة كل هذه المسافة. هل يمكنني أن أعطيك على الأقل بعض المال لوقود السيارة؟".

فالـــتقطتُ محفظة يدي، ووضعتها تحت إبطي، ورمقتني بابتسامة تعبّـــر عن سرورها كان في استطاعتي إزالتها بضربة واحدة. *تباً لهيلي* هولبروك تلك.

"لا يا سيدتي، لا يمكنك".

"كنت أعلم أنه سيكون من الصعب عليّ العثور على شخص ما، ولكن...".

ووقفـــتُ هناك أستمع إليها وهي تبدي أسفها، ولكنني قلت في نفـــسي، *أنهـــي المسألة يا سيدتي كي أتمكن من إخبار ليروي أنه علينا الانـــتقال إلى القطب الشمالي بالقرب من سانتا كلوز حيث لا يسمع أحد الأكاذيب التي تحوكها هيلي عنّي.*

"... ولـــو كـــنت مكانـــك لما رغبت في تنظيف هذا المنـــزل الكبير أيضاً".

فنظـــرتُ إليها مباشرةً. كانت تبحث عن أعذار أكثر من المعتاد، مدّعية أنني لن أحصل على العمل لأنني *لا أريده*.

"متى سمعتني أقول إنني لا أريد تنظيف هذا المنـــزل؟".

"لا بأس، سبق لخمس خادمات أن قلن لي إنه عمل شاق".

نظـــرتُ إلى جـــسدي الذي يبلغ وزنه مئة وخمسة وستين رطلاً، وطوله خمس أقدام، وقلت: "عمل كثير بالنسبة إليّ؟".

فنظـــرَت إليّ بعنين طارفتين للحظات. "س... ستقومين بتنظيف المنـــزل؟".

"لمـــاذا قـــدتُ تلك المسافة إذاً إلى هنا، لإحراق الوقود فقط؟".

وأطـــبقتُ فمـــي بإحكام. *لا تُفسدي الأمور الآن، إنها تعرض عليك فرصة العمر*. "يا آنسة سيليا، سأكون سعيدة بالعمل لديك".

فضحكَت المرأة المخبولة، وهمّت بمعانقتي، ولكنني عدت إلى الوراء قليلاً لإعلامها أن الأمور لا تسير على هذا النحو.

"توقفـــي الآن، عليـــنا التحدث عن بعض الأمور أولاً. عليك أن تقـــولي لي في أي أيـــام تريدين مني المجيء إلى هنا و... هذا النوع من الأمور". *مثل، ما الأجر الذي ستدفعينه*.

قالت: "أعتقد... كلما شعرتِ بالرغبة في المجيء".

"أعمل للآنسة والترز من الأحد حتى الجمعة".

وقضمت الآنسة سيليا ظفرها زهري اللون. "لا يمكنك القدوم إلى هنا في نهاية الأسبوع".

"حسناً". كنت بحاجة إلى العمل في تلك الأيام، ولكنها قد تستعين بـــي لاحقاً في بعض الحفلات أو في أي شيء آخر. "من الاثنين حتى الجمعة إذاً. والآن، في أي وقت تريدين مني أن آتي إلى هنا في الصباح؟".

"في أي وقت تريدين أن تأتي؟".

لم أُمــنحَ حق الاختيار في هذا الشأن من قبل، وشعرتُ أن عينيّ تضيقان. "ما رأيك عند الساعة الثامنة؟ كنت أصل إلى منــزل الآنسة والترز عند هذه الساعة".

"حــسناً، الساعة الثامنة توقيت جيد". ووقفت هناك كما لو أنها تنتظر خطوتي التالية.

"الآن، يُفترض بك تحديد وقت مغادرتي".

سألت سيليا: "في أي وقت؟".

فقلّبتُ عينيّ ناظرةً إليها. "يا آنسة سيليا، يُفترض بك أن تقولي لي ذلك. هكذا تجري الأمور".

ابــتلعت كما لو أنها تحاول جاهدةً تخطي هذه المرحلة. وأردت الانتهاء من الأمر قبل أن تبدّل رأيها.

قلــت: "ماذا عن الرابعة؟ أعمل من الثامنة حتى الرابعة، وأحصل على بعض الوقت لتناول ما يتوفر لي من طعام في فترة الغداء".

"جيد".

قلتُ: "الآن... علينا التحدث عن الأَجر". وبدأت أصابع قدمَيّ تتحــرك في حذائــي. مــن المحتمل ألا يكون الأَجر عالياً لأن خمس خادمات رفضن العمل.

لم تقل أي منا شيئاً.

"حــسناً، هــيا يا آنسة سيليا. ما الأجر الذي يقول زوجك إنه يستطيع دفعه؟".

حوّلت نظرها إلى غسالة فيغ - أو - ماتيك، وأراهن على أنها لا تجيد استخدامها، وقالت: "جوني لا يعرف".

"حسناً إذاً. اسأليه هذا المساء عن الأجر الذي يريد دفعه".

"لا، جوني لا يعلم أنني أستعين بخدمات عاملة منــزلية".

وسقط ذقني حتى صدري. "ماذا تعنين أنه لا يعرف؟".

"لــن أخبر جوني". واتسعت عيناها الزرقاوان كما لو أنها تخشاه حتى الموت.

"وماذا سيفعل السيد جوني إذا عاد إلى المنــزل ووجد امرأة ذات بشرة ملوّنة في مطبخه؟".

"آسفة، لا أستطيع...".

"ســأخبرك بمــا ســيفعله. سيأتي بمسدسه ويقتل ميني على هذه الأرضية غير المصقولة".

هزت الآنسة سيليا رأسها. "لن أخبره".

"إذاً، عليّ الرحيل". قلت. *تبّاً، كنت أعلم ذلك. كنت أعلم أنها مخبولة عندما دخلتُ المنــزل...*

"لا أريــد أن أكــذب علــيه، ولكنني بحاجة إلى عاملة منــزل فحسب...".

"أنــت بحاجة إلى عاملة منــزل بالطبع. لقد تلقّت الأخيرة طلقاً نارياً في رأسها".

"هــو لا يأتي إلى المنــزل أبداً في أثناء النهار. قومي فقط بأعمال التنظــيف التي تتطلب جهداً وعلّميني كيف أُعدّ العشاء، ولن يتطلب الأمر سوى أشهر قليلة...".

شــعرتُ بالوخز في أنفي بسبب رائحة شيء ما يحترق، ورأيت دخاناً ينفث من جهاز الطهو. "وماذا بعد ذلك، هل ستقومين بطردي بعد أشهر قليلة؟".

قالت، مقطّبةً جبينها: "حينذاك... أخبره، رجاءً، أريده أن يعتقد أنــي قــادرة على القيام بالأعمال المنــزلية بمفردي. أريده أن يعتقد أنني... جديرة بالعناء".

"يــا آنسة سيليا...". هززت رأسي غير مصدّقة أنني أتجادل مع هــذه السيدة من دون أن أكون قد بدأتُ بالعمل لديها. "أعتقد أنك حرقت كعكتك".

فالــتقطَت قطعــة قماش، وهرعَت إلى جهاز الطهو، وأخرجَت الكعكة بسرعة. "أوو! تبّاً!".

فوضعتُ حقيبة يدي، ومررتُ بجانبها بطريقة منحرفة. "لا يمكنك استخدام منشفة مبلّلة لإمساك وعاء ساخن".

التقطتُ قطعة قماش جافة، وأخرجتُ الكعكة السوداء من جهاز الطهو، ووضعتُها على العتبة الإسمنتية.

نظرت الآنسة سيليا إلى يدها المحروقة. "قالت الآنسة والترز إنك طاهية ماهرة".

"تلــك المرأة المسنّة تتناول حبّتي فاصولياء وتقول إنها شبعت. لم أستطع حملها على تناول أي شيء".

"كم كنت تتقاضَين؟".

قلــت: "دولاراً في الساعة". وشعرتُ ببعض الخجل. لقد مضى على عملي هناك خمس سنوات، و لم أتقاضَ بعد الحد الأدنى للأجور.

"إذاً، سأدفع لك دولارَين".

فشعرتُ أنني أفقد أنفاسي.

"مــتى يخرج السيد جوني من المنــزل في الصباح؟". سألتُ بينما كنت أنظف الزبدة الذائبة على المنضدة.

"عــند الــساعة السادسة. لا يمكنه المكوث في المنــزل طويلاً، ويعود من مكتبه العقاري نحو الخامسة".

فقمــتُ ببعض الحسابات، ووجدتُ أنني سأتقاضى أجراً أكبر، بعدد أقل من ساعات العمل. ولكنني لن أتلقى أي أجر إذا تلقّيت طلقاً

ناريـــاً قـــاتلاً. "سأغادر عند الثالثة إذاً. سأمنح نفسي ساعتين للقدوم والذهاب كي أبقى بعيدة عن طريقه".

فأومأت برأسها قائلة: "جيد، من الأفضل التزام الحذر".

علـــى درجة الباب الخلفي، وضعت الآنسة سيليا الكعكة داخل كـــيس ورقـــي. "عليّ دفنها في وعاء القمامة كيلا يعلم أنني أحرقت كعكة أخرى".

فأخذت الكيس من بين يديها. "لن يرى السيد جوني أي شيء. سأرميه في وعاء القمامة عندما أعود إلى منـــزلي".

"آه، شـــكراً لك". هزت الآنسة سيليا رأسها كما لو أنه العمل الأكثـــر لطافـــة الذي يقوم به شخص لأجلها، ووضعَت قبضتي يديها تحت ذقنها. وخرجتُ إلى سيارتي.

فجلـــستُ على المقعد الغائص لسيارة الفورد التي لا يزال ليروي يدفع اثني عشر دولاراً كل أسبوع لصاحب عمله لتسديد ثمنها. شعرت بالارتـــياح. لقـــد حصلتُ أخيراً على عمل، وليس عليّ الانتقال إلى القطب الشمالي. لن يُخيِّب أمل سانتا كلوز.

"اجلسي على مؤخرتك يا ميني لأنني سأُطلعك على قواعد العمل في منـــزل سيدة بيضاء البشرة".

كنت في الرابعة عشرة من عمري، وجلست إلى الطاولة الخشبية الـــصغيرة في مطبخ والدتي أراقب كعكة الكاراميل الموجودة على رف التبريد. فذكرى المولد هي الأيام الوحيدة في السنة التي كان يُسمح لي فيها بتناول قدر ما أشاء من الطعام.

كنت على وشك التخلي عن المدرسة، والشروع بعملي الحقيقي الأول. لطالما أرادت والدتي أن أبقى في المدرسة، وأن أرتقي إلى الصف التاســـع. لقـــد رغبَت على الدوام في أن أكون معلمة مدرسة بدلاً من

العمـــل في منـــزل الآنسة وودرا. ولكن أمر الإعالة كان منوطاً بـــي وبوالدتي، لأن والدي سكّير ولا خير منه، وتعاني شقيقتي من مشكلة في القلـــب. كـــنت أملـــك بعض المعلومات عن العمل المنـــزلي، فبعد المدرسة، كنت أطهو وأقوم بأعمال التنظيف. ولكن، إذا ذهبتُ للعمل في منـــزل شخص ما، من سيهتم لأعمالنا المنـــزلية؟

فدفعـــتني والـــدتي بكتفَيّ وجعلتني أستدير وألتفت إليها بدلاً من النظـــر إلى الكعكـــة. كانـــت والدتي لائقة ولا تأخذ شيئاً من أحد، فحرّكت إصبعها بالقرب من وجهي مما جعلني حولاء.

"القاعدة رقم واحد للعمل لدى سيدة بيضاء البشرة، يا ميني: لا شأن لك بما يحدث في ذلك المنـــزل. لا تتدخلي بمشاكل سيدتك ذات البـــشرة البيـــضاء، ولا تُقحمـــيها بمشاكلك، كأن تقولي لها إنك لا تـــستطيعين دفـــع فاتورة الكهرباء، وإن قدميك تؤلمانك. تذكّري أمراً واحـــداً، وهـــو أنّ ذوي البشرة البيضاء ليسوا أصدقاءك، ولا يريدون سماع مشاكلك. وعندما تفاجئ السيدة ذات البشرة البيضاء رجلها مع السيدة المقيمة في المنـــزل المجاور، ابقَي بعيدة عما يجري، هل سمعتني؟

القاعـــدة رقـــم اثنين، لا تدعي تلك السيدة بيضاء البشرة تراكِ جالـــسةً علـــى مرحاضـــها. إذا لم يكن هناك حمّام لعاملة المنـــزل في الخارج، جدي لنفسك الوقت عندما لا تكون موجودة لدخول حمّام لا تستخدمه".

"القاعدة رقم ثلاثة، وأدارت والدتي رأسي باتجاهها، ممسكةً بذقني لأن الكعكة كانت قد أغوتني مجدداً. "القاعدة رقم ثلاثة، عندما تطهين طعـــام ذوي البـــشرة البيضاء، قومي بتذوّقه بملعقة مختلفة. ضعي تلك الملعقة في فمك، فكّري في أن أحداً لا ينظر إليك، وأعيدي وضعها في القِدر، أو يمكنك وضعها جانباً.

القاعـــدة رقـــم أربعـــة، اســـتخدمي الكوب نفسه، والشوكة نفـــسها، والطـــبق نفسه كل يوم. أبقيها في خزانة منفصلة، وأخبري تلـــك المـــرأة بيضاء البشرة أنك ستستخدمين تلك الأواني من الآن فصاعداً.

القاعدة رقم خمسة، تناولي طعامك في المطبخ.

القاعدة رقم ستة، لا تضربـــي أطفالها. يحب ذوو البشرة البيضاء صفع أطفالهم بأنفسهم.

القاعـــدة رقـــم سبعة، إنها القاعدة الأخيرة يا ميني. هل تستمعين إليّ؟ لا تتكلمي بوقاحة".

"يا أمي، أعرف كيف...".

"آه، أسمعـــك تتذمّـــرين بصوت خافت، عندما تعتقدين أنني لا أسمعـــك، عـــندما يكون عليك القيام بتنظيف أنبوب تصريف دخان المـــوقد، وعندما تكون قطعة الدجاج الصغيرة المتبقية من نصيب ميني المـــسكينة. أجيبـــي امرأة بيضاء البشرة بوقاحة في الصباح، تجدي نفسك تتذمرين في الشارع بعد الظهر".

لقد شاهدتُ طريقة تصرّف والدتي عندما أدخلَتها الآنسة وودرا إلى منـــزلها، وكـــيف تقول باستمرار، أجل يا سيدتي، لا يا سيدتي، أشـــكرك بكـــل صـــدق يا سيدتي. *لماذا يجب عليّ أن أتصرف بهذه الطريقة؟ أعرف كيف أواجه الناس بجرأة.*

"الآن، تعـــالي إلى هـــنا وعانقي والدتك بمناسبة ذكرى مولدك، يا الله، أنت ثقيلة كمنـــزل، يا ميني!".

"لا آكل طوال اليوم، متى يمكنني الحصول على كعكتي؟".

"لا تقـــولي لا آكـــل بـــل لم آكل. أنت تتكلمين الآن بطريقة صحيحة. لم أربِّك لتتكلمي كبغل".

في اليوم الأول لوجودي في منـــزل السيدة ذات البشرة البيضاء، تـــناولتُ شـــطيرة لحـــم مقدَّد في المطبخ، ووضعتُ طبقي في المكان المخـــصص لــــه في الخزانة. وعندما قامت تلك الطفلة الصغيرة بسرقة حقيبة يدي وإخفائها في جهاز الطهو، لم أضربها على مؤخرتها.

لكـــن، عندما قالت السيدة بيضاء البشرة: "أريدك الآن أن تغسلي كـــل الملابـــس بيديك في بادئ الأمر وأن تضعيها بعد ذلك في الغسالة الكهربائية لإنهاء غسلها". قلت: "لماذا يجب عليّ غسلها باليد في حين أن الغسالة الكهربائية تقوم بالمهمة؟ إنه أكبر هدر للوقت سمعتُ به يوماً".

فابتـــسمت الـــسيدة بيضاء البشرة ابتسامة ساخرة، وبعد خمس دقائق كنت في الشارع.

بعملـــي لدى الآنسة سيليا، بات في استطاعتي إيصال أطفالي إلى مدرسة سبان الإعدادية في الصباح، وتخصيص وقت للاهتمام لنفسي في المـــساء. لم أحصل على قيلولة منذ ولادة كيندرا عام 1957، ولكن، بدوام العمل هذا من الثامنة حتى الثالثة كان في استطاعتي الحصول على قيلولة كل يوم، وهو مفهومي لتمضية وقت جميل. وبما أن أي حافلة لا تصل إلى منـــزل الآنسة سيليا، كان عليّ استخدام سيارة ليروي.

"لـــن تأخـــذي سيارتي كل يوم، يا امرأة. ماذا لو أصبحت نوبة عملي في النهار واحتجتُ إلى...".

"إنها تدفع لي سبعين دولاراً نقداً كل يوم جمعة، يا ليروي".

"ربما أستقلّ دراجة شوغر".

في يـــوم الـــثلاثاء، أي اليوم التالي للمقابلة، ركنتُ السيارة وراء مـــنعطَف في الشارع الذي يوجد فيه منـــزل الآنسة سيليا كيلا يراها أحـــد. وركـــضتُ بسرعة على الطريق الخاوية، ودخلت الممرّ الخاص بالمنـــزل. لم تكن تمرّ أي سيارة من هناك.

"أنا هنا، يا آنسة سيليا". أدخلتُ رأسي إلى غرفة نومها، ورأيتها مستلقية وسط أغطيتها بتبرّجها المثالي، وقميص النوم المشدودة الخاصة بـيوم الجمعة، علماً أنه يوم الثلاثاء، تقرأ مجلة *هوليوود دايجست* التافهة كما لو أنها كتاب عظيم الأهمية.

قالت: "صباح الخير، يا ميني! تُسعدني حقاً رؤيتك". اقشعرّ بدني بسبب سماع سيدة بيضاء البشرة تتكلم بهذه المودة.

فألقيت نظرة على أرجاء الغرفة، مقدّرةً حجم المهمة. كانت كبيرة وتحتوي على سجادة فاتحة اللون، وسرير ملَكي أصفر مسقوف، وكرسيَّين صفراوَين كبيرين. كانت أنيقة ولا وجود لأي ملابس على الأرض، وكان فراش السرير تحت الآنسة سيليا مرتباً، والملاءة مطويّة بشكل جيد وموضوعة على الكرسي. ولكنني راقبتُ ونظرتُ، وكان في استطاعتي الشعور بوجود خَطب ما.

سألَت: "متى يمكننا البدء بدرس الطهو الأول، هل يمكننا البدء اليوم؟".

"بعد أيام قليلة كما أعتقد، بعد أن تذهبي إلى المتجر، وتحصلي على ما نحتاج إليه".

فكرَت في ذلك لبضع ثوانٍ وقالت: "ربما يتعيّن عليك الذهاب بنفسك، يا ميني، بما أنك تعرفين ما يجب شراؤه".

فنظرت إليها. إن معظم النساء بيضاوات البشرة يرغبن في التسوّق بأنفسهنّ. "حسناً، سأذهب صباح غد إذاً".

رأيتُ بطانية صوفية صغيرة، زهرية اللون، وسميكة موضوعة بشكل منحرف فوق السجادة بالقرب من باب الحمّام. أنا لست مزيِّنة منازل، ولكنني أُدرك أن بطانية زهرية اللون لا تتلاءم مع غرفة صفراء.

"يا آنسة سيليا، قبل أن أباشر بالعمل لديك، أريد أن أعرف متى تخططين بالتحديد لإطلاع السيد جوني على أمري؟".

كانت تطالع والمجلة في حضنها. "بعد أشهر قليلة كما أعتقد. أكون قد تعلّمت الطهو في غضون تلك المدة".

"هل تعنين بأشهر قليلة شهرَين؟".

عضّت على شفتيها المكسوّتين بأحمر الشفاه. "كنت أفكر في أكثر من ذلك... أربعة أشهر".

ماذا أقول؟ لن أعمل أربعة أشهر كمجرمة فارّة. "لن تقومي بإخباره حتى العام 1963؟ لا، يا سيدتي، *قبل* الميلاد".

فتنهّدت. "حسناً، ولكن قبل الميلاد مباشرةً".

قمتُ ببعض الحسابات. "أي بعد مرور مئة... وستين يوماً. ستقومين بإخباره بعد مئة وستين يوماً".

فرمقتني بوجه عابس قلق. أظن أنها لم تكن تتوقع وجود خادمة تجيد الحساب. أخيراً، قالت: "موافقة".

وقلت لها بعد ذلك إن عليها الانتقال إلى غرفة الجلوس لإنهاء عملي في غرفة النوم. وعندما ذهبَت، نظرتُ إلى الغرفة متأمّلةً أناقتها. وببطء شديد، فتحتُ خزانتها وسقط خمسة وأربعون غرضاً على رأسي كما توقعتُ. وألقيتُ نظرةً تحت السرير، فوجدتُ ملابس متّسخة أراهن على أنها لم تُغسَل منذ أشهر.

كانت الفوضى تعمّ الأدراج، والملابس المتسخة، والجوارب الطويلة الملفوفة، تملأ الزوايا. لقد وجدتُ خمس عشرة علبة قمصان جديدة للسيد جوني تقوم الآنسة سيليا بتزويده بها كيلا يعلم أنها لا تُجيد غسل الملابس وكيّها. أخيراً، رفعت تلك البطانية زهرية اللون والمُضحكة، ووجدت تحتها بقعة كبيرة بلون الصدأ، فارتجفتُ.

بعد ظهر ذلك اليوم، وضعتُ والآنسة سيليا لائحة بما يتعيّن طهوه في ذلــك الأسبوع، وقمت في صباح اليوم التالي بتسوّق البقالة. ولكن الأمــر تطلّبني مدة مضاعَفة من الوقت لأنه كان عليّ القيادة إلى جيتني جانغــل الخاص بذوي البشرة البيضاء في المدينة، بدلاً من التسوّق من متجر بيغلي ويغلي الخاص بذوي البشرة الملوَّنة، القائم بجانب منــزلي، لأنــي تصوّرتُ أنها لن تتناول بقالة من متجر للملوَّنين، ولم أَلُمها على ذلــك، بــسبب حبوب البطاطا التي تحتوي على ثقوب بقياس بوصة، والحلــيب لاذع الطعــم إلى حدٍّ ما. وعندما عدت إلى العمل، كنت مــستعدة للشجار معها بشأن الأسباب التي حملتني على التأخر، ولكن الآنسة سيليا كانت على سريرها كما في اليوم السابق، مرتديةً ثيابها من دون أن تكــون ذاهبة إلى أي مكان، وتبتسم كأن شيئاً لم يحدث. لقد جلست هناك تقرأ المجلات لمدة خمس ساعات، ولم تنهض إلا لإحضار كــوب مــن الحليب أو لدخول الحمّام. ولكنني لم أقل أي شيء لأنني خادمة ليس إلا.

بعــد تنظيف المطبخ، قصدتُ غرفة الجلوس العادية. فتوقفت عند المدخل ورمقت ذلك الدب الرمادي بنظرة مديدة. كان يبلغ طوله سبع أقــدام، ويكــشف عن أنيابه، وكان فكاه طويلين ومتقوّسين كفكَّي مــشعوذة، ويــوجد عــند قدمَيه سكين صيد ذو مِقبض مصنوع من العظــام. فدنوت منه، ورأيت فراءه مكسوّاً بالغبار، وخيوط العنكبوت بين فكَّيه.

في بادئ الأمر، أزلت الغبار بالمكنسة، ولكنه كان سميكاً وملتصقاً بالفــراء. لذلك، التقطت قطعة قماش، وحاولت إزالة الغبار، ولكنني كنت أُطلق صوتاً عالياً كلما لمس ذلك الشعر السِلكي يدي. يا لذوي البشرة البيضاء! لقد نظفت كل شيء بدءاً بالبرادات وانتهاءً بالأماكن

الخلفية، ولكن، ما الذي جعل تلك السيدة تظن أنني أُجيد تنظيف دب رمادي لعين؟!

ذهبت لإحضار مكنسة الهوفر، وأزلت القذارة عن الفراء، وأظن أنـــي نجحت في الأمر باستثناء بعض البُقع التي لم تزُل تماماً بالرغم من تركيزي عليها.

بعـــد انتهائي من الدب، أزلت الغبار عن الكتب المزخرفة التي لا يقرأها أحد وعن أزرار المعطف الاتحادي، والمسدس الفضي. كان هناك إطـــار ذهبـــــي لـــصورة الآنسة سيليا والسيد جوني عند زواجهما، فنظرت عن قُرب لرؤية أي نوع من الرجال هو. وأملت في أن يكون بديـــناً، وذا ســيقانٍ قــصيرة كـــيلا يتمكن من اللحاق بـــي إذا ما اضـــطُررت إلى الهربِ، ولكنه لم يكن كذلك. كان قوي البنية، طويل القامـــة، مكتنـــــز الجـــسم، ومألوفاً بالنسبة إليّ كذلك. يا الله، إنه الـــشخص الـــذي كان يرافق الآنسة هيلي طوال تلك السنوات عندما عملتُ في بادئ الأمر لدى الآنسة والترز. لم ألتقِ به أبداً، ولكنني رأيته مرات عدة وهي كفيلة بأن أعرفه. فارتجفتُ، وازدادت مخاوفي أضعافاً مضاعَفة لأن مرافقته للآنسة هيلي كفيلة بمعرفة طباعه.

عند الساعة الواحدة، قدمت الآنسة سيليا إلى المطبخ، وقالت إنها جاهـــزة لدرســـها الأول في الطهو، وجلسَت على كرسي بلا ظهر. كانت ترتدي كنـــزة صوفية حمراء ضيّقة وتنورة حمراء، وتضع مقداراً كبيراً من مساحيق التبرّج كفيلة بإخافة فتاة ليل.

سألتُ: "ماذا تعرفين عن الطهو؟".

ففكرَت في الأمر، مغضّنةً جبينها. "لا شيء".

"لا بد من أن يكون هناك ما تجيدين إعداده. ماذا علّمتك والدتك في أثناء نشأتك؟".

فنظرت إلى جوربيها الطويلين الشبيهين بنسيج العنكبوت وقالت: "أجيد إعداد خبز الذرة".

لم أتمالك نفسي من الضحك. "ما الذي تجيدين إعداده إلى جانب خبز الذرة؟".

"أجـــيد سلق البطاطا". وغدا صوتها أكثر انخفاضاً. "وأجيد طهو البُـــرغل. لم يكن لدينا تيار كهربائي حيث كنا نقيم. ولكنني مستعدة للتعلّم على الفور على جهاز طبخ حقيقي".

يـــا الله. لم يـــسبق لي أن التقيت شخصاً أبيض البشرة أسوأ مني باســـتثناء الآنـــسة والي المخبولة التي تقيم وراء متجر كانتون، وتتناول طعام الهررة.

"تُطعمين زوجك البرغل وخبز الذرة كل يوم؟".

فأومـــأت الآنسة سيليا برأسها. "ولكنك ستعلّمينني الطهو، أليس كذلك؟".

قلـــت: "سأحاول". علِماً أنه لم يسبق لي أن قلت لامرأة بيضاء البشرة ما يجب عليها القيام به، ولم أكن أعرف كيفية الشروع بذلك. فـــسحبت جوربـــي الطويلين نحو الأعلى، وفكّرت في الأمر. أخيراً، أشرت إلى الوعاء المعدني على المنضدة.

"أعتقد أنه إذا كان هناك ما يتعيّن عليك معرفته عن الطهو، فهو ذلك الموجود في هذا الوعاء المعدني".

"إنه شحم حيواني، أليس كذلك؟".

قلـــت: "لا، لـــيس شحماً حيوانياً، إنه الاختراع الأكثر أهمية في العمل المطبخي بعد المايونيز".

"ما الذي يجعله مميَّزاً إلى هذا الحد". وغضّنـت أنفها بعد أن قرّبته من الوعاء "شحم حيواني؟".

"لا، لـــيس منـــتوجاً حيوانياً، إنه منتوج نباتي". من في العالم لا يعـــرف ما الكريسكو؟ "لا يمكنك أن تتخيلي الأمور التي يمكنك القيام بها بواسطته".

فهزّت كتفيها. "القلي؟".

"ليس للقلي فقط. ألم يلتصق بشعرك، ذات يوم، شيء ما كعلكة مـــثلاً؟". ومـــددت إصـــبعي باتجـــاه وعاء الكريسكو. "صحيح، إنه الكريـــسكو. ادهـــني بعضاً منه على مؤخرة الطفل، ولن تواجهي أبداً مـــشكلة الطفـــح الجلدي الذي يتسبب به الحفاض". ووضعتُ ثلاث ملاعق كبيرة في قِدر طبخ سوداء. "لقد رأيت سيدات يدهنّ منه تحت عيونهنّ، وعلى أقدام أزواجهنّ الحرشفية".

قالت: "انظري كم هو جميل، كناطف الكعكة الأبيض".

"نظفـــي المادة الدَّبقة التي تخلّفها بطاقة السعر بعد نـــزعها، أزيلي صـــرير مفصلة الباب، لدى انقطاع الكهرباء، ضعي فتيلاً فيه، وأشعليه كشمعة".

أشعلتُ النار، وشاهدناه يذوب في قِدر الطبخ. "وبعد كل ذلك، يقلي الدجاج".

قالت، مركّزةً بشدة: "كل شيء على ما يُرام، ماذا بعد؟".

قلـــت: "نـــنقع قِطع الدجاج بمَخيض الحليب، والآن، نضيف المـــستلزمات الجافـــة". وســـكبتُ دقيقاً، وملحاً، ومزيداً من الملح، والفلفـــل، والفلفل الأحمر، ورشّة فلفل أحمر حر، داخل كيس ورقي مزدوج.

"الآن، نضع قِطَع الدجاج في الكيس، ونهزّه".

وضعت الآنسة سيليا فخذ دجاج نيء داخل الكيس، وهزّته بقوة.

"على هذا النحو؟ على غرار إعلانات شايك آند بايك على التلفاز؟".

قلـــت: "أجل". ومرّرتُ لساني على أسناني لأنه إذا لم تكن هذه الحـــركة شتيمة، فلا أعرف ما تكون. "على غرار شايك آند بايك".
ولكـــنني تـــسمّرتُ في مكاني بسبب سماعي صوت محرك سيارة على الطـــريق. فـــوقفتُ بـــلا حراك واستمعت. ورأيت عيني الآنسة سيليا تتسعان، وكانت تستمع أيضاً. كنا نفكر في الأمر نفسه، *ماذا لو كان هو، وأين أختبئ؟*

وابتعد صوت محرّك السيارة، فتنفسنا الصُعداء.

قلت، صارّةً أسناني: "يا آنسة سيليا، هل يُعقل ألا تخبري زوجك عني؟ ألن يعرف عندما تتحسن نوعية الطهو؟".

"آه، لم أفكر في ذلك! ربما يجدر بنا إحراق قِطَع الدجاج قليلاً".

نظرتُ إليها جانبياً. لن أحرق أي قِطع دجاج. فهي لم تُجب عن سؤالي، ولكنني سأحصل على الإجابة في وقت قريب.

بحـــذر شـــديد، وضعتُ اللحم داكن اللون في قِدر الطبخ. وبدأ يقـــبق كما لو أننا نستمع إلى أغنية، وشاهدنا لون الأفخاذ يتحوّل إلى بنّي. فنظرتُ إلى الآنسة سيليا ورأيتها تبتسم لي.

"ماذا؟ هناك شيء على وجهي؟".

"لا". قالـــت، وترقرقت عيناها بالدموع. فلمست ذراعي. "أنا شديدة الامتنان لأنك موجودة هنا".

أبعـــدتُ ذراعي عن يدها. "يا آنسة سيليا، عليك أن تكوني ممتنّة لأمور كثيرة غير وجودي معك".

"أعلـــم". نظرَت إلى قِطع الدجاج المُتقَنة كما تنظر إلى أمر سيئ المذاق. "لم أحلم أبداً أن أحصل على كل ذلك".

"حسناً، ألستِ محظوظة؟".

"لم أشعر بهذه السعادة كل حياتي".

لم أُضف أي كلمة أخرى. فبالرغم من كل تلك السعادة، من المؤكد أنها لم تكن تشعر بالسعادة في الصميم.

* * *

في تلك الليلة، اتصلتُ بآيبيلين.

"كانت الآنسة هيلي عند الآنسة ليفولت يوم أمس". قالت آيبيلين. "سألَت عما إذا كان أحد يعرف المكان الذي تعملين فيه".

"يا الله، لو عرفت بأمري لأفسدَت كل شيء بالتأكيد". لقد مر أسبوعان على ذلك الأمر الشنيع والمروِّع الذي فعلته لتلك المرأة. كنت أعلم أنها تحب أن تراني أُطرَد على الفور.

سألت آيبيلين: "ماذا قال ليروي عندما أخبرته أنك حصلت على عمل؟".

قلت: "لقد جال في المطبخ متبختراً أمام الأطفال كديك مزيَّن بالريش، كان يتصرف كما لو أنه الوحيد الذي يُعيل العائلة وأن ما أقوم به هو للتسلية فقط. ومع ذلك، وفي وقت لاحق على السرير، بكى زوجي الذي كنت أظن أنه ثور صلب العود".

ضحكت آيبيلين. "يشعر ليروي بكثير من الاعتداد بالنفس".

"أجل، أبقى بعيدة عن نظر السيد جوني كيلا يكتشف أمري".

"و لم تُطلعك على سبب عدم رغبتها في أن يعرف بوجودك؟".

"كل ما قالته إنها تريده أن يعتقد أنها تجيد الطهو والتنظيف بنفسها. ولكنه ليس السبب الحقيقي. هي تخفي أمراً ما عني".

"إن كيفية سير الأمور أمر مضحك. لا تستطيع الآنسة سيليا إخبار أحد وإلا عرف السيد جوني بما يجري. وهكذا، لن تكتشف الآنسة هيلي الأمر لأنه ليس في استطاعة الآنسة سيليا إخبار أحد. ما كنت لتستطيعي تجنّب التعرض للأذى من دون هذه الصُدَف".

"أمـــم – همم". هو كل ما قلت. لم أشأ أن أبدو غير ممتنّة بما أن آبيلين هي التي تدبّرت لي العمل. ولكن، لم أتمكن من عدم التفكير في أن متاعبـــي تضاعفت، الآنسة هيلي والسيد جوني أيضاً.

قالت آيبيلين وتنحنحت: "يا ميني، أريد أن أطرح عليك سؤالاً، هل تعرفين الآنسة سكيتر تلك؟".

"المرأة الطويلة التي اعتادت القدوم إلى منـــزل الآنسة والترز للعب البريدج؟".

"أجل، ما رأيك بها؟".

"لا أعـــرف، إنها بيضاء البشرة على غرار البقية، لماذا؟ ماذا قالت عني؟".

قالـــت آيبيلين: "لم تقل شيئاً عنك، لقد... منذ أسابيع قليلة، لا أعلـــم لمـــاذا أستمر في التفكير في الأمر. لقد طلبت مني أمراً ما. لقد ســـألتني عما إذا كنت أريد تغيير الأمور. لم تطرح امرأة بيضاء البشرة سؤالاً مماثلاً من قَبل...".

لكـــن لـــيروي خرج من غرفة النوم بخطى متعثّرة، وطلب إعداد قهوته قبل أن يحين موعد نوبة عمله في وقت متأخر من اليوم.

قلت: "تبّاً، لقد استيقظ، تكلّمي بسرعة".

قالت آيبيلين: "لا، لا تقلقي. ليس بالأمر الهام".

"ماذا؟ ماذا يجري؟ ماذا قالت لك تلك السيدة؟".

"كانت مجرد ثرثرة. كان هراء".

الفصل الرابع

في الأسبوع الأول من عملي لدى الآنسة سيليا، نظفت المنــزل لدرجــة أنه لم تعُد لديّ أي قطعة قماش، أو ملاءة مقلّمة، أو جورب للــركض، لإزالة الغبار. في الأسبوع الثاني، نظفت المنــزل مجدداً لأنه بدا لي أن القذارة ظهرت مجدداً. وفي الأسبوع الثالث، كنت راضية عن حال المنــزل وحدّدت الطرائق التي يجب عليّ اتباعها لتدبّر شؤونه.

في كــل يوم، كان يبدو الأمر كما لو أن الآنسة سيليا لا تصدّق أنني عدت إلى العمل. كنت الشخص الوحيد الذي يقاطع كل السكون القــائم مــن حــولها. فمنــزلي مليء على الدوام بثلاثة أبناء وبنات، وجيران، بالإضافة إلى زوجي. وكنت ممتنّة في معظم الأيام التي آتي فيها إلى منــزل الآنسة سيليا بسبب السلام الذي أحظى به.

لقــد وزّعــتُ المهام الموكَلة إليّ لتدبّر شؤون المنــزل على أيام الأســبوع؛ يــوم الاثنين، أزيّت الأثاث، يوم الثلاثاء، أغسل الملاءات وأكــويها، وكــنت أكــره هــذا اليوم، يوم الأربعاء، أفرك حوض الاســتحمام جــيداً، عِلماً أنني أفركه كل صباح، يوم الخميس، ألمّع الأرضيات وأكنس السجاد بالمكنسة الكهربائية، وأنكبّ على السجاد القــديم بمكنسة يدوية كي لا يفقد خيوطه، يوم الجمعة مخصص لإعداد

الوجبات الكبيرة لنهاية الأسبوع وللمناسبات. وفي كل يوم، كنت أمسح، وأغسل الملابس، وأكوي القمصان، كي لا تتكدّس الأعمال بحيث لا يعود في استطاعتي إنهاؤها، وأحافظ على نظافة المنزل بشكل عام، وأنظف الأواني الفضية والنوافذ عند الحاجة. وبما أنه لم يكن هناك أي طفل للاعتناء به، وجدت متَّسعاً من الوقت لإعطاء الآنسة سيليا ما يدعى دروساً في الطهو.

لم تكن الآنسة سيليا تمارس أي نشاطات ترفيهية، لذلك كنا نُعدّ معاً ما تتناوله مع السيد جوني على العشاء، كقطع لحم، دجاج مقلي، لحم بقر مشوي، فطيرة دجاج، عُنُق حمل، بطاطا مقلية، بطاطا مهروسة، بالإضافة إلى الخضار، أو أطهو بنفسي وتتململ الآنسة سيليا كما لو أنها طفلة في الخامسة من عمرها، وليست تلك السيدة الثرية التي تدفع أجري. ولدى انتهاء الدرس، تسارع إلى الاستلقاء. في الواقع، إن المرة الوحيدة التي تقوم فيها الآنسة سيليا بقطع عشر خُطى هي عندما تدخل المطبخ لحضور درسها أو لصعود السلّم كل يومين أو ثلاثة أيام إلى الغرف التي تبعث على القشعريرة.

لم أكن أعلم ما الذي تقوم به في الطابق الثاني لمدة خمس دقائق. كان يجب أن تكون غرف النوم هذه مليئة بالأطفال الضاحكين، والصائحين، والذين يعيثون في المكان خراباً. ولكن، لا شأن لي بما تفعله الآنسة سيليا خلال يومها، وأنا سعيدة لأنها لا تُلهيني عن عملي. كنت قد تبعت سيدات في أرجاء المنزل حاملةً مكنسة بيد ومجروداً باليد الأخرى لأنظف وراءهنّ. فما دامت في ذلك السرير، يكون لديّ ما أقوم به. وحتى وإن لم يكن لديها أي طفل، وما تقوم به طوال اليوم، فقد كانت المرأة الأكثر كسَلاً التي عرفتها يوماً، *بالإضافة إلى* شقيقتي دورينا التي لم تحمل يوماً أي شيء بيدَيها، بسبب خلل في قلبها

اكتشفنا في ما بعد أنه مرض ناتج عن الذباب، بعد معاينتنا صورة بأشعة إكس.

لم يكن السرير هو ما تلازمه الآنسة سيليا فحسب، بل المنزل الذي لا تغادره إلا لتصفيف شعرها وتقليم أظافرها. كان قد مضى على عملي هناك ثلاثة أسابيع، ولم يحدث هذا الأمر إلا مرة واحدة. كنت في الثالثة والستين من العمر، ولا أزال أسمع والدتي تقول لي، *لا شأن لكِ بالآخرين*. ولكنني أردت أن أعرف سبب خشية تلك السيدة من الخروج.

في أيام قَبض الراتب، كنت أذكّر الآنسة سيليا بالأيام المتبقية لبلوغ موعد قيامها بإخبار السيد جوني عني. في ذلك اليوم قلت: "لا يزال أمامنا تسعة وتسعون يوماً".

قالت بنظرة مشمئزة: "يمرّ الوقت بسرعة".

"لقد توقفت سيارة أمام الرُّواق الخارجي هذا الصباح، فظننت أنها سيارة السيد جوني".

على غراري، كانت الآنسة سيليا تغدو عصبية المزاج أكثر فأكثر كلما اقتربنا من الموعد المحدد. ولم أكن أعرف ردّ فعل ذلك الرجل عندما تطلعه على الأمر، ربما يطلب منها أن تطردني.

قالت: "آمل في أن يكون هناك وقت كافٍ، يا ميني. هل تظنين أنني أتحسن في الطهو؟". فنظرتُ إليها. كانت تملك ابتسامة جميلة، وأسناناً بيضاء قويمة، ولكنها أسوأ طاهية عرفتها يوماً.

لذلك، أعدتُ النظر في أسلوبي وعلّمتها أبسط الأمور لأنني أريدها أن تتعلم بسرعة. لقد كنت بحاجة إليها لأشرح لزوجها سبب امتلاك زنجية تزن مئة وخمسة وستين رطلاً مفاتيح منزله، وائتمانها على استرلينياته الفضية، وأقراط الآنسة سيليا الثمينة المصنوعة من

الـــياقوت. كنت *بحاجة* إلى أن يعرف ذلك قبل أن يكتشف وجودي ذات يـــوم ويتـــصل بالـــشرطة، ويكون عليه ادّخار عشرة سنتات، والاهتمام بشؤون المنـــزل بنفسه.

"انقعي اللحم المقدّد بالشراب، واحرصي على إضافة كمية كافية مـــن الماء، تماماً. الآن، أشعلي النار. هل ترين تلك الفُقاعة هناك، هذا يعني أن الماء سعيد".

حـــدّقت الآنـــسة سيليا إلى داخل القِدر كما لو أنها تبحث عن المستقبل. "هل أنت سعيدة يا ميني؟".

"لماذا تطرحين عليّ أسئلة غريبة مماثلة؟".

"ولكن، هل أنت سعيدة؟".

"بالطبع أنا سعيدة. وأنت سعيدة أيضاً. منـــزل كبير، فناء كبير، زوج يهـــتم لك". فنظرتُ إلى السيدة سيليا مقطّبة الجبين من دون أن تـــراني، متسائلةً عما إذا كان في استطاعتنا إسعاد ذوي البشرة البيضاء هؤلاء *بشكل كافٍ*.

كلما أحرقت الآنسة سيليا اللوبياء، أحاول تمالك نفسي لا سيّما وأن والـــدتي كانت قد أقسمت إنني غير قادرة على تمالك نفسي منذ ولادتي. "تماماً". قلت، صارّةً أسناني: "سنُعدّ عجنة أخرى قبل أن يعود السيد جوني إلى المنـــزل".

كـــم رغبتُ في الإشراف، ولو لساعة واحدة، على النساء اللواتي عملت لديهنّ لأتبيّن حقيقة مشاعرهنّ حيال ذلك. فالآنسة سيليا تحدق إليّ بـــتلك العينين الكبيرتين، كما لو أنني أفضل ما حدث لها بعد رذاذ الـــشعر. وبـــدأت أتساءل عما إذا كانت هناك علاقة بين بقائها على السرير طوال الوقت وعدم إطلاع السيد جوني على أمري. وأعتقد أنه كان في استطاعتها رؤية الارتياب في عينيّ أيضاً لأنها قالت لي ذات يوم

وبشكل مفاجئ: "تنتابني تلك الكوابيس كثيراً، أنه سيكون عليّ العودة إلى شـوغر ديـتش والعيش هناك؟ لذلك أستلقي على السرير طوال الـوقت". وأومـأت من ثم برأسها بسرعة كبيرة، كما لو أنها كانت تتدرّب منذ مدة على قول ذلك. "لأنني لا أنام جيداً في الليل".

فابتسمت لها كما لو أنني أُدرك الأمر، وأكملتُ مسح الزجاج.

"لا تمسحيه جيداً. اتركي بعض البُقع".

كنا نتقصّد باستمرار ترك غرض ما، أو مرآة، أو أرضية من دون تنظـيف، أو إبقـاء كوب في حوض الغسيل، أو وعاء القُمامة مليئاً. كانت تقول: "يجب أن نجعل الأمر يبدو قابلاً للتصديق". وأجد نفسي مـئات المرات غير قادرة على ترك ذلك الكوب متسخاً، فأقوم بغسله. أحب الأشياء نظيفة وفي مكانها.

قالت الآنسة سيليا ذات يوم: "أتمنى لو كان في استطاعتي الاعتناء بالشُجيرات دائمة الخضرة تلك في الخارج". لقد اعتادت الاستلقاء على الأريكة في أثناء عرض برامجي التلفازية المفضّلة، وتشتيت انتباهي على الـدوام. كـنت قد دأبت على متابعة برنامج *النور الهادي* على راديو والدتي طوال أربعة وعشرين عاماً منذ كنت في العاشرة من العمر وأنا أستمع إليه.

عُـرض إعلان تجاري لدريفت، فحدّقت الآنسة سيليا، عبر النافذة الخلفـية، إلى الرجل ذي البشرة الملوّنة الذي يجمع الأوراق. كانت لديها العديد من الشُجيرات لدرجة أن فناءها سيغدو في الربيع كالفناء الموجود في فـيلم *ذهـب مع الريح*. لم أكن أحب الشجيرات دائمة الخضرة ولا ذلك الفيلم بالتأكيد، لأنه يجعل الرِّق يبدو كما لو أنه حفلة شاي كبيرة تغمرها السعادة. فلو لعبتُ دور مامي، لطلبتُ من سكارليت إضافة تلك الأقمشة الخضراء على ثوبها الأبيض للفت نظر رجلها.

قالـــت الآنسة سيليا: "أعلم أن في استطاعتي جعل تلك الوردة تُزهر إذا قمت بتشذيبها، ولكن أول ما سأقوم به هو قطع شجرة الميموزا تلك".

"ما خطب تلك الشجرة؟". وضغطتُ بزاوية المكواة على طرف ياقة جوني. لم تكن لديّ أي شجرة ولا حتى جنبة في كل فنائي.

"لا أحـــب تلك الورود المكسوة بالشعر". وأشاحت بنظرها عن الشجرة وحدّقت بعيداً. "هي تبدو كشعر طفل صغير".

لقد حملتني طريقتها في التكلّم على تخيّل ملابس الأطفال. "تجيدين الاعتناء بالورود؟".

فتـــنهدَت. "كنت أحب الاعتناء بورودي في شوغر ديتش. لقد تعلمتُ زرع أشياء أملاً في إضفاء الجمال على كل تلك القباحة".

قلـــت من دون أن أُظهر الكثير من الحماسة: "اخرجي إذاً، قومي ببعض التمارين. تنشقي هواءً نقياً". *اخرجي من هنا*.

أجابـــت الآنسة سيليا متنهّدة: "لا، لا يُفترض بـــي التجول في الخارج. يجب عليّ البقاء بلا حراك قدر المستطاع".

لقد بدأ يثيرني واقع عدم مغادرتها المنـــزل أبداً، وطريقة ابتسامها كمـــا لـــو أن دخول الخادمة كل صباح المنـــزل هو أفضل وقت في يـــومها. فالأمر أشبه بالشعور برغبة في الحكاك. كل يوم، أحاول مدّ يدي للوصول إلى المكان الذي يستحكّني من دون أن أتمكن من حكّه، ويـــسوء الأمر أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. هي تلازم المنـــزل باستمرار، و لم أتمكن من إقناعها بوجهة نظري.

قلت: "ربما يجدر بك الخروج للتعرف إلى بعض الصديقات، هناك كثير من السيدات في المدينة بمثل سنّك".

فنظرت إليّ عابسة. "أحاول القيام بذلك باستمرار. لا يمكنني أن أحصي عدد المرات التي قمت فيها بالاتصال بتلك السيدات للتحقق مما

إذا كـــان في استطاعتي تقديم المساعدة للحفلة الخيرية، أو القيام بأمر ما انطلاقاً من المنـــزل. ولكن أيّاً منهنّ لم تُعاود الاتصال بـــي".

فلـــم أقل شيئاً لأن الأمر لم يفاجئني، لا سيما وأن صدرها كبير وشعرها بلون شَذرة الذهب.

"اذهبـــي للتسوق إذاً. اذهبـــي واشتري بعض الملابس الجديدة. اذهبـــــي وقومـــي بما تقوم به النساء بيضاوات البشرة عندما تكون الخادمة في المنـــزل".

قالت: "لا، أظن أنني سأخلد إلى الراحة لوقت قصير". وبعد دقيقتين، سمعت خطاها وهي تتنقل في غرف النوم الفارغة في الطابق العُلوي.

ارتطم غصن الميموزا بالنافذة، فأُجفلتُ مرتعدة وأحرقت إبهامي، وأغمـــضت عـــينيّ لإبطـــاء خفقان قلبـــي. كان لا يزال هناك أربعة وتسعون يوماً لإنهاء هذا الوضع الشاذ، ولم أتصوّر بقائي دقيقة واحدة أخرى في هذا المنـــزل بعد انتهاء الموعد.

"يـــا أمي، أعدّي لي شيئاً ما للأكل. أنا جائعة". هذا ما قالته لي ابـــنتي الـــصغرى، كيـــندرا، البالغة من العمر خمس سنوات في الليلة السابقة، واضعةً يدها على وركها، ومادةً قدمها إلى الأمام.

لـــديّ خمسة أبناء وبنات، وأشعر بالفخر لأنني علّمتهم قول *أجل يا سيدتي*، ورجاءً، قبل أن يلفظوا كلمة *كعكة محلّاة*.

كلهم باستثناء كيندرا.

قلت لها: "لن تحصلي على أي شيء حتى العشاء".

"لمـــاذا تـــضايقينني؟ أنا *أكرهك*". صاحت وخرجت من الباب راكضة.

نظـــرت إلى السقف، لأنها صدمة لن أعتاد عليها أبداً بالرغم من وجـــود أربعـــة أشقاء وشقيقات أكبر منها. فمتى قال لكم ابنكم أو

ابنتكم إنه يكرهكم، وكل الأبناء والبنات يمرون بهذه المرحلة، يبدو لكم الأمر كما لو أن ركلة وُجّهت إلى معدتكم.

لكن كيندرا، يا الله! لا يتعلق الأمر بكونها تمر بمرحلة نموّ، بل يثبت أكثر فأكثر أنها تشبهني.

كنت أقف في مطبخ الآنسة سيليا، أفكر في ما جرى في الليلة السابقة، في كيندرا وطريقة تكلّمها، في بيني وداء الرّبو الذي يُلِمّ به، وفي زوجي ليروي الذي عاد في حال يرثى لها إلى المنزل مرتين في الأسبوع السابق. هو يعلم أنه الأمر الوحيد الذي لا يمكنني تحمّله بعد أن اعتنيتُ بوالدي الثمل طيلة عشر سنوات، وكنت ووالدتي نكدّ بالعمل ليحصل على زجاجة كاملة من الشراب. أظن أنه كان يجدر بي أن أكون شديدة الاستياء في الليلة السابقة، ولكن ليروي عاد إلى المنزل مع كيس من البامياء المبكِّرة. هو يعلم أنه الطعام المفضَّل لديّ. فقررت قَلي تلك البامياء مع بعض دقيق الذرة، وتناولها كما لم تسمح لي والدتي أبداً بتناولها.

لم يكن هذا الأمر متعتي الوحيدة في ذلك اليوم. فقد كان الأول من تشرين الأول/أكتوبر، وأقوم بتقشير الدُراق حيث أحضرت والدة السيد جوني معها من المكسيك، قفصَين ثقيلَين منه. فالدُراق ناضج وحُلو المذاق، وتقطّعونه كما تقطّعون الزبدة. لم أكن أقبل الإحسان من السيدات بيضاوات البشرة لأنني أعرف أنهنّ يُردن أن أكون مدينة لهنّ. ولكن، عندما طلبت مني الآنسة سيليا أخذ دزّينتين من الدُراق إلى منزلي، أحضرتُ كيساً ووضعتُ فيه اثنتي عشرة حبة. وعندما وصلت إلى المنزل في المساء، تناولتُ البامياء المقليّة كوجبة عشاء وعصير الدُراق المثلّج كتحلية.

لقد شاهدت القشرة الطويلة والوبرية تسقط في وعاء الآنسة سيليا من دون الانتباه البتة للطريق الخاصة بالمنزل. فعندما أكون واقفة أمام

حوض الغسيل في مطبخها، أخطط لفراري من السيد جوني. والمطبخ هو أفضل غرفة للفرار لأن النافذة الأمامية تُطلّ على الشارع. فالشجيرات دائمة الخضرة الطويلة تستر وجهي، ولكن، يمكنني الرؤية من خلالها بما يكفي لمشاهدة كل من يدنو من المنزل. فإذا دخل من الباب الأمامي، يمكنني الفرار من الباب الخلفي المؤدي إلى المرأب. وإذا دخل من الباب الخلفي، يمكنني التسلل من الباب الأمامي. وهناك باب آخر موجود في المطبخ يؤدي إلى الفناء الخلفي عند الحاجة. ولكنني كنت في حلم يقظة أقوم بتقشير الدُراق والعصارة تسيل من يدي، ثمِلةً تقريباً برائحة هذه الفاكهة لدرجة أنني لم ألاحظ توقف الشاحنة الزرقاء أمام المنزل.

كان الرجل قد وصل إلى منتصف الممر عندما نظرتُ إلى الخارج ورأيته. فالتقطتُ قميصاً بيضاء من النوع الذي اعتدتُ كيّها كل يوم، بالإضافة إلى ساق بنطال كاكي من النوع الذي أعلّقه في خزانة السيد جوني، وكبتُّ صرخة كادت تخرج من فمي، ووقع سكّيني في حوض الغسيل مصلصلاً.

قلت، واندفعتُ مُسرعةً إلى داخل غرفة نومها: "يا آنسة سيليا! السيد جوني *في المنزل*!".

فقفزت الآنسة سيليا من سريرها بسرعة غير مسبوقة، ودُرتُ حول نفسي بغباء. *أين أذهب؟ أي طريق أسلك؟ ماذا حل بمخطط الفرار؟* وفجأةً، توصلتُ إلى قرار حمّام الضيوف!

فتسللتُ إلى داخله، وأبقيت الباب مفتوحاً قليلاً. وجثمت على مقعد المرحاض كيلا يرى قدميّ من تحت الباب. كان المكان مُظلماً والطقس حارّاً في الداخل، وشعرت أن رأسي يشتعل. وتقطّر العرَق من ذقني وسقط على الأرض. فشعرت بالغثيان بسبب الرائحة القوية المنبعثة من صابونة الغاردينيا الموضوعة بجانب المِغسلة.

سمعتُ وَقع خُطى، فحبست أنفاسي.

توقف وَقع الخطى. كان قلبـــي يقفز كهرّ في نشّافة ملابس. ماذا لـــو ادّعـــت الآنسة سيليا أنها لا تعرفني كيلا تقع في متاعب وتصرَفت كما لو أنني لص؟ *آه، كم أكرهها! أنا أكره تلك المرأة الغبية!*

أصـــغيت، ولكـــن، كـــل ما كان في استطاعتي سماعه هو لهاثي وخـــبطات قلبـــــي داخل صدري. وبدأ كاحلاي يؤلمانني ويُحدثان صريراً بسبب حملهما جسمي الثقيل على هذا النحو.

غـــدا نظري أكثر حِدّة في الظلام. وبعد دقيقة من الزمن، رأيت نفسي في المرآة فوق المِغسلة، جاثمةً كالخرقاء على مرحاض سيدة بيضاء البشرة.

انظروا إليّ. انظروا إلى ما تقوم به ميني جاكسون لكسب رِزقها.

الآنسة سكيتر

الفصل الخامس

قـــدت ســـيارة والدتي، من طراز كاديلاك، بسرعة على الطريق المفروشـــة بالحصى، وتوجهتُ إلى المنـــزل. ولم يعد في الإمكان سماع باســـتي كلايـــن على الراديو بسبب الحصى التي تُحدث ضجيجاً من جـــوانب الـــسيارة كافة. لا بد من أن تكون والدتي غاضبة، فقدتُ بـــسرعة أكـــبر. ولم أستطع الكف عن التفكير في ما قالته لي هيلي في نادي البريدج.

فهيلي وإليزابيت وأنا من أفضل الصديقات منذ كنا نرتاد مدرسة باور إلمنتري. وأفضل صورة فوتوغرافية بالنسبة إليّ، هي تلك التي نظهر فيها ثلاثتنا جالسات على المنصات المرتفعة لملعب كرة القدم في مدرسة الأحداث العالية، والكتف على الكتف. واللافت في الأمر، أن المنصات حولـــنا كانت فارغة تماماً، ومع ذلك، فقد جلسنا بجانب بعضنا بعضاً، لأننا كنا مقرَّبات جداً من بعضنا.

في أولي ميس، أقمتُ مع هيلي لمدة عامَين قبل أن تغادر لتتزوج، في حـــين بقيتُ وتخرّجت. كنت ألفّ شعرها كل ليلة في منـــزل شي أومـــيغا بـــثلاث عـــشرة لفافة. ولكنها هدّدتني مؤخّراً بإخراجي من

الـــرابطة. لم أكـــن مهـــتمّة كثيراً للرابطة، ولكن ما آلمني هو استعداد صديقتي لوضعي جانباً بهذه السهولة.

ســـلكتُ الطريق الضيّقة المؤدية إلى لونغليف حيث مزرعة القطن الـــتي تملكهـــا عائلتي. وخبا صوت الحصى حيث يغطي الغبار الأصفر والـــناعم الطـــريق، وأبطأتُ قبل أن تراني والدتي أقود بسرعة كبيرة. فـــتوقفتُ أمـــام المنـــزل وخرجت. كانت والدتي تتأرجح في الرُّواق الخارجي.

قالـــت، مـــشيرةً إليّ بـــيدها باتجاه كرسي هزّاز بجانبها: "تعالي واجلـــسي، يا عزيزتي، لقد قامت باسكاغولا للتوّ بتشميع الأرضيات. دعيها تجفّ قليلاً".

"حسناً، يا أمي". قبّلتُ وجنتها المكسوّة بمسحوق الذُّرور، ولكنني لم أجلـــس بـــل انحنـــيت على درابزين الرُّواق الخارجي متأملةً أشجار السنديان الطُحلبية الثلاث في الفناء الأمامي. وبالرغم من أن المسافة التي تفـــصلنا عن المدينة لا تبلغ سوى خمس دقائق، يعتبر معظم الناس أن هذا المكـــان يقع في الريف. ويحيط بفنائنا عشرة آلاف أكر من حقول القطن التابعة لوالدي حيث النباتات خضراء، وطويلة حتى خصري. كان عدد قليل من الرجال ذوي البشرة الملوّنة جالسين تحت سقيفة بعيدة يشعرون بالحَرّ. فالجميع ينتظرون الأمر نفسه؛ تفتّح القطن.

فكـــرت في كم أن الأمور مختلفة بين هيلي وبيني منذ عودتي من الكلية. ولكن من الشخص المختلف، هي أم أنا؟

قالت والدتي: "هل أخبرتُك؟ أعلنت فاني بيترو خطوبتها".

"أمر جيد لفاني".

"لم يكـــن قـــد مر شهر على تسلّمها وظيفة أمينة الصندوق في مصرف المُزارع".

"إنه أمر عظيم، يا والدتي".

"أعلـــم". قالت، والتفتُّ لمشاهدة إحدى نظراتها المتّقدة. "لماذا لا تقصدين المصرف وتقدّمين طلباً للعمل كأمينة صندوق؟".

"لا أريد أن أكون أمينة صندوق، يا أمي".

فتـــنهدت الـــوالدة، وضيّقت عينيها، ناظرةً إلى الكلب الإسباني، شـــلبـــي، الذي كان يلعق نفسه. ونظرتُ إلى الباب الأمامي، وكلّي رغـــبة في الـــسير علـــى الأرضيات النظيفة لتلطيخها. لقد أجرينا هذا الحديث مرات عدة.

سألَت: "مرت أربع سنوات على تخرّج ابنتي من الكلّية، وما الذي حملَته إلى المنـــزل؟".

"شهادة دبلوم".

قالت والدتي: "قُصاصة ورق جميلة".

قلـــت: "لقد أخبرتُك. لم ألتقِ بعد الشخص الذي أريد الزواج به".

فوقفت والدتي واقتربت مني، ونظرتُ إلى وجهها الجميل والناعم. كانت ترتدي ثوباً كحليّ اللون، ضيّقاً، يُظهر مدى نحول عظامها على غـــرار إصبع أحمر الشفاه. ولكن، عندما جلسَت تحت أشعة شمس بعد الظهـــر البرّاقة، رأيت بُقَعاً قاتمة، غريبة وجافة، في الناحية الأمامية من ملابـــسها. فحدّقت بعينين نصف مغمضتين، محاولةً التأكد من وجود البُقَع. "يا أمي؟ هل تشعرين بشيء؟".

"إن أنتِ أظهرت بعض الهمّة، يا أوجينيا...".

"ثوبك متّسخ من الأمام".

فـــشبكت والدتي يدَيها بشكل متصالب. "الآن، لقد تحدثتُ إلى والدة فاني، وقالت إن الفرص المتاحة لفاني تتوالى منذ تسلّمها الوظيفة".

فأغفلتُ مسألة الثوب. لن أتمكن أبداً من إخبار والدتي أنني أريد أن أكــون كاتبة، لأن هذه المهنة تُبعدني برأيها عن الفتيات المتزوجات. ولم يكــن في اســتطاعتي إخبارها أيضاً عن تشارلز غراي، زميلي في مادة الرياضــيات في الــربيع الــسابق، في أولي ميس، وكيف أنه ثمل في عام التخــرّج وقبّلني، ومن ثم ضغط على يدي بشدة لدرجة أنه كان يُفترض به أن يؤلمني ولكنني لم أشعر بذلك. كانت طريقة إمساكه بــي ونظراته إلى عينيّ رائعتين. ولكنه تزوج بجيني سبريغ التي يبلغ طولها خمس أقدام.

مــا كنت بحاجة إلى القيام به هو العثور على شقة في المدينة، في مــبنى تعــيش فيه فتيات عازبات عاديات، وسكرتيرات، ومدرّسات. ولكــن، عــندما أعربتُ لوالدتي في ذلك اليوم عن رغبتي في استخدام مدّخراتي المالية، بدأت تذرف دموعاً حقيقية. "ذلك المال ليس مخصّصاً لهذه الأمور، يا أوجينيا، كالإقامة في منــزل يحتوي على غرف للإيجار تفــوح منه روائح طهو غريبة وتتدلى من نوافذه الجوارب. ماذا يحدث بعد نفاذ المال؟ كيف ستعيشين؟". وألقت بعد ذلك على رأسها قطعة قماش، وقصدت السرير لتمضية بقية اليوم.

أمــسكَت الدرابــزين بإحكــام في انتظار إشارة مني تشير إلى اســتعدادي للقيام بما قامت به فاني البدينة لإنقاذ نفسها. كانت والدتي تنظــر إليّ كما لو أنني أُربكها تماماً بنظراتي، وطول قامتي، وشعري. لا يمكنني القول إن شعري مجعَّد، بل إنه مليء بالعُقَد، وأشقر مبيضّ يمكن التحكم به بسهولة كالتبن. وبشرتي حسنة المظهر، ويعتبرها بعض الناس قشدية في حين أنها تبدو شاحبة كالموت عندما أكون جدّية، كما هي حــالي على الدوام. وهناك أيضاً حَدبة خفيفة بسبب وجود غُضروف علــى امتداد أعلى أنفي. ولكن عينيّ زرقاوان كعينيّ والدتي، ويقال لي إنها أفضل ميزة لديّ.

"لا يتطلب الأمر سوى أن تكوني في وضع يمكّنك من مقابلة شخص ما...".

قلت وأردت وضع حدّ لهذا النقاش: "يا أمي، هل سيكون الأمر بهذا السوء حقاً إذا لم أقابل أبداً الزوج المناسب؟".

شبكت الوالدة ذراعيها العاريتين بإحكام كما لو أنها تشعر بالبرد بسبب تلك الفكرة. "لا. لا تقولي ذلك، يا أوجينيا. أرى كل أسبوع في المدينة رجلاً تبلغ طول قامته ست أقدام فأقول لنفسي، *لو تقوم أوجينيا بالمحاولة فقط*...". ضغطت بيدها على معدتها كما لو أن الفكرة زادت من سوء قرحتها.

فخلعتُ حذائي الذي لا كعب له، ونزلتُ درجات الرُّواق الخارجي، في حين نادتني والدتي لإعادة انتعال حذائي، محذّرةً من إصابتي بداء السَعفة الجلدي والتهاب الدماغ الذي يتسبب به البعوض. الموت المحتّم بسبب عدم انتعال حذاء! الموت بسبب عدم وجود زوج! فأُصبت بالارتعاش لأن شعوراً مماثلاً للشعور الذي خبرته بعد تخرّجي من الكلّية قبل ثلاثة أشهر قد انتابني؛ لقد وجدت نفسي في مكان لم أعد أنتمي إليه. والمكان الذي أنتمي إليه ليس هنا مع والدتي ووالدي بالتأكيد، وقد لا يكون أيضاً مع هيلي وإليزابيت.

قالت والدتي: "... ها أنتِ في الثالثة والعشرين من عمرك، وقد أنجبتُ كارلتون الأصغر عندما كنت في سنّك...".

ووقفتُ تحت شجرة ريحان ذات أوراق مكرَّشة زهرية اللون، مراقبة والدتي في الرُّواق الخارجي. في ذلك اليوم، فقدت الزنابق زهورها، كنا على مشارف شهر أيلول/سبتمبر.

لم أكن طفلة جذّابة. فعندما وُلدتُ، نظر شقيقي الأكبر، كارلتون، إليّ وقال في غرفة المستشفى: "هي ليست طفلة، إنها بعوضة

(Skeeter)!". ولم يفارقني هذا اللقب منذ ذلك الحين. كنت طويلة القامة والساقَين، ونحيلة كالبعوضة، وكسرت الرقم القياسي في المستشفى إذ بلغ طول قامتي خمساً وعشرين بوصة (نحو 62 سنتمتراً)، وغدا اسمي أكثر تآلفاً مع مظهري الخارجي مع اتخاذ أنفي شكل مِنقار مستدق الرأس في طفولتي. أمضت والدتي وقتها محاولة إقناع الناس بدعوتي باسمي الأصلي، أوجينيا.

لم تكن السيدة شارلوت بودرو كانتريل فيلان تحب الألقاب.

في سن السادسة عشرة، لم أكن غير جميلة فحسب، بل وطويلة القامة على نحو استثنائي، ذلك الطول الذي يضع الفتاة في الصف الخلفي لدى التقاط صور لطلاب الصف الواحد مع الفتيان، ذلك الطول الذي يحمل والدتكم على تمضية لياليها في تطويل أهداب الملابس، والشد بأكمام الكنزات الصوفية بقوة بهدف منحها مزيداً من الطول، وتسطيح شعرك للمشاركة بالرقصات التي لم تُدعي إليها، وأخيراً ضغط أعلى رأسك نحو الأسفل كما لو أن في استطاعتها إعادتك سنوات إلى الوراء عندما كان عليها تذكيرك بالوقوف بشكل مستقيم. وعندما بلغتُ السابعة عشرة من العمر، كانت والدتي تفضّل أن تراني أعاني من إسهال حاد، بدلاً من رؤيتي واقفة بشكل مستقيم. كان يبلغ طولها 5.4 أقدام وكانت الفائزة الأولى بالمرتبة الثانية في مباريات ملكة جمال كارولاينا الجنوبية. فاعتبرَت أن هناك أمراً واحداً فقط يمكن القيام به في حالتي.

إنه دليل السيدة شارلوت فيلان للبحث عن زوج، والقاعدة الأولى فيه: يُفترض بالفتاة الجميلة والهيفاء زيادة جمالها من خلال التبرّج واعتماد وقفة جيدة، وأن تكون طويلة القامة وتملك مدّخرات مالية.

كان يبلغ طول قامتي 5.11 قدماً (177.5 سنتم)، وأملك حساباً مصرفياً بقيمة خمسة وعشرين ألف دولار، وإذا لم أبدُ جميلة

بنظر الرجل بالرغم من ذلك، فهو غير أهل إذاً، ليكون فرداً من العائلة.

* * *

تقع غرفة نومي التي كنت أستخدمها منذ سنّ الطفولة في الطابق العُلوي من منزل والدَيّ. وتوجد في الحلية المعمارية المقَولبة أشكال لقطارات مع مقاعد وأطفال مجنَّحين زهريّي اللون. والجدران مكسوّة بورق تزييني نُقشت عليه براعم وورود خضراء بلون نبات النعناع. إنها في الواقع علية ذات جدران طويلة ومائلة، ولا يمكنني الوقوف بشكل مستقيم في العديد من الأماكن داخلها. وتبدو الغرفة مستديرة بسبب الإطار البارز لنافذة الغرفة. وبعد قيام والدتي بتوبيخي في شأن العثور على زوج في ذلك اليوم، كان عليّ النوم في كعكة زفاف.

مع ذلك، تبقى هذه الغرفة مكاني المفضل. فالحَرّ يزداد ويتجمع فيها كبالون هواء ساخن لا يرحّب بالآخرين. والدرجات ضيقة ويصعب على الوالدَين صعودها. لقد اعتادت خادمتنا السابقة، كونستنتين، التحديق إلى تلك الدرجات المنحنية إلى الأمام، كما لو أنها تخوض معركة يومية معها. لقد كان الأمر الوحيد الذي يدفعني لعدم الرغبة في الحصول على الطابق العُلوي للمنزل لأنه يفصلني عن كونستنتين التي أحب.

بعد ثلاثة أيام من الحديث الذي أجريته مع والدتي في الرُّواق الخارجي، وضعتُ على مكتبي إعلانات لأشخاص يطلبون عاملات كنت قد اقتطعتها من صحيفة *جاكسون جورنال*. وتبعتني والدتي طوال الصباح في أرجاء المنزل لتُطلعني على مستحضر جديد لتثبيت الشعر، في حين كان والدي في الرُّواق الخارجي يتمتم بغضب، ويلعن حقول القطن لأنها تذوب كثلج الصيف. فبالإضافة إلى خنفساء القطن، إن

المطر هو أسوأ ما يحدث في موسم الحصاد. كنا في أوائل أيلول/سبتمبر ولكن أمطار الخريف بدأت بالهطول.

وأمسكتُ القلم بيدي، وقمت بمسح العمود بحثاً عن إعلان

مطلوب عاملة: أنثى.

متجر كنينغتون يطلب بائعات متمرسات، لائقات ومبتسمات!

تريم، مطلوب سكرتيرة شابة. إجادة الطباعة على الآلة الكاتبة غير ضروري. الاتصال بالسيد ساندرز. يا الله، إذا لم يكن يريد منها الطباعة على الآلة

الكاتبة، فماذا يريد منها أن تفعل إذاً؟

مطلوب موظفة اختزال شابة، برسي آند غراي، أل بي، 1.25 دولار في الساعة. إنه إعلان جديد، فرسمتُ دائرة حوله.

لا يمكن لأحد القول إنني لم أعمل بكدّ في أولي ميس. فبينما كان أصدقائي يحتسون الشراب ويتعاطون في أثناء حفلات في دلتا تيتا، ويلقون باللائمة على أمهاتهم، كنت أجلس في غرفة الدرس وأكتب طوال ساعات أبحاثاً فصلية في الغالب، وقصصاً قصيرة أيضاً، وأشعاراً سيئة، وفصولاً من رواية *الطبيب كيلدار*، ومقطوعات شعرية بعنوان بال مال، ورسائل شكوى وتذمّر، ورسائل حب لفتيان كنت قد التقيتهم في الصف من دون أن أجد الشجاعة للتحدث إليهم، و لم أرسل أياً منها عبر البريد. بالتأكيد، لقد حلمت أن تكون لديّ مواعيد مع شبّان في أثناء مباريات كرة القدم، ولكن حلمي الحقيقي هو كتابة شيء ما يحب الناس قراءته.

كنت قد تقدّمت في الفصل الرابع من عام تخرّجي بطلب واحد للحصول على عمل يقع على بُعد ستمئة ميل من الميسيسيبي، ولكنه عمل جيد. لقد استعلمتُ عن منصب محرر في دار نشر هاربر آند روو

الـــواقعة في الشارع الثالث والثلاثين في مانهاتن، مُنفِقةً اثنين وعشرين دايماً في أكسفورد مارت للتحدث عبر الهاتف العمومي. كنت قد رأيت الإعـــلان في ذي *نيويورك تايمز* في مكتبة أولي ميس، وأرسلتُ لهم عبر البريد موجزاً عن سيرتي الذاتية في ذلك اليوم عينه، حتى إنني اتصلتُ في لحظـــة أمل للاستعلام عن شقة في الشارع الثامن والخمسين الشرقي، مؤلّفة من غرفة نوم واحدة لقاء خمسة وأربعين دولاراً في الشهر، على أن أحصل في المقابل على طبق ساخن أيضاً. وأبلغني الموظف في خطوط دلـــتا الجوية أن تذكرة ذهاب إلى مطار آيدلويلد تبلغ تكلفتها سبعين دولاراً. ولم أكـــن أشـــعر بالرغبة في التقدّم بطلب عمل آخر في وقت واحد، ولم أتلقَّ أي جواب منهم.

انـــساق نظري وصولاً إلى إعلان **مطلوب عامل: ذكر**. كانت هناك، على الأقل، أربعة أعمدة مليئة بإعلانات لطلب مدراء مصارف، ومحاســـبين، وموظفـــي مَـــنح قروض، وعمال لقطف القطن. في هذا الجانـــب من الصفحة، كانت برسي آند غراي، أل بـــي، تعرض دفع خمسين سنتاً إضافية في الساعة لموظفة اختزال شابة.

"يـــا آنسة سكيتر، اتصال هاتفي لك". سمعتُ باسكاغولا تصيح من أسفل السلّم.

فنـــــزلتُ إلى الطابق السفلي، حيث الهاتف الوحيد في المنـــزل، ومدّت باسكاغولا يدها حاملةً إيّاه. كانت صغيرة الحجم كطفل، إذ لا يـــزيد طولها عن خمس أقدام، سوداء البشرة كالليل، مجعَّدة الشعر، وقد خِيط لباسها الرسمي الأبيض ليتلاءم مع ذراعَيها وساقَيها القصيرة.

"الآنسة هيلي على الهاتف". قالت، وسلّمتني إيّاه بيد مبتلّة.

فجلـــستُ إلى طاولـــة الكيّ البيضاء. كان المطبخ واسعاً، مربّع الـــشكل، حـــارّاً، وبلاطات اللينوليوم السوداء والبيضاء متصدّعة في

مكانها ومتآكلة أمام حوض الغسيل. وتقبع آلة غسل الأطباق الفضية الجديدة وسط الغرفة، وهي متصلة بخرطوم مياه ممدود من الحنفية.

"سيأتي في نهاية الأسبوع التالي". قالت هيلي. "ليلة السبت. هل هناك ما يشغلك؟".

"دعيني أتحقق من روزنامتي". قلت. لم يكن في صوت هيلي أي أثر للجدال الذي حدث في أثناء لعبنا البريدج. كنت مرتابة ولكن مرتاحة.

"لا يمكنني التصديق أن هذا الأمر سيحدث *أخيراً*". قالت هيلي لأنها سعت طيلة أشهر لتعريفي إلى نسيب زوجها. كانت عازمة على الأمر بالرغم من أنه أكثر جمالاً مني، ناهيكم عن كونه ابن سيناتور.

سألتُ: "ألا تعتقدين أنه يُفترض بنا... أن نلتقي أولاً؟ أعني قبل أن نخرج في موعد فعلي؟".

"لا تكوني عصبية المزاج. سأكون ووليام بجانبك طوال الوقت". .

فتنهدتُ. لقد أُلغي الموعد مرتين، وكلي أمل في أن يتم إرجاؤه مجدداً. ومع ذلك، شعرت بالإطراء لأن هيلي على ثقة تامة أن شخصاً مثله سيكون مهتماً لشخص مثلي.

قالت هيلي: "آه، وأريد منك أن تمرّي بي وتدوّني هذه الملاحظات، أريد نشر مبادرتي في النشرة الدَّورية التالية، صفحة كاملة بجانب صفحة صور".

فتوقفتُ. "قضية الحمّام؟". علماً أنها لم تذكر الأمر إلا قبل أيام قليلة في أثناء انعقاد نادي البريدج. كنت قد أملت في أن يتم نسيان الأمر.

"هي تدعى مبادرة تعزيز الصحة المنزلية *انزل يا وليام الأصغر وإلا أمسكتُ بك، يا يول ماي المتهوّرة ادخلي إلى هنا*، وأريده هذا الأسبوع".

كـــنت محـــررة النـــشرة الدَّورية للرابطة، ولكن هيلي رئيستها، وتحاول أن تقول لي ما يجب نشره.

قلـــت: "سأرى. لا أعرف إذا كان هناك مكان". ولكنني كنت أكذب.

من حوض الغسيل، اختلست باسكاغولا نظرةً إليّ كما لو أن في اســتطاعتها سمـــاع ما تقوله هيلي. ونظرتُ إلى حمّام كونستنتين الذي بات حمّام باسكاغولا، متفحّصةً. هو يقع خارج المطبخ، والباب مفتوح جزئياً، وكانت في استطاعتي رؤية مكان صغير جداً مع مرحاض وحبل لجعل الماء يتدفق في داخله، ومصباح كهربائي، وظِل مائل إلى الصُفرة. تكاد المغسلة الصغيرة الموضوعة في الزاوية لا تتسع لكوب ماء. لم يسبق لي أن دخلتُ الحمّام. فعندما كنا أطفالاً، قالت لنا الوالدة إنها ستصفعنا على مؤخراتنا إذا دخلنا حمّام كونستنتين. كنت أفتقد كونستنتين أكثر من أي أمر آخر افتقدتُه في حياتي.

قالت هيلي: "إذاً جِدي مكاناً، لأنه أمر هام جداً".

كانـــت كونستنتين تقيم على بُعد ميل من منـــزلنا في حيّ صغير للزنوج يدعى هوتستاك تيمّناً بنبتة القار التي كانت تُزرع هناك. وتمتد الطريق إلى هوتستاك على امتداد الناحية الشمالية لمزرعتنا، وأذكر قيام أطفـــال من ذوي البشرة الملوَّنة بالسير واللعب على امتداد تلك المسافة البالغ طولها ميلاً، فيركلون الغبار الأحمر، ويتجهون نحو طريق المقاطعة الكبيرة 49 للتمكن من ركوب العربات.

كنت أقطع ذلك الميل بنفسي سَيراً على القدمين عندما كنت فتاة صغيرة. وكانت والدتي تسمح لي أحياناً بمرافقة كونستنتين إلى منـــزلها بعـــد ظهـــر أيـــام الجمعة بعد التوسّل. وبعد عشرين دقيقة من السير البطـــيء، نمر بمتجر فايف – آند – دايم الخاص بذوي البشرة الملوَّنة،

وبــبقّال يمــتلك دجاجــات رابــضة في الناحية الداخلية من متجره، وبعشرات المنازل الوضيعة ذات سطوح من الصَفيح ورُواقات خارجية مــسقوفة ومائلــة، بالإضافة إلى منــزل أصفر يقول الجميع إنه يبيع الــشراب الاسكتلندي من الباب الخلفي. فمن المثير للمشاعر أن نكون في عــالم مختلف مماثل، وكنت أشعر بالاستياء من مدى جودة حذائي ونظافــة المَــريلة التي كوتها لي كونستنتين. وكلما اقتربنا من منــزل كونستنتين كانت تبتسم أكثر فأكثر.

تقول كونستنتين لبائع الجذور الجالس على كرسيّه الهزاز على ظهر شــاحنته الصغيرة: "مرحباً، كيف حالك، يا كارل بيرد". وكانت هناك أكــياس مفــتوحة من لحاء الساسفراس وعِرق السوس مُعَدّة للمساومة والبيع، واعتدنا مع الوقت النظر إلى تلك الأشياء بفضول لبعض الوقت، وكــان جــسد كونستنتين بأكمله يتلوّى حول هذه المنتجات. لم تكن كونــستنتين طويلة القامة بل بدينة، وكانت وركاها عريضتين، وتتسبب لها ركبتاها بالمتاعب على الدوام. وعند جذل الشجرة أمام المفرق المؤدي إلى منــــزلها، كانـــت تضع على شفتيها مقداراً ضئيلاً من دقيق التبغ وتبــصق العُصارة كالسهم، وتسمح لي بالنظر إلى المسحوق الأسود في علبته المعدنية المستديرة، قائلةً: "لا تخبري والدتك".

كانـــت هناك على الدوام كلاب غائرة البطون وجرباء مستلقية علـــى الطريق. وتصيح امرأة صغيرة السن وذات بشرة ملوّنة من تحت أحد الأروقة الخارجية، وتدعى كات - بايت، قائلة: "يا آنسة سكيتر! بلّغي والدك تحيّتي. قولي له إنني بخير". كان والدي قد أطلق عليها هذا الاســـم مـــنذ سنوات عندما كان مارّاً، ورأى هرّاً هائجاً يهاجم فتاة صغيرة ذات بشرة ملوَّنة. فحمل الفتاة إلى الطبيب الذي حقنها ضد داء الكلَب لمدة واحد وعشرين يوماً.

نصل إلى منزل كونستنتين المؤلف من ثلاث غرف من دون وجود أي سجاد، وأنظر إلى الصورة الفوتوغرافية الوحيدة في المنزل، وهي صورة فتاة بيضاء البشرة قالت لي كونستنتين إنها اعتنت بها طوال عشرين عاماً في بورت غيبسون. كنت على ثقة تامة أنني أعرف كل شيء عن كونستنتين، لديها شقيقة واحدة، وترعرعت في مزرعة بالمشاركة في كورينت، ميسيسيبي. كان والداها متوفيين، ولا تتناول اللحم عادةً، وترتدي ثوباً مقاسه ستة عشر، وتنتعل حذاء للسيدات مقاسه عشرة. ولكنني اعتدتُ النظر إلى ابتسامة تلك الفتاة في الصورة التي تكشف عن أسنانها، وكنت أشعر بالغَيرة متسائلةً عن سبب عدم وجود صورة لي أيضاً.

في بعض الأحيان، كانت تأتي فتاتان من المنزل المجاور لتلعبا معي، وتُدعيان ماري نيل وماري رون. كانتا شديدتي السواد لدرجة أنه لم يكن في استطاعتي تمييز إحداهما عن الأخرى، فأدعوهما ماري.

قالت لي والدتي ذات مرة: "كوني لطيفة مع الفتيات ذوي البشرة الملوَّنة عندما تكونين هناك". وأتذكّر أنني نظرت إليها بغرابة وقلت: "لماذا لا أكون لطيفة معهنّ؟". ولم تشرح لي والدتي الأمر أبداً.

بعد ساعة تقريباً، يوقف والدي سيارته، ويخرج منها، ويُعطي كونستنتين دولاراً واحداً. لم تقُم كونستنتين بدعوته إلى الدخول ولو لمرة واحدة. وفهمت في ذلك الوقت أننا على أرضها وليس عليها أن تكون لطيفة مع أي شخص في منزلها الخاص. بعد ذلك، يسمح لي والدي بالذهاب إلى متجر لذوي البشرة الملوّنة لشراء شراب بارد وسكاكر.

"لا تخبري والدتك أنني أعطيت كونستنتين علاوة".

أقول: "حسناً، يا أبي". إنه السر الوحيد تقريباً الذي تشاطره والدي معي يوماً.

كـــنت في الثالثة عشرة من العمر، عندما دعاني أحدهم بالقبيحة للمرة الأولى. كان أحد أصدقاء شقيقي كارلتون الأثرياء.

سألتني كونستنتين في المطبخ: "لماذا تبكين يا فتاة؟".

فأخـــبرتها بالاســـم الـــذي دعاني به الفتى، والدموع تسيل على وجهي.

"حسناً؟ هل أنت كذلك؟".

فطرفتُ عينيّ، وتوقفتُ عن البكاء. "هل أنا ماذا؟".

"انظـــري إليّ الآن، يا أوجينيا". لأن كونستنتين هي الوحيدة التي كانـــت تدعـــوني باسمي من حين إلى آخر نـــزولاً عند رغبة والدتي. "القبح موجود في داخلنا. القبح هو أن نكون أشخاصاً حقيرين نتسبب بالألم للآخرين. هل أنت أحد هؤلاء الأشخاص؟".

قلت، شاهقةً: "لا أعلم. لا أعتقد ذلك".

فجلست كونستنتين بجانبـــي إلى طاولة المطبخ، وسمعتُ طقطقة مفاصـــلها المنتفخة. وضغطَت بإبهامها على راحة يدي بقوة، وهو أمر نعرف كلانا أنه يعني *أَصغي، أَصغي إليّ*.

"كل صباح، وحتى تخرّي على الأرض مَيتة، سيكون عليك اتخاذ هـــذا القـــرار". كانت كونستنتين قريبة مني جداً لدرجة أنه كانت في استطاعتي رؤية سواد لثّتها. "ستسألين نفسك، *هل سأصدّق ما سيقوله هؤلاء الحمقى عني اليوم؟*".

واصلت الضغط بإبهامها على يدي. فأومأتُ برأسي بما معناه أنني فهمـــت. كنت ذكية بما يكفي لأدرك أنها عنت بكلامها ذوي البشرة البيضاء. وبالرغم من استمراري في الشعور بالبؤس، وعِلمي أنني قبيحة على الأرجح، فقد كانت المرة الأولى التي تتحدث فيها إليّ كما لو أنني أكثر من مجرد فتاة بيضاء البشرة. لقد طُلب مني طيلة حياتي أن أصدّق

ما يقال لي عن الشؤون السياسية، وعن ذوي البشرة الملوّنة، وعن كوني فتاة. ولكن، بوجود إبهام كونستنتين الضاغط على يدي، أدركتُ أنني أملك خياراً في تحديد ما يمكنني تصديقه.

كانت كونستنتين تبدأ العمل في منـــزلنا عند السادسة صباحاً في الأيـــام العادية، وعند الخامسة صباحاً في موسم الحصاد. بهذه الطريقة، يمكنها أن تُعدّ لوالدي كعكات طريّة ومرَق لحم قبل التوجه إلى الحقل. كـــنت أستيقظ كل يوم تقريباً في أثناء وجودها في المطبخ حيث يبثّ الـــراديو الموضـــوع على الطاولة عظة المبشّر غرين، وتبتسم لي عندما تـــراني. "صباح الخير، أيتها الفتاة الجميلة". كنت أجلس إلى الطاولة، وأطلعها على أحلامي، فتدّعي أن الأحلام تخبر بالمستقبل.

قلـــت لها: "كنت في العلية أنظر إلى المزرعة، كانت في استطاعتي رؤية رؤوس الأشجار".

"ستكونين جرَّاحة دماغ! أعلى المنـــزل يعني الرأس".

كانـــت والدتي تتناول الفطور باكراً في غرفة الطعام، وتنتقل بعد ذلـــك إلى غـــرفة الاســـتجمام للتطريز أو لكتابة رسائل للمبشِّرين في أفـــريقيا. ومـــن كرســـيّها الأخضر عالي الظهر والجانبَين، كانت في اســـتطاعتها رؤيـــة كل ما يجري في المنـــزل تقريباً ومعرفة ما تبدّل في مظهـــري في خلال جزء من الثانية، وهو الوقت الذي يتطلبني للمرور بذلك الباب. كنت أمرّ بسرعة، شاعرةً أنني دريئة مستديرة تستهدفها عين تلك الوالدة الحمراء الكبيرة.

"يا أوجينيا، تعرفين أن العِلكة ممنوعة في هذا المنـــزل".

"يا أوجينيا، اذهبـــي وضعي كحولاً على تلك اللطخة".

"يـــا أوجينـــيا، اصعدي إلى الطابق العُلوي، ومشّطي شعرك نحو الأسفل، ماذا لو جاءنا زائر غير متوقَّع؟".

لقد تعلّمتُ أن الجوارب وسيلة أفضل من الأحذية للتسلل. وتعلّمتُ استخدام الباب الخلفي. وتعلّمتُ اعتمار قبّعات، وإخفاء وجهي بيدَيّ عندما أمرّ أمام الغرفة. ولكن أكثر ما تعلّمته هو ملازمة المطبخ.

قد يمتد شهر الصيف أعواماً في لونغليف. لم يكن لديّ أصدقاء وصديقات يقومون بزيارتي كل يوم. كنا نقيم في مكان بعيد جداً يحول دون وجود جيران من ذوي البشرة البيضاء. في المدينة، كانت هيلي وإليزابيت تمضيان نهاية الأسبوع بأكمله في منزل إحداهما الأخرى، في حين أنه لم يكن يُسمَح لي إلا بالتنزه ليلاً في الخارج، أو التمتع ببعض الرفقة في نهاية الأسبوع بين حين وآخر. لقد تذمّرتُ كثيراً بسبب ذلك، واعتدتُ على كونستنتين على مرّ الأيام، ولكنني أظن أنني كنت أُدرك في معظم الأحيان كم أنا محظوظة بسبب وجودها هناك.

في الرابعة عشرة من عمري، بدأت بتدخين السجائر. كنت أسحبها خِلسةً من رُزَم علب المارلبورو الخاصة بكارلتون التي يبقيها في دُرج خزانة المطبخ. كان في الثامنة عشرة من عمره تقريباً، وكان يدخن منذ سنوات، وأينما شاء، أينما شاء في المنزل، أو في الحقول مع والدي. كان والدي يدخّن الغليون أحياناً، ولكنه لم يكن من مُحبّي السجائر. ولم تكن والدتي تدخّن أي شيء على الإطلاق بخلاف معظم صديقاتها. قالت لي والدتي إنه لا يُسمح لي بالتدخين حتى أبلغ السابعة عشرة من عمري.

لذلك، كنت أنسلّ إلى الفناء الخلفي، وأجلس في الأرجوحة تحجبني شجرة السنديان، الضخمة والمعمِّرة، عن الأنظار، أو أتدلى من نافذة غرفة نومي في وقت متأخر من الليل وأدخن. كانت والدتي حادة البصر، أما حاسة الشم لديها فمنعدمة تقريباً. ولكن كونستنتين كانت

تُدرك ما يجري على الفور، فتضيق عيناها بابتسامة صغيرة من دون أن تقول شيئاً. وإذا توجهت والدتي إلى الرُّواق الخارجي الخلفي في أثناء وجودي وراء الشجرة، أسرعت كونستنتين إلى الخارج، وضربت درابزين الدَرج الحديدي بمقبض المكنسة.

"يا كونستنتين، ماذا تفعلين؟". تسألها والدتي. في غضون ذلك أقوم بإطفاء السيجارة، وأرمي عقبها في ثقب الشجرة.

"أنظف هذه المكنسة القديمة ليس إلا، يا آنسة شارلوت".

"حسناً، جدي طريقة أخرى للقيام بذلك بهدوء أكبر، رجاءً. آه، يا أوجينيا، هل ازداد طولك بوصةً في أثناء الليل؟ ماذا سأفعل؟ اذهبي... ارتدي ثوباً ملائماً".

"أجل يا سيدتي". أقول وكونستنتين في وقت واحد ونبتسم لبعضنا بعضاً.

آه، ما ألذّ أن يكون هناك شخص تودعينه أسرارك. فلو كان لي شقيق أو شقيقة بعمر أقرب إلى عمري، لكان الوضع على هذه الحال كما أعتقد. ولا يكفي إخفاء أمر التدخين عن الوالدة وتجنّبها، بل يجب أن يكون هناك شخص ما ينظر إليك بعد أن تكون والدتك قد قلقت عليك حتى الموت لأنك طويلة القامة على نحو استثنائي، ومجعَّدة الشعر، وغير عادية، شخص تقول عيناه ببساطة، ومن دون أي كلمات، *أنت ملائمة لي*. ومع ذلك، لم يكن التحدث إليها أمراً مشوِّقاً.

عندما كنت في الخامسة عشرة من العمر، أشارت فتاة حديثة العهد إليّ وسألت: "من هذا اللقلق؟". وابتسمت هيلي للفتاة قبل أن تقتادني بعيداً، كما لو أننا لم نسمع ما قالته.

"كم يبلغ طولك، يا كونستنتين؟". سألتُ، غير قادرة على إخفاء دموعي.

فضيّقت كونستنتين عينيها، ناظرةً إليّ. "كم يبلغ طولك؟".

"5.11 قدماً (نحو 177.5 سنتم)"، صرختُ. "أنا أطول قامة من مدرّب فريق الفتيان لكرة السلة.

"حسناً، يبلغ طولي 5.13 قدماً (182.5 سنتم)، لذلك كفّي عن الشعور بالأسف على نفسك".

كونـــستنتين هـــي المرأة الوحيدة التي احترمتها يوماً ونظرتُ إلى عينيها مباشرةً.

فمـــا تلاحظونهما أولاً في كونستنتين، بالإضافة إلى طول قامتها، هما عيناها ذات اللون البنّي الفاتح واللتان تبدوان عسليّتين إزاء بشرتها القاتمة. لم يسبق لي أن رأيت عينين بنّيتين لشخص ذي بشرة ملوّنة. في الواقع، تبدو درجات اللون البنّي لا متناهية على كونستنتين. فمرفقاها ســـوداوان تمامـــاً، ويكون عليهما غبار أبيض جاف في الشتاء؛ وبشرة ذراعَـــيها وعُنُقها ووجهها بلون الأَبنوس القاتم؛ وراحتا يدَيها سمراوان مائلـــتان إلى البرتقالي، مما حملني على التساؤل حول ما إذا كان أخمصا قدمَيها بهذا اللون أيضاً، ولكنني لم أرها يوماً عارية القدمَين.

قالـــت مبتـــسمة: "أنـــتِ وأنا فقط بمفردنا في نهاية الأسبوع هذه".

كانت نهاية الأسبوع التي اصطحب فيها والدي ووالدتي كارلتون لتفحّص كلّيتي أل أس يو، وتولان، لأنه سيدخل الكلّية في العام التالي. في صباح ذلك اليوم، نقل والدي السرير القابل للطيّ إلى داخل المطبخ، وبقرب حمّامها، حيث كانت كونستنتين تنام على الدوام عندما تمضي الليل في منـــزلنا.

قالـــت، مشيرةً إلى خزانة المكنسة: "اذهبـــي وألقي نظرة على ما اصـــطحبتُ معـــي". فذهبتُ وفتحتها ورأيت في حقيبتها أُحجية من

خمسمئة قطعة عليها صورة لجبل راشموند. فجمع أجزاء أُحجية ما، كان بالنسبة إلينا، أفضل ما نقوم به عندما تنام عندنا.

في تلك الليلة، جلسنا طوال ساعات نتناول الفول السوداني، ونبحث عن الأجزاء الصغيرة المتناثرة على طاولة المطبخ. وهبّت عاصفة شديدة في الخارج جعلت الغرفة مكاناً دافئاً ومريحاً. وخفتَ ضوء المصباح الكهربائي في المطبخ وشعّ مجدداً.

"من هذا الشخص؟". سألت كونستنتين، متأملةً بعلبة الأُحجية عبر نظارتها ذات الإطار الأسود.

"إنه جيفرسون".

"آه، إنه هو بالتأكيد. ماذا عن الآخر؟".

"إنه...". وانحنيتُ فوق الصورة. "أظن أنه... روزفلت".

"لينكولن هو الوحيد الذي تمكنتُ من تمييزه. هو يشبه والدي".

توقفتُ ممسكةً بقطعة من الأُحجية. كنت في الرابعة عشرة من عمري وأحصل على نتيجة *أ*يه على الدوام في المدرسة. كنت ذكية ولكن ساذجة. فوضعت كونستنتين العلبة رأساً على عقِب، ونظرَت إلى القطع مجدداً.

سألتُ: "لأن والدك كان طويل القامة... جداً؟".

فضحكَت في سرّها. "لأن والدي كان أبيض البشرة. لقد حصلتُ على طول القامة من والدتي".

ووضعتُ القطعة. "والدك... كان أبيض البشرة، ووالدتك... ذات بشرة ملوَّنة؟".

قالت: "أجل". وابتسمت، مُحدثةً صوت طقطقة بقطعتين.

"حسناً، انظري، لقد حصلتُ على صورة مطابقة".

كانت لديّ العديد من الأسئلة من كان؟ أين كان؟ أعرف أنه لم يكـــن متـــزوجاً بـــوالدة كونستنتين لأن هذا الزواج مخالف للقانون. فأخـــرجتُ سيجارة من العلبة التي وضعتُها على الطاولة. كنت في هذه السنّ ولكنني أشعر أنني بالغة، وأشعلتُها. وفي أثناء ذلك، خفت الضوء القائم فوق رأسي، وغدا بنّي اللون، شاحباً، ويُصدر أزيزاً خافتاً.

"آه، كان والدي يحبني كثيراً. لطالما كنت المفضّلة لديه". أسندت ظهرها إلى الكرسي. "لقد اعتاد القدوم إلى المنـــزل بعد ظهر كل يوم ســبت، وإعطائي دفعةً واحدة مجموعة من عشر شرائط حريرية للشعر بعـــشرة ألـــوان مختلفة، باريسية الصنع. كنت أجلس على حضنه منذ وصـــوله وحتى مغادرته، وتلعب والدتي دور بيسي سميث في فيكترولا، وأغنّي معه:

إنه لأمر غريب جداً من دون شك

ألاّ يعرفك أحد عندما تخرج منخفضاً

كـــنت أصغي بعينين مفتوحتين ومخدَّرتين، واتّقدت مشاعري في غمـــرة ذلك الضوء الخافت. ولو أن للشوكولا صوتاً، لكان بالتأكيد صـــوت كونستنتين عندما تغني. ولو أن للغناء لوناً، لكان بالتأكيد لون ذلك الشوكولا.

"ذات مـــرة، كـــنت حزينة، وكانت هناك العديد من الأمور التي تُقلقـــني كالفقر، والاستحمام في جوّ بارد، والأسنان المتسوّسة. لا أعلم، ولكنه أمسكني برأسي وضمّني إليه في أطول معانقة. وعندما نظرت إليه، كان يبكي أيضاً و... قام بذلك الشيء الذي أفعله لك لتعلمي أنني أعني ما أقول. لقد ضغط بإبهامه على راحة يدي وقال... إنه آسف".

جلسنا هناك نحدّق إلى قطع الأحجية. لم تكن والدتي ترغب على الأرجـــح في أن أعرف أن والد كونستنتين أبيض البشرة، وأنه اعتذر

لابنته بسبب واقع الحال. إنه أمر لم يكن يُفترض بــي معرفته، فشعرت أن كونستنتين منحتني هدية.

أنهــيت ســيجارتي، وأطفأتها في منفضة الضيوف الرمادية. وشعّ الضوء مجدداً، فابتسمت كونستنتين لي، وابتسمت لها.

قلت، ناظرةً إلى عينيها البنّيتين: "لماذا لم تخبريني بذلك من قبل؟".

"لا يمكنني إخبارك بأي شيء، يا سكيتر".

"ولكن لماذا؟". كانت تعرف كل شيء عني وعن عائلتي، فلماذا تُخفي عني أسراراً؟

فحــدّقت إليّ، ورأيــت حزناً دفيناً وكئيباً داخلها. وبعد قليل، قالت: "أُبقي بعض الأمور لنفسي".

عندما حان دوري لدخول الكلّية، ذرفت والدتي الدموع في أثناء ابــتعادي ووالدي بالشاحنة. ولكنني شعرتُ بالحرية بعيداً عن المزرعة وانــتقاداتها. كنت أريد أن أسأل والدتي، *هل أنت سعيدة؟ ألم تشعري بالارتــياح لأنــك لن تكوني مضطرة إلى القلق عليّ كل يوم؟* ولكن والدتي بدت بائسة.

كنت أسعد شخص في مهجعي في العام الجامعي الأول، وأكتب رســالة لكونــستنتين كل أسبوع أخبرها فيها عن غرفتي، والصفوف، ونــادي النساء، فتوجّه إليّ رسالتين جوابيّتين كل شهر على ورقة رَقّ يمكــن طيّها داخل مغلّف. وكان يتعيّن عليّ توجيه الرسائل إليها عبر بريد المزرعة لأن خدمات مكتب البريد لم تكن تشمل هوتستاك، آملةً في ألا تقوم والدتي بفتحها. كان خط كونستنتين كبيراً وجميلاً بالرغم مــن كــونه منحنياً، وأشارت في رسائلها إلى كل تفصيل مُملّ متعلّق بلونغلــيف: *أشــعر بآلام في الظهر ولكن قدَمَيّ هما الأكثر سوءاً*، أو *انفــصل الخلاّط عن الوعاء فجأةً وطار في المطبخ، فأجفل الهرّ وهرب*،

ولم أره منذاك الحين. كانت تخبرني أن والدي أُصيب بنزلة صَدرية. كانت رسائلنا أشبه بحوارات ممتدّة تتم الإجابة فيها عن الأسئلة الموجَّهة والواردة، وتتواصل وجهاً لوجه في إجازة الميلاد، أو الإجازة بين دورة صيفية دراسية وأخرى.

أما رسائل والدتي فكانت تحتوي على العبارتين التاليتين، *اتلي الأدعية ولا تنتعلي أحذية بكعوب عالية لأنها تجعلك طويلة جداً*، مُرفَقة بشيك مصرفي بقيمة خمسة وثلاثين دولاراً.

في شهر نيسان/أبريل من عامي الجامعي الأخير، وردتني رسالة من كونستنتين جاء فيها، *لديّ مفاجأة لك، يا سكيتر. أنا منفعلة جداً لدرجة أنني لا يمكنني تحمّل نفسي. ولا تسأليني عن الأمر أبداً. ستعرفينه بنفسك عندما تعودين إلى المنزل.*

حدث ذلك قُبَيل الامتحانات النهائية وقبل شهر من التخرّج، وكانت آخر رسالة تلقّيتها منها.

لم أشارك في احتفال تخرّجي في أولي ميس، وتخلّت كل صديقاتي المقرّبات عن ذلك أيضاً ليتزوّجن، وآثرتُ عدم تكبيد والدتي ووالدي عناء القيادة ثلاث ساعات لمشاهدتي أسير على المنصة ليس إلا، في حين أن والدتي كانت تريد أن تراني أعبر ممرّ دار العبادة برفقة زوجي في الواقع. ولم يَرِدني أي جواب من هاربر آند روو كذلك. وهكذا، وبدلاً من شراء تذكرة سفر بالطائرة إلى نيويورك، عدتُ إلى المنزل في جاكسون، في سيارة بويك تقودها كاي ترنر، وكانت طالبة في العام الثاني، وجلستُ على المقعد الأمامي والآلة الكاتبة عند قدميّ، وفستان زفافها بينها وبيني. كانت كاي ترنر تخطط للزواج ببيرسي ستانهوبفي في الشهر التالي. واستمعتُ طيلة ثلاث ساعات إلى القلق الذي يعتريها بسبب نكهات الكعكة.

عندما وصلتُ إلى المنـــزل، عادت والدتي خطوةً إلى الوراء لتنظر إليّ بـــشكل أفـــضل. قالـــت: "حـــسناً، تبدو بشرتك جميلة، ولكن شعرك...". وتنهدت، وهزت رأسها.

سألتُ: "أين كونستنتين؟ أهي في المطبخ؟".

فأجابـــت والـــدتي كمـــا لو أنها تُخبرني بحال الطقس: "لم تعُد كونـــستنتين تعمل هنا. والآن، دعينا نفرغ كل تلك الحقائب قبل أن تُتلفي ملابسك".

فاستدرتُ وطرفتُ عينيّ، ناظرةً إليها. ظننت أنني لم أسمعها جيداً. "ماذا قلتِ؟".

وقفتَ والدتي بشكل مستقيم، مملّسةً فستانها. "كونستنتين ذهبت، يا سكيتر. ذهبت للعيش مع أهلها في شيكاغو".

"ولكـــن... مـــاذا؟ لم تقل أي شيء في رسائلها عن شيكاغو". كنت أعرف أنها لم تكن لِتفاجئني بأمر مماثل ولأبلغتني هذا النبأ الرهيب من دون تلكّؤ.

أخـــذت والـــدتي نفَـــساً عميقاً، وقوّمت ظهرها. "طلبتُ من كونستنتين ألا تكتب لك عن مسألة مغادرتها؛ ليس في أثناء امتحاناتك النهائـــية. ماذا لو رسبتِ واضطُررتِ إلى البقاء عاماً إضافياً؟ الله يعلم، أربع سنوات في الكلّية هي مدة أكثر من كافية".

"و... وافقت على ذلك؟ ألاّ تكتب لي وتخبرني أنها مغادرة؟".

فأشاحت والدتي بنظرها وتنهدت. "سنناقش الأمر لاحقاً، يا أوجينيا. هيا إلى المطبخ، دعيني أعرّفك إلى الخادمة الجديدة، باسكاغولا".

لكـــنني لم أتـــبع والدتي إلى المطبخ، حدّقتُ إلى حقائب الكلّية، مـــروَّعةً من فكرة إفراغ محتوياتها. لقد بدا المنـــزل واسعاً وفارغاً. في الخارج، كانت هناك حصّادةٌ درّاسة تئزّ في حقل القطن.

في شهر أيلول/سبتمبر، لم أفقد الأمل فحسب في تسلّم أي رد من هاربـــر آنـــد روو، بل وفي العثور على كونستنتين أيضاً. لم يكن أحد يعـــرف شـــيئاً عنها كما يبدو، أو عن كيفية الوصول إليها. وتوقفتُ أخـــيراً عن طرح أسئلة على الناس لمعرفة السبب الذي دفع كونستنتين للمغـــادرة. لقـــد بدا الأمر كما لو أنها اختفت فحسب، وكان عليّ القـــبول أن كونـــستنتين، حليفتي الحقيقية الوحيدة، تخلت عني، وعليّ النضال بمفردي وسط هؤلاء الأشخاص.

الفصل السادس

في صباح أحد أيام أيلول/سبتمبر الحارة، استيقظت على سرير طفولتي، وانتعلت الخفّ الذي أحضره لي شقيقي كارلتون من المكسيك. كان حذاءً للفتيان بالطبع لأن أقدام الفتيات المكسيكيات لا يبلغ مقاسها تسعة ونصف. كانت والدتي تكره هذه الأحذية وتقول إن منظرها تافه.

ارتديت فوق قميص النوم قميص والدي القديمة المزرَّرة حتى الأسفل، وانسللت إلى الخارج عبر الباب الأمامي. كانت والدتي في الرُّواق الخارجي الخلفي مع باسكاغولا وجيمسو يقشرون المَحار.

"لا يمكنك ترك زنجي وزنجية معاً بمفردهما". كانت والدتي قد همست في أُذُني منذ مدة طويلة. "الذنب ليس ذنبهما، لا يمكنهما تمالك نفسيهما فحسب".

نزلتُ الدرجات للتحقق مما إذا كانت توجد في الصندوق نسخة عن كتاب *كاتشر إن ذي راي* الذي طلبت الحصول عليه عبر البريد. كنت أطلب على الدوام الكتب المحظورة من أحد تجار السوق السوداء في كاليفورنيا، متصوّرةً أنه لا بد من أن تكون جيدة لأنه يحظَّر نشرها في ولاية ميسيسيبي. وعندما وصلتُ إلى نهاية الطريق الخاصة بالمنزل، كان الغبار الأصفر قد غطى خُفي وكاحلَيّ.

كانت حقول القطن إلى جانبَيّ تسطع باللون الأخضر المليء بجوزات القطــــن. لقــــد فقد والدي الحقول الخلفية في الشهر السابق بسبب المطر، ولكــــن غالبية الحقول المتبقية أزهرت من دون الإصابة بأي أذى. وظهرت على الأوراق بقع بنّية اللون، وكان في استطاعتي أن أشم في الهواء الرائحة اللاذعة للسائل الكيميائي الذي رُشَّت به الأوراق لتيبس وتتساقط. لم تكن هناك أي سيارة على طريق المقاطعة، وفتحتُ صندوق البريد.

هــــناك، وتحــــت المجلــــة المرسَلة إلى والدتي *لايديز هوم جورنال*، وجــــدتُ رســــالة موجَّهة إلى الآنسة أوجينيا فيلان، وكُتب في الزاوية بأحــــرف حمراء نافرة، هاربر آند روو، ناشرون. ففتحت المغلّف عند الطــــريق هــــناك، ولم أكن أرتدي سوى قميص نومي الطويلة وقميص والدي القديمة من ماركة بروكس براذرز.

4 أيلول/سبتمبر 1962

عزيزتي الآنسة فيلان،

أوجّه إليك شخصياً رسالة جوابية على سيرتك الذاتية، لأنني وجدتُ أن قــــيام ســــيدة شابة، لا تملك أي خبرة بالتقدم بطلب لتسلّم عمل تحريــــري فــــي دار نــــشر ذات مكانة رفيعة كدارنا، هو أمر جدير بالإعجــــاب. إن امــــتلاك خبــــرة خمس سنوات على الأقل في هذا المــــيدان هــــو أمــــر إلزامي للحصول على عمل مماثل. ولو قمتِ بإجراء أي بحث عن هذه المهنة لأدركتِ ذلك.

مــــع ذلك، وبما أنني كنت أيضاً سيدة شابة وطموحة، قررت أن أسدي إليك نصيحة؛ اقصدي صحيفتك المحلّية واحصلي على عمل أولي. لقد ضمّنتِ رسالتك أنك "تستمتعين بالكتابة إلى حد كبير. فعندما لا تقومين بإعــــدادِ نــــسخات ستنسل أو تُعدّين القهوة لصاحب عملك، انظري من حــــولك، استقــــصي، واكتبــــي. لا تهدري وقتك على الأمور البديهية. اكتبــــي عما يزعجك، ولا سيما إذا لم يكن يُزعج أحداً سواك.

المُخلِصة،

إلين شتاين، كبيرة المحررين، قسم كتب الراشدين

تحت الحرف المطبعي الصغير ملاحظة بخط اليد كُتبت على عَجَل بحبر أزرق وبحروف متقطعة:

إذا كـنتِ جدّيــة حقاً، أنا على استعداد للاطّلاع على أفضل أفكارك وإعطائك رأيي. لا أعرض عليك هذا الأمر، يا آنسة فيلان، إلا لأن أحدهم عرض عليّ الأمر نفسه ذات مرة.

مــرّت على طريق المقاطعة شاحنة مليئة بالقطن، هادرة. فانحنى الزنجـــي الجالس على مقعد الركاب، مادّاً رأسه إلى الخارج، وحدّق. لقــد نــسيت أنني فتاة بيضاء البشرة في قميص نوم رقيقة. كنت قد تسلّمت رسالة للتوّ، لا بل أيضاً تشجيعاً، من مدينة نيويورك، فلفظتُ الاســم بــصوت مــرتفع: "إلــين شتاين". لم يسبق لي أن التقيت يهودياً.

ركــضتُ بأقصى سرعة على طريق المنــزل، محاولةً منع الرسالة من الرفرفة في يدي، لأنني لم أكن أريد تغضينها. فاندفعتُ بسرعة على الــدرجات، وصــاحت والدتي طالبةً مني خلع ذلك الحذاء المكسيكي الــرَّث، وشــرعتُ بالعمل مدوِّنةً كل ما يزعجني في الحياة، ولا سيما تلــك الأمور التي يبدو أنها لا تزعج الآخرين. لقد زرعَت كلمات إلين شتاين الحماسة في نفسي، فطبعتُ بأسرع ما يمكن. وما حصلتُ عليه بعد ذلك لائحة طويلة جداً.

في الــيوم الــتالي، كنت مستعدة لتوجيه رسالتي الأولى إلى إلين شــتاين، معدّدةً الأفكار التي أظن أنها جديرة أن تكون مواد صحفية: انتشار الأميّة في الميسيسيبــي، ارتفاع عدد حوادث السير الناجمة عن الثمالة في بلادنا، فرص العمل المحدودة للنساء.

لم أدرك إلا بعد توجيه الرسالة عبر البريد أنني ربما اخترت الأفكار التي تثير اهتمام الآخرين أكثر مما تثير اهتمامي.

أخذتُ نفساً عميقاً، وفتحتُ الباب الزجاجي الثقيل، فرنّ جرس صغير مرحّباً. ونظرت إليّ موظفة استقبال تفتقر إلى الأنوثة. كانت ضخمة القامة وتبدو غير مرتاحة على الكرسيّ الخشبي. "أهلاً وسهلاً في صحيفة *جاكسون جورنال*. هل يمكنني مساعدتك؟".

كنت قد اتصلتُ قبل يومين، وبعد ساعة تقريباً من تلقّي رسالة إلين شتاين، طالبةً إجراء مقابلة معي لأي منصب شاغر. فدُهشتُ بقولهم إنهم سيقابلونني في وقت قريب جداً.

"أنا هنا لرؤية السيد غولدن، من فضلك".

فتهادت موظفة الاستقبال بثوبها الفضفاض، ودخلَت باباً قائماً وراءها. حاولتُ تهدئة يديّ المرتجفتين، واسترقتُ النظر عبر الباب المفتوح على غرفة مزيَّنة بألواح خشبية، وفي داخلها أربعة رجال ببذلات يضربون بقوة على آلات كاتبة، ويكتبون بأقلام رصاص مُحدثين صريراً. كانوا منكبّين على العمل، شاحبي اللون، وشعر ثلاثة منهم يتخذ شكل نِضوة حصان، والغرفة عابقة بدخان السجائر.

ظهرت موظفة الاستقبال مجدداً، وأشارت إليّ بإبهامها طالبةً مني أن أتبعها، والسيجارة متدلّية من يدها. "تعالي من الوراء". وبالرغم من حالتي العصبية، فإن كل ما كان في استطاعتي التفكير فيه هو القاعدة القديمة للكلّية، *لا يسير متدرّج في شي أوميغا أبداً والسيجارة بيده*. وتبعتها إلى مكتب داخلي بين مكاتب رجال محدّقين، ووسط ضباب الدخان.

"أقفلي ذلك الشيء وراءك". صاح السيد غولدن ما إن فتحتُ الباب ودخلت. "لا تدعي كل ذلك الدخان يدخل".

فوقف السيد غولدن وراء مكتبه. كان أقصر مني قامةً بنحو ست بوصات، أنيق الملبس، أصغر سناً من والديّ، له أسنان طويلة وأسلوب ساحر، وشعره أسود لمّاعاً يوحي أنه رجل خبيث.

قـــال: "ألم تـــسمعي؟ لقـــد أعلنوا الأسبوع الماضي أن السجائر تقتلك".

"لم أسمـــع بـــذلك". وأملتُ في ألا يكون هذا الخبر مذكوراً في الصفحة الأمامية من صحيفته.

"تـــبّاً، أعرف أن الزنوج البالغين من العمر مئة عام يبدون أصغر سناً من أولئك الأغبياء في الخارج". وجلس مجدداً، ولكنني بقيتُ واقفة بسبب عدم وجود كرسي آخر في الغرفة.

"حـــسناً، لنرَ ما لديك". فسلّمتُه سيرتي الذاتية، ونماذج لمقالات كتبتها في الكلّية. لقد نشأتُ والصحيفة موجودة على طاولة مطبخنا، مفـــتوحة علـــى صـــفحة التقرير الذي يتناول المزارع أو على صفحة الرياضات المحلية، ولكن لم تتسنَّ لي فرصة قراءتها.

لم ينظر السيد غولدن إلى مقالاتي فحسب، بل استعان أيضاً بقلم أحمـــر. "محررة *موزّاه هاي* لمدة ثلاث سنوات، محررة *ريبل روزر* لمدة سنتين، محررة شي *أوميغا* لمدة ثلاث سنوات، اختصاص مزدوج باللغة الإنكليزية والصحافة، متخرّجة وحللتِ بالمرتبة الرابعة... *تبّاً*، يا فتاة". قال مهمهماً: "ألم تحظَي بأي تسلية ومرح؟".

فتنحنحت. "هل... لهذا الأمر أهمية؟".

نظر إليّ. "أنت طويلة القامة بشكل غريب، ولكنني أظن أن فتاة جميلة مثلك تواعدِ أفراد فريق كرة السلة كافة".

فحدّقت إليه، غير واثقة مما إذا كان يهزأ بـــي أو يُطري عليّ.

"أفتـــرض أنك تعرفين كيف تنظفين...". نظر مجدداً إلى مقالاتي، ووضع عليها علامات حمراء.

فاحمـــرّ وجهـــي بـــسرعة. "أنظّف؟ أنا لست هنا لأنظف. أنا هنا لأكتب".

كــان دخــان السجائر يعبق تحت الباب كما لو أن النار تلتهم المكــان بــرمّته. وشــعرت بالغباء الشديد لأنني فكرت في أنه يمكنني الدخول ببساطة والحصول على عمل صحفي.

فأطلــق تنهيدة عميقة، وسلّمني إضبارة أوراق سميكة. "أظن أنك ستكتبين. لقد ثارت ثائرة الآنسة ميرنا علينا، ربما شربت رذاذ شعر أو شــيئاً آخــر. اقرأي الأسئلة، وضعي الإجابات كما تفعل، لن يلاحظ أحد الفرق".

"مــاذا... أفعل؟". أخذت إضبارة الأوراق لأنها الخطوة الوحيدة التي كنت أعرف أنه يتعيّن عليّ القيام بها. لم أكن أملك أي فكرة عمن تكون الآنسة ميرنا تلك، وطرحت السؤال الآمن الوحيد الذي تمكنت من التفكير فيه. "ما... الأجر؟".

فــرمقني بنظرة مقيّمة ومفاجئة من حذائي المسطح حتى تسريحة شعري المسطحة. وحثتني فطرتي الراقدة على الابتسام، وتمرير يدي على شعري. فشعرت أن الأمر مثير للسخرية، ولكنني قمت بذلك.

"ثمانية دولارات، كل يوم اثنين".

فأومأت برأسي محاولةً إيجاد طريقة لمعرفة نوعية عملي من دون أن يلاحظ ذلك.

انحنى إلى الأمام. "هل تعرفين من تكون الآنسة ميرنا، ألا تعرفين؟".

"بالطــبع. نحن... الفتيات نقرأ فقرتها على الدوام". قلت وحدّقنا إلى بعضنا بعضاً لفترة وجيزة من الزمن كافية ليرنّ هاتف ثلاث مرات.

"إذاً، ثمانــية دولارات غــير كافية؟ يا الله، يا للنساء، اذهبــي ونظفي مرحاض زوجك مجاناً".

فعضــضتُ شــفتي. ولكن، قبل أن أتمكن من التفوه بأي كلمة، قلّب عينيه.

"حسناً، عشرة. موعد تسليم المواد المُعَدّة للطبع أيام الثلاثاء. وإذا لم يُعجبني أسلوبك، لن أنشر مقالتك أو أدفع لك شيئاً".

تناولت إضبارة الأوراق، وشكرته ربما أكثر مما يُفترض. فتجاهلني والتقط هاتفه، وأجرى اتصالاً قبل أن أخرج من الباب. وعندما وصلت إلى سـيارتي، غرقت في المقعد الجلدي الليّن والمريح لسيارة الكاديلاك. وجلست هناك أبتسم وأقرأ الصفحات في الإضبارة.

لقد حصلتُ للتوّ على عمل.

عـدتُ إلى المنـزل معتدّة بنفسي، منتصبة القامة أكثر مما كانت علـيه حالي عندما كنت في الثانية عشرة من عمري قبل أن أنمو بشكل مفاجـئ. وبالـرغم من أن كل خلية في دماغي كانت ترفض قيامي بإطلاع والدتي على الأمر، لم تكن في استطاعتي مقاومة ذلك. فاندفعتُ إلى داخـل غـرفة الاستجمام، وأخبرتها بكل شيء عن كيفية حصولي علـى عمل الآنسة ميرنا التحريري في العمود الأسبوعي لإسداء النصح حول كيفية المحافظة على النظافة.

"آه، يا لسخرية القدر". أطلقَت تنهيدة تعني أن الحياة غير جديرة أن نحياها في ظل ظروف مماثلة. وأضافت باسكاغولا الماء إلى شايها المثلّج.

قلت: "إنها بداية على الأقل".

"بدايـة لأي شيء؟ إسداء النصح حول كيفية الاهتمام للمنـزل عـندما...". وتـنهدَت مجدداً على نحو ممتد وبطيء على غرار دولاب يفرَّغ من الهواء.

فأشحتُ بنظري، متسائلةً عما إذا كان كل من في المدينة يفكر في الطريقة نفسها. وبدأت سعادتي تتلاشى.

"يا أوجينيا، حتى إنك لا تعرفين كيفية تلميع الأواني الفضية، وهو أقل ما يمكنك إسداء النصح في شأنه لإبقاء المنـزل نظيفاً".

ضممتُ الإضبارة إلى صدري. كانت مُحقة. لن أتمكن من الإجابة عن الأسئلة. ومع ذلك، كنت أظن أنها ستفتخر بي على الأقل.

"ولن تلتقي أحداً وأنت جالسة وراء الآلة الكاتبة تلك. يا أوجينيا، فكّري في طريقة سليمة".

شعرتُ بالغضب يتمدد إلى ذراعَي. ووقفتُ بشكل مستقيم مجدداً. "تظنين أنني *أريد* العيش هنا؟ معك؟". وضحكتُ بطريقة أملتُ في أن تؤذيها.

رأيت الألم يظهر في عينيها بسرعة، وأطبقَت شفتيها بإحكام. ومع ذلك، لم أشعر بالرغبة في سحب كلماتي لأنني قلت *أخيرًا* أمراً ما تُنصت إليه.

فوقفتُ هناك، رافضةً المغادرة. أردت أن أسمع ردّها على ما قلت. أردت أن أسمعها تُعرب عن أسفها.

"أريد أن... أسألك أمراً ما، يا أوجينيا". ولوت منديلها، وتجهّم وجهها. "قرأت في ذلك اليوم عن كيفية... فقدان بعض الفتيات لاتزانهنّ، وكيفية تبادر هذه الأفكار غير *الطبيعية* إلى أذهانهنّ".

لم أكن أملك أي فكرة عما تتكلم عنه. فرفعتُ نظري إلى مروحة السقف التي كانت تدور بسرعة كبيرة. *كلاكتي - كلاكتي - كلاكتي*...

"هل أنت... هل تجدين... الرجال جذّابين؟ هل تتبادر إلى ذهنك أفكار غير طبيعية عن...". وأغمضت عينيها بإحكام. "الفتيات أو... أو النساء؟".

فحدّقتُ إليها، متمنّيةً خروج مروحة السقف من قاعدتها والتحطم على رأسَينا.

"لأنه قيل في هذه المقالة إن هناك علاجاً، شاي جذور خاص...".

قلت، مُغمضةً عينيّ بإحكام: "يا أمي، أريد معاشرة الفتيات بقدر مـــا تريدين معاشرة... جيمسو". وتوجهتُ إلى الباب، ولكنني ألقيت نظرةً إلى الوراء. "أعني، ما لم تكوني شاذة بالطبع؟".

فقوّمت والدتي وقفتها وشهقَت. وصعدتُ درجات السلّم بخُطى مدوّية.

في الـــيوم التالي، كدّستُ رسائل الآنسة ميرنا بطريقة مُتقَنة. كان هناك ثلاثون دولاراً في حقيبة يدي، وهو المبلغ الشهري الذي لا تزال والـــدتي تزودني به. ونـــزلت إلى الطابق السفلي وعلى وجهي ابتسامة عريـــضة. وكَوني مقيمة في المنـــزل، عليّ أن أسأل والدتي كلما أردت مغـــادرة لونغليف إذا كانت في استطاعتي استعارة سيارتها، مما يعني أنها تريد معرفة المكان الذي سأقصده، واضطراري إلى الكذب عليها يومياً، وهو أمر ممتع بحدّ ذاته ولكنه مُخزٍ في الوقت نفسه.

"أنـــا ذاهـــبة إلى دار العبادة للتحقق مما إذا كانوا بحاجة إلى أي مساعدة للاستعداد لمدرسة الأحد".

"آه، يا عزيزتي، إنه أمر رائع. خُذي وقتك، لست بحاجة إلى السيارة".

كـــنت قـــد قـــررت تلك الليلة أنني بحاجة إلى شخص محترف يـــساعدني بفقـــرتي. وأول مـــا تـــبادر إلى ذهني التوجّه بالسؤال إلى باسكاغولا، ولكنني لم أكن أعرفها جيداً، كما أنني لم أتحمّل فكرة قيام والدتي بتقصّي الأخبار والتطفّل، موجّهةً الانتقادات إليّ مراراً وتكراراً. وخادمـــة هيلي، يول ماي، شديدة الخجل لدرجة أنني أشك في رغبتها في مـــساعدتي. والخادمة الأخرى الوحيدة التي أراها في أغلب الأحيان هي خادمة إليزابيت، آيبيلين. فآيبيلين تذكّرني بكونستنتين بطريقة ما، بالإضافة إلى أنها أكبر سنّاً مني وتتمتع بكثير من الخبرة كما يبدو.

في طريقـــي إلى منـــــزل إليـــزابيت، مررت بمتجر بن فرانكلين واشـــتريت لوحاً مِشبكياً، وعلبة تحتوي على قلمَي رصاص، ومفكّرة زرقـــاء. كان يتعين عليّ تسليم عمودي في اليوم التالي، ووضعه على مكتب السيد غولدن عند الثانية بعد الظهر.

"يا سكيتر، ادخلي". فتحت إليزابيت الباب الأمامي الخاص بها، وخـــشيتُ مـــن ألا تكون آيبيلين موجودة. كانت ترتدي بُرنس حمّام أزرق وتضع على شعرها لُفافات من الحجم الكبير جعلت رأسها يبدو ضخماً، وجسمها أشبه بجسم شخص متشرّد. فإليزابيت تضع لفافات الشعر طوال اليوم عادةً لأنها لا تستطيع أبداً جعل شعرها غير الكثيف منتفخاً.

"آســفة بـــسبب الفوضى هذه. لقد أبقتني ماو موبلي مستيقظة نصف الليل، والآن لا يمكنني إيجاد آيبيلين".

دخلتُ الرَّدهة بالغة الصِّغر. إنه منـــزل منخفض السقف يحتوي على غرف صغيرة، وكل ما يوجد فيه يبدو غير جديد، الستائر الزهرية بلون أزرق باهت، وغطاء الأريكة المتجعّد. لقد بلغني أن العمل الخاص الجديـــد الذي شرع به راليه في ميدان المحاسبة لا يسير بشكل جيد. قد يكـــون مشروعاً جيداً في نيويورك أو في مكان آخر، ولكن الناس في ميسيسيبـــي، جاكسون، لا يهتمون بالتعاون مع أخرق فظّ ومتعالٍ.

كانـــت ســـيارة هيلي متوقفة أمام المنـــزل، وآيبيلين متوارية عن الأنظـــار. وجلست إليزابيت إلى ماكينة الخياطة الموضوعة على طاولة غرفة الطعام. قالت: "أكاد أنتهي، دعيني أدرز هذا الهُدب الأخير...". ووقفـــت إليـــزابيت، وحملت ثوباً أزرق وياقة بيضاء مستديرة قامت بخياطتهما لترتديهما عند ذهابها إلى دار العبادة. "الآن، كوني صادقة". همسَت وعيناها تتوسلانني لقول الحقيقة. "هل يبدو منـــزليّ الصنع؟".

كـــان الهُدب في أحد الجانبين أطول منه في الجانب الآخر، متغضّناً، وكـــان طرف الكُمّ بالياً. "يبدو كما لو أنك اشتريته من المتجر تماماً. من الميـــزون بلانـــش مباشرةً". قلت، لأنه المتجر الذي تحلم إليزابيت بشراء ملابـــسها مـــنه، وهو مؤلف من خمسة طوابق من الملابس باهظة الثمن، وموجـــود في شـــارع كانال ستريت في نيو أورليانـــز، ملابس لا يمكن العثور عليها أبداً في جاكسون. وبادلتني إليزابيت الابتسامة بابتسامة ممتنّة.

سألتُ: "هل ماو موبلي نائمة؟".

"أخيراً". عبثت إليزابيت بخصلة شعر أفلتت من لفافتها، وقطّبت حاجبـــيها بـــسبب استعصائها. كان صوتها يزداد حدة أحياناً عندما تتحدث عن ابنتها الصغيرة.

فُـــتح باب حمّام الضيوف في الرَّدهة، وخرجت هيلي وهي تقول: "أفضل بكثير. يصبح لكل شخص مكان خاص به يقصده".

عبثت إليزابيت بإبرة الماكينة كما لو أنها قلقة بشأنها.

"أخـــبري رالـــيه أنني أقول له أهلاً *وسهلاً بك*". أضافت هيلي، وأزعجني كثيراً ما قيل. لقد بات لآيبيلين حمّامها الخاص في المرأب.

فابتـــسمت هيلـــي لي، وأدركتُ أنها على وشك طرح مبادرتها للمناقشة.

ســـألتُ: "كيف حال أمك؟". علماً أنني أعرف أن هذا الموضوع هو من آخر اهتماماتها. "هل استقامت الأمور في المنـــزل؟".

"أظـــن ذلك". شدّت هيلي كنـــزتها الصوفية نحو الأسفل لتغطي خصرها المكتنـــز. كانت ترتدي بنطالاً ذا نقوش مربَّعة حمراء وخضراء يـــزيد مـــن حجم مؤخرتها، ويجعلها تبدو أكثر استدارة من ذي قبل. "بالطـــبع، هي لا تقدّر أي شيء مما أقوم به حق قدره. كان عليّ طرد تلـــك الخادمة لأنني فاجأتها وهي تحاول سرقة تلك الآنية الفضية أمام

نظـــري". وضيّقت هيلي عينيها قليلاً. "بالمناسبة، هل بلغكما أن ميني جاكسون تعمل في مكان ما؟".

فهززنا رأسينا نافيتين أن نكون قد سمعنا أي شيء.

قالت إليزابيت: "أشك في أن تجد عملاً في هذه المدينة مجدداً".

أومأت هيلي برأسها، مفكرةً في الأمر مليّاً. فأخذتُ نفساً عميقاً، شاعرةً بالقلق حيال إخبارهما عن عملي الجديد.

قلت: "حصلتُ على عمل للتوّ في صحيفة *جاكسون جورنال*".

وســـاد الهـــدوءُ الغرفة. وفجأةً، أطلقت إليزابيت صرخة طويلة مـــرحّبة، وابتـــسمت لي هيلـــي باعتداد بالنفس لدرجة أنني احمررتُ خجلاً، وهززت كتفَيّ كما لو أنه ليس بالأمر الهام.

قالت هيلي: "من لا يستخدمك يكون أخرق، يا سكيتر فيلان". ورفعت كوب الشاي المثلّج لشرب نخبـــي.

ســـألتُ: "إذاً... أمم، هل قرأت إحداكما في الواقع فقرة الآنسة ميرنا؟".

قالـــت هيلـــي: "لا، ولكنني أراهن أن النساء بيضاوات البشرة الفقـــيرات والتافهات في جنوب جاكسون يُحببن قراءة الفقرة كما لو أنها الملك جايمس".

فأومأت إليزابيت برأسها. "كل أولئك النساء الفقيرات اللواتي لا يستخدمن عاملات منازل، أُراهن على أنهنّ يقرأن فقرتها".

سألتُ إليزابيت: "هل تمانعين إن أنا تحدثت إلى آيبيلين؟ لتساعدني على الإجابة عن بعض الرسائل؟".

تـــسمّرت إليزابيت في مكانها لقليل من الوقت. "آيبيلين؟ خادمتي آيبيلين؟".

"أنا متأكدة من أنني لا أعرف الإجابة عن هذه الأسئلة".

"حسناً... أعني ما دام ذلك لا يتعارض مع عملها".

فكففتُ عن الكلام، متفاجئةً بهذا الموقف. ولكنني ذكّرتُ نفسي أن إليزابيت تدفع لها أجرها بالرغم من كل شيء.

"ليس اليوم لأن ماو موبلي على وشك النهوض، وإلا فسيكون عليّ الاهتمام لها بنفسي".

"حسناً. ربما... ربما آتي غداً صباحاً؟". وعددتُ الساعات على يدي. إذا أنهيتُ الحديث مع آيبيلين في منتصف فترة الصباح، سيكون لديّ الوقت للإسراع إلى المنزل، وطبع المقالة على الآلة الكاتبة، وإيصالها إلى المدينة عند الساعة الثانية.

نظرت إليزابيت إلى بَكَرة الخيطان الخضراء متجهّمة الوجه. "ولدقائق قليلة فقط. غداً هو يوم تلميع الأواني الفضية".

قلت: "لن يطول الأمر، أعدك".

لقد بدأت إليزابيت تبدو كما لو أنها والدتي.

في صباح اليوم التالي، فتحت إليزابيت بابها، وأومأت لي برأسها كمدرّسة مدرسة. "حسناً، ادخلي، وليس لوقت طويل. ستستيقظ ماو موبلي في أي وقت".

فدخلتُ المطبخ، ومفكرتي وأوراقي تحت ذراعي. فابتسمت لي آيبيلين من أمام حوض الغسيل، وسنّها الذهبية تلمع. كانت ممتلئة الجسم في الوسط ولكنها لطيفة وودودة، وأقصر قامةً مني. ولكن، هل هناك من هو ليس أقصر قامة مني! كان حوض الغسيل بنّياً، قاتم اللون، ويشعّ قبالة لباسها الرسمي الأبيض المنشّى، وكان حاجباها رماديَّين بالرغم من سواد شعرها.

"مرحباً، يا آنسة سكيتر. هل لا تزال الآنسة ليفولت تعمل على الماكينة؟".

"أجـــل". من الغريب أن آيبيلين لا تزال تدعو إليزابيت بالآنسة لـــيفولت ولـــيس بالآنسة إليزابيت أو حتى باسم عائلتها قبل الزواج، الآنسة فريديريكس بعد كل تلك الأشهر التي أمضتها في منـــزلها.

"هـــل تسمحين؟". وأشرت إلى البراد. ولكن قبل أن أتمكن من خدمة نفسي، فتحت لي آيبيلين الباب.

"ماذا تريدين؟ زجاجة كوكا - كولا؟".

فأومـــأتُ برأســـي وانتـــزعَت السدادة بالفتّاحة الموضوعة على المنضدة، وسكَبت المحتوى في كوب.

أخـــذتُ نفساً عميقاً، ثم قلت: "يا آيبيلين، كنت أتساءل عما إذا كـــان في استطاعتي الحصول على مساعدتك في أمر ما". وأخبرتها عن الفقـــرة التي أُعدّها في المجلة، وشعرت بالامتنان عندما أومأت برأسها، مُقرّةً أنها تعرف الآنسة ميرنا.

"لذلك، ربما أقرأ لك بعض الرسائل ويمكنك... أن تساعديني على وضع الإجابات. بعد مدة قصيرة من الزمن، قد أتمكن من القيام بالأمـــر بنفسي و...". وتوقفتُ. لن أتمكن أبداً من الإجابة بنفسي عـــن الأســـئلة الـــتي تتناول التنظيف. بصدق، لم أكن أعتزم تعلّم كيفـــية التنظيف. "يبدو الأمر غير منصف، أليس كذلك، أن آخذ إجاباتـــك وأدّعـــي أنـــي أعـــددتها أم أن ميرنا قامت بإعدادها". وتنهّدتُ.

هـــزت آيبيلين رأسها. "لا مانع لديّ. لست واثقة من أن الآنسة ليفولت ستوافق على الأمر".

"قالت إنه لا بأس في ذلك".

"في أثناء ساعات العمل؟".

فأومأتُ برأسي، متذكّرةً نبرة الموافقة في صوت إليزابيت.

"حسناً إذاً". هزّت آيبيلين كتفيها، ونظرت إلى الساعة فوق حوض الغسيل. "سيكون عليّ التوقف ربما عندما تستيقظ ماو موبلي".

"هلا جلسنا؟". أشرت إلى طاولة المطبخ.

ألقت آيبيلين نظرة إلى الباب الدوّار. "تفضّلي، أنا مستعدة".

لقد أمضيت الليلة السابقة في قراءة كل مقالة للآنسة ميرنا وضعتها قبل خمس سنوات، ولكن، لم يتسنَّ لي الوقت لفرز الرسائل التي لم تتم الإجابة عنها. فوضعتُ لوحي المِشبكي بشكل مستقيم، ممسكةً القلم بيدي. "إليك رسالة من مقاطعة رانكين".

قرأتُ: "*عزيزتي الآنسة ميرنا، كيف أُزيل الأوساخ عن ياقة قميص زوجي المُهمِل وممتلئ الجسم، لا سيّما وأنه كالحيوان و... ويتعرّق كشخصٍ...*".

رائع. عمود عن التنظيف والعلاقات. هما *أمران* لا أعرف عنهما شيئاً البتة.

سألَت آيبيلين: "ما الذي تريد التخلص منه؟ الأوساخ أم الزوج؟".

فحدّقتُ إلى الصفحة. لم أكن أعرف كيف أطلب منها الإجابة عن الأمرين.

"قولي لها أن تستخدم خلاًّ وتنقعها بباين - سول، ولتضعها في الشمس لبعض الوقت".

فدوّنتُ ذلك بسرعة. "تضعها في الشمس لأي مدة من الزمن؟".

"لنحو الساعة، ولتدَعها تجف".

سحبتُ الرسالة التالية، فأجابت عنها بالسرعة نفسها. وبعد أربع أو خمس رسائل، تنفّستُ الصعداء.

"شكراً يا آيبيلين. لا فكرة لديك كم ساعدني هذا الأمر".

"لا مشكلة في ذلك ما دامت الآنسة ليفولت لا تحتاج إليّ".

جمعتُ أوراقي، وتناولت آخر رَشفة من الكولا، واسترخيتُ لبضع ثوانٍ قبل الانطلاق لوضع المقالة. كانت آبيلين تنقّب في كيس يحتوي على أوراق سَرخَسيّة خضراء، ويسود الهدوء الغرفة باستثناء الراديو الذي يبثّ بهدوء.

"كيف عرفتِ كونستنتين؟ أين كنتما تلتقيان؟".

"نحن... في الجماعة نفسها". وبدّلت آبيلين وضعية قدميها أمام حوض الغسيل.

انتابني ما غدا ألماً نفسياً مألوفاً. "حتى إنها لم تترك عنواناً. لا يمكنني التصديق أنها غادرت على ذلك النحو".

لم ترفع آبيلين نظرها. لقد بدا الأمر كما لو أنها تتفحص أوراق السرخسية الخضراء بحِرص شديد. "لا، أنا على ثقة تامة أنه تم الاستغناء عن خدماتها".

"لا، قالت والدتي إنها تركت العمل في نيسان/أبريل الماضي، وذهبت للعيش في شيكاغو مع عائلتها".

فالتقطت آبيلين ورقة سرخسية أخرى، وبدأت تغسل جذعِها الطويل وأطرافها الخضراء المتجعّدة. قالت بعد توقف قصير: "لا يا سيدتي".

تطلّبني الأمر بضع ثوانٍ لأدرك ما تعني.

قلت، محاولةً النظر إلى عينيها: "يا آبيلين، تعتقدين حقاً أنه تم طرد كونستنتين؟".

غدا وجه آبيلين شاحباً كالسماء الزرقاء. قالت: "لا بد من أن الذاكرة تخونني". ويمكنني القول إنها ربما ظنت أنها بالغت في الكشف عن بعض الأمور لامرأة بيضاء البشرة.

سمعنا ماو موبلي تنادي، فاستأذنت آيبيلين للانصراف، وخرجت مـــن الباب الدوّار. ومضت ثوانٍ قليلة قبل أن أعي وجوب العودة إلى المنـــزل.

عـــندما دخلتُ المنـــزل بعد عشر دقائق، كانت والدتي تقرأ على طاولة غرفة الطعام.

قلـــت، ضـــامّةً مفكـــرتي إلى صـــدري: "أمـــي، هل *طردتِ* كونستنتين؟".

"هـــل قمتُ... *بماذا*؟". سألت والدتي. ولكنني أعلم أنها سمعتني لأنهـــا أفلـــتت مجلة دي أيه أر من يدها. لقد تطلّب الأمر طرح سؤال عسير عليها لترفع نظرها عن تلك المجلة الآسرة للانتباه.

قالـــت: "يـــا أوجينيا، قلت لك، كانت شقيقتها مريضة، لذلك انتقلت إلى شيكاغو للعيش مع عائلتها، لماذا؟ من قال لك غير ذلك؟".

لم أكـــن لأخـــبرها ولو بعد مليون عام أنها آيبيلين. "لقد سمعتُ بالأمر بعد ظهر هذا اليوم في المدينة".

"من يتحدث عن أمر مماثل؟". وضيّقت والدتي عينيها وراء نظارة القراءة. "لا بد من أنها إحدى الزنجيات".

"ما الذي *فعلته* لها، يا أمي؟".

عـــضّت والدتي على شفتيها، ورمقتني بنظرة طويلة ومتأمّلة من فـــوق نظارتهـــا ثنائـــية الـــبؤرة. "لن تفهمي، يا أوجينيا، إلا بعد أن تستخدمي عاملة منـــزل بنفسك".

"لقد... *طردتِها*؟ لأي سبب؟".

"لا يهمّ. لقد بات الأمر ورائي الآن، ولن أفكر فيه لدقيقة أخرى".

قلتُ، شاعرةً بالاشمئزاز من صوتي المتوسل ومطالبـــي الطفولية: "أمي، لقد أشرفَت على تربيتي. أخبريني الآن بما جرى!".

فرفعت والدتي حاجبَيها لدى سماع نبرة صوتي، وأزالت نظارتها: "لم تكن سوى شيء ملوّن البشرة، وهذا كل ما سأقوله". وأعادت وضع نظارتها، ورفعَت المجلة إلى مستوى عينيها.

بدأتُ بالارتجاف، وشعرتُ بغضب شديد، فصعدتُ درجات السلّم بصخَب، وجلستُ أمام آلتي الكاتبة، مصعوقةً من قيام أمي بطرد شخص أسدى لها المعروف الأكبر في حياتها، وربّى ابنها وابنتها، وعلّمني اللطف واحترام النفس. فحدّقتُ عبر غرفتي إلى ورق الجدران المكسوّ بنقوش الورد، وإلى الستائر التي تحتوي على ثقوب تزيينية، وإلى الصور الفوتوغرافية المائلة إلى الصُّفرة والمألوفة كثيراً التي باتت جديرة بالازدراء. لقد عملت كونستنتين لدى عائلتنا لتسعة وعشرين عاماً.

في الأسبوع التالي، دأب والدي على النهوض من فراشه قبل الفجر، وكنت أستيقظ على صوت محركات الشاحنات، وصخَب قطّافات القطن، وصياح المنادين بالاستعجال. كانت الحقول بنّية اللون وهشّة بسبب سويقات القطن اليابسة والمجرَّدة من الأوراق، لتتمكن الآلات من قطف جوزات القطن. إنه موسم حصاد القطن.

لم يتوقف والدي عن المشاركة في الاحتفال الديني في أثناء زمن الحصاد، ولكنني تمكنت من التحدث إليه ليلة الأحد في الردهة المُظلمة بين فترة تناول العشاء وخلوده إلى النوم. "يا أبي؟". سألتُ: "هلا أخبرتني عما حدث لكونستنتين؟".

كان شديد التعب لدرجة أنه تنهّد قبل أن يجيب.

"كيف أمكن لأمي أن تطردها، يا أبي؟".

"ماذا؟ يا عزيزتي، لقد استقالت كونستنتين. تعلمين أن والدتك ما كانت لتطردها أبداً". بدا مخيَّب الأمل بي لأنني سألته أمراً مماثلاً.

"هل تعرف أين ذهبت؟ أو هل لديك عنوانها؟".

فهــزّ رأسه نافياً أن تكون لديه أي معلومات. "اسألي أمك، هي تعــرف". وربّــت علــى كتفي. "الناس ينتقلون من مكان إلى آخر، يا سكيتر. ولكنني أتمنى لو بقيَت هنا معنا".

عبَر الردهة باتجاه السرير. كان رجلاً شديد الصدق ولا يخفي أموراً، لذلك تيقّنتُ من أنه لا يملك معلومات عن الأمر أكثر من معلوماتي.

في ذلك الأسبوع وفي كل أسبوع، كنت أمرّ إلى منــزل إليزابيت مــرتين أحياناً للتحدث إلى آيبيلين. في كل مرة، كانت إليزابيت تبدو أكثر تشدداً. فكلما أطلت البقاء في المطبخ، ازدادت توجيهات إليزابيت إلى آيبــيلين للقيام بمهام منــزلية إضافية، وذلك حتى مغادرتي؛ مقابض الأبواب بحاجة إلى تلميع، أعلى البراد بحاجة إلى إزالة الغبار عنه، أظافر ماو موبلي بحاجة إلى تقليم. وظلّت آيبيلين تكُنّ الوُدّ لي، ولكنها غدت عــصبية المــزاج، وتقف أمام حوض الغسيل في المطبخ ولا تتوقف عن العمل. ولم يدُم الأمر طويلاً حتى بدأتُ أسلّم مقالتيَ قبل الموعد المحدد، وبــدا السيد غولدن مسروراً بعمودي، وقد تطلّبني الأمر نحو عشرين دقيقة لوضع أول مقالتين فقط.

كــنت أســأل آيبــيلين عن كونستنتين كل أسبوع. ألا يمكنها الحصول على عنوانها من أجلي؟ ألا يمكنها إطلاعي على السبب الذي أدى إلى طــردها؟ هــل حدثت جَلَبة كبيرة، لأنه لا يمكنني أن أتصور كونستنتين تقول *أجل يا سيدتي* وتخرج من الباب الخلفي. لا بد من أن والــدتي ضاقت ذرعاً بها بسبب ملعقة ملطّخة، أو قيامها بتقديم شريحة خبــز محمّصة ومحروقة لها طوال أسبوع. لم يكن في استطاعتي أن أتخيّل قيام والدتي بطردها لأسباب مماثلة.

ولكن توسلاتي لم تؤدِّ إلى أي نتيجة، لأن كل ما كانت تقوم به آيبيلين هو هزّ كتفَيها لي، والقول إنها لا تعرف شيئاً.

بعـــد ظهـــر أحد الأيام، وبعد أن سألتُ آيبيلين عن كيفية إزالة الأوســـاخ المستعصية عن حوض الاستحمام (لم أفرك في حياتي حوض استحمام)، عدت إلى المنـــزل، ومررت أمام غرفة الاستجمام. كانت باسكاغولا تشاهد التلفاز على بُعد خمس بوصات من المرقاب، فألقيت نظرة داخل الغرفة وسمعتُ كلمتيّ *أولي ميس*، ورأيت على الشاشة ذات الـــصورة غـــير الواضحة رجالاً بيض البشرة في بذلات محتشدين أمام الكـــاميرا، والعرَق يسيل على رؤوسهم الصلعاء. فدنوتُ من التلفاز، ورأيت زنجياً بمثل سنّي تقريباً واقفاً وسط الرجال ذوي البشرة البيضاء، وكـــان هـــناك جنود وراءه. واتّسع نطاق المشهد، وظهر المبنى القديم لكلّيتي، والحاكم روس بارنيت واقفاً وشابكاً ذراعيه على نحو متصالب، وهـــو يحدّق إلى الزنجي طويل القامة. وبجانب الحاكم وقف السيناتور ويتوورث الذي كانت هيلي تحاول تحديد موعد عشوائي لي مع ابنه.

نظرت إلى شاشة التلفاز على نحو آسر. ولكنني لم أكن متأثرة أو محبَّـــبة الأمل بسبب الأخبار التي تناولت رجلاً ذا بشرة ملوّنة في أولي مـــيس، بـــل متفاجئة بما يجري. ومع ذلك، كانت باسكاغولا تُصدر أنفاســـاً مرتفعة لدرجة أنه كان في إمكاني سماعها. ووقفَت بلا حراك، غـــير مدركة أنني وراءها. وبدا رودجر ستيكر، مراسلنا المحلّي، عصبيّ المـــزاج، مبتسماً، وسريع التكلم. "أمر الرئيس كنيدي الحاكم بالتنحي لصالح جايمس ميريديت. أكرر، رئيس الولايات المتحدة...".

"يا أوجينيا، يا باسكاغولا! أطفئا ذلك التلفاز في الحال".

انتفـــضت باســـكاغولا ناظـــرةً إلى من حولها، ورأتني ووالدتي. فخرجَت من الغرفة بسرعة، موجّهةً نظرها إلى الأرض.

همـــست والـــدتي: "لـــن أسمح بذلك، يا أوجينيا، لن أسمح لك بتشجيعهنّ على هذا النحو".

"تشجيعهنّ؟ إنها أخبار على مستوى الأمة بأكملها، يا أمي".

نخـــرت والدتي أنفها وقالت: "من غير الملائم أن تشاهَدا معاً".

وبدّلت المحطة وتوقفت عند المحطة التي تعرض إعادة للورنس وِلك.

"انظري، أليس ذلك أفضل؟".

في يـــوم ســـبت حـــارّ من أواخر أيلول/سبتمبر، وبعد فرم الحقول وتفـــريغها مـــن محتوياتها، اصطحب والدي معه إلى المنـــزل تلفازاً ملوَّناً جديـــداً مـــن طراز أر سي أيه، ونقل التلفاز الأسود والأبيض إلى المطبخ. وقام بتوصيل التلفاز الجديد بالقابس الكهربائي في جدار غرفة الاستجمام، مبتـــسماً ومعتدّاً بنفسه. ودوّى صوت المشاركين في مباراة كرة القدم بين أولي ميس، وأل أس يو في مختلف أرجاء المنـــزل طوال بعد الظهر.

كانت والدتي مذهولة بالطبع بالصور الملوّنة وتطلق عبارات تأوّه لـــدى مـــشاهدة اللاعـــبين المليئين بالقوة والنشاط بملابسهم الحمراء والخـــضراء. كانـــت ووالدي من أنصار فريق الثوّار، وترتدي بنطالاً صـــوفياً أحمر بالرغم من شدة الحرارة، وتغطي الكرسي ببطانية والدي القديمة من ماركة كابا ألفا. و لم يكن أحد مهتماً لجايمس ميريديت.

فاســـتقللت سيارة الكاديلاك وتوجهت إلى المدينة. ووجدَت والدتي أن عـــدم رغـــبتي في مشاهدة المباراة التي تخوضها كليتي الأم أمر لا يمكن تفسيره. ولكن إليزابيت وعائلتها كانوا في منـــزل هيلي يشاهدون المباراة، ممـــا يعـــني أن آيبـــيلين تعمل في المنـــزل بمفردها. أملتُ في أن يكون أمر استـــضافتي أكثر سهولة بالنسبة إلى آيبيلين، لأن إليزابيت غير موجودة. في الحقيقة، لقد أملتُ في أن تخبرني شيئاً ما، أي شيء، عن كونستنتين.

فأدخلـــتني آيبـــيلين، وتبعتها إلى المطبخ. لم تكن أكثر ارتياحاً في منـــــزل إليزابيت الفارغ. نظرَت إلى طاولة المطبخ كما لو أنها أرادت الجلوس في ذلك اليوم. ولكن، عندما سألتها عما إذا كان هناك خَطب

مـــا، أجابـــت: "لا، أنا بخير. تفضّلي". وتناولت حبة طماطم من قِدر الطبخ الموجودة في حوض الغسيل، وبدأت بتقشيرها بسكين.

فانحنـــيتُ باتجاه المنضدة، وطرحتُ أحدث أُحجية، كيف تمنعين الكـــلاب مـــن دخـــول مستوعبات القمامة في الخارج، لأن زوجك الكسول نسي أن يضعها في الخارج في اليوم المحدد لجمع النفايات، وهو يشرب كل شراب الشعير اللعين ذلك.

"اسكبـــي بعض pneumonia أي التهاب رئوي في تلك القُمامة فتبتعد الكلاب عنها". فسجّلتُها، مصحِّحةً كلمة pneumonia بكلمة ammonia محلـــول النُّـــشادر. وفتحتُ الرسالة التالية، وعندما رفعتُ نظري، رأيت آيبيلين تبتسم لي.

"لا أريـــد الإســـاءة إليك، يا آنسة سكيتر، ولكن... أليس من الغريب أن تكوني الآنسة ميرنا الجديدة في حين أنك لا تعرفين شيئاً عن تدبير شؤون المنـــزل؟".

لم تعبّر آيبيلين عن رأيها بالطريقة التي اعتمدتها والدتي قبل شهر. ووجدتُ نفسي أضحك، وأخبرتها ما لم أخبر أحداً به عن الاتصالات الهاتفية وسيرتي الذاتية التي أرسلتها إلى هاربر آند روو، وعن رغبتي في أن أكون كاتبة، وعن النصيحة التي تلقيتها من إلين شتاين. من الجيد أن نخبر شخصاً ما بهذه الأمور.

أومأت آيبيلين برأسها، ووجهت سكينها نحو حبة طماطم حمراء أخرى. "كان ابني تريلور يحب الكتابة".

" لم أكن أعلم أن لديك ابناً".

"لقد تُوفّي منذ عامين".

قلـــت: "آه، أنـــا آســـفة". سالت عُصارة الطماطم اللينة على حوض الغسيل.

"كان يحصل على علامات *أيه* في كل امتحانات اللغة الإنكليزية. وفي وقت لاحق، وعندما كبر، تمكن من الحصول على آلة كاتبة، وبدأ يعمـــل علـــى فكرة ما...". وهبطت الكتفان المتنيتان للباسها الرسمي. "قال إنه سيضع كتاباً بنفسه".

ســـألتُ: "أي نـــوع مـــن الأفكـــار؟ أعـــني، إذا لم تمانعـــي بإخباري...".

لم تقـــل آيبيلين شيئاً لفترة من الزمن، واستمرت في تقشير حبات الطمـــاطم. "لقد قرأ ذلك الكتاب بعنوان *الرجل الخفيّ*. وعندما انتهى مـــن قراءته، قال إنه سيضع كتاباً عن رجل ملوّن البشرة يعمل لصالح رجل أبيض البشرة في الميسيسيبـــي".

فأشـــحت بنظري، مُدركةً أن والدتي كانت لتوقف الحديث عند هذا الحد. حينذاك، ابتسمت آيبيلين، وغيّرت الموضوع لتتناول موضوع سعر مادة تلميع الأواني الفضية والأرزّ الأبيض.

"قـــرأت *الـــرجل الخفـــيّ* أيضاً بعد أن انتهى من قراءته". قالت آيبيلين. "لقد أعجبني".

فأومـــأتُ برأســـي، عِلماً أنني لم أقرأه قط. ولم أكن أعرف أن آيبيلين من مُحبـــي القراءة.

قالت: "كتبَ خمسين صفحة تقريباً، لقد سمحتُ لصديقته فرانسز بالاحتفاظ بها".

تـــوقفت آيبـــيلين عن التقشير، ورأيت حنجرتها تتحرك، مبتلعةً الهـــواء. عندما كانت تبتلع الهواء، قالت: "رجاءً، لا تخبري أحداً أنه". وأكملـــت بهدوء أكبر، "كان يريد أن يكتب عن صاحب عمله أبيض البـــشرة". وعـــضّت شفتها، وصعقني أمر استمرارها في الخشية عليه. فبالرغم من وفاته، كانت تخشى على ابنها بشكل فطري.

"مـــن الجـــيد أنك أخبرتني بذلك يا آيبيلين. أعتقد أنها... فكرة شجاعة".

تـــسمّرت عينا آيبيلين للحظات. بعد ذلك، تناولَت حبة طماطم أخرى وشرعت بتقشيرها. فراقبتُ، وانتظرتُ سيلان العصارة الحمراء. ولكن آيبيلين توقفت قبل قطعها، ونظرت نحو باب المطبخ.

"أظن أنه من غير المنصف ألا تعرفي ما حدث لكونستنتين. آسفة لذلك، لا أشعر أنه من الصواب أن أتحدث إليك عن الأمر".

فبقيتُ هادئة، غير واثقة مما حثها على قول ذلك، وغير راغبة في إفساد الأمر.

"مع ذلك سأخبرك. يتعلق الأمر بابنتها. لقد أطلعَت والدتك على الأمر".

"ابنـــتها؟ لم تخـــبرني كونستنتين أبداً أن لديها ابنة". لقد عرفتُ كونستنتين لمدة ثلاثة وعشرين عاماً. لماذا تُخفي هذا الأمر عني؟

"كـــان الأمـــر صعباً بالنسبة إليها. لقد وُلدت الطفلة... شاحبة اللون".

فتـــسمّرتُ في مكــــاني، وتذكـــرت ما قالته لي كونستنتين منذ سنوات. "تعنين، فاتحة اللون؟ كما لو أن بشرتها... بيضاء؟".

أومــــأت آيبيلين برأسها، مستمرةً في عملها فوق حوض الغسيل. "كان يجب إبعادها إلى الشمال كما أظن".

قلـــت: "والـــد كونستنتين أبيض البشرة، آه... يا آيبيلين... هل تعـــتقدين...". وتبادرت إلى ذهني فكرة بشعة، وكنت مصدومة جداً لدرجة أنني لم أتمكن من إنهاء جملتي.

فهـــزت آيبـــيلين رأسها. "لا، لا يا سيدتي. الأمر ليس... كما تظـــنين. زوج كونستنتين، كونور، ذو بشرة ملوّنة. ولكن، بما أن دم

والــد كونستنتين يسري في عروقها، وُلدت طفلتها ولون بشرتها أصفر قاتم. هذا... أمر يحدث".

لقد شعرتُ بالخجل لأنني فكرت في الأسوأ. ومع ذلك، لم أفهم. "لماذا لم تخبرني كونستنتين بذلك أبداً؟". سألتُ من دون أن أتوقع أي جواب. "لماذا أبعدَتها؟".

أومأت آيبيلين برأسها لنفسها كما لو أنها فهمت الأمر، ولكنني لم أفهــم. "لم يسبق لي أن رأيتها في تلك الحال السيئة. كما قلت آلاف المــرات، لم يكن في استطاعة كونستنتين انتظار اليوم الذي تستعيد فيه ابنتها".

"قلتِ ابنتها. هل لذلك علاقة بطرد كونستنتين؟ ماذا حدث؟".

عــند هــذا الحــد، غــدا وجه آيبيلين شاحب اللون، وأقفلت الموضــوع. أشارت برأسها إلى رسائل الآنسة ميرنا، موضحةً أن هذا كل ما أرادت قوله.

بعد ظهر ذلك اليوم، توقفتُ بجانب منــزل هيلي التي تقيم حفلة بمناسبة مباريات كرة القدم. كانت سيارات الستايشن والبويك متوقفة علــى امــتداد جانبَي الشارع. فخرجتُ بصعوبة من الباب، عالمةً أنني العزباء الوحيدة هناك. في الداخل، كانت غرفة الجلوس مليئة بالأزواج الجالــسين علــى الأرائــك، والكراسي، وأذرعة الكراسي، والعيون مشدودة إلى التلفاز ذي الإطار الخشبــي. فوقفتُ في الخلف، وتبادلتُ بعض الابتسامات والتحيات الصامتة. وباستثناء المعلّق التلفازي، كانت الغرفة هادئة.

"*هــووووا*!". صاحوا كلهم، وعلَت الأيادي في الهواء، ووقفت النساء مصفّقات. كنت أقضم الجلد حول ظفري.

"أحسنتم أيها الثوار! لقد لقّنتم أولئك النمور درساً!".

"هــيا، يا ثوار!". هتفت ماري فرانسز ترولي، قافزةً في مكانها وهي ترتدي مجموعة ملابس صوفية تتلاءم مع أجواء المباراة. نظرتُ إلى ظفري، وكــان الجلــد المحيط به زهريّ اللون ويسبب لي ألماً. كانت الغرفة عابقة بــرائحة الشراب، وتطغى عليها الملابس الصوفية الحمراء وخواتم الألماس. وتــساءلتُ عما إذا كانت الفتيات يُحببن كرة القدم حقاً، أم أنهنّ يتصرّفن بهــذه الطريقة لترك انطباع جيد في نفوس أزواجهنّ. ففي الأشهر الأربعة التي أمضيتها في الرابطة، لم تسألني فتاة يوماً: "ما رأيك بفريق الثوار؟".

شققتُ طريقي عبر بعض الأزواج حتى وصلتُ إلى المطبخ. كانت خادمة هيلي الطويلة والنحيلة، يول ماي، تضع نقانق صغيرة في العجين وتلفّها. وكانت هناك فتاة أخرى ذات بشرة ملوّنة، وأصغر سناً، تغسل الأطباق في حوض الغسيل. فلوّحت لي هيلي بينما كانت تتحدث إلى دينا دوران.

"... أفضل بتيفور تذوّقته يوماً! يا دينا، قد تكونين الطاهية الأكثر تمتعاً بالموهبة في الرابطة!". أقحمت هيلي بقية البتيفور في فمها، مومئةً برأسها ومعبّرةً عن مدى طيب مذاقها.

قالت دينا بوجه مُشرق: "شكراً لك، يا هيلي، إنها قاسية، ولكنني أظـــن أنها جديرة بالإطراء". وبدت كما لو أنها على وشك البكاء من شدة الفرح.

"إذاً، ســتقومين بالأمــر؟ آه، أنـــا سعيدة جداً. تحتاج لجنة بيع المنتجات المصنوعة من الدقيق إلى شخص مثلك، *حقاً*".

"وكم عدد القطع التي تحتاجين إليها؟".

"خمسمئة، بعد ظهر يوم غد".

جمُــدَت ابتسامة دينا. "حسناً. أظن أن في استطاعتي... العمل في أثناء الليل".

قالت هيلي: "يا سكيتر، لقد تمكّنتِ من القدوم". وخرجت دينا من المطبخ.

قلت، وربما بسرعة كبيرة: "لا يمكنني البقاء مدة أطول".

"حسناً، لديّ معلومات جديدة". أطلقت هيلي ابتسامة متكلّفة. "سيأتي هذه المرة قَطعاً، بعد ثلاثة أسابيع من اليوم".

رأيـــتُ أصابع يول ماي الطويلة تقرص العجين برأس السكين، فتـــنهّدتُ وأدركـــتُ في الحـــال الشخص الذي تقوم بإعداد عجينة الـــنقانق هـــذه له. "لا أعلم، يا هيلي. لقد حاولتِ مرات عدة. ربما كـــان ذلك إشارة". في الشهر السابق، وعندما ألغى الموعد قبل يوم مـــن اللقـــاء، شعرت ببعض الارتياح. لم أكن أشعر حقاً بالرغبة في لقائه.

"ماذا؟ لا تجرؤي على قول ذلك".

قلـــتُ: "يـــا هيلي". وصررتُ أسناني لأن الوقت قد حان أخيراً لإبداء رأيي بصراحة. "تعلمين أنني لست من النوع الذي يحبه".

قالـــت: "انظـــري إليّ". فلبّيتُ طلبها لأن هذا ما تقوم به أولئك اللواتي يُحطِن بهيلي.

"يا هيلي، لا يمكنك إجباري...".

"إنهـــا *فرصـــتك المناسبة*، يا سكيتر". أمسكت بيدي، وضغطت علـــيها بإبهامهـــا وأصـــابعها بقوة كما كانت تفعل كونستنتين. "إنها فرصتك. وتبّاً، لن أدع هذه الفرصة تفوتك لا لسبب إلا لأن والدتك مقتنعة أنك غير مناسبة لشخص مثله".

لقد تأثرتُ بكلماتها القاسية والواقعية، لكنني كنت ألزَم الحذر من صديقتي بسبب إصرارها. لطالما كنا، هيلي وأنا، صادقتين تماماً وبعـــناد مـــع بعضنا بعضاً، وإن في ما يتعلق بالأمور الصغيرة. لكن

هيلـــي كانـــت تكذب على الأخريات كما يكذب أفراد الطائفة المشيخية لحملنا على الشعور بالذَّنب. ولكن اتفاقنا غير المُعلَن بالتزام الـــصدق مع بعضنا بعضاً، قد يكون الأمر الوحيد الذي يبقي على صداقتنا.

دخلـــت إليزابيت المطبخ حاملةً طبقاً فارغاً. فابتسمَت، ومن ثم توقفَت، نظرنا ثلاثتنا إلى بعضنا بعضاً.

قالـــت إليزابيت: "ماذا؟". يمكنني الجزم أنها تظن أننا كنا نتحدث عنها.

"بعد ثلاثة أسابيع؟". سألتني هيلي. "هل ستأتين؟".

قالت إليزابيت: "آه، أجل ستأتين بالتأكيد!".

نظرتُ إلى وجهيهما الباسمَين، وإلى ما يأملان في أن أبلغ إليه. هو لـــيس تطفّـــلاً كتطفّل والدتي، بل رجاءً خالياً من أي شوائب. لكنني كـــرهتُ قيام صديقتيّ بمناقشة مصيري من وراء ظهري. لقد كرهتُ ذلك، ولكنني أحببته أيضاً.

عـــدتُ إلى الـــريف قـــبل انـــتهاء المباراة. عبر النافذة المفتوحة للكـــاديلاك، بدت الحقول مقطوعة ومحروقة. لقد اختتم والدي موسم الحـــصاد الأخير قبل أسابيع، ولكن جانب الطريق كان لا يزال أبيض كالـــثلج بسبب القطن العالق على العشب، ويتطاير بعض منه بخفّة في الهواء.

تفحّـــصتُ صندوق البريد من مقعد السائق، وكان في داخله مجلة *تقـــويم المُـــزارع* ورسالة واحدة من هاربر آند روو. سلكتُ الطريق الخاصة بالمنـــزل، ووضعتُ جهاز نقل الحركة الأوتوماتيكي على صيغة توقـــف. كانـــت الرسالة مكتوبة بخط اليد على ورقة رسائل صغيرة مربّعة الشكل.

آنسة فيلان،

مـــن المحـــتمَل أن تكوني قد شحذتِ مهاراتك الكتابية من خلال موضــوعات فاتــرة تفتقر إلى العاطفة والحماسة كالقيادة في حال الـــسُكر والأمّيّة. ولكنني كنت آمل لو أنك اخترتِ موضوعات أكثر تأثيــراً فـــي القارئ. تابعي البحث، وإذا وقعتِ على موضوع جديد ومبتكَر، عندها يمكنك مراسلتي مجدداً.

انـــسللتُ أمام باب غرفة الطعام التي توجد فيها والدتي، وعبرتُ الـــرَّدهة حـــيث تقـــوم باسكاغولا بإزالة الغبار عن الصور، وصعدت درجـــات الـــسلَّم شديدة الانحدار. كان وجهي يتوهّج حرارةً بسبب الدمـــوع التي ذرفتها فوق رسالة السيدة شتاين، وطلبتُ من نفسي أن أتمالـــك أعـــصابـــي. فأسوأ ما في الأمر هو أنه لا توجد لديّ أفكار أفضل.

فانكبـــبتُ علـــى الموضوع التالي لتدبير الشؤون المنـــزلية، وعلى النـــشرة الدَّورية الخاصة بالرابطة. وتجاهلتُ للأسبوع الثاني على التوالي مبادرة الحمّامات التي طرحتها هيلي. بعد ساعة، وجدت نفسي أحدّق خـــارج النافذة. كانت نسختي من مجلة *دعونا نُثني الآن على مشاهير الرجال* موجودة على حافة النافذة. فتوجهتُ إليها والتقطتها، وخشيتُ من أن يكون الضوء قد جعل الغلاف الخارجي للمجلة، وصورة العائلة المتواضـــعة والفقـــيرة، باهـــتة اللـــون. كانت حارّة بسبب الشمس. وتـــساءلت عمـــا إذا كنت سأكتب يوماً شيئاً قيّماً، استدرتُ عندما سمعت باسكاغولا تقرع بابـــي. حينذاك، تبادرت الفكرة إلى ذهني.

لا. لا يمكنني ذلك. قد يُعتبر الأمر... تخطّياً للحدود.

لكن الفكرة لم تبارحني.

آيبيلين

الفصل السابع

أخـــيراً، انحـــسرت موجة الحَرّ في أواسط تشرين الأول/أكتوبر، ونعمـــنا ببرودة معتدلة في ظل حرارة بلغت خمسين درجة. في الصباح، كان مقعد مرحاض ذلك الحمّام في الخارج يغدو بارداً، فيُشعرني بمزيد مـــن النـــشاط عندما أجلس عليه. كان مجرّد غرفة صغيرة بُنيت داخل موقف السيارة، وتحتوي على مرحاض ومِغسلة صغيرة متصلة بالجدار، وعلـــى حـــبل لإضـــاءة المصباح الكهربائي. كان يتعيّن وضع ورق المرحاض على الأرض.

عـــندما كـــنت أقوم بخدمة الآنسة كوليير، لم أكن مضطرة إلى الخـــروج مـــن المنـــزل لأن موقف سيارتها متصل به. في المكان الذي كـــنت أعمل فيه قبل ذلك كان هناك مسكن للخادمات، بالإضافة إلى سرير صغير للنوم عليه ليلاً. أما في منـــزل الآنسة ليفولت، فيتعيّن عليّ قطع مسافة في العراء للوصول إلى الحمّام.

عـــند ظهـــر يوم الثلاثاء، حملتُ وجبة غدائي وصعدت درجات السلّم الخلفي، وجلست على الإسمنت معتدل البرودة. لم يكن العشب ينبت جيداً هناك حيث تُرخي شجرة مغنوليا كبيرة بظلالها على معظم

الفـــناء الخلفي. كنت أعلم أن هذه الشجرة ستصبح بعد خمس سنوات تقريباً مكاناً تختبئ فيه ماو موبلي من الآنسة ليفولت.

بعد قليل، تهادت ماو موبلي على الدرجة الخلفية، وكانت تحمل نصف فطيرة برغر بيدها. فابتسمت لي وقالت: "جيدة".

سألتُ: "لماذا لستِ مع أمك في الداخل؟". ولكنني كنت أعرف السبب. إنها تفضّل الجلوس هناك في الخارج مع عاملة المنـــزل بدلاً من مـــشاهدة والدتها تنظر إلى كل مكان من دون الالتفات إليها. كانت أشبه بصوص مُربَك تبع البط بدلاً من الفصيلة التي ينتمي إليها.

أشـــارت مـــاو موبلـــي إلى العصافير الزرقاء التي تُعدّ العدّة لفصل الـــشتاء، وهـــي تغرّد في الينبوع الرمادي الصغير. "طيري يا عصافير!". وأوقعَت فطيرتها على الدرجة، فظهر على الفور كلب صيد الطيور المسنّ أوبـــــي والـــتهمها. لم أكن مولَعة بالكلاب، ولكن هذا الكلب يدعو للشفقة. فلاطفته على رأسه، وأراهن على أن أحداً لم يلاطفه منذ الميلاد.

عـــندما رأته ماو موبلي، أطلقت صرخة حادّة، وأمسكت بذنبه. فلعـــق وجهها مرات قليلة. يا للكلب المسكين! وأصدر صوت نحيب، ورمقهـــا بإحـــدى تلك النظرات المثيرة للشفقة، غدا رأسه مُضحكاً، وحاجـــباه إلى الأعلـــى. كان في استطاعتي تقريباً أن أسمعه يطلب منها إفلات ذنبه. لم يكن يعضّ.

سأحملها على إفلاته، قلت: "ماو موبلي، أين ذنبك؟".

فأفلتته، وبدأت تنظر إلى مؤخرتها. ففتحت فمها غير مصدّقة كما يـــبدو أنها أغفلت ذنبها طوال هذا الوقت. ودارت حول نفسها بتمايل محاولةً رؤيته.

"لـــيس لديك ذنب". ضحكتُ، وأمسكتُ بها كيلا تسقط عن تلك الدرجة. شمشم الكلب باحثاً عن مزيد من البرغر.

كـــنت أغدو مدغدَغة المشاعر كلما تأمّلت هؤلاء الأطفال الذين يـــصدّقون كل ما يقال لهم. فتايت فوريست، وهو أحد الأطفال الذين اعتنـــيتُ بهم منذ مدة طويلة، أوقفني في أثناء توجهي إلى متجر جيتي للبقالة قبل أسبوع، وعانقني مطوَّلاً معبّراً عن سعادته برؤيتي. لقد أصبح رجـــلاً بالغاً. كان الوقت قد حان للعودة إلى منـــزل الآنسة ليفولت، ولكنه بدأ يضحك ويتذكّر كيف كنت أعامله عندما كان فتى، وكيف قال لي إن قدمه نائمة ومع ذلك فهو يشعر بالدغدغة، فأجبته أن قدمه تغط في نمو عميق، وكيف طلبتُ منه عدم تناول القهوة وإلا أصبح ذا بـــشرة ملـــوّنة. وأخبرني أنه لا يزال لا يشرب القهوة، وأنه في الحادية والعشرين من العمر. إنه أمر سارّ على الدوام أن نرى الأولاد يكبرون.

"يا ماو موبلي؟ ماو موبلي ليفولت!".

لقـــد لاحظت الآنسة ليفولت أن طفلتها غير موجودة في الغرفة نفـــسها التي تجلس فيها. "إنها معي في الخارج، يا آنسة ليفولت". قلت من خلال الباب المُنخلي.

"طلـــبت مـــنك أن تتـــناولي طعامك في كرسيّك العالي، يا ماو موبلـــي. كيف حصلتُ عليك في حين أن كل صديقاتي لديهنّ فتيات مهذبات، لا أعلم...". لكن الهاتف رنّ، وسمعتُها تنهض ضاربةً الأرض بقوة بأخمص قدمَيها.

فنظـــرتُ إلى الطفلـــة، ورأيتها مغضَّنة الجبين بين عينيها. كانت تتأمل أمراً ما.

لمستُ خدّها. "هل أنت بخير، يا طفلتي؟".

فقالت: "ماو موبلي سيئة".

لقد آلمتني طريقة قول ذلك وكأنه أمر واقع.

قلت، وأردت اختبار أمر ما: "يا ماو موبلي، أنت فتاة ذكية؟".

نظرَت إليّ فحسب كما لو أنها لا تعرف ذلك.

قلت مجدداً: "أنت فتاة ذكية".

فقالت: "ماو موبلي ذكية".

قلت: "أنت فتاة صغيرة لطيفة".

نظرت إليّ وحسب. كانت في الثانية من عمرها، ولا تعرف من هي بعد.

فقلت: "أنت فتاة لطيفة". أومأت برأسها، وكررَت ما قلته. وقبل أن أتمكن من قول شيء آخر، نهضت، وطاردت ذلك الكلب المسكين في أرجاء الفناء وضحكَت، وحينذاك تساءلتُ عما قد يحدث إذا قلت لها أمراً جيداً كل يوم.

عادت إليّ، وابتسمت وصاحت: "مرحباً، يا آيي. أحبك، يا آيي". فشعرتُ بدغدغة ورغبة في الطيران كفراشة، وراقبتها وهي تلعب هناك في الخارج. إنه شعور مماثل للشعور الذي كان ينتابني عندما كنت أقوم بمراقبة تريلور، وقد جعلتني هذه الذكرى حزينة.

بعد قليل، قدِمت ماو موبلي إليّ، ووضعت وجنتها على وجنتي لمدة من الزمن، كما لو أنها تعرف أنني أتألم في الصميم. فضممتها بإحكام، وهمستُ، "أنت فتاة *ذكية*. أنت فتاة *لطيفة*، يا ماو موبلي. هل تسمعينني؟". واستمررتُ في قول ذلك حتى كررَت الكلام من بعدي.

كانت الأسابيع القليلة التالية هامة جداً بالنسبة إلى ماو موبلي. أنتم تفكرون في ذلك، ولكنكم لا تتذكرون على الأرجح جلوسكم للمرة الأولى على النونيّة بدلاً من التغوّط في حفاض، وقد لا تُعيدون الفضل في ذلك إلى من علّمكم استخدام النونيّة. فلم يدنُ مني أي طفل أشرفتُ على تربيته ويقول، *يا آيبيلين، أشكرك حقاً لأنك علّمتني كيف أستخدم النونيّة*.

إنــه أمــر معقّد. فإذا حاولتم حمل طفل على التغوّط في النونيّة قبل الأوان، فــإن ذلــك يدفعه للجنون. ومع ذلك، فقد كنت أعلم أن طفلتي مــستعدة لهــذه الخطوة، وهي تعلم أنها مستعدة. فوضعتُها على مقعدها الخشبــي الخاص بالأطفال، ولكنها قامت وركضت ما إن أدرت ظهري.

"عليك التبوّل، يا ماو موبلي؟".

"لا".

"لقــد شــربتِ كــوبَين من عصير العنب، أعلم أنه يجب عليك التبوّل".

"لووو".

"أعطيك بسكويتة إذا قمتِ بذلك لأجلي".

نظــرنا إلى بعضنا بعضاً للحظة. وبدأت تحدّق إلى الباب. لم أسمع شــيئاً يحدث في النونيّة. في العادة، كان في استطاعتي جعلهم يتغوّطون في النونيّة بعد نحو أسبوعين، هذا إذا قامت أمهاتهم بمساعدتي. فالفتيان يــشاهدون آبــاءهم يتبوّلون وهم واقفون، والفتيات يشاهدن أمهاتهنّ يقُمن بالأمر وهنّ جالسات. ولكن الآنسة ليفولت لا تدَع تلك الفتاة تقترب منها عندما تكون جالسة على المرحاض، وهنا المشكلة.

"تبوّلي قليلاً من أجلي، يا طفلتي".

فمدّت شفتها إلى الأمام، وهزت رأسها.

كانت الآنسة ليفولت قد قصدت مزيّن الشعر، وإلا لطلبتُ منها مجدداً تعليم ابنتها كيفية القيام بذلك، علماً أن تلك المرأة رفضت تلك الفكــرة خمس مرات. وعندما قالت لا في المرة الأخيرة، كنت أريد أن أُطلعها على عدد الأطفال الذين أشرفتُ على تربيتهم، وأطلب منها في المقابــل أن تُطلعني على عدد الأطفال الذين ربّتهم، ولكنني قلتُ لها لا *بأس* كالعادة.

قلت لها: "أعطيك بسكويتتين". علماً أن والدهما تتهمني على الدوام أنني سأجعل ابنتها بدينة.

فهزت ماو موبلي رأسها وقالت: "تبوّلي أمامي".

لا أقول إنني لم أتلقَّ هذا الطلب من قَبل، ولكنني تمكنت من التملّص من الأمر. كنت أعلم أنه يتعيّن عليها أن ترى كيفية القيام بذلك قبل أن تقوم به بنفسها. فقلت: "لا أشعر بالحاجة إلى التبوّل".

نظرنا إلى بعضنا بعضاً. وأشارت إليّ مجدداً وقالت: "تبوّلي أمامي".

بدأت بعد ذلك بالبكاء والتململ لأن ذلك المقعد يُحدث ثلماً على مؤخرهما، وعلمتُ أنه يتعيّن عليّ أن أكون المثال الذي تحتذي به. لكنني لم أكن أعرف كيفية القيام بذلك. هل أُخرجها إلى حمّامي في المرأب أو أصطحبها إلى الحمّام الموجود في المنزل؟ ماذا لو عادت الآنسة ليفولت في أثناء جلوسي على المرحاض؟ قد تُصاب بسورة غضب.

فأعدتُ تخفيضها، وذهبنا إلى المرأب الذي تفوح منه رائحة مستنقعية بسبب المطر، وكان مُعتماً بالرغم من وجود مصباح كهربائي، ولم يكن هناك ورق جدران مزخرف كما هي الحال داخل المنزل، فقط ألواح خشب رقائقية موضوعة بجانب بعضها بعضاً. فتساءلتُ عما إذا كانت ستشعر بالخوف.

"حسناً، يا طفلتي. ها هو حمّام آيبيلين".

فمدّت رأسها إلى الداخل، وفتحت فمها كما لو أنها تقول تشيريو، وقالت: "أووو".

فخلعتُ ملابسي الداخلية، وتبوّلتُ بسرعة، واستخدمتُ ورق المرحاض، وارتديتُ ملابسي على عجَل كيلا ترى شيئاً. بعد ذلك، أطلقتُ الماء داخل المرحاض.

قلت: "هكذا تتغوّطين في المرحاض".

حسناً، لم تبدُ متفاجئة، بل أبقت فمها مفتوحاً كما لو أنها رأت أمراً عجيباً. وخرجتُ، وقبل أن ألاحظ ما يجري في الداخل، قامت الطفلة بخلع حفاضها، وتسلّق ذلك الحمار الصغير الذي يدعوه الكبار مرحاضاً، وتمسّكت بأطرافه بإحكام كيلا تقع، وتبوّلت بنفسها.

"يا ماو موبلي! أنت تتبوّلين! إنه أمر جيد حقاً!". فابتسمَت، وأمسكتُها قبل أن تغرق فيه. وعدنا إلى المنزل، وحصلت على البسكويتتين.

في وقت لاحق، وضعتُها على نونيّتها، وقامت بالتبوّل لأجلي مرة أخرى. هاتان المرّتان هما المرحلة الأكثر صعوبة. وفي نهاية اليوم، شعرتُ أنني حققتُ شيئاً ما. ستكون متحدّثة لبِقة، ويمكنكم أن تحزروا كلمة اليوم الجديدة.

"ماذا فعلت طفلتي اليوم؟".

قالت: "تي - تي".

"ماذا سيضعون في كتب التاريخ بجانب هذا اليوم؟".

قالت: "تي - تي".

فقلت: "ما رائحة الآنسة هيلي؟".

قالت: "تي - تي".

ولكنني قلت لنفسي، *ليس تصرّفًا جيدًا، وأخشى أن تكرر ذلك على مسامع والدتها*.

في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، عادت الآنسة ليفولت إلى المنزل وشعرها ممشّط. كانت تفوح منها رائحة شبيهة برائحة محلول النّشادر.

قلـــت: "احـــزري ما الذي قامت به ماو موبلي اليوم؟ تبوّلَت في النونيّة".

"آه، رائـــع!". وعانقت ابنتها، وهو أمر لم أكن أراه كثيراً. كنت أعلم أنها تعني ما تقول لأن الآنسة ليفولت لا تحب تغيير الحفاضات.

فقلت: "عليك التأكد من أنها تتغوّط في النونية من الآن فصاعداً. سيكون الأمر مُربكاً جداً بالنسبة إليها إن لم تقومي بذلك".

ابتسمت الآنسة ليفولت وقالت: "حسناً".

"لنـــرَ إذا كانت ستتبوّل مرة أخرى في النونيّة قبل أن أذهب إلى المنـــــزل". ودخلـــنا الحمّام، وفككتُ حفاضها، ووضعتُها على ذلك المرحاض. ولكن الطفلة هزت رأسها.

"هيا، يا ماو موبلي، ألا يمكنك القيام بذلك من أجل الماما؟".

"لووو".

أخيراً، وضعتها على قدمَيها. "لا بأس، لقد قمتِ بعمل جيد اليوم".

لكن الآنسة ليفولت مدّت شفتيها إلى الأمام، ونظرت إليها مقطَّبة الجـــبين، مـــستاءة. وقـــبل أن أضع لها حفاضها مجدداً، فرّت الطفلة، وركـــضت بأســـرع ما يمكن في أرجاء المنـــزل وهي عارية. دخلت المطبخ، ورأت الباب المؤدي إلى المرأب مفتوحاً، وحاولت الوصول إلى مقبض باب حمّامي. فركضنا وراءها، وأشارت الآنسة ليفولت بإصبعها إلى ابنـــتها. فـــازداد صوتها ارتفاعاً بمعدل عشرة أضعاف. "هذا ليس حمّامك!".

فهزت الطفلة رأسها يميناً ويساراً. "*حمّامي أنا*!".

فأمـــسكت بهـــا الآنسة ليفولت وجذبتها نحوها، وصفعتها على ساقها.

"يا آنسة ليفولت، هي لا تُدرك ما الذي تفعله...".

"عودي إلى المنــزل، يا آيبيلين!".

كــنت أكــرهها، ولكنني عدت إلى المطبخ، ووقفت في الوسط، وتركت الباب مفتوحاً.

"لم أُربِّــك لتستخدمي حمّام ذوي البشرة الملوّنة!". سمعتُها همس في أُذُهـــا ظــنّاً منها أنني لا أسمع ما تقول، وقلت لنفسي، *يا سيدة، لم تربِّي طفلتك* البتة.

"المكـــان متّسخ في الخارج، يا ماو موبلي. تلتقطين أمراضاً! لا لا لا!". وسمعتها تصفعها مراراً وتكراراً على ساقيها العاريتين.

بعـــد قلـــيل، أدخلت الآنسة ليفولت ابنتها، جارّةً إياها ككيس بطاطـــا. وكـــل ما كان في استطاعتي القيام به هو مشاهدة ما يحدث. فاعتصر قلبـــي حزناً، وشعرت بانسداد حَلقي. ورمت الآنسة ليفولت مـــاو موبلـــي أمام التلفاز ودخلت غرفة نومها، وأغلقت الباب بقوة. فذهبتُ لمعانقة الطفلة، وكانت لا تزال تبكي وتبدو شديدة الارتباك.

قلتُ همس: "آسفة حقاً، يا ماو موبلي". لقد لعنت نفسي لأنني أخـــذتها إلى الخـــارج. ولكـــنني لم أكن أدري ما أقول لها غير ذلك، فضممتها إلى صدري وحسب.

جلسنا هناك نشاهد *ليل راسكالز* إلى أن خرجت الآنسة ليفولت، وسألت عن سبب مكوثي بعد دوام العمل. فوضعتُ السنتات العشرة المخصصـــة للحافلـــة في جَيبــــي، وعانقت ماو موبلي مرة أخرى، وهمست قائلة: "أنت فتاة ذكية. أنت فتاة جيدة".

في طـــريق العـــودة إلى المنـــزل، لم ألاحظ منازل ذوي البشرة البيضاء الكبيرة تمرّ أمام ناظرَيّ خارج النافذة، و لم أتحدث إلى صديقاتي الخادمات. كنت أرى طفلتي تتلقى صفعات بسببــــي، وأسمعها تُصغي إلى الآنسة ليفولت واصفةً إيّاي بالقذرة وناقلة الأمراض.

زادت الحافلـــة من سرعتها على امتداد شارع ستايت ستريت. فمـــررنا بجانـــب جـــسر وودرو ويلسون، وكان فكّي مُطبَقاً بإحكام لدرجة أنني كدتُ أعرّض أسناني للكسر. لقد شعرت ببزرة المرارة تلك تـــنمو في داخلي، تلك التي زُرعت في نفسي بعد وفاة تريلور. أردتُ الـــصراخ بصوت مرتفع كي تسمعني طفلتي أقول إن البشرة الملوّنة لا تُعتـــبر قذارة، وإن ناحية المدينة التي يقيم فيها الزنوج غير موبوءة. لقد أردت إيقـــاف مـــوعد حلول تلك اللحظة التي تحلّ في حياة كل طفل أبـــيض البـــشرة عـــندما يبدأون بالتفكير في أن ملوَّني البشرة هم أدنى مستوى من ذوي البشرة البيضاء.

ســـلكنا شارع فاريش ستريت، فوقفتُ لأننا شارفنا على بلوغ المكان الذي سأترجّل فيه من الحافلة. تضرعت كيلا يكون موعد تلك اللحظـــة قـــد حان. لقد تضرعت كي يبقى هناك أمامي متّسع من الوقت.

كـــان كـــل شيء هادئاً في الواقع في الأسابيع القليلة التالية. لقد بـــدأت ماو موبلي بارتداء سراويل تحتية قصيرة كما لو أنها فتاة كبيرة، ولم تقم بالتبوّل في ملابسها أبداً. بعد ما جرى في المرأب، أبدت الآنسة لـــيفولت اهتماماً حقيقياً بتصرفات ماو موبلي داخل الحمّام، حتى إنها سمحـــت لابنـــتها بمراقبتها وهي تجلس على المرحاض لتكون تصرفات ذوي البشرة البيضاء المَثَل الصالح لها. مع ذلك، فقد فاجأتها مرات قليلة تحاول دخول حمّامي عندما تكون والدتها خارج المنـــزل. كانت تتبوّل في مرحاضي أحياناً قبل أن أمنعها من ذلك.

"مـــرحباً، يـــا آنسة كلارك". قال روبرت براون عند الدرجات الخلفـــية، وهو الذي يهتم بفناء الآنسة ليفولت. كان الطقس جيداً في الخارج، ويميل إلى البرودة. ففتحتُ الباب المُنخُليّ.

قلت وربّتّ على ذراعه: "كيف حالك يا ابني؟ بلغني أنك تنظف كل ياردة في الشارع".

"أجـــل، يا سيدتي. هناك شخصان يساعداني". وابتسم ابتسامة عريضة. كان فتى وسيماً، طويل القامة، قصير الشعر. لقد ارتاد المدرسة الثانوية مع تريلور، وكانا صديقَين مقرَّبَين ويلعبان كرة السلة معاً. لقد لمست ذراعه لأنني كنت بحاجة إلى الشعور بابني مجدداً.

ســـألت: "كيف حال جدتك؟". كنت أحب لوفينيا لأنها ألطف إنسان على قيد الحياة. لقد قدمت إلى المأتم مع روبرت، وجعلني ذلك أتذكّر حلول أسوأ يوم في السنة في الأسبوع التالي.

قال مبتسماً: "هي أقوى مني، سأكون قرب منـــزلك يوم الأحد لجزّ العشب".

كان تريلور يقوم على الدوام بجزّ العشب أمام منـــزلنا. وها هو روبـــرت يقوم بذلك من دون أي مقابل. "شكراً لك يا روبرت. أقدّر لك صنيعك".

"إذا احـــتجت إلى أي شــيء اتـــصلي بــــي، اتفقنا، يا آنسة كلارك؟".

"شكراً لك يا بُنيّ".

سمعـــت جرس الباب يُقرع، ورأيت سيارة الآنسة سكيتر متوقفة أمـــام المنـــــزل. كانت الآنسة سكيتر تزور الآنسة ليفولت كل شهر لتطـــرح علـــيّ أســـئلة الآنـــسة ميرنا. فسألَت عن كيفية إزالة البُقَع المستعـــصية، وكانت إجابتي زُبدة الطرطير. سألت عن كيفية فك لمبة انكسرت داخل المِقبس، فنصحتها بالبطاطا النيئة. وسألتني عما حدث بين خادمتها كونستنتين وبين والدتها، فسرى دم بارد في عروقي. لقد ظنـــنت أنهـــا لـــن تـــسألني مجدداً بعد أن أخبرتها قبل أسابيع قليلة أن

لكونـــستنتين ابنة. لكن الآنسة سكيتر استمرت في طرح الأسئلة عليّ. كان في استطاعتي أن أقول لها إنني لا أفهم سبب عدم تمكن امرأة ذات بشرة ملوّنة من تربية طفل أبيض البشرة في الميسيسيبـــي، والحياة قاسية وموحشة إذا لم نكن نشعر بالانتماء.

كلمـــا انـــتهت الآنسة سكيتر من طرح أسئلة عليّ حول كيفية تنظيف هذا الشيء أو ذاك، أو إصلاح شيء ما، أو حول كونستنتين، كنا نتحدث عن أمور أخرى أيضاً. لم أعتد التحدث بشكل مطوَّل إلى أصـــحاب عملـــي أو أصدقائي، وكنت أجد نفسي أخبرها كيف أن تـــريلور لم يحصل على علامة تقلّ عن بي+، وكيف أن مدير الأعمال الجديد لدار العبادة يتسبب لي بحال عصبية لأنه يُثأثئ. كنا نتحدث عن أمور غير هامة لم أعتَد إخبارها لشخص أبيض البشرة.

في ذلك اليوم، حاولت أن أشرح لها الفرق بين تلميع الفضة عبر صبغها بواسطة الغمس، وبين تلميعها بواسطة الفَرك، وكيف أن المنازل التي لا تُعير للأناقة اهتماماً تعتمد الغمس لأنه أسرع ولكنه يُفقد الأواني الفـــضية رَونقهـــا. وأمالت الآنسة سكيتر رأسها إلى كتفها، وغضّنت جبينها. "يا آيبيلين، هل تذكرين تلك... الفكرة التي تبادرت إلى ذهن تريلور؟".

فأومـــأتُ برأســـي، وشـــعرتُ بالندَم لأنه لم تكن تُفترض بـــي مشاطرة امرأة بيضاء البشرة هذا الأمر.

حدّقت الآنسة سكيتر بعينين نصف مُغمضتين كما فعلَت عندما ســـألتني عـــن أمـــور متعلّقة بالحمّام. "لا أزال أفكر في ذلك، وأريد التحدث إليك...".

قـــبل أن تتمكن من إنهاء جملتها، دخلت الآنسة ليفولت المطبخ، وفاجـــأَت الطفلة تلعب بمشطي الموجود داخل حقيبة يدي، وقالت إنه

ربمـــا يتعـــيّن على ماو موبلي الاستحمام باكراً اليوم. فودّعتُ الآنسة سكيتر، وذهبتُ لملء حوض الاستحمام بالماء.

بعد أن أمضيت عاماً في الخشية من الأمر، أخيراً، حلّ الثامن من تـــشرين الثاني/نوفمبر. وأظن أنني نمت ساعتين تقريباً في الليلة السابقة، واســـتيقظتُ عند الفجر، ووضعتُ قدر قهوة على جهاز الطهو. لقد شعرتُ بألم في ظهري عندما انحنيتُ لارتداء جوربـــي. وقبل أن أخرج من الباب، رنّ الهاتف.

"أتفقّدك فحسب. هل تمكنت من النوم؟".

"لقد نمتُ جيداً".

"سأُحضر لك كعكة بالكاراميل الليلة. لا أريد منك أن تفعلي أي شـــيء. اجلسي فقط في مطبخك وتناولي حساءك". حاولتُ الابتسام، لكن، أي بسمة لم ترتسم على شفتيّ، فشكرتُ ميني.

قبل ثلاث سنوات بالتحديد، توفّي تريلور. ولكنه يوم تنظيف الأرض وفقـــاً لعُـــرف الآنـــسة ليفولت. فمناسبة الشكر تحل بعد أسبوعين، وعليّ إعداد كثير من الأمور. استمررت في العمل طوال الـــصباح مـــن دون توقـــف وحتى الساعة الثانية عشرة ظهراً. لقد أغفلـــتُ كـــل برامجي التلفازية لأن السيدات موجودات في غرفة الجلـــوس، وهـــنّ يعقُدن اجتماعاً بخصوص الحفلة الخيرية، ولم يكن يُـــسمح لي بتـــشغيل الـــتلفاز عندما يكون هناك ضيوف. وبدأت عـــضلاتي بالارتجاف بسبب التعب الشديد، ولكنني لم أشأ التوقف عن الحركة.

قـــرابة الـــساعة الرابعة، دخلت الآنسة سكيتر المطبخ. وقبل أن تـــتمكن من إلقاء التحية، تبعتها الآنسة ليفولت. "يا آيبيلين، لقد بلغني للـــتوّ أن الـــسيدة فريديريكس ستأتي من غرينوود غداً لتمضي مناسبة

الشكر. أريد أن تكون الأواني الفضيّة مصقولة، وكل مناشف الضيوف مغسولة. أعطيك غداً لائحة بالأمور الأخرى".

هـــزّت الآنـــسة ليفولت رأسها للآنسة سكيتر كما لو أنها تعاني الأمــــرَّين، وخــــرجَت. فذهــــبتُ وأخرجتُ الأواني الفضيّة من غرفة الجلــــوس. كنت مُتعبة، وعليّ أن أكون مستعدة للحفلة الخيرية مساء الـــسبت التالي. ولن تكون ميني موجودة في ذلك اليوم مخافة مصادفة الآنسة هيلي.

كانت الآنسة سكيتر لا تزال تنتظرني في المطبخ عندما عدتُ، وفي يدها رسالة للآنسة ميرنا.

"لديك سؤال عن التنظيف؟". سألتُ متنهدة. "تفضّلي".

"الأمــــر ليس كذلك في الواقع. أردت فقط... أن أسألك... في ذلك اليوم...".

فتـــناولتُ مـــلء سدادة من كريم باين أولا، وبدأت بفرك الآنية الفـــضية، مروراً بمحيط وردة زخرفية، ووصولاً إلى الطرف والمِقبض. يا الله، ليحلّ الغد سريعاً، أرجوك. لن أتمكن من زيارة موقع الضريح. لا أستطيع تحمّل ذلك، إنه أمر قاسٍ جداً...

"يا آيبيلين؟ هل أنت بخير؟".

فتوقفتُ، ونظرت إلى الأعلى، وأدركت أن الآنسة سكيتر كانت تتكلم معي طوال الوقت.

"آسفة، كنت... أفكر في أمر ما فحسب".

"تبدين حزينة جداً".

"يا آنسة سكيتر". شعرتُ بالدموع في عينيّ لأن ثلاث سنوات لم تكـــن طويلة بما يكفي للنسيان، ولن تكون مئة سنة كافية أيضاً. "هل تمانعين إن ساعدتك على الإجابة عن هذه الأسئلة غداً؟".

بـــدأت الآنسة سكيتر تقول شيئاً ما، ولكنها لم تُكمل. "بالطبع. آمل في أن تشعري بتحسن أكبر".

أنهيت تلميع مجموعة الأواني الفضية، وغسلتُ المناشف، وأخبرت الآنسة ليفولت أنني ذاهبة إلى المنـــزل، وطلبت منها خصم أجر نصف ساعة، وهي المدة المتبقّية لانتهاء دوام العمل. ففتحَت فمها كما لو أنها تريد الاعتراض، ولفظتُ كذبتي هامسة، *لقد تقيّأتُ*، فقالت *اذهبـــي*، لأن أكثـــر ما تخشاه الآنسة ليفولت بالإضافة إلى والدها، هي الأمراض التي ينقلها الزنوج.

"حـــسناً إذاً. ســـأعود بعد ثلاثين دقيقة. سأتوقف هنا تماماً عند التاســـعة وخمـــس وأربعـــين دقيقة". قالت الآنسة ليفولت عبر النافذة الموجـــودة بجانـــب مقعد الركاب. لقد أنـــزلتني عند متجر جيتني 14 لشراء ما نحن بحاجة إليه لمناسبة الشكر في اليوم التالي.

"وتحملـــين لهـــا معك ذلك الإيصال". قالت الآنسة فريديريكس، والـــدة الآنـــسة ليفولت المُسنّة والبخيلة. كانت ثلاثتهنّ جالسات على المقعد الأمامي، وماو موبلي محشورة في الوسط وتبدو بائسة لدرجة أنكم تظـــنون أنهـــا على وشك الحصول على حُقنة كزاز. يا للفتاة المسكينة! كانت الآنسة فريديريكس تعتزم المكوث لمدة أسبوعين هذه المرة.

قالت الآنسة ليفولت: "لا تنسي الديك الرومي، وعلبتي توت برّي".

فابتسمتُ. لقد بدأتُ بإعداد الطعام لمناسبة الشكر لذوي البشرة البيضاء منذ كان كالفين كوليدج رئيساً.

قالت الآنسة فريديريكس بحدّة: "كفّي عن التلوّي، يا ماو موبلي، وإلا لكمتك".

"يا آنسة ليفولت، دعيني أصطحبها معي إلى المتجر لتساعدني على التسوّق".

كانـــت الآنسة فريديريكس على وشك الاعتراض، ولكن الآنسة لـــيفولت قالـــت: "خذيها". وشقّت الطفلة طريقها بشكل متلوٍّ فوق حضن الآنسة فريديريكس، وتسلّقت النافذة، وارتمت بين ذراعيّ كما لـــو أنـــني مخلّـــصتها. فحملتُها، وانطلقتا باتجاه شارع فورتيفيكايشن ستريت، ضحكتُ والطفلة كتلميذتي مدرسة.

فـــدفعتُ الباب المعدني فاتحةً إياه، وتناولتُ عربة نقل، ووضعتُ ماو موبلي فيها في الناحية الأمامية، وثبّتُّ ساقيها في الفتحات. كان يُسمح لي بالتسوّق في متجر جيتني ما دمتُ أرتدي لباسي الرسمي. لقد افتقدتُ الأيام الغابـــرة عـــندما كنتم تخرجون من شارع فورتيفيكايشن ستريت وترون المزارعين بعرباتهم المدفوعة باليد يصيحون: "بطاطا حلوة، فاصولياء ليميّة، قـــرنيات، بامـــياء، قشدة طازجة، مَخيض الحليب، جبنة صفراء، بيض". ولكن متجر جيتني ليس سيّئاً. لديهم مكيّف هواء جيد.

"حسناً، يا طفلتي. لنرَ ما نحن بحاجة إليه".

بـــادئ ذي بـــدء، الـــتقطتُ ست حبات بطاطا حلوة، وثلاث حفـــنات من القرنيات، وحصلتُ على مَأبض لحم مدخَّن من الجزار. كـــان المتجر برّاقاً وأنيقاً. لم تكن هناك على الأرض أي نُشارة خشب كمـــا هـــي الحال في متجر بيغلي ويغلي الخاص بذوي البشرة الملوّنة. كانـــت الـــسيدات الموجودات بيضاوات البشرة في الغالب ويتسمن، وشعرهنّ مرتَّب ومثبَّت بالرذاذ استعداداً لليوم التالي، بالإضافة إلى أربع أو خمس خادمات يتسوّقن بلباسهنّ الرسمي.

قالـــت ماو موبلي: "الغرض الأرجواني!". فسمحت لها بحمل علبة تـــوت برّي. فابتسمَت لها كما لو أنها صديق قديم. كانت تحب الأغراض أرجوانـــية اللـــون. وفي قسم السلع الجافة، ألقيتُ كيس الملح الذي يزن رطلـــين في العـــربة، والـــذي سأستخدمه لنقع الديك الرومي. وعَددتُ

الساعات على يدي، العاشرة، الحادية عشرة، الثانية عشرة. فإذا نقعتُ الديك بالماء المالح لمدة أربع عشرة ساعة، يعني ذلك أنه يجب أن أضعه في الدّلو قرابة الساعة الثالثة من بعد الظهر. وأقصد منزل الآنسة ليفولت عند الخامسة صباحاً من اليوم التالي، وأطهو الديك الرومي لمدة ست ساعات. كنت قد خبزتُ في ذلك اليوم قدرين من خبز الذرة، وتركت الخبز على المنضدة ليغدو سهل القضم، وأعددتُ فطيرة تفاح جاهزة للخبز، و لم يبقَ عليّ سوى صنع كعكاتي الطريّة في الصباح.

"مستعدة ليوم غد، يا آيبيلين؟". فاستدرتُ ورأيت فراني كوتس ورائي. كانت تقصد دار العبادة نفسها التي أقصدها، وتعمل لدى الآنسة كارولاين في مانشيب. "مرحباً، يا صغيرة، انظري إلى ساقيك السمينتين". قالت لماو موبلي التي كانت تلعق علبة التوت البرّي.

فحنت فراني رأسها، وقالت: "سمعتِ بما حدث لحفيد لوفينيا براون هذا الصباح؟".

قلت: "روبرت؟ الذي يقوم بجزّ العشب؟".

"لقد استخدم حمّام ذوي البشرة البيضاء في بينشمان لون وغاردن. قال إنه لم تكن هناك لافتة فوقه تشير إلى أنه مخصّص لذوي البشرة البيضاء. فطارده رجلان أبيضا البشرة، وضرباه بعصا حديدية".

آه لا، ليس روبرت. "هو... هل...؟".

فهزّت فراني رأسها. "لا يعلمون. هو في المستشفى. سمعتُ أنه فقد بصره".

"يا الله، لا". أغمضتُ عينيّ. لوفينيا هي الإنسانة الأكثر طهارة ولطفاً. لقد ربّت روبرت بعد وفاة ابنتها الوحيدة.

قالت فراني: "يا للوفينيا المسكينة. لا أدري لِمَ يجب حدوث الأمور السيئة للصالحين".

بعــد ظهــر ذلــك اليوم، عملتُ كامرأة مجنونة، مقطّعة البصل والكــرَفس، ومازجــة البطاطا الحلوة بالأرزّ والتوابل، ومزيلة خيوط اللوبــياء، وملمّعة الأواني الفضية. بلغني قيام مجموعة من الناس بالتوجه إلى منــزل لوفينيا براون عند الخامسة والنصف من ذلك المساء للدعاء لروبــرت، ولكن، لم يكن في استطاعتي تحريك ذراعيّ بعد رفع ذلك الديك الرومي البالغ وزنه عشرين رطلاً، ووضعه في الماء المُملَّح.

لم أُنهِ الطهو حتى السادسة مساءً، أي بعد ساعتين من الوقت المعتاد. كــنت أعلم أنني لن أجد القوة للتوجه إلى منــزل لوفينيا وقرع بابها، وأنه يتعــيّن علــيّ القيام بالأمر في اليوم التالي بعد الانتهاء من تنظيف الديك الرومي. عند الموقف، ترجّلتُ من الحافلة، متهادية، وغير قادرة على إبقاء عــينيّ مفتوحــتين. واســتدرتُ عند زاوية جيسوم. كانت هناك سيارة كاديلاك بيضاء كبيرة مركونة أمام منــزلي، ورأيت الآنسة سكيتر بثوب أحمر وحذاء أحمر جالسةً على الدرجات الأمامية كميكروفون.

فعبرتُ ببطء فناء منــزلي، متسائلةً عما سيجري. ووقفت الآنسة سكيتر، حاملةً حقيبة يدها بإحكام كما لو أن أحداً يريد انتزاعها منها. فــذوو البشرة البيضاء لا يأتون إلى حيّي إلا إذا كانوا يُقلّون عاملات المــنازل ذهاباً وإياباً، ومن حسن حظي أن أحداً لا يقلّني. فأنا أمضي الــيوم بأكمله في خدمة ذوي البشرة البيضاء، ولا أريد منهم أن يلقوا نظرة داخل منــزلي.

قالــت: "آمل ألا تمانعي مروري بمنــزلك، لا أعرف مكاناً آخر يمكننا التحدث فيه".

فجلــستُ علــى الدرجة بالرغم مما أشعر به من ألم في عمودي الفقــري، بالإضــافة إلى تبوّل طفلتي عليّ بسبب غضبها الشديد من جــدها. كان الشارع مليئاً بالأشخاص المتجهين سَيراً على الأقدام إلى

منـــــزل لوفينـــيا للتضرع من أجل روبرت، وبأطفال يلعبون بالكرة. ونظر الجميع إلينا، معتقدين أنني تعرّضت للطرد أو ما شابه.

قلتُ متنهّدة: "أجل يا سيدتي، كيف يمكنني مساعدتك؟".

"لــــديّ فكــــرة. أمـــر ما أريد أن أكتب عنه. ولكنني بحاجة إلى مساعدتك".

فاستعدتُ أنفاسي، متأفّفةً. أنا أحب الآنسة سكيتر، ولكن، كنت أفضّل أن تتصل بـــي أولاً. فهي لا تقصد منـــزل سيدة بيضاء البشرة من دون الاتصال بها. ولكنها ارتمت عند باب منـــزلي كما لو أنه يحق لها دخوله من دون استئذان.

"أريد إجراء مقابلة معك حول ما تكون عليه الحال عندما تعملين كخادمة".

وتدحـــرجت كـــرة حمراء بضع أقدام داخل فنائي. فعبر جونــز الـــصغير الشارع راكضاً للحصول عليها. وعندما رأى الآنسة سكيتر، تسمّر في مكانه. وركض بعد ذلك واختطف الكرة، واستدار، وانطلق مسرعاً كما لو أنه يخشى قيام الآنسة سكيتر بمطاردته والإمساك به.

قلـــت بفتور: "على غرار عمود الآنسة ميرنا؟ حول أمور متعلقة بالتنظيف؟".

قالت، واتسعت عيناها: "ليس على غرار عمود الآنسة ميرنا. أنا أتحدث عن كتاب". وأضافت بحماسة: "أتحدث عن قصص تتناول واقع العمل لصالح عائلة من عائلات ذوي البشرة البيضاء. ما يبدو عليه الأمر لدى العمل مثلاً لصالح... إليزابيت".

فاســـتدرتُ، ونظرت إليها. هذا ما كانت تحاول أن تطلبه مني في الأســـبوعين السابقين في مطبخ الآنسة ليفولت. "هل تظنين أن الآنسة ليفولت ستوافق على ذلك؟ أُخبر قصصاً عنها؟".

فأخفضت الآنسة سكيتر رأسها قليلاً. "حسناً، لا. أفكر في عدم إطلاعهـــا على الأمر. سيكون عليّ التأكد من أن الخادمات الأخريات يوافقن على الاحتفاظ بالسر أيضاً".

فوضـــعتُ يـــدي علـــى جبيني، محاولةً فهم ما تطلبه. "خادمات أخريات؟".

"آمـــل في الحصول على مساعدة أربع أو خمس خادمات، لأُظهر حقاً كيف تكون عليه حال الخادمة في جاكسون".

نظـــرتُ حولي. كنا في العراء. ألا تعرف مدى خطورة التحدث عن هذا الأمر في حين أنّ في استطاعة كل العالم رؤيتنا؟ "أي نوع من القصص بالتحديد تعتقدين أنك ستسمعين؟".

"الأجـــور التي تتقاضَينها، طريقة معاملتكنّ، الحمّامات، الأطفال، كل الأمور التي تعتبرها جيدة، أو سيّئة".

لقد بدت متحمّسة كما لو أن الأمر مجرد لعبة. واعتقدتُ للحظة أنني قد أشعر بالغضب أكثر من شعوري بالتعب.

قلـــت هامـــسة: "يـــا آنـــسة ســـكيتر، ألا يـــبدو لك ذلك خطيراً؟".

"لن يكون كذلك إذا التزمنا الحذر...".

"ششه، رجاءً. هل تعرفين ماذا سيحدث لي إذا اكتشفت الآنسة ليفولت أنني أتحدث عنها من وراء ظهرها؟".

"لـــن نخبرها، أو نخبر أي شخص آخر". وأخفضت صوتها قليلاً ولكن ليس بشكل كافٍ. "ستكون مقابلات خاصة".

فحدّقتُ إليها فحسب. هل هي مجنونة؟ "هل بلغك خبر الفتى ذي البشرة الملوّنة هذا الصباح؟ لقد ضربوه بعصا حديدية لأنه استخدم من دون قصد حمّام ذوي البشرة البيضاء؟".

نظرت إليّ، وطرفت عينيها قليلاً. "أعلم أن الأمور غير مستقرة، ولكن هذا...".

"نسيبتي شينيل في مقاطعة كوتر؟ لقد أحرقوا سيارتها لأنها قصدت مركز الاقتراع".

أخيراً، قالت بهمس: "لم يسبق لأحد أن وضع كتاباً كهذا". وبدأت تدرك واقع الحال في نهاية المطاف كما أعتقد. "سنتطرق إلى موضوع جديد. إنها نظرة جديدة تماماً إلى الأمور".

ورأيتُ مجموعة من الخادمات بلباسهنّ الرسمي يمررن بجانب منزلي. فنظرن باتجاه منزلي ورأينني جالسة مع امرأة بيضاء البشرة على الدرجة الأمامية. فصررتُ أسناني، عالمةً أن هاتفي سيرنّ هذا المساء.

قلت ببطء، محاولةً التأثير فيها: "يا آنسة سكيتر، إذا قمتُ بهذا الأمر، قد يؤدي ذلك إلى إحراق منزلي".

عندها، بدأت الآنسة سكيتر بقضم ظفرها. "ولكن، سبق لي أن...". وأغمضت عينيها بإحكام. وفكرتُ في أن أسألها، *سبق لك أن قمت بماذا*، ولكنني خشيت من سماع ما تريد قوله. وأمسكَت حقيبة يدها، وأخرجَت قصاصة ورق وكتبَت رقم هاتفها عليها.

"رجاءً، هلاّ فكرتِ في الموضوع على الأقل؟".

فتنهّدتُ، وحدّقتُ إلى الفناء. وقلت بلطف شديد: "لا يا سيدتي".

ووضعَت قصاصة الورق بيننا على الدرجة، ودخلت من ثم سيارة الكاديلاك. كنت شديدة التعب لدرجة أنه لم يكن في استطاعتي الوقوف. فبقيتُ هناك أراقبها وهي تقود ببطء شديد على الطريق. وأخلى الفتيان الذين كانوا يلعبون بالكرة الطريق، ووقفوا جانباً مسمَّرين في أماكنهم، كما لو أن موكب جنازة يمرّ.

الآنسة سكيتر

الفصل الثامن

سلكتُ جادة جيسوم أفونيو بسيارة الكاديلاك الخاصة بوالدتي. وكان هناك على جانب الطريق فتى صغير ملوّن البشرة يراقبني، كانت عيناه مفتوحتين واسعاً، ويمسك كرة حمراء. نظرت إلى مرآة الرؤية الخلفية، كانت آيبيلين لا تزال عند الدرج الأمامي لمنزلها بلباسها الرسمي الأبيض. وعندما قالت لي *لا يا سيدتي*، لم تكن تنظر إليّ. لقد أبقت نظرها مثبّتاً على رقعة العشب الأخضر تلك في فناء منزلها.

لقد اعتقدتُ أن زيارتها ستكون مماثلة لزيارة كونستنتين حيث الأشخاص ذوو البشرة الملوَنة يلوّحون، ويبتسمون، ويشعرون بالسعادة لرؤية الفتاة الصغيرة ذات البشرة البيضاء التي يملك والدها مزرعة كبيرة. ولكن، في حيّ آيبيلين، كانت العيون المفتوحة واسعاً تراقبني في أثناء مروري. وعندما اقتربت سيارتي من الفتى الصغير ملوَّن البشرة، استدار ودخل منزلاً على مقربة من منزل آيبيلين، حيث كان نحو ستة أشخاص من ذوي البشرة الملوّنة مجتمعين في الفناء الأمامي، حاملين الصينيات والأكياس. فحككتُ صدغيّ، محاولةً التفكير في أمر آخر يمكنني من خلاله إقناع آيبيلين.

قبل أسبوع، كانت باسكاغولا قد قرعت باب غرفة نومي.

"هـــناك اتصال هاتفي لك من مكان بعيد، يا آنسة سكيتر. من الآنسة... ستيرن كما قالت؟".

"ستيرن؟". فكّرتُ في صوت مرتفع، ومن ثمّ قوّمتُ وقفتي. "هل تعنين من الآنسة... *شتاين*؟".

"أظن... أظن أنها قد تكون شتاين. صوتها مرتفع تقريباً".

فمررتُ بجانب باسكاغولا بسرعة، ونـــزلتُ السلّم. ولسبب من الأســـباب، اســـتمررت في تمليس شعري المجعَّد كما لو أنني ذاهبة إلى اجـــتماع وليس للرد على اتصال هاتفي. وفي المطبخ، التقطت الهاتف المعلّق على الجدار.

قـــبل ثلاثـــة أسابيع، كنت قد طبعت الرسالة على ثلاث أوراق ســـترامور بيضاء، عارضةً للفكرة، والتفاصيل، والكذبة المتمثلة بموافقة خادمة ذات بشرة ملوّنة، محترَمة، وتعمل بكدّ، على السماح لي بإجراء مقابلـــة معها تصف فيها، وبالتفصيل، واقع العمل لدى نساء بيضاوات البشرة في المدينة. وبعد التفكير مليّاً في الاختيار بين قول الحقيقة المتمثلة بالتخطـــيط لطلـــب المساعدة من المرأة ملوّنة البشرة، وبين القول إنها وافقت على المقابلة، وجدتُ أنه سيكون للخيار الثاني أثر كبير في نفس شتاين.

فمـــددتُ سِلك الهاتف إلى داخل غرفة المؤونة، وأضأت المصباح الكهربائي. كانت هناك في الغرفة رفوف من الأرض حتى السقف مليئة بمراطبين المخلل والحساء، والدِّبس، والخُضار المبيَّتة، ومحفوظات الطهو. فالحـــصول على بعض الخصوصية هو خدعة قديمة تعلّمتها في المدرسة الثانوية.

"آلو؟ أوجينيا تتكلم".

"انتظري قليلاً، سأحوّل الاتصال". وسمعتُ سلسلة من التكتكات، ومن ثم صوتاً بعيداً وخفيضاً لامرأة تقول: "إلين شتاين".

"آلو. معك سكيت... أوجينيا فيلان من الميسيسيبـــي؟".

"أعـــرف، يا آنسة فيلان. لقد اتصلتُ بك". وسمعتُ صوتاً مماثلاً لــصوت ارتطام، واستنشاقاً قصيراً وحاداً. "تلقيتُ رسالتك الأسبوع الماضي. لديّ بعض التعليقات".

"أجـــل يا سيدتي". وانخفضتُ تدريجياً وصولاً إلى صفيحة طويلة تحـــتوي علـــى دقيق كينغ بيسكيت. وخفق قلبـــي بقوة بينما كنت أُصـــغي إليها. لقد بدا الاتصال الهاتفي من نيويورك هامّاً بمقدار أهميّة قطع آلاف الأميال بين نيويورك وجاكسون، ميسيسيبـــي.

"مـــا الذي أوحى لك بالفكرة؟ إجراء مقابلة مع مدبّرات منازل محلّيات. أشعر بالفضول".

فشُلّت حركتي لثوان. لم تقُل آلو أو تتبادل أطراف الحديث معي، ولم تعـــرّف نفـــسها. فأدركتُ أنه من الأفضل لي أن أجيبها بالتالي: "لقد... حسناً، لقد أشرفت امرأة ذات بشرة ملوّنة على تربيتي. رأيتُ مدى بساطة الرابط القائم بين العائلات وعاملات المنازل ومدى تعقيده في آن". وتنحنحتُ. كنت أتكلّم بحذر كما لو أنني أتحدث إلى مدرّس.

"أكملي".

"حـــسناً"، وأخذتُ نفساً عميقاً، "أرغب في كتابة ذلك لأُظهر وجهـــة نظر عاملة المنـــزل ذات البشرة الملوّنة هنا". وحاولتُ وصف وجهي كونستنتين وآيبيلين. "لقد أشرفت على تربية طفل أبيض البشرة أصـــبح بعد عشرين عاماً صاحب عمل. ومما يدعو للسخرية أننا نحبهم ويحبونـــنا، ولكن...". وقمت بحركة ابتلاع بحنجرتي بينما كان صوتي يرتجف قائلة: "لا نسمح لهنّ باستخدام الحمّام الموجود داخل المنـــزل".

وساد الصمت مجدداً.

"و". وشعرتُ أنني مُجبَرة على إكمال حديثي فقلت: "الجميع يعرفون كيف أننا مجّدنا، كشعب أبيض البشرة، صورة *مامي* التي كرّست كل حياتها لعائلة من ذوي البشرة البيضاء. لقد غطّت مارغريت ميتشل الأمر. ولكن أحداً لم يسأل مامي أبداً عن شعورها حيال ذلك". وتصبب العرق من صدري فامتصّته سترتي القطنية.

قالت السيدة شتاين: "إذاً، تريدين أن تُظهري جانباً لم يتم التطرّق إليه من قبل".

"أجل، لأن أحداً لا يتكلم أبداً عن الأمر. لا أحد يتكلم عن أي شيء هنا".

ضحكت إلين شتاين مزمجرة. كانت لكنتها تشير تماماً إلى أنها من أميركا الشمالية. "يا آنسة فيلان، لقد أقمتُ في أتلنتا طوال ست سنوات مع زوجي الأول".

وركّزتُ على هذا الرابط الصغير. "إذاً... تعرفين واقع الحال".

"بما يكفي لدفعي للخروج من هناك". قالت، وسمعتُها تزفر الدخان. "انظري، لقد قرأت مخططك التمهيدي. من المؤكد أنه... فريد من نوعه، ولكنه لن ينجح. لن تجدي من يخبرك الحقيقة؟".

استطعت رؤية خف والدتي الزهري يمرّ أمام الباب، فحاولتُ تجاهله. ولم أستطع تصديق أن السيدة شتاين تقوم بمناقشة فكرتي.

"المرأة الأولى التي سأُجري مقابلة معها... توّاقة إلى إخباري بقصتها".

قالت إلين شتاين، وعلمتُ أنه ليس سؤالاً: "يا آنسة فيلان، وافقت هذه الزنجية على التحدث إليك بكل صراحة حول واقع عملها لدى عائلة من ذوي البشرة البيضاء؟ لأن ذلك يبدو مخاطرةً كبيرة في مكان مثل جاكسون، ميسيسيبي".

طرفتُ عينيّ. لقد شعرتُ بأولى مؤشرات القلق أنه لن يكون من السهل إقناع آيبيلين كما سبق لي أن اعتقدتُ. و لم أكن أعرف ما الذي ستقوله لي عند الدرج الأمامي لمنزلها في الأسبوع التالي.

"لقد شاهدهم في نشرة الأخبار يحاولون اقتحام محطة الحافلات عندكم". أضافت السيدة شتاين. "لقد وضعوا خمسة وخمسين زنجياً في زنزانة تتسع لأربعة أشخاص فقط".

فزممتُ شفتيّ. "لقد وافقَت، أجل، لقد وافقت".

"حسناً. إنه أمر مثير للإعجاب. ولكن، هل تظنين أن خادمات أخريات سيكنّ راغبات في التحدث إليك؟ ماذا لو اكتشف صاحب العمل الأمر؟".

"ستُجرَى المقابلات بشكل سرّي لأنه أمر ينطوي على قليل من الخطورة هنا كما تعلمين". في الحقيقة، لم أكن أعرف مدى خطورة الأمر. لقد أمضيتُ السنوات الأربع السابقة مسجونة في غرفة الكلّية أقرأ كيتس وأودورا ولتي وأقلق بسبب الأبحاث الفصلية.

وضحكت "قليل من الخطورة؟ مسيرات في برمينغهام، مارتن لوثر كينغ. كلاب تهاجم أطفالاً من ذوي البشرة الملونة. يا عزيزتي، إنه الموضوع الأكثر سخونة في البلد. ولكن ذلك لن ينجح أبداً، بكل أسف، وإن على صورة مقالة لأن أي صحيفة جنوبية لن تقوم بنشره. وينطبق الأمر نفسه على الكتاب بكل تأكيد. فكتاب *مقابلات* لن يحقق أي مبيعات".

فسمعتُ نفسي أقول: *آه*. وأغمضتُ عينيّ، شاعرةً بنفاد كل الحماسة مني. وسمعتُ نفسي أقول مجدداً: "آه".

"بصدق، لقد اتصلتُ لأنها فكرة جيدة في الواقع. ولكن... لا وجود لأي إمكانية لطبعها".

"ولكن... ماذا لو...". وبدأت أنظاري تجوب أنحاء غرفة المؤونة، باحـــثةً عـــن فكـــرة ما تعيد اهتمام السيدة شتاين. ربما يُفترَض بـــي التحدث عن الموضوع كمقابلة، أو كمجلة، ولكنها قالت لا...

"يا أوجينيا، إلى من تتحدثين هناك؟". وانطلق صوت والدتي عبر فتحة الباب الضيّقة، وفتحَت الباب قليلاً، ولكنني دفعتُه وأغلقته مجدداً. وغطّيتُ جانب تلقّي الصوت في الهاتف بيدي، وهمستُ قائلة: "أتحدث إلى هيلي، يا أمي...".

"في غرفة المؤونة؟ تتصرفين كمراهِقة مجدداً...".

"أعـــني...". وأطلقت السيدة شتاين عطسة حادة. "أعتقد أن في اســـتطاعتي قـــراءة ما تحصلين عليه. الله يعلم، قد يشهد ميدان وضع الكتب بعض الثرثرة".

"هل ستقومين بذلك؟ آه، يا سيدة شتاين...".

"لا أقـــول إنني موافقة. ولكن... أجري المقابلة وسأُعلمك بما إذا كان الأمر جديراً بالمتابعة".

فتمـــتمتُ بعـــض الكلمات غير المفهومة، وقلتُ أخيراً: "شكراً لـــك. يـــا ســـيدة شـــتاين، لا يمكنني أن أعبّر لك عن مدى امتناني لمساعدتك".

"لا تـــشكريني. لم يحِـــن الـــوقت بعـــد لذلك. اتصلي بروث، سكرتيرتي، إذا أردتِ الاتصال بـــي". وأنهت المكالمة.

يـــوم الأربعاء، حملتُ بجهد حقيبة مدرسية قديمة، وتوجهت إلى منـــــزل إليزابيت حيث يجتمع أعضاء نادي البريدج. كان في إمكاني الاستناد إليها، أقلّه في ذلك اليوم.

إنهـــا الحقيبة الوحيدة في منـــزل والدتي التي وجدتُ أنها كبيرة بما يكفـــي لتسع رسائل الآنسة ميرنا. كان الجِلد متشققاً ومتقشّراً، وترك

حزام الأكتاف السميك، حيث زال صباغ الجِلد، علامة بنّية على سترتي. إنها الحقيبة التي كانت تستخدمها جدتي كلير للاهتمام بالحديقة، فتضع فيها الأدوات وتحملها في أنحاء فناء المنزل. كانت لا تزال حبوب دوّار الشمس في أسفلها، ولم يكن في إمكاني استخدامها لأي غرض آخر. فلم أُعر الأمر أي اهتمام.

"أسبوعان". قالت لي هيلي، مشيرةً بإصبعيها. "هو قادم". فابتسمَت وبادلتُها الابتسامة. "سأعود على الفور". قلت وانسللت إلى المطبخ، حاملةً حقيبتي المدرسية.

كانت آيبيلين واقفة أمام حوض الغسيل. قالت بهدوء: "بعد الظهر". لقد مرّ أسبوع على زيارتي لمنزلها.

فوقفتُ هناك للحظة، مراقبةً إيّاها تحرّك الشاي المثلّج، وشاعرةً بعدم الارتياح في وقفتها وبهلعها من قيامي مجدداً بطلب مساعدتها في الكتاب. فأخرجتُ بعض الرسائل المتعلقة بتدبير شؤون المنزل، واسترخت كتفا آيبيلين قليلاً بعد أن رأتها. وبينما كنت أقرأ لها سؤالاً عن بُقع التراب، سكبَت قليلاً من الشاي في كوب، وتذوّقَته. وأضافت مزيداً من السكّر في الإبريق.

"آه، قبل أن أنسى، حصلتُ على إجابة عن سؤال بُقع الماء. قالت ميني، *افركيها بقليل من المايونيز*". وعصرت آيبيلين نصف ليمونة في الشاي. "وارمي من ثم ذلك الزوج غير الصالح خارج المنزل". وحركَت، وتذوّقَت. "ميني غير مولعة بالأزواج".

"شكراً، سأدوّن ذلك". قلت. وسحبتُ مغلّفاً من الحقيبة بالطريقة العرضية التي دأبتُ على اتّباعها. "كنت أعتزم إعطاءك هذا".

واستعادت آيبيلين وقفتها المتصلّبة السابقة. "ماذا لديك هناك؟". قالت من دون أن تمدّ يدها.

قلت بهدوء: "لقاء مساعدتك، لقد اقتطعتُ لك مبلغ خمسة دولارات لكل مقالة. ويبلغ المجموع خمسة وثلاثين دولاراً".

التفتت آيبيلين بسرعة إلى الشاي. "لا، شكراً لك، يا سيدتي".

"خذيها رجاءً، لقد استحققتها".

سمعتُ صوت إزاحة كراسٍ على أرضية خشبية في غرفة الطعام، تلاه صوت إليزابيت.

همست آيبيلين: "رجاءً، يا آنسة سكيتر. ستصاب الآنسة ليفولت بسورة غضب إذا رأتك تعطينني مالاً".

"ليس عليها أن تعرف".

ورفعت آيبيلين نظرها إليّ. كان بياض عينيها أصفر اللون بسبب الإرهاق. لقد عرفتُ في ما تفكر.

"سبق أن قلت لك، أنا آسفة. لا يمكنني مساعدتك على تأليف ذلك الكتاب، يا آنسة سكيتر".

فوضعتُ المغلف على المنضدة، مُدركةً أنني ارتكبت خطأً مروِّعاً.

"رجاءً، جدي لنفسك خادمة أخرى ملوّنة البشرة، خادمة أصغر سناً، شخصاً... آخر".

"ولكنني لا أعرف أخريات بشكل كافٍ لمفاتحتهنّ بالأمر". لقد أردتُ مناقشة معنى كلمة *صديقات* معها، ولكنني لست على هذا القدر من السذاجة لأنني أعرف أننا لسنا صديقتين.

مدّت هيلي رأسها عبر الباب. "هيا، يا سكيتر، سأوزّع ورق اللعب". وتوارت عن الأنظار.

قالت آيبيلين: "أتوسّل إليك، خذي ذلك المغلف كيلا تراه الآنسة ليفولت".

فأومــأتُ برأسي، مُحرَجة. ودسستُ المغلف في حقيبتي، مُدركةً أن علاقتنا باتت أسوأ من أي وقت مضى. لقد ظنت أنها رشوة لتسمح لي بإجراء مقابلة معها؛ رشوة مموَّهة بنيّة طيبة وتعبير عن الامتنان. كنت أريــد إعطاءهــا المال على كل حال بعد ازدياد حجم المبلغ، ولكنني اخترت هذا التوقيت بشكل متعمَّد في الواقع، وقد أجفلها الأمر كلّياً.

"يــا عزيزتي، ضعيه على رأسك على سبيل التجربة ليس إلا. لقد كلّفني أحد عشر دولاراً. لا بد من أنه جيد".

لقد وضعتني والدتي في موقف حرِج في المطبخ. فألقيت نظرة على الــباب المــؤدّي إلى الــرّدهة، ومن ثم على الباب المؤدي إلى الرُّواق الخارجي الجانبــي. ودنت مني والدتي أكثر فأكثر، حاملةً ذلك الشيء بيدها، وقد أذهلني مدى نحولة رسغيها، وضعف ذراعيها اللتين تحملان الآلــة الرمادية الثقيلة. ودفعتني للجلوس على الكرسيّ، متيقّنةً من أنها ليــست شــديدة الضعف بالرغم من كل شيء، وعصرَت على رأسي أنبوباً يحتوي على مادة لزجة، مُحدثاً صوتاً مزعجاً. لقد مرّ يومان على قيام والدتي بمطاردتي بالماجيك آند سيلكي شينالايتر.

فــركَت شــعري بالمستحــضر التجميلي بكلتا يديها. كان في استطاعتي عملياً الشعور بالأمل في أصابعها. فهذا المستحضر التجميلي لن يقوّم أنفي أو يقصّر طول قامتي بمقدار قدم واحدة، ولن يضيف لمسة مميَّزة على حاجبيّ غير المكسوَّين بالشعر بشكل كامل، أو يضيف وزناً إلى بنــيتي الهزيلة، ناهيكم عن أن أسناني قويمة تماماً. إذاً، فما تبقى لهذا المستحضر للقيام به هو إصلاح شعري.

غطّــت والدتي رأسي المتقطّر من شدة البلل بقلنسوة بلاستيكية، ووصلَت الأنبوب المثبَّت بالقلنسوة بآلة مربعة الشكل.

"ما الوقت الذي يستغرقه الأمر، يا والدتي؟".

فالتقطَت الكتيّب بأصابع لزِجة. "يقال هنا، *غطّي الشعر بالقلنسوة الخارقة المقوِّمة، وشغّلي الآلة بعد ذلك، وانتظري النتيجة الخارقة*...".

"عشر دقائق؟ خمس عشرة دقيقة؟".

سمعتُ طقّة، وهديراً متصاعداً، وشعرت من ثم بدفء بطيء يغمر رأسي. وكانت هناك *فرقعة* على نحو مفاجئ! لقد أفلت الأنبوب من الآلة، وبدأ ينتفض كخرطوم ماء مجنون في مركز إطفاء. فصرخت والدتي وأمسكت به، ولكنه أفلت من يدها. أخيراً، تمكنت من السيطرة عليه، وأعادت وصله.

وأخذَت نفساً عميقاً والتقطَت الكتيّب مجدداً. "يجب أن تبقى القلنسوة الخارقة على الرأس لمدة ساعتين من دون رفعها وإلا كانت النتائج...".

"لمدة ساعتين؟".

"سأطلب من باسكاغولا أن تُعدّ لك كوباً من الشاي، يا عزيزتي". وربّتت والدتي على كتفي، ودخلت باب المطبخ مُحدِثةً حفيفاً بخفها.

طوال ساعتين، قمت بتدخين السجائر وقراءة مجلة *الحياة*. وأنهيتُ قراءة *قتل طائر مقلّد*. أخيراً، التقطت صحيفة *جاكسون جورنال* وقمت بتصفّحها. كان يوم الجمعة، اااك لم يكن عمود الآنسة ميرنا موجوداً في الصحيفة. وقرأت في الصفحة الرابعة، *إصابة فتى بالعمى بسبب حمّام خاضع للتمييز العنصري، ومُشتبَه بهم يخضعون للاستجواب*. لقد بدا الأمر... مألوفاً، وتذكرتُ. لا بد من أنه جار آيبيلين.

كنت قد عرّجت مرتين هذا الأسبوع على منزل إليزابيت، آملةً في ألا تكون موجودة كي أتمكن من التحدث إلى آيبيلين ومحاولة إيجاد طريقة ما لإقناعها بمساعدتي. كانت إليزابيت منحنية فوق ماكينة

الخياطة، عازمةً على إنهاء ثوب جديد ترتديه في موسم الميلاد، ولكن، كـــل ما حصلَت عليه هي عباءة خضراء أخرى رديئة النوعية ومترهّلة. لا بد من أنها أجرت صفقة رابحة في متجر كنينغتون بعد المساومة على سعر لم يبدُ لها مُقنعاً.

"إذاً، مـــا الذي سترتدينه للموعد؟". سألت هيلي في المرة الثانية التي قدمتُ فيها. "الأحد القادم؟".

فهززت كتفيّ. "أعتقد أنه سيكون عليّ الذهاب للتسوق".

حينذاك، أخرجت آيبيلين صينية قهوة ووضعتها على الطاولة.

قالت إليزابيت: "شكراً لك". وأومأت برأسها.

"شـــكراً لـــك، يا آيبيلين". قالت هيلي في أثناء وضع السكّر في فنجانها. "أتعلمين، أنت الأفضل بين ذوي البشرة الملونة في المدينة الذين يُعدّون القهوة".

"شكراً لك يا سيدتي".

"يـــا آيبـــيلين". أضافت هيلي: "كيف تجدين حمّامك الجديد في الخارج؟ من الجيد أن يكون لك مكان خاص بك، أليس كذلك؟".

فحـــدّقت آيبيلين إلى التشقق الموجود على صفحة طاولة الطعام. "أجل يا سيدتي".

"تعلمـــين، لقـــد تدبّـــر الـــسيد هولبروك أمر بناء ذلك الحمّام، يا آيبيلين، وأرسل العمال والتجهيزات أيضاً". ابتسمت هيلي.

ووقفـــت آيبـــيلين هناك فحسب، وتمنّيتُ لو لم أكن موجودة في الغرفة. *رجاء،* قلت لنفسي، *رجاء لا تقولي شكراً.*

"أجل يا سيدتي". فتحت آيبيلين دُرجاً، ومدّت يدها إلى داخله، ولكن هيلي استمرت في النظر إليها. فمن الواضح تماماً أنها كانت تريد سماع أمر آخر.

مر قليل من الوقت من دون أن يقوم أحد بأي حركة. فتنحنحت هيلي، وأخيراً، أخفضت آيبيلين رأسها. "شكراً لك يا سيدتي". قالت، هامسة، وعادت إلى المطبخ. لا عجب في عدم رغبتها في التحدث إليّ.

عند الظهر، رفعت والدتي القلنسوة المترجرجة عن رأسي، وغسلَت المستحضر عن شعري بينما كنت منحنية إلى الوراء فوق حوض الغسيل في المطبخ. ولفّت شعري على الفور بنحو عشر لُفافات، ووضعتني تحت مجفف الشعر في حمّامها.

بعد ساعة، خرجتُ من عملية التزيين زهريّة الوجه، ظمآنة، وأشعر بألم في الرأس. ووضعتني والدتي أمام المرآة، وسحبَت اللفافات. ومشّطَت خُصَل الشعر الدائرية العملاقة على رأسي.

فحدّقنا مذهولتين.

"تبّاً". قلت. فكل ما كنت أفكر فيه هو *الموعد*. *الموعد العشوائي في الأسبوع القادم*.

ابتسمت والدتي، مصدومةً، حتى إنها لم توبّخني بسبب الشتيمة التي أطلقتها. لقد بدا شعري رائعاً. لا شك في أن الشينالايتر حقق الغرض المرجوّ منه.

الفصل التاسع

يـــوم السبت، أي يوم موعدي مع ستيوارت ويتوورث، جلستُ طـــوال ساعتين تحت الشينالايتر (دامت النتائج كما يبدو حتى عملية الغَـــسل التالـــية لـــشعري). عندما جفّفته، قصدت متجر كنينغتون، واشتريت الحذاء الأكثر انبساطاً الذي تمكنت من العثور عليه، بالإضافة إلى ثـــوب أســـود مـــن قماش الكريب. كنت أكره التسوّق، ولكنني سُـــررت بـــذلك لأنه صرف انتباهي طوال فترة بعد الظهر عن مسألة الكـــتاب، وعن قلقي في شأن السيدة شتاين، أو آبيلين. ودفعتُ مبلغ خمسة وثمانين دولاراً من حساب والدتي لأنها كانت ترجوني باستمرار لشراء ملابس جديدة. ("شيء ما يُضفي الجمال على *قامتك*"). كنت أعلم أن والدتي سترفض بشدة موضة الفستان الذي يكشف بجرأة عن الجزء الأعلى من الصدر. لم يسبق لي أن امتلكتُ ثوباً مماثلاً.

في موقـــف السيارات التابع لمتجر كنينغتون، أدرتُ محرك السيارة مـــن دون أن أتمكـــن مـــن الانطـــلاق بسبب آلام فجائية في معدتي. فأمـــسكت بإحكـــام عجلة القيادة البيضاء المبطّنة، قائلةً لنفسي للمرة العاشرة إنه من السخف أن أتمنى ما لن أحصل عليه، وأن أفكر في عينيه الـــزرقاوين استناداً إلى صورة فوتوغرافية بالأسود والأبيض، وأعتبر أن

فرصتي المناسبة تعتمد على مجرد صحيفة ورقية ومواعيد عشاء مؤجَّلة. ولكن الفستان وتسريحة شعري الجديدة بدوا مناسبين جداً، وكل ما كان في استطاعتي القيام به هو التحلّي ببعض الأمل.

لقد أرتني هيلي الصورة قبل أربعة أشهر بجانب بركة السباحة في منزلها. كانت هيلي تكتسب سُمرة تحت الشمس، في حين أنني كنت أهوّي بالمروحة في الظل لأن الطفح الجلدي بسبب الحرارة بلغ ذروته في شهر تموز/يوليو من دون أن تخف حدّته.

"أنا منشغلة". قلت. وجلست هيلي على حافة البركة، مترهّلة وبدينة كما لو أنها في مرحلة ما بعد الحمل، وواثقة بشكل غير مبرَّر بثوب السباحة الأسود. كانت معدتها ناتئة، ولكن ساقيها نحيلتان وجميلتان كالعادة.

"حتى إنني لم أخبرك بموعد قدومه". قالت. "وتحدّره من عائلة مرموقة". كانت تتحدث بالطبع عن نسيب أحد والدَي وليام. "التقيه فقط وكوّني فكرة عنه".

فنظرتُ إلى الصورة مجدداً، عيناه كبيرتان وواثقتان، شعره بنّي فاتح ومجعَّد، هو الأطول قامة وسط مجموعة من الرجال بالقرب من بحيرة، ولكن جسمه محجوب جزئياً بالآخرين.

"لا عَيب فيه". قالت هيلي. "اسألي إليزابيت، لقد التقته في الحفلة الخيرية العام الماضي في أثناء وجودك في الكلية. ناهيك عن أنه كان يواعد باتريشا فان ديفندر".

"باتريشا فان ديفندر؟ الفتاة الأكثر جمالاً في أولي ميس لعامين متتاليين؟".

"كما أنه بدأ مشروعه الخاص في ميدان النفط في فيكسبرغ. لذلك، إذا لم تتقابلا، فإنك لن تلتقيه على الأرجح كل يوم في المدينة".

أخيراً قلت: "حسناً". وتنهّدتُ للتخلّص من إلحاح هيلي أكثر من أي شيء آخر.

عدتُ إلى المنـــزل عند الثالثة والنصف بعد شراء الفستان، وكان مـــن المفتـــرَض بـــــي أن أكون في منـــزل هيلي عند السادسة للقاء ســـتيوارت. فوقفتُ أمام المرآة. لقد بدأت خُصل الشعر المعقوفة تفقد أناقـــتها عند الأطراف، ولكن بقية شعري كانت لا تزال ملساء. لقد شـــعرت والـــدتي بالسعادة عندما قلت لها إنني سأستخدم الشينالايتر مجدداً، ولم يكن لدي أي سبب لعدم استخدامه. لم أخبرها عن موعدي في تلـــك الليلة، ولو اكتشفَت الأمر بطريقة ما، لأمضت الأشهر الثلاثة التالـــية بطـــرح أسئلة مستفسِرة مثل "هل اتصل؟". و"ما الخطأ الذي ارتكبتُه؟". إذا لم ينجح الأمر.

كانت والدتي مع والدي في غرفة الاستجمام في الطابق السفلي، يـــصيحان ابتهاجاً تأييداً لفريق الثوار. وكان شقيقي كارلتون جالساً علـــى الأريكـــة مع صديقته الجديدة التي لا تضع أي مساحيق تجميل، وتسريحة شعرها الداكن على صورة ذيل حصان، وترتدي بلوزة حمراء. لقد قدما بعد ظهر ذلك اليوم من أل أس يو.

عندما التقيتُ كارلتون بمفردنا في المطبخ، ضحك وشدّني بشعري كما لو أننا عدنا طفلين مجدداً. "إذاً، كيف حالك، يا شقيقتي؟".

فأخـــبرته عـــن الوظيفة في الصحيفة، وأنني محررة النشرة الدورية للرابطة. وأخبرته أيضاً أنه يُستحسَن به العودة إلى المنـــزل بعد التخرج مـــن كلّية الحقوق. "تستحق تمضية بعض الوقت مع والدتي أيضاً. أنال أكثر من حصتي العادلة هنا". قلت، صارّةً أسناني.

ضـــحك كما لو أنه فهم ما أعني، ولكن، كيف ذلك؟ فهو أكبر ســـناً مـــني بـــثلاث سنوات، بهيّ الطلعة، طويل القامة، شعره أشقر

مـــتماوج، يُنهي دراسته في كلّية الحقوق أل أس يو، وينعم بحماية مئة وسبعين ميلاً من الطرقات المعبَّدة على نحو رديء.

عندما عاد إلى صديقته، بحثت عن مفاتيح سيارة والدتي من دون أن أعثـــر عليها في أي مكان. كانت الخامسة إلا خمس دقائق. فذهبتُ ووقفتُ عند الباب، محاولةً لفت انتباه والدتي. كان عليّ انتظارها حتى تنهـــي طـــرح وابل أسئلتها على فتاة تسريحة ذيل الحصان، عن أهلها، والمكان الذي تتحدّر منه، ولكن والدتي لم تكن تعتزم الكف عن طرح الأسئلة حتى تعثر على شخص واحد على الأقل على معرفة بالعائلتين. وســـألَتها بعد ذلك عن النادي النسائي الذي تنتمي إليه في فاندربيلت، واختـــتمت أخيراً بطرح سؤال عليها حول ماركة الأواني الفضية التي تمتلكها. فهذا الحديث أفضل من قراءة الطالع، تقول والدتي باستمرار.

فأجابـــت فـــتاة تسريحة ذيل الحصان أن الماركة الموجودة لدى عائلتها هي شانتيي، ولكنها ستختار ماركة جديدة عندما تتزوّج. "بما أنني حرّة التفكير". ولاطفها كارلتون على رأسها، فاندفعت باتجاه يده كالهرّة. ونظرا إليّ وابتسما.

"يـــا سكيتر". قالت لي فتاة تسريحة ذيل الحصان: "أنت محظوظة جداً لأنك تمتلكين ماركة من مجموعة فرانسيس الأول. هل ستحتفظين بها عندما تتزوجين؟".

"مجموعة فرانسيس الأول رائعة جداً". قلت بوجه مبتسم ومُشعٍّ. "لذلك أُخرج تلك الشوك طوال الوقت للنظر إليها فحسب".

فـــضيّقت والدتي عينيها ونظرت إليّ. وأومأتُ لها لتدخل المطبخ، ولكن مرّت عشر دقائق أخرى قبل أن تأتي.

"أيـــن مفاتيحك يا أمي؟ لقد تأخرتُ، عليّ الذهاب إلى منـــزل هيلي. سأبقى هناك الليلة".

"مـــاذا؟ ولكن كارلتون في المنـــزل. ما الذي ستعتقده صديقته الجديدة إذا لم تمكثي معهما؟".

لقـــد تجنّـــبتُ إخبارها بالأمر لأنني أعرف أننا سندخل في نقاش سواءً أكان كارلتون في المنـــزل أم لا.

"وأعـــدّت باسكاغولا لحماً مشوياً، وجهّز أبوك الحطب لإشعال النار الليلة في غرفة الاستجمام".

"تبلغ الحرارة في الخارج خمساً وثمانين درجة، يا أمي".

"انظـــري، شقيقك في المنـــزل، وأتوقع منك أن تتصرفي كشقيقة جيدة. لا أريدك أن تغادري حتى تجلسي مع تلك الفتاة مدة كافية من الـــوقت". ونظـــرَت إلى ساعتها في حين ذكّرت نفسي أنني في الثالثة والعـــشرين من عمري. قالت: "رجاءً، يا عزيزتي". وتنهّدتُ وحملتُ صينيّة شراب بنكهة النعناع.

"يا أمي". قلت لها في المطبخ عند الخامسة وثمانٍ وعشرين دقيقة. "عليّ الذهاب. أين مفاتيحك؟ هيلي في انتظاري".

"ولكننا لم نقضِ وقتاً كافياً معهما".

"تـــشعر هيلي... بألم في معدها". قلت هامسة: "وعليّ مساعدها اليوم وليس غداً. هي بحاجة إليّ لأعتني بالأطفال".

فتـــنهدت والدتي. "هذا يعني أنك ستذهبين معهما إلى دار العبادة أيـــضاً. أعتقد أن في استطاعتنا الذهاب غداً كعائلة وتناول طعام الغداء معاً".

قلت: "يا أمي، أرجوك". وبحثت في سلّة حيث تحتفظ بمفاتيحها عادةً. "لا أستطيع العثور على مفاتيحك *في أي مكان*".

"لا يمكـــنك أخـــذ السيارة الليلة. إنها السيارة التي نستقلّها يوم الأحد".

كان من المفترض به أن يصل إلى منـــزل هيلي بعد ثلاثين دقيقة، وعليّ ارتداء ملابسي والتبرّج في منـــزل هيلي كيلا تشتبه والدتي بأي شـــيء. ولم يكن في إمكاني الذهاب بشاحنة والدي الجديدة لأنها مليئة بالأسمدة وأعلم أنه سيكون بحاجة إليها فجر اليوم التالي.

"حسناً، سأستقل الشاحنة القديمة إذاً".

"أظن أنها موصولة بعربة مقطورة. اذهبـــي واسألي والدك".

لكـــن، لم يكن في إمكاني أن أسأل والدي أمام ثلاثة أشخاص لا بـــد وأن يشعروا بالسوء لأنني مغادرة. لذلك، التقطتُ مفاتيح الشاحنة القديمة وقلت: "لا يهمّ. أنا ذاهبة إلى منـــزل هيلي مباشرةً". وخرجتُ مسرعة لأجد الشاحنة القديمة موصولة بعربة مقطورة ويوجد على ظهر تلك العربة أيضاً جرّار يزن نصف طن.

هكـــذا، قدتُ إلى المدينة في أول موعد لي بعد عامين في شاحنة شفروليه من طراز العام 1941، رباعية الدَّفع، وأجرّ ورائي آلة لتمهيد التـــربة مـــن طـــراز جون دير. فأحدث المحرّك صوت فرقعة وتخبُّط، وتساءلت عما إذا كانت الشاحنة ستنجح في الانطلاق. وتطاير الوحل ورائـــي عن الإطارات. ولكن المحرك توقف على الطريق الرئيسة، ووقع فـــستاني وحقيبتي على الأرضية القذرة. كان عليّ المحاولة مرتين لإعادة تشغيله.

عـــند الخامسة وخمس وخمسين دقيقة، اندفع شيء أبيض أمامي، وسمعـــتُ صوتاً أجوف. فحاولتُ التوقف، ولكن الفرملة ليست أمراً يمكـــنكم القيام به بسرعة مع وجود آلة وراءكم تزن 10.000 رطل. فجرَشـــتُ وتوقفتُ، وكان عليّ الخروج للتحقق مما حدث. كان الهر واقفاً بشكل ملحوظ وينظر حوله مصعوقاً، وانطلق مسرعاً داخل الغابة بالسرعة التي قدم بها.

عند السادسة إلا ثلاث دقائق، وبعد انطلاقي بالسرعة القصوى، وإطـــلاق بوق الشاحنة، وتذمّر المراهقين، ركنتُ الشاحنة على مقربة من منـــزل هيلي لأنه لا يتوافر في الشارع غير النافذ موقف للسيارات ملائـــم لتجهيـــزات المزرعة. التقطتُ حقيبتي، وركضت مسرعة إلى الـــداخل حـــتى من دون قرع الباب، لاهثة، متعرّقة، ومنفوشة الشعر، وكانـــوا ثلاثتهم هناك بمن فيهم الشخص الذي كنت على موعد معه، يتناولون الشراب في غرفة الجلوس الأمامية.

فتـــسمّرتُ مكاني في ردهة المدخل ونظر ثلاثتهم إليّ. كان وليام وســـتيوارت واقفَـــين. يا الله، إنه أطول مني قامة بأربع بوصات على الأقـــل. واتـــسعت عينا هيلي عندما أمسكت بذراعي. "أيها الشابان، سنعود على الفور. اجلسا وتحدثا عن الظَّهير الرُّبعي أو ما شابه".

ســـحبتني هيلـــي إلى غرفة ملابسها، وبدأتُ أروي لها ما حدث معي.

"يـــا ســـكيتر، حتى إنك لا تضعين أحمر الشفاه! ويبدو شعرك كجُحر جرذ!".

"أعلـــم، انظـــري إليّ!". كانت كل آثار الشينالايتر الخارق قد زالت. "لا يوجد مكيّف هواء في الشاحنة. كان عليّ أن أقود والنافذة مفتوحة".

فغسلتُ وجهي، وأجلستني هيلي على كرسيّها في غرفة الملابس، وبدأت بتسريح شعري بطريقة مختلفة عن الطريقة التي اعتمدتها والدتي، لافّةً إياه بتلك اللفافات العملاقة، وراشّةً إياه برذاذ فاينل نِت.

سألَت: "حسناً؟ ما رأيك به؟".

فتنهّدتُ، وأغمضتُ عينيّ اللتين لا يوجد على أهدابهما مسكرة.

"يبدو وسيماً".

وضـــعتُ المكـــياج بشكل عشوائي لأنني لا أُجيد القيام بذلك. فنظرت إليّ هيلي وأزالته بقطعة نسيج، وأعادت وضعه مجدداً. ولبستُ الفـــستان الأسود ذات فتحة على صورة V من الأمام، وانتعلت الحذاء المـــسطّح مـــن ماركة دلمان. ومشّطت هيلي شعري بسرعة، وغسلتُ إبطيّ بقطعة قماش مبلّلة، ونظرَت إليّ مقلّبةً عينيها.

قلت: "لقد صدمتُ هرًّا".

"لقد تناول كأسين في انتظار قدومك".

فـــوقفتُ وملّستُ فستاني باتجاه الأسفل. قلت: "حسناً، ضعي لي علامة، من واحد إلى عشرة".

نظـــرت هيلـــي إليّ من الأعلى إلى الأسفل، وتوقفت عند فتحة الفـــستان، ورفعت حاجبيها. لم يسبق لي أن كشفت عن صدري بهذه الطريقة من قَبل، ربما نسيتُ ذلك.

قالت: "ستة". وبدت متفاجئة.

فنظـــرنا إلى بعـــضنا بعضاً للحظة. وأطلقت هيلي صرخة صغيرة حادة، وابتسمتُ. لم يسبق لهيلي أن وضعت لي علامة أكثر من أربعة.

عـــندما عـــدنا إلى غـــرفة الجلوس الأمامية، كان وليام يشير إلى ســـتيوارت بإصبعه. "سأخوض الانتخابات للفوز بذلك المقعد بمساعدة والدك...".

"يـــا ستيوارت ويتوورث". أعلنت هيلي: "أحب أن أعرّفك إلى سكيتر فيلان".

فوقـــف، ولم أفكر في أي شيء لمدة دقيقة من الزمن. وعندما قام بمرافقتي، بدوت كما لو أنني تسبّبتُ بالمعاناة لنفسي.

"ارتـــاد ستيوارت الكلّية في جامعة ألاباما". قال وليام، وأضاف: "رول تايد".

"ســـرّني لقاؤك". وابتسم ستيوارت بإيجاز، وتناول من ثم رشفة طويلة حتى سمعتُ صوت ارتطام الثلج بأسنانه. "إذاً، أين كنا؟". سأل وليام.

واستقللنا سيارة الأولدزموبيل الخاصة بوليام إلى فندق روبرت. ففـــتح لي ستيوارت الباب، وجلس بجانبـــي في الخلف، ولكنه انحنى فـــوق ظهر المقعد الأمامي، وتحدث إلى وليام عن موسم الأيائل طوال الطريق.

عـــند الطاولة، سحب لي الكرسي وجلستُ، وابتسمتُ، وقلت *شكراً لك*.

"هل تريدين كأساً؟". سألني من دون النظر باتجاهي.

"لا، شكراً. ماء فقط، رجاءً".

فاستدار نحو النادل وقال: "شراب مزدوج من دون تأخير مع إناء ماء".

وبعد تناوله الكأس الخامسة كما أعتقد، قلت: "لقد أخبرتني هيلي أنك تعمل في ميدان النفط. لا بد من أن يكون ذلك مثيراً للاهتمام".

"الوضع المالي جيد إذا كان ذلك ما تريدين معرفته".

"آه، لم أقصد ذلك...". ولكنني توقفت عن الكلام لأنه مدّ عُنُقه للنظر إلى أمر ما. فرفعتُ نظري ورأيته يحدّق إلى امرأة شقراء موجودة عند الباب، ممتلئة الصدر، تضع أحمر شفاه، وترتدي فستاناً أخضر.

استدار وليام ليرى ما الذي ينظر إليه ستيوارت، ولكنه أدار وجهه بـــسرعة. فهـــز رأســـه لستيوارت ببطء شديد بما معناه *لا ليس الآن*، ورأيت صديق هيلي القديم، جوني فوت، متجهاً نحو الباب مع زوجته الجديـــدة، سيليا. فغادرا، وألقيتُ ووليام نظرة سريعة إلى بعضنا بعضاً، متشاطرين ارتياحنا أن هيلي لم ترهما.

"يـــا الله، تلك الفتاة حارّة كزِفت الطريق تونيكا". قال ستيوارت هَمساً، وأظن أنني لم أعد أبالي مذاك الحين بما يحدث.

في إحدى المراحل، نظرت إليّ هيلي لتتحقق مما يجري. فابتسمتُ كمـــا لـــو أن كل شيء يسير بشكل جيد، وبادلتني الابتسام، سعيدةً بـــذلك. "يا وليام! لقد دخل نائب الحاكم للتوّ. لنذهب ونتحدث إليه قبل أن يجلس".

ذهـــبا معـــاً، وتركانا بمفردنا نحن الطائرين المتيّمين جالسين على جانب الطاولة نفسه ونحدّق إلى كل الأزواج السعداء في القاعة.

"إذاً". قـــال، وبالكاد أدار رأسه. "لم تحضري أبداً أي مباراة في كرة القدم جرت في ألاباما؟".

لم يسبق لي أن ذهبتُ إلى كولونيل فيلد التي تبعد عن سريري مسافة خمسة آلاف ياردة، فهل أذهب إلى ألاباما النائية. "لا، لست من هواة كرة القدم في الواقع". ونظرتُ إلى ساعتي. لم تبلغ الساعة بعد السابعة والربع.

"هكـــذا إذاً". وحدّق إلى الشراب الذي سلّمه إياه النادل كما لو أنه استمتع حقاً بابتلاعه. "حسناً، كيف تمضين وقتك؟".

"أكـــتب... عمـــوداً في صحيفة *جاكسون جورنال* عن الصيانة المنـــزلية".

فغـــضّن حاجـــبه، وضحك. "الصيانة المنـــزلية. تعنين... تدبّر شؤون المنـــزل؟".

فأومأت برأسي.

"يـــا الله". وهزّ شرابه. "لا يمكنني التفكير في أمر أسوأ من قراءة عمـــود عن كيفية تنظيف المنـــزل". قال، ولاحظت أن سنّه الأمامية مُعـــوَجّة قلـــيلاً. كنت أتوق إلى الإشارة إلى هذا العيب الموجود فيه، ولكنه أنهى فكرته قائلاً: "ربما أرغب في كتابته".

وحدّقت إليه فحسب.

"يـــبدو لي أن العثور على زوج يقتضي اللجوء إلى الحيلة بما أنك خبيرة بتدبير شؤون المنـــزل".

"حـــسناً، لا بـــد من أنك نابغة. لقد كشفت عن كل ما أخطط له".

"ألـــيس هـــذا ما تتخصصن فيه أنتنّ المتخرجات من أولي ميس؟ اصطياد الأزواج بطريقة محترفة؟".

فحـــدّقت إليه مذهولة. قد لا أكون خرجت في موعد منذ عدة سنوات، ولكن من يظنّ نفسه؟

"آسفة، ولكن هل سقطت على رأسك عندما كنت طفلاً؟".

فطرف بعينيه، وضحك للمرة الأولى في تلك الليلة.

"لن أقول لك إن هذا ليس من شأنك". قلت: "ولكن عليّ البدء مـــن مكان ما إذا كنت أخطط لأكون صحافية". وأظن أنني أثّرت فيه في الواقع. ولكنه ابتلع الشراب وفقد تركيزه.

تناولـــنا العشاء، استطعت مشاهدة المنظر الجانبـــي لوجهه ورؤية أنفـــه مـــستدق الـــرأس قليلاً، وحاجبَيه الكثّين، وشعره البنّي الفاتح والخـــشن. وتبادلنا أطراف الحديث قليلاً. كانت هيلي تتناولنا بحديثها، فـــتقول مثلاً: "يا ستيوارت، سكيتر تعيش في مزرعة شمال المدينة. ألم ينشأ السيناتور في مزرعة فول سوداني؟".

طلب ستيوارت كأساً أخرى.

عـــندما دخلـــتُ وهيلـــي الحمّام، أطلقَت ابتسامة متفائلة. "ما رأيك؟".

"هـــو... طـــويل القامة". قلت، وأذهلني عدم ملاحظتها فظاظة ستيوارت غير المبرَّرة وثمالته المُفرطة.

أخيراً، حلّت نهاية الوجبة، فتقاسم ووليام التكلفة. ووقف ستيوارت وساعدني على ارتداء سترتي. كان يُحسن التصرف على الأقل.

قـــال: "يا الله، لم يسبق لي أن التقيت امرأة ذات ذراعين طويلتين مماثلتين".

"حسناً، لم يسبق لي أن التقيت شخصاً يعاني من مشكلة مماثلة في تناول الشراب".

"رائحـــة معطفـــك أشبه بـــ...". وانحنى، وشمّه، وقطّب جبينه، "*الأسمدة*".

ومـــشى بخُطى واسعة باتجاه غرفة الرجال، وتمنّيتُ لو أنني قادرة على الاختفاء.

انطلقت السيارة، وساد صمت مُطبَق.

دخلنا منـــزل هيلي. فخرجت يول ماي بلباسها الرسمي الأبيض، وقالت: "كلهم بخير، لقد لجأوا إلى السرير". وخرجت من باب المطبخ. واستأذنتُ لدخول الحمّام.

"يـــا ســـكيتر، لماذا لا تُقلّين ستيوارت إلى منـــزله؟". قال وليام عندما خرجتُ. "أنا مرهَق، ألستِ كذلك يا هيلي؟".

فنظرت إليّ هيلي كما لو أنها تحاول معرفة ما أعتزم القيام به. لقد ظننت أنني أوضحت موقفي عندما بقيت في الحمّام لمدة عشر دقائق.

"سيارتك... ليست هنا؟". سألتُ، ناظرةً باتجاه ستيوارت.

قـــال ولـــيام ضاحكاً: "لا أعتقد أن نسيبـــي في وضع يسمح له بالقيادة". وساد الصمت مجدداً.

قلت: "لقد جئت بشاحنة، لا أتمنى لك الركوب فيها...".

قـــال وليام، موجّهاً ضربة بيده إلى ظهر ستيوارت: "تباً، لا مانع لدى ستيوارت في ركوب شاحنة، أليس كذلك، يا صديقي؟".

قالت هيلي: "يا وليام لماذا لا تقود؟ ويمكنكِ يا سكيتر مرافقتهما".

قال وليام: "ليس أنا، لقد أسرفتُ في تناول الشراب". عِلماً أنه من قاد السيارة إلى المنزل.

أخيراً، خرجتُ من الباب، وتبعني ستيوارت من دون أن يعلّق على عدم ركن الشاحنة أمام منزل هيلي أو في الطريق الخاصة بالمنزل. وعندما وصلنا إلى الشاحنة، توقفنا وحدّقنا إلى الجرّار الذي يبلغ طوله خمس عشرة قدماً والموصول بالجزء الخلفي لعربتي.

"تجرّين هذا الشيء بمفردك؟".

فتنهّدتُ. لم أخجل من ذلك الجرّار.

قال: "إنه المشهد الأكثر مدعاةً للضحك الذي رأيته يوماً".

فابتعدتُ عنه خطوةً إلى الوراء. "يمكن لهيلي أن تصطحبك".

فاستدار، وركّز نظره عليّ للمرة الأولى طوال الليل. وبعد لحظات طويلة من الوقوف هناك والنظر إلى عينيّ الدامعتين، شعرت بتعب شديد.

"تبّاً". قال، وأرخى جسده. "انظري، قلت لهيلي إنني غير مستعد لأي موعد".

"لا...". قلت، مبتعدةً عنه، وعدتُ إلى المنزل، وتبعني ستيوارت مجرجراً قدميه على الأرض. وقرعت على باب غرفة نوم هيلي، وسألتُ وليام الذي كان فمه مليئاً بمعجون الأسنان إن هو لا يمانع إقلال ستيوارت إلى المنزل. صعدت إلى الطابق العلوي حيث توجد غرفة الضيوف قبل أن يجيب.

في صباح يوم الأحد، نهضت باكراً قبل هيلي ووليام والأطفال وحركة مرور السيارات القادمة إلى دار العبادة. وعدتُ إلى المنزل

والجـــرّار يهـــدر ورائي. لقد تسببت لي رائحة السَّماد بصداع شديد بالرغم من أنني لم أشرب سوى الماء في الليلة السابقة.

عند منـــزل والدَيّ، تخطّيتُ كلاب والدي المستلقية على الرُّواق الخارجـــي، ودخلـــت المنـــزل. وحالما رأتني والدتي، قمت بمعانقتها. وعندما حاولَت الذهاب، لم أسمح لها.

"مـــا الأمـــر، يا سكيتر؟ لم تُصابـــي بالعدوى من هيلي، أليس كذلك؟".

"لا، أنا بخير". وتمنّيتُ لو كان في إمكاني إخبارها عن ليلتي. لقد شـــعرتُ بالذَّنب لعدم كوني أكثر لطافة معها، وعدم الحاجة إليها حتى ســـاءت الأمـــور في حـــياتي. وشعرتُ بالسوء لأنني تمنّيت لو كانت كونستنتين موجودة هناك بدلاً منها.

فربّتت والدتي على شعري الذي عبث به الهواء بما أنه أضاف بوصتين على الأقل إلى طول قامتي. "هل أنت واثقة من أنك لا تشعرين بالسوء؟".

"أنـــا بخـــير، يـــا أمي". كنت شديدة التعب بحيث لم أتمكن من المقاومة، ومعدتي تؤلمني كما لو أن أحدهم وجّه ركلة إليها وهو ينتعل حذاءه عالي الساق. ومع ذلك، برحتُ مكاني.

قالـــت، مبتـــسمة: "تعلمين، أعتقد أنها قد تكون الفتاة المناسبة لكارلتون".

"جيد، يا أمي". قلت. "أنا سعيدة حقاً لأجله".

عـــند الحاديـــة عشرة من صباح اليوم التالي، رنّ الهاتف. لحسن الحظ، كنت في المطبخ ورفعتُ السمّاعة.

"آنسة سكيتر؟".

فوقفتُ بلا حراك، ونظرت من ثمّ إلى والدتي وهي تتفحّص دفتر شـــيكاتها على طاولة غرفة الطعام. وكانت باسكاغولا تُخرج لحماً

مـــشوياً مـــن جهـــاز الطهـــو. فدخلتُ إلى غرفة المؤونة، وأغلقتُ الباب.

قلت هامسة: "من، آيبيلين؟".

لزمَت الصمت للحظة ومن ثم قالت بشكل مفاجئ. "ماذا لو لم يُعجبك ما سأقول؟ أعني عن ذوي البشرة البيضاء".

"أنا... أنا... لا يتعلق الأمر برأيي". قلت: "لا أهمية لما أشعر به".

"ولكن كيف أعرف أنك لن تغضبـــي وترتدّي عليّ؟".

"لـــن... عليك أن... تثقي بـــي فحسب". وحبستُ أنفاسي، آملةً ومنتظرة. وكان هناك انقطاع طويل عن الكلام.

"ليرحمني الله. أظن أنني سأقوم بالأمر".

"يا آيبيلين". وخفق قلبـــي بقوة من شدة الفرح. "لا يمكنك أن تتصوري مدى امتناني...".

"يا آنسة سكيتر، علينا أن نكون شديدتي الحذر".

"أعدك بذلك".

"وســـيكون علـــيك تغـــيير اسمي، اسم الآنسة ليفولت، وأسماء الجميع".

"بالطبع". كان من المفترض بـــي أن أذكر لها هذه الأمور. "متى يمكننا الالتقاء؟ *أين* يمكننا الالتقاء؟".

"لا يمكنـــنا القـــيام بذلك في حيّ ذوي البشرة البيضاء، إنه أمر مؤكّد. أعتقد... أننا سنقوم بذلك في منـــزلي".

"هل تعرفين خادمات أخريات قد يكنّ مهتمات بالأمر أيضاً؟". ســـألتُ، علمـــاً أن السيدة شتاين وافقت على قراءة مقابلة تُجرى مع خادمة واحدة فقط. ولكن، كان عليّ الاستعداد لذلك تحسّباً لإعجاب السيدة شتاين بالخطوة التمهيدية.

لــزمت آيــيلين الصمت للحظات قليلة. "أظن أن في استطاعتي طــرح الــسؤال علــى ميني. ولكنها غير متحمسة جداً للتحدث إلى أشخاص من ذوي البشرة البيضاء".

"مــيني؟ تعنين... خادمة السيدة والترز المُسنّة". قلت، وشعرتُ فجــأةً بفداحة الأمر. فأنا لن أتدخل في حياة إليزابيت فحسب، بل في حياة هيلي أيضاً.

"لدى ميني بعض الروايات".

"يا آيبيلين". قلت. "شكراً لك. آه، شكراً لك".

"أجل يا سيدتي".

"أريــد فقــط... علــيّ أن أسألك. ما الذي حملك على تبديل رأيك؟".

فأجابت آيبيلين من دون تردد. "الآنسة هيلي".

ولــزمتُ الــصمت، مفكرةً في خطة الحمّام التي وضعتها هيلي، واتهــام الخادمة بالسرقة، وحديثها عن الأوبئة. لقد لفظت آيبيلين اسم هيلــي بفــتور كما لو أنها تشعر بمرارة في فمها أشد من مرارة جَوز البَقّان.

ميني

الفصل العاشر

ذهـــبتُ إلى العمل مفكرةً في أمر واحد. كان ذلك اليوم أول يوم من كانون الأول/ديسمبر. ففي حين تقوم بقية الولايات المتحدة بـــرفع الغـــبار عـــن مذاود الميلاد وإخراج جوارها النتنة والقديمة، كـــان علـــيّ التفكير في رجل آخر. هو ليس سانتا بل السيد جوني فـــوت الأصـــغر الذي سيعرف عشيّة الميلاد أن ميني جاكسون هي خادمته.

كـــنت أنتظر الرابع والعشرين من كانون الأول/ديسمبر كما لو أنـــه تـــاريخ مثولي أمام المحكمة. لم أكن أعرف رد فعل السيد جوني عـــندما يكتـــشف أنـــني أعمل هناك. ربما قال، *جيد! تعالي ونظفي مطبخي في أي وقت! إليك بعض المال!* ولكنني لست بهذا الغباء. إن الاحتفاظ بهذا السر قد يكون أمراً لا يصدَّق بالنسبة إليه، بحيث إنه لن يكون راغباً في منحي أي علاوة. وهناك احتمال كبير أن أفقد عملي يوم الميلاد.

لم يكن الأمر يبارح تفكيري، وكل ما أعرفه هو أنني قررت، قبل شـــهر، الموت بكرامة على الموت بنوبة قلبية فوق غطاء مرحاض سيدة

بيضاء البشرة. بالإضافة إلى كل ذلك، فإن من سيعود إلى المنزل هو الرجل الذي سيضع حداً لحياتي، وليس السيد جوني.

وما أقلقني أكثر من أي شيء آخر هو الآنسة سيليا. ففي أثناء درس الطهو، كانت لا تزال ترتجف كثيراً بحيث إنها لم تتمكن من وضع كمية الملح الضرورية في الملعقة.

* * *

حل يوم الاثنين من دون أن أتمكن من الكف عن التفكير في حفيد لوفينيا براون، روبرت. كان قد خرج من المستشفى في نهاية الأسبوع السابق، وانتقل للعيش مع لوفينيا لأن والديه متوفّيان. وعندما ذهبت لزيارتهما في الليلة السابقة، مصطحبةً معي كعكة بالكاراميل، وجدت على ذراع روبرت جَبيرة للعظام، وعلى عينيه ضمادات. "آه، *يا لوفينيا*". هو كل ما كان في استطاعتي قوله عندما رأيته. كان روبرت مستلقياً على الأريكة ومستغرقاً في النوم، وقد تمّ حلق نصف رأسه لإجراء العملية. وبالرغم من كل مشاكلها، سألَت لوفينيا عن كل فرد من عائلتي. وعندما بدأ روبرت بالتحرك، سألتني عما إذا كنت لا أمانع العودة إلى منزلي لأن روبرت يستيقظ في العادة وهو يصرخ. لقد اعتبرَت أن ذلك المشهد قد يزعجني، فشعرتُ بالذُّعر وتذكرتُ أنه ضرير. ولم أتمكن أبداً من الكف عن التفكير في الأمر.

"سأذهب إلى المتجر بعد قليل". قلت للآنسة سيليا، وسلّمتها لائحة البقالة لتطّلع عليها. كنا نقوم بذلك كل يوم اثنين، فتعطيني ثمن البقالة. وعندما أعود إلى المنزل، أدفع بالإيصال أمام وجهها. كنت أريد منها التحقق من أن كل بنس أنفقه مطابق مع الورقة. فتهزّ الآنسة سيليا كتفيها، ولكنني كنت أُبقي تلك البطاقات في مكان آمن في الدُّرج تحسّباً لأي مساءلة لاحقة.

ميني تطهو:

1 - لحم مقدَّد بالأناناس

2 - فاصولياء منقطة

3 - بطاطا حلوة

4 - فطيرة تفاح

5 - كعكات طرية.

الآنسة سيليا تطهو:

قرنيات بالزبدة

"لكنني أعددتُ القرنيات بالزبدة الأسبوع الماضي".

"تعلّمي إعداد تلك الأطباق، فيسهل عليك كل شيء".

"أعـــتقد أنني أُحرز تقدّماً على كل حال". قالت. "في استطاعتي الجلوس من دون تململ عندما أقوم بتفتيت حبات الذرة".

لقـــد مـــرت ثلاثـــة أشـــهر تقريباً، و لم تتعلّم بعد غلي القهوة. فأخرجتُ عجين الفطيرة، وأردت إعدادها قبل الذهاب إلى المتجر.

"هـــل يمكنـــنا إعداد فطيرة بالشوكولا هذه المرة؟ أحب الفطيرة بالشوكولا".

فـــصررتُ أسناني. "لا أعرف كيفية طهو الفطيرة بالشوكولا". قلـــت. لقـــد كذبتُ. *لن أقوم بطهوها أبداً بعد ما حدث مع الآنسة هيلي.*

"لا تعرفين؟ يا الله، ظننت أن في استطاعتك طهو كل شيء. ربما وجب علينا الحصول على وصفة".

"أي نوع آخر من الفطائر تفكرين فيه؟".

"حسناً، ما رأيك بفطيرة الدراق التي أعددتِها في المرة السابقة؟". قالت، وسكبت كوب حليب. "لقد كانت ممتازة".

"كان هناك دراق من المكسيك. لم يحلّ موسم الدراق هنا بعد".

"ولكنني رأيت إعلاناً عنه في الصفحة".

فتنهّدتُ. ما من أمور يسيرة معها، ولكنها غضّت الطَّرف عن الشوكولا على الأقل. "هناك أمر واحد عليك معرفته. كل شيء يكون أفضل في موسمه. أنت لا تطهين اليقطين في الصيف، ولا تطهين الدراق في الخريف، لأنك لا تجدينهما معروضين للبيع على جانب الطريق. لِنُعدّ لأنفسنا فطيرة لذيذة بجوز البَقّان بدلاً من ذلك".

"لقد أحب جوني حلوياتك المصنوعة من مكسَّرات محمَّرة بالسكّر. هو يعتقد أنني الفتاة الأكثر ذكاء التي التقاها يوماً عندما قدّمتها إليه".

وعدتُ إلى عجيني كيلا تتمكن من رؤية وجهي، ولكنها أثارت غضبي مرتين في غضون دقيقة واحدة. "هل هناك شيء آخر تريدين من السيد جوني أن يظن أنك أعددتِه؟". فإلى جانب خشيتي من سرعة خاطري، سئمت وتعبت من إعداد الطعام لغير أطفالي. فالطهو هو الأمر الوحيد الذي أفخر به.

"لا، هذا كل شيء". وابتسمت الآنسة سيليا من دون أن تلاحظ أنني مددتُ الفطيرة بشدة مما أحدث خمسة ثقوب فيها. كان لا يزال هناك أربعة وعشرون يوماً لانتهاء هذه المهزلة، ودعوت كيلا يعود السيد جوني إلى المنزل قبل إنهاء الطعام.

كنت أسمع الآنسة سيليا تتحدث عبر الهاتف في غرفتها إلى سيدات المجتمع كل يوم تقريباً. كان يوم الحفلة الخيرية قد مر منذ ثلاثة أسابيع، وها هي تحاول المشاركة به مجدداً في العام التالي. ولكنها لم تذهب مع السيد جوني إلى الحفلة، ولم يبلغني الكثير عما جرى خلالها.

لم أُعدّ ليوم الحفلة الخيرية في ذلك العام، وذلك للمرة الأولى منذ عقد. فالمال وفير، بالإضافة إلى أنني لم أكن أريد الالتقاء بالآنسة هيلي.

"هل يمكنك أن تقولي لها إن سيليا فوت اتصلت مجدداً؟ لقد تركت لها رسالة منذ أيام قليلة...".

كانت الآنسة سيليا تتحدث عبر الهاتف بصوت مبتهج كما لو أنها تحاول تسويق شيء ما على التلفاز. وكلما سمعت صوتها شعرت بالرغبة في انتزاع الهاتف من يدها، والطلب منها الكف عن تضييع وقتها لأنها تبدو كامرأة فاجرة. وهناك سبب أكثر أهمية لعدم وجود صديقات للآنسة سيليا، وقد عرفتُ ذلك عندما رأيت صورة السيد جوني تلك. لقد أعددتُ وجبات غداء لنادي البريدج بما يكفي لتكوين فكرة عن المرأة بيضاء البشرة في هذه المدينة. لقد تخلى السيد جوني عن الآنسة هيلي في الكلية، وتقرّب من الآنسة سيليا، ولم تتعافَ الآنسة هيلي أبداً من تلك المحنة.

دخلتُ دار العبادة ليل يوم الأربعاء. كانت ممتلئة جزئياً لأنها كانت السابعة إلا ربعاً ولا يبدأ الكورس بالإنشاد قبل الساعة السابعة والنصف. ولكن آيبيلين طلبت مني القدوم باكراً. كان يغمرني الفضول حول ما ستقوله لي، كما أن ليروي كان في مزاج جيد ويلاعب الأطفال. لذلك، قلت لنفسي، *إذا كان يريدهم، يمكنه الحصول عليهم*.

رأيت آيبيلين جالسة على الجانب الأيسر من مقعدنا المعتاد، وهو المقعد الرابع من الأمام بجانب المروحة والنافذة. نحن عضوتان رئيستان ونستحق مكاناً استثنائياً. كان شعرها مسرَّحاً إلى الوراء، وتُرخي خُصل شعر حول عُنُقها، وترتدي فستاناً أزرق ذات أزرار بيضاء كبيرة لم يسبق لي أن رأيته من قبل. فآيبيلين تملك ملابس سيدة بيضاء البشرة، لأن السيدات بيضاوات البشرة يُحببن إعطاءها أغراضهنّ القديمة.

وكالعـــادة، بدت جديرة بالاحترام، ولكنها تُخبر أحياناً دُعابات بذيئة ومرِحة بالرغم من جديتها.

عـــبرتُ الممشى بين صفّي المقاعد، ورأيت آيبيلين مقطّبة الوجه، محدّقـــة، ومغضّنة الجبين. وتمكنتُ للحظات من رؤية فارق السن بيننا الـــبالغ خمسة عشر عاماً، ولكنها ابتسمت بعد ذلك وعاد وجهها فتيّاً وسميناً مرة أخرى.

"يا الله". قلت بعد أن جلستُ.

"أعلـــم. يجـــب على أحدهم أن يخبرها". وهوّت آيبيلين وجهها بالمنديل. كان دور كيكي براون بالتنظيف في صباح ذلك اليوم، ودار العـــبادة عابقة برائحة الليمون الذكية التي أعدّتها وتحاول بيع الزجاجة الواحدة بخمسة وعشرين سنتاً. لقد حصلنا على عقد عمل لتنظيف دار العـــبادة لأن أجرنا أقل من أجر الرجال، ولم يحصل أي رجل على هذا العقد وفقاً لمعلوماتي.

إلى جانـــب الرائحة، بدت دار العبادة في أحسن حال. لقد لمعت كيكـــي المقاعـــد بطريقة تمكّنكم من تنظيف أسنانكم من خلال النظر إلـــيها. ونُـــصبت شجرة الميلاد، ومُلئت بزينة مبهرَجة، ووُضعت على رأســـها نجمـــة برّاقة. كانت هناك ثلاث نوافذ مرسوم عليها، وكان زجاج النوافذ السبع الأخرى خالياً من أي رسوم، كنا لا نـــزال نجمع المال لملئها بالرسوم.

"هل خفّت حدة الرَّبو لدى بيني؟". سألَت آيبيلين.

"تعـــرّض لنوبة خفيفة أمس. لقد تخلى عنه ليروي ولازمه أشقاؤه وشقيقاته لبعض الوقت. لنأمل ألا يودي تناول الليمون بحياته".

"لـــيروي". وهزت آيبيلين رأسها وضحكت. "أخبريه أنني أطلب منه أن يُحسن التصرف، وإلا وضعته على لائحة أدعيتي".

"ليتك تدعين لأجله. آه، يا الله، أُحجب الطعام عنه".

تــوجهت برترينا بيسيمر المتعجرفة إلينا، متهادية. وانحنت فوق المقعــد أمامنا، مبتسمة، وعلى رأسها قبّعة عصفور أزرق كبيرة وبالية. هي التي نعتت آيبيلين بالخرقاء كل تلك السنوات.

"يــا مــيني". قالــت برترينا: "أنا سعيدة لحصولك على عمل جديد".

"شكراً لك، يا برترينا".

"ويــا آيبيــلين، أشكرك لأنك وضعتني على لائحة أدعيتك. أنا أفــضل حالاً الآن بعد الذبحة الصدرية التي ألّمت بــي. سأتصل بك في نهاية هذا الأسبوع ونتبادل أطراف الحديث".

فابتــسمت آيبيلين، وأومأت برأسها. ووقفت برترينا، وتوجهت إلى مقعد آخر، متهادية.

قلت: "يجب عليك اختيار من تدعين لأجلهم بحِرص أكبر".

"لم أعُــد غاضبة منها البتة". قالت آيبيلين. "وانظري هناك، لقد فقدَت بعض الوزن".

قلت: "تخبر الجميع أنها فقدت أربعين رطلاً".

"ليرحمها الله".

"لقد ازداد وزنها مئتي رطل".

حاولــت آيبيلين عدم الابتسام، وتصرّفَت كما لو أنها تُبعد عنها رائحة الليمون.

"إذاً، لأي ســبب أردتني أن آتي باكراً؟". سألتُ. "هل اشتقتِ إليّ، أم أن هناك أمراً آخر؟".

"لا، ليس بالأمر الهام. فقط هو أمر قاله أحدهم".

"ما هو؟".

فأخــذت آيبــيلين نفساً، ونظرت حولها للتحقق من أن أحداً لا يستمع إلينا. كنا كأفراد من العائلة المالكة يرمقنا الجميع بنظراتهم.

سألَت: "تعرفين الآنسة سكيتر تلك؟".

"قلت لك في ذلك اليوم إنني أعرفها".

فقالـــت بصوت هادئ: "حسناً، هل تتذكرين كيف زلّ لساني وأخبرتها أن تريلور كتب أموراً تتعلق بذوي البشرة الملونة؟".

"أتذكّر. هل تريد مقاضاتك بسبب ذلك؟".

"لا، لا. إنهــا لطيفة. ولكنها تجرّأت على الطلب مني، ومن بعض صــديقاتي الخادمات، أن نــزوّدها بمعلومات حول عملنا لدى ذوي البشرة البيضاء. تقول إنها تضع كتاباً".

"ماذا تقولين؟".

أومأت آيبيلين برأسها، ورفعَت حاجبيها. "أمم – همم".

قلــت: "حسناً، قولي لها إن الأمر أشبه بنــزهة حقيقية في الرابع من تموز/يوليو. فما نحلم به طوال نهاية الأسبوع هو العودة إلى منازلهم لتلميع أوانيهم الفضية".

"لقــد قلــت لها إن كل شيء مدوَّن في كتب التاريخ القديمة. فــذوو البشرة البيضاء يعبّرون عن آراء ذوي البشرة الملونة منذ بداية الزمن".

"هذا صحيح. قولي لها ذلك".

"لقــد فعلتُ، وقلت لها إنها مغفّلة". قالت آيبيلين. "لقد سألتُها، ماذا لو قلنا الحقيقة؟ كيف أننا شديدو الخوف من طلب الحصول على الحــد الأدنى للأجــور، وكــيف أن أحــداً لا يستفيد من الضمان الاجتماعــي، وكــيف تكــون علــيه الحال عندما يدعوك صاحب عملك...". وهزت آيبيلين رأسها. كنت سعيدة لأنها لم تقل ذلك.

"كـــيف نحب أطفالهم عندما يكونون صغاراً...". قالت، ورأيت شفة آيبيلين ترتجف قليلاً. "ويغدون كذويهم في نهاية المطاف".

نظـــرتُ إلى الأسفل، ورأيت آيبيلين تمسك حقيبة يدها بإحكام كمـــا لـــو أنها الشيء الوحيد المتبقي لها في هذا العالم. فآيبيلين تغادر عملـــها لتتـــسلّم عملاً آخر، عندما يكبر الأطفال الذين تُشرف على تربيتهم، ويتوقفون عن عدم الاكتراث للون البشرة.

"حـــتى ولـــو بدّلَت كل أسماء العاملات المنـــزليات، والسيدات بيضاوات البشرة". قالت، ناخرةً أنفها.

"تكـــون مجنونة إن هي فكرت في أننا قد نقوم بعمل خطر كهذا، ولأجلها".

"لا نـــريد إحـــداث كل تلك الفوضى". ومسحت آيبيلين أنفها بالمنديل. "إطلاع الناس على الحقيقة".

قلـــت: "لا، لا نريد ذلك". وتوقفتُ. هناك أمر ما مرتبط بتلك الكلمـــة/*الحقـــيقة*. كنت أحاول منذ الرابعة عشرة من عمري، إخبار النساء بيضاوات البشرة بحقيقة واقع العمل لديهنّ.

قالـــت آيبـــيلين: "لا نريد تغيير أي شيء هنا". والتزمنا الهدوء، مفكرتين في كل الأمور التي لا نريد تغييرها. ولكن آيبيلين نظرت إليّ، مضيّقةً عينيها، وسألت، "ألا تظنين أنها فكرة مجنونة؟".

"بلى، ولكنني...". عندها، أدركتُ الأمر. نحن صديقتان منذ ستة عشر عاماً، عندما انتقلتُ من غرينوود إلى جاكسون، والتقينا في موقف الحافلات. استطعت قراءة آيبيلين كصحيفة الأحد. "تفكرين في الأمر، أليس كذلك". قلت: "تريدين مكالمة الآنسة سكيتر".

فهزت كتفيها، وعلمتُ أنني مُحِقة. ولكن، قبل أن تتمكن آيبيلين من الاعتراف بذلك، دنا المبجّل جونسون، وجلس على المقعد وراءنا،

وانحنى بين كتفينا. "يا ميني، آسف لأنه لم تسنح لي الفرصة لتهنئتك بعملك الجديد".

فملّستُ فستاني. "شكراً لك".

"لا بد من أنك موجودة على لائحة أدعية آيبيلين". قال، مربّتاً على كتف آيبيلين.

"بالتأكيد. قلت لآيبيلين إنها تحتاج إلى الشروع بزيادة الدعاء في هذه الحال".

وضحك المبجّل، ونهض ومشى ببطء نحو المنبر. وساد الصمت. لم أصدّق أن آيبيلين تريد إخبار الآنسة سكيتر بالحقيقة.

الحقيقة.

هي تُشعرنا بالبرودة كالماء المنسكب على جسدي الساخن والدَّبِق، وتُضفي البرودة على سخونة لطالما أحرقتني طوال حياتي.

الحقيقة، قلت لنفسي مجدداً لأتحسّس ذلك الشعور فحسب.

ورفع المبجّل جونسون يديه وتكلّم بصوت هادئ وخفيض. وبدأ الكورس وراءه يدندن، فوقفنا كلنا. وبدأتُ بالتعرّق بعد نصف دقيقة.

"هل تظنين أن الأمر يهمّك؟ أن تتحدثي إلى الآنسة سكيتر؟". همست آيبيلين.

نظرتُ إلى الخلف، ورأيت ليروي والأطفال الذين وصلوا متأخرين كالعادة. "من، أنا؟". قلت، وعلا صوتي إزاء الموسيقى الناعمة. فأخفّضته ولكن ليس كثيراً.

"لن أقوم بعمل مجنون مماثل؟".

* * *

حلّت موجة حرارة في كانون الأول/ديسمبر لا لشيء إلا لإثارتي. ففي ظل أربعين درجة، كنت أتعرّق كشاي مثلّج في شهر

آب/أغسطس. ونهضتُ في صباح ذلك اليوم، وكان الميزان يشير إلى ثمان وثلاثين درجة. لقد أمضيت نصف حياتي محاوِلةً عدم التعرّق كثيراً؛ كاستخدام كريم دايني لايدي لامتصاص العرَق، ووضع بطاطا مثلّجة في جيوبي، صُرّة ثلج مربوطة برأسي (لقد لجأت إلى طبيب في الواقع، ودفعتُ التعرفة لقاء تلك النصيحة المجنونة)، ولكن ضمادات التعرّق كانت لا تزال تمتص العرَق في غضون خمس دقائق، فأحمل معي مروحتي أينما ذهبتُ لأنها مفيدة ومجانية.

لقد تكيّفت الآنسة سيليا مع أسبوع الطقس الحارّ، وخرجت في الواقع للجلوس بجانب بركة السباحة، واضعةً نظارتها الشمسية البيضاء غير الأنيقة، ومرتديةً بُرنُس حمّام متجعّد. الشكر لله لأنها خرجت من المنزل. لقد ظننت في بادئ الأمر أنها قد تكون مريضة بالجسد، ولكنني بدأت أتساءل عما إذا كانت مريضة بالعقل. لا أعني بذلك التكلّم مع أنفسكم على غرار السيدات المماثلات للآنسة والترز بسبب أمراض الشيخوخة، بل الجنون الذي يودي بكم إلى ويتفيلد بسترة تكتيف.

كنت أصعد درجها الزَّلِق كل يوم تقريباً باتجاه غرف النوم الفارغة، فأسمع وقع خُطاها المتسلّلة في الرَّدهة في الطابق السفلي، مُحدثةً ذلك الحفيف على الأرض. لم أكن أعلّق أي أهمية على الأمر، إنه منزلها. ولكن، ذات يوم، كرّرتِ الأمر أكثر من مرة، وكانت تنتظر قيامي بتشغيل الهوفر أو الانشغال بإعداد الكعكة للتسلل من جديد، مما حملني على الارتياب. كانت تمضي نحو سبع أو ثماني دقائق في الطابق العلوي، وتُدير رأسها الصغير في مختلف الاتجاهات للتأكد من أنني لا أراها تنزل السلّم.

قال ليروي: "لا تتدخلي في شؤونها، تأكدي فقط من أن تخبر زوجها أنك تقومين بتنظيف المنزل". لقد أمضى ليروي الليلتين

السابقتين في مشرب كروو الواقع وراء منشأة الطاقة، يحتسي الشراب بعــد انتهاء نوبة عمله. لم يكن غبيّاً، كان يعرف أن ذلك الشيك لن يظهر مجدداً إذا متّ.

بعــد أن قامــت بجولتها في الطابق العلوي، دخلت الآنسة سيليا المطبخ وجلست إلى الطاولة بدلاً من العودة إلى سريرها. كم تمنّيت أن تخــرج مــن تلك الغرفة. كنت أسلخ لحم الدجاج عن العظام، وأغلي المَــرَق، وأقطّــع كرات العجين. لم أكن أريد أن تقوم بمساعدتي على إعداد هذه الوجبة.

"يتبقى ثلاثون يوماً فقط لتخبري السيد جوني عني". قلت، وكنت أحــب تــصديق أنها ستقوم بذلك. نهضت الآنسة سيليا من أمام طاولة المطبخ، وتوجهت إلى غرفة نومها. ولكن، قبل أن تخرج من الباب، قالت متمتِمة: "هل عليك أن تذكّريني بهذا الواقع في كل يوم من حياتي؟".

فوقفتُ بشكل مستقيم. كانت المرة الأولى التي تُبدي فيها الآنسة ســيليا اعتراضــها على ما أقول. "أمم - همم". قلت لها من دون رفع نظــري لأنــني سأستمر في تذكيرها حتى يقوم السيد جوني بمصافحتي ويقول *سررتُ بلقائك، يا ميني*.

لكنني رفعتُ نظري، ورأيت الآنسة سيليا واقفة هناك وهي تمسك إطار الباب. لقد غدا وجهها أبيض كطلاء جدار بخس الثمن.

"تلهين بالدجاج البارد مجدداً؟".

"لا، أنا... متعَبة فقط".

لكــن ثقوب التعرّق على تبرّجها الذي أصبح رمادياً أخبرني أنها ليست بخير. فساعدتها على الوصول إلى السرير، وأحضرت لها زجاجة لايدي - أيه - بينكام. كانت هناك على اللُّصاقة الزهرية صورة سيدة تبتــسم كما لو أنها تشعر بحال أفضل، وعلى رأسها عِمامة. فسلّمتُ

الآنــسة ســيليا الملعقة لتسكب فيها مقدار ما تريد تناوله، ولكن تلك المرأة شربته من الزجاجة مباشرةً.

بعد ذلك، غسلتُ يديّ، وأملتُ في ألا أصاب بالعدوى، أياً يكن مرضها.

كــان الــيومُ التالي لغدوّ وجه الآنسة سيليا مُضحكاً، يومَ تبديل المــلاءات المــزعجة، وهو اليوم الذي أكرهه أكثر من أي يوم آخر. فــالملاءات هــي غرض شخصي جداً بالنسبة إلى أولئك الذين يتوقون بــشدة إلى القــيام بكــل شيء عليها. فهي مليئة بالشعر، والقشرة، والمُخاط، وآثار الفطائر الهلامية. ولكن بُقَع الدم هي أسوأ ما في الأمر، وكنت أفركها بيديّ العاريتين لإزالتها، وأتقيّأ بعد ذلك فوق المغسلة. وينطــبق الأمــر على كل ما يشبه الدم، إذ كانت بقعة فراولة تبقيني منحنية فوق المرحاض بقيّة اليوم.

كانــت الآنسة سيليا تعرف ما أقوم به أيام الثلاثاء، فتنهض عن السرير في العادة لأتمكن من القيام بعملي. ووصلت كتلة هواء بارد في صباح ذلك اليوم حالت دون خروجها للجلوس بجانب بركة السباحة، وقالــوا إن حــال الطقــس ســتزداد سوءاً. وحلّت الساعة التاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، وبقي باب غرفة النوم مقفَلاً. فقرعتُ أخيراً.

"أجل؟". قالت. وفتحتُ الباب.

"صباح الخير، يا آنسة سيليا".

"مرحباً، يا ميني".

"إنه يوم الثلاثاء".

لم تكــن الآنــسة سيليا على سريرها فحسب، بل ملتفّة على نفسها بقميص النوم، وفوق الأغطية، من دون وجود أي أثر لمساحيق التبرّج عليها.

"عليّ غسل الملاءات وكيّها. بعد ذلك، نطهو...".

"لا درس في الطهو اليوم، يا ميني". لم تكن تبتسم أيضاً كما تفعل عادةً عندما تراني.

"لستِ بخير؟".

"أحضري لي بعض الماء، من فضلك".

"أجــــل، يا سيدتي". ودخلتُ المطبخ وملأتُ كوباً من المغسلة. لا بد من أنها تشعر بالسوء لأنه لم يسبق لها أن طلبت مني تقديم أي شيء إليها من قبل.

وعندما عدت إلى غرفة النوم، لم تكن الآنسة سيليا على السرير، وكــــان بــــاب الحمّام مقفلاً. لماذا طلبت مني إذاً إحضار كوب ماء إذا كانـــت تـــريد النهوض ودخول الحمّام؟ إنها لا تقف في طريقي على الأقل. والتقطتُ بنطال السيد جوني عن الأرض، ووضعتُه على كتفي. هـــذه المرأة لا تبارح المنـــزل أبداً. آه، لا، يا ميني، لا تفكري في هذه الطريقة. فإذا كانت مريضة، فهي مريضة.

"هل أنت مريضة؟". صرختُ خارج باب الحمّام.

"أنا... بخير".

"في أثناء وجودك في الداخل، سأبدّل هذه الملاءات".

"لا، أريـــدك أن تذهـــي". قالـــت عبر الباب. "اذهبـــي إلى منـــزلك اليوم، يا ميني".

فـــوقفتُ هناك، وضربتُ سجادها الصفراء بقدمي. لم أكن أريد الذهاب إلى المنـــزل. إنه الثلاثاء، يوم تبديل الملاءات المزعجة. وإذا لم أقم بتبديلها في ذلك اليوم، يصبح الأربعاء يوم تبديل الملاءات أيضاً.

"ماذا سيفعل السيد جوني إذا عاد إلى المنـــزل، ووجد المنـــزل في حال من الفوضى؟".

"ســيبقى في معــسكر الأيائل هذه الليلة. يا ميني، أحضري لي الهاتف من فضلك...". وغدا صوتها أشبه بنواح مرتجف. "اسحبيه إلى هنا، وأحضري دليل الهاتف الموجود في المطبخ".

"أنت مريضة، يا آنسة سيليا؟".

لكنها لم تُجِب. لذلك، ذهبتُ وأحضرتُ الدليل والهاتف إلى أمام باب الحمّام وقرعته.

"دعــيهما هناك فحسب". وبدا لي أن الآنسة سيليا تبكي. "أريد منك أن تذهبــي إلى منــزلك الآن".

"ولكن...".

"قلت اذهبــي إلى منــزلك، يا ميني!".

فابــتعدتُ عــن ذلك الباب المُقفَل خطوةً إلى الوراء. وعبق وجهــي بالحرارة وشعرت بلسعات عليه، لا لأن أحداً لم يصرخ في وجهــي مــن قبل، بل لأنه لم يسبق للآنسة سيليا أن صرخت في وجهي.

في صــباح الــيوم التالي، كان وودي أزاب على القناة الثانية عــشرة يحــرّك يديــه البيضاوَين الحرشفيّتين فوق خارطة الولاية. فجاكسون، ميسيسيبــي، مكسوّة بالجليد. لقد أمطرت أولاً، ومن ثم ظهــر الثلج الذي غطى الأرض بسماكة نصف إنش، فانكسرت أغــصان الــشجر، وانقطعــت أسلاك الكهرباء، وانهارت سقوف الرُّواقات الخارجية. كان الخارج مغموراً بصفحة صافية وبرّاقة من الورنيش إن صح التعبير.

وعــندما سمع أطفالي أن الطرقات متجمّدة والمدرسة مقفَلة، بدأوا يقفــزون في أرجاء المنــزل ويهتفون ويصفّرون، وركضوا إلى الخارج ليشاهدوا الثلج ببيجاماتهم.

"عـــودوا إلى المنـــزل وانتعلوا أحذيتكم!". صرختُ عبر الباب، ولكـــن أحـــداً منهم لم يمتثل. فاتصلت بالآنسة سيليا لأقول لها إنني لا أســـتطيع القيادة على الثلج، ولأتحقق مما إذا كانت لديها كهرباء. فبعد أن صاحت في وجهي يوم أمس كما لو أنني زنجية في الطريق، لا بد من أنكم تعتقدون أنني لم أعد مهتمّة لها على الإطلاق.

وعندما اتصلتُ، سمعتُ، "ألو".

فخفق قلبـــي بقوة.

"من المتكلم؟ من يتصل؟".

أنهـــيت المكالمة الهاتفية بحرص شديد. لم يكن السيد جوني في عمله أيضاً في ذلك اليوم، و لم أدرِ كيف تمكّن من بلوغ منـــزله وسط العاصفة. فكل ما كنت أعرفه هو أنني لم أستطع الكف عن الخوف من ذلك الرجل حتى في يوم العطلة. ولكن، كل شيء كان سينتهي بعد أحد عشر يوماً.

لقـــد ذاب الـــثلج في معظم أنحاء المدينة في يوم واحد. و لم تكن الآنـــسة ســـيليا على السرير عندما دخلتُ. كانت جالسة إلى طاولة المطبخ البيضاء تحدّق إلى خارج النافذة، وعلى وجهها نظرة حزينة كما لو أن حياتها باتت جحيماً لا يُطاق، وتنظر إلى شجرة الميموزا الرازحة تحت عبء الثلج. لقد تحطمت نصف أغصانها، وغدت أوراقها الطويلة والنحيفة بنّية اللون ومُشبَعة بالماء.

قالت، من دون أن تنظر إليّ: "صباح الخير، يا ميني".

فأومـــأتُ برأسي. لم يكن لديّ ما أقوله لها، ولا سيما بعد طريقة معاملتها لي قبل يومين.

قالت الآنسة سيليا: "يمكننا أخيراً وضع حد لذلك الأمر القبيح".

"تفـــضلي. ضعي حدّاً لكل شيء". ضعي حدّاً لعملي من دون أي سبب.

فنهــضت الآنسة سيليا، ودنت من حوض الغسيل حيث أقف، وأمسكت ذراعي بإحكام. "آسفة لأنني صحت في وجهك". وترقرقت عيناها بالدموع عندما قالت ذلك.

"أمم – همم".

"كنت مريضة وأعلم أن لا عُذر لديّ للقيام بذلك، ولكنني كنت أشــعر أنني معتلّة الصحة حقاً، و...". وشهقَت بالبكاء بعد ذلك كما لو أن الصراخ في وجه خادمتها هو أسوأ أمر قامت به في حياتها.

قلت: "حسناً، لا شيء يستدعي ذلك".

عانقــتني بعد ذلك بقوة لدرجة أنني ربّتّ على ظهرها، وأبعدتُ يديها عن عنُقي. قلت: "هيا، اجلسي، سأُعدّ لك بعض القهوة".

أعتقد أن الغضب يعترينا كلنا عندما نشعر أننا لسنا بخير.

في يــوم الاثنين التالي، غدت أوراق شجرة الميموزا تلك سوداء كما لو أنها محترقة. فدخلتُ المطبخ لأخبرها بعدد الأيام المتبقية، ولكن الآنسة سيليا كانت تحدّق إلى الشجرة، وفي عينيها بُغض لها على غرار بغضها لجهاز الطهو. كانت شاحبة اللون، ولم تأكل أي شيء وضعتُه أمامها.

وأمضت يومها كله تزيّن شجرة الميلاد البالغ ارتفاعها عشر أقدام في الــرّدهة، بدلاً على من الاستلقاء على السرير، جاعلةً حياتي جحيماً مع كل تلك الأوراق إبرية الشكل المتناثرة في أرجاء الغرفة. وخرجَت مــن ثم إلى الفناء الخلفي، وبدأت بتقليم شجيرات الورد وقلب التربة حــول بصلات الخُزامى. لم يسبق لي أبداً أن رأيتها تتحرك بهذا القَدر. ودخلَــت بعــد ذلــك للحصول على درس في الطهو، والتراب تحت أظافرها، ولم تكن تبتسم.

قلت: "ستة أيام أخرى قبل أن نخبر السيد جوني".

فلم تقل شيئاً للحظة، وانخفض صوتها بعد ذلك كما لو أنها تتكلم داخل قدر للطهو. "هل أنت واثقة من أنه يتعيّن عليّ القيام بذلك؟ كنت أفكر في الانتظار قليلاً ربما".

تسمّرتُ في مكاني، ومَخيض الحليب يسيل من يدَيّ. "اسأليني مجدداً عن مدى رغبتي في ذلك".

"حسناً، حسناً". وخرجَت مجدداً، لمزاولة هوايتها الجديدة والمفضَّلة المتمثلة بالتحديق إلى شجرة الميموزا تلك، حاملةً الفأس بيدها. ولكنها لم تُزِل أي قطعة من الشجرة.

كل ما كان في استطاعتي التفكير فيه ليلة الأربعاء، هو تبقّي ست وتسعين ساعة. كنت أشعر بقرصة في معدتي كلما فكرت في أنني قد أجد نفسي بلا عمل بعد الميلاد، وأنه ستكون هناك أمور تقلقني أكثر من قلقي حيال التعرض لطلق ناري وإردائي قتيلة. كان من المفترض بالآنسة سيليا أن تخبره في ليلة الميلاد، بعد مغادرتي، وقبل توجههما إلى منزل والدة السيد جوني. ولكن الآنسة سيليا كانت تتصرف على نحو غريب جداً لدرجة أنني تساءلت عما إذا كانت تحاول إقناعي بإرجاء إخبار زوجها. *لا يا سيدتي*، قلت لنفسي طوال اليوم.

لكن، عندما دخلتُ منزلها في صباح يوم الخميس، لم تكن الآنسة سيليا موجودة، ولم أصدّق أنها غادرت المنزل. فجلستُ إلى الطاولة، وسكبتُ لنفسي كوب قهوة.

نظرتُ إلى الفناء الخلفي. كان الطقس مُشمساً ومُشرقاً. فشجرة الميموزا السوداء تلك قبيحة بلا شك، وتساءلتُ عن سبب عدم قيام السيد جوني بقطعها.

انحنيتُ أكثر باتجاه عتبة النافذة. "انظري إلى تلك الأشياء". كانت هناك بعض سُعف النخيل الخضراء التي استعادت تألّقها تحت أشعة الشمس.

"تبدو تلك الشجرة كأبوسوم أميركي".

أخـــرجتُ إضـــمامة ورق من محفظة يدي حيث أحتفظ بلائحة الحاجيات التي يتعيّن شراؤها للآنسة سيليا ولي أيضاً، كالبقالة، وهدايا الميلاد، وأغراض لأطفالي. كانت وطأة الرَّبو قد خفّت قليلاً على بِيني، ولكـــن ليروي عاد إلى المنـــزل في الليلة السابقة تفوح منه مجدداً رائحة شـــراب. لقد دفعني بقوة، وصدمتُ فخذي بطاولة المطبخ. فقررت أن أُعـــدّ لـــه شطيرة بُرجُمة للعشاء إذا عاد في ليلة ذلك اليوم على هذه الحال.

اثنان وسبعون ساعة إضافية وأتحرر من هذا القَيد. قد أُطرد ربما، وقد أخرّ ميتة بعد أن يكتشف السيد جوني الأمر، ولكنني أبقى حرة.

حاولت التركيز على بقيّة أيام الأسبوع، إعداد الوجبات الكبيرة في اليوم التالي، وإعداد العشاء لدار العبادة مساء السبت، وتنظيفها يوم الأحـــد. ولكـــن، متى أنظف منـــزلي؟ وأغسل ملابس أطفالي؟ فابنتي البكـــر، شوغر، في السادسة عشرة من عمرها وتجيد ترتيب المنـــزل، ولكـــنني أحـــب أن أساعدها في نهايات الأسبوع لأن والدتي لم تكن تـــساعدني أبـــداً على القيام بذلك. وهناك آيبيلين، لقد اتصلت بـــي مجـــدداً في اللـــيلة السابقة، وسألتني عما إذا كنـت سأساعدها والآنسة ســـكيتر علـــى تأليف الكتاب. أحب آيبيلين، أنا أحبها حقاً، ولكنني كنت أعتقد أنها ترتكب خطأً فادحاً لأنها وثقت بسيدة بيضاء البشرة. فأخـــبرتها أنهـــا تجـــازف بعملها وسلامتها، ناهيكم عن سبب قيامها بمساعدة إحدى صديقات الآنسة هيلي.

يا الله، من الأفضل لي الاحتفاظ بعملي.

أضفت الأناناس إلى اللحم المقدَّد، وأدخلته إلى جهاز الطبخ. بعد ذلـــك، رفعـــت الغبار عن الرفوف في غرفة الصيد، ونظّفت بالمكنسة

الكهربائية الدب الذي كان يحدّق إليّ كما لو أنني وجبة طعام سريعة. "أنت وأنا فقط اليوم". قلت له. و لم يقل شيئاً كالعادة. والتقطتُ خِرقة وصـــابونة، وصـــعدت السلّم، ولمّعت كل أعمدة الدرابزين. وعندما وصلت إلى الأعلى، توجهت إلى غرفة النوم رقم واحد.

لقـــد نظفت الطابق العلوي خلال ساعة من الزمن تقريباً. فالطقس بارد هناك بسبب عدم وجود أي أجساد لتدفئة المكان. كنت أمدّ يدي إلى الأمـــام والـــوراء على كل ما هو خشبـــي. وبين الغرفتين الثانية والثالثة، نـــزلت إلى الطابق السفلي لتنظيف غرفة نوم الآنسة سيليا قبل عودتها.

لقد انتابني ذلك الشعور الغامض بالخوف كوني في منـــزل فارغ. أيـــن ذهبَت؟ فبعد كل تلك المدة التي أمضيتها بالعمل هناك، لم تغادر المنـــــزل إلا ثـــلاث مرات، وكانت في كل مرة تطلعني على موعد مغادرتهـــا، والمكان الذي تقصده، وسبب مغادرتها، كما لو أنني أهتم بذلك. ولكنها ذهبت كالريح هذه المرة، وكان يجب أن أكون سعيدة لأن تلـــك المغفّلـــة غـــير موجودة. ولكنني شعرت أنني دخيلة بسبب وجـــودي هناك بمفردي. فنظرت إلى البطانية الصوفية الصغيرة زهرية اللـــون الـــتي تغطي بقعة الدم أمام باب الحمّام، وقررت القيام بمحاولة أخـــرى في ذلك اليوم لإزالتها. ولفح هواء بارد في الغرفة، كما لو أن شبحاً يمرّ فيها، فارتجفتُ.

فكّرت في عدم العمل على بقعة الدم تلك في ذلك اليوم.

علـــى الـــسرير، كانت الأغطية مرميّة جانباً كالعادة، والملاءات ملـــتوية وموضوعة بالاتجاه غير الصحيح. كان يبدو الأمر على الدوام كما لو أن مباراة في المصارعة قد جرت هناك. وكففتُ عن التساءل. أنـــتم تـــبدأون بالتـــساؤل عن الأشخاص الذين ينامون على السرير، وتجدون أنفسكم تتدخلون في شؤونهم الخاصة تلقائياً.

فجـــرّدتُ إحدى الوسادات من غطائها. كانت مَسكَرة الآنسة ســـيليا قد تركت آثارها في كل مكان من الغطاء على صورة فراشات فحـــم خـــشبـــي. ووضعتُ الملابس المرميّة على الأرض داخل غطاء الوسادة ليسهل حملها. والتقطت بنطال السيد جوني المطويّ عن المتكأ الأصفر.

"الآن، كـــيف يُفترض بـــي أن أعرف أن هذا البنطال نظيف أم متـــسخ؟". فوضـــعته في الكـــيس على كل حال لأن شعاري في تدبّر شؤون المنـــزل هو؛ عندما ترتابون بنظافة شيء ما، اغسلوه.

وحملـــتُ الكـــيس ووضعته على المكتب. لقد شعرت بحريق في الرضّـــة علـــى فخذي عندما انحنيت لالتقاط جوارب حريرية خاصة بالآنسة سيليا.

"من أنت؟".

وألقيتُ الكيس.

مـــشيتُ إلى الوراء بهدوء حتى اصطدمت مؤخرتي بالمكتب. لقد كان واقفاً هناك عند مدخل الباب ينظر إليّ مضيِّقاً عينيه. ونظرتُ ببطء شديد إلى الفأس المتدلية من يده.

آه، يـــا الله. لم يكن في استطاعتي الوصول إلى الحمّام لأن السيد جوني قريب جداً ويمكنه قطع الطريق عليّ. ولم يكن في إمكاني تخطيه للخـــروج من الباب إلا إذا لكمته، ولكن الرجل يحمل فأساً. وشعرت برأسي ينبض وانتابني ذُعر شديد. كنت في موقف حرِج.

حدّق السيد جوني إليّ، وهزّ الفأس قليلاً، وأمال رأسه وابتسم.

فقمتُ بالشيء الوحيد الذي يمكنني القيام به. لقد غضّنت وجهي بأفضل طريقة ممكنة ومددتُ شفتيّ إلى الأمام وصرخت: "*من الأفضل لك ولفأسك أن تبتعدا عن طريقي*".

نظر السيد جوني إلى الفأس كما لو أنه نسيها، ورفع نظره إليّ بعد ذلك. فحدّقنا إلى بعضنا بعضاً للحظات. لم أتحرك وهو لم يتنفس.

اختلس نظرة إلى الكيس الذي سقط على الأرض، ليرى ما الذي أقوم بسرقته. كانت ساق بنطال الكاكي الذي يرتديه ناتئة من الأعلى.

"الآن، إصغِ إليّ". قلت، وانهمرت الدموع من عينيّ. "يا سيد جوني، طلبتُ من الآنسة سيليا أن تخبرك عني. لقد طلبت منها ذلك ألف مرة...".

لكنه استمر في الضحك، وهز رأسه. كان يظن أن قيامه بتقطيعي هو أمر مضحك.

"*إصغِ إليّ فقط*، قلت لها...".

لكنه واصل الضحك في سرّه. "اهدئي، يا فتاة. لن أنال منك". قال. "لقد فاجأتني، هذا كل ما في الأمر".

كنت ألهث وأمهّد الطريق للفرار إلى الحمّام. كان لا يزال يحمل الفأس بيده ويهزّها قليلاً.

"ما اسمك، على كل حال؟".

"ميني". قلت بهمس، وكانت خمس أقدام تفصلني عن باب الحمّام.

"منذ متى تأتين إلى منزلنا، يا ميني؟".

"منذ مدة غير طويلة". وهززت رأسي بما معناه لا.

"*منذ متى*؟".

"منذ... أسابيع قليلة". قلت. وعضضت شفتي. *ثلاثة أشهر*.

فهزّ رأسه. "أعلم أنك تأتين إلى منزلنا منذ مدة أطول".

نظرت إلى باب الحمّام. ما الفائدة من الاختباء في حمّام لا يمكن إقفال بابه؟ وعندما يكون في استطاعة الرجل تقطيع الباب إرَباً بفأسه؟

قال: "أُقسم إنني لست غاضباً".

قلت: "ماذا عن الفأس؟". وصرفت أسناني.

فقلّب عينيه، ومن ثم وضع الفأس على السجادة، وركلها جانباً.

"هيا بنا، لنتحدث في المطبخ".

واستدار، وابتعد. فنظرت إلى الفأس، متسائلةً عما إذا كان يُفترض بي أخذها. كان مجرد النظر إليها يزرع الخوف في نفسي. فدفعتها تحت السرير وتبعته.

في المطبخ، اقتربت شيئاً فشيئاً من الباب الخلفي، وتحققت من المقبض كي أتأكد من أنه غير مقفَل.

قال: "يا ميني، لقد قطعتُ عليك وعداً. من الجيد أنك موجودة هنا".

وراقبتُ عينيه، محاولةً التحقق من أنه لا يكذب. كان رجلاً طويل القامة، وكان بطنه ناتئاً قليلاً من الأمام، ولكنه قوي البنية. "أعتقد أنك ستطردني".

"أطردك؟". قال، وضحك. "أنت أفضل طاهية عرفتها يوماً. انظري ما الذي فعلته بي". ونظر إلى معدته مقطّب الجبين، وكانت قد بدأت بالنتوء إلى الخارج. "تبّاً، لم أتناول طعاماً مماثلاً منذ أيام كورا بلو. عمليّاً، هي التي أشرفت على تربيتي".

فأخذت نفساً عميقاً لأن معرفته بكورا بلو يجعلني في أمان أكبر. "كان أبناؤها وبناتها يذهبون إلى دار العبادة نفسها التي أذهب إليها. أنا أعرفها".

"أنا أفتقدها حقاً". واستدار، وفتح البراد، وحدّق إلى داخله، وأغلقه.

سأل السيد جوني: "متى تعود الآنسة سيليا؟ هل تعرفين؟".

"لا أعرف. أظن أنها قصدت مزيّن الشعر".

"لقد ظننت لمدة قصيرة من الزمن، عندما كنا نتناول طعامك، أنها تعلمت الطهو حقاً. ولكنها في يوم السبت ذاك، وعندما لم تكوني موجودة، حاولَت إعداد البرغر".

وانحنى فوق حافة حوض الغسيل وتنهّد. "لماذا لم تكن تريدني أن أعرف بوجودك؟".

"لا أعلم. لم تخبرني".

فهز رأسه، ونظر إلى العلامة السوداء في السقف التي تسببت بها الآنسة سيليا عندما أحرقت الديك الرومي. "يا ميني، لا أبالي إذا لم ترفع سيليا إصبعاً لبقية حياتها. ولكنها قالت إنها تريد إعداد أشياء لي بنفسها". ورفع حاجبيه قليلاً. "أعني، هل تدركين المآكل التي كنت أتناولها قبل مجيئك؟".

"إنها تتعلم. هي... تحاول التعلم، على الأقل". ولكنني قلت ذلك بقليل من الاستياء. هناك أمور لا يمكنكم الكذب في شأنها.

"لا *أبالي* إذا لم تكن تُجيد الطهو. أريدها هنا فقط". وهز كتفيه.

فرك جبينه بكمّ قميصه البيضاء، وتحققت من سبب اتساخ قمصانه على الدوام. كان رجلاً أبيض البشرة ووسيماً نوعاً ما.

قال: "هي لا تبدو سعيدة، هل أنا السبب؟ هل المنزل هو السبب؟ هل نحن بعيدان جداً عن المدينة؟".

"لا أعرف، يا سيد جوني".

"إذاً، ما الذي يحدث؟". وأسند يديه إلى المنضدة خلفه، وأمسكها بإحكام. "قولي لي فحسب. هل هي". وابتلع بصعوبة: "هل تقابل شخصاً آخر؟".

فحاولـــت ألا أشعر بالأسى عليه، ولكنني لم أتمكن من ذلك لأنه كان أكثر ارتباكاً مني حيال حال الفوضى هذه.

"يـــا سيد جوني، هذا ليس من شأني. ولكن، يمكنني أن أقول لك إن الآنسة سيليا لا تقيم أي علاقة خارج هذا المنـــزل".

فأومأ برأسه قائلاً: "أنت مُحقة. كان سؤالاً غبياً".

حـــدّقتُ إلى الباب، متسائلةً عن موعد عودة الآنسة سيليا إلى المنـــــزل. لم أعـــرف مـــا الذي قد تفعله إذا وجدت السيد جوني هناك.

قـــال: "انظـــري، لا تقولي أي شيء عن التقائك بـــي. سأدعها تخبرني بذلك عندما تكون مستعدة".

وأطلقـــتُ أول ابتسامة حقيقية. "إذاً، أنت تريد مني أن أستمر في عملي؟".

"اهتمي لها. لا أريدها أن تبقى بمفردها في هذا المنـــزل الكبير".

"أجل يا سيدي. بكل سرور".

"لقد مررتُ اليوم لأفاجئها. كنت أريد قطع شجرة الميموزا تلك التي تكرهها كثيراً، واصطحابها بعد ذلك إلى المدينة لتناول الغداء معاً، واختـــيار بعض المجوهرات هديّةً لها بمناسبة الميلاد". وسار السيد جوني نحـــو النافذة، ونظر إلى الخارج، وتنهّد قائلاً: "أظن أنني سأتناول الغداء في مكان ما في المدينة".

"سأُعدّ لك شيئاً. ماذا تريد؟".

فاســـتدار، وابتسم ابتسامة عريضة كما لو أنه فتى صغير. وبدأت أبحث في البراد وأُخرج بعض الحاجيات.

"هـــل تتذكـــرين قطع اللحم التي تناولناها؟". وبدأ بقضم ظفر إصبعه. "هل تُعدّين لنا بعضاً منها هذا الأسبوع؟".

"ســـأُعدّها لكم للعشاء هذا المساء. لدينا بعض منها في الثلاجة. وسأُعدّ لكم الدجاج وكرات العجين المطبوخة لمساء غد".

"آه، كانت كورا بلو تُعدّ لنا تلك الوجبات".

"اجلـــس هناك إلى الطاولة وسأُعدّ لك شطيرة بـــي أل تي لذيذة تأخذها معك في الشاحنة".

"وتحمّصين الخبز أيضاً؟".

"بالطبع. لا يمكننا الحصول على شطيرة ملائمة بخبز عادي. وبعد ظهـــر هـــذا اليوم، سأُعدّ إحدى أشهر كعكات ميني بالكاراميل. وفي الأسبوع التالي، سنُعدّ لك سمكة سلّور مقلية".

وأخـــرجتُ لحماً مملّحاً ومقدّداً لأعدّه للسيد جوني كوجبة غداء، إضـــافةً إلى مقلاة. كانت عينا السيد جوني صافيتين وواسعتين، وكل جـــزء مـــن وجهه يبتسم. فأعددتُ له الشطيرة ولففتها بورق مشمَّع. أخيراً، لقد شعرت بالرضى لأنني أُطعم شخصاً ما.

"يا ميني، أريد أن أسأل، بما أنك كنتِ موجودة هنا... ما الذي تفعله سيليا طوال اليوم؟".

فهـــززت كتفيّ. "لم يسبق لي أن رأيت امرأة بيضاء البشرة تلازم منـــزلها كما تفعل. فمعظمهنّ دائمات الانشغال، ويخرجن من المنـــزل لأمر ما، ويتصرّفن كما لو أنهنّ أكثر انشغالاً مني".

"هـــي بحاجة إلى بعض الصديقات. لقد سألتُ صديقي ويل إذا كان في استطاعته إقناع زوجته بالقدوم إلى هنا وتعليمها لعبة البريدج، وانتـــسابها إلى مجموعة من اللاعبات. أعرف أن هيلي تتزعّم كل هذه الأمور".

فحـــدّقت إلـــيه، وتسمّرتُ في مكاني، ربما لم يكن ما أفكر فيه صحيحاً. أخيراً، سألت: "تتحدث عن الآنسة هيلي هولبروك تلك؟".

"هل تعرفينها؟". سأل.

"أمم – همم". وشعرت بغصّة قي حلقي لفكرة قيام الآنسة هيلي بالتسكّع في هذا المنزل، واكتشاف الآنسة سيليا الأمر الشنيع والمروِّع. من غير الممكن أن تغدو هاتان المرأتان صديقتين. ولكنني كنت أراهن على أن الآنسة هيلي ستقوم بأي شيء لأجل السيد جوني.

"سأتصل بويل هذا المساء وأسأله مجدداً". وربّت على كتفي، ووجدت نفسي أفكر في تلك الكلمة مجدداً، *الحقيقة*. فكما أخبرت آيبيلين الآنسة سكيتر بكل شيء، فإنه سيُقضى عليّ إذا ظهرت حقيقتي. لقد قاومتُ من لم يكن عليّ مقاومته.

"سأعطيك رقم هاتفي في المكتب. اتصلي بي إذا واجهتك أي مشكلة، اتفقنا؟".

"أجل يا سيدي". قلت، وشعرت أن هلعي من كشف الحقيقة أزال كل ارتياح أحسست به اليوم.

الآنسة سكيتر

الفصل الحادي عشر

كـــان معظم البلد يمرّ عملياً بفصل الشتاء، ولكن صرير الأسنان، وفرك الأيدي لا يتوقفان أبداً في منـــزل والدتي. لقد ظهرت علامات حلـــول الربيع باكراً جداً، وأصيب والدي بالاضطراب المرافق لعملية زراعـــة القطـــن، وكـــان عليه استئجار عشرة عمال حقول إضافيين للحراثة وقيادة الجرّارات لزرع البذور. وكانت والدتي تطالع مجلة *تقويم المزارع* من دون أن تكون مهتمة بالزراعة، فنقلت إليّ النبأ السيّئ ويدها على جبينها.

"يقولـــون إن هـــذا العـــام سيكون الأكثر رطوبة منذ أعوام". وتنهدَت. ولم يؤدِّ الشينالايتر دوره المطلوب بعد أن استعنتُ به مرات قلـــيلة. "سأشتري المزيد من صفائح الرذاذ الجديد ذات النوعية الممتازة من متجر بيمون".

ورفعَـــت نظـــرها عن المجلة، ونظرت إليّ، مضيّقةً عينيها. "لأي سبب ترتدين هذه الملابس؟".

كنت أرتدي جوربين قاتمي اللون وفستاني الأكثر قتامة. وجعلني الـــشال الأســـود فوق شعري أبدو ربما شبيهة ببيتر أوتول في *لورنس*

العـــرب أكثـــر منه بمارلين ديتريش. وكانت الحقيبة المدرسية الحمراء والقبيحة متدلّية عن كتفي.

"عليّ القيام ببعض المهام هذا المساء. وسألتقي بعد ذلك... بعض الفتيات في دار العبادة".

"في ليلة سبت؟".

"يا أمي، لا يهم في أي يوم نـــزور دار العبادة". قلت، وتوجهتُ إلى السيارة قبل أن تطرح مزيداً من الأسئلة. كنت ذاهبة في تلك الليلة إلى منـــزل آيبيلين لإجراء أول مقابلة معها.

كان قلبـــي يخفق بسرعة كبيرة، وقدت بأقصى سرعة ممكنة على طرقات المدينة المعبَّدة، متجهةً إلى الناحية الخاصة بذوي البشرة الملوّنة. لم يـــسبق لي أن جلست إلى الطاولة نفسها مع زنجية لا تتقاضى أجراً لقاء عمل تؤدّيه لي. لقد أُرجئت المقابلة لمدة شهر بسبب حلول الأعياد واضطرار آيبيلين إلى العمل حتى وقت متأخر من كل ليلة تقريباً، مغلّفةً الهدايا ومُعِدّةً وجبات الطعام استعداداً لحفلة الميلاد في منـــزل إليزابيت. وفي كانـــون الـــثاني/ينايـــر، بدأت أشعر بالذُّعر لأن آيبيلين أُصيبت بالإنفلونـــزا، وقد يؤدّي طول انتظار السيدة شتاين إلى فقدان اهتمامها بالموضوع، أو نسيان سبب موافقتها على قراءة محتوى المقابلة.

قدتُ الكاديلاك عبر الظُلمة، وسلكتُ جادة جيسوم أفونيو، وهو الشارع الذي تقطن فيه آيبيلين. كان من الأفضل لي الذهاب بالشاحنة القديمـــة، ولكن من شأن ذلك أن يحمل والدتي على الارتياب، ناهيكم عـــن أن والدي يستخدمها في الحقول على كل حال. وكما خططنا، توقفت على بعد ثلاثة منازل من منـــزل آيبيلين، أمام منـــزل مهجور. كـــان الرُّواق الخارجي الأمامي للمنـــزل المخيف متدلّياً، والنوافذ بلا زجـــاج. فخرجتُ من السيارة إلى الظُلمة، وأقفلت الأبواب، ومشيت

بسرعة، مُبقية رأسي مطأطأً، ولكن كعبي حذائي كانا يُصدران صوتاً على الأرض المرصوفة.

ونبح كلب، فسقطت مفاتيحي على الأرض وصلصلَت. فألقيت نظرة سريعة حولي، والتقطتُها بعد ذلك. كانت هناك مجموعتان من ذوي البشرة الملوّنة جالسين تحت أروقتهم الخارجية، يراقبون ويتأرجحون. لم تكن هناك مصابيح كهربائية في الشارع، لذلك يصعب التوقع بما إذا شوهدتُ من قِبل أشخاص آخرين. وواصلتُ السير، شاعرةً بعدم القدرة على تفادي الأنظار على غرار سيارتي الكبيرة والبيضاء.

وبلغتُ منزل آيبيلين الذي يحمل الرقم خمسة وعشرين. فألقيت نظرة أخيرة حولي، متمنّيةً لو أنني لم أصل قبل الموعد بعشر دقائق. لقد بدت الناحية الخاصة بذوي البشرة الملوّنة بعيدة جداً، في حين أنها لا تبعد في الواقع سوى أميال قليلة عن الناحية الخاصة بذوي البشرة البيضاء.

قرعتُ الباب بهدوء. فسمعتُ وقع خطى، واقترب شخص في الداخل من الباب، وفتحت آيبيلين. "هيا ادخلي". قالت، هامسة، وأغلقته ورائي على الفور وأقفلته.

لم يسبق لي أن رأيت آيبيلين بملابسها غير البيضاء. أما في تلك الليلة، فكانت ترتدي فستاناً أخضر مع شريط تزييني أسود عند أطرافه. ولفتني واقع أنها بدت أطول قامة منّي في منزلها.

"تصرّفي بحرّية. سأعود بسرعة".

كانت الغرفة الأمامية تحتوي على لمبة واحدة، وكانت مظلمة ومليئة بالأغراض البنّية وبالظلال، والستائر مُسدَلة ومثبّتة بدبابيس بحيث لا نستطيع رؤية أي ثغرة بينها. لم أعلم ما إذا كانت الستائر

مُسدَلة على الدوام أم أن آيبيلين أسدلتها لأجلي. وجلستُ على الأريكة الضيقة. كانت هناك طاولة صغيرة خشبية عليها غطاء مخرَّم باليد، والأرضيات عارية. فتمنّيتُ لو أنني لم أرتدِ هذا الفستان غالي الثمن.

بعد دقائق قليلة، عادت آيبيلين مع صينية يوجد عليها إبريق شاي وكوبان غير مماثلين، وفوَط مائدة ورقية مطويّة على صورة مثلّثات. وشممتُ رائحة الكعك بالقِرفة الذي أعدّته. فصلصل أعلى الإبريق بينما كانت تسكب الشاي.

"آسفة". قالت، وأمسكَت بأعلى الإبريق. "لم يسبق لشخص أبيض البشرة أن دخل منزلي من قبل".

فابتسمتُ بالرغم من عِلمي أنها لم تقل ذلك على سبيل الفكاهة. وتناولتُ رشفة شاي كان يميل إلى المرورة. "شكراً لك". قلت. "الشاي لذيذ".

وجلسَت وثنت يديها في حضنها، ونظرت إليّ بترقّب.

"أعتقد أننا سنمهّد للموضوع قبل الدخول مباشرةً في صلبه وطرح الأسئلة". قلت. وأخرجتُ مفكّرتي وراجعتُ الأسئلة التي أعددتها. لقد بدت لي فجأةً أسئلة غير احترافية.

"اتفقنا". قالت. وجلسَت بشكل مستقيم، واستدارت نحوي.

"حسناً، في البدء، أمم، متى وأين وُلدتِ؟".

فابتلعت ريقها، وأومأت برأسها. "عام 1909، في مزرعة بييمون في مقاطعة شيروكي".

"هل كنت تعلمين، عندما كنت طفلة وفي طور النموّ، أنك ستصبحين خادمة ذات يوم؟".

"أجل يا سيدتي. أجل. كنت أعرف ذلك".

فابتسمتُ، وانتظرتُ بعض الشرح. ولكن لم تُضف شيئاً.

"وكنت تعرفين ذلك... لأن...؟".

"والدتي كانت خادمة، وجدتي عبدة منــزل".

"عــبدة منـــزل. أه - هاه". قلت، ولكن كل ما قامت به هو الإيمــاء برأسها، وبقيت يداها مثنيّتين في حضنها تراقب الكلمات التي أدوّنها.

"هل... حلمتِ يوماً أن تكوني شخصاً مختلفاً؟".

"لا". قالـــت: "لا يـــا سيدتي". وكان هناك هدوء تام مكّنني من سماع أنفاس كلينا.

"حـــسناً. إذاً... كيف يبدو أمر تربية طفل أبيض البشرة في حين أن طفلـــك الوحيد في المنــزل...". وابتلعتُ ريقي، مُحرَجة من طرح السؤال وتابعت: "... يقوم شخص آخر بالاعتناء به؟".

"يـــبدو...". وظلـــت جالـــسة بشكل مستقيم كما لو أن هذه الوضـــعية تتـــسبب لها بالألم. "أمم، ربما... يمكننا الانتقال إلى السؤال التالي".

"آه، حـــسناً". وحدّقتُ إلى أسئلتي. "ما أكثر ما تحبينه في كونك خادمة، وما الذي تحبينه أقل من سواه؟".

فـــرفعت نظرها إليّ كما لو أنني طلبت منها تعريف الأمر بكلمة قذرة.

"أظـــن... أظـــن أنني أحب الاعتناء بالأطفال أكثر من أي شيء آخر". قالت همساً.

"هل تريدين إضافة... أي شيء... عن الأمر؟".

"لا يا سيدتي".

"يا آيبيلين، ليس عليك أن تناديني *سيدتي*. ليس هنا".

"أجل يا سيدتي. آه، آسفة". وغطّت فمها.

وسُــمعت أصوات عالية في الشارع، فاتجهت أنظارنا إلى النافذة، وكــنا لا نــزال هادئتين تماماً. ما الذي قد يحدث إذا اكتشف شخص أبيض البشرة أنني موجودة هناك في مساء يوم الأحد، أتحدث إلى آيبيلين بملابسها العادية؟ هل سيتصلون بالشرطة للإبلاغ عن اجتماع مشبوه؟ لقد شعرت فجأةً أنني على يقين تام أنهم سيقومون بذلك، ويتم اعتقالنا لأن هذا ما يقومون به، ويتهموننا بانتهاك الدمج العنصري. كنت أقرأ عــن الأمــر في الــصحيفة طوال الوقت. كانوا يحتقرون ذوي البشرة البيضاء الذين يلتقون بذوي البشرة الملونة لمساعدتهم في حركة الحقوق المدنــية. فلقاؤنا لا علاقة له بالدمج العنصري، ولكن، ما سبب لقائنا؟ فتمنّيت لو أنني أحضرت معي أي رسالة من رسائل الآنسة ميرنا لتبرير موقفي.

ورأيــتُ علــى وجــه آيبــيلين خوفاً صريحاً وصادقاً. وتبددت الأصوات التي سُمعت على الطريق ببطء. فتنهّدتُ ولكن آيبيلين بقيت متوترة الأعصاب، محدّقةً إلى الستائر.

فنظرتُ إلى لائحة الأسئلة، وبحثت عن شيء ما يخفف من عصبية مزاجها ومزاجي. واستمررت في التفكير في الوقت الذي أضعته.

"وما الذي... كنت تكرهينه في عملك؟".

فابتلعت آيبيلين ريقها بصعوبة.

"أعني، هل تريدين التحدث عن الحمّام؟ أو عن الآنسة ليفولت؟ أي شــيء عن طريقة تسديد أجرك؟ هل صاحت في وجهك يوماً أمام ماو موبلي؟".

وتناولت آيبيلين فوطة مائدة وربّتت بواسطتها برفق على جبينها. وشرعَت بالتكلم، ولكنها ما لبثت أن توقفت.

"لقد تحدّثنا عن الأمر عدة مرات، يا آيبيلين...".

ووضعَت يدها على فمها. "آسفة، أنا". ونهضَت وتوجهت بسرعة إلى الرّدهة الضيّقة. وأُغلق باب أدّى إلى صلصلة إبريق الشاي والكوبين على الصينية.

ومرت خمس دقائق. وعندما عادت، كانت تضع منشفة على وجهها على غرار والدتي عندما تتقيّأ لأنها لم تدخل الحمّام في الوقت المحدد.

"آسفة. ظننت أنني كنت... مستعدة للكلام".

"فأومأتُ برأسي، غير واثقة مما يتعيّن عليّ القيام به.

"أعلم... أنك قلت لتلك السيدة في نيويورك إنني وافقتُ على إجراء المقابلة...". وأغمضَت عينيها. "آسفة. لا أظن أنني قادرة على ذلك. أظن أنني أريد الاستلقاء".

"غداً مساءً. سأجد... طريقة أفضل. لنجرّب مجدداً، و...".

فهزت رأسها، وأمسكت منشفتها بإحكام.

في طريق عودتي إلى المنزل، أردت ركل نفسي لأنني ظننت أنه يمكنني دخول منزلها ببساطة والحصول على إجابات، وأنها كفّت عن كونها خادمة لأننا كنا في منزلها ولا ترتدي اللباس الرسمي.

ونظرت إلى مفكرتي الموضوعة على المقعد الجلدي الأبيض. فبالإضافة إلى المكان الذي ترعرعَت فيه، كانت هناك اثنتا عشرة كلمة فقط، وأربع منها هي *أجل يا سيدتي* ولا *يا سيدتي*.

سمعتُ صوت باستي كلاين عبر أثير إذاعة دبليو جيه دي إكس. وفي أثناء قيادتي على طريق المقاطعة، كانت تغنّي *السير بعد منتصف الليل*. وعندما توقفتُ على الطريق الخاصة بمنزل هيلي، كانت تغني *ثلاث سجائر في منفضة*. لقد تحطمت طائرتها في صباح ذلك اليوم،

والجمـــيع في حـــداد من نيويورك إلى ميسيسيبـــي إلى سياتل، ويغنّون أغنـــياتها. فـــركنتُ الكاديلاك وحدّقتُ عبر النافذة إلى منـــزل هيلي الأبـــيض الفـــسيح. كانت قد مرت أربعة أيام منذ تقيّؤ آيبيلين وسط مقابلتنا، ولم يَردني أي خبر منها.

فدخلتُ. كانت طاولة البريدج مُعَدّة في غرفة الجلوس التي تحمل طابـــع مـــرحلة ما بعد الحرب، إضافةً إلى ساعة جدها المصابة بالصمم والـــستائر الـــتي تحمل نقوش زهور مذهَّبة. كانت جميعهن جالسات؛ هيلي، إليزابيت، ولو آن تامبلتن التي حلّت مكان الآنسة والترز. فلُو آن هـــي إحدى تلك الفتيات اللواتي ترتسم على وجوههن ابتسامة كبيرة على الدوام، ومن دون توقّف. وقد جعلني ذلك أرغب في غرس دبوس مـــستقيم في وجههـــا. فعندما لا تنظرون إليها، تحدّق إليكم مع تلك الابتـــسامة الباردة، كاشفةً عن أسنانها. هي توافق هيلي الرأي بأبسط الأمور.

كانت هيلي تحمل مجلة لايف وتشير إلى إعلان يتناول منـــزلاً في كاليفورنيا. يدعونه *عرينًا* كما لو أن حيوانات برّية تعيش فيه.

"آه، الأمر ليس سيّئاً إلى هذا الحد!". قالت لو آن.

وتظهـــر في الصورة سجادة صوفية خشنة ممدودة من الجدار إلى الجدار، وأرائك انسيابية منخفضة، وكراسٍ على صورة بيضة، وأجهزة تلفزة مماثلة لصحون طائرة. وفي غرفة جلوس هيلي رسم لجنرال اتحادي يبلغ ارتفاعه ثماني أقدام. كان الرسم بارزاً كما لو أن الشخص هو أحد الأسلاف وليس نسيباً لأحدهم.

"منـــــزل ترودي مماثل لذلك المنـــزل". قالت إليزابيت. كنت مـــستغرقة في الـــتفكير في مقابلتي مع آيبيلين لدرجة أنني نسيتُ تقريباً الرحلة التي قامت بها إليزابيت الأسبوع السابق لزيارة شقيقتها الكبرى.

لقــد تــزوجت تــرودي بمدير مصرف وانتقلا إلى هوليوود. فذهبت إليزابيت إلى هناك لمدة أربعة أيام لرؤية منــزلها الجديد.

"حــسناً، إنه ينمّ عن ذَوق سيّئ". قالت هيلي. "لا أقصد إهانة عائلتك، يا إليزابيت".

"كيف كانت هوليوود؟". سألت لو آن.

"آه، كانــت كالحلم. في منــزل ترودي أجهزة تلفزة في كل غــرفة، وذلــك الأثاث ذو المظهر المستقبلي الذي لا تريدين الجلوس علــيه. لقــد ذهبنا إلى كل هذه المطاعم الخيالية، حيث يتناول نجوم الــسينما الطعــام ويحتسون الشراب. وذات ليلة، دنا ماكس فاكتور نفسه من الطاولة، وتحدّث إلى ترودي كما لو أنهما صديقان قديمان". وهزّت رأسها قائلة: "كما لو أنهما التقيا في متجر للبقالة". وتنهدت إليزابيت.

"حــسناً، لو قمتِ بطرح السؤال عليّ، فأنتِ الأجمل في العائلة". قالــت هيلي. "لا أعني أن ترودي غير جذّابة، ولكنَك تتمتعين بالاتزان والتميّز الحقيقيين".

فابتــسمت إليــزابيت، ولكنها عبست مجدداً. "وعاملة المنــزل موجودة في كل يوم وكل *ساعة*. ليس عليّ رؤية ماو موبلي البتة".

فــشعرتُ بالانقــباض بسبب هذا التعليق، ولكن أحداً غيري لم يلاحظ ذلك كما يبدو. فهيلي تراقب خادمتها، يول ماي، وهي تعيد مــلء الأكواب بالشاي. كانت طويلة القامة، نحيلة، ذات مظهر ملَكي تقــريباً وقوام أفضل من قوام هيلي. ولدى رؤيتها، شعرتُ بالقلق على آيبيلين. كنت قد اتصلت بها مرتين في ذلك الأسبوع من دون تلقّي أي جــواب، وتعــزّز يقــيني أنها تتجنّبني، فارتأيتُ الذهاب إلى منــزل إليزابيت للتحدث إليها سواءً أأحبت ذلك أم لا.

"كنت أفكر في عزف لحن الفيلم السينمائي ذهب مع *الريح* في العام القادم على أن تعود عائداته للحفلة الخيرية". قالت هيلي: "واستئجار منزل فيرفيو الفخم ربما لهذا الحدث؟".

"يا لها من فكرة رائعة!". قالت لو آن.

"آه يا سكيتر". قالت هيلي: "أعلم أنك اضطُررت إلى عدم حضور حدث هذا العام". فأومأتُ برأسي، وارتسمت على وجهي أمارات الأسف. كنت قد ادّعيت إصابتي بالإنفلونزا لتجنّب الذهاب بمفردي.

"لن أستعين بفرقة الروك آند رول مجدداً". قالت هيلي: "التي تعزف موسيقى الرقص تلك بسرعة...".

وربّتت إليزابيت على ذراعي. كانت تضع حقيبة يدها على حضنها. "كدت أنسى إعطاءك هذه الورقة. إنها من آيبيلين، وهو أمر متعلّق بالآنسة ميرنا؟ لقد أبلغتُها أنكما لن تستطيعا عقد اجتماعكما اليوم لأنها أضاعت الكثير من الوقت في كانون الثاني/يناير".

ففتحتُ الورقة المثنيّة. كانت الكلمات مكتوبة بحبر أزرق وبأحرف متصلة.

أعرف كيف أجعل إبريق الشاي يتوقف عن الصلصلة.

"هل هناك من يهتم بكيفية جعل إبريق الشاي يتوقف عن الصلصلة؟". قالت إليزابيت لأنها قرأت محتوى الرسالة.

وتطلّبني الأمر ثانيتين ورشفة شاي مثلّج لأفهم المغزى. "لن تصدّقي مدى صعوبة الأمر". قلت لها.

بعد يومين، جلستُ في مطبخ والدَيّ، منتظرةً هبوط الغسق. فاستسلمتُ لرغبتي الشديدة في التدخين وأشعلتُ سيجارة أخرى بالرغم من أن كبير الأطباء قد ظهر على شاشة التلفاز ليلة اليوم

السابق، وهزّ إصبعه للجميع، محاولاً إقناعنا أن التدخين يقتلنا. ولكن والدتي قالت لي ذات مرة إن تبادل القُبَل باللسان يُعمي البصيرة، وبدأتُ أفكر في وجود مؤامرة كبيرة بين كبير الأطباء ووالدتي للتأكد من عدم حصول أي شخص على بعض المرح.

وفي الثامنة من مساء ذلك اليوم، مشيت باضطراب، وبحرص شديد، في الشارع المؤدي إلى منزل آيبيلين، لأنني أحمل آلة كاتبة من ماركة كورونا يبلغ وزنها خمسين رطلاً. فقرعتُ الباب برِفق، متحرّقةً لسيجارة أخرى لتهدئة حالي العصبية. ففتحته آيبيلين، وانسللت إلى الداخل. كانت ترتدي الثوب الأخضر نفسه مع حذاء أسود رسمي كما في المرة الأخيرة.

فحاولتُ الابتسام كما لو أنني واثقة من نجاح الأمر هذه المرة، وذلك بالرغم مما قالته لي عبر الهاتف. "هل يمكننا... الجلوس في المطبخ هذه المرة؟". سألتُ: "هل لديك مانع؟".

"موافقة. ليس هناك ما يُلفت نظرك، ولكن تعالي إلى الناحية الخلفية".

كان المطبخ بنصف حجم غرفة الجلوس، وأكثر دفئاً منها، وتنتشر فيه رائحة الشاي والليمون. وكان اللينوليوم الأبيض والأسود الذي يكسو الأرضية قد غدا رقيقاً بسبب الفرك، وليست هناك سوى منضدة يوجد عليها طقم شاي صيني.

فوضعتُ الآلة الكاتبة على طاولة حمراء مخدوشة موضوعة تحت النافذة. وبدأت آيبيلين تسكب الماء الساخن في إبريق الشاي.

"آه، لا أريد شاياً، شكراً". قلت، وأدخلت يدي في حقيبتي. "لقد أحضرت معي بضع زجاجات كوكا - كولا إذا كنت تريدين تناول إحداها". لقد حاولتُ إيجاد وسائل تحمل آيبيلين على الشعور بمزيد من الارتياح. أولاً، لا يجب عليّ ألاّ أحملها على الشعور أنها مُلزَمة بخدمتي.

"حـــسناً، ألـــيس ذلك جيداً. لا أتناول الشاي عادةً إلا في وقت متأخر على كل حال". وأحضرَت فتّاحتين وكوبَين، وشربتُ محتويات زجاجتي من القنينة مباشرةً. وحين شاهدتني أقوم بذلك، دفعَت بكوبها جانباً وقامت بالمِثل.

كـــنت قـــد اتـــصلت بآيبيلين بعد أن أعطتني إليزابيت الورقة، واســـتمعتُ بأمل إلى شرح لفكرتها والتي كانت تدوين كلماتها بنفسها وإطلاعـــي مـــن ثم على ما كتبَت. فحاولتُ الظهور بمظهر المتحمسة للفكرة، ولكنني كنت أعلم أنه سيكون عليّ إعادة صياغة كل ما كتبَته وإضاعة مزيد من الوقت. ففكرتُ في أنه قد يكون من الأسهل لها قراءة النص مطبوعاً على الآلة الكاتبة بدلاً من قيامي بقراءته لها، وكان عليّ إخبارها أن الأمر لن ينجح على النحو الذي اقترحَته.

فابتـــسمنا لبعضنا بعضاً. وتناولتُ رشفة كوك، وملّستُ سترتي.

"إذاً...". قلت.

كـــان يوجد أمام آيبيلين مفكرة جُمعت أوراقها بشريط معدني لولبـــي. "تريدينني... أن أبدأ بقراءتها؟".

"بالتأكيد". قلت.

فأخذنا نفَساً عميقاً وبدأت تقرأ بصوت ثابت وهادئ.

"إن الطفل الأول الذي اعتنيتُ به يدعى ألتون كارينغتون سبيرز. كان ذلك عام 1924، وكنت قد بلغتُ للتوّ الخامسة عشرة من العمر. كـــان ألـــتون طفـــلاً طـــويل القامة، هزيلاً، مع شعر أشبه بشُعيرات الذُّرة...".

وبـــدأتُ أطـــبع على الآلة الكاتبة الكلمات التي كانت تلفظها بطريقة إيقاعية ووضوح أكبر مما لو كانت محكيّة. "كانت كل نافذة في ذلـــك المنـــــزل القذر تحمل رسوماً وتحجب النظر، بالرغم من كِبر

حجمـــه ووجـــود مرجة خضراء واسعة. كنت أعلم أن الهواء ملوَّث وشعرت بالغثيان...".

"توقفي قليلاً". قلت. لقد طبعتُ كلمة greem بدلاً من green (خـــضراء). ونفخـــتُ على سائل التصحيح وأعدت طباعة الكلمة. "حسناً، أكملي".

"عـــندما توفيت الوالدة بعد ستة أشهر". قرأت، "بسبب داء في الـــرئة، أبقـــوني في المنـــزل لتربية ألتون حتى انتقالهم إلى ممفيس. لقد أحبـــبت ذلك الطفل وأحبني، وعندها علمت أنني أجيد حمل الأطفال على الشعور بالفخر بأنفسهم...".

لم أكن أريد حمل آيبيلين على الشعور بالإهانة عندما أطلعتني على فكـــرتها، وحاولتُ حثّها على التخلّي عنها عبر الهاتف. "الكتابة ليست بالسهولة التي تظنين، ولن تَجدي وقتاً لذلك على كل حال، يا آيبيلين، ولا سيما مع وظيفة بدوام كامل".

"لا يمكنها أن تكون أصعب من كتابة أدعيتي كل مساء".

كـــان أول أمـــر مـــثير للاهـــتمام قالته لي عن نفسها منذ بدأنا بالمشروع. "إذاً، أنت تُعدّين أدعيتك قبل تلاوتها؟".

"لم يـــسبق لي أن أخبرت أحداً بهذا الأمر، ولا حتى ميني. لقد وجـــدتُ أنـــني قـــادرة علـــى التعبير أكثر عن مشاعري من خلال كتابتها".

"إذاً، هـــذا مـــا تفعلينـــه في نهاية الأسبوع؟". سألتُ. "في وقت الفراغ؟". لقد أحببتُ طريقة عيشها للحياة عندما لا تكون تحت أنظار إليزابيت ليفولت.

"آه لا، أكتب لمدة ساعة واحدة فقط كل يوم، وأحياناً ساعتين. هناك العديد من المرضى في هذه المدينة".

لقد ترك ذلك الأمر أثراً كبيراً في نفسي. إنها مدة أطول من المدة التي كنت أخصصها للكتابة في بعض الأيام. فقلت لها إننا سنجرّب تلك الطريقة لضمان استمرار المشروع.

وأخذت آيبيلين نفَساً، وارتشفت الكوك، وقرأَت.

لقد نهجَت نهجاً معاكساً للنهج الذي اتّبعَته في عملها الأول، عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وتقوم بتنظيف الأواني الفضية من ماركة فرانسيس الأول في منزل الحاكم الفخم. وقرأَت كيف أنها أخطأت في صباح أول يوم لها في العمل عندما سجّلت بشكل خاطئ عدد القِطع الذي يُثبت أنها لم تسرق شيئاً.

"عدت إلى المنزل في ذلك الصباح بعد طردي، ووقفت خارج منزلي مرتدية حذاء العمل الجديد، الحذاء الذي دفعت والدتي ثمناً له ما يوازي قيمة فاتورة كهرباء لمدة شهر. أظن أنني فهمتُ آنذاك معنى الخجل ولونه أيضاً. فالخجل ليس أسود، أو أشبه بالقذارة، كما كنت أعتقد على الدوام. إنه بلون لباس رسمي أبيض قامت والدتك بالكيّ طوال الليل لدفع ثمنه، أبيض لا توجد أي لطخة عليه".

ورفعت آيبيلين نظرها لتتحقق مما أفكر فيه. فتوقفتُ عن الطبع على الآلة الكاتبة. كنت قد توقعتُ أن تكون القصص جميلة وملفتة للانتباه، وأدركتُ أنني قد أحصل على نوعية أفضل من النوعية التي ساومتُ عليها. وتابعَت القراءة.

"... وهكذا، توجهتُ إلى خزانة الملابس والأدراج بلا تردّد، وجرح ذلك الفتى الأبيض الصغير أصابعه بمروحة تلك النافذة بعد عشر دقائق من طلبي منه الابتعاد عنها. لم يسبق لي أن رأيت ذلك الكمّ من الدماء يخرج من شخص، فأمسكت بالفتى وبأصابعه الأربع، ونقلتُه إلى المستشفى المخصص لذوي البشرة الملوّنة لأنني لم أكن أعرف مكان

المســـتشفى المخصص لذوي البشرة البيضاء. ولكن، عندما وصلت إلى هناك، أوقفني رجل ذو بشرة ملونة وقال، *إنه فتى أبيض البشرة!*" كانت مفاتـــيح الآلة الكاتبة تطقطق كالبرَد على السطح، وتقرأ آيبيلين بسرعة مما حملني على تجاهل الأخطاء التي أرتكبها، و لم أكن أوقفها إلا للانتقال إلى صفحة أخرى. وكنت أدفع مجرّ الآلة الكاتبة جانباً كل ثماني ثوانٍ.

"وقلت، *هيا*، فقال، *هل هذه أصابعه البيضاء؟* وقلت، *هيا*، فقال، *من الأفضل لك أن تخبريهم أن ذلك الطبيب ذا البشرة الملونة لن يعالج فتى أبيض في مستشفى لذوي البشرة الملونة*. وبعد ذلك، أمسك رجل شرطة أبيض البشرة بـــي وقال، *انظروا مَن هنا...*".

وتوقفَت، ورفعَت نظرها. وتوقفت الطقطقة.

"ماذا؟ قال رجل الشرطة *انظروا من هنا*، وماذا بعد؟".

"حـــسناً، هـــذا كل ما دوّنته. عليّ اللحاق بالحافلة للذهاب إلى العمل في الصباح".

فـــضغطتُ على مفتاح العودة إلى السطر، وأصدرت الآلة الكاتبة طنيـــناً. فنظـــرتُ وآيبيلين إلى بعضنا بعضاً، وقلتُ لنفسي إن الأمر قد ينجح في الواقع.

الفصل الثاني عشر

في كـــل مساء من أيام الأسبوعين التاليين، كنت أقول لوالدتي إنني خارجة لإطعام الجياع في دار عبادة كانتون البريسبيتارية حيث لا نعرف أحداً لحسن الحظ. كانت تفضّل بالطبع قيامي بالذهاب إلى دار العـــبادة البريسبيتارية الأولى، ولكن والدتي ليست من أولئك اللواتي يجادلن في شأن أعمال الخير، فأومأت برأسها موافقة، وطلبت مني بعد الانفـــراد بـــــي الـــتأكد من غسل يدَيّ جيداً بالصابون بعد انتهاء الزيارة.

وساعةً بعد ساعة، كانت آيبيلين تقرأ في مطبخها ما كتَبَته وأقوم بطبعه على الآلة الكاتبة، فتعددت التفاصيل واتضحت وجوه الأطفال. لقـــد خُيِّب أملي، في بادئ الأمر، لأن آيبيلين تقوم بكتابة معظم النص في حين أن مهمتي تقتصر على التحرير ليس إلا. ولكنني سأقوم بكتابة قصص خادمات أخريات وسيكون عملاً كافياً بالنسبة إليّ، إذا أُعجبت السيدة شتاين بتلك القصة. *إذا أحّبتها*... كنت أجد نفسي أكرر هذه الجملة في رأسي، آملةً في ذلك.

كـــان أســـلوب آيبيلين الكتابـــي واضحاً وصادقاً. لقد أخبرتها بذلك.

"حسناً، انظري إلى من أكتب". وضحكت في سرّها. "لا يمكننا أن نكذب على الله".

كانت قد قطفَت القطن في الواقع طوال أسبوع في مزرعة عائلتي، لونغلــيف، قــبل ولادتي. لقــد زلّ لــسانها ذات مرة وتحدثت عن كونستنتين من دون أن أطلب منها ذلك.

"يـــا الله، في استطاعة كونستنتين تلك، أن تنشد كشخص واقف أمام دار العبادة. فإنشادها يُصيب الجميع بالقشعريرة لدى الإصغاء إلى صـــوتها الحريـــري الناعم، وعندما توقفت عن الإنشاد كان عليها منح طفلتها لـــ...". وكفّت عن الكلام، ونظرت إليّ.

فقالت: "على كل حال".

فآثـــرتُ عـــدم الضغط عليها، وكنت أتمنى أن أسمع منها كل ما تعرفه عن كونستنتين، ولكنني قررت الانتظار حتى انتهاء المقابلات. لم أشأ مفاتحتها بالأمر في تلك المرحلة.

"هـــل توصـــلَت ميني إلى قرار ما؟". سألتُ. "إذا أحبت السيدة شتاين قصتك". قلت الكلمات المعهودة بأسلوب موسيقي: "أرغب في أن تكون المقابلة التالية مُعَدّة وجاهزة".

وهـــزّت آيبيلين رأسها. "لقد سألتُ ميني ثلاث مرات، وهي لا تزال ترفض الأمر. إنها تتمسك بموقفها، وأنا واثقة من أنها لن تبدّله".

فحاولتُ إخفاء قلقي. "ربما يمكنك الطلب من أخريات؟ والتحقق مما إذا كنّ مهتمات بالأمر؟". كنت على ثقة تامة أن آيبيلين تملك حظاً أوفر من حظي لإقناع الأخريات.

وأومـــأت آيبـــيلين برأسها. "هناك أخريات يمكنني عرض الأمر علـــيهنّ. ولكـــن، مـــا المدة التي قد تمضي برأيك قبل أن تعلمكِ هذه السيدة برأيها في شأن القصة؟".

فهززتُ كتفيّ. "لا أعلم. إذا أرسلناه عبر البريد الأسبوع القادم، ربما يصلنا جوابها في أواسط شباط/فبراير. ولكنني لست واثقة بذلك التاريخ".

وأطبقت آيبيلين شفتيها بإحكام، ونظرت إلى صفحاتها. لقد رأيت في عينيها أمراً لم ألاحظه من قبل، بريق حماسة. كنت أهتمّ بأموري الخاصة كثيراً لدرجة أنه لم يخطر ببالي أن تكون آيبيلين متأثرة بقدري في فكرة قيام محررة في نيويورك بقراءة قصتها. فابتسمتُ وأخذتُ نفساً عميقاً، وازداد أملي.

في جلستنا الخامسة، قرأت لي آيبيلين عن يوم وفاة تريلور. لقد قرأت عن كيفية قيام أحد المُشرفين على العمال برمي جسده المهشّم على ظهر بيك أب. "وأنزلوه بعد ذلك في المستشفى الخاص بذوي البشرة الملونة. هذا ما قالته لي الممرضة التي كانت واقفة في الخارج". ولم تبكِ آيبيلين، ولكنها صمتت للحظات في أثناء تحديقي إلى الآلة الكاتبة بينما كانت تحدق إلى البلاط الأسود البالي.

في الجلسة السادسة، قالت آيبيلين: "ذهبت إلى العمل لدى الآنسة ليفولت عام 1960، وكان عمر ماو موبلي آنذاك أسبوعَين". وشعرتُ أن آيبيلين تخطت أزمة الثقة. ووصفَت مبنى حمّام المرأب، وأقرّت بسعادتها بسبب وجودها هناك. فالاستماع إلى آيبيلين أسهل لي من الاستماع إلى هيلي تتذمّر بسبب مشاطرة الخادمة الحمّام نفسه. وقالت لي إنني علّقتُ ذات مرة على قيام ذوي البشرة الملوّنة بالتردد كثيراً إلى دار العبادة، ولم تنسَ ذلك أبداً. فشعرتُ بالانقباض، متسائلةً عن الأمور الأخرى التي قلتها، وغير متنبّهة إلى قيام عاملة المنزل بالاستماع إلى ما أقول أو الاهتمام به.

وقالت ذات ليلة: "كنت أفكر...". ولكنها توقفت.

فـــرفعت نظري عن الآلة الكاتبة، وانتظرتُ. لقد تطلّب الأمر قيام آيبيلين بالتقيّؤ على نفسها لأدرك أنه يتعيّن عليّ منحها الوقت اللازم.

"كنت أفكر في أنه يتعيّن عليّ القيام ببعض القراءة. قد يساعدني ذلك على إتمام كتابتي".

"اقـــصدي مكتـــبة شارع الولاية. لديهم غرفة مليئة بمطبوعات الكتّاب الجنوبيين. فولكنر، أودورا ولتي...".

وســـعلت آيبيلين عن عمد للفت انتباهي. "تعرفين أنه لا يُسمح لذوي البشرة الملونة بدخول تلك المكتبة".

فجلستُ هناك لفترة، شاعرةً بالغباء. "لا يمكنني التصديق أنني نـــسيت ذلـــك". لا بد من أن تكون المكتبة الخاصة بذوي البشرة الملوّنة سيئة جداً. لقد حصل اعتصام في المكتبة الخاصة بذوي البشرة البيضاء منذ بضع سنوات قامت الصحف بنشر أحداثه. وعندما مثل ذوو البـــشرة الملـــوّنة أمام المحكمة، تنحّت الشرطة، مُفسحةً المجال لأفـــراد الجالـــية الألمانية. فنظرتُ إلى آيبيلين وتذكرتُ مرة أخرى المجازفة التي تقوم بها بالتحدث إليّ. "يُسعدني أن أُحضر لك الكتب". قلت.

وأســـرعت آيبـــيلين ال غرفة النوم وعادت حاملة لائحة. "لقد وضـــعتُ علامة على الكتب التي أريدها في المقام الأول. لا أزال على لائحة انتظار دَوري منذ نحو ثلاثة أشهر للحصول على كتاب *قَتل طائر مقلّد* من مكتبة كارفر. لنرَ...".

وشاهدتها تضع علامات تَحقُّق بجانب أسماء الكتب، جوهر ذوي *البـــشرة الملونة* بقلم دبليو دوبوا، قصائد لإميلي ديكينسون، و*مغامرات هاكلبيري فين*.

"لقـــد قرأت مقتطفات من هذه الكتب عندما كنت في المدرسة، ولكـــن لم يتـــسنَّ لي إنهاؤها". واستمرت في وضع العلامات، متوقّفةً للتفكير في الكتاب التالي الذي تريد قراءته.

"تريدين كتاباً ل... سيغموند فرويد؟".

"آه، المجانين". وأومأت برأسها. "أحب قراءة طريقة عمل الرأس. هل حلمتِ يوماً أنك وقعت في بحيرة؟ يقول إنك تحلمين بالطريقة التي وُلـــدتِ بها. كانت الآنسة فرانسز التي عملتُ لديها عام 1957 تملك كل الكتَب".

ولدى بلوغها عنوان الكتاب الثاني عشر، كان عليّ أن أسأل. "يا آيبيلين، كم مضى على رغبتك في قيامك بطلب هذه الكتب منّي؟ ما دمتُ سأُحضرها لك؟".

"مـــنذ مـــدة قصيرة". وهزت كتفَيها. "أعتقد أنني كنت أخشى طلب ذلك منك".

"هل... ظننتِ أنني قد أقول لا؟".

"إنهـــا قواعد ذوي البشرة البيضاء. لا أعرف القواعد التي تتّبعين وتلك التي لا تتّبعين".

ونظرنا إلى بعضنا بعضاً للحظات. "لقد سئمتُ القواعد". قلت.

فضحكت آيبيلين في سرّها ونظرت عبر النافذة، وأدركتُ مدى أهمية هذا البَوح بالنسبة إليها.

طـــوال أربعـــة أيام متواصلة، جلستُ أمام آلتي الكاتبة في غرفة نومي. لقد أصبحت العشرون صفحة من صفحاتي المطبوعة على الآلة الكاتـــبة، والمليـــئة بعلامات الشطب والدوائر الحمراء، واحدة وثلاثين صـــفحة على ورق ستراموور الأبيض. وكتبتُ سيرة موجَزة لحياة ساره روس، الاســـم الذي اختارته آيبيلين، تيمّناً باسم مدرّستها في الصف

السادس التي توفيت قبل سنوات. وضمّنتُ السيرةَ عمرَها، وما كان والداها يعملان لكسب الرِّزق. وأتبعتُ السيرة بقصص آيبيلين كما كتبَتها ببساطة وصراحة.

في اليوم الثالث، نادت والدتي من أسفل الدرَج لتسأل عما أقوم به طوال اليوم، فصحتُ مجيبة، *أطبع بعض الملاحظات للدراسة التي أُعدّها*. وسمعتها تقول لوالدي في المطبخ بعد العشاء: "إنها منشغلة بأمر ما". كنت أحمل كتاباً حول الأمور الدينية في أرجاء المنزل لأجعل روايتي أكثر قابلية للتصديق.

فقرأتُ وقرأتُ، وحملتُ بعد ذلك الصفحات لآيبيلين في المساء، وقامت بالأمر نفسه. فابتسمَت، وكانت تومئ برأسها لدى قراءة الأجزاء المُفرِحة وتنزع نظارة القراءة السوداء بعد قراءة الأجزاء المُحزنة، وقالت: "أعلم أنني كتبتها، ولكنك تريدين حقاً إدخال تعديلات عليها...".

فقلت: "أجل، لقد قمتُ بذلك". ولكنني فوجئتُ بمحتوى تلك القصص، وبالبرادات الملوّنة المختلفة الموجودة في منزل الحاكم الفخم، وبالنساء بيضاوات البشرة اللواتي كنّ يُصبن بسورات غضب طوال عامين بسبب فوط المائدة المتغضّنة، وبالأطفال البيض الذين ينادون آيبيلين *يا أمي*.

عند الثالثة بعد منتصف الليل، وبوجود سائل التصحيح الأبيض في مكانين فقط من الصفحات السبع والعشرين، أدخلتُ المخطوط في مغلف أصفر. كنت قد أجريت في اليوم السابق اتصالاً هاتفياً بعيد المدى بالسيدة شتاين، وقالت سكرتيرتها، روث، إنها في اجتماع، ودوّنَت رسالتي التي جاء فيها أن نص المقابلة في طريقه إليها. ولم يردني أي اتصال هاتفي من السيدة شتاين في اليوم التالي.

فضممتُ المغلف إلى صدري، وذرفت الدموع تقريباً بسبب الإجهاد والارتياب. وأرسلته في صباح اليوم التالي عبر البريد من كانتون، وعدت إلى المنزل واستلقيت على سريري الحديدي القديم، قلقةً في شأن ما سيحدث... *هل ستُعجبها أم لا*. ماذا لو اكتشفت إليزابيت أو هيلي الأمر؟ ماذا لو طُردت آيبيلين، وأُرسلَت إلى السجن؟ فشعرتُ أنني أسقط داخل نفَق لولبي. يا الله، هل سيضربونها كما ضربوا الفتى ذا البشرة الملونة الذي استخدم حمّام ذوي البشرة البيضاء؟ ما الذي أقوم به؟ لماذا أعرّضها لهذا الخطر؟

وخلدت إلى النوم. لقد راودتني أحلام مخيفة في الساعات الخمس عشرة من دون انقطاع.

إنها الواحدة إلا ربعاً، وكنت وهيلي وإليزابيت جالسات إلى طاولة الطعام في منزل إليزابيت ننتظر وصول لو آن. لم يكن لديّ ما أتناوله في ذلك اليوم سوى الشاي المعالِج الذي وصفته لي والدتي، فشعرت بغثيان وبتوتر عصبي. كانت قدمي تهتزّ تحت الطاولة، وقد لازمتني هذه الحال عشرة أيام منذ قيامي بإرسال قصص آيبيلين عبر البريد إلى إلين شتاين. لقد اتصلتُ ذات مرة وقالت روث إنها مرّرت القصص لها قبل أربعة أيام، ولكنني لم أتلقَّ أي إجابة.

"هل صادفتما يوماً أمراً أكثر فظاظة؟". ونظرت هيلي إلى ساعتها، وتجهّم وجهها. كانت المرة الثانية التي تتأخر فيها لو آن بالقدوم. فمن غير المرجَّح أن تستمر في مجموعتنا بوجود هيلي.

ودخلت آيبيلين قاعة الطعام، وبذلتُ جهداً كي لا أنظر إليها لمدة طويلة. كنت أخشى قيام هيلي أو إليزابيت باكتشاف أنني أخفي أمراً ما.

"كفّي عن هزّ قدمك، يا سكيتر. أنت تهزّين كل الطاولة". قالت هيلي.

وتنقلت آيبيلين في أرجاء الغرفة بمشيتها الهادئة من دون الكشف عن أي ارتباك. لقد باتت بارعة في إخفاء مشاعرها.

فخلطت هيلي الورق ووزّعته لاستهلال لعبة روميّ الجنّ. وحاولتُ التركيز على اللعبة، ولكن بعض الوقائع استمرت في التقلّب في رأسي كلما نظرت إلى إليزابيت، كاستخدام ماو موبلي الحمّام في المرأب، عدم تمكّن آيبيلين من الاحتفاظ بغدائها في براد عائلة ليفولت. إنهما من التفاصيل الصغيرة كنت على علم بها.

وقدّمت إليّ آيبيلين كعكة طريّة رفعَتها عن صينية فضية. وملأت كوبي بشاي مثلّج كما لو أننا غريبتان. لقد ذهبتُ إلى منزلها مرتين بعد إرسالي الطرد البريدي إلى نيويورك، وذلك لاسترداد كتب وتسليمها أخرى. كانت ترتدي آنذاك فستانها الأخضر الذي يحتوي على شريط تزييني أسود عند أطرافه، كما كانت تمدّ ساقَيها أحياناً تحت الطاولة. في المرة الأخيرة، أخرجت علبة سكائر مونتكليرز ودخّنت معي في الغرفة. وها هي في منزل عائلة ليفولت تنظف الفتات المتساقط مني بالمِكشطة المصنوعة من الفضة الخالصة التي أهديتها لإليزابيت وراليه بمناسبة زواجهما.

"حسناً، في أثناء انتظارنا، لديّ بعض الأخبار". قالت إليزابيت، وعرفتُ معنى النظرة المرتسمة على وجهها، وإيماءة الرأس المتكتمة، ووضع إحدى يديها على بطنها.

"أنا حامل". وابتسمَت، وارتجف فمها قليلاً.

"رائع". قلت. ووضعتُ أوراقي ولمست ذراعها. كانت تبدو في الواقع كما لو أنها على وشك البكاء. "متى موعد الولادة؟".

"تشرين الأول/أكتوبر".

"حسناً، المسألة مسألة وقت". قالت هيلي، وعانقَتها. "لقد كبرت ماو موبلي عملياً".

فأشعلت إليزابيت سيجارة، وتنهدت. ونظرت إلى أوراقها. "كلنا متحمّسون حقاً".

في أثناء اللعب، تحدثت هيلي وإليزابيت عن أسماء الأطفال. فحاولتُ المشاركة في الحديث. "سندعوه راليه بالتأكيد إذا كان فتى". أضفتُ. وتحدثت هيلي عن حملة وليام الذي كان يُعدّ العدّة لخوض الانتخابات في العام التالي لمنصب سيناتور، علماً أنه لا يتمتع بأي خبرة سياسية. وكنت ممتنّة عندما طلبت إليزابيت من آيبيلين إعداد مائدة الغداء.

ولدى عودة آيبيلين مع سلطة الهُلام، جلست هيلي بشكل قويم على كرسيّها. "يا آيبيلين، لديّ معطف قديم لك وكيس ملابس من منزل السيدة والترز". فربّتت على فمها برفق بفوطة المائدة. "لذلك، اخرجي إلى السيارة بعد الغداء، وخذي كل شيء، اتفقنا؟".

"أجل يا سيدتي".

"لا تنسَي. لا أستطيع القلق في شأنها مجدداً كي لا أنسى إحضارها معي في المرة القادمة".

"آه، أليست بادرة لطيفة من الآنسة هيلي، يا آيبيلين؟". قالت إليزابيت وأومأت برأسها. "اذهبي وأحضري تلك الملابس بعد انتهاء الغداء مباشرةً".

"أجل يا سيدتي".

كانت هيلي ترفع صوتها أضعافاً مضاعَفة عندما تتحدث إلى ذوي البشرة الملونة، وتبتسم لهم إليزابيت كما لو أنها تتحدث إلى أطفال، بالرغم من أنها لا تبتسم لطفلتها. كنت قد بدأت ألاحظ الأمور من حَولي.

وعندما وصلت لو آن تامبلتن، كنا قد تناولنا أطباق القريدس والبرغل وشرعنا بتناول التحلية. كانت هيلي متسامحة على نحو مثير

للدهـــشة، فبالرغم من كل شيء، لقد تأخرَت في القدوم بسبب مهمة متعلقة بالرابطة.

بعـــد ذلـــك، قـــدّمتُ التهنئة إلى إليزابيت مجدداً، وخرجت إلى ســـيارتي. كانت آيبيلين في الخارج تُحضر المعطف الجديد الذي لم يتم ارتداؤه كثيراً منذ العام 1942، إضافةً إلى ملابس قديمة لم تعطها هيلي إلى خادمـــتها، يول ماي، لسبب من الأسباب. وتوجهت هيلي نحوي بخطى واسعة وسلّمتني مغلفاً.

"للنشرة الدَّورية في الأسبوع القادم. ستُدرجين هذه المقالة لأجلي؟".

فأومـــأتُ برأســـي، وعادت هيلي إلى سيارتها. وبينما كانت آيبيلين تفـــتح الـــباب الأمامي لدخول المنـــزل، رمقتني بنظرات سريعة. فهززت رأســـي، ولفظـــتُ عبارة لا شيء، محركةً فمي. فأومأت برأسها ودخلت المنـــزل.

في تلـــك الليلة، عملت على النشرة الدَّورية، متمنّيةً العمل على القصص بدلاً منها. فتفحّصت الملاحظات التي تعود إلى اجتماع الرابطة الأخـــير، ووصـــلت إلى مغلّف هيلي. ففتحته. كان مؤلفاً من صفحة واحدة ومكتوباً بقلم هيلي السميك وخطّه المتجعّد:

هيلـــي هولبروك تقدّم مبادرة تعزيز الصحة المنـــزلية. إنها إجراء وقائي للأمراض. أنشئوا حمّاماً منخفض التكلفة في مرأبكـم أو حظيرتكم إذا لم يكن متوافراً خارج منـــزلكم.

أيتها السيدات، هل تعلمن أن:

- 99 بالمـــئة مـــن كـــل الأمراض التي يصاب بها ذوو البشرة الملوّنة يتم نقلها بالبَول.

- قـــد يـــصاب ذوو البشرة البيضاء بالعجز الدائم بسبب كل هذه الأمراض تقريباً لأننا نفتقر إلى المناعات التي يحملها ذوو البشرة الملونة في بشرتهم الأكثر قتامة.

- قد تكون بعض الجراثيم التي يحملها ذوو البشرة البيضاء مؤذية لذوي البشرة الملونة أيضاً. احمين أنفسكنّ. احمين أطفالكنّ. احمين عاملات المنازل.

من عائلة هولبروك نقول، أهلاً وسهلاً بكم!

ورنّ الهاتف في المطبخ، وتعثّرتُ بقدمَيّ عملياً في أثناء إسراعي للإجابة على المكالمة الهاتفية. ولكن باسكاغولا سبقتني إليه.

"منزل الآنسة شارلوت".

فحدّقتُ إلى باسكاغولا صغيرة الحجم، ورأيتها تومئ برأسها وتقول، "أجل يا سيدتي، هي موجودة". وسلّمتني الهاتف.

"أوجينيا تتكلم". قلت بسرعة. كان والدي في الحقول ووالدتي في موعد في المدينة مع الطبيب، لذلك، مددتُ سلك الهاتف الأسود والملتف وصولاً إلى طاولة المطبخ.

"معك إلين شتاين".

فتنفّستُ بعمق. "أجل يا سيدتي. هل تلقّيتِ طردي البريدي؟".

"أجل". قالت وتنهدت على الهاتف لثوانٍ قليلة.

"أحب قصص ساره روس تلك. تحب سرد ما حدث معها من دون التذمّر كثيراً".

فأومأتُ برأسي.

"ولكنني لا أزال متمسكة برأيي أن كتاب مقابلات... لا يحقق أي نجاح في العادة. لا وجود للقصة الخيالية فيه، ولكنه غير خالٍ تماماً من عامل التخيّل أيضاً. قد يكون أنتروبولوجياً من دون أن يكونَ في الإمكان إدراجه في هذه الفئة بشكل كلّي".

"ولكنك... أحببته؟".

"يا أوجينيا". قالت، زافرةً دخان السيجارة على الهاتف. "هل شاهدتِ غلاف مجلة *لايف ماغازين* هذا الأسبوع؟".

لم أكـــن قد شاهدت غلاف هذه المجلة منذ شهر بسبب انشغالي الكبير.

"مارتن لوثر كينغ، يا عزيزتي. لقد أعلن قيام مسيرة في العاصمة، ودعـــا كـــل زنجي وكل ذي بشرة بيضاء في أميركا للانضمام إليه. لم يعمل هؤلاء الزنوج والبِيض معاً منذ تصوير الفيلم السينمائي ذهب مع *الريح*".

"أجـــل، لقـــد سمعـــتُ ب... حدث... المسيرة". لقد كذبتُ، وغطّـــيتُ عينيّ متمنّيةً لو أنني قرأت الصحيفة في ذلك الأسبوع. لقد بدوتُ كالغبية.

"نـــصيحتي لـــك هـــي أن تكتبـــيه بسرعة. ستُجرَى المسيرة في آب/أغسطس. كان يُفترض بك إنهاء المقابلات في مطلع العام الجديد".

فـــشهقتُ. هـــي تطلب مني أن أكتبه! هي تطلب مني... "هل تقولين إنك ستنشرينه؟ يمكنني إنهاؤه بحلول...".

"لم أقل شيئاً من هذا القبيل". قالت بغضب. "سأقرأه. أراجع مئة مخطوطة في الشهر وأرفضها كلها تقريباً".

"آســـفة، ســـوف... أكتبه فحسب". قلت. "سأنهيه في كانون الثاني/يناير".

"ولـــن تكـــون أربـــع أو خمس مقابلات كافية لوضع كتاب. ســـتكونين بحاجـــة إلى اثـــنتي عشرة تقريباً، وربما أكثر. لقد أعددتِ مقابلات أخرى، كما أفترض؟".

فأطبقتُ شفتيّ بإحكام. "بعض... منها".

"حـــسناً. إذاً اســـتمرّي في عملـــك قبل انفجار مسألة الحقوق المدنية".

* * *

في مساء ذلك اليوم، قصدتُ منزل آبيلين، وسلّمتها ثلاثة كتب إضافية مُدرَجة في اللائحة التي وضعَتها. كان ظهري يؤلمني بسبب الانحناء فوق الآلة الكاتبة. لقد دوّنتُ، بعد ظهر ذلك اليوم، أسماء كل من أعرف أن لديهنّ خادمات، وأسماء الخادمات. ولكنني لم أتذكر بعض الأسماء.

"شكراً لك، آه، يا الله، انظري إلى هذا". وابتسمَت، وفتحَت الصفحة الأولى من كتاب *والدن*، وبدت كما لو أنها تريد الشروع بقراءته.

"لقد تحدثت إلى السيدة شتاين بعد ظهر اليوم". قلت.

فتسمّرت يدا آبيلين على الكتاب. "كنت أعلم أن هناك خطباً ما. لقد رأيت ذلك على وجهك".

وأخذتُ نفَساً عميقاً. "قالت إنها أحبت قصصك كثيراً. ولكنها... لم تقل إنها ستقوم بنشرها حتى إنهاء كل المقابلات". لقد حاولتُ إظهار بعض التفاؤل. "يجب إنهاء المقابلات بعد العام الجديد".

"ولكنها أخبار جيدة، أليس كذلك؟".

فأومأتُ برأسي وابتسمتُ.

"*كانون الثاني/يناير*". همست آبيلين، ونهضَت وغادرت إلى المطبخ، وعادت بروزنامة تعلّق على الجدار. فوضعَتها على الطاولة، وقلّبَت صفحات الأشهر.

"يبدو أننا نملك متّسعاً من الوقت، ولكن شهر كانون الثاني/يناير يقع بعد صفحتين... ثلاث صفحات... أربع صفحات... ست صفحات من تاريخ اليوم. سيحلّ من دون أن نلاحظ ذلك". قالت مبتسمة.

"قالت إنه سيكون علينا إجراء اثنتي عشرة مقابلة على الأقل لتقوم بالاطّلاع عليها". قلت. وبدأ يظهر الانفعال في صوتي.

"ولكــن... لــن تكون لديك أي خادمة أخرى للتحدث إليها، يا آنسة سكيتر".

فأطــبقتُ يــديّ على بعضهما بإحكام، وأغمضتُ عينيّ. "ليس هــناك مــن أسأله، يا آيبيلين". قلت، رافعةً صوتي. كنت قد أمضيت الــساعات الأربع الأخيرة مستغرقةً في التفكير في هذه الحقيقة. "أعني، إلى مــن يمكــنني التحدث؟ باسكاغولا؟ إذا تحدثتُ إليها، ستكتشف والدتي الأمر. لستُ ممن يعرف خادمات أخريات".

فأشـــاحت آيبيلين بنظرها عني بسرعة لدرجة أنني أردت البكاء. *تــبّاً، يا سكيتر*. كنت قد زلّلتُ كل عقبة حالت دون إقناع آيبيلين في الأشـــهر القليلة الماضية، وتمكنتُ من إعادة وصل ما انقطع في غضون ثوانٍ. "آسفة". قلت بسرعة. "آسفة لأنني رفعتُ صوتي".

"لا، لا، لا بأس. من واجبــي تحمّل الآخرين".

"مـــا رأيك ب... خادمة لو آن". قلت بهدوء، مُخرجةً لائحتي. "ما اسمها... لوفينيا؟ هل تعرفينها؟".

فأومأت آيبيلين برأسها. "لقد سألت لوفينيا". كان نظرها لا يزال موجَّهاً إلى حضنها. "تلك التي فقد حفيدها بصره. قالت إنها آسفة جداً وعليها أن تهتم بأمره".

"وخادمة هيلي، يول ماي؟ هل سألتِها؟".

"قالــت إنهـــا شديدة الانشغال في محاولة إدخال أبنائها الكلية في العام القادم".

"هـــل هناك خادمات أخريات يذهبن إلى دار العبادة التي تذهبين إليها؟ هل سألتِهنّ؟".

فأومأت آيبيلين برأسها. "كلهنّ اختلقن أعذاراً. ولكنهنّ خائفات جداً في الواقع".

"ولكن كم عددهنّ؟ كم عدد اللواتي سألِتهنّ؟".

والتقطت آيبيلين مفكرتها، وقلّبت عدداً قليلاً من الصفحات. وتحركت شفتاها بينما كانت تعُدّ بصمت.

"إحدى وثلاثون". قالت آيبيلين.

وأطلقتُ أنفاسي. لم أكن أدرك أنني أحبسها.

"إنه... عدد كبير". قلت.

أخيراً، نظرت إليّ آيبيلين. "لم أكن أريد أن أطلعك على الأمر". قالت، وتغضّن جبينها. "حتى يصلنا خبر من السيدة..." ونزعت نظارتها، فرأيت قلقاً عميقاً في وجهها حاولَت إخفاءه بابتسامة مرتجفة.

"سأسألهنّ مجدداً". قالت، وانحنت إلى الأمام.

"حسناً". قلت، متنهّدة.

فابتلعَت ريقها بجهد، وأومأَت برأسها بسرعة لتُفهمني مدى اهتمامها بالأمر. "رجاء، لا تتخلّي عني. دعيني أبقى في المشروع معك".

فأغمضتُ عينيّ. كنت بحاجة إلى فترة أستريح فيها من رؤية وجهها القلق. كيف أمكنني رفع صوتي في وجهها؟ "يا آيبيلين، اتفقنا. نحن... معاً في هذا المشروع".

بعد أيام قليلة، جلستُ في المطبخ الحار، شاعرةً بالسأم، وأدخّن سيجارة، وهو أمر لم أتمكن من الكفّ عنه في الفترة الأخيرة. فظننتُ أنني *مُدمنة*. هي كلمة يحب السيد غولدن استخدامها. *الأغبياء كلهم مُدمنون*. فقد كان يستدعيني إلى مكتبه من حين إلى آخر، ويراجع مقالات الشهر بقلم أحمر، مهمهماً.

"لا بأس". كان يقول. "أنت بخير؟".

"أنا بخير". أجيب.

"حــسناً إذاً". وقــبل مغادرتي، تسلّمني موظفة الاستقبال البدينة شيكاً بمبلغ عشرة دولارات، وهو مبلغ جيد جداً لحلولي مكان الآنسة ميرنا في العمل.

كان المطبخ حاراً، ولكن، كان عليّ الخروج من غرفتي حيث كل ما أقوم به هو القلق في شأن عدم موافقة خادمات أخريات على العمل معنا. كما وأنه عليّ التدخين في المطبخ لأنها الغرفة الوحيدة في المنــزل تقــريباً الــتي لا تحتوي على مروحة معلّقة في السقف تبدّد الرّماد في الأرجــاء. فعندما كنت في العاشرة من عمري، حاول والدي تركيب مــروحة في السقف الصفيحي للمطبخ من دون أن يسأل كونستنتين. فــسخرَت مــن المــروحة، قائلةً *إن والدي ركن سيارة الفورد على السقف*.

"إنها لك، يا كونستنتين، كي لا تشعري بالحر بسبب وجودك في المطبخ باستمرار".

"لم أعمل أبداً في مطبخ لا يحتوي على مروحة في السقف، يا سيد كارلتون".

"أنا على ثقة أنك ستنعمين بالمروحة. سأصلها بالتيار الآن".

ونــزل والدي عن السلّم. وملأت كونستنتين قِدراً بالماء. "هيا". قالت، متنهّدة: "شغّلها إذاً".

وضــغط والدي على المفتاح الكهربائي، وتطلّب الأمر بضع ثوانٍ لــدوران المروحة بقوة مما أدى إلى تبدّد الدقيق من وعاء المزج في أنحاء الغــرفة، وتطايــر وصــفات الطهو عن المنضدة، واشتعالها بنار جهاز الطهو. فأمسكت كونستنتين بسرعة لفافة ورق الرَّق المشتعلة ووضعتها في دلو ماء. ولا يزال هناك ثقب في السقف حيث بقيت المروحة معلّقة لمدة عشر دقائق فقط.

في الـصحيفة، رأيـت السيناتور ويتوورث يشير إلى قطعة أرض فارغـة حيث كانوا يخططون لبناء كولوسيوم جديد للمدينة، وقلبتُ الصفحة. كنت أكره كل ما يذكّرني بموعدي مع ستيوارت ويتوورث.

ودخلت باسكاغولا المطبخ بخطى خافتة. وراقبتها وهي تقوم بقطع البسكويتات بواسطة كوب ملوَّن. وكانت النوافذ القائمة خلفي مفتوحة علـى مـصراعَيها، ومُـسندة إلى كاتالوغات سيرز، وروباك آند كو، وترفرف في النسيم الصفحات التي تحتوي على إعلانات خلاّطات يدوية يـبلغ ثمـن كل منها دولارَين، وألعاب يمكن طلبها عبر البريد. كانت الأوراق منتفخة ومتجعّدة بسبب تعرّضها للمطر طوال عقد من الزمن.

ربما يُفترض بـي طرح السؤال فحسب على باسكاغولا. قد لا تكتشف والدتي الأمر. ولكن، من الذي أسخر منه؟ فوالدتي تراقب كل خطوة تقوم بها، وتبدو باسكاغولا خائفة مني، على كل حال، كما لو أنـني سأشي بها إذا أخطأت القيام بعمل ما. قد يتطلب الأمر سنوات لاختراق ذلك الخوف، وكان حدسي ينبئني بترك باسكاغولا وشأنها.

ورنّ الهاتـف بطريقة تنذر باندلاع حريق. فضربت باسكاغولا ملعقتها بالقِدر مُحدِثةً رنيناً، والتقطتُ سمّاعة الهاتف قبلها.

"ستقوم ميني بمساعدتنا". همست آيبيلين.

فانسللتُ إلى غرفة المؤونة، وجلست على مستوعَب الدقيق الذي اعـتدتُ الجلوس عليه. لقد فقدت القدرة على الكلام لمدة خمس ثوانٍ.

"متى؟ متى يمكنها البدء؟".

"الخميس القادم. ولكن، لديها بعض... المطالب".

"ما هي؟".

وتوقفت آيبيلين قليلاً. "قالت إنها لا تريد رؤية سيارة الكاديلاك في أي مكان من هذه الناحية من جسر وودرو ويلسون".

"اتفقنا". قلت. "أظن أن في استطاعتي... قيادة الشاحنة".

"وقالت... قالت إن ليس في استطاعتك الجلوس معها على جانب واحد من الغرفة. تريد أن تراك وجهاً لوجه طوال الوقت".

"سوف... أجلس حيثما تريد".

ولان صوت آيبيلين. "هي لا تعرفك حق المعرفة، هذا كل ما في الأمر. كما أنها تملك ماضياً سيّئاً مع السيدات بيضاوات البشرة".

"سأقوم بكل ما يتطلّبني الأمر القيام به".

وخرجتُ من غرفة المؤونة مبتهجة، وعلّقت الهاتف على الجدار. كانت باسكاغولا تراقبني أحمل الكوب الملوّن بيد وبسكويتة باليد الأخرى. فوجّهَت نظرها إلى الأسفل وعادت إلى عملها.

بعد يومين، قلت لوالدتي إنني أشعر بالذّنب لأنني أقود الكاديلاك في حين أن كل أولئك الأطفال الفقراء يتضوّرون جوعاً في أفريقيا، وإنني قررت قيادة الشاحنة القديمة في ذلك اليوم. فنظرت إليّ من الكرسي الهزاز الموضوع في الرُّواق الخارجي، مضيّقةً عينيها. وأومأت برأسها، وراقبتني في أثناء قيامي بتشغيل الشاحنة القديمة.

قدتُ إلى شارع فاريش ستريت، وعلى ظهر الشاحنة حصّادة مروج، وكانت أرضية العربة صدئة. استطعت رؤية لمحات من الرصيف من خلال الأرضية تحت قدمَيّ. ولكنني لم أكن أقطر جرّاراً على الأقل.

وفتحت آيبيلين الباب ودخلتُ. كانت ميني واقفة في الزاوية الخلفية من غرفة الجلوس واضعةً ذراعَيها بشكل متصالب فوق صدرها الكبير. لقد رأيتها مرات قليلة، عندما كانت تسمح هيلي للسيدة والترز باستضافة نادي البريدج في منزلها. كانت ميني وآيبيلين لا تزالان بلباسهما الرسمي الأبيض.

"مرحباً". قلت من جانب الغرفة الذي أقف فيه. "تسرّني رؤيتك مجدداً".

"آنـــسة ســـكيتر". أجابت ميني وأومأت برأسها. وجلسَت على كرسي خشبـــي حملته لها آيبيلين من المطبخ، وأحدث هيكل الكرسي صريراً عندما جلسَت عليه. وجلستُ على الجانب الآخر من الأريكة، في حين جلست آيبيلين على الجانب المقابل بين ميني وبيني.

فتنحـــنحتُ، وأطلقتُ ابتسامة تنمّ عن توتّر. كانت سمينة، قصيرة القامـــة، قـــوية البنـــية، وبشرتها أكثر سواداً من بشرة آيبيلين بعشرة أضعاف، برّاقة ومشدودة كحذاء جديدة محميٌّ ببراءة اختراع.

"ســـبق لي أن أخبرتُ ميني عن كيفية وضع القصص". قالت لي آيبيلين. "أنت تساعدينني على كتابة قصصي، وهي ستخبرك بقصصها، وتقومين بكتابتها".

"ويـــا ميني، كل ما تقولينه هنا يبقى سراً". قلت. "ستتمكنين من قراءة كل ما...".

"مـــا الـــذي يحملك على الظن أن ذوي البشرة الملونة بحاجة إلى مـــساعدتك؟". ووقفت ميني، وأحدث الكرسي صريراً. "لماذا تهتمين بذلك؟ لا سيما وأنك *بيضاء البشرة*".

فنظرتُ إلى آيبيلين. لم يسبق لشخص ذي بشرة ملونة أن تحدث إليّ بهذه الطريقة.

"كلـــنا نعمـــل للأمـــر نفسه هنا، يا ميني". قالت آيبيلين. "نحن نتحدث ليس إلا".

"وما هذا الأمر؟". قالت لي ميني وتابعت: "ربما أردتِ أن أخبرك بكل هذه الأمور لأواجه المتاعب بعد ذلك". وأشارت ميني إلى النافذة قائلة: "ميدغار إيفرز، وهو موظف في أن أيه أيه سي بيي، يعيش على

بعـــد خمس دقائق من هنا، فجّروا له موقف سيارته ليل أمس. وتقولين لي *للتحدث*".

وتوهّج وجهي من شدة الاحمرار. فتكلمتُ ببطء. "نريد أن نُظهر وجهة نظرك... ليتمكن الناس من فهم طريقة رؤيتك للأمور. نحن... نحن نأمل في أن يتمكن ذلك من تغيير بعض الأمور".

"ما الذي تظنين أنك ستبدّلينه بواسطة هذه القصص؟ ما القانون الذي تريدين تعديله بحيث ينصّ على معاملة خادمتك بلطف؟".

"الآن، تمهّلـــي". قلـــت. "أنا لا أحاول تغيير أي قوانين هنا. أنا أتحدث فقط عن المواقف و...".

"تعـــرفين ما الذي سيحدث إذا عرف الناس بأمرنا؟ كيف لي أن أنـــسى تلك الحادثة عندما استخدمتُ فيها عرَضاً غرفة تبديل الملابس الخاطـــئة في متجـــر ملابـــس النساء ماكراو، فصُوّبت *الأسلحة* باتجاه منـــزلي".

وكانـــت هـــناك لحظات صمت وشعور بالحرَج في الغرفة تخلّلها صوت تكتكة ساعة التايمكس بنّية اللون على الرف.

"لـــيس علـــيك القيام بذلك، يا ميني". قالت آيبيلين. "إذا كنت تريدين تغيير رأيك فلا بأس بذلك".

وجلـــست ميني مجدداً على كرسيّها ببطء وحذر. "سأقوم بذلك. أريد التأكد فحسب من أنها تدرك ما يجري. نحن لا نلعب هنا".

فـــرمقتُ آيبـــيلين بنظرات سريعة، وأومأت لي برأسها. فأخذتُ نفَساً عميقاً، وكانت يداي ترتجفان.

وبدأتُ بطرح الأسئلة التمهيدية، وتطرّقنا بطريقة من الطرائق إلى عمـــل ميني. كانت تنظر إلى آيبيلين في أثناء تكلّمها كما لو أنها تحاول أن تنسى أنني موجودة في الغرفة. لقد دوّنتُ كل ما قالته، وكان قلمي

يحـــزّ علـــى الورق بسرعة توازي قدرتي على تحريكه. لقد اعتبرنا أن التدوين لا يحمل طابعاً رسمياً كالطبع على الآلة الكاتبة.

"بعـــد ذلك، تسلّمتُ عملاً كان عليّ الاستمرار فيه حتى وقت متأخر من كل ليلة. وتعلمين ماذا حدث؟".

"مـــا... الذي حدث؟". سألتُ، بالرغم من أنها كانت تنظر إلى آيبيلين.

"آه، يا ميني". صاحت، *"أنت أفضل عاملة منـــزل حصلنا عليها يـــوماً. يـــا ميني الضخمة، سنحتفظ بك للأبد*. وذات يوم، قالت إنها ســـتمنحني إجـــازة مدفوعة لمدة أسبوع. لم يسبق لي أن حصلت على إجـــازة، ســـواءً أكانت مدفوعة أم لا. وعندما عدت بعد أسبوع إلى العمـــل، كانت قد رحلت. لقد انتقلَت إلى موبايل، وأخبرَت إحداهنّ أنها خشيت من أن أجد عملاً جديداً قبل انتقالها. لم يكن في استطاعة الآنـــسة لايـــزي فينغـــرز تمضية يوم واحد من دون وجود خادمة في انتظارها".

ووقفَت فجأةً، ورمت حقيبتها على ذراعها. "عليّ الذهاب. أنت تتـــسببين لي بخفقان سريع في القلب لدى التحدث عن هذه الأمور". وخرجَت، مُغلقةً الباب وراءها بقوة.

فرفعتُ نظري، ومسحتُ العرَق عن صُدغي.

"إنها في مزاج جيد". قالت آيبيلين.

الفصل الثالث عشر

في الأســبوعين التاليين، جلسنا ثلاثتنا في مقاعدنا نفسها في غرفة جلــوس آيبيلين الصغيرة والدافئة. كانت ميني تثور غضباً وتهدأ في أثناء قــيامها بإخبار قصتها لآيبيلين، وتخرج بعد ذلك مغتاظة كما دخلَت. لقد دوّنتُ أكبر قدر من المعلومات.

وعــندما تتطرّق ميني إلى الآنسة سيليا كقولها: "هي تتنقل خلسةً في الطابق العلوي، ظانّةً أنني لا أراها، ولكنني أعرف أن تلك المرأة المجنونة تقوم بأمــر ما هناك". كانت تكتفي بقول القليل على الدوام، كما كانت حال آيبيلين عندما تتحدث عن كونستنتين. "هي ليست جزءاً من قصتي. دعي الآنسة سيليا خارج الموضوع". وكانت تراقبني حتى أتوقف عن الكتابة.

وإلى جانب غضبها الشديد من ذوي البشرة البيضاء، كانت ميني تحــب التحدث عن الطعام. "لنرَ، أضع القرنيات الخضراء أولاً، ومن ثم أســتمر في طهــو قطع اللحم لأنني، أمم - أمم، أحب إخراجها من المِقلاة ساخنة، كما تعلمين".

ذات يــوم، وبينما كانت تقول، "... حاملةً طفلاً أبيض البشرة على ذراع، وواضعةً القرنيات في القِدر...". توقفَت، ومدّت فكّها إلى الأمام، وضربَت الأرض بقدمها.

"لا يحــصل ذوو البشرة الملونة على حقوقهم. نحن نعمل كل يوم بـيومه". وحـدّقت إليّ من رأسي حتى أخمص قدمَيّ. "يبدو لي أنك تكتبين *سيرة حياة*".

فتوقفتُ عن الكتابة. كانت مُحقة. لقد أدركتُ أن هذا ما أريد القيام به. فقلت لها: "آمل ذلك". ونهضَت وقالت إن هناك أموراً أكثر أهمية مما آمل في تحقيقه يتعيّن عليها القلق في شأنها.

* * *

في مـساء اليوم التالي، كنت أعمل في غرفتي في الطابق العلوي، ضـاغطةً علـى مفاتيح آلتي الطابعة من ماركة كورونا. فجأةً، سمعتُ والدتي تصعد السلّم راكضة، ودخلَت غرفتي بعد ثانيتين. "يا أوجينيا!". همسَت.

فوقفتُ بسرعة لدرجة أن كرسيّ ترنّح، محاولةً إبعاد محتويات ما أقوم بطباعته عن أنظارها. "أجل يا سيدتي؟".

"لا تهلعـي، ولكـن هناك رجلاً... رجلاً طويل القامة جداً في الطابق السفلي يريد رؤيتك".

"من هو؟".

"قال إن اسمه ستيوارت ويتوورث".

"ماذا؟".

"قـال إنكما أمضيتما أمسية معاً منذ مدة قصيرة، ولكن، كيف يمكن لذلك أن يحدث، لم أعرف بالأمر...".

"يا الله".

"لا تقـولي هـذا يا أوجينيا فيلان عبثاً. ضعي بعض أحمر الشفاه فقط".

"صدقيني يا أمي". قلت، ووضعتُ أحمر الشفاه على كل حال.

ومشّطتُ شعري لأنني عرفتُ أنه مروّع. وغسلتُ كذلك حبر الآلة الطابعة وسائل التصحيح عن يدَيّ ومرِفقَيّ. ولكنني لم أكن أريد تبديل ملابسي لأجله.

فنظرت إليّ والدتي بسرعة من رأسي حتى أخمص قدمَيّ بثيابي القطنية الخشنة، وقميص والدي البيضاء القديمة. "هل هو من عائلة ويتوورث المقيمة في غرينوود أو ناتشيز؟".

"هو ابن السيناتور".

فانخفض فكّ والدتي لدرجة أنه كاد يلامس عقد اللؤلؤ. ونزلتُ السلّم، مارّةً بمجموعة لوحات منذ سنّ الطفولة، كانت عبارة عن صور لكارلتون معلّقة على امتداد الجدار وقد التُقط بعض منها منذ يومين، وصور لي منذ طفولتي وحتى سنّ الثانية عشرة. "أمي، امنحينا بعض الخصوصية". وشاهدتها تجرّ نفسها ببطء إلى غرفتها، ملقيةً نظرة سريعة فوق كتفها قبل أن تتوارى عن الأنظار.

وخرجتُ إلى الرُّواق الخارجي حيث كان ستيوارت ويتوورث بنفسه واقفاً هناك بعد ثلاثة أشهر من موعدنا، مرتدياً بنطالاً بلون الكاكي، ومعطفاً أزرق، وربطة عنق حمراء، كما لو أنه مستعدّ لعشاء الأحد.

يا له من غبي.

"ما الذي أتى بك إلى هنا؟". سألتُ، من دون أن أبتسم. فأنا لا أبتسم له.

"أردت فقط... المرور بك".

"حسناً. هل يمكنني تقديم كأس مشروب إليك؟". سألت. "أم يُفترض بي أن أحضر لك زجاجة الشراب بأكملها؟".

فقطّب جبينه. كان أنفه وجبينه زهريي اللون كما لو أنه عمل

تحت أشعة الشمس. "انظري، أعرف أن... الأمر حدث منذ زمن، ولكنني قدمت إلى هنا لأُعرب لك عن أسفي".

"من أرسلك هيلي؟ وليام؟". وكانت هناك ثمانية كراسٍ فارغة في رُواقي الخارجي، فلم أدعُه للجلوس على أي منها.

ونظر إلى حقل القطن الجنوبي حيث الشمس تغوص في التربة، ووضع يدَيه في جيبَيه الأماميَّين كما لو أنه فتى في الثانية عشرة من عمره. "أعلم أنني كنت... فظاً تلك الليلة، ولا أزال أفكر في الأمر كثيراً و...".

فضحكتُ عندئذٍ، وكنت مُحرَجة كثيراً بسبب قدومه إلى منزلي للاعتذار.

"الآن انظري". قال: "قلت لهيلي عشر مرات إنني غير مستعد للخروج في أي موعد. حتى إنني لم أكن شبه مستعدّ...".

فصررتُ أسناني. لم يكن في استطاعتي التصديق أنني شعرت بحرارة دموعي في ذلك الموعد لا سيما وأنه جرى قبل أشهر. ولكنني تذكرت كم كنت مهمَلة في تلك الليلة، وكيف أنني تمندمتُ لأجله. "إذاً، لماذا أتيت؟".

"لا أعرف". وهز رأسه. "تعرفين إصرار هيلي".

ووقفت هناك في انتظار معرفة سبب قدومه. ومرّر يده على شعره البنّي الفاتح، القوي، والكثيف إلى حد ما. لقد بدا ستيوارت مُتعَباً.

فأشحتُ بنظري لأنه بدا جذّاباً كفتى مُفرط في النُّضج، وهو أمر لم أكن أريد التفكير فيه في تلك المرحلة. لقد أردته أن يرحل، لم أكن راغبة في اختبار ذلك الشعور المروّع مجدداً، ومع ذلك، فقد سمعت نفسي أقول: "ماذا تعني أنك غير مستعدّ؟".

"غير مستعدّ فحسب. ليس بعد ما حدث".

فحدّقت إليه. "تريدني أن أحزر؟".

"أنـــا وباتريشا فان ديفندر، كنا مخطوبَين العام الماضي ومن ثم... ظننت أنك على عِلم بالأمر".

وغاص في كرسيّ هزاز، ولم أجلس بجانبه. ولكنني لم أطلب منه المغادرة.

"ماذا، هل فرَّت مع شخص آخر؟".

"تبّاً". وأسقط رأسه بين يدَيه، وتمتم قائلاً: "كان الأمر أشبه بحفلة ماردي غرا لعينة".

فلـــم أسمـــح لنفسي بقول ما رغبتُ في قوله له، وهو أنه يستحق ذلك مهما فعلَت به، ولكنه كان مثيراً للشفقة. وتساءلتُ عما إذا كان مثيراً للشفقة على الدوام من دون تناول الشراب.

"كـــنا نخـــرج في مواعــيد مذ كنا في الخامسة عشرة من العمر. تعـــرفين كيف يكون الأمر عندما تكونين على علاقة وثيقة مع أحدهم طوال تلك المدة".

ولم أعـــرف ســـبب إقـــراري بالأمر، ولكن، لم يكن هناك ما أخـــسره. "في الواقع، لا أعرف". قلت. "لم أخرج من قَبل في موعد مع أحد".

فرفع نظره إليّ، وضحك تقريباً. "حسناً، لا بد أنه السبب".

"أي سبب؟". قلت، وتذكرت تلميحاته عن السَّماد والجرّار.

"أنـــت... مختلفة. لم يسبق لي أن قابلتُ أحداً يبوح بما يفكر فيه. ولا حتى امرأة، على كل حال".

"صدّقني، هناك المزيد مما يتعيّن عليّ قوله".

وتـــنهّد قـــائلاً: "عـــندما رأيتُ وجهك هناك في الخارج بجانب الشاحنة... لستُ من ذلك النوع من الأشخاص. لستُ سخيفاً".

فأشحت بنظري، مُحرَجة. لقد بدأتُ أتأثر في ما يقول، وهو أنني مخــتلفة عن الأخريات ليس بطول قامتي على نحو غريب أو غير عادي فحسب، بل بأمور حسنة أخرى.

"لقـــد مـــررتُ بك لأرى إذا كنت ترغبين في مرافقتي إلى وسط المديـــنة لتـــناول العشاء. يمكننا التحدث". قال، ووقف. "يمكننا... لا أعلم، الإصغاء إلى بعضنا بعضاً هذه المرة".

فـــوقفت هـــناك، مصدومة. كانت عيناه زرقاوَين، وصادقتين، ومثبّـــتين علـــيّ كمـــا لو أن جوابـــي على دعوته هامّ بالنسبة إليه. فأخـــذت نفَـــساً عميقاً، وكنت على وشك أن أقول أجل أعني، لماذا أرفض وعضّ شفته السفلية، منتظراً.

حينئذٍ، فكرت في طريقة معاملته لي كما لو أنني نكرة، وكيف أنه ثمل وكان بائساً بسبب اضطراره إلى المكوث معي. وفكرت كيف قال لي إن رائحـــة السَّماد تفوح منّي. لقد تطلّبني الأمر ثلاثة أشهر للكف عن التفكير في ذلك التعليق.

"لا". قلت. "شكراً لك. ولكن لا يمكنني أن أتصوّر حدوث أمور أكثر سوءاً".

فأومأ برأسه، ووجّه نظره نحو قدمَيه، ونـــزل درج الرُّواق الخارجي.

"آســـف". قال، بينما كان باب سيارته مفتوحاً. "هذا ما جئت لأقوله، و، حسناً، أظن أنني قلته".

ووقفت في الرُّواق أستمع إلى أصداء المساء، وصوت الحصى تحت أقـــدام ستيوارت، وصوت الكلاب التي بدأت تجوب تلك الناحية لدى هـــبوط الظـــلام. وتذكـــرت في لحظة من الزمن تشارلز غراي وقبلتي الوحـــيدة في الحياة، وكيف أنني انسحبت لأنني كنت واثقة من أنني لم أكن المعنية بالقبلة.

فدخل ستيوارت سيارته وأغلق الباب. ورفع ذراعه ووضع مِرفقه على جانب النافذة المفتوحة، مُبقياً نظره نحو الأسفل.

"أمهلـــني دقـــيقة فحـــسب". صحتُ. "دعني أحضر كنـــزتي الصوفية".

لا أحد يخبرنا، نحن الفتيات اللواتي لا نخرج في مواعيد، أنه يمكن للذكـــرى أن تكـــون جميلة بقدر جمال عَيش الحدث نفسه. صعدت والـــدتي إلى الطابـــق الثالث، ووقفت فوقي عندما كنت مستلقية على الـــسرير، ولكـــنني تظاهرت أنني نائمة لأنني أردت تذكّر الحدث لمدة قصيرة من الزمن.

كـــنا قـــد توجّهنا الليلة السابقة إلى روبرت لتناول العشاء. قبل ذلـــك، ارتـــديت كنـــــزة صوفية زرقاء فاتحة اللون وتنورة بيضاء، وسمحت لوالدتي بتمشيط شعري، محاوِلةً تجنّب تعليماتها المعقّدة.

"ولا تنسي أن تبتسمي. الرجال لا يحبون الفتيات المكتئبات طوال الليل، ولا تجلسي كهندية حمراء. اشبكي...".

"انتظري، ساقيّ أم كاحليّ...".

"كاحلَـــيك. ألا تتذكرين أي شيء من صف السيدة رايمر حول آداب الـــسلوك؟ واكذبـــي عليه وقولي له إنك تذهبين إلى دار العبادة كل يوم أحد. ومهما فعلتِ، لا تسحقي الثلج بأسنانك عندما تكونين علـــى المائـــدة. إنه أمر مروِّع. آه، وإذا بدأ يفتُر الحديث، أخبريه عن نسيبنا الذي يشغل منصب عضو مجلس المدينة في كوشيوسكو...".

وبيـــنما كانـــت تمشط شعري وتملّسه مراراً وتكراراً، استمرت والـــدتي في طـــرح أسئلة عليّ حول كيفية لقائه وما حدث في موعدنا الأخـــير، ولكنني تمكنت من الفرار من تحت يدَيها ونـــزول درجات الـــسلم بـــسرعة، مترنّحةً بسبب تساؤلاتي وعصبية مزاجي. وعندما

دخلـــت وســـتيوارت الفـــندق، وجلسنا، ووضعنا فوط المائدة على حضنينا، قال النادل إنهم سيُقفلون قريباً، و لم يقدّموا لنا سوى التحلية.

بعد ذلك، التزم ستيوارت الهدوء.

"مـــاذا... تريدين يا سكيتر؟". سألني وشعرت بتوتّر، آملةً في ألا يكون يخطط للثمل مجدداً.

"أريد كوكا – كولا مع الكثير من الثلج".

"لا". وابتسم. "أعني... في الحياة. ما الذي تريدينه؟".

فأخـــذت نفَـــساً عميقاً، مُدرِكةً ما قد تكون نصيحة والدتي لي المتمـــثلة بأطفال أقوياء، زوج يعتني بعائلته، وأوان جديدة ولَّماعة لطهو وجبات لذيذة وصحية. "أريد أن أكون كاتبة". قلت. "صحافية، وربما روائية. ربما أكون الاثنين معاً".

فرفع ذقنه ونظر إليّ مباشرةً.

"يعجـــبني ذلـــك". قال، واستمر في التحديق. "كنت أفكر فيك باستمرار. أنت ذكية، أنت جميلة، أنت". وابتسم: "طويلة القامة".

جميلة؟

لقـــد تناولـــنا السوفليه بالفراولة، وشرب كل منا كأس شراب فرنـــسي. وتحـــدّث عـــن كيفية معرفة وجود نفط تحت حقل قطن، وأخـــبرته أنني وموظفة الاستقبال المرأتان الوحيدتان اللتان تعملان في الصحيفة.

"آمل في أن تكتبـــي حقاً شيئاً جيداً، شيئاً تعتقدين به".

"شكراً لك. آمل... ذلك أيضاً". و لم أقل أي شيء عن آيبيلين أو السيدة شتاين.

لم تتسنَّ لي الفرصة للنظر إلى العديد من وجوه الرجال عن قُرب، ولاحظت كم كانت بشرته أسمك من بشرتي، وكيف أن الشعر القاسي

على خدَّيه وذقنه ينمو أمام عينيّ. كانت تفوح منه رائحة شبيهة بالنشاء والصنوبر، و لم يكن أنفه مستدقّ الرأس بالرغم من كل شيء.

وتثاءب النادل في الزاوية، ولكننا تجاهلناه وبقينا جالسَين، وتحدثنا لمـــزيد من الوقت. وبينما كنت أتمنى لو أنني فركت أسناني على الأقل وغـــسلت شعري في صباح ذلك اليوم ليزداد تألّقاً، قام بتقبيلي بشكل مفاجئ. لقد قبّلني وسط مطعم روبرت ببطء وبفم مفتوح.

بعـــد ظهـــر أحد أيام الاثنين، وبعد أسابيع قليلة من موعدي مع ستيوارت، توقفتُ عند المكتبة قبل التوجه إلى اجتماع الرابطة. كانت الـــرائحة في الـــداخل مماثلـــة لرائحة المدرسة الابتدائية، كرائحة طعام عجـــيني، تقـــيّؤ ليـــزولد. لقد مررتُ للحصول على مزيد من الكتب لآيبيلين، والتحقق مما إذا كُتب شيء ما عن عاملات المنازل.

"أنت هناك، يا سكيتر!".

يـــا الله. إنهـــا سوزي برنيل. كان بالإمكان انتخابها في المدرسة الثانوية الشخص الأكثر رغبة في الكلام. "سوزي. ماذا تفعلين هنا؟".

"أعمل هنا لصالح لجنة الرابطة، ألا تتذكرين؟ يتعيّن عليك دخول اللجنة، يا سكيتر، الأمر ممتع حقاً! عليك قراءة كل الإصدارات الأخيرة للمجـــلات، ووضـــع كل الأمور في إضبارات، لا بل تصفيح بطاقات المكتـــبة أيضاً". ووقفت سوزي أمام الماكينة البنّية الضخمة كما لو أنها مشاركة في البرنامج التلفازي *السعر صحيح*.

"يا لها من فكرة جديدة ومثيرة".

"إذاً، مـــا الذي يمكنني أن أساعدك على إيجاده، يا سيدتي؟ لدينا روايـــات بوليـــسية عن جرائم قتل، قصص حب، كيفية ترتيب المواد الطباعية المنضّدة للكتب". وتوقفَت، وأطلقَت ابتسامة سريعة: "زراعة الورد، تزيين المنـــزل...".

"أقوم بالتصفّح ليس إلا، شكراً". وأسرعتُ. كنت أريد الابتعاد عــن نظرها بين كُوَم الكتب، فمن غير الممكن أن أقول لها عما أبحث، وكــان في اســتطاعتي سماعهــا تتهامس مع الأخريات في اجتماعات الــرابطة، كــنت *أعلم بوجود أمر غير سويّ في شأن سكيتر فيلان، البحث عن تلك المواد المتعلقة بالزنوج*...

وبحثت بين البطاقات المفهرَسة وعلى الرفوف من دون أن أجد شيئاً عــن عاملات المنازل. وفي قسم الكتب غير الخيالية، رأيت نسخة واحدة *لفريديــريك دوغــلاس، عبد أميركي*. فالتقطته، وشعرتُ بحماسة كبيرة لتــسليمه إلى آيــيلين، ولكــنني رأيت الجزء الأوسط ممزَّقاً عندما فتحته، وهناك عبارة **كتاب عن الزنوج** بحبر أرجواني. ولم تقلقني الكلمات بقدر مــا أقلقــني واقع أن خط اليد يبدو كما لو أنه يعود إلى طالب في الصف الــثالث مــن المدرسة الثانوية. فألقيتُ نظرة سريعة من حَولي، ووضعتُ الكتاب في حقيبتي المدرسية. لقد بدا لي ذلك أفضل من إعادته إلى الرف.

في غــرفة تــاريخ الميسيــسيبــي، بحثت عن أي شيء له علاقة بالعلاقــات العرقية. فوجدت كتباً عن الحرب الأهلية، وخرائط، وكتباً قديمــة عن دليل الهاتف. ووقفتُ على أطراف أصابعي لرؤية ما يوجد على الرف الأعلى. عندها، رأيتُ كتيّباً موضوعاً بشكل جانبــي فوق *فهــرس فيــضان وادي نهر الميسيسيبــي*، ولما استطاع شخص طويل القامة على نحو عادي أن يراه أبداً. فسحبتُه لإلقاء نظرة على الغلاف. كــان الكتيّب رقيقاً ومطبوعاً على ورق قويّ شفاف، ملويّ، أوراقه مجموعة برزّات، وكُتب على الغلاف مجموعة *قوانين جيم كرو الخاصة بالجنوب*. ففتحت صفحة الغلاف مُحدثةً بعض الضوضاء.

فالكتاب يعدّد ببساطة القوانين التي تشير إلى ما يمكن وما لا يمكن لذوي البشرة الملونة القيام به وفقاً للولايات الجنوبية. وألقيت نظرة على

الصفحة الأولى، وأربكني وجودها في ذلك الكتاب. فالقوانين لا تشكل تهديداً ولا تخاطب وُدّ ذوي البشرة الملونة، إنها تعرض الوقائع فحسب:

يجب على أحد ألاّ يطلب من أي أنثى بيضاء البشرة أن تعمل في الأجنحة أو الغرف التي يوجد فيها رجال ذوو البشرة الملونة.

يحظَّر على ذي البشرة البيضاء الزواج إلا بذي بشرة بيضاء. ويُبطَل كل زواج ينتهك هذه الفقرة.

يُمنع أي مزيّن شعر ذو بشرة ملونة من العمل كمزيّن شعر للنساء أو الفتيات.

يُمنع الموظف المسؤول من دفن أي أحد من ذوي البشرة الملونة في مكان مخصص لدفن ذوي البشرة البيضاء.

يُمنع تبادل الكتب بين مدارس ذوي البشرة الملونة ومدارس ذوي البشرة البيضاء، ولكن، يجب استمرار العرق الذي استخدمها أولاً في استخدامها.

لقد قرأت أربع صفحات من أصل خمس وعشرين صفحة، مذهولة بعدد القوانين القائمة للفصل بيننا. فلا يُسمح للزنوج وبيض البشرة بتشاطر مياه الينابيع، ودور السينما، والاستراحات العامة، والمتنزهات المخصصة للعب الكرة، وكتب دليل الهاتف، وعروض السيرك. ولا يمكن للزنوج دخول الصيدلية التي أدخلها أو شراء طوابع بريدية من النافذة التي أستخدمها. ففكرت في كونستنتين، وفي اصطحاب عائلتي لها إلى ممفيس، وفي اضطرارنا إلى القيادة من دون توقف لأننا نعلم أن الفنادق لا تسمح لها بالدخول. وفكرت كيف أن أحداً من ركّاب السيارة لم يُشر إلى الأمر، كنا كلنا نعرف هذه القوانين ونعيش هناك من دون أن نتحدث عنها. لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها هذه القوانين مكتوبة.

منضدات الغداء، المعرض الذي تنظّمه الولاية، طاولات الرهانات، المستشفيات. وكان عليّ قراءة القانون رقم سبعة وأربعين مرتين بسبب أسلوبه الساحر.

يجب على الإدارة توفير مبنى منفصل على أراض منفصلة لتدريس كل المكفوفين من ذوي البشرة الملوّنة.

وبعد عدة دقائق، توقفت عن القراءة قائلةً لنفسي إنني لن أضع كتاباً عن التشريعات الجنوبية لأنه مضيعة للوقت. ولكنني أدركت حينذاك، وعلى نحو مفاجئ، أن لا فَرق بين هذه القوانين الحكومية وقيام هيلي ببناء حمّام لآيبيلين في المرأب سوى أن هناك عشر دقائق من التواقيع في عاصمة الولاية في الحال الأولى.

وفي الصفحة الأخيرة، رأيت عبارة مطبوعة بحجم بيكا جاء فيها *مِلكية تابعة لمكتبة الميسيسيبي القانونية*. لقد أُعيد الكتيّب إلى المبنى الخاطئ. فدوّنتُ ملاحظتي على قطعة ورق وضعتها داخل الكتيّب، *مخطط* جيم كرو *أو مخطط حمّام هيلي، ما الفرق؟* ووضعته في حقيبتي خِلسةً. وعطست سوزي من وراء المكتب في الناحية الأخرى من القاعة.

فتوجّهتُ إلى المخرج. كان يتعيّن عليّ حضور اجتماع للرابطة بعد ثلاثين دقيقة. وأطلقتُ ابتسامة شديدة الودّ لسوزي التي كانت تهمس عبر الهاتف. وبدا الكتابان المسروقان في حقيبتي كما لو أنهما ينبضان من شدة الانفعال.

"يا سكيتر". قالت سوزي مهسهِسة من وراء مكتبها، وعيناها مفتوحتان واسعاً. "هل صحيح أنك قابلتِ ستيوارت ويتوورث؟". وشدّدَت على كلمة *أنكِ* كي أستمر في الابتسام. فتصرّفتُ كما لو أنني لم أسمعها، وخرجتُ إلى أشعة الشمس الساطعة. لم يسبق لي أن سرقت أي شيء في حياتي قبل ذلك اليوم. لقد شعرتُ ببعض الرضى لأن الأمر جرى في أثناء دوام عمل سوزي.

كانت اهتماماتي مختلفة على نحو متوقّع عن اهتمامات صديقاتي. فإليزابيت تنحني فوق ماكينة الخياطة وتحاول إخفاء الدَّرزات في

ملابـــسها لتبدو كما لو أنه تم شراؤها من المتجر. وأنا أدوّن على آلتي الكاتبة أموراً بليغة لن أملك الجرأة أبداً على البَوح بها. وهيلي تقول من وراء المنبر لخمس وستين امرأة إن ثلاث علب غير كافية لإطعام أطفال أفـــريقيا المتـــضوّرين جوعاً. ومع ذلك، تعتقد ماري جولاين واكر أن المواد الغذائية المتوافرة تزيد عن الحاجة المطلوبة.

"ألـــيس إرسال كل هذه العلب عبر العالم إلى أثيوبيا أمراً مرتفع التكلفة؟". سألَت ماري جولاين. "أليس من المنطقي أكثر إرسالها على صورة شيكات مصرفية؟".

لم يكـــن الاجتماع قد بدأ رسمياً، ولكن هيلي كانت واقفة وراء المنـــبر وبدا الاضطراب في عينيها. لم يكن الوقت المفضّل في أمسياتنا، ولكن هيلي دعته جلسة إضافية في فترة بعد الظهر. ففي حزيران/يونيو، يغـــادر عـــدد كـــبير من الأعضاء المدينة لتمضية إجازات الصيف في الخـــارج. وبعد ذلك، تغادر هيلي في تموز/يوليو للقيام برحلتها السنوية إلى الشاطئ لمدة ثلاثة أسابيع، يصعب عليها الاتكال علىٰ مدينة برمّتها للقيام بأعمالها على النحو الملائم.

فقلّبت هيلي عينيها. "لا يمكنك إعطاء هؤلاء الناس القبليّين المال، يا ماري جولاين. فلا وجود لمتجر جيتني 14 في صحراء أوغادن. وأنّى لـــنا أن نعـــرف أنهم يُطعمون أبناءهم وبناتهم بالمال المرسَل إليهم؟ قد يقصدون الخيمة المحلية للفودو ويحصلون على وشم بمالنا".

"حـــسناً". قالت ماري جولاين، متمايلة، وبدت مقتنعة بوجهة نظر هيلي. "أظن أنك أكثر اطّلاعاً على الموضوع". ولطالما كان لعيني هيلي المنتفختين تأثير في الناس يجعلها رئيسة ناجحة للرابطة.

وشـــققتُ طريقـــي عـــبر قاعة الاجتماع المحتشدة، شاعرةً بدفء النظـــرات المـــتجهة إليّ كما لو أنه ضوء مُسلَط عليّ. كانت القاعة مليئة

بآكلات الكاتو، وشاربات التاب، ومدخّنات السجائر، وكلّهنّ بمثل سنّي تقريباً. وكنّ يهمسن بآذان بعضهنّ بعضاً، موجّهات أنظارهنّ نحوي.

"يـــا سكيتر". قالت ليزا بريسلي قبل أن أصل إلى أباريق القهوة: "هل صحيح أنك كنت في مطعم روبرت قبل أسابيع قليلة؟".

"هل هذا صحيح؟ هل تقابلين حقاً ستيوارت ويتوورث؟". قالت فرانسز غرينبو.

لم تكـــن كـــل الأسئلة غير لطيفة، وذلك بخلاف السؤال الذي طـــرحته عليّ سوزي في المكتبة. ومع ذلك، فقد هززت كتفَيّ، محاولةً التغاضي عن أنّ طرح أسئلة على فتاة عادية يُعتبر مجرّد جمع للمعلومات، في حين أن هذه المعلومة تصبح *خبرًا* عندما يتعلق الأمر بسكيتر فيلان.

ولكـــن الأمر صحيح. لقد قابلتُ ستيوارت ويتوورث منذ ثلاثة أســـابيع. قابلته مرتين في روبرت، إذا ما أضفتم الموعد الكارثي الأول، وثـــلاث مرات إضافية بينما كنا جالسَين في الرُّواق الخارجي الأمامي لمنـــــزلي نتناول المشروب قبل أن يعود بسيارته إلى فيكسبرغ. وبقي والـــدي مـــستيقظاً حتى ما بعد الساعة الثامنة للتحدث إليه. "عُمتَ مـــساءً، يا بُنيّ. قل للسيناتور إننا نقدّر له تخفيض قيمة فاتورة الضريبة تلـــك الخاصة بالمزرعة". كانت والدتي ترتجف ويتنازعها خوفٌ من أن أُفسد الأمر وسعادةٌ لأنني أحب *الرجال* حقاً.

وتبعـــتني الأنظـــار المحدّقة والمتسائلة بينما كنت أشق طريقي نحو هيلي. وكانت الفتيات يبتسمن ويومئن برؤوسهنّ لي.

"مـــتى ســـتتقابلان مجدداً؟". سألت إليزابيت، لاويةً فوطة المائدة بأصابعها، وفاتحةً عينيها واسعاً كما لو أنها تحدّق إلى حادث سير. "هل قال لك؟".

"مساء غد حالما يصل إلى منـــزلنا".

"جـــيد". وابتسمت هيلي على غرار طفل سمين منتظر عند نافذة مـــثلجات ســـيل - ليلـــي، ونتأ زرّ معطفها الأحمر. "سنجعله موعداً مزدوجاً إذاً".

فلـــم أُجب. لم أكن أريد أن تقوم هيلي ووليام بمرافقتنا. أردت فقط الجلوس مع ستيوارت لينظر إليّ من دون سواي. عندما كنا بمفردنا لمرّتين، قام بإعادة شعري إلى الوراء عندما انسدل على عينيّ. فهو قد لا يعيد شعري إلى الوراء إذا كانا موجودَين.

"سيتصل وليام بستيوارت الليلة. لنذهب إلى معرض الصور".

"حسناً". قلت متنهّدة.

"أتحرّق شوقاً لمشاهدة *إنه عالم مجنون، مجنون، مجنون، مجنون*. ألن تكون مشاهدته أمراً ممتعاً". قالت هيلي. "أنت وأنا ووليام وستيوارت".

لقد أذهلتني طريقة ترتيبها للأسماء. كانت تخطط كما يبدو لبقاء وليام وستيوارت معاً بدلاً من بقائي مع ستيوارت. أعرف أنني أُصبت بالذهانـــة الارتيابـــية، ولكن، كل شيء كان يدعوني للاحتراس. فقبل ليلـــتين، وحالمـــا عبرت الجسر المخصص لذوي البشرة الملوّنة، أوقفني رجـــل شـــرطة، وسلّط نور مصباحه على الناحية الداخلية للشاحنة، مركّـــزاً على الحقيبة المدرسية. فسألني عن رخصة القيادة وعن المكان الـــذي أتـــوجه إليه. "أحمل شيكاً مصرفياً لخادمتي... كونستنتين. لقد نسيتُ أن أدفع لها". وتوقف شرطيّ آخر في المكان واقترب من نافذتي. "لمـــاذا أوقفتني؟". سألت، وبدا صوتي مرتفعاً أضعافاً مضاعفة مما يكون عليه في العادة. "هل حدث شيء؟". سألت، وكان قلبـــي يخفق بقوة في صدري. ماذا لو بحث في حقيبتي المدرسية؟

"بعض اليانكي من الشمال يثيرون المتاعب. سنمسك بهم، يا سيدتي". قال، مربّتاً على هراوته. "أنجزي عملك وعودي عن طريق الجسر".

وعـــندما وصلت إلى شارع آبيلين، ركنتُ الشاحنة على مسافة أبعـــد من المسافة المعتادة. وتوجهتُ إلى بابها الخلفي بدلاً من استخدام الباب الأمامي. كنت أرتجف بشدة في الساعة الأولى لدرجة أنني كدت لا أستطيع قراءة الأسئلة التي أعددها لميني.

وضربت هيلي المنبر بالمطرقة دلالةً على بدء الاجتماع بعد خمس دقائـــق. فعدت إلى الكرسيّ، ووضعتُ حقيبتي المدرسية في حضني، وتفقدتُ محتوياها ووقع نظري على كتيّب جيم كرو الذي سرقته من المكتـــبة. في الواقع، كانت حقيبتي المدرسية تحتوي على كل الأعمال الـــتي أنجـــزها، كمقابلات آبيلين وميني، الخطوط الرئيسة للكتاب، لائحـــة بالخادمـــات المحتملات، إجابة قاسية كتبتها لهيلي ردّاً على مبادرها المتعلقة بالحمّامات ولم أُرسلها عبر البريد، كل ما لا أستطيع تـــركه في المنــــزل مخافة قيام والدتي بالتطفل على أغراضي. كنت أبقيها كلها في جَيب جانبـــي ذات سحّاب مخفيّ تحت حاشية جِلدية متدلّية.

"يا سكيتر، بناطيل البوبلين تلك هي الأشياء الأكثر ظُرفاً، لماذا لم يـــسبق لي أن رأيتها من قَبل؟". قالت كارول رينغر الجالسة على بُعد عدد قليل من الكراسي، ونظرتُ إليها وابتسمتُ، قائلةً في نفسي *لأنني لا أجرؤ على ارتداء ملابس قديمة لحضور اجتماع، كما أنك لا تجرؤين علـــى ذلك أيضاً*. كانت الأسئلة المرتبطة بالثياب تثير حفيظتي بعد كل التعليقات التي سمعتها من والدتي طوال سنوات عديدة.

وشعرت بيد على كتفي الأخرى، فاستدرت ورأيت هيلي تضع إصـــبعها علـــى الكتـــيّب مباشرةً داخل حقيبتي المدرسية. "هل لديك المدوّنات الخاصة بالنشرة الدَّورية في الأسبوع المقبل؟ هل هي معك؟".
لم أرها تقترب مني.

"لا، انتظـري!". قلـت، وأخفيتُ الكتيّب بهدوء بين أوراقي.

"أحتاج إلى... تصحيح أمر واحد. سأسلّمك إياها بعد قليل".

وأخذتُ نفَساً عميقاً.

عند المنبر، كانت هيلي تنظر إلى ساعتها، وتلهو بالمطرقة كما لو أنها تتحـرق شوقاً لضربها على الطاولة. فدفعتُ بحقيبتي المدرسية إلى تحت الكرسي، وبدأ الاجتماع أخيراً.

ودوّنتُ الخبر المتعلق بأطفال أفريقيا المتضوّرين جوعاً المُدرَج على لائحـة المصاعب التي يتعيّن مواجهتها. كانت روزنامة الأحداث مليئة بلقـاءات للّجنة، وطرح أسئلة حول الأطفال، فبدّلتُ وضعية جلوسي على الكرسي الخشبـي آملةً في انتهاء الاجتماع قريباً. كان يتعيّن عليّ إعادة سيارة والدتي عند الثالثة.

وعند الثانية وخمس وأربعين دقيقة، أي بعد ساعة ونصف من بدء الاجـتماع، خرجتُ مسرعة من القاعة الحارة باتجاه الكاديلاك، مجازفةً بـإدراج اسمـي على لائحة المشاكل لأنني غادرت باكراً، ولكن، ما الأسوأ بحق الله، غضب الوالدة أم غضب هيلي؟

دخلتُ المنـزل قبل خمس دقائق من الساعة الثالثة، مدندنةً أحبّني حقـاً ومفكـرةً بوجوب شراء تنورة قصيرة كالتي كانت جيني فوشيه تـرتديها في ذلك اليوم. قالت إنها اشترتها من مدينة نيويورك من متجر بـرغدورف غودمان. ولو شاهدتني والدتي أرتدي تنورة قصيرة فوق الـركبة عندما يقوم ستيوارت باصطحابـي من المنـزل يوم السبت لوقعَت مَغشيّاً عليها.

"أمي، لقد عدتُ". ناديتُ في مدخل المنـزل.

فـسحبتُ زجاجـة كـوكا - كـولا من الثلاّجة، وتنهدتُ وابتـسمتُ، شـاعرةً أنني قوية وفي أفضل حال. وتوجهتُ إلى الباب

الأمامي لإحضار حقيبتي المدرسية وكلّي استعداد لتنقيح مزيد من قصص ميني. كانت متلهّفة للتحدث عن سيليا فوت، ولكنها تتوقف باستمرار قبل دقيقة من التطرّق إلى الموضوع وتغيّر الحديث. ورنّ الهاتف فأجبت، ولكن الاتصال كان لباسكاغولا. فدوّنتُ الرسالة على إضمامة الورق. إنها يول ماي، خادمة هيلي.

"مرحباً، يا يول ماي". قلت، مفكرةً كم أن المدينة صغيرة. "سأُبلغها الرسالة عندما تعود". واتكأت للحظات على المنضدة، متمنّيةً لو كانت كونستنتين موجودة هناك. كم أحببت مشاطرتها كل أمر يحصل معي في أثناء اليوم.

فتنهدتُ، وأنهيت زجاجة الكوك، وتوجهتُ من ثم إلى الباب الأمامي لإحضار حقيبتي المدرسية، ولكنني لم أجدها. فخرجت وبحثت في السيارة، ولكنني لم أعثر عليها. وفكرتُ، وصعدتُ السلّم، شاعرةً أنني أصبحت شاحبة اللون. هل صعدتُ إلى الطابق العلوي؟ فبحثت في غرفتي، ولكنني لم أجدها. أخيراً، وقفت بلا حراك في غرفة نومي الهادئة، وبدأ الخدَر يزحف إلى عمودي الفقري. *كل شيء موجود في الحقيبة المدرسية.*

إنها والدتي، قلت لنفسي، واندفعتُ إلى الطابق السفلي وألقيت نظرة على غرفة الاستجمام. ولكنني أدركت فجأةً أنها ليست مع والدتي لقد شعرتُ بالخدَر في كل جسمي عندما عرفتُ مكان الحقيبة. لقد تركت حقيبتي المدرسية في مقرّ الرابطة، لأنني كنت على عجَلة كبيرة من أمري لإعادة سيارة والدتي إلى المنزل. ورنّ الهاتف، وعرفتُ أن هيلي موجودة على الجانب الآخر من الخط.

فالتقطتُ الهاتف عن الجدار، ونادت والدتي من الباب الأمامي، مودّعة.

"آلو؟".

"كـيف يمكنك ترك هذا الشيء الثقيل؟". سألت هيلي. لم تكن هيلـي تتورّع أبداً عن التنقيب في أغراض الآخرين. في الواقع، كانت تستمتع بذلك.

"يا أمي، انتظري قليلاً!". صحت من المطبخ.

"يا الله، يا سكيتر، ماذا في داخلها؟". قالت هيلي. كان عليّ اللحاق بوالدتي، ولكن صوت هيلي خمد كما لو أنها تنحني، وتفتح الحقيبة.

"لا شيء! إنها... كل رسائل الآنسة ميرنا تلك فحسب، تعلمين".

"حـسناً، سأجرّها إلى منـزلي، لذلك مرّي بـي متى استطعتِ لأخذها".

وشـغّلت والـدتي محـرك السيارة في الخارج. "أبقيها هناك... فحسب. سأمرّ وآخذها في أسرع وقت ممكن".

فخـرجتُ بأقصى سرعة ممكنة، ولكن والدتي كانت قد انطلقت في الطـريق الخاصـة بالمنـزل. ونظرتُ في أنحاء المكان ووجدتُ أن الـشاحنة القديمة غير موجودة أيضاً لأنها تبذر بزور القطن في مكان ما مـن الحقول. كنت مروَّعة جداً لدرجة أنني شعرتُ بحرارة في معدتي كما لو أنها آجرّة في الشمس الحارقة.

في الطـريق، رأيت الكاديلاك تبطئ، ومن ثم تتوقف. وانطلقَت مجـدداً، وتـوقفَت. واسـتدارَت بعد ذلك وعادت أدراجها بشكل متعرّج... ها إن والدتي تعود.

"لا يمكنني التصديق أنني نسيت كَسرولة سو آن...".

فقفزتُ إلى مقعد الركاب الأمامي، وانتظرت عودتها إلى السيارة. ووضعَت يديها على عجَلة القيادة.

"هل توصلينني إلى منـزل هيلي؟ أريد إحضار غرض ما". وضغطتُ يدي على جبيني. "آه، يا الله، أسرعي يا أمي قبل أن أتأخر كثيراً".

ولكن سيارة والدتي لم تتحرك. "يا سكيتر، عليّ القيام بكثير من الأمور اليوم...".

وبلغت تأثيرات الذُّعر حَلقي. "يا أمي، رجاءً، قودي فحسب...".

ولكن الكاديلاك دوفيل غرقت في الحصى وبدأت تُصدر تكتكات كما لو أنها قنبلة موقوتة.

"انظري". قالت والدتي: "عليّ القيام ببعض المهام الخاصة ولا أظن أن الوقت ملائم لاصطحابك معي".

"لا يتطلبك الأمر سوى خمس دقائق. قودي فحسب، يا أمي!".

كانت والدتي تضع قفّازَين أبيضَين، وأبقت يدَيها على عجَلة القيادة، مُطبقةً شفتيها بإحكام.

"يصادف اليوم قيامي بأمر سرّي وهام".

لم أستطع تصوّر قيام والدتي بأمر أكثر أهمية من معرفة ما الذي آكله. "ماذا؟ تحاول مكسيكية الانضمام إلى دي أيه أر؟ هل فاجأت إحداهنّ تقرأ *المعجم الأميركي الجديد*؟".

فتنهدت والدتي، وقالت: "لا بأس". ووضعَت أداة نقل الحركة بحذر على صيغة القيادة دي. "حسناً، ها نحن ننطلق". وانطلقنا ببطء شديد في الطريق الخاصة بالمنزل بسرعة عُشر الميل في الساعة كي لا يتطاير الحصى ويُفسد طلاء السيارة. في نهاية الطريق، وضعَت الكمّامة كما لو أنها تُجري جراحة في الدماغ، وسلكت طريق المقاطعة. كانت قبضتا يدَيّ مُطبَقتين بإحكام، وضغطتُ على دوّاسة الوقود الوهمية. فكلما قادت والدتي، يبدو الأمر كما لو أنها تقود للمرة الأولى.

على طريق الولاية، رفعَت السرعة إلى خمسة عشر ميلاً في الساعة، وتمسكَت بعجَلة القيادة بإحكام كما لو أننا نقود بسرعة مئة وخمسة أميال في الساعة.

"يا أمي". قلت أخيراً، "دعيني أقود السيارة فحسب".

فتنهدَت، وتفاجأتُ بتوقفها في الناحية التي ينبت فيها عشب طويل. فخرجتُ، وركضتُ حول السيارة بينما كانت والدتي تتنحى جانباً. ووضعتُ السيارة على صيغة القيادة دي، وضغطتُ على دوّاسة الوقود حتى بلغنا سرعة سبعين ميلاً في الساعة، ودعوتُ في نفسي قائلة *أرجوك يا هيلي، قاومي إغراء التنقيب في أغراضي الخاصة...*

"إذاً، ما السر الكبير، ما الذي يتعيّن عليك القيام به اليوم؟". سألتُ.

"أنا... أنا ذاهبة لرؤية الطبيب نِيل للقيام ببعض التحاليل المِخبرية. إنه أمر روتيني، ولكنني لا أريد أن يعرف والدك بالأمر. تعلمين كم يغدو مستاءً كلما قصد أحدهم الطبيب".

"أي نوع من التحاليل المِخبرية؟".

"إنه تحليل مِخبري لليود لمراقبة تطور القرحة لديّ، وهو مماثل لأي تحليل أُجريه كل عام. أنزليني عند مستشفى المعمدان، ويمكنك بعد ذلك الذهاب بالسيارة إلى منزل هيلي. على الأقل، لن يكون عليّ القلق في شأن رَكن السيارة".

وألقيت نظرة سريعة عليها للتحقق مما إذا كانت تُخفي عليّ أمراً ما، ولكنها كانت تجلس بشكل مستقيم بفستانها الأزرق الفاتح، وساقاها متشابكتان عند الكاحلَين. لم أتذكر قيامها بإجراء هذه التحاليل المِخبرية في العام السابق. وحتى في أثناء وجودي في الكلّية، لم تذكر كونستنتين أمامي شيئاً عن تلك التحاليل، لا بد من أن والدتي كانت تُبقيها طيّ الكتمان.

بعد خمس دقائق من وجودنا أمام المستشفى، نزلتُ من السيارة وتوجهتُ إلى الناحية المقابلة لمساعدتها على الخروج من السيارة.

"رجـــاءً يا أوجينيا. حتى ولو كنا في مستشفى، فهذا لا يعني أنني عاجزة".

وفتحتُ لها الباب الزجاجي، ودخلَت مرفوعة الرأس.

"يا أمي، هل... تريدينني أن أرافقك؟". سألتُ، بالرغم من علمِي أنـــني غـــير قادرة على ذلك، كان عليّ حلّ مسألة هيلي، ولكنني لم أرغب فجأةً في تركها بمفردها هناك.

"إنه أمر روتيني. اذهبـــي إلى منـــزل هيلي وعودي بعد ساعة".

وشاهدتها تغدو أصغر حجماً في أثناء ابتعادها في الرَّدهة الطويلة، ممـــسكةً حقيـــبة يدها بإحكام، وأدركتُ أنه يُفترض بـــي أن أستدير وأركـــض. ولكن قبل القيام بذلك، تساءلتُ عن مدى ضعف والدتي. كانت تملأ الغرفة لدى التنفس فحسب، ولكن لم يتبقَّ منها إلا القليل. وتوارَت خلف زاوية وراء جدران بلون أصفر باهت. وواصلتُ النظر للحظات إضافية قبل أن أسارع بالعودة إلى السيارة.

بعـــد دقيقة ونصف، قرعتُ جرس منـــزل هيلي. لو كانت هذه الأوقـــات أوقاتـــاً عادية لحدّثتُ هيلي عن والدتي، ولكن، لم يكن في إمكـــاني إلهاؤها على كل حال. كان في إمكاني معرفة كل ما يدور في خُلـــدها منذ اللحظة الأولى. فهيلي كاذبة بارعة ولكن ليس في اللحظة التي تسبق تكلّمها مباشرةً.

وفـــتحت هيلـــي الـــباب. كان فمها مُحكَم الإطباق، مُحمرّاً. فنظرت إلى يدَيها. كانتا معقودتين كالحبال. لقد وصلتُ متأخرة.

"حـــسناً، لقد وصلتِ بسرعة". قالت، وتبعتُها إلى الداخل. كان قلبـــي يخفق بسرعة كبيرة، غير واثقةٍ على الإطلاق من أنني أتنفس.

"هـــا هـــو، ذلـــك الشيء القبيح. آمل في ألا تمانعي، كان عليّ التحقق من أمر ما بعد دقائق من نهاية الاجتماع".

فحـــدّقتُ إلى صديقتي المفضّلة، محاوِلةً تبيان ما قرأته في أغراضي. وعندما لا تكون ابتسامتها رائعة تكون احترافية. ولكن اللحظات التي قد تكشف لي عما تفكر فيه قد انقضت.

"هل يمكنني إحضار شيء لك لارتشافه؟".

"لا، أنـــا بخير". ومن ثم أضفت: "هل تريدين تبادل الكُرات في النادي في وقت لاحق؟ الطقس رائع في الخارج".

"لـــدى ولـــيام اجتماع لحملته الانتخابية، وسنذهب بعد ذلك لمشاهدة *إنه عالم مجنون، مجنون، مجنون، مجنون*".

وتأمّلتها، ألم تطلب مني قبل ساعتين فقط أن نشاهد هي ووليام، وستيوارت وأنا، ذلك الفيلم في مساء اليوم التالي معاً؟ وتحركتُ ببطء باتجـــاه الجانب الآخر من مائدة الطعام، كما لو أنني أخشى انقضاضها علـــيّ إذا تحـــركتُ بسرعة. والتقطَت شوكة من الفضة الخالصة من الخزانة، ومرّرَت سبّابتها على أطرافها مستدقّة الرؤوس.

"أجـــل، أمـــم، سمعت أن سبنسر ترايسي ستكون رائعة". قلت. ومددتُ يدي عرَضاً إلى الأوراق الموجودة في حقيبتي المدرسية. كانت ملاحظـــات آيبيلين وميني لا تزال موجودة في عمق الجَيب الجانبـــي، والحاشية الجلدية المتدلّية تغطي السحاب، والحقيبة مُقفَلة. ولكن مبادرة حمّام هيلي كانت موجودة في الناحية الوسطى المفتوحة مع الورقة التي كتبت عليها *مخطط جيم كرو أو مخطط حمّام هيلي، ما الفرق؟* وبجانب هـــذه الأشـــياء، هناك مسوّدة النشرة الدورية التي كانت قد تفحّصتها هيلـــي. ولكـــن كتيّب القوانين الذي بحثتُ عنه مراراً وتكراراً لم يكن موجوداً.

وأمالـــت هيلـــي رأسها، ونظرت إليّ، مضيّقةً عينيها. "تعلمين، كـــنت أفكـــر فحسب في كيفية وقوف والد ستيوارت بجانب روس

بارنـــيت عـــندما تشاجرا مع ذلك الفتى ذي البشرة الملونة داخل أولي ميس. السيناتور ويتوورث والحاكم بارنيت مقرّبان إلى حد كبير".

وفتحت فمي لأقول شيئاً ما، أي شيء، ولكن وليام الأصغر البالغ من العمر عامَين دخل مترنّحاً.

"لقـــد أتيتَ". وحملته هيلي، وأقحمت أنفها بعُنُقه. "أنت فتاي المثالي!". قالت. فنظر إليّ وليام وصاح.

"حسناً، استمتعي بمعرض الصور". قلت في أثناء اتجاهي إلى الباب الأمامي.

"حـــسناً". قالـــت. ونـــزلتُ السلّم. ولوّحت هيلي من مدخل المنــــزل، وحرّكت يد وليام مودِّعاً. وأغلقتِ الباب قبل أن أصل إلى سيارتي.

آيبيلين

الفصل الرابع عشر

لقد مررتُ ببعض المواقف العصيبة، ولكن، ما يدعو للعجب، هو أن تكون ميني في جانب من جوانب غرفة الجلوس في منــــزلي، والآنسة سكيتر في جانب آخر، والموضوع المطروح هو كيف يكون عليه حال زنجية تعمل لدى امرأة بيضاء البشرة، ولا تتعرّض أي منّا لأي أذى.

لقد نجونا بأعجوبة من بعض هذه المواقف.

ومن هذه المواقف ما حدث في الأسبوع السابق عندما عرضت لي الآنسة سكيتر الأسباب التي تعتبرها الآنسة هيلي ضرورية ليكون هناك حمّام خاص بذوي البشرة الملوّنة وفقاً للآنسة هيلي.

"أشعر كما لو أنني أنظر إلى شيء ما من إعداد الكيه كيه كيه". قلت للآنسة سكيتر. كنا في غرفة جلوسي، وبدأت الليلة تميل إلى الحرّ. كانت ميني قد دخلت المطبخ للوقوف أمام الثلاجة، لأنها لا تتوقف عن التعرّق إلا لمدة خمس دقائق في كانون الثاني/يناير، وقد تكون المدة أقصر من ذلك.

"تـــريدني هيلـــي أن أنـــشر مـــبادرتها في النشرة الدَّورية الخاصة بالرابطة". قالت الآنسة سكيتر، هازّةً رأسها باشمئزاز. "آسفة، لم يكن

يُفتـــرض بــــــي ربما إطلاعك على الأمر. ولكن لا يوجد أحد غيرك يمكنني إطلاعه على ما يجري".

وبعد دقيقة من الزمن، عادت ميني من المطبخ. فنظرتُ إلى الآنسة سكيتر التي أخفت اللائحة تحت مفكّرتها. لم تبدُ ميني أكثر هدوءاً من المرات السابقة. في الواقع، كانت تبدو طباعها أكثر حدّة من أي وقت مضى.

"يـــا ميني، هل تحدّثتِ وليروي يوماً عن الحقوق المدنية؟". سألَت الآنسة سكيتر. "عندما يعود إلى المنـــزل من العمل؟".

كانـــت هناك تلك الكدمة الكبيرة على ذراع ميني التي تسبب بها ليروي عندما عاد من العمل إلى المنـــزل. لقد قام بدفعها.

"لا". هو كل ما قالته ميني. فهي لا تحب أن يتدخل الناس في شؤونها.

"حقـــاً؟ ألا يشاطرك شعوره حيال المسيرات والتمييز العنصري؟ ربما في العمل، يقوم صاحب عمله بـــ...".

"كفّــي عن التحدث عن ليروي". قالت ميني وشبكت ذراعَيها كي تُخفي تلك الكدمة.

فنكزتُ سكيتر بقدمها، ولكن تلك النظرة العازمة ارتسمت على وجهها.

"يـــا آيبيلين، ألا تظنين أنه سيكون من المثير للاهتمام أن نتطرق قليلاً إلى وجهة نظر الزوج؟ يا ميني، ربما...".

فوقفت ميني بسرعة كبيرة لدرجة أن كُمّة المصباح تحرّكت. "لن أقـــوم بـــذلك بعد الآن. تجعلين الأمر شخصياً إلى حد كبير. لا أهتم بإخبار ذوي البشرة البيضاء عن شعوري".

"يـــا مـــيني، حسناً، أنا آسفة". قالت الآنسة سكيتر. "ليس علينا التحدث عن عائلتك".

"لا، لقد غيّرت رأيي. جِدي شخصاً آخر يُفشي أسراره". كنا قد مررنا بهذا الوضع من قَبل، ولكن ميني انتزعت محفظة نقودها، والتقطت مروحة اليد التي سقطت تحت الكرسي، وقالت: "آسفة، يا آيب. ولكن، لم يعد في إمكاني القيام بهذا الأمر".

فانتابني شعور مفاجئ بالخوف. كانت تهمّ بالمغادرة حقاً. لا يمكن لميني التخلي عن الأمر. إنها الخادمة الوحيدة التي وافقت على نشر قصصها.

لذلك، انحنيتُ وسحبتُ ورقة الآنسة هيلي من تحت مفكرة الآنسة سكيتر، وتوقفت أصابعي أمام ميني مباشرةً.

فنظرَت إلى الورقة. "ما هذا؟".

فتظاهرتُ بعدم معرفة أي شيء، وهززت كتفيّ. لم أستطع التصرف كما لو أنني أريدها أن تقرأ الورقة لأنها ستمتنع عن قراءتها في هذه الحال.

والتقطتها ميني وبدأت بتصفّحها. بعد قليل، استطعت رؤية كل أسنانها الأمامية، ولكنها لم تكن تبتسم.

بعد ذلك، نظرَت إلى الآنسة سكيتر مطوّلاً، وقالت: "ربما يمكننا الاستمرار. ولكن لا تتدخلي بأموري الشخصية، هل سمعتِ؟".

فأومأت الآنسة سكيتر برأسها. كانت تتعلّم أموراً جديدة.

* * *

مزجتُ سلطة البَيض كوجبة غداء للآنسة ليفولت والطفلة، ووضعتُ قطعاً صغيرة من المخلّلات على أطراف الطبق لتزيينه. وجلست الآنسة ليفولت إلى طاولة المطبخ مع ماو موبلي، وبدأت تخبرها كيف أن الطفل سيكون موجوداً معهم في تشرين الأول/أكتوبر، وكيف أنها تأمل ألا تكون في المستشفى في أثناء مباريات أولي ميس،

وكـــيف أن مـــاو موبلي ستحصل على شقيقة صغيرة أو شقيق صغير متسائلةً عن الاسم الذي سيختارونه للطفل. كان أمراً جيداً أن تتحدثا بـــتلك الطريقة. وعند منتصف الفترة الصباحية، كانت الآنسة ليفولت منهمكة بالتحدث إلى الآنسة هيلي عن أمر ما عبر الهاتف، غير مكترثة للطفلـــة. فما إن يولد الطفل الجديد، لن تحصل ماو موبلي من والدها سوى على صفعة قوية.

بعـــد الغـــداء، أخرجتُ الطفلة إلى الفناء الخلفي، وملأتُ البركة البلاســـتيكية الخـــضراء. كانت الحرارة في الخارج تبلغ خمساً وتسعين درجة. لقد حصلت الميسيسبـــي على الطقس الأكثر افتقاراً إلى التنظيم في الـــبلد. ففـــي شباط فبراير، تصل الحرارة إلى خمس عشرة درجة، وتتمـــنّون حلول الربيع، فترتفع الحرارة في اليوم التالي إلى تسعين درجة وتستمر على هذه الحال طوال الأشهر التسعة التالية.

كانـــت الشمس ساطعة، وماو موبلي جالسة وسط تلك البركة بملابـــس الاســـتحمام. فأول شيء تقوم به هو انتزاع تلك السدادة. وخـــرجت الآنـــسة ليفولت وقالت: "يبدو الأمر ممتعاً! سأتصل بهيلي وأطلب منها إحضار هيذر وويل إلى هنا".

وقبل أن ألاحظ مرور الوقت، كان الأطفال الثلاثة يلعبون هناك، ويرشّون الماء في أرجاء المكان، ويمضون وقتاً ممتعاً.

كانت هيذر، ابنة الآنسة هيلي، شديدة الظُّرف، وأكبر من ماو موبلي التي تحبها كثيراً بستة أشهر. كانت لديها خُصل شعر معقوفة، قاتمـــة اللون، وبرّاقة فوق رأسها، مع بعض النمش الصغير، وكانت ثرثارة حقاً. إنها نسخة مصغَّرة عن الآنسة هيلي، ولكنها تبدو أفضل منها عندما كانت في مثل هذه السن. أما وليام الأصغر فكان في الثانية مـــن عمره، كتّاني الشعر، لا يتفوّه بأي كلمة، ويمشي بخُطى قصيرة

ومتمايلة كبطة، تابعاً الفتاتين إلى منطقة العشب العالي عند حافة الفناء، ومن ثم إلى الأرجوحة التي تخيفني حتى الموت لأنها تتحرك باتجاه جانب واحد إذا بلغت ارتفاعاً عالياً، ويعودون بعد ذلك إلى بركة الأطفال.

وعليّ الإقرار بأمر واحد وهو أن الآنسة هيلي تحب طفلَيها. فقد كانت تقبّل ويل الصغير على رأسه كل خمس دقائق، وتسأل هيذر إذا كانت تحظى بالمرح أو تطلب منها القدوم إليها ومعانقتها، قائلةً لها على الدوام إنها الفتاة الأكثر جمالاً في العالم. وكانت هيذر تحب والدتها أيضاً، وتنظر إليها كما لو أنها تمثال الحرية. فذلك النوع من الحب يجعلني أرغب في البكاء على الدوام، حتى وإن كان الأمر مرتبطاً بالآنسة هيلي، لأنه يذكّرني بتريلور ومدى حبي له. كنت أقدّر رؤية طفل يهيم بوالدته حق قدره.

كنا، نحن البالغين، جالسين في ظل شجرة المغنوليا بينما كان الأطفال يلعبون. فبقيتُ على مسافة بضع أقدام من السيدات كي يكون الأمر لائقاً. ووضعتا مناشف على كرسيَّيهما الحديديَّين السوداوَين اللتين غدتا شديدتي الحرارة. كنت أحب الجلوس على الكرسي البلاستيكي الأخضر القابل للطيّ وإبقاء ساقيّ باردتين.

وشاهدتُ ماو موبلي تحمل باربي دول على الغطس من حافة البركة. ولكنني كنت أُبقي نظري على السيدتين أيضاً، وألاحظ كيفية تحدّث الآنسة هيلي إلى هيذر ووليام بلطف وسعادة، ولكن، كلما استدارت نحو الآنسة ليفولت ظهر تعبير استهزائي على وجهها.

"يا آيبيلين، أحضري لي مزيداً من الشاي المثلّج، هلاّ فعلتِ، رجاءً؟". سألت هيلي. فذهبتُ وأحضرتُ الإبريق من البرّاد.

"أرأيتِ، هذا ما لا أفهمه". سمعتُ الآنسة هيلي تقول عندما كنت قـــريبة مـــنهما. "لا أحد يريد الجلوس على مقعد مرحاض يكون عليه مشاطرته معهم".

"الأمـــر منطقـــي". قالت الآنسة ليفولت، ولكنها صمتت عندما اقتربتُ لَمَلء الكوبَين.

"شـــكراً لـــك". قالت الآنسة هيلي. ومن ثم رمقتني بنظرة محيِّرة حقاً، وقالت: "يا آيبيلين، تحبين أن يكون لك مرحاضك الخاص، أليس كذلك؟".

"أجل يا سيدتي". كانت لا تزال تتحدث عن ذلك الحمّام الصغير بالرغم من مرور ستة أشهر على الحدث.

"منفـــصلون ولكن متساوون". أجابت الآنسة هيلي الآنسة ليفولت. "هذا ما يعتبره الحاكم روس بارنيت صواباً، ولا يمكنك مجادلة *الحكومة*".

وضربت الآنسة ليفولت فخذها بيدها كما لو أن أمراً أكثر إثارة للاهـــتمام تبادر إلى ذهنها لاستبداله بموضوع الحوار السابق، ووافقَتها الرأي. فلتناقشا أمراً آخر. "هل أخبرتُك بما قاله راليه ذلك اليوم؟".

ولكن الآنسة هيلي هزّت رأسها وقالت: "يا آيبيلين، لا ترغبين في الذهاب إلى مدرسة مليئة بذوي بشرة بيضاء، أليس كذلك؟".

"لا يـــا سيدتي". قلت متمتمة. ونهضتُ، وسحبتُ دبوس تسريحة ذَيـــل الحـــصان من رأس الطفلة. كانت الكرات البلاستيكية الخضراء تتشابك مع الشعر عندما يبتلّ. ولكن، ما أردت القيام به في الواقع هو وضـــع يـــديّ على أذُنيها كيلا تسمع هذا الحديث، والأسوأ من ذلك موافقتي الآنسة هيلي الرأي.

ولكنني فكرت بعد ذلك؛ لماذا؟ لماذا عليّ الوقوف هنا وموافقتها الـــرأي؟ وإذا كـــان على ماو موبلي أن تسمع شيئاً ما، فلتسمع أموراً

ذات معـــنى. فحبستُ أنفاسي، وبدأ قلبـــي يخفق بقوة، وقلت بأكبر قدر من التهذيب: "ليس إلى مدرسة تحتوي على ذوي بشرة بيضاء فقط، بل إلى مدرسة يكون فيها ملوّنو البشرة وذوو البشرة البيضاء معاً".

فنظرت هيلي والآنسة ليفولت إليّ، ونظرتُ مجدداً إلى الأطفال.

"ولكـــن، يـــا *آيبيلين*". وابتسمت الآنسة هيلي بفتور: "إن ذوي البشرة الملونة وذوي البشرة البيضاء... *مختلفون* جداً". وغضّنت أنفها.

وشـــعرتُ بشفتي تتجعّد. بالطبع نحن مختلفون! الجميع يعرفون أن ذوي البشرة الملونة وذوي البشرة البيضاء ليسوا مماثلين.

وتـــوقفت المناقشة لأن الآنسة هيلي عادت إلى حديثها مع الآنسة لـــيفولت. وفجـــأةً، حجبت سحابةٌ تُنذر بالمطر الشمسَ. فتوقّعتُ أن نشهد وابلاً من المطر.

"... الحكومة تعرف ما هو الأفضل، وإذا ظنت سكيتر أنها...".

"يـــا أمـــي! يـــا أمي! انظري إليّ!". صاحت هيذر من البركة. "انظري إلى ضفائر شعري!".

"أنا أراك! أنا أراك حقاً! سيخوض وليام الانتخابات...".

"يا أمي، أعطيني مشطك! أريد الادعاء أنني أدير صالون تجميل!".

"... لا يمكـــنني الاجـــتماع بصديقات مؤيّدات لذوات البشرة الملونة...".

"ياااا أمي! أعطيني مشطك!".

"لقد قرأتُه. وجدتُه في حقيبتها المدرسية، وأعتزم القيام بأمر ما".

وهدأت الآنسة هيلي بعد ذلك، باحثةً عن المشط في حقيبة يدها. ودوّى الـــرَّعد فوق ساوث جاكسون وسمعنا عويل صفارة إنذار تشير إلى هـــبوب إعـــصار. كنت أحاول فهم ما قالته الآنسة هيلي؛ *الآنسة سكيتر، حقيبتها المدرسية، لقد قرأتُه*.

فأخرجتُ الأطفال من البركة، ولففتهم بالمناشف. وأحدث الرعد دويّاً هائلاً في السماء.

بعد قليل من هبوط الظلام، كنت جالسة إلى طاولة مطبخي أقلّب قلـــم الرصـــاص بيدي، ونسخة *هاكلبيري فين* التي حصلتُ عليها من المكتـــبة الخاصـــة بـــذوي البشرة البيضاء أمامي، ولكنني لم أتمكن من قـــراءتها. كـــان هـــناك مذاق مرّ في فمي شبيه بمذاق رواسب البنّ في الرشفة الأخيرة. وشعرت بالحاجة إلى مكالمة الآنسة سكيتر.

لم يسبق لي أن اتصلت بمنـــزلها إلا مرتين فقط، لأنه لم يكن لدي خـــيار آخر، وذلك عندما أطلعتها على موافقتي على إجراء المقابلات وموافقة ميني على ذلك أيضاً. كنت أعلم أن الأمر ينطوي على مخاطر. ومـــع ذلـــك، نهضتُ، ووضعتُ يدي على الهاتف المعلّق على الجدار. ولكـــن، مـــاذا لـــو أجابت والدتها، أو والدها؟ كنت أراهن على أن خادمـــتها عـــادت إلى منـــزلها قبل ساعات. كيف ستتمكن الآنسة سكيتر من شرح قيام امرأة ملوّنة البشرة بالاتصال بها هاتفياً؟

فجلستُ مجدداً. كانت الآنسة سكيتر قد مرّت بمنـــزلي قبل ثلاثة أيام للتحدث إلى ميني. لقد بدا الأمر كما لو أن كل شيء يسير بشكل جـــيد بعد أن أوقفتها الشرطة قبل أسابيع قليلة. ولم تقل أي شيء عن الآنسة هيلي.

وتأففتُ على كرسيّي للحظات، متمنيةً أن يرنّ الهاتف. وركضتُ وراء صرصور في الغرفة حاملةً حذاء العمل، ولكن الصرصور فاز. لقد زحف تحت كيس الملابس التي أعطته لي الآنسة هيلي، وكان موضوعاً هناك منذ أشهر.

فحـــدّقتُ إلى الكيس، وبدأت أقلّب ذلك القلم بيدي ثانيةً. كان يتعـــيّن علـــيّ القيام بأمر ما بشأن الكيس. لقد اعتدتُ قيام السيدات

بيضاوات البشرة بإعطائي ملابس، ولم أُضطر إلى شراء ملابسي الخاصة طـوال ثلاثـين عاماً. كان يتطلب الأمر بعض الوقت لأشعر أنها لي. وعندما كان تريلور صغيراً، ارتديتُ معطفاً قديماً أعطته لي سيدة كنت أعمل لديها. فنظر إليّ تريلور بطريقة غريبة وتراجع إلى الوراء، وقال إن رائحتي مماثلة لرائحة ذوي البشرة البيضاء.

ولكـن ذلك الكيس الورقي مختلف لأنني لا أستطيع ارتداء الملابس الموجودة فيه ولا يمكنني إعطاؤها لصديقاتي. فكل قطعة في الكيس، البنطال السروالي، القميص ذات ياقة بيتر أن، السترة زهرية اللون التي يوجد عليها بقعـة مـرَق اللحم، لا بل الجوارب أيضاً عليها كتابة *إيتش. دبليو. إيتش* بحروف حمراء مطرَّزة ومتصلة بالرغم من أنها تناسب مقاسي. أظن أن يول مـاي هي التي قامت بتطريز تلك الحروف. لقد شعرتُ أنني سأكون ملكاً خاصاً بهيلي دبليو هولبروك إذا ما ارتديتُ تلك الملابس.

فنهضتُ وركلتُ الكيس، ولكن الصرصور لم يخرج. وأخرجتُ مفكـرتي، عازمـةً على البدء بأدعيتي، ولكنني كنت شديدة القلق من الآنسة هيلي، وتساءلتُ عما عنَته بعبارة *لقد قرأته*.

بعـد قلـيل، انجرفت بتفكيري إلى أمر لم أكن أتمنى التفكير فيه. كنت أعرف تماماً كما أظن ما الذي سيحدث إذا اكتشفت السيدات بيـضاوات البـشرة أننا نكتب عنهنّ، مُخبرات عن حقيقتهنّ. فالنساء لـسنَ كالـرجال. والمرأة لن تضربكم بعصا، كما أن الآنسة هيلي لن تصوّب مسدساً نحوي. ولن تقوم الآنسة ليفولت بإحراق منـزلي.

لا، فالنـساء بيـضاوات البشرة يُحببن إبقاء أيديهنّ نظيفة. هنّ يستخدمن مجموعة أدوات صغيرة برّاقة، حادّة كأظافر مرتَّبة وموضوعة بشكل متقَن، على غرار الأدوات الموجودة على صينية طبيب الأسنان، ويخصصن الوقت الكافي لتزيين أنفسهنّ.

فالأمر الأول الذي تقوم به السيدة بيضاء البشرة هو طردكِ، فتستائين ولكنك تعتبرين أنك ستجدين عملاً آخر عندما تستتب الأمور وتنسى تلك السيدة ما حدث. ولا يكون المال متوافراً معك لتسديد إيجار شهر واحد عن منزلك، فيحمل لك الناس كَسرولات قَرع.

ولكن بعد أسبوع من فقدانك عملك، تتناولين ذلك المغلف الأصفر الصغير الموضوع داخل بابك المُنخليّ، ويكون على الورقة في داخله عبارة **إشعار بالإخلاء**. وكل صاحب مُلك في جاكسون أبيض البشرة، تكون زوجته بيضاء البشرة على معرفة بنساء أخريات. فتبدأين بالقلق وتبحثين عن عمل من دون جدوى. وحيثما بحثتِ تُقفَل الأبواب في وجهك، ولا يعود لديك مكان للإقامة فيه.

وتبدأ الأمور بالتسارع.

فإذا وُضعت ملاحظة على سيارتك، فهذا يعني أنهم سيستعيدونها.

وإذا لم تسددي قيمة تذكرة رَكن السيارة، تذهبين إلى السجن.

وإذا كانت لديك ابنة، فإنك قد تنتقلين للعيش معها. هي تعمل لدى عائلة من ذوي البشرة البيضاء، ولكنها تعود إلى المنزل بعد أيام قليلة وتقول: "يا أمي؟ لقد طُردتُ". وتبدو على وجهها أمارات الألم والخوف، ولا تفهم سبب طردها. فتخبرينها أنك السبب.

ولكن زوجها يعمل، ويمكنه إطعام الطفل على الأقل.

ويطردون زوجها بعد ذلك.

فيشيران إليك، باكيين ومتسائلَين عن سبب طردك، ولكنك لا تتذكرين السبب. وتمرّ أسابيع من دون عمل أو مال أو منزل. وتأملين في أن تضع السيدة بيضاء البشرة نهاية لمحنتك، وأن تكون قد باتت مستعدة لنسيان الماضي.

ويُقرع بابك في وقت متأخر من الليل من دون أن تكون السيدة بيضاء البشرة عند الباب. فهي لا تقوم بهذه الأمور بنفسها. ولكن عندما تتتابك كوابيس الإحراق أو القَطع أو الضرب، تدركين أمراً لم تعرفيه طوال حياتك؛ السيدة بيضاء البشرة لا تنسى *أبداً*.

ولن تكفّ عن ملاحقتك حتى مماتك.

* * *

في صباح اليوم التالي، أوقفت الآنسة سكيتر سيارة الكاديلاك على الطريق الخاصة بمنزل الآنسة ليفولت. كنت أحمل دجاجاً نيئاً بيديّ، وكان جهاز الطهو مُشعَلاً، وماو موبلي تبكي بسبب تضوّرها من الجوع من دون أن يكون في استطاعي تحمّل بكائها ثانيةً أخرى. فعبرتُ غرفة الطعام، رافعةً يدَيّ المتسختين في الهواء.

وسألت الآنسة سكيتر الآنسة ليفولت عن لائحة الفتيات اللواتي يخدمن اللجنة، فقالت الأخيرة: "إلين هي رئيسة لجنة الكعكة كوبيّة الشكل". وأجابت الآنسة سكيتر: "ولكن روكسان هي رئيسة لجنة الكعكة كوبيّة الشكل". فقالت الآنسة ليفولت: "لا، روكسان هي الرئيسة المساعدة للجنة الكعكة كوبيّة الشكل، وإلين هي الرئيسة". لقد أزعجني ذلك الحديث عن الكعكة كوبيّة الشكل لدرجة أنني أردت نَكز الآنسة سكيتر بإصبعي المتسخة، ولكنني آثرت عدم مقاطعتها. لم يتناول الحديث أبداً الحقيبة المدرسية.

وقبل أن أدرك الأمر، خرجت الآنسة سكيتر.

يا الله.

في تلك الليلة، وبعد العشاء، حدّقتُ وذلك الصرصور ببعضنا بعضاً عبر أرضيّة المطبخ. كان كبيراً، يبلغ طوله بوصة أو بوصة ونصف، أكثر سواداً مني، ويُحدث صوتاً بجناحَيه. فحملتُ حذائي بيدي.

ورنّ الهاتف، فأُجفلنا كلانا.

"مـــرحباً، يا آيبيلين": قالت الآنسة سكيتر، وسمعتُ إغلاق باب. "آسفة للاتصال في وقت متأخر".

فاستعدتُ أنفاسي. "أنا سعيدة أيضاً لأنك اتصلت".

"أتـــصل فقـــط لأعـــرف إذا حـــصلتِ على أي... جواب من الخادمات الأخريات، أعني".

لقـــد بـــدت الآنسة سكيتر مشدودة الفك. كانت متّقدة مؤخراً كذبابـــة ســـراج الليل من فَرط الحب. وبدأ قلبـــي يخفق بقوة. ومع ذلك، لم أُمطرها بالأسئلة، لم أكن واثقة من السبب.

"ســـألتُ كورين التي تعمل لدى عائلة كوليز، فرفضَت. وسألتُ روندا بعد ذلك، وشقيقتها التي تخدم عائلة ميلرز... ولكنهما رفضتا".

"ماذا عن يول ماي؟ هل... تحدثتِ إليها مؤخَّراً؟".

فتـــساءلتُ حينئذ عما إذا كان هذا الأمر هو سبب تصرّف الآنسة ســـكيتر بتلك الغرابة. فقلت لها إنني سألت يول ماي منذ شهر، ولكنني لم أسألها في الواقع لأنها خادمة الآنسة هيلي هولبروك، وليس لأنني لا أعرف يول ماي جيداً، وكل ما يمتّ بصلة إلى ذلك الاسم يجعلني عصبية المزاج.

"مـــنذ مدة غير بعيدة. ربما... أسألها مجدداً". قلت، كاذبةً، وقد كرهتُ ذلك.

وعُـــدت إلى تقليب القلم بيدي، مستعدّةً لأخبرها ما قالته الآنسة هيلي.

"يـــا آيبـــيلين". قالت الآنسة سكيتر بصوت مرتجف: "عليّ أن أخبرك بأمر ما".

وصـــمتت الآنسة سكيتر في ما يشبه الهدوء المخيف الذي يسبق العاصفة.

"ماذا حدث، يا آنسة سكيتر؟".

"لقـــد... تركتُ حقيبتي المدرسية في مقرّ الرابطة، وعثرت عليها هيلي".

فنظرتُ شزَراً، وشعرتُ أنني لا أسمع جيداً. "الحقيبة الحمراء؟".

و لم تُجب.

"آو... *يا الله*". لقد بدأت الأمور تتضح على نحو يدعو للغثيان.

"كانـــت القصص داخل حافظة أوراق أخرى في جَيب جانبـــي مخفيّ تحت حاشية جلدية متدلّية. أعتقد أن قوانين جيم كرو هو كل ما رأته، إنه... كتيّب حصلتُ عليه من المكتبة، ولكن... لست واثقة من الأمر".

"آه، يـــا آنـــسة سكيتر". قلت وأغمضتُ عينيّ. ليساعدني الله، ليساعد الله ميني...

"أعـــرف، *أعـــرف*". قالت الآنسة سكيتر وشرعَت بالبكاء على الهاتف.

"لا بأس، لا بأس". قلت، وحاولتُ التخفيف من غضبـــي. كان حادثاً، قلت لنفسي، ولن يعود إلقاء اللوم عليها بالفائدة على أحد.

ولكن *الأمر يدعو للغضب*.

"يا آيبيلين، أنا آسفة *جداً*".

ومرّت ثوانٍ قليلة لم يُسمع فيها إلا خفقان القلب. وببطء شديد وخـــوف، بدأ دماغي يقلّب الوقائع القليلة التي زوّدتني بها، إضافةً إلى المعلومات التي أملك.

"منذ متى حدث ذلك؟". سألتُ.

"منذ ثلاثة أيام. أردت اكتشاف ما الذي تعرفه قبل أن أخبرك".

"تحدّثتِ إلى الآنسة هيلي؟".

"للحظـــات قلـــيلة فقط عندما ذهبتُ لإحضار الحقيبة. ولكنني تحدثت إلى إليزابيت ولو آن، وإلى أربع نساء أخريات يعرفن هيلي. لم تقل إحداهنّ شيئاً عن الأمر. لذلك السبب... لذلك السبب سألتُ عن يول ماي". قالت. "كنت أتساءل عما إذا سمعَت شيئاً ما في العمل".

فأخـــذتُ نفَساً، كارهةً نقل الخبر إليها. "لقد سمعتُ بالأمر، يوم أمس. كانت الآنسة هيلي تحدّث الآنسة ليفولت عنه".

و لم تقـــل الآنسة سكيتر شيئاً، وشعرتُ أنني أنتظر قَذف آجرّة ما عبر نافذتي.

"كانت تتحدث عن خوض السيد هولبروك الانتخابات للفوز بأحد المناصب، وعن تأييدك لذوي البشرة الملوّنة، وقالت... إنها قرأت شيئاً ما". قلت بصوت مرتفع، مُرتجفة، ومستمرة في تقليب القلم بين أصابعي.

"هـــل قالت شيئاً ما عن الخادمات؟". سألَت سكيتر. "أعني، هل كانت مستاءة منّي فقط أم أنها ذكرتك أو ذكرت ميني؟".

"لا، ذكرتك... أنت فقط".

"حسناً". قالت الآنسة سكيتر وتنفّست الصُعداء في الهاتف. لقد بدت مستاءة، ولكنها لم تكن تعرف ما الذي قد يحلّ بـــي، وبميني. لم تكن تعرف شيئاً عن الأدوات الحادّة والبرّاقة التي تستخدمها السيدات بيـــضاوات البـــشرة، وعن قَرع الباب في وقت متأخر من الليل، وعن وجود رجال من ذوي البشرة البيضاء هناك في الخارج توّاقين إلى سماع خـــبر عن قيام شخص ملوّن البشرة بتخطي حدوده، حاملين المضارب الخشبية وعيدان الثّقاب. فأي شيء مهما كان صغيراً يفي بالغرض.

"لـــست واثقـــة مئة بالمئة، ولكن...". قالت الآنسة سكيتر: "إذا عـــرفت هيلي شيئاً عن الكتاب، أو عنك، أو عن ميني *بصفة خاصة*، لنشرته في مختلف أنحاء المدينة".

وفكــــرتُ في ذلـــك، وكلّي رغبة في تصديقها. "صحيح، هي لا تحب ميني جاكسون".

"يـــا آيبيلين". قالت الآنسة سكيتر، وسمعتها تنهار مجدداً ويرتجف صـــوتها. "يمكننا التوقف. إذا كنت تريدين الكفّ عن إجراء مقابلات، فأنا أتفهم ذلك تماماً".

إذا قلت لها إنني لا أريد الاستمرار في الأمر، لن أتمكن من إبلاغ ما كتبته للآخرين وما يجب عليّ كتابته بعد. *لا*، قلت لنفسي. *لا أريد* التوقف. وتفاجأتُ بالتفكير في الأمر بصوت مرتفع.

"لـــو عرفت الآنسة هيلي بالأمر، لعرفَت هي أيضاً". قلت. "لن يُنقذنا التوقف الآن".

لم أرَ أو أسمع صوت الآنسة هيلي، أو أشمّ رائحتها طوال يومين. كانـــت أصابعي تتحرك في جَيبـــي وعلى منضدة المطبخ كما لو أنني أقلّـــب القلم حتى عندما لا أحمله، قارعةً بأصابعي كعصا الطبل. أردت أن أعرف ما الذي يدور في خلد الآنسة هيلي.

لقـــد تركت الآنسة ليفولت مع يول ماي ثلاث رسائل للآنسة هيلي التي كانت تلازم مكتب السيد هولبروك، *مقر قيادة الحملة* هو ما كانت تدعوه الآنسة هيلي. فتتنهّد الآنسة ليفولت، وتُنهي المكالمة الهاتفية كما لو أنها لا تعرف سبيلاً إلى التفكير من دون قدوم الآنسة هيلـــي وقـــيامها بالضغط على الأزرار الملائمة. وسألت الطفلةُ عشر مـــرات عـــن مـــوعد قـــدوم هيذر الصغيرة للّعب سويّاً في البركة البلاســـتيكية. أعتقد أنهما ستغدوان صديقتين مقرّبتين عندما تكبران، فـــتعلّمهما الآنـــسة هيلـــي واقع الأمور. ولكننا جُلنا جميعاً في أنحاء المنـــزل بعد ظهر ذلك اليوم، محرّكين أصابعنا، ومتسائلين عن موعد ظهور الآنسة هيلي مجدداً.

وبعد قليل، قصدت الآنسة ليفولت متجر الأقمشة لأنها أرادت إعداد غطاء لشيء ما لم تختَره بعد. فنظرت ماو موبلي إليّ، وأظنّ أننا كنا نفكر في الأمر نفسه، لقامت تلك المرأة بتغطية كلينا لو أمكنها ذلك.

كان عليّ العمل حتى وقت متأخر من ذلك المساء. لقد ناولتُ الطفلة عشاءها، ووضعتُها في السرير، لأن السيد والآنسة ليفولت ذهبا لحضور فيلم سينمائي في لامار. كان السيد ليفولت قد وعد باصطحابها فاختارت الفيلم، علماً أنه العرض الوحيد المتبقي في ذلك الوقت المتأخر. وعندما عادا إلى المنزل، كانا يتثاءبان، وصراصير الليل مستيقظة. لو كنت أعمل في منازل أخرى لنمتُ في غرفة الخادمة، ولكن، لم تكن توجد غرفة مماثلة في ذلك المنزل. فظننتُ أن السيد ليفولت سيعرض عليّ اصطحابي إلى المنزل، ولكنه توجّه مباشرةً إلى السرير.

في الخارج، كان عليّ السير في الظُلمة حتى ريفرسايد التي تبعد مسافة عشر دقائق، وحيث توجد حافلة تُقلّ عمّال منشأة الماء في وقت متأخر من الليل. كان النسيم قوياً بما يكفي لإبعاد البعوض عنّي. فجلستُ على حافة المتنزّه وسط العشب وتحت المصباح الكهربائي في الشارع. ووصلت الحافلة بعد قليل، ولم يكن فيها سوى أربعة ركّاب، شخصين ملوّني البشرة، واثنين أبيضي البشرة، وكلهم رجال. لم أكن أعرف أيّاً منهم، وجلستُ على مقعد بجانب النافذة، وراء رجل نحيل ملوّن البشرة. كان بمثل سنّي يرتدي بذلة ويعتمر قبّعة وكانتا بنّيتي اللون.

فعبرنا الجسر، وتوجهنا إلى مستشفى ذوي البشرة الملوّنة حيث تستدير الحافلة. وأخرجتُ كتاب الأدعية لأتمكن من تدوين بعض

الأمـــور. فركّـــزتُ على ماو موبلي، وحاولتُ عدم التفكير في الآنسة هيلـــي. *أهّلني لأعلّم الطفلة أن تكون لطيفة، وتحب نفسها والآخرين طوال مدة وجودي معها...*

ورفعتُ نظري. لقد توقفت الحافلة وسط الطريق. فانحنيتُ فوق الممـــرّ ورأيتُ بعض الكُتَل الإسمنتية، وأضواء زرقاء تومض في الظلام، وأشخاصاً واقفين في أرجاء المكان؛ كان هناك حاجز.

فوجّه السائق أبيض البشرة نظره إلى الأمام، وأطفأ المحرّك، وتوقف مقعـــدي عن الارتجاج، شاعرةً بحدوث أمر غريب. وقوّم قبّعته، وقفز عن كرسيّه. "لازموا أماكنكم. دعوني أتحقق مما يجري".

والتـــزمنا الهدوء، منتظرين. وسمعتُ نُباح كلب غير منـــزلي كما لـــو أنه يصيح في وجهك. وبعد خمس دقائق، عاد السائق إلى الحافلة، وشـــغّل المحـــرّك مجدداً، وأطلق النفير، ولوّح بيده خارج النافذة، وعاد أدراجه ببطء شديد.

"ماذا يحدث هناك؟". سأل ذو البشرة الملوّنة الجالس أمامي.

فلم يُجب السائق، وأكمل طريقه. وغدت الأضواء الوامضة أصغر حجمـــاً، وخبا صوت نباح الكلب. واستدار السائق بالحافلة، سالكاً شـــارع فـــاريش ستريت، وتوقف عند الزاوية التالية. "لينـــزل ملوّنو البـــشرة، إنـــه الموقف الأخير". صاح، ناظراً عبر مرآة الرؤية الخلفية. "ليُعلمني ذوو البشرة البيضاء بالأماكن التي يريدون بلوغها. سأُقلّكم إلى أقرب مكان ممكن".

ونظـــر الـــرجل ملوّن البشرة إليّ، وأعتقد أن شعوراً سيّئاً انتاب كلَينا. فوقف، ووقفتُ، وتبعتُه إلى الباب الأمامي. كان الهدوء مخيفاً إذ لم نكن نسمع سوى وَقع خُطانا.

وانحنى الرجل أبيض البشرة باتجاه السائق وقال: "ماذا يجري؟".

فنـــزلتُ درج الحافلة وراء الرجل ملوّن البشرة، وسمعتُ السائق يقول ورائي: "لا أعلم، أُطلق نار على بعض الزنوج. ما وُجهتك؟".

وأُقفل الباب. آه، يا الله، قلت لنفسي، رجاءً، لا تسمح أن يكون أحد معارفي من بينهم.

لم يكـــن هـــناك أي صـــوت في شارع فاريش ستريت، أو أي شـــخص، باستثنائنا. ونظر الرجل إليّ. "أنتِ بخير؟ هل أنتِ قريبة من المنـــزل؟".

"ســـأكون بخير. أنا قريبة". كان منـــزلي على بُعد سبعة مجمّعات سكنية من المكان.

"هل تريدين أن أرافقك؟".

لقـــد رغـــبتُ في ذلك، ولكنني هززت رأسي. "لا، شكراً لك. سأكون بخير".

ومرّت شاحنة إخبارية بجانبنا بسرعة، وتوجهَت إلى التقاطع الذي استدارت الحافلة عنده. كانت هناك على جنبها عبارة **دبليو أل بـــي تي – تي في** بحروف كبيرة.

"يا الله، آمل ألا يكون الأمر بهذا السوء...". ولكن الرجل توارى عـــن الأنظار، وأصبحتُ بمفردي. فانتابني ذلك الشعور الذي يتحدث عـــنه الـــناس قبل التعرّض للهجوم مباشرةً. وبعد ثانيتين، كانت فردتا جوربـــــي تحـــتكان ببعـــضها بسرعة لدرجة أنهما بدتا كما لو أنهما سـحّابتان تُحدثان أزيزاً. ورأيت أمامي ثلاثة أشخاص يسيرون بسرعة على غراري، فاستداروا، ودخلوا منازلهم، وأغلقوا الأبواب.

كـــنت على ثقة تامة بعدم الرغبة في البقاء بمفردي لحظة أخرى. فاختـــصرتُ الطريق، مارّةً بين منـــزل مول كاتو والناحية الخلفية من مـــرأب تـــصليح الـــسيارات، وعابرةً باحة أوني بلاك في الظلام على

خــرطوم مــياه. فشعرتُ أنني سارقة، واستطعت رؤية الأضواء داخل المــنازل، والرؤوس منحنية، والأنوار المضاءة التي يُفترض بها أن تكون مطفــأة في ذلــك الــوقت من الليل. فأياً يكن الحدث، كان الجميع يتحدثون عن الأمر أو يُصغون.

أخــيراً، رأيــت ضوء مطبخ ميني، كان الباب الخلفي مفتوحاً في حــين أن الــباب المُنخُليّ مُقفَل. وأحدث الباب صريراً عندما دفعتُه. كانــت مــيني جالسة إلى الطاولة مع أطفالها الخمسة، ليروي الأصغر، شــوغر، فيليتشيا، كيندرا، وبِيني. وعلمتُ أن ليروي الأكبر في العمل. كانــوا يحدّقــون إلى الراديو الكبير الموضوع وسط الطاولة. وحدث تشوّش في الصوت لدى دخولي.

"ما الأمر؟". قلت. فقطّبت ميني جبينها، وعبثَت بقُرص المَوجات في الــراديو. كانــت هناك شريحة لحم مقدَّد مجعَّدة وحمراء في مقلاة، وعلــبة معدنــية على المنضدة كان غطاؤها مفتوحاً، وأطباق قذرة في حوض الغسيل. لم يكن مطبخ مينيٍ على الإطلاق.

"ماذا يحدث؟". سألتُ مجدداً.

وسُــمع صوت الرجل عبر الراديو يصيح: "...*عشر سنوات تقريباً إمضاء في أن – دابل – أيه – سي – بيي، شاغلاً منصب أمين سر ميداني. ولم يردِنا أي خبر بعد من المستشفى باستثناء إصابته بجروح قيل إنه...*".

"من؟" سألت.

فحــدّقت إليّ ميني كما لو أنني فاقدة الرُّشد. "ميدغار إيفرز. أين كنتِ؟".

"ميدغار إيفرز؟ ماذا حدث؟". لقد التقيتُ ميرلي إيفرز، زوجته، في فصل الخريف الماضي، عندما زارت دار العبادة الخاصة بنا مع عائلة مــاري بــون. كانت تضع ذلك الشال الأحمر والأبيض المربوط عند

عُنُقها. وتذكرتُ كيف نظرَت إلى عينيّ، وابتسمَت كما لو أنها سعيدة جــداً بلقائي. وكان ميدغار إيفرز يتصرف كالمشاهير في مكان قريب كونه يشغل منصباً عالياً جداً في أن - دابل - أيه - سي - بيي.

"اجلــسي". قالت ميني. فجلستُ على كرسي خشبـــي. كانت وجــوه الجمـــيع تحدّق إلى الراديو الذي هو بحجم محرك سيارة تقريباً، ومـــصنوع مـــن الخشب، ويحتوي على أربعة أقراص. حتى إن كيندرا كانت هادئة في حضن شوغر.

"الكيه كيه أطلقوا النار عليه أمام منـــزله منذ ساعة".

فشعرتُ بوَخز يمتدّ إلى عمودي الفقري. "أين يقيم؟".

"في غينس". قالت ميني. "حمله الأطباء إلى مستشفانا".

"لقـــد... رأيت". قلت، مفكّرةً في الحافلة. لم تكن غينس سوى على بُعد خمس دقائق منّا بالسيارة.

"... *يقول الشهود إن رجلاً واحداً، ذكَراً أبيض البشرة، قفز من بين الشُجَيرات. هناك شائعات عن تورّط الكيه كيه كيه...*".

وسُـــمع حديث غير منظَّم في الراديو، وصياح أشخاص، وبعض الارتـــباك. فـــشعرتُ بالتوتر كما لو أن شخصاً ما يراقبنا من الخارج، شخصاً أبيض البشرة. كانت الكيه كيه كيه في المنطقة على بُعد خمس دقائـــق من المنـــزل تطارد شخصاً ملوَّن البشرة، وأردت إغلاق الباب الخلفي.

"*بلغني للتوّ*". قال المذيع، لاهثاً: "أن ميدغار إيفرز توفّي".

"*ميدغار إيفرز*". وبدا كما لو أن تدافعاً حدث في المكان، وعلت الأصوات من حوله: "*لقد بلغني للتوّ أنه توفّي*".

آه، *يا الله*.

وركضت ميني باتجاه ليروي الأصغر، وكان صوتها منخفضاً وثابتاً.

"خـــذ شـــقيقك وشقيقاتك إلى غرفة النوم، اجلسوا في السرير، ولازمـــوا الغرفة". يبدو الأمر أكثر مدعاةً للخوف عندما يقوم شخص اعتاد الصياح بالتكلم بهدوء.

وبالـــرغم من معرفتي برغبة ليروي الأصغر في البقاء، فقد رمَقهم بنظـــرة واحدة وتواروا جميعاً عن الأنظار، بهدوء وسرعة. وهدأ المذيع أيـــضاً، وغدت تلك العلبة للحظات قليلة مجرّد صندوق خشبـــي بنّي اللون وأسلاكاً. "*ميدغار إيفرز*". قال، وبدا كما لو أن صوته ينخفض تدريجياً: "أمين السر الميداني في *أن - دابل - أيه - سي - بيي تُوفّي*". وتنهّد. "*ميدغار إيفرز تُوفّي*".

فابـــتلعتُ لعاباً ملء الفم، وحدّقتُ إلى ورق الجدران التي اصفرّ لونها بسبب شحم الباكون، وآثار أيدي الأطفال، وأقلام تلوين ليروي. لم تكـــن هناك أي صور أو روزنامات على جدران ميني، محاولةً عدم التفكير في ما يجري. لم أكن أريد التفكير في مقتل شخص ملوّن البشرة لأن ذلك يحملني على التفكير في تريلور.

وأطـــبقت مـــيني قبضتيّ يدَيها، وصرفت أسنانها. "لقد قتلوه أمام *أبنائه وبناته* مباشرةً، يا آيبيلين".

"ســـندعو لعائلة إيفرز، سندعو لميرلي...". ولكنها لم تكن تُصغي إليّ، لذلك توقفتُ.

"يُقـــال عـــبر الراديو إن أفراد عائلته ركضوا إلى خارج المنـــزل عـــندما سمعوا الطلقات النارية. وتقول إنه كان يمشي مترنّحاً ومضرَّجاً بالدماء، وغطّى الدماء كل أفراد عائلته...". وضرَبت الطاولة بيدها مما أدّى إلى صلصلة الراديو الخشبـــي.

فحبـــستُ أنفاســـي وشعرتُ بدُوار. كان يجب أن أكون قوية ومتماسكة لأحول دون فقدان صديقتي صوابَها.

"لن تتبدّل الأمور في هذه المدينة، يا آيبيلين. نحن نعيش في جحيم، لقد *وقعنا في الشرك*. لقد وقع أبناؤنا وبناتنا *في الشرك*".

ورفع المذيع صوته مجدداً، وقال: "... *رجال الشرطة في كل مكان، يُقيمون الحواجز على الطرقات. من المتوقّع أن يعقد رئيس البلدية تومبسون مؤتمراً صحفياً بعد قليل...*".

فشعرتُ بغصّة بعد ذلك، وسالت دموعي. لقد أثر فيّ وجود أشخاص من ذوي البشرة البيضاء مسلّحين حول حيّ ذوي البشرة الملوّنة، يصوّبون أسلحتهم باتجاههم. من سيحمي شعبنا؟ فلا وجود لرجال شرطة ملوّني البشرة.

وحدّقت ميني إلى الباب الذي خرج منه أبناؤها وبناتها، وسال العرَق على جنبَي وجهها.

"ما الذي سيفعلونه بنا، يا آيبيلين؟ إذا أمسكوا بنا...".

فأخذتُ نفَساً عميقاً. كانت تتحدث عن القصص. "كلانا نعلم أن الأمر سيّئ".

"ولكن، ما الذي سيفعلونه؟ يربطوننا ببيك أب ويجرّوننا وراءه؟ يطلقون النار عليّ في باحتي أمام أبنائي وبناتي؟ أم يجعلوننا نتضوّر جوعاً؟".

وأعرب رئيس البلدية تومبسون عبر الراديو عن مدى أسفه لعائلة إيفرز. فنظرتُ إلى الباب الخلفي المفتوح وانتابني ذلك الشعور مجدداً بسماع صوت رجل أبيض البشرة في الغرفة.

"نحن لا نطالب بالحقوق المدنية هنا. نحن نخبر قصصاً كما حدثت في الواقع".

وأطفأتُ الراديو، ووضعتُ يدي بيد ميني. وجلسنا على هذا النحو، ميني تحدّق إلى العُتّة البنّية الملتصقة بالجدار، وأنا أحدّق إلى قطعة اللحم الحمراء والجافّة في المِقلاة.

بـــدت في عيني ميني النظرات الأكثر دلالة على الشعور بالوحدة.

"ليت ليروي موجود في المنـــزل". قالت، هامسة.

وتساءلتُ عما إذا قيلت هذه الكلمات في ذلك المنـــزل من قَبل.

مـــرّت أربعة أيام وجاكسون، ميسيسيبـــي، في حالة من الغليان. وظهـــرت على تلفاز الآنسة ليفولت مجموعات كبيرة من ذوي البشرة الملـــوّنة في مسيرة في شارع هاي ستريت في اليوم التالي لجنازة السيد إيفـــرز. لقد اعتُقل ثلاثمئة شخص يومذاك. وذُكِر في الصحيفة الخاصة بملوّني البشرة أن آلاف الأشخاص شاركوا بالمسيرة، ولكن عدد ذوي البـــشرة البيـــضاء كان قليلاً جداً. وعرفت الشرطة من الذي دعا إلى المسيرة، ولكنهم لم يُطلعوا أحداً على اسمه.

وتبيّن لي أن عائلة إيفرز لم تكن تعتزم دفن ميدغار في الميسيسيبـــي، بـــل ســـيتم نقـــل جثمانه إلى واشنطن ليوارى الثرى في مدفن أرلينغتون، وافترضتُ أن ميرلي فخورة بذلك ولكنني أردته أن يبقى هناك بالقرب منا. وقـــرأتُ في الـــصحيفة كيف أن رئيس الولايات المتحدة طلب من رئيس الـــبلدية تومبـــسون معالجـــة الأمر بشكل أفضل، وإنشاء لجنة من البِيض والـــسود بهدف إيجاد حل للمسائل العالقة في الميسيسيبـــي. ولكن رئيس الـــبلدية تومبسون قال *للرئيس كنيدي*: "لن أعيّن لجنة ثنائية الأعراق. لن نخدع أنفسنا. أعتقد بصوابية الفصل العِرقي، وهكذا ستجري الأمور".

وبعد أيام قليلة، قال رئيس البلدية على الراديو ثانيةً. "جاكسون، ميسيـــسيبـــي، هي المكان الأقرب إلى السماء كما تسير فيها الأمور". قال. "وستبقى على هذه الحال بقيّة حياتنا".

وظهرت جاكسون، ميسيسيبـــي، في مجلة لايف للمرة الثانية في غضون شهرَين، وكنا موضوع الغلاف في المرة الأخيرة.

الفصل الخامس عشر

لم يـــتم التطـــرّق أبداً إلى مسألة ميدغار إيفرز في منـــزل الآنسة ليفولت. لقد انتقلتُ إلى محطة تلفازية أخرى عندما عادت من اجتماع الغـــداء، وأمضينا فترة بعد ظهرِ يومٍ صيفي جميل. و لم يبلغني شيء عن الآنسة هيلي، وكنت أشعر بقلق كبير لدى التفكير في المقابلات.

وبعـــد يـــوم واحد من جنازة إيفرز، مرّت والدة الآنسة ليفولت للزيارة. كانت تقيم في غرينوود، ميسيسيبـــي، وتتجه بسيارتها إلى نيو أورليانـــــز. لم تقـــرع الآنسة فريديريكس الباب، بل دخلت مباشرةً غـــرفة الجلوس حيث أقوم بكيّ الملابس، وابتسمت لي بطريقة تنمّ عن خيبة أمل. فذهبتُ لأخبر الآنسة ليفولت.

"يـــا أمي! لقد أتيتِ في وقت باكر جداً! لا شك أنك استيقظتِ عـــند بزوغ الفجر، آمل في ألا تكوني منهَكة!". قالت الآنسة ليفولت، وهـــرعَت إلى غـــرفة الجلـــوس، والتقطت الألعاب بأسرع ما يمكن. ورمقتني بنظرة تعني، *الآن*. فوضعتُ قمصان الآنسة ليفولت المتجعّدة في سلّة، وأحضرتُ قطعة قماش لمسح الحلوى الهلامية عن وجه الطفلة.

"تبدين نضِرة وأنيقة هذا الصباح، يا أمي". وابتسمت الآنسة ليفولت بقوة بحيث أن عينيها انتفختا. "هل أنت متحمّسة لرحلة التسوّق؟".

ونظـــراً إلى امــتلاكها سيارة بويك حديثة العهد، وانتعالها حذاءً جميلاً ببكلة، افترضتُ أن الآنسة فريديريكس تملك مالاً أكثر مما يملكه السيد والآنسة ليفولت.

"أردتُ القيام بنــزهة في السيارة، وكنت آمل في أن تصطحبيني إلى مطعـــم روبرت لتناول الغداء". قالت الآنسة فريديريكس. لم أكن أعـــرف كيف تُطيق هذه المرأة نفسها. كنت قد سمعتُ السيد والآنسة ليفولت يتجادلان حول كيفية طلبها من الآنسة ليفولت اصطحابها إلى مكان ذات مكانة رفيعة في المدينة وحملها على دفع الفاتورة.

فقالت الآنسة ليفولت: "آه، لماذا لا تقوم آبيلين بإعداد الغداء لنا هنا؟ لدينا لحم مقدَّد لذيذ وبعض...".

"مررتُ بك للخروج وتناول الغداء، وليس لتناول الطعام هنا".

"حسناً، حسناً، يا أمي، دعيني أُحضر حقيبة يدي فحسب".

ونظـــرت الآنـــسة فريديـــريكس إلى ماو موبلي تلعب بدميتها الـــصغيرة، كلـــوديا، على الأرض. فانحنت وعانقتها، وقالت: "يا ماو موبلـــي، هل أحببتِ ذلك الفستان المطرَّز الذي أرسلتُه إليك الأسبوع الماضي؟".

"أجل". قالت الطفلة لجدتها. كنت أكره أن أقول للآنسة ليفولت كـــم أن الفـــستان مشدود حول وسط الطفلة التي يمتلئ جسمها أكثر فأكثر.

وقطّـــبت الآنـــسة فريديـــريكس جبينها، موجّهةً نظرها إلى ماو موبلي. "تقولين، *أجل يا سيدتي*، أيتها السيدة الشابة. هل سمعتني؟".

وظهـــرت علـــى وجـــه مـــاو موبلي نظرة فاترة وقالت: "أجل يـــا سيدتي". ولكنني كنت أعلم بما تفكر فيه، *رائع، هذا ما أحتاج إليه اليوم. سيدة أخرى في هذا المنـــزل لا تحبني*.

وتوجهتا إلى الباب بينما كانت الآنسة فريديريكس تضغط بشكل موجع على الناحية الخلفية لذراع الآنسة ليفولت. "لا تعرفين كيف تستعينين بعاملة المنزل الملائمة، يا إليزابيت. من واجبها التأكد من حسن *سلوك* ماو موبلي الاجتماعي".

"حسناً، يا أمي، سنعمل على ذلك".

"لا يمكنك الاستعانة بأي شخص والأمل في أن يحالفك الحظ".

بعد قليل، أعددتُ للطفلة شطيرة باللحم يمكنها إشباع الآنسة فريديريكس. ولكن ماو موبلي لم تتناول سوى قضمة واحدة، ودفعَتها بعيداً.

"لا أشعر أنني بخير. إن *فَلقي* يؤلمني، يا آيبي".

كنت أعلم ما الذي عنته *بالفلق* (حلق) وأعرف كيف أعالج الأمر. لقد أُصيبت الطفلة برَشح الصيف. فسخّنتُ لها كوب ماء بالعسل، ووضعتُ فيه حبة ليمون صغيرة لتحسين المذاق. ولكن، ما كانت هذه الفتاة بحاجة إليه في الواقع هي قصة تساعدها على الخلود إلى النوم. فحملتُها بين ذراعَيّ. يا الله، إنها تكبر. بعد أشهر قليلة، تبلغ عامها الثالث، وهي سمينة كيقطينة.

وبعد ظهر كل يوم، كنت أجلس مع الطفلة على الكرسي الهزّاز قبل قيلولتها، وأقول لها، *أنت لطيفة، أنت ذكية، أنت هامّة*. ولكنها تكبر وأعرف أن هذه الكلمات القليلة لن تعود كافية بعد فترة قصيرة.

"يا آيبي؟ اقرأي لي قصة؟".

فبحثتُ بين الكتب ووجدتُ ما الذي سأقرأه لها. لا يمكنني أن أقرأ لها قصة جورج *الفضولي* مرة أخرى لأنها لا تريد سماعها. والأمر نفسه بالنسبة إلى قصتيّ *الدجاجة الصغيرة* أو *ميدلاين*.

لـــذلك، هـــززنا على الكرسي لمدة وجيزة، وأحنت ماو موبلي رأسها على لباسي الرسمي. وشاهدنا المطر يتساقط على الماء المتبقّي في البركة الخضراء، ودعوت لميرلي إيفرز، متمنّيةً الحصول على يوم إجازة للمشاركة في الجنازة. وفكرتُ في كيف أن ابنها البالغ من العمر عشر ســـنوات بكى بهدوء، كما أخبرتني إحداهنّ. فهززتُ ودعوت، شاعرةً بحزن شديد لم أعرف سببه. وخرجت الكلمات من فمي تلقائياً.

"في يوم من الأيام، كانت هناك فتاتان صغيرتان". قلت. "كانت لإحداهما بشرة سوداء وللأخرى بشرة بيضاء".

فرفعَت ماو موبلي نظرها إليّ. كانت تستمع.

"قالت الفتاة الصغيرة ملوّنة البشرة للفتاة بيضاء البشرة، *لماذا أنت شاحبة البشرة؟* فقالت الفتاة البيضاء، *لا أعلم. لماذا أنت ملونة البشرة؟ ماذا يعني ذلك برأيك؟*".

"ولكن أياً من الفتاتين لم تكن تعرف السبب. لذلك قالت الفتاة البيضاء، *حسناً، لنرَ. لديك شعر ولديّ شعر*". ونفشتُ شعر ماو موبلي.

"قالت الفتاة الصغيرة الملوّنة، *لديّ أنف، ولديك أنف*". وقرصتُ أنفها الصغير. فمدّت يدها للقيام بالأمر نفسه لي.

"وقالت الفتاة الصغيرة البيضاء، *لديّ أصابع قدم، ولديك أصابع قدم*". وقمتُ بالأمر الصغير نفسه لأصابع قدمها، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى أصابع قدمي لأنني كنت أنتعل حذاء العمل الأبيض.

"*إذاً، نحـــن مماثلتان، ولكن اللون مختلف فقط*، قالت الفتاة الصغيرة الملوّنة. ووافقتها الفتاة الصغيرة البيضاء الرأي وأصبحتا صديقتين. النهاية".

ونظـــرت الطفلـــة إليّ. يا الله، لو سمعتُ قصة مماثلة لبدت لي حزينة، ولكنني لم أخطط للأمر. فابتسمت ماو موبلي وقالت: "أخبريني القصة مجدداً".

ففعلتُ. ولكنها نامت في المرة الرابعة، وهمستْ: "سأخبرك قصة أفضل في المرة التالية".

"ألا نملــك مــزيداً من المناشف، يا آبيلين؟ هذه المنشفة جيدة، ولكــن لا يمكننا أخذ هذا الشيء القديم. سأكون مُحرَجة حتى الموت. أظن أننا سنأخذ تلك المنشفة فقط".

كانــت الآنــسة ليفولت في ارتباك تام. فهي والسيد ليفولت لا ينتمــيان إلى أي نــاد للسباحة، ولا حتى إلى بركة برودمور الصغيرة. وكانت الآنسة هيلي قد اتصلت في صباح ذلك اليوم وسألَت عمّا إذا كانــت والطفلة تريدان الذهاب للسباحة في نادي جاكسون كاونتري كلــوب، وهي دعوة لم تحصل عليها الآنسة ليفولت إلا مرةً واحدة أو مرتين فقط. لقد قصدتُ ذلك النادي أكثر مما قصدَته على الأرجح.

لا يمكــنكم استخدام العُملة الورقية هناك، بل عليكم أن تكونوا أعضاء وتقتطعوا التكلفة من حسابكم. ولكنني أعرف أن الآنسة هيلي لا تحب تغطية تكلفة الأخريات، لذلك، اعتبرتُ أنها تذهب مع سيدات أخريات إلى النادي يتمتّعن بالعُضوية.

ولم يكن قد بلغنا أي شيء بعد عن الحقيبة المدرسية، كما أنني لم أرَ الآنــسة هيلي منذ خمسة أيام، ولم ترَها الآنسة سكيتر كذلك، وهو أمــر يُــنذر بالسوء، من المفترَض أن تكونا صديقتين مقرَّبتين. كانت الآنــسة سكيتر قد أحضرت الفصل الأول لميني في الليلة السابقة. ولم أكن أعلم ما الذي سيحلّ بنا إذا لاحظت الآنسة هيلي أي شيء على صلة بالقصص. وأملتُ فقط في ألا تكون الآنسة سكيتر تخشى إخباري بالأمر إذا بلغها أي جديد.

فألبستُ الطفلة البيكيني الأصفر. "عليك عدم خلعه. لا يسمحون للأطفــال العــراة بالسباحة في النادي الريفي". كما أنهم لا يسمحون

للــزنوج والــيهود بدخول النادي. لقد سبق لي أن عملتُ لدى عائلة غولدمانــز. كان يهود جاكسون يقصدون نادي كولونيال كاونتري لممارسة السباحة، بينما يقصد الزنوج بحيرة مايز لايك.

وأطعمتُ الطفلة شطيرة بزبدة الفول السوداني، ورنّ الهاتف.

"منــزل الآنسة ليفولت".

"مرحباً يا آيبيلين، سكيتر تتكلم. هل إليزابيت موجودة؟".

"مرحباً، يا آنسة سكيتر...". ونظرتُ إلى الآنسة ليفولت وكنت علــى وشــك تسليمها الهاتف، ولكنها لوّحت بيديها. وهزّت رأسها وفمها، *لا. قولي لها إنني غير موجودة.*

"لقد... ذهبَت، يا آنسة سكيتر". قلت ونظرتُ إلى عينيّ الآنسة لــيفولت مباشــرةً بينما كنت أكذب. لم أفهم الأمر. فالآنسة سكيتر عضوة في النادي، ولن تكون هناك مشكلة بدعوتها.

عند الظهر، دخلنا ثلاثتنا سيارة الآنسة ليفولت الزرقاء من طراز فورد فيرلين. ووضعتُ على المقعد الخلفي بجانبنا كيساً وترمساً يحتوي على عصير التفاح، والفول السوداني، وزجاجتي كوكا - كولا، سنقوم بتــناولها ساخنة على غرار تناول القهوة. وافترضتُ أن الآنسة ليفولت تعلــم أن الآنــسة هيلي لن تُلحّ علينا الدعوة لتناول الطعام في مطعم الوجبات السريعة. الله يعلم سبب دعوتها في ذلك اليوم.

وجلست الطفلة على حضني في المقعد الخلفي. فأنــزلتُ النافذة ولفح الهواء الدافئ وجهينا. واستمرت الآنسة ليفولت في رفع شعرها. كانــت تقود بسرعات متفاوتة جداً، فشعرتُ بالغثيان، وتمنّيت لو أنها تُبقي يدَيها على عجَلة القيادة.

فمــررنا بجانــب بن فرانكلين فايف آند دايم، ومتجر مثلجات سيل - ليلي الذي لديه نافذة انــزلاقية في الجانب الخلفي ليتمكن ذوو

البشرة الملونة من شراء المثلجات أيضاً. كانت ساقاي تتعرّقان بسبب جلوس الطفلة عليّ. وبعد قليل، سلكنا طريقاً طويلة ووعرة، وعلى جانبيها مراعٍ وأبقار تهز ذيولها للتخلص من الذباب. فعددنا ستاً وعشرين بقرة، ولكن ماو موبلي لم تتخطَّ بالعدّ رقم عشرة لأنه أقصى ما يمكنها بلوغه.

وبعد نحو خمس عشرة دقيقة، سلكنا طريقاً خاصة مرصوفة. كان النادي مبنى أبيض منخفضاً تحيط به شُجَيرات شائكة، ولم يكن أنيقاً كما وصفه الناس. كانت هناك العديد من مواقف السيارات أمامه، ولكن الآنسة ليفولت فكرت في الأمر للحظات وركَنت سيارتها في مكان بعيد.

فنزلنا إلى الباحة المزفَّتة، وشعرنا بالحرارة. كنت أحمل الكيس الورقي بيد، وأمسك بيد ماو موبلي باليد الأخرى. واجتزنا قطعة الأرض السوداء التي يتصاعد منها البخار. لقد جعلتنا الخطوط المصبَّعة أشبه بعرانيس الذُّرة المشويّة على مصبَّعات الشواء على الفحم. وشعرتُ بوجهي يحترق تحت أشعة الشمس، وكانت الطفلة تسير ورائي مُمسكةً بيدي وتنظر مذهولة كما لو أنها تعرّضت للصَّفع. ولهثت الآنسة ليفولت عند الباب، وقطّبت جبينها. كانت لا تزال تبعد عشرين ياردة، وتساءلَت كما أعتقد عن سبب ركن سيارتها بعيداً. وشعرت بحريق في رأسي وبرغبة في الحكاك، ولكنني لم أتمكن من القيام بذلك لأن يدَيّ مشغولتان. وبعد ذلك، دخلنا الرّدهة. *هووو!* من المؤكد أن أحدهم أطفأ اللهب. كانت الرّدهة مُظلمة، باردة. فطرفنا عيوننا لفترة من الزمن.

ونظرت الآنسة ليفولت حولها، ولم تكن ترى جيداً، وشعرَت بالخجل. فأشرتُ لها إلى الباب الجانبي. "البركة في ذلك الاتجاه، يا سيدتي".

لقد بدَت ممتنّة لأنها لم تضطر إلى سؤال امرأة جديرة بالازدراء.

ففتحنا الباب، وسطعت الشمس مجدداً على عيوننا، ولكن الحرارة كانـــت أكثـــر اعتدالاً وبرودة، وبركة السباحة تشعّ باللون الأزرق. وبـــدت التظلـــيلات الواقـــية من الشمس والمخطَّطة باللونين الأسود والأبيض نظيفة. وكانت تفوح رائحة صابون غسل الملابس، والأطفال يضحكون ويرشّون الماء، والسيدات مستلقيات في أرجاء المكان بثياب السباحة وبنظّاراتهنّ الشمسية يقرأن المجلات.

ظلّلـــت الآنسة ليفولت عينيها وبحثت عن الآنسة هيلي. كانت تعتمـــر قـــبّعة بيضاء ليّنة على رأسها، وترتدي فستاناً مرقَّطاً باللونين الأســـود والأبـــيض، وتنتعل خفاً أبيض ببُكلة ومقاسه أكبر بكثير من مقاس قدميها. فقطّبت جبينها بسبب شعورها بعدم الانتماء إلى المكان، ولكنها ابتسمت لأنها لم تشأ أن تلاحظها الأخريات.

"هـــا هي ذا". وتبعنا الآنسة ليفولت حول البركة، وتوجهنا نحو الآنـــسة هيلـــي الـــتي ترتدي ثوب سباحة أحمر. كانت مستلقية على كرسيّ استراحة تراقب طفليها يسبحان. ورأيت خادمتين مع عائلات أخرى لم أعرفهما، ولكن يول ماي لم تكن موجودة.

"هـــا هنّ جميعاً". قالت الآنسة هيلي: "يا ماو موبلي، أنت تبدين كـــشخص بدين بذلك البيكيني. يا آيبيلين، ابني وابنتي هناك في بركة الأطفـــال. يمكنك الجلوس في الظل والاعتناء بهم. لا تدعي وليام يرشّ الفتاتين بالماء".

واســـتلقت الآنسة ليفولت على كرسيّ الاستراحة بجانب الآنسة هيلـــي، وجلستُ وراءهما إلى الطاولة تحت المظلة على بُعد أقدام قليلة منهما. وخلعتُ جوربيّ لتجفيف ساقيّ من العرق. كنت في موقع جيد لسماع ما تقولان.

"يـــول ماي". قالت الآنسة هيلي، هازّةً رأسها للآنسة ليفولت: "يـــوم إجـــازة آخر. أُصدقك القول، تلك الفتاة تُفقدني أعصابـــي". حـــسناً، لقد حُلّ أحد الألغاز. لقد دعت الآنسة هيلي الآنسة ليفولت إلى النادي لأنها عرفَت أنها ستصطحبني معها.

وســـكبت الآنـــسة هيلي مزيداً من زبدة الكاكاو على جسدها الممتلئ، وساقيها السمراوين، وفركتها بشكل دائري. لقد غدت مغطاة بالـــشحم إلى حد كبير لدرجة أنها بدأت تلمع. "لقد أصبحتُ جاهزة للنـــــزول إلى الـــشاطئ". قالـــت الآنسة هيلي: "ثلاثة أسابيع على الشاطئ".

"كم أتمنى لو كان لعائلة راليه منـــزل هناك". قالت الآنسة ليفولت وتنهّدَت. وسحبَت فستانها إلى الأعلى قليلاً لتشميس ركبتيها البيضاوين. لم يكن في استطاعتها ارتداء أي ثوب سباحة منذ أن غدت حاملاً.

"بالطـــبع، علیـــنا دفع أجرة الحافلة لإعادة يول ماي إلى هنا في نهايات الأسبوع، *ثمانية* دولارات. يجب عليّ خصمها من راتبها".

وصاح الأطفال قائلين إنهم يريدون النـــزول إلى البركة الكبيرة. فأخـــرجتُ علبة الفُقّاعات الرَّغوية من الكيس وأوثقتها حول بطن ماو موبلي. وأعطتني الآنسة هيلي علبتين أُخريين وضعتهما حول بطن وليام وهـــيذر. ونـــزلوا إلى البركة الكبيرة وطَفوا كما لو أنهم مجموعة من فلّـــين صيد السمك. فنظرت الآنسة هيلي إليّ، وقالت: "أليسوا الأكثر ظُرفاً؟". فأومأتُ برأسي. إنهم كذلك بالتأكيد، حتى إن الآنسة ليفولت أومأت برأسها.

وتحدّثـــتا واستمعتُ، ولكنهما لم تذكرا الآنسة سكيتر أو الحقيبة المدرســـية. وبعد قليل، أرسلتني الآنسة هيلي إلى نافذة وجبات الطعام الـــسريعة لشراء زجاجات كوكا - كولا بنكهة الكرز للجميع، ولي

أيضاً. وبدأ الجَراد يئزّ على الأشجار، وغدا الظل أكثر برودة، وشعرت أن عينيّ الموجّهتين إلى الأطفال في البركة بدأتا تُغمضان.

"يـــا آيـــي، راقبيني! انظري إليّ!". وركّزتُ نظري، وابتسمتُ لماو موبلي بينما كانت تمرح في أرجاء المكان.

عـــندئذ رأيت الآنسة سكيتر وراء البركة خارج السياج. كانت تـــرتدي تنورةً كرة مضرب وتحمل المضرب بيدها، وتحدّق إلى الآنسة هيلـــي والآنسة ليفولت، مُميلةً رأسها كما لو أنها تميّز وجهيهما. ولم تـــرَها الآنـــسة هيلـــي والآنـــسة ليفولت، واستمرتا في الحديث عن بيلوكـــسي. وشـــاهدتُ الآنسة سكيتر تدخل عبر البوّابة، وتتجه نحو البركة. وبعد قليل، وقفَت أمامهما من دون أن ترياها.

"مـــرحباً". قالت الآنسة سكيتر. كان العرَق يسيل من ذراعيها، وكان وجهها زهريّ اللون ومنتفخاً بسبب الشمس.

فـــرفعت الآنسة هيلي نظرها، ولكنها بقيت مستلقية على كرسيّ المَسبح، والمجلة في يدها. وقفزت الآنسة ليفولت عن كرسيّها ووقفَت.

"مـــرحباً، يا سكيتر! لماذا لم... حاولنا الاتصال...". وابتسمت ابتسامة عريضة لدرجة أن أسنانها اصطكّت ببعضها.

"مرحباً، يا إليزابيت".

"كرة المضرب؟". سألت الآنسة ليفولت، وأومأت برأسها كما لو أنها دمية في لوحة القيادة: "مع من تلعبين؟".

"كـــنت أضـــرب الكـــرات على الجدار بمفردي". قالت الآنسة ســـكيتر. ونفخَـــت خصلة شعر عن جبينها، ولكنها كانت ملتصقة بسبب التعرّق. ومع ذلك، فهي لم تتجنّب الوقوف في الشمس.

"يـــا هيلي". قالت الآنسة سكيتر: "هل قالت لك يول ماي إنني اتصلتُ بك؟".

فابتسمت هيلي قليلاً. "إنها في إجازة اليوم".

"لقد اتصلتُ بك يوم أمس أيضاً".

"انظـــري، يـــا سكيتر، لم يكن لديّ وقت. كنت في مقر قيادة الحملـــة منذ يوم الأربعاء نرسل مغلفات لكل شخص أبيض البشرة في جاكسون عملياً".

"حـــسناً". قالـــت الآنسة سكيتر وأومأت برأسها. وبعد ذلك، نظـــرَت شـــزَراً وقالت: "يا هيلي، هل نحن... هل صدر عني أمر ما أزعجك؟". وشعرتُ بأصابعي تهتزّ مجدداً، وتقلّب ذلك القلم غير المرئي في يدي.

فأغلقت الآنسة هيلي مجلتها، ووضعتها على الإسمنت كيلا تلوّثها بالمادة الدهنية. "يُفترض مناقشة هذا الأمر في وقت لاحق، يا سكيتر".

وجلـــسَت الآنـــسة لـــيفولت بـــسرعة، والـــتقطَت مجلة *غود هاوســـكيبينغ*، وشرعت بقراءتها كما لو أنه لم يسبق لها أن رأت يوماً أمراً أكثر أهمية مما تقرأه.

"حـــسناً". قالت الآنسة سكيتر، وهزّت كتفيها. "ظننتُ أن في استطاعتنا التحدث عن... أياً يكن الأمر، لقد أردت التحدث إليك قبل أن تغادري المدينة".

وكانـــت الآنسة هيلي على وشك الاحتجاج، ولكنها أخرجَت تنهيدة طويلة. "لماذا لا تخبرينني الحقيقة فحسب، يا سكيتر؟".

"حقيقة أي...".

"انظري، عثرتُ على *أمتعتك* تلك". فابتلعتُ بصعوبة، وحاولت الآنسة هيلي التكلم هَمساً ولكنها لم تكن تجيد ذلك في الواقع.

وحـــدّقت الآنسة سكيتر إلى هيلي. كانت هادئة تماماً، ولم تنظر إليّ أبداً. "أي أمتعة تقصدين؟".

"في حقيبتك المدرسية عندما كنت أطالع المسوّدات؟ يا سكيتر".

ونظرَت إلى السماء بسرعة وأعادت تثبيت نظرها على الآنسة سكيتر.

"لا أعرف. لم أعد أعرف شيئاً".

"يا هيلي، ما الذي تتحدثين عنه؟ ماذا رأيت في حقيبتي؟".

وألقيتُ نظرة على الأطفال. يا الله، كدتُ أَنسى أمرهم. وشعرتُ أنه سيُغمى عليّ إذا ما استمررت في الاستماع إليهنّ.

"تلك *القوانين* التي تحملينها معك؟ عما يمكن...". ونظرت الآنسة هيلي إلى الوراء باتجاهي. واستمررتُ في مراقبة البركة. "عما يمكن لأولئك الأشخاص *الآخرين* القيام به، وما لا يمكنهم القيام به، وبصدق". وهسهسَت: "أعتقد أنك عنيدة تماماً لظنّك أنك تعرفين أكثر مما تعرفه حكومتنا؟ أكثر من روس بارنيت؟".

"متى انتقدتُ روس بارنيت؟". قالت الآنسة سكيتر.

ورفعت الآنسة هيلي إصبعها باتجاه الآنسة سكيتر وهزّتها. كانت الآنسة ليفولت تحدّق إلى الصفحة نفسها، والسطر نفسه، والكلمة نفسها، وكنت أرى المشهد بأكمله من طرف عيني.

"أنت لست سياسية، يا سكيتر فيلان".

"حسناً، وأنت كذلك، يا هيلي".

عندها، وقفت الآنسة هيلي، ووجّهت إصبعها نحو الأرض. "أنا على وشك أن أصبح زوجة سياسي ما لم تؤثّري في ذلك سَلباً. كيف سيتم انتخاب وليام في واشنطن، العاصمة، ذات يوم إذا كان يوجد في مختلانا أصدقاء يؤيّدون الدمج العنصري؟".

"واشنطن؟". قالت الآنسة سكيتر وقلّبت عينيها. "وليام يخوض الانتخابات للفوز بمقعد سيناتور للولاية، يا هيلي، وقد لا يفوز".

آه، يا الله. أخيراً نظرتُ إلى الآنسة سكيتر عن عَمد. لماذا تفعلين ذلك؟ لماذا تثيرين حفيظتها؟

آه، لقد غضبت الآنسة هيلي الآن. فقوّمَت رأسها. "تعلمين جيداً كما أعلم أن هناك عدداً كبيراً من دافعي الضرائب من ذوي البشرة البيضاء في هذه المدينة الذين سيقاومونك حتى الموت. تريدين إدخالهم إلى مسابحنا؟ والسماح لهم بلمس كل ما هو موجود في متاجر البقالة الخاصة بنا؟".

وحدّقت الآنسة سكيتر طويلاً، وبشكل غير ودّي، إلى الآنسة هيلي. وبعد ذلك، رمقتني الآنسة سكيتر بنظرة سريعة لنصف ثانية، ورأت التوسّل في عينيّ. فأرخت كتفيها وقالت: "آه، يا هيلي، إنه مجرد كتيّب. لقد عثرتُ عليه في مكتبة المطبوعات منخفضة الثمن. أنا لا أحاول تغيير أي قوانين، لقد أخذتُه إلى المنزل لقراءته".

فأجابت الآنسة هيلي بعد لحظات: "ولكن، إذا كنت تطلّعين على هذه *القوانين*". وشدّت الآنسة هيلي ساق ثوب السباحة الذي ترتديه نحو الأسفل، "أتساءل عن *الأمور الأخرى* التي تخططين لها؟".

وأشاحت الآنسة سكيتر بنظرها، ومرّرت لسانها على شفتيها. "*يا هيلي*. أنت تعرفينني أكثر مما يعرفني أي شخص آخر في هذا العالم. لو كنت أخطط لأمر آخر، لاكتشفتِ ذلك في لحظات".

وراقبتها الآنسة هيلي. بعد ذلك، أمسكت الآنسة سكيتر بيد الآنسة هيلي وضغطت عليها. "أنا قلقة في شأنك. لقد اختفيتِ طوال أسبوع كامل، أنت تُجهدين نفسك في هذه الحملة حتى الموت. انظري إلى ذلك". وبرمَت الآنسة سكيتر راحة كف يد الآنسة هيلي. "لديك انتفاخ بسبب إعداد كل تلك المغلفات".

وببطء شديد، رأيت جسد الآنسة هيلي يسترخي ويعود إلى طبيعته. ونظرَت لتتأكد من أن الآنسة ليفولت لا تستمع إلى حديثهما.

"أنا خائفة جداً". همسَت الآنسة هيلي من خلال أسنانها، و لم أستطع سماع الكثير. "... أنفق وليام مقداراً كبيراً من المال في هذه الحملة، وإذا لم يفز... بعد العمل ليل نهار...".

ووضعت الآنسة سكيتر يدها على كتف الآنسة هيلي، وقالت لها شيئاً ما. فأومأت الآنسة هيلي برأسها، وابتسمت لها ابتسامة تنمّ عن شعور بالإرهاق.

بعد قليل، قالت لهما الآنسة سكيتر إنه يتعيّن عليها الذهاب. ومرّت عبر آخذي حمّام شمسيّ، وتنقلت بين الكراسي والمناشف. فنظرت الآنسة ليفولت إلى الآنسة هيلي بعينين واسعتين كما لو أنها تخشى طرح أي سؤال.

فأسندتُ ظهري إلى الكرسي، ولوّحت لماو موبلي التي كانت تسبح بشكل دائري في الماء، وحاولتُ التخلص من ألم الرأس من خلال فرك صدغيّ. وفي أثناء ابتعادها، كانت الآنسة سكيتر تلتفت إلى الوراء، ناظرةً إليّ. كانت جميعهن من حَولنا يتشمسن ويضحكن وينظرن بعيون نصف مُغمَضة، غير مدركات أن المرأة ملوّنة البشرة والمرأة بيضاء البشرة التي تحمل المضرب تتساءلان عن الأمر نفسه؛ هل من الغباء إن نحن شعرنا ببعض الارتياح؟

الفصل السادس عشر

بعـــد نحـــو عـــام من وفاة تريلور، بدأت أحضر اجتماع شؤون الجماعـــة في دار العبادة لملء وقت الفراغ، وعدم الشعور بالوحدة في الأمسيات. وكانت بسمة شيرلي بون تُغضبني لأنها توحي بادّعاء العلم بكـــل شيء. ولم تكن ميني تحب شيرلي كذلك، ولكنها كانت تفضّل الخـــروج من المنـــزل على كل حال. ولكن بِيني أصيب بالرَّبو في تلك الليلة، ولم تتمكن ميني من حضور الاجتماع.

بعد مدة، اتخذت الاجتماعات طابع مناقشة الحقوق المدنية أكثر من مناقـــشة مسألة إبقاء الشوارع نظيفة واختيار الأشخاص الذين سيعملون في تعاونـــية الملابس. وكان الناس في الغالب يقولون إن الأمر لا ينمّ عن عدائـــية، ويدعون لأجل ذلك. ولكن، بعد تعرّض السيد إيفرز لإطلاق الـــنار قبل أسبوع، شعر العديد من ذوي البشرة الملوّنة بالإحباط في هذه المديـــنة، ولا ســـيما الأصغر سنّاً. فقد كانوا يعقدون اجتماعات طوال الأســـبوع لمناقشة عملية القتل، شاعرين بالغضب، صائحين، وصارخين. كانت المرة الأولى التي أحضر فيها الاجتماع بعد عملية إطلاق النار.

ونـــزلتُ السلّم إلى الطابق السفلي. كان الجوّ أكثر برودةً مما هي الحـــال في دار العبادة بشكل عام، ولكنه كان دافئاً هناك في الأسفل في

تلك الليلة، ويضع الناس مكعّبات ثلج في أكواب القهوة. ونظرتُ إلى الموجودين، وارتأيتُ الطلب من بعض الخادمات الأخريات مساعدتنا، لا سيّما وأننا نجحنا في تضليل الآنسة هيلي كما يبدو. لقد رفضت خمس وثلاثون خادمة الأمر، وشعرتُ أنني أبيع شيئاً ما لا يريد أحد شراءه، شيئاً كبيراً، نتن الرائحة، على غرار كيكي براون ومادة التلميع خاصتها برائحة الليمون. ولكن ما يجعلني وكيكي نبدو مماثلتين هو أنني فخورة بما أبيع، ولم تكن بيدي حيلة. نحن نخبر قصصاً يجب إخبارها.

وتمنّيت لو أن في استطاعة ميني مساعدتي لأنها تجيد الترويج. ولكننا قررنا منذ البداية ألا يعرف أحد أن ميني تشاركنا القصص بسبب الخطورة الكبيرة التي يشكلها هذا الأمر على عائلتها. ومع ذلك، كان علينا إخبار الخادمات أن الآنسة سكيتر هي صاحبة الفكرة، ولكنهنّ لم يوافقن على الأمر بسبب عدم معرفتهنّ بها أم لأنهنّ لم يعملن معها. ولكن، ليس في إمكان الآنسة سكيتر العَرض للأمر مباشرةً لأنها قد تُخيفهنّ قبل أن تفتح فمها. لذلك، كان الأمر مَنوطاً بي، ولم يتطلّب الأمر سوى عرض الأمر على خمس أو ست خادمات ليعرف الجميع ما أطلبه منهنّ قبل التفوّه بأي كلمة، فيُجبن أن الأمر غير جدير بالمجازفة. وسألنني عن سبب تعريض نفسي للخطر لا سيّما وأن الأمر لا يعود بالفائدة على أحد، فافترضتُ أن الناس بدأوا يظنون أنه لم يعُد يوجد الكثير من حبّات البابايا في سلّتي القديمة.

كانت كل الكراسي الخشبية القابلة للطي مليئة في تلك الليلة، وكان هناك أكثر من خمسين شخصاً، معظمهم نساء.

"اجلسي بجانبي، يا آيبيلين". قالت برترينا بيسيمر: "يا غولديلا، ليجلس الأشخاص الأكبر سنّاً على الكراسي".

وقفزت غولديلا وطلبت مني الجلوس. فبرترينا على الأقل لا تزال تعاملني كما لو أنني غير مجنونة.

فجلستُ. في تلك الليلة، كانت شيرلي بون جالسة ومدبّر أعمال دار العبادة واقفاً في الأمام، وقال إننا بحاجة إلى عقد اجتماع للدعاء في جوّ هادئ، وإننا بحاجة إلى الشفاء. كنت سعيدة بالأمر. فأغمضنا عيوننا واستهلّ المبجَّل الدعاء لعائلة إيفرز، وميرلي، وأبنائهما. وكان بعض من الموجودين يهمسون ويتمتمون متضرّعين إلى الله، وسادت القاعةَ قوةٌ هادئة على غرار أزيز النحل في قرص عسل. تضرعت إلى الله، وحين أنهيت أدعيتي، أخذتُ نفساً عميقاً وانتظرت انتهاء الآخرين. فعندما أعود إلى المنزل، سأدوّن أدعيتي أيضاً؛ إن الأمر جدير بتخصيص وقت مزدوج للأدعية.

كانت يول ماي، خادمة الآنسة هيلي، جالسة أمامي، ويسهل معرفتها من الخلف بسبب شعرها الجميل والأملس الذي لا يوجد زِئبر عليه. لقد سمعتُ أنها مثقّفة وارتادت الكلية. هناك بالطبع العديد من الأشخاص الأذكياء في دار العبادة الخاصة بنا الذين يحملون شهادات جامعية، كأطباء، ومحامين، وكالسيد كروس الذي يملك *ذي ساوذرن تايمز*، صحيفة ملوّني البشرة التي تصدر كل أسبوع. ولكن يول ماي كانت الخادمة الأكثر تعلّماً في رعيتنا. فرؤيتها تحملني على التفكير مجدداً في الخطأ الذي يجب تصحيحه.

وفتح المبجَّل عينيه، ونظر إلينا بهدوء تام. "الأدعية التي نبتهل بها...".

"يا ثوروغود". قاطع صوت الهدوء. فالتفتُّ والتفت الجميع وكان هناك جيساب، حفيد بلانتاين فيديليا، الذي يتراوح عمره بين اثنين وعشرين وثلاثة وعشرين عاماً، واقفاً عند باب المدخل ومُطبِقاً قبضتي يديه.

"ما أريد معرفته". قال ببطء وغضب: "هو ما الذي نخطط له لمواجهة الأمر".

فتجهّم وجه المبجَّل كما لو أنه تحدّث إلى جيساب من قبل. "الليلة سنتضرّع، وندعو الله، وسنسير بسلام في شوارع جاكسون يوم الثلاثاء القادم. وفي آب/ أغسطس، سألتقيكم في واشنطن للقيام بمسيرة مع الدكتور كينغ".

"هذا لا يكفي!". قال جيساب، ضارباً راحة يده بقبضته. "لقد أطلقوا عليه النار في الظهر كما لو أنه كلب!".

"يا جيساب". قال مدبّر أعمال دار العبادة ورفع يده. "الليلة هي للدعاء لأجل العائلة، والمدافعين عن القضية. أفهم غضبك، ولكن، يا بُنيّ...".

"الدعاء؟ تعني ستجلسون وتدعون فحسب؟".

وألقى نظرة حَوله على الجميع.

"تظنون أن الدعاء سيمنع ذوي البشرة البيضاء من قتلنا؟".

فلم يُجب أحد، ولا حتى المبجَّل. واستدار جيساب وغادر، وسمعنا كلنا وقع قدميه على السلّم، ومن ثم فوق رؤوسنا، وخارج دار العبادة بعد ذلك.

كان الهدوء يسود القاعة حقاً. وثبّت ثوروغود نظره فوق رؤوسنا على ارتفاع بضع بوصات. كان أمراً غريباً حقاً لأنه لم يعتَد النظر إلاّ إلى عيون الناس. وحدّق إليه الجميع متسائلين عما يجول في خاطره ويحول دون نظره إلى عيوننا. بعد ذلك، رأيت يول ماي تهز رأسها الصغير، وافترضتُ أن المبجَّل ويول ماي يفكران في الأمر نفسه. كانا يفكران في سؤال جيساب، وأجابت يول ماي عنه.

انتهى الاجتماع نحو الساعة الثامنة، وغادر أولئك الذين لديهم أطفال، وارتشف الآخرون القهوة الموضوعة على الطاولة في الجانب الآخر من القاعة. لم يتم تبادل أطراف الحديث بكثرة، وكان الناس هادئين. فأخذتُ نفساً عميقاً، وقصدتُ يول ماي الواقفة عند إبريق القهوة. لقد أردت فقط التخلص من تلك الكذبة الملتصقة بي كنبتة شائكة. لم أكن أعتزم طلب المساعدة من أي شخص آخر موجود في الاجتماع لأن أحداً لن يوافق على عرضي.

فأومأت يول ماي لي، وابتسمَت بتهذيب. كانت في الأربعين من العمر تقريباً، طويلة القامة، نحيلة، وتحافظ على مظهرها الخارجي. كانت لا تزال مرتدية لباسها الرسمي الأبيض المُخاط بشكل ملائم عند الخصر، وتضع باستمرار أقراطاً وحلقات ذهبية بالغة الصِّغر.

"سمعتُ أن التوأمين سيقصدان مدرسة توغالو في العام القادم. أهنّئك".

"نأمل ذلك. لا يزال يتعيّن علينا توفير المزيد من المال. اثنان في وقت واحد يكلّفاننا الكثير".

"لقد ارتدت الكلية لفترة وجيزة، أليس كذلك؟".

فأومأَت برأسها، وقالت: "كلية جاكسون".

"كنت أحب المدرسة، القراءة والكتابة باستثناء الحساب، فأنا لم أحبّه".

وابتسمت يول ماي. "كانت اللغة الإنكليزية مادّتي المفضَّلة أيضاً، والكتابة".

"لي... بعض الكتابات".

فنظرت إليّ يول ماي، و لم أعرف ما إذا كانت تدري ماذا سأقول لها. واستطعت للحظات رؤية الخجل والخوف اللذَين تُخفيهما كل يوم

بـــسبب عملها في ذلك المنـــزل. لقد بدت لي مفاتحتها بالموضوع أمراً مُحرِجاً.

ولكن يول ماي باحت به قبل أن أُضطر إلى ذلك. "أنا على عِلم بالقصص التي تعملين عليها مع صديقة الآنسة هيلي تلك".

"لا بأس، يا يول ماي. أعلم أن ليس في استطاعتك القيام بذلك".

"في الأمـــر... مجازفة لا يمكنني تحمّل نتائجها في الوقت الحاضر. نحن على وشك جمع مقدار وافٍ من المال".

"لقد فهمتُ". قلت، وابتسمتُ، حاملةً إياها على الشعور أن لا مشكلة في ذلك. ولكن يول ماي لم تغيّر الموضوع.

"الأسماء... لقد سمعتُ أنك تبدّلينها؟".

إنه السؤال نفسه الذي تطرحه كلّهنّ.

"هذا صحيح، واسم المدينة أيضاً".

ووجّهـــت نظـــرها نحو الأرض. "إذاً، سأخبر قصصي عن حياتي كخادمة وتقوم بكتابتها؟ تحريرها أو... شيء من هذا القبيل؟".

فأومأتُ برأسي. "نريد وضع قصص من مختلف الأنواع، والتكلم عـــن أمـــور جيدة لا سيّئة. إنها تعمل مع... خادمة أخرى في الوقت الحاضر".

فمـــرّرت لـــسانها على شفتيها، وبدت أنها تتخيّل ما تكون عليه حال العمل لدى الآنسة هيلي.

"هل يمكننا... التحدث أكثر عن الأمر؟ عندما يتوافر لي مزيد من الوقت؟".

"بالطبع". قلت، ورأيتُ في عينيها مدى لطافتها.

"أنا آسفة، ولكن هنري والفتيين ينتظرونني". قالـت: "ولكن هل يمكنني الاتصال بك؟ والتحدث معك بشكل سرّي؟".

"متى شئتِ وكلما شعرتِ برغبة في ذلك".

ولمـــسَت ذراعي ونظرَت إلى عينيّ مباشرةً مرة أخرى. لم يكن في اســـتطاعتي تـــصديق ما رأيته. لقد بدا الأمر كما لو أنها تنتظر قيامي بمفاتحتها بالموضوع.

وخـــرجَت بعد ذلك من الباب، ووقفتُ في الزاوية لفترة وجيزة أرتـــشف القهـــوة ذات الـــسخونة الـــشديدة بسبب حرارة الطقس. فـــضحكتُ وتمـــتمتُ بمفردي، عِلماً أن الجميع بدأوا يفكرون في أنني مُصابة بالجنون.

ميني

الفصل السابع عشر

"اخرجي من هنا كي أتمكن من القيام بأعمال التنظيف".

وسحبت الآنسة سيليا الأغطية باتجاه صدرها كما لو أنها تخشى قيامي بجرّها خارج السرير. لقد مضى على وجودي هناك تسعة أشهر وكنت لا أزال لا أعرف ما إذا كانت مصابة بمرض جسدي، أم أن صباغ الشعر أثّر في سلامة عقلها. كانت تبدو في حال أفضل مقارنةً مع ما كانت عليه حالها عندما بدأتُ بالعمل لديها. لقد سَمُن بطنها قليلاً، ولم يعُد خدّاها غائرين كما في السابق، ولم يعُد يُخشى عليها من التضوّر جوعاً مع السيد جوني.

لقد عملت الآنسة سيليا لفترة قصيرة في الفناء الخلفي، ولكن تلك المرأة المخبولة عادت للجلوس عند أطراف السرير مجدداً. كنت أُسَرّ ببقائها داخل غرفتها، ولكنني أصبحت مستعدة *للعمل* بعد التقاء السيد جوني. وتبّاً، لقد كنت مستعدة أيضاً للدخول في جدال مع الآنسة سيليا لأحملها على العيش بالطريقة الملائمة.

"أنت تقودينني إلى الجنون بمكوثك في هذا المنزل طيلة الليل والنهار. انهضي. اذهبي واقطعي شجرة الميموزا المسكينة تلك التي

تكنّين لها كُرهاً شديداً". قلت لأن السيد جوني لم يقطع ذلك الشيء.

ولكن، عندما لم تتحرك الآنسة سيليا عن ذلك الفراش، علمتُ أنه حان وقت استخدام الأسلحة الثقيلة. "متى ستخبرين السيد جوني عنّي؟". قلت لها، لأن ذلك يحملها دائماً على التحرك. وأحياناً، أطرح عليها السؤال للتسلية فقط.

لم يكن في استطاعتي التصديق أن هذه التمثيلية دامت طويلاً. فالسيد جوني يعرف بأمري، والآنسة سيليا تتنقّل في أرجاء المنزل قلقة، ومخدوعة. ولم أتفاجأ عندما رجتني إمهالها مزيداً من الوقت عندما حلّ الميلاد. آه، لقد أجبتها بفظاظة، وبدأت ترجوني فوافقتُ كي أُسكتها، وقلتُ لها إنها هدية الميلاد. كان يجب عليها الحصول على جوارب ممتلئة بالفحم بسبب كذبها على السيد جوني.

وأشكر الله لأن الآنسة هيلي لم تأتِ إلى المنزل للعب البريدج، علماً أن السيد جوني حاول إنجاح الأمر قبل أسبوعين. كنت على عِلم بذلك لأن آيبيلين سمعت الآنسة هيلي والآنسة ليفولت تسخران من تلك المحاولة. لقد نظرَت الآنسة سيليا إلى الأمر بجدّية كبيرة لدرجة أنها سألتني عن الطعام الذي سنُعدّه للسيدات، وطلبَت كتاباً عبر البريد بعنوان *البريدج للمبتدئين* لتتعلّم اللعبة، وكان يجدر بواضع الكتاب أن يدعوه *البريدج للمغفّلين*. وعندما وصل في صباح ذلك اليوم إلى صندوق البريد، سألتني قبل أن تبدأ بقراءته: "هل ستعلّمينني اللعب، يا ميني؟ ليس لكتاب البريدج هذا أي معنى".

"لا أُجيد لعب البريدج". قلت.

"بلى، أنت تعرفين".

"كـــيف تعرفين ما الذي يمكنني القيام به أم لا؟". وبدأتُ أُحدث ضـــجيجاً عالياً بالأوعية الموجودة هناك لأن شكل ذلك الغلاف الأحمر الغـــبيّ أغضبني. لقد حُلّت مسألة السيد جوني أخيراً، ولكن، بات عليّ القلـــق في شـــأن قدوم الآنسة هيلي وإفساد حياتي لأنها ستخبر الآنسة سيليا بالتأكيد بما فعلتُه. تبّاً، لطردتُ نفسي بسبب ما قمت به.

"لأن الـــسيدة والترز قالت لي إنك كنت تلعبين معها البريدج في صباح أيام السبت".

وبـــدأت أفرك القِدر الكبيرة، وكانت برجماتي تصطدم بالجوانب مُحدثةً طنيناً.

"لعب الورق هو لعبة الشرير". قلت: "ولديّ أعمال كثيرة".

"ولكنني سأشعر بإرباك كبير إذا طلبتُ من تلك الفتيات تعليمي البريدج. ألن تُريني قليلاً كيف نلعب البريدج؟".

"لا".

وأطلقت الآنسة سيليا تنهيدة صغيرة. "يعود السبب إلى أنني طاهية سيئة، أليس كذلك؟ تظنين أنني لا أستطيع تعلّم أي شيء".

"مـــا الـــذي ستفعلينه إذا قامت الآنسة هيلي والسيدات بإخبار زوجك أن لديك خادمة هنا؟ ألن يكشف ذلك الأمر سرّك؟".

"لقـــد فكرتُ في ذلك مُسبَقاً. سأخبر جوني أنني سأستعين بعاملة منـــزل يوم قدومهنّ، فيبدو الأمر ملائماً لنا وللسيدات الأخريات".

"أمم – هممم".

"وسأخبره بعد ذلك أنك تعجبينني جداً لدرجة أنني أريد استخدامك بدوام كامل. أعني، يمكنني أن أخبره بذلك... بعد أشهر قليلة".

عـــندها، بـــدأتُ بالتعرّق. "متى تظنين أن السيدات سيأتين إلى حفلة البريدج؟".

"أنا أنتظر اتصال هيلي. قال جوني لزوجها إنني سأتصل بها. لقد اتـــصلتُ بهـــا مرّتين وتركت لها رسالتين، لذلك أنا واثقة أنها ستتصل بـــي في أي وقت".

فـــوقفتُ هناك محاوِلةً التفكير في أمر ما لمنع حدوث ذلك اللقاء. ونظرتُ إلى الهاتف، ودعوت كيلا يرنّ مجدداً.

في صـــباح اليوم التالي، وعندما وصلتُ إلى منـــزل الآنسة سيليا، خـــرجَت من غرفة نومها. لقد ظننت أنها ستصعد إلى الطابق العلوي، ولكـــنني سمعـــتها تتحدث عبر هاتف المطبخ، سائلةً عن الآنسة هيلي، فانتابني شعور بالغثيان.

"أتصل مجدداً لأعرف ما إذا كان بإمكاننا أن نمارس لعبة البريدج معاًا!". قالت بسرور كبير، ولم أتحرك حتى عرفتُ أنها تتحدث إلى يول مـــاي، خادمة هيلي، وليس إلى الآنسة هيلي نفسها. وذكرَت الآنسة سيليا رقم هاتفها كما لو أنها تُنشد مقطوعة شعرية عن مَسح الأرض: "إمرسون 260609!".

وبعـــد قليل، طلبَت رقم هاتف شخص آخر من دون اسمه على الـــصفحة الثانية من تلك الصحيفة المُملّة، كما دأبَت على القيام بذلك كل يوم. لقد عرفتُ ما هي تلك الصحيفة، إنها نشرة دورية مُرسَلة من قـــبَل رابطـــة الـــسيدات، وقد عثرَت عليها، كما يبدو من مظهرها الخارجـــي، في موقـــف سيارات نادي السيدات. كانت خشنة كورقة الصَّقل ومتهدّلة كما لو أنها تعرّضت لعاصفة مطَريّة بعد أن عصف بها الهواء من بين يدَيّ إحداهنّ.

حـــتى ذلك الحين، لم تتصل أي من تلك النساء، ولكن كلما رنّ ذلـــك الهاتف قفزَت عليه كما يقفز الكلب على زنجي، ولكن السيد جوني كان على الجانب الآخر من الخط باستمرار.

"حسناً... قولي لها... فحسب إنني اتصلتُ مجدداً". قالت الآنسة سيليا على الهاتف.

وسمعتُها تضع السمّاعة بهدوء. فلو كنت مهتمّة بالأمر، لقلتُ لها إن تلـــك السيدات غير جديرات بالمحاولة. وسمعتُ نفسي أقول: "تلك السيدات غير جديرات بالمحاولة، يا آنسة سيليا". ولكنها تصرّفت كما لو أنها لم تسمع شيئاً، وعادت إلى غرفة نومها وأغلقتِ الباب.

فكرتُ في قرع الباب والتحقق مما إذا كانت بحاجة إلى أي شيء، ولكن، كانت لديّ أمور أكثر أهمية من القلق على ما إذا فازت الآنسة سيليا أم لا بمسابقة السيدة التي تتمتع بأكبر شعبية. كنت قلقة في شأن مقـــتل ميدغار إيفرز على عتبة باب منـــزله، وتذمّر فيليتشيا من عدم تمكّـــنها مـــن الحـــصول على رخصة قيادة بعد أن بلغَت سنّ الخامسة عـــشرة، إنها فتاة صالحة ولكنني حملتُ بليروي الأصغر عندما لم أكن أكبر سنّاً منها بكثير، ولسيارة بويك علاقة بتذمّرها. وكنت قلقة أيضاً في شأن الآنسة سكيتر وقصصها.

في نهايـــة حزيران/يونيو، حلّت موجة حرّ شديد بلغت مئة درجة مئوية ودامت طويلاً. كان الأمر أشبه بزجاجة ماء ساخن أُلقيت فوق حيّ ذوي البشرة الملوّنة، فزادت الحرارة عشر درجات مقارنةً مع بقيّة مـــنطقة جاكسون. كان الحر شديداً، ودخل ديك السيد دان منـــزلي، وجثم أمام مروحة مطبخي. فدخلتُ ورأيته ينظر إليّ كما لو أنه يقول لي *لـــن أتحـــرك من مكاني، يا سيدتي*. فآثرتُ ضربه بالمكنسة بدلاً من إخراجه ببساطة.

وفي مقاطعـــة ماديـــسون، جعلت الحرارة الآنسة سيليا الشخص الأكثـــر كسلاً في الولايات المتحدة الأميركية، لدرجة أنها لم تعُد تخرج للحـــصول علـــى محتويات صندوق بريدها، وكان عليّ القيام بذلك.

وكانت الحرارة شديدة بالنسبة إلى الآنسة سيليا بحيث إنها لم تعُد تجلس بجانب البِركة، ووجدتُ في ذلك مشكلة.

قلت لنفسي *إن لله حكمة*. وعندما أطلقت الآنسة سيليا ابتسامة عريضة وقالت: "صباح الخير" و"تسعدني رؤيتك". تساءلتُ عن كيفية بلوغها هذه المرحلة من الحياة من دون وضع حدود لتصرفاتها مع الآخرين؟ أعني أن اتصالها بسيدات المجتمع الفاسقات هو أمر سيّئ جداً، إضافةً إلى جلوسها وتناول الغداء معي كل يوم منذ بدأت عملي لديها، لا أعني في الغرفة نفسها بل على *الطاولة* نفسها، تلك الطاولة الصغيرة القائمة تحت النافذة. فكل النساء بيضاوات البشرة اللواتي عملتُ لديهنّ، كنّ يتناولن الطعام في غرفة الطعام وعلى أبعد مسافة ممكنة من عاملة المنزل ملونة البشرة، وكنت راضية بذلك.

"ولكن لماذا؟ لا أريد تناول الطعام هناك بمفردي في حين أن في استطاعتي تناوله هنا معك". قالت الآنسة سيليا. ولم أحاول أبداً شرح الأمر لها. فالآنسة سيليا تجهل بعض الأمور تماماً.

وكل امرأة أخرى بيضاء البشرة تعرف أيضاً أن هناك فترة في الشهر لا يجب التحدث فيها إلى ميني. حتى إن الآنسة والترز كانت تعرف أيضاً متى يبلغ جهاز قياس ميني درجة الحرارة القصوى، كانت تشمّ رائحة الكاراميل وتُخرج نفسها من الباب. ولم تسمح للآنسة هيلي أيضاً بتخطي حدودها.

في الأسبوع السابق، ملأ السُكّر والزبدة منزل الآنسة سيليا بأكمله برائحة الميلاد بالرغم من كوننا في شهر حزيران/يونيو. كنت متوترة كالعادة وأحوّل السكّر إلى كاراميل. فسألتها ثلاث مرات، وبكثير من *التهذيب*، إذا كان في استطاعتي القيام بالأمر بمفردي،

ولكنها أرادت أن تتواجد معي. فقلت لها إنها تشعر بالوحدة لأنها تلازم غرفة النوم طوال اليوم.

فحاولتُ تجاهلها. ولكن المشكلة تكمن في أنني أتحدث إلى نفسي عـــندما أُعـــدّ كعكة بالكاراميل أو أي شيء آخر لدرجة أنني أصبح عصبية المزاج جداً.

وقلـــت: "إنـــه اليوم الأكثر حرارة في تاريخ حزيران/يونيو. تبلغ الحرارة في الخارج مئة وأربع درجات".

فقالت: "هل لديك مكيّف هواء؟ لدينا واحد هنا بفضل الله لأنني نشأتُ في منـــزل لا يوجد فيه مكيِّف هواء، وأعرف كيف تكون عليه الحال عندما نشعر بالحرارة".

وقلـــت: "لا أســـتطيع تحمّل تكلفة مكيّف هواء لأنه يلتهم التيار الكهربائي كما تلتهم السوسة جوزة القطن". وبدأتُ أحرّك بقوة لأن اللون البنّي بدأ يتشكل على صفحة الكعكة، ومن الجميل حقاً مشاهدة ذلـــك المنظـــر، وقلت: "لم نتمكن من دفع فاتورة الكهرباء في الموعد المحـــدّد". لأنـــني لم أكن أفكر بشكل سليم، وهل تعرفون ماذا قالت؟ قالـــت: "آه، يا ميني، ليتني كنت قادرة على إقراضك المال لأن جوني ســـيطرح تلك الأسئلة المُضحكة في وقت لاحق". واستدرتُ لأقول لها إنـــه كلما تذمّرت زنجية من تكاليف العيش فهذا لا يعني أنها تستجدي المال. ولكنني أحرقتُ الكاراميل قبل أن أتمكن من النبس بكلمة واحدة.

في يـــوم الأحـــد في دار العـــبادة، وقفت شيرلي بون أمام جماعة المؤمنين، وذكّرتنا بشفتَيها الخافقتَين كالراية أن الاجتماع الذي يتناول *شؤون الجماعة* سيُعقد مساء الأربعاء عند منضدة الغداء أمام وولورث في شـــارع أميت لمناقشة الاعتصام. وأشارت شيرلي ذات الأنف الكبير بإصبعها إلينا وقالت: "اللقاء عند السابعة، لذلك كونوا هناك في الوقت

المحدد. لا أعذار!". لقد ذكّرتني بمدرّسة بيضاء البشرة، قبيحة، وكبيرة البنية، من النساء اللواتي لا يريد أحد الزواج بهن.

"ستأتين يوم الأربعاء؟". سألَت آيبيلين. كنا عائدتَين إلى المنزل سَيراً على الأقدام في حرّ الساعة الثالثة، ممسكةً مروحة الجنازات بقبضة يدي وملوّحةً بها بسرعة كما لو أنها مزوَّدة بمحرك.

"لا وقت لديّ". قلت.

"ستدعينني أذهب بمفردي مجدداً؟ سأُحضر معي بعض الكعك بالزنجبيل وبعض...".

"قلتُ إنني لا أستطيع الذهاب".

فأومأت آيبيلين برأسها، وقالت: "حسناً إذاً". وواصلت سيرها.

"قد... يصاب بيِني بالرَّبو مجدداً. لا أريد أن أتركه بمفرده".

"أمم-هممم". قالت آيبيلين. "ستخبرينني بالسبب الحقيقي عندما تكونين مستعدة".

وسلكنا جادة جيسوم، وتجاوزنا سيارة متوقفة وسط الطريق بسبب الحر. "آه، قبل أن أنسى، تريد سكيتر القدوم في وقت مبكّر من مساء الثلاثاء". قالت آيبيلين: "نحو السابعة. هل يناسبك الوقت؟".

"يا الله". قلت، وغضبتُ مجدداً. "ما الذي أفعله؟ لا بد من أنني مجنونة لأنني أبوح بأسرار ذوي البشرة الملونة لسيدة بيضاء البشرة".

"إنها الآنسة سكيتر. هي ليست كالأخريات".

"أشعر أنني أتحدث من وراء ظهري". قلت. كنت قد التقيت الآنسة سكيتر خمس مرات، ولا أزال أشعر بعدم الارتياح.

"تريدين التوقف عن المجيء؟". سألَت آيبيلين. "لا أريد أن تشعري أنك مضطرة إلى ذلك". فلم أُجبها.

"هل ستستمرين في المجيء؟". قالت.

"أريد... أن يعيش أبنائي وبناتي في ظروف أفضل". قلت: "ولكنه واقع مؤسف أن تقوم امرأة بيضاء البشرة بهذا الأمر".

"تعالي معي إلى اجتماع الجماعة يوم الأربعاء. سنتحدث أكثر عن الموضوع حينذاك". قالت آيبيلين بابتسامة صغيرة.

كنت أعلم أن آيبيلين لن تتخلّى عن الأمر. فتنهدتُ. "أواجه مشكلة، هل فهمتِ؟".

"مع من؟".

"مع شيرلي بون". قلت: "في الاجتماع الأخير، كان الجميع يرفعون أيديهم ويدعون لأجل السماح لملوّني البشرة بدخول حمّامات ذوي البشرة البيضاء، ويتحدثون عن جلوسهم فحسب على كراسٍ في وولورث، وكانوا يبتسمون كما لو أن هذا العالم سيكون مكاناً جديداً مُشرقاً. فأُصبت بسَورة غضب، وقلت لشيرلي بون *إن أي كرسي لن يّتسع لمؤخرتها في وولورث*".

"ماذا قالت شيرلي؟".

وقلّدتُ صوت مدرّستي: *"إذا لم يكن في استطاعتك قول أي أمر جيد، يتعّين عليك إذاً، عدم قول أي شيء البتة"*.

وعندما بلغنا منزل آيبيلين، نظرتُ إليها. كانت تكبت ضحكةً بشدة لدرجة أن وجهها بات أرجواني اللون.

"الأمر لا يدعو للضحك". قلت.

"أنا سعيدة لأنك صديقتي، يا ميني جاكسون". وعانقتني بقوة حتى قلّبتُ عينَيّ وقلت لها إنه يتعيّن عليّ الذهاب.

وواصلتُ السَّير، وانعطفتُ عند الزاوية. لم أكن أريد أن تعرف آيبيلين بالأمر. لم أكن أريد أن يعرف أحد بمدى حاجتي إلى قصص سكيتر بعد انقطاعي الكامل عن اجتماعات شيرلي بون. أنا لا أقول إن

اجــتماعات الآنــسة ســكيتر ممتعة. فكلما التقينا، أتذمّر، وأشتكي، وأنفجــر غــضباً. ولكنني أحب رواية قصصي لأنني أشعر أنني أقوم بــشيء ما حيال الأمر. وعندما أغادر، أشعر أن تلك الكتلة الإسمنتية أُزيحــت عن صدري وبات في استطاعتي التنفس بشكل طبيعي لأيام قليلة.

كــنت أعلــم أن هناك العديد من الأمور الأخرى المتعلقة بملوّني البــشرة الــتي يمكــنني القيام بها إلى جانب سرد قصصي أو حضور اجــتماعات شيرلي بون، كاللقاءات الجماعية في المدينة، المسيرات في برمينغهام، التجمعات الانتخابية في الناحية الشمالية من الولاية. ولكنني لم أكــن آبــه للاقتراع في الحقيقة، ولا لتناول الطعام على المنضدة مع ذوي البــشرة البيضاء. ما آبه له هو قيام سيدة بيضاء البشرة بعد عشر سنوات، بنعت فتياتي بالقذرات، وتتهمهنّ بسرقة أوان فضية.

في تلــك الليلة، غليتُ حبوب القرنيات بالزبدة، وطهوتُ لحماً مقدداً بالمقلاة.

"يــا كيــندرا، ادعي الجميع". قلت لابنتي البالغة من العمر ست سنوات. "نحن جاهزون لتناول الطعام".

"ســوووبرررر". صاحت كيندرا من دون أن تتحرك قَيد أُنملة من مكانها.

"اذهبــــي واصــطحبــي والدك بطريقة لائقة". صرختُ. "ما الذي قلته لك عن الصياح في منــزلي؟".

فنظــرت كيــندرا إليّ مقلّبةً عينَيها كما لو أنه طُلب منها القيام بالأمر الأكثر غباوة في العالم. وضربت أرض الرَّدهة بقدمَيها وصاحت:

"*سوووبررر!*".

"*يا كيندرا!*".

إن المطبخ هو الغرفة الوحيدة في المنــزل التي تتسع لنا كلنا، وما تبقــى فهــو مُعَــدّ ليكون غرف نوم. فالغرفة المخصصة لي ولليروي موجودة في الناحية الخلفية بجانب غرفة ليروي الأصغر وبيني، وحُوّلت غرفة الجلوس الأمامية إلى غرفة نوم لفيليتشيا وشوغر وكيندرا. لذلك، فالمطبخ هو كل ما تبقى لنا. ويبقى بابنا الخلفي مفتوحاً والباب المُنخلي مُغلَقــاً للحؤول دون دخول الذباب، وذلك ما لم يكن البرد قارساً في الخــارج. وكان هناك على الدوام صراخ الأطفال، وهدير السيارات، وصخب الجيران، ونباح الكلاب.

ودخــل لــيروي وجلــس إلى الطاولة بجانب بِيني الذي كان في السابعة من عمره. وملأت فيليتشيا الأكواب بالحليب أو الماء. وحملت كيــندرا طــبق قرنيات واللحم لوالدها، وعادت إلى جهاز الطهو لملء مزيد من الأطباق. فسلّمتُها طبقاً آخر.

"هذا الطبق لبِيني". قلت.

"يا بِيني، انهض وساعد أمك". قال ليروي.

"بِــيني مصاب بالرَّبو. ليس عليه القيام بأي شيء". ولكن فتاي اللطــيف نهض على كل حال، وتناول الطبق من كيندرا. كان ابناي وبناتي يعرفون كيفية التصرف.

وجلــسوا بــأجمعهم إلى الطاولة باستثنائي، وكان هناك ثلاثة من أبنائــي في المنــــزل في تلك الليلة. فليروي الأصغر الذي كان في صف التخرّج في مدرسة لينيير الثانوية، يضع البقالة في الأكياس في متجر جيتني 14، إنه متجر البقالة الخاص بذوي البشرة البيضاء في حيّ الآنسة هيلي. وشــوغر، وهــي ابنتي البِكر وكانت في الصف العاشر، تعمل كجليسة أطفال لجارتنا تالولا التي تعمل حتى وقت متأخر. وعندما تنتهي شوغر، تعــود إلى المنــــزل سَيراً على القدمين وتُقلّ والدها بالسيارة إلى منشأة

الأنابيب لإتمام نوبة عمله في وقت متأخر من الليل، وتصطحب ليروي الأصغر من متجر البقالة. ويعود ليروي الأصغر مع زوج تالولا من المنشأة الصناعية عند الرابعة صباحاً. كان كل شيء يسير بشكل جيد.

وتناول ليروي الطعام، ولكن عينَيه كانتا على صحيفة *جاكسون جورنال* الموضوعة بجانب طبقه. لم يكن يتمتع بمزاج جيد عندما يستيقظ. وألقيت نظرة سريعة من فوق جهاز الطهو، ورأيت على الصفحة الأولى صوراً للاعتصام الذي جرى أمام صيدلية براون. لم يكن المعتصمون من جماعة شيرلي بل كانوا أشخاصاً من غرينوود. وكانت هناك مجموعة من المراهقين من ذوي البشرة البيضاء واقفين وراء المحتجّين الستة الجالسين على كراسٍ، ويسخرون منهم ويلطمونهم ويسكبون الكَتشاب والخردل والملح على رؤوسهم.

"كيف يقومون بذلك؟". قالت فيليتشيا، مشيرةً بإصبعها إلى الصورة. "يجلسون هناك من دون الدفاع عن أنفسهم؟".

"هذا ما يُفترض بهم القيام به". قال ليروي.

"أشعر بالرغبة في البَصق لدى النظر إلى تلك الصورة". قلت.

"نتحدث عن الأمر في وقت لاحق". قال ليروي، وثنى الصحيفة أربع ثنيات، ودسّها تحت فخذه.

وقالت فيليتشيا لِبيني: "من الجيد أن أمي لم تكن جالسة على أحد الكراسي تلك، وإلا لما احتفظ أي من ذوي البشرة البيضاء أولئك بأسنانه".

"ولوُضعت أمي في سجن بارشمان". قال بِيني بصوت مرتفع سمعه الجميع.

وسندت كيندرا خصرها بذراعها "لا!! لن يضع أحد أمي في السجن. سأضرب هؤلاء الأشخاص البِيض بعصا حتى يدمون".

وأشـــار ليروي بإصبعه إلى كلّ منا. "لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عـــن الموضـــوع خارج المنـــزل. إن الأمر شديد الخطورة. هل تسمعني يا بِيني؟ فيليتشيا؟". وأشار بعد ذلك بإصبعه إلى كيندرا. "هل سمعتني؟".

فأومـــأ بِيني وفيليتشيا برأسيهما، ونظرا إلى طبقَيهما. لقد شعرتُ بالأسف لأنني كنت السبب ببدء كل ذلك، ورمقتُ كيندرا بنظرة تعني أنه يجب عليها إبقاء فمها مُطبَقاً. ولكن الآنسة الصغيرة قذفت شوكتها بقـــوة علـــى الطاولة، ووقفت. "أكره ذوي البشرة البيضاء! وسأُخبر الجميع متى شئت".

وقمـــت بمطاردتهـــا في الرَّدهة. وعندما أمسكتُ بها، أعدتُها إلى الطاولة كما لو أنها كيس بطاطا.

"آسفة، يا أبـــي". قالت فيليتشيا لأنها تتحمّل الملامة عن الجميع في كل مرة. "وسأعتني بكيندرا. هي لا تعي ما تقول".

ولكـــن لـــيروي ضـــرب الطاولة بيده. "لن يتكلم أحد في هذا الموضـــوع! هل سمعتموني؟". وحدّق إلى ابنه وابنتيه. وعدتُ إلى جهاز الطهـــو كيلا يرى وجهي. فليساعدني الله إذا اكتشف ما الذي أُعدّ له مع الآنسة سكيتر.

طيلة الأسبوع التالي، كنت أسمع الآنسة سيليا تتحدث عبر الهاتف في غـــرفة نـــومها، تاركةً رسائل في منازل الآنسة هيلي، والآنسة إليزابيت، والآنـــسة باركـــر، والشقيقتَين كالدويل، وعشر سيدات مجتمع أخريات، إضافةً إلى منـــزل الآنسة سكيتر التي لم أكن أحبها أبداً. لقد قلت للآنسة سيليا بنفسي، *لا تفكري في معاودة الاتصال بها. لا تزيدي الأمور تعقيداً.*

وما يثير السخط هو أن الآنسة سيليا التقطت سمّاعة الهاتف مجدداً بعـــد الانـــتهاء من إجراء تلك المكالمات الغبيّة، وتحققت من أن خط الهاتف يعمل.

"لا يــشكو ذلــك الهاتــف من شيء". قلت. كانت تستمر في الابتــسام لي، وقــد دأبَــت على القيام بذلك منذ شهر، كما لو أنها حصلت على مِلء جَيب من العملة الورقية.

"لمــاذا أنــت في مزاج جيد؟". سألتها أخيراً. "هل السيد جوني يعاملك بلطف أم ماذا؟". وكنت أهمّ بقول: "متى ستُخبرينه". ولكنها قاطعتني.

"آه، إنه شديد اللطف". قالت. "ولن يمرّ وقت طويل حتى أخبره عنك".

"جــيد". قلت وعنيتُ ذلك. لقد سئمتُ من لعبة الكذب هذه. وتخــيّلتُ كيف أنها تبتسم للسيد جوني عندما تسلّمه قطع اللحم التي أقوم بطهوها، وكيف يتصرف هذا الرجل اللطيف كما لو أنه فخور بها في حــين أنــه يعلــم أنني من يقوم بالطهو. إنها تخدع نفسها، وتخدع زوجها اللطيف، وتجعلني كاذبة.

"يــا ميني، هل تمانعين إرسال هذا البريد لأجلي؟". سألَت بالرغم من جلوسها هناك مرتديةً ملابسها، ومن تلوّث يدَيّ بالزبدة، ووجود غسيل في الغسالة، وخلاّط آلي يعمل. كانت أشبه بشخص لا يقوم إلا بمهام قليلة يوم الأحد، ولكن، كل يوم كان يوم أحد بالنسبة إليها.

فغــسلتُ يدَيّ وتوجهتُ إلى علبة البريد، وسال مني نحو نصف غالــون مــن العرَق، أعني أن الحرارة بلغت في الخارج تسعاً وتسعين درجة. كان هناك طرد بريدي يبلغ طوله قدمَين موضوعاً على العشب بجانب صندوق البريد. لقد رأيتها في السابق مع هذه الصناديق الكبيرة بنــية اللــون، وتصوّرتُ أنه نوع من أنواع كريم التجميل تقوم بطلب كميات منه. ولكن، عندما حملتُها، كانت ثقيلة الوزن وتُصدر صوت رنين كما لو أنني أحمل زجاجات كوكا - كولا.

"هـــناك شيء ما لك، يا آنسة سيليا". ووضعتُ الصندوق على أرض المطبخ.

لم يـــسبق لي أن رأيـــتها تقفز بهذه السرعة. في الواقع، إن الأمر الوحـــيد الـــذي تقـــوم به الآنسة سيليا بسرعة هو ارتداء ملابسها. "إنـــه...". وتمتمَت شيئاً ما، وحملَت الصندوق لاهثةً إلى غرفة نومها، وسمعتُ الباب يُغلَق بقوة.

وبعـــد ساعة من الزمن، دخلتُ غرفة النوم لتنظيف السجاد. لم تكن الآنسة سيليا مستلقية على سريرها، ولم تكن موجودة في الحمّام. كنت أعلم أنها ليست في المطبخ، أو في غرفة الجلوس، أو بجانب بركة الـــسباحة في الخـــارج، ولم أرفع الغبار سوى عن أثاث الغرفة الأولى والثانـــية، وكنستُ الدب بالمكنسة الكهربائية، مما يعني أنها موجودة في الطابق العلوي بالتأكيد، في الغرف التي تبعث على القشعريرة.

كنت أنظف قاعات الرقص في فندق روبرت قبل أن أُطرد بسبب قيامـــي باتهام السيد المدير أبيض البشرة بوضع شعر مستعار. وكانت تلـــك الغرف الكبيرة والفارغة التي لا تحتوي على أحد، وفوط المائدة الملـــوَّثة بأحمـــر الـــشفاه، ورائحة العطر المتبقّية، تحملني على الشعور بالقشعريرة. هكذا كانت حال الطابق العلوي في منـــزل الآنسة سيليا، حـــيث يـــوجد مهـــد قديم الطراز، وقبّعة أطفال قديمة للسيد جوني، وخَـــشخاشة فـــضية أُقـــسم إنني كنت أسمعها أحياناً تجلجل بمفردها. ويحملـــني الـــتفكير في تلك الجلجلة على التساؤل عما إذا كانت لتلك الصناديق علاقة بتسللها إلى تلك الغرف.

وقررتُ الصعود وإلقاء نظرة بنفسي.

قمـــت بمراقبة الآنسة سيليا في اليوم التالي، منتظرةً قيامها بالتسلل إلى الطابق العلوي لأتمكن من اكتشاف ما الذي يشغلها. ونحو الساعة

الثانية، أقحمتْ رأسها داخل المطبخ وابتسمت لي ابتسامة غريبة. وبعد دقيقة، سمعتُ صريراً في السقف.

فتوجهتُ إلى الدَرَج ببطء شديد. وبالرغم من سيري على أطراف أصـــابعي، صلصلت الأطباق الموجودة في خزانة غرفة الطعام، وصرفَت الألـــواح الأرضـــية. في الأعلى، عبرتُ الرَّدهة الطويلة، ومررتُ بثلاثة أبـــواب غـــرف نوم مفتوحة. وكان الباب الرابع الأخير شبه مفتوح. فاقتربتُ أكثر فأكثر ورأيتها من خلال الفتحة الضيّقة.

كانت جالسة على أحد السريرَين الأصفرَين بقرب النافذة تبتسم، والرزمة التي حملتُها لها من جانب صندوق البريد مفتوحة، ويوجد على الـــسرير زهاء عشرين زجاجة مليئة بسائل بنّي اللون. لقد عرفتُ تلك الزجاجات المسطّحة. كنت قد اهتممتُ لمدمن على الشراب غير جدير بالعـــناية طـــيلة اثني عشر عام. وعندما توفّي والدي الكسول أخيراً، أقسمتُ والدموع تملأ عينَيّ بألا أتزوّج أبداً رجلاً مُدمناً على الشراب. ولكنني قمتُ بذلك.

وها أنا أهتمّ لمدمنة أخرى. لم تكن تلك الزجاجات مشتراة من المتجر بل تحتوي على سِدادات مصنوعة من الشمع الأحمر على غرار الـــزجاجات الـــتي اعتاد العم تود شراءها. وكانت تقول لي والدتي علـــى الدوام إن الُمدمن الحقيقي على الشراب، على غرار والدي، يتـــناول شراباً من صنع منـــزلي لأنه أكثر فعالية. وعرفتُ أنها بغباء والـــدي، وليروي المدمن على الشراب، ولكنها لا تطاردني بالمِقلاة الساخنة.

فالتقطت الآنسة سيليا زجاجة ونظرَت إليها كما لو أنها المخلّص. فنـــزعتِ السِّدادة، وتناولَت رشفة، وتنهدَت. وشربَت بعد ذلك ثلاث جُرعات واستلقت على وسادانها الأنيقة.

وبدأ جسمي بالارتجاف، وشاهدتُ تلك الطمأنينة على وجهها. كانت تتوق إلى الحصول على عصيرها لدرجة أنها لم تقفل الباب، وصرفتُ أسناني كيلا أصيح في وجهها. أخيراً، عدتُ أدراجي بهدوء تام إلى الطابق السفلي.

عندما نزلت الآنسة سيليا بعد عشر دقائق، جلسَت إلى طاولة المطبخ، وسألتني عما إذا كنت مستعدّة لتناول الطعام.

"هناك لحم مقدَّد في البرّاد ولن أتناول الغداء اليوم". قلت، وخرجتُ من الغرفة مُحدثةً صخَباً بخطواتي.

بعد ظهر ذلك اليوم، جلست الآنسة سيليا في حمّامها على غطاء المرحاض. كانت تضع مجفف الشعر على خزّان الماء الخلفي، والقُلنسوّة على رأسها المبَيضّ. فبوجود تلك الأداة غريبة الشكل على رأسها، لم يكن في استطاعتها سماع دويّ قنبلة نوويّة.

وصعدتُ إلى الطابق العلوي مع خِرَق للتنظيف، وفتحت تلك الخزانة. كانت هناك دزينتان من زجاجات الشراب الاسكتلندي مخبأة وراء بعض البطانيات القديمة التي حملتها معها الآنسة سيليا من مقاطعة تونيكا على الأرجح. لم تكن الزجاجات تحمل أي لُصاقات تعريف، بل مجرد ماركة على الزجاج. كانت هناك اثنتا عشرة زجاجة مليئة ومُعَدّة لليوم التالي، واثنتا عشرة زجاجة فارغة من الأسبوع السابق. لا عجب في ألا يكون لتلك الخرقاء أطفال.

في يوم الثلاثاء الأول من تموز/يوليو، وعند الثانية عشرة ظهراً، نهضت الآنسة سيليا من سريرها لحضور درس في الطهو. كانت ترتدي كنزة صوفية بيضاء ضيّقة جداً لدرجة أنها تجعل الطالحة تبدو صالحة. مما لا شك فيه أن ملابسها تضيق أكثر فأكثر كل أسبوع.

وجلسنا في أماكننا، أنا أمام جهاز الطهو، وهي على كرسيّها. لم أتحدّث إليها إلا قليلاً منذ عثرتُ على تلك الزجاجات في الأسبوع السابق. لم أكن مستاءة بل غاضبة، ولكنني أقسمتُ في الأيام الستة السابقة على اتّباع القاعدة الأولى لوالدتي. وإذا فاتحتُها بالموضوع، فذلك يعني أنني آبه لها، ولكنني لست كذلك. وإذا كانت خرقاء مُدمنة على الشراب، فهذا ليس من شأني.

وأخضعنا الدجاج النَّيء لألم شديد بعد أن جعلناه مسطَّحاً من خلال الضرب. وكان عليّ بعد ذلك تذكير تلك المفعَمة بالنشاط للمرة البليون بغسل يدَيها كيلا تقتلنا رائحة الدجاج.

وسمعتُ الصوت الصادر عن قلي الدجاج، وحاولتُ نسيان وجودها. فالدجاج المَقلي يحملني باستمرار على النظر إلى الحياة بمزيد من الارتياح، ونسيتُ تقريباً أنني أعمل لصالح مُدمنة على الشراب. وبعد إنهاء عملية الطهو، وضعتُ معظم الدجاج على طبق ليكون وجبة غداء لنا. فجلسَت قُبالتي كالعادة إلى طاولة المطبخ.

"خُذي الصدر". قالت، ونظرت إليّ بعينَين زرقاوَين منتفختَين. "هيا".

"آكل الساق والفخذ". قلت، وتناولتهما من الطبق. وقلّبتُ صفحات *جاكسون جورنال* وصولاً إلى قسم قطار الأنفاق، ووضعتُ الصحيفة أمام وجهي كيلا أراها.

"ولكن لا لحم عليهما".

"إنهما جيدان. يحتويان على مادة دهنية". واستمررت في القراءة، محاولةً تجاهلها.

"حسناً". قالت، وتناولَت الصدر: "أظن أن ذلك يجعلنا شريكتَين مثاليَتَين في الدجاج". وقالت بعد قليل: "تعلمين، أنا محظوظة كونك صديقتي، يا ميني".

فشعرتُ بالغثيان وباشمئزاز في صدري. فأنزلتُ صحيفتي ونظرتُ إليها. "لا، يا سيدتي. نحن لسنا صديقتَين".

"حسناً... نحن كذلك بالتأكيد". وابتسمَت كما لو أنها تُسديني معروفاً كبيراً.

"لا، يا آنسة سيليا. لسنا كذلك".

وطرفَت عينَيها بأهدابها الزائفة. *توقفي، يا ميني*، كنت أقول لنفسي. ولكنني عرفت من خلال قبضتَي يدَيّ أنه لم يكن في استطاعتي تحمّل الأمر دقيقة واحدة إضافية.

"هل...". ونظرَت إلى قِطع الدجاج في طبقها: "لأنك ملوّنة البشرة؟ أم لأنك لا... تريدين أن تكوني صديقتي؟".

"لأسباب عدة. فكونك بيضاء البشرة وكوني ملوّنة البشرة هو سبب من جُملة أسباب".

وكفّت عن الابتسام قائلة: "ولكن... لماذا؟".

"لأنني عندما قلت لك إنني تجاوزتُ المهلة المحدَّدة لدفع فاتورة الكهرباء، لم أكن أطلب منك المال". قلت.

"آه، يا ميني...".

"لأنك لم تأذني لي بإخبار زوجك أنني أعمل هنا. ولأنك تمكثين في هذا المنزل أربعاً وعشرين ساعة، وتثيرين جنوني".

"أنت لا تفهمين، *لا أستطيع*. لا أستطيع المغادرة".

"ولكن كل ذلك لا يقارَن مع ما أعرفه الآن".

وغدا وجهها أكثر شحوباً تحت مسحوق التبرّج.

"كل ذلك الوقت، كنت أفكر في أنك تعانين من مرض سرطان مميت، أو من مرض في الرأس، فأقول طوال اليوم، مسكينة الآنسة سيليا".

"أعلم أن الأمر كان قاسياً...".

"آه، أعلــم أنك لم تكوني مريضة. لقد رأيتك مع زجاجاتك في الطابق العلوي، ولن تخدعيني بعد الآن".

"زجاجات؟ آه، يا الله. يا ميني، أنا...".

"كـــان يجـــب عليّ إفراغها في مَصرف المياه المبتذَلة. يجب عليّ إخبار السيد جوني في الحال...".

فـــوقفَت، وحـــرّكَت الكرســـي بغـــضب. "لا تجرؤي على إخبار...".

"أنت تتصرفين كما لو أنك ترغبين في الأطفال، ولكنك تتناولين كميات من الشراب تكفي لتسميم فيل!".

"إذا أخبرتِه، سأطردك، يا ميني!". وترقرقت عيناها بالدموع. "إذا لمستِ تلك الزجاجات، سأطردك في الحال!".

ولكنني لم أكبح جماح رغبتي في الكلام لأنني كنت مغتاظة جداً. "تطردينني! من غيري سيعمل هنا سرّاً بينما تتسكعين في أرجاء المنـــزل مخمورة؟".

"تعـــتقدين أنني لا أستطيع طردك؟ اليوم هو آخر يوم عمل لك، يـــا مـــيني!". صـــاحت مستنكرة، مشيرةً إليّ بإصبعها. "تتناولين طبق الدجاج وتذهبين بعد ذلك إلى المنـــزل!".

والـــتقطَت طـــبقها الذي يحتوي على لحم أبيض، وانقضّت على الـــباب الدوّار. وسمعتُ الطبق يطقطق على مائدة غرفة الطعام الطويلة والأنـــيقة، وقـــوائم الكرسي تُحدث صريفاً على الأرض. فغرقتُ في مقعدي بسبب ارتجاف ركبتَيّ، وحدّقتُ إلى قِطع الدجاج.

لقد خسرتُ عملاً آخر.

استيقظتُ صباح يوم السبت عند الساعة السابعة مع ألم شديد في الرأس ولسان دامٍ. لا بد من أنني عضضته في الليل.

فنظر إليّ ليروي بطرَف عينه لأنه علم بوجود خَطب ما. لقد لاحظ ذلك في الليلة السابقة لدى تناول العشاء، واكتشف الأمر عندما عاد إلى المنزل عند الخامسة صباحاً.

"ماذا دهاك؟ لا تواجهين متاعب في العمل، أليس كذلك؟". سأل للمرة الثالثة.

"لا شيء باستثناء خمسة أبناء وبنات وزوج. أنتم شغلي الشاغل".

فآخر ما كنت أريد إطلاعه عليه هو قيامي بتوبيخ سيدة أخرى بيضاء البشرة وفقدان عمل آخر. وارتديتُ ثوب المنزل أرجواني اللون، ودخلتُ المطبخ بخطى متثاقلة، ونظّفته كما لو أنه لم يتمّ تنظيفه يوماً.

"يا أمي، إلى أين تذهبين؟". صاحت كيندرا. "أنا جائعة".

"أنا ذاهبة إلى منزل آيبيلين. أمك بحاجة إلى الراحة لمدة خمس دقائق". ومررتُ بجانب شوغر الجالسة على الدرَجات الأمامية. "يا شوغر، اذهبي وأعدّي لكيندرا طعام الفطور".

"سبق لها أن تناولت الطعام منذ نصف ساعة".

"حسناً، إنها جائعة مجدداً".

ووصلتُ إلى منزل آيبيلين الذي يبعد مسافة مجمّعَين سكنيَّين عن منزلي، مارّةً بطريق تيك رود وبالغةً شارع فاريش ستريت. وبالرغم من حرارة الطقس الشديدة، وتصاعد البخار من الزفت، كان الفتيان والفتيات يتقاذفون الكرة، ويركلون الصفائح المعدنية، ويثبون فوق الحبل. "مرحباً، يا ميني". كانت إحداهنّ تقول لي كلما قطعتُ خمسين قدَماً. فأومئ برأسي من دون إظهار الودّ؛ ليس في ذلك اليوم.

وعبرتُ حديقة آيدا بيك. كان باب مطبخ آيبيلين مفتوحاً، وهي جالسة إلى الطاولة تقرأ أحد تلك الكتب التي تحملها لها الآنسة سكيتر

مـــن المكتـــبة المخصصة لذوي البشرة البيضاء. ورفعَت نظرها عندما سمعَت صوت الباب المُنخُلي. لقد عرفَت أنني غاضبة كما أعتقد.

"رحمتك يا الله، من قام بذلك؟".

"ســـيليا فـــوت". وجلستُ قبالتها. فنهضَت آيبيلين وسكبَت لي بعض القهوة.

"ماذا فعلَت؟".

وأخبرتها عن الزجاجات التي عثرتُ عليها. لم أكن أعرف سبب عـــدم إخـــبارها بالأمـــر منذ اكتشافي وجود الزجاجات قبل أسبوع ونصف، ربما لأنني لم أكن أريد إخبارها بأمر مروِّع عن الآنسة سيليا. لقد شعرتُ بالسوء لأن آيبيلين هي التي تدبّرت لي العمل، ولكنني كنت شديدة الغضب بسبب إفسادي الأمر.

"وطردتني بعد ذلك".

"آه، يا الله، يا ميني".

"قالـــت إنهـــا ســـتجد خادمة أخرى. ولكن، من سيعمل لتلك السيدة؟ خادمة ما من الريف تعيش هناك ولا تجيد خدمة المنازل".

"هـــل فكـــرتِ في الاعـــتذار؟ ربما تذهبين صباح يوم الاثنين، وتتحدثين إلى...".

"لن أعتذر من أي مدمن على الشراب. لم يسبق لي أن اعتذرتُ أبداً من أبـــي، وأنا على ثقة تامة أنني لن أعتذر منها".

والتزمنا الهدوء، وراقبتُ ذبابة خَيلٍ تئزّ عند باب آيبيلين المُنخُلي، قارعةً برأسها الصلب والقبيح، *واب، واب، واب*، إلى أن سقطَت على الدرَج ودارت حول نفسها كالمجنونة.

"لا أستطيع النوم. لا أستطيع تناول الطعام". قلت.

"سيليا تلك هي أسوأ امرأة عملت عندها يوماً".

"كلهنّ سيئات، ولكنها أسوأهنّ جميعاً".

"ألسنَ كذلك؟ هل تذكرين عندما جعلتك الآنسة والترز تدفعين ثمن كوب الكريستال الذي كسرتِه؟ لقد خصمَت عشرة دولارات من أجـــرك؟ واكتشفتِ في ما بعد أن ثمن كل من هذه الأكواب يبلغ ثلاثة دولارات في متجر كارتر؟".

"أمم - هممم".

"آه، وتتذكـــرين السيد شارلي المخبول الذي كان يدعوك زنجية باســـتمرار ظانّـــاً أن الأمر مضحك. وزوجته التي كانت تحملك على تـــناول الغداء في الخارج، وإن في وسط شباط/فبراير؟ حتى وإن كانت تُثلج؟".

"إن مجرد التفكير في الأمر يحملني على الشعور بالبَرد".

"ومـــاذا عن...". كانت آيبيلين تضحك في سرّها، محاوِلةً التكلّم في الـــوقت نفسه. "ماذا عن الآنسة روبرتا تلك؟ كيف كانت تحملك علـــى الجلوس إلى طاولة المطبخ وتختبر صباغها الجديد على شعرك؟".

ومسحت آيبيلين عينَيها. "يا الله، لم يسبق لي أن رأيت شعراً أزرق على رأس امـــرأة سوداء. وقال ليروي إنك تبدين ككسّارة جوز من الفضاء الخارجي".

"لا شـــيء يدعو للضحك. لقد تطلّبي الأمر ثلاثة أسابيع وخمسة وعشرين دولاراً لإعادة شعري إلى لونه الطبيعي الأسود".

فهزت آيبيلين رأسها، وتأففَت، وتناولَت رشفة قهوة.

"ولكـــن الآنسة سيليا". قالت. "طريقة معاملتها لك؟ المبلغ الذي تدفعـــه لك لقاء عدم معرفة السيد جوني بشأنك ودروس الطهو؟ إنها أفضل منهنّ جميعاً".

"تعرفين أنها تدفع لي أجراً مضاعَفاً".

"آه، هــذا صحيح. ومع ذلك، فلا صديقات يزرنها ولا تُضطرّين إلى التنظيف بعد رحيلهنّ".

فنظرتُ إليها.

"إضــافةً إلى أطفالها العشرة أيضاً". فضغطت آيبيلين فوطة المائدة علــى شفتَيها، وأخفت ابتسامتها. "لا بد من أن صياحهم كان يقودك إلى الجنون طوال اليوم، إضافةً إلى الفوضى التي يحدثونها".

"أظن أنك عبّرت عن وجهة نظرك، يا آيبيلين".

فابتــسمت آيبــيلين، وربّــتت على ذراعي. "آسفة، يا حبيبتي. ولكــنك صــديقتي المفضَّلة، وأظن أن العمل لديها مناسب لك. لماذا تهــتمّين إن هي تناولَت رشفة أو رشفتَين من الشراب لتمضية يومها؟ اذهبــي وتحدّثي إليها يوم الاثنين".

فشعرتُ بوجهي يتغضّن. "هل تظنين أنها ستُعيدني إلى العمل؟ بعد كل ما قلتُه؟".

"لا أحد سواك سيقوم على خدمتها، وهي تعرف ذلك".

"أجل. يا لغبائها". وتنهّدتُ. "ولكنها ليست غبية".

وعــدت إلى المنــزل، ولم أُطلع ليروي على سبب انــزعاجي، ولكــنني فكــرت في الأمر طوال اليوم وطوال نهاية الأسبوع. لقد تمّ طــردي مــرات عدة تفوق عدد أصابع يدَيّ. فتضرعت إلى الله كي أستعيد عملي يوم الاثنين.

الفصل الثامن عشر

في صباح يوم الاثنين، قصدتُ منزل الآنسة سيليا، متدرّبةً طوال الطريق على ما يتعيّن عليّ قوله لها. *أعلم أنني تكلمت بوقاحة... ودخلتُ المطبخ. وأعلم أنني طُردتُ*... ووضعتُ حقيبتي على الكرسي، *و... و... إنه الجزء الأصعب. وأنا آسفة.*

واستجمعتُ قواي عندما سمعت وقع خطى الآنسة سيليا في المنزل. لم أكن أعرف ما الذي أتوقّعه، هل ستكون غاضبة أو لا مبالية، أم أنها ستطردني مجدداً. كل ما أعرفه هو أنني سأبدأ بالحديث.

"صباح الخير". قالت. كانت الآنسة سيليا لا تزال في قميص نومها، حتى إنها لم تمشّط شعرها وكان هناك مقدار أقل من المادة الدَّبقة على وجهها.

"يا آنسة سيليا، عليّ أن... أقول لك أمراً...".

فتأوّهَت، ووضعت يدها على معدتها.

"هل... تشعرين بتوعّك؟".

"أجل". ووضعَت بسكويتة وقليلاً من اللحم المقدَّد في طبق، وأعادت قطعة اللحم بعد ذلك.

"يا آنسة سيليا، أريدك أن تعلمي...".

ولكنها خرجت بينما كنت أتكلم، وأدركتُ أنني أواجه مشكلة ما.

وشـرعتُ بعملي. ربما كنت مجنونة بتصرفي كما لو أنني لا أزال أعمـل لـديها. ربما لن تدفع لي أجر ذلك اليوم. وبعد الغداء، شغّلتُ الـتلفاز وشاهدتُ برنامج الآنسة كريستين *بينما يدور العالم*، وقمتُ بالكـيّ. في العادة، كانت الآنسة سيليا تدخل وتشاهد البرنامج معي، ولكـنها لم تتـصرف علـى هذا النحو في ذلك اليوم. وعندما انتهى البرنامج، عملتُ في المطبخ لمدة قصيرة من الزمن، ولكن الآنسة سيليا لم تأتِ لحضور درس الطهو. لقد بقي باب غرفة النوم مغلَقاً، و لم أستطع الـتفكير في أي شيء آخر عند الساعة الثانية إلا بتنظيف غرفة نومها. فـشعرتُ بـرهبة في النفس كما لو أن قِدر طبخ موجودة في معدتي. وتمنّـيت لـو أنني بُحتُ بما لديّ في الصباح عندما سنحت لي الفرصة بذلك.

أخـيراً، توجهتُ إلى الناحية الداخلية من المنـزل، وألقيت نظرة علـى ذلـك الباب المغلَق. فقرعتُ من دون أن أتلقى أي إجابة. في النهاية، جازفتُ وفتحت الباب.

كان السرير فارغاً، وبات عليّ التساؤل حول باب الحمّام المغلَق.

"أنـا أقـوم بعملي هنا". صرختُ من دون أن أتلقى أي إجابة، ولكـنني كنت أعرف أنها هناك. كان في استطاعتي الشعور بوجودها وراء ذلك الباب. وبدأتُ بالتعرّق، وأردت الانتهاء من تلك المحادثة.

فجلـتُ الغـرفة بالكيس المخصص لجمع الملابس المُعدّة للغسل، واضـعةً فيه ملابس نهاية الأسبوع. وبقي باب الحمّام مغلَقاً، و لم أكن أسمع أي صوت. كنت أعرف أن الفوضى تعمّ ذلك الحمّام. فأصغيتُ، في أثـناء سـحب الملاءات عن السرير، علّني أسمع ما يشير إلى وجود

حياة. كانت الوسادة الطويلة بلون الأصفر الباهت الشيء الأكثر قُبحاً الذي رأيته يوماً لأنها أشبه بالنقانق عند طرفَيها. فوضعتها على الفراش بقوة، وملّستُ غطاء السرير.

ومسحتُ الطاولة بجانب السرير، وكدّستُ على جانبها مجلات *لوك* وكتاب البريدج الذي اشترته. ووضعتُ الكتب على طاولة السيد جوني بشكل مستقيم. كان يقرأ كثيراً. فالتقطتُ كتاب *قتل طائر مقلّد* وقلبتُه.

"انظري إلى هذا". كان هناك كتاب يحتوي على صور أشخاص ملوني البشرة. لقد دفعني ذلك للتساؤل عما إذا كنت سأجد يوماً كتاب الآنسة سكيتر على طاولة قرب السرير، من دون أن يُذكر فيه اسمي الحقيقي بالتأكيد.

أخيراً، سمعت ضجيجاً كما لو أن شيئاً ما اصطدم بباب الحمّام. "يا آنسة سيليا". صرختُ مجدداً: "أنا هنا. أريدك أن أُعلمك فحسب". ولكنني لم أتلقَّ أي إجابة.

ما يجري في الداخل ليس من شأني. قلت لنفسي. وصحتُ بعد ذلك، "سأقوم بعملي فحسب وأخرج من هنا قبل عودة السيد جوني إلى المنزل شاهراً المسدس". كنت آمل في حملها على الخروج، ولكن شيئاً لم يحدث.

"يا آنسة سيليا، هناك بعض الشراب تحت المغسلة. اشربيها واخرجي كي أتمكن من القيام بعملي في الداخل".

أخيراً، توقفتُ وحدّقتُ إلى الباب. هل أنا مطرودة أم لا؟ وإن لم أكن مطرودة، ماذا لو كانت مخمورة لدرجة أنها لا تسمعني. لقد طلب مني السيد جوني الاعتناء بها، ولا أظن أن كونها مخمورة في حوض الاستحمام من دون القيام بأي شيء يلبّي مطلبه.

"يا آنسة سيليا، قولي شيئاً فحسب كي أعلم أنك لا تزالين على قيد الحياة في الداخل".

"أنا بخير".

ولكنها لم تكن تبدو بخير.

"إنها الساعة الثالثة تقريباً". ووقفتُ وسط غرفة النوم، منتظرة.

"سيعود السيد جوني إلى المنزل قريباً".

كنت بحاجة إلى أن أعرف ما الذي يجري في الداخل. كنت بحاجة إلى معرفة ما إذا كانت مخمورة ومستلقية، وإذا كنت مطرودة أم لا، وكان يتعيّن عليّ تنظيف ذلك الحمّام كيلا يظن السيد جوني أن الخادمة السرّية لا تقوم بواجباتها، فأُطرَد مرةً أخرى.

"هيا، يا آنسة سيليا، أنت تعبثين بصباغ الشعر مجدداً؟ لقد ساعدتُك على صبغ شعرك في المرة الأخيرة، هل تتذكرين؟ لقد أعدناه إلى رَونقه".

وأُدير المِقبض، وفُتح الباب بهدوء. كانت الآنسة سيليا جالسة على الأرض إلى يمين الباب، وركبتاها مثنيّتان تحت قميص نومها.

فتقدمتُ قليلاً. ومن الجهة الجانبية، استطعت رؤية لون بشرتها الأزرق الحليبي المماثل للون مليّن القماش.

استطعت كذلك رؤية دماء في المرحاض، الكثير من الدماء.

"هل أنت مصابة بتشنّجات عضلية، يا آنسة سيليا؟". همستُ. لقد شعرتُ بتوهّج في أنفي.

ولم تستدر الآنسة سيليا. كان هناك خط من الدماء على امتداد هُدب قميص نومها الأبيض كما لو أنه غطس في المرحاض.

"هل تريدين منّي الاتصال بالسيد جوني؟". قلت. لقد حاولتُ الامتناع عن مشاهدة المرحاض المليء بالدماء، ولكنني لم أتمكن من

ذلــك بــسبب وجــود شيء ما ذات مظهر صلب في ذلك السائل الأحمر.

"لا". قالت الآنسة سيليا، محدّقةً إلى الجدار. "أحضري لي... دليل الهاتف".

فهــرعتُ إلى المطــبخ، وانتــشلتُ الدليل عن الطاولة، وعدتُ مسرعة. ولكن عندما حاولتُ تسليمه إلى الآنسة سيليا، أبعدته بيدها.

"أرجوك، قومي أنت بالاتصال". قالت. "تحت حرف تي، الطبيب تايت. لا أستطيع القيام بذلك بنفسي".

فقلّبتُ بسرعة صفحات الدليل الرقيقة. كنت أعرف من هو الطبيب تايــت. إنه طبيب معظم السيدات بيضاوات البشرة اللواتي عملتُ لديهنّ، وهــو يُخضع إيلين فيرلي *لعلاج خاص* كل يوم ثلاثاء عندما تكون زوجته على موعد لتصفيف شعرها. *تافت... تاغرت... تان. شكراً لله*.

وكانت يداي ترتجفان حول قرص الهاتف الدوّار. فأجابت امرأة بيــضاء البشرة. "منــزل سيليا فوت، الطريق العامة، اثنان وعشرون، ريف ماديسون". قلت لها بأفضل طريقة ممكنة ومن دون ثرثرة. "أجل يــا سيدتي، الكثير من الدم يخرج... هل يعرف كيف يصل إلى هنا؟". فقالت نعم، بالطبع، وأنهت المكالمة الهاتفية.

"هل هو قادم؟". سألَت سيليا.

"إنــه قادم". قلت. وانتابتني موجة أخرى من الغثيان. سيمضي وقت طويل قبل أن أتمكن من فرك ذلك المرحاض مجدداً من دون كمّ فمي.

"هل تريدين كوكا - كولا؟ سأُحضر لك زجاجة كوكا - كولا".

في المطــبخ، أخرجتُ زجاجة كوكا - كولا من البرّاد. وعدتُ، وجلــستُ على الآجرّ على أبعد مسافة ممكنة من ذلك المرحاض المليء بالدماء من دون ترك الآنسة سيليا بمفردها.

"ربمـــا يُفترض بنا نقلك إلى السرير، يا آنسة سيليا. هل تظنين أن في استطاعتك الوقوف؟".

فانحـــنت الآنسة سيليا إلى الأمام، وحاولَت دفع نفسها للوقوف. فدخلتُ الحمّام لمساعدها، ورأيت قميص نومها منتقعة بالدماء، والآجرّ الأزرق ملطخـــاً بما يشبه الغراء الأحمر الممزوج بالمِلاط. لن يكون من السهل إزالة تلك البُقَع.

وبيـــنما كنت أرفعها لتقف على قدمَيها، انـــزلقت الآنسة سيليا على بقعة دماء، وأمسكت بحافة المرحاض لتثبيت نفسها. "دعيني أبقى، أريد البقاء هنا".

"حـــسناً إذاً". وعدتُ إلى غرفة النوم. "سيصل الطبيب تايت في وقت قريب. هم يتصلون به إلى المنـــزل".

"تعالي واجلسي معي، يا ميني؟ أرجوك؟".

ولكن نسمة ساخنة ومزعجة هبّت من ذلك المرحاض. وبعد أن تخـــيّلت بعض الأمور، جلستُ على عتبة الحمّام واضعةً نصف مؤخرتي في الداخل والنصف الآخر في غرفة النوم. وكان في استطاعتي شمّ تلك الـــرائحة على مستوى النظر. كانت أشبه برائحة هامبرغر مُذاب على المِنضدة. فشعرت بالذُّعر عندما تخيّلتُ ذلك.

"اخرجي من هنا، يا آنسة سيليا. أنت بحاجة إلى بعض الهواء".

"لا يمكنني تلطيخ... البطانية الصوفية بالدماء، وإلا رآها جوني".

وبـــدت الأوردة في ذراع الآنـــسة سيليا سوداء تحت جِلدها، وكان وجهها يزداد ابيضاضاً.

"يبدو مظهرك غريباً. تناولي القليل من الكوكا - كولا".

فتناولت رشفة وقالت: "آه يا ميني".

"منذ متى تنـــزفين؟".

"منذ الصباح". قالت وشرعَت بالبكاء داخل مِحجن ذراعها.

"لا بأس، ستكونين بخير". قلت بطريقة مهدّئة وواثقة كما يبدو، ولكن قلبـــي كان يخفق بقوة. بالتأكيد، سيأتي الطبيب تايت لمساعدة الآنـــسة سيليا، ولكن، ماذا عن ذلك الشيء في المرحاض؟ ماذا يُفترض بـــــي أن أفعـــل به، هل أنظّفه بدَفق الماء؟ ماذا لو علق في الأنابيب؟ سيكون عليهم انتشالي إذا حاولتُ فتح تلك الأنانيب. آه، يا الله، كيف سأقوم بذلك؟

"هـــناك الكـــثير من الدماء". قالت متأوّهة، وانحنت عليّ. "لماذا يوجد الكثير من الدماء هذه المرة؟".

فـــرفعتُ ذقني ونظرتُ قليلاً داخل المرحاض، ولكن، كان يتعيّن عليّ إلقاء نظرة سريعة أخرى.

"لا تدَعي جوني يرى ذلك. آه، يا الله، متى... كم الساعة الآن؟".

"الثالثة إلا خمس دقائق. لدينا بعض الوقت".

"مـــا الذي يُفترض بنا القيام به حيال هذا الأمر؟". سألَت الآنسة سيليا.

بنا. فليسامحني الله، ولكنني تمنّيت لو لم أكن موجودة.

وأغمـــضتُ عينَيّ، وقلت: "أظن أنه سيكون على إحدانا سحب ذلك الشيء".

فاســـتدارت الآنسة سيليا نحوي بعينَيها المُحاطتَين باحمرار. "وأين نضعه؟".

لم يكـــن في اســـتطاعتي النظر إلى الآنسة سيليا. "أظن... في دلو القمامة".

"أرجوك، قومي بذلك الآن". قالت، ودسّت رأسها بين ركبتَيها كما لو أنها تشعر بالخجَل.

لم أسمع صيغة *الجمع* في كلامها؛ سيكون *عليك* القيام بذلك، هل تنتشلين طفلي المَيت من ذلك المرحاض.

وهل أملك خياراً آخر؟

وسمعتُ نفسي أتذمّر. كان الآجرّ ملتصقاً بجسمي. فحرّكتُ مؤخرتي، وهمهمتُ، محاولةً التفكير في كيفية تنظيف المرحاض. أعني، لقد قمتُ بأعمال تنظيف أسوأ من هذا العمل، أليس كذلك؟ ولم تتبادر إلى ذهني أي فكرة، ولكن لا بد من وجود حل ما.

"أرجوك". قالت الآنسة سيليا: "لم أعُد أستطيع... النظر إليه".

"حسناً". وأومأتُ برأسي كما لو أنني أعرف ما الذي يتعيّن عليّ القيام به. "سأهتمّ بذلك الشيء".

فوقفتُ، وحاولتُ أن أكون عملية. كنت أعرف أين سأضعه في دلو القمامة الأبيض بجانب المرحاض وأرمي كل شيء في الخارج بعد ذلك. ولكن، بماذا سأخرجه من المرحاض؟ بيدي؟

وعضضتُ على شفتي، وحاولتُ التزام الهدوء. ربما يُفترض بي الانتظار فحسب. ربما... ربما رغب الطبيب في اصطحاب ذلك الشيء معه عندما يصل! لتفحصه. فلو تمكنتُ من إلهاء الآنسة سيليا لبعض الوقت، لن أُضطر ربما أبداً إلى التعاطي مع هذا الأمر.

"سنهتم بالأمر بعد دقيقة". قلت بذلك الصوت المُطَمئن. "في أي شهر كنتِ حاملاً وفقاً لاعتقادك؟". واقتربتُ قليلاً من المرحاض من دون أن أجرؤ على التوقف عن الكلام.

"خمسة أشهر؟ لا أعلم". وغطت الآنسة سيليا وجهها بخرقة لغسل الوجه. "كنت أستحمّ وشعرتُ أنه يضغط ليخرج، فآلمني الأمر كثيراً. لذلك، جلستُ على المرحاض وسقط كما لو أنه يريد *الخروج مني*".

وبدأَت بالانتحاب مجدداً وكتفاها تهتزان أمام جسدها.

فأنـــزلتُ غطاء المرحاض بحذر، وجلستُ على الأرض.

"كمـــا لـــو أنـــه يفضّل الموت على المكوث في داخلي لحظة أخرى".

"انظـــري إليّ، إنها مشيئة الله. هناك أمر ما لا يسير على نحو جيد في أحـــشائك، ستقوم الطبيعة بحلّ المسألة. في المرة القادمة، ستحملين بـــشكل طبيعي". ولكنني فكرت حينذاك في تلك الزجاجات، وانتابتني موجة من الغضب.

"إنها... المرة الثانية".

"آه، يا الله".

"تـــزوجنا لأنـــني كنت حاملاً". قالت الآنسة سيليا: "ولكنه... سقط أيضاً".

لم يكن في استطاعتي تحمّل الأمر لحظة أخرى. "ولكن لماذا تدمنين علـــى الـــشراب؟ تعرفين أنه ليس في استطاعتك الحَمل بوجود باينت واحد من الشراب الاسكتلندي في داخلك".

"شراب اسكتلندي؟".

آه، يـــا الله. لم يكن في استطاعتي النظر إليها بعد إنكارها إدمانها الـــشراب الاسكتلندي. على الأقل، لم تكن الرائحة سيّئة جداً بوجود الغطاء مُطبَقاً. متى سيأتي ذلك الطبيب الغبـــي؟

"ظنـــنتِ أنـــني...". وهزت رأسها. "إنه دواء مقوٍّ". وأغمضت عينَـــيها. "حـــصلتُ علـــيه مـــن امرأة تدعى شوكتاو في فيليتشيانا باريش...".

"شـــوكتاو؟". وطرفتُ عينَيّ. إنها أكثر غباءً مما ظننتُ يوماً. "لا يمكـــنك أن تثقـــي بالهنود. ألا تعرفين أننا سمّمنا ذُرَتهم؟ ماذا لو كانت تحاول تسميمك؟".

"قال الطبيب تايت إنه مصنوع من عسل السكّر الأسود والماء ليس إلا". وبكت واضعةً المنشفة على وجهها. "ولكن، كان عليّ المحاولة. كان عليّ القيام بذلك".

حسناً. لقد تفاجأتُ بمدى ارتخاء جسمي، وكم كنت مرتاحة لسماع ذلك. "لا مشكلة إذا أخذتِ وقتك، يا آنسة سيليا. صدّقيني، لقد أنجبتُ خمسة أبناء وبنات".

"ولكن جوني يريد أبناء وبنات الآن. آه، يا ميني". وهزت رأسها. "ما الذي سيفعله بي؟".

"سيتخطى الأمر، هذا ما سيفعله. سينسى هذين الطفلين، لأن الرجال دائماً يجيدون النسيان. تحلّي بالأمل علّك تلدين بشكل طبيعي في المرة القادمة".

"هو لا يعلم بشأن هذا الجنين والجنين السابق".

"تقولين إنه تزوجك لهذا السبب".

"كان على علمٍ بالجنين الأول". وأطلقت الآنسة سيليا تنهيدة كبيرة. "هذه المرة هي... الرابعة في الواقع".

وتوقفت عن البكاء، ولم يتبقَّ لي أي أمور جيدة لأقولها. وبعد لحظات، كنا شخصَين نتساءل عن سبب اتخاذ الأمور هذا المنحى.

"استمررت في التفكير". همسَت: "إذا بقيتُ بلا حراكٍ، إذا استعنت بشخص ما للاهتمام بشؤون المنزل والطهو، ربما أتمكن من الحمل بشكل طبيعي". وبكت داخل منشفتها. "كنت أريد من هذا الطفل أن يشبه جوني تماماً".

"السيد جوني رجل وسيم. لديه شعر جميل...".

فأنزلَت الآنسة سيليا المنشفة عن وجهها.

فلوّحتُ بيدي في الهواء، مُدركةً ما الذي فعلتُه للتوّ. "عليّ تنشّق بعض الهواء. الطقس حارّ هنا".

"كيف عرفت...؟".

فنظــرتُ من حَولي، محاولةً التفكير في كذبة ما، ولكنني تنهدتُ أخيراً. "هو يعلم. قدم السيد جوني إلى المنــزل ووجدني هنا".

"*ماذا؟*".

"أجـــل يـــا سيدتي. طلب مني ألا أخبرك بالأمر كي تستمرّي في الظـــن أنه فخور بك. هو يحبك كثيراً، يا آنسة سيليا. لقد رأيتُ على وجهه مدى حبه لك".

"ولكن... منذ متى يعرف؟".

"منذ أشهر... قليلة".

"منذ أشهر؟ هل كان... هل كان مستاءً لأنني كذبت؟".

"بالطبع لا. حتى إنه اتصل بـــي إلى المنـــزل بعد أسابيع قليلة من اكتـــشافه أمـــري ليتأكد من أنني لا أنوي التوقف عن العمل هنا. إنه يخشى التضوّر جوعاً إذا غادرتُ".

"آه يا ميني". صاحت. "أنا آسفة. أنا آسفة حقاً بسبب كل شيء".

"لقـــد واجهـــتُ حالات أكثر سوءاً". وفكرت في صباغ الشعر الأزرق، وتـــناول الغـــداء في الـــبرد القارس. ولكن الطفل لا يزال في المرحاض، وهو أمر يجب التعاطي معه.

"لا أعرف ما الذي يجب القيام به، يا ميني".

"يطلـــب منك الطبيب تايت الاستمرار في المحاولة، إذاً، أظن أنه عليك الاستمرار في المحاولة".

"هـــو يـــصيح في وجهي ويقول إنني أضيّع وقتي على السرير". وهزّت رأسها. "إنه رجل بغيض".

وضغطت بالمنشفة على عينَيها. "لم يعُد في استطاعتي القيام بذلك بعد الآن". وكلما اشتد بكاؤها، ازدادت ابيضاضاً.

فحاولــتُ حملها على تناول بضع رشفات من الكوكا - كولا ولكنها أبت ذلك. فهي تكاد لا تستطيع رفع يدها للتلويح بها.

"أنا على وشك... التقيّؤ. سوف...".

والــتقطتُ مستوعَب القمامة، وراقبتُ الآنسة سيليا تتقيّأ فوقه. عندئذ، شعرتُ أنني مبلّلة. فنظرتُ إلى الأسفل وكان الدم يتدفّق بسرعة وقــدً بلــغ المكان الذي أجلس عليه. وكلما تقيّأت خرج الدم منها. كنت أعلم أنها تفقد دماء أكثر مما يمكن لشخص أن يتحمّله.

"اجلــسي، يا آنسة سيليا! تنفّسي بشكل سليم". قلت، ولكنها كانت مستندة إليّ.

"لا... أنت لا تريدين الاستلقاء. هيا". ودفعتُ ظهرها نحو الأعلى، ولكـــنها فقدت قوتها وشعرتُ بالدموع تندفع من عينَيّ لأنه كان يُفترض بـــذلك الطبـــيب اللعين أن يصل. كان يُفترض به إرسال سيارة إسعاف. فطوال السنوات الخمس والعشرين التي أمضيتها في تنظيف المنازل، لم يقل لي أحد ما الذي يجب القيام به عندما تقع عليّ سيدة بيضاء البشرة ميتة.

"هيا، يا آنسة سيليا!". صرختُ، ولكنها كانت ككتلة بيضاء ليّنة بجانبـــــي، ولم يكـــن في استطاعتي القيام بأي شيء سوى الجلوس، والارتجاف، والانتظار.

ومـــرّت عـــدة دقائق قبل أن يرنّ الجرس الخلفي. فأسندتُ رأس الآنـــسة ســـيليا إلى منشفة، وخلعتُ حذائي كيلا أخلّف آثار دماء في أنحاء المنـــزل، وركضتُ نحو الباب.

"لقـــد ماتـــت!". قلـــت للطبيب، واندفعَت المرضة بجانبـــي وتـــوجهَت إلى الـــداخل كما لو أنها تعرف طريقها. وأخرجَت ملح

الاستنشاق ووضعته تحت أنف الآنسة سيليا، فاهتزّ رأسها، وبكت قليلاً، وفتحَت عينَيها.

فساعدتني الممرضة على إخراج الآنسة سيليا من قميص نومها المبللة بالدماء. كانت عيناها مفتوحتَين ولكنها تكاد تكون غير قادرة على الوقوف. ووضعتُ مناشف قديمة على السرير ومدّدناها عليه. ودخلتُ المطبخ حيث كان الطبيب تايت يغسل يدَيه.

"إنها في غرفة النوم". قلت. *لا تلوّث المطبخ، أيها الثعبان*. كان الطبيب تايت في العقد السادس من العمر ويزيدني طولاً بقدم ونصف القدم، بشرته شديدة البياض، ووجه طويلاً وضيقاً لا يُظهر أي أحاسيس. أخيراً، عاد إلى غرفة النوم.

وقبل أن يفتح الباب، لمستُ ذراعه. "لا تريد أن يعرف زوجها. لن يكتشف الأمر، أليس كذلك؟".

فنظر إليّ كما لو أنني زنجية وقال: "ألا تعتقدين أن الأمر مرتبط به؟". ودخل غرفة النوم وأغلق الباب بوجهي.

ودخلتُ المطبخ وذرعتُ المكان ذهاباً وإياباً. ومرّت ساعة، ومن ثم نصف ساعة، وبدأت أقلق بشدة من قدوم السيد جوني إلى المنزل واكتشاف الأمر، وقيام الطبيب تايت بالاتصال به، وترك ذلك الطفل في المرحاض لأتولى مهمة انتشاله. وبدأ رأسي ينبض بقوة. أخيراً، سمعتُ الطبيب تايت يفتح الباب.

"هل هي بخير؟".

"لقد أصيبت بالهستيريا. أعطيتها حبة مهدّئة".

ومرّت الممرضة من حولنا وخرجَت من الباب الخلفي، حاملةً صفيحة معدنية بيضاء. فتنفستُ الصُعداء للمرة الأولى منذ ساعات.

"راقبـــيها غداً". قال، وسلّمني كيساً ورقياً أبيض. "أعطيها حبة أخـــرى إذا بدت شديدة الاهتياج. سيكون هناك مزيد من النـــزف، ولكن، لا تتصلي بـــي إلا إذا ساءت حالها".

"لن تقوم بإخبار السيد جوني بالأمر، أليس كذلك، أيها الطبيب تايت؟".

وأطلـــق هسهسة مشمئزّة. "تأكدي من ألا تفوّت موعدها يوم الجمعة. لن أقود كل تلك المسافة إلى هنا لأنها تُهمل القدوم إلى عيادتي بسبب تكاسلها".

وخرج مسرعاً، وأغلق الباب وراءه بقوة.

كانـــت ساعة المطبخ تشير إلى الخامسة، والسيد جوني يعود إلى المنـــــزل بعـــد نصف ساعة. فالتقطتُ الكلوروكس وخِرَق التنظيف ودلواً.

الآنسة سكيتر

الفصل التاسع عشر

إنـــه العام 1963 الذي دعوه عصر الفضاء. لقد دار رجل حول الأرض بمـــركبة صـــاروخية، وابتكـــروا حبة تحول دون حَمل النساء المتـــزوجات، وبات في المستطاع فتح علبة شراب معدنية بإصبع واحدة بـــدلاً مـــن الاستعانة بفتّاحة. ومع ذلك، كان لا يزال منـــزل والدَيّ حارّاً كما في العام 1899 عندما بناه والد جدّي.

"يـــا أمـــي، رجاءً". قلتُ متوسّلة: "متى سنذهب لشراء مكيّف الهواء؟".

"لقد أمضينا كل تلك المدة الطويلة من دون مكيّف كهربائي، ولا أعتزم وضع إحدى تلك الآلات غريبة الشكل في نافذتي".

وهكـــذا، وبمـــرور شهر تموز/يوليو يوماً بعد يوم، وجدت نفسي مُجبَـــرة على الانتقال من غرفة نومي في العُلّية إلى سرير نقّال في الرُّواق الخارجـــي الخلفي المحميّ بستار واقٍ. ففي طفولتنا، اعتادت كونستنتين الـــنوم في الخـــارج مع كارلتون ومعي في فصل الصيف، وذلك عندما يـــذهب والدي ووالدتي لحضور حفلات زفاف خارج المدينة. وكانت كونـــستنتين تـــنام بقميص نوم بيضاء قديمة الطراز، تمتد من ذقنها حتى

أصـــابع قدمَـــيها، بالرغم من كون الطقس حارّاً كما في هايدس. لقد اعتادت أن تغنّي لنا كي ننام. كان صوتها عَذباً للغاية بحيث إنني لم أفهم ســـبب عدم حضورها أي درس في الغناء. كانت والدتي تقول لي على الـــدوام إنه لا يمكن للمرء أن يتعلّم أي شيء من دون حضور الدروس الملائمة. لم يكن من المنطقي اعتبارها موجودة في ذلك الرُّواق الخارجي، ولكنني شعرت بوجودها. وتساءلتُ عما إذا كنت سأراها مجدداً.

وبجانـــب ســـريري، كانت هناك آلتي الكاتبة على طاولة بيضاء صدئة، مصقولة، وقابلة للغسل، ويوجد تحتها حقيبتي المدرسية الحمراء. فتـــناولتُ مـــنديل والدي ومسحتُ جبيني، ووضعتُ ثلجاً مملَّحاً على رُســـغَيّ. كان جهاز قياس الحرارة التابع لشركة أفيري لامبر يشير إلى ارتفـــاع الحـــرارة من 89 إلى 96 درجة وصولاً إلى نحو مئة درجة في الرُّواق الخارجي الخلفي. ولكن لحسن الحظ، لا يأتي ستيوارت في أثناء النهار عندما تكون الحرارة على أشُدّها.

فحـــدّقتُ إلى آلـــتي الكاتبة من دون أن يكون لديّ ما أطبعه أو أكتـــبه. كـــنت قد أنهيت قصص ميني وطبعتها. لقد شعرت بالتعاسة. فقـــبل أسبوعين، قالت لي آيبيلين إن يول ماي، خادمة هيلي، قد تقوم بمـــساعدتنا وإنهـــا تُبدي مزيداً من الاهتمام كلما تحدثَت إليها آيبيلين. ولكـــن، بمقـــتل ميدغار إيفرز وقيام الشرطة باعتقال أشخاص ملوّني البشرة وضربهم، كنت على ثقة تامة أنها خائفة حتى الموت.

ربما كان يتعيّن عليّ الذهاب إلى منـــزل هيلي لأعرف بنفسي ما تعتزم يول ماي القيام به. ولكن لا، فآيبيلين على حق، فأنا قد أخيفها على الأرجح أكثر فأكثر وأبدّد أي فرصة متوافرة.

تحـــت المنـــزل، كانت الكلاب تتثاءب وتنبح من شدة الحرارة. ونبح أحد الكلاب من دون حماسة عندما توقف جرّار على متنه خمسة

زنــوج مــن عمــال الحقول التابعين لوالدي. وقفز الرجال من الباب الخلفــي، وتطايــر الغــبار تحت أقدامهم، ووقفوا للحظات مذهولين ومذعــورين. كان المشرف على العمال يربط قطعة قماش حمراء على جبينه الأسود، وتتدلى على شفتَيه وعُنُقه. وكانت الحرارة شديدة جداً لدرجة أنني لم أفهم كيف يستطيعون الوقوف في الشمس.

ورفــرفت نسخة مجلة *لايف* الخاصة بــي بعد هبوب نسيم نادر الحــدوث. كانت أودري هيبورن تبتسم على الغلاف، ولم تكن هناك علــى شــفتها العلــيا أي قطرات تعرُّق. فالتقطتُها وقلبتُ الصفحات المتغــضّنة وصولاً إلى موضوع فتاة الفضاء السوفياتية. كنت أعرف ما الذي تحتويه الصفحة التالية. فوراء وجهها، كانت هناك صورة لكارل روبــرتس، وهــو مدرّس ملوّن البشرة من بيلاهاتشي التي تبعد مسافة أربعــين مــيلاً عــن منــزلنا. "في نيسان/أبريل، أخبر كارل روبرتس المراســلين في واشنطن ماذا يعني أن يكون الرجل ذات بشرة ملونة في الميسيــسيبــي، واصــفاً حاكم الولاية أنه *رجل مثير للشفقة متخلّق بــأخلاق البغايا*. ووُجد روبرتس مشنوقاً على شجرة بَقّان وموسوماً بوسم الماشية".

لقــد قتلوا كارل روبرتس لأنه تكلم بشكل صريح. وفكرتُ في كم كان يسهل عليّ الاعتقاد قبل ثلاثة أشهر أنني قادرة على حمل نحو اثنتَــي عــشرة خادمة على التحدث إليّ، كما لو أنهنّ ينتظرن طوال الوقت إخبار امرأة بيضاء البشرة قصصهنّ. كم كنت غبية.

وعــندما أجد نفسي غير قادرة على تحمّل الحرارة لحظة أخرى، كــنت أذهــب للجلــوس في المكان الوحيد في لونغليف الذي يتمتع بالــبرودة. فأديــر مفتاح تشغيل محرك السيارة، وأرفع الزجاج، وأرفع فــستاني إلى الأعلى، وأستمتع بهواء المكيّف. وبإحناء رأسي إلى الوراء،

ينجرف العالم مُشبَعاً برائحة الفريون وجلد الكاديلاك. وسمعتُ صوت توقّف سيارة أمام الطريق الخاصة بالمنـــزل، ولكنني لم أفتح عينَيّ. وبعد لحظات، فُتح باب الراكـب في سيارتي.

"تبّاً، درجة البرودة جيدة في الداخل".

ودفعتُ بفستاني نحو الأسفل. "ماذا تفعل هنا؟".

وأغلـــق ستيوارت الباب، وقبّلني بسرعة على شفتَيّ. "لديّ دقيقة فقط. عليّ التوجه إلى الساحل لعقد اجتماع".

"كم ستدوم مدة الاجتماع؟".

"ثلاثة أيام. عليّ إدراك بعض الأشخاص من شركتَي ميسيسيبـــي أويل وغاز بورد. أتمنّى لو أنني عرفت بالأمر قبل ذلك".

ومـــدّ يـــده وأمـــسك بيدي، فابتسمتُ. لقد خرجنا معاً طوال الشهرين السابقين مرتَين في الأسبوع، ناهيكم عن المواعيد التي يحيط بها جـــوّ من الرعب. أظن أنه وقت قصير مقارنةً مع الوقت الذي أمضته فتـــيات أخـــريات في المـــواعدة، ولكنه أطول حدث جرى لي يوماً، وشعرتُ أنه الأفضل.

"هل تريدين مرافقتي؟". قال.

"إلى بيلوكسي؟ الآن في الحال؟".

"في الحـــال". قـــال، ووضع راحة يده الباردة عليّ. وكالعادة، انتفضتُ قليلاً، ونظرتُ إلى يده، بعد ذلك نظرت للتأكد من أن والدتي لا تتجسس علينا.

"هـــيا، الطقس حارّ جداً هنا. سأُقيم في إيدجواتر على الشاطئ تماماً".

فضحكتُ، واستحسنتُ الفكرة بعد كل القلق الذي عانيت منه طوال الأسابيع السابقة. "تعني في إيدجواتر... معاً؟ في الغرفة نفسها؟".

وأومأ برأسه. "هل تعتقدين أنه يمكنك الإفلات مني؟".

بالنسبة إلى إليزابيت، إن مجرد التفكير في مشاطرة الغرفة مع رجل قبل الزواج به يحملها على الشعور بالخزي، ولقالت هيلي إنني غبية بمجرد التفكير في الأمر. كانتا متمسكتين بعذريّتهما. ومع ذلك، لقد فكرت في الأمر.

اقترب مني ستيوارت. كانت رائحته أشبه برائحة أشجار الصنوبر والتبغ المشتعل، ورائحة الصابون مرتفع الثمن الذي لم تعرفه عائلتي يوماً. "أمي مريضة، يا ستيوارت، بالإضافة إلى انشغالي بأمور كثيرة...". ولكن رائحته ذكيّة حقاً. كان ينظر إليّ كما لو أنه يريد أكلي، فارتعشتُ بسبب هواء مكيف الكاديلاك.

"هل أنت واثقة؟". همس، وقبّلني، ولكن ليس بطريقة مهذّبة كما في السابق. وكانت يده لا تزال عليّ، ووجدتُ نفسي مجدداً أتساءل عما إذا كان يتصرف مع خطيبته، باتريشا، على هذا النحو، حتى إنني لم أكن أعرف إذا كان الأمر قد تطور معهما على هذا النحو أم لا. لقد جعلتني فكرة ملامستهما لبعضهما بعضاً أشعر بالغثيان، فابتعدتُ عنه.

"لا أستطيع... فحسب". قلت. "تعلم أنني لم أُطلع والدتي على الحقيقة...".

فأطلق تنهيدة أسف ط..اة، وأحببتُ تلك النظرة على وجهه، خيبةَ الأمل تلك. لقد أدركتُ حينذاك أن الفتيات يقاومن لأجل نظرة الأسف الجميلة تلك. "لا تكذبي عليها". قال. "تعرفين أنني أكره الكذب".

"هل ستتصل بي من الفندق؟". سألتُ.

"سأفعل". قال. "آسف لأنه يتعيّن عليّ المغادرة قريباً. آه، كدتُ أنسى إخبارك أن والدي ووالدتي يريدان منكم القدوم إلى منزلنا يوم السبت، بعد ثلاثة أسابيع، لتناول العشاء".

فجلستُ بشكل مستقيم. لم يسبق لي أن التقيت والدَيه. "ماذا تعني بــ... منكم؟".

"أعني أنت ووالدَيك. تأتون إلى المدينة للقاء عائليّ".

"ولكن... لماذا جميعنا؟".

فهزّ كتفَيه. "والداي يريدان لقاءكم، وأنا أريد أن يلتقياك".

"ولكن...".

"آسف، يا فتاتي". قال، ودفع شعره وراء أذنه: "عليّ الذهاب. هل أتصل بك مساء غد؟".

فأومأت برأسي. وخرج إلى الحرارة وانطلق بسيارته، ملوّحاً لوالدي الذي كان يسير على الدرب المكسوّ بالغبار.

وتُركتُ بمفردي في سيارة الكاديلاك قلقة. عشاء في منزل السيناتور، ووالدتي تطرح ألف سؤال وتبدو يائسة بسببي.

بعد ثلاث ليالٍ حارّة وسيّئة، لم أحصل فيها على تأكيد من يول ماي، أو أي خادماتٍ أخريات، عاد ستيوارت من اجتماعه على الساحل إلى منزلي مباشَرةً. كنت قد سئمتُ الجلوس أمام الآلة الكاتبة وطباعة النشرات الدَّورية والإجابات عن رسائل الآنسة ميرنا. فنزلتُ السلّم على عجَل، وعانقني كما لو أن أسابيع مضت على لقائنا الأخير.

كان ستيوارت ملفوحاً بالشمس تحت قميصه البيضاء، وكان ظهرها متجعّداً بسبب القيادة، وكمّاها مرفوعَين، وترتسم على وجهه ابتسامة دائمة وشقية تقريباً. فجلسنا على نحو مستقيم قُبالة بعضنا بعضاً في غرفة الاستجمام، محدّقَين أحدنا إلى الآخر. كنا ننتظر لجوء والدتي إلى السرير، عِلماً أن والدي كان قد خلد إلى النوم عند المغيب.

كانـــت عينا ستيوارت مسمرتين وتحدقان إلى عينيّ في أثناء قيام والدتي بالتحدث عن الطقس الحار، وكيفية لقاء كارلتون أخيراً بالفتاة المناسبة.

"ونحن متشوّقون لتناول الغداء مع والدَيك، يا ستيوارت. رجاءً، أخبر والدتك بما قلتُ".

"أجل يا سيدتي، بالتأكيد".

وابتـــسم لي مجدداً. كانت هناك الكثير من الأمور التي أحبها فيه. كـــان ينظـــر إلى عينَـــيّ مباشَرةً عندما نتحدث، وكانت راحتا يدَيه قاسيتَين، ولكن أظافره نظيفة ومقلّمة. كنت أحب ذلك الشعور الخشن على عُنُقي. ولا أكون صادقة إن لم أُقرّ أنه من الجميل أن يكون هناك مـــن أرافقــه إلى حفلات الزفاف والرقص، وأنه ليس عليّ تحمّل نظرة رالـــيه لـــيفولت عندما يجد أنني أخرج برفقة صديقاتي مجدداً، وحَيرته عندما يكون عليه حمل معطفي مع معطف إليزابيت وإحضار مشروب لي أيضاً.

ومـــنذ لحظة دخول ستيوارت المنـــزل، أشعر أنني محميّة ومُعفاة. فـــوالدتي لا توجّه إليّ انتقاداتها في حضوره كيلا يلاحظ عيوبـــي. ولا تتذمّـــر منّـــي في حضوره لأنها تعرف أنني سأسيء التصرف وأنتحب، فتتقلّص فرص عثوري على الزوج المناسب. فوالدتي تقوم بخدعة كبيرة عـــندما تُظهر جانباً واحداً من شخصيتي، معتبرةً أنه لا يُفترض إظهار شخصيتي الحقيقية إلا بعد *فوات الأوان*.

أخـــيراً، وعند الساعة التاسعة والنصف، ملّست والدتي تنّورتها، وطـــوَت البطانـــية ببطء وإتقان كما لو أنها رسالة من أحد أحبّائها. "حسناً، أظن أنه حان وقت النوم. سأترككما أيها الشابان بمفردكما. يا أوجينيا؟". ووجهَت نظرها إليّ قائلة: "لا تطيلي السهر؟".

فابتسمتُ بعذوبة. أنا في الثالثة والعشرين من العمر. "بالطبع لا، يا أمي".

فغادرَت، وجلسنا نحدّق إلى بعضنا ونبتسم.

وننتظر.

ومشت والدتي بخطى خافتة في أنحاء المطبخ، وأقفلَت إحدى النوافذ، وسكبت بعض الماء. وبعد لحظات، سمعنا صوت إغلاق باب غرفة نومها. فوقف ستيوارت وقال: "تعالي *إلى هنا*". وبعد الانتقال إلى الجانب الآخر من الغرفة بخطوة واسعة، أصبحت إلى جانبه، ووضع يدَيّ على شفتَيه وقبلني بشغف. وكنت قد سمعتُ الفتيات يقلن إن القبلة تحمل شعوراً بذوبان الحبيبين أحدهما في الآخر. ولكنني أعتقد أنها أشبه بالارتفاع والغدوّ أكثر طولاً، والإطلال من فوق الوشيع على مناظر وألوان لم يسبق لكم أن شاهدتموها من قَبل.

كان يتعيّن عليّ التوقف، فلديّ أشياء أقولها. "تعالَ، اجلس".

وجلسنا بجانب بعضنا بعضاً على الأريكة، وحاول تقبيلي مجدداً، ولكنني أعدتُ رأسي إلى الوراء. لقد حاولتُ عدم النظر إلى عينَيه اللتين بدتا زرقاوَين بشدة بسبب حروق الشمس، أو إلى الشعر الذهبي والمبيضّ على ذراعَيه.

"يا ستيوارت...". وابتلعتُ ريقي، مُعدّةً نفسي لطرح السؤال الرهيب. "عندما كنت مخطوباً، هل شعر والداك بالخيبة؟ متى حدث مع باتريشا... ما حدث؟".

فتصلّب فمه على الفور، ونظر إليّ. "لقد شعرت والدتي بالخيبة. كانتا مقرّبتَين".

وشعرتُ بالأسف بسبب التطرق إلى ذلك الموضوع، ولكن كان يجب عليّ أن أعرف. "إلى أي مدى كانتا مقرّبتَين؟".

فألقى نظرة من حوله. "هل لديك أي شيء في المنزل؟ شراب؟".

فقصدتُ المطبخ وسكبت له كوباً من زجاجة باسكاغولا المخصصة للطهو، وملأته بالماء. وأوضح لي ستيوارت أنه عندما ظهر للمرة الأولى في الرُّواق الخارجي لمنزلي، كان قد تخلى عن خطيبته. ولكنني كنت بحاجة إلى معرفة كيفية حدوث الأمر، ليس بسبب فضولي فحسب بل لأنني لم أكن على علاقة مع أحد من قَبل. كنت بحاجة إلى معرفة ما الذي يدعو إلى قطع علاقة ما إلى الأبد، وإلى أي مدى يمكنكم خرق القواعد قبل أن يتم التخلي عنكم، وما هي تلك القواعد.

"إذاً، لقد كانتا صديقتَين حقيقيتَين؟". سألت، وكنت على وشك لقاء والدته بعد أسبوعين. كانت والدتي قد حددت اليوم التالي موعداً للقيام بالتسوق في متجر كنينغتون.

وتناول جرعة طويلة، وقطّب جبينه. "كانتا تدخلان الغرفة وتدوّنان ملاحظات حول تنسيق الزهور وأسماء الأزواج". وزالت كل آثار البسمة المتكلّفة. "لقد تعرضت والدتي لصدمة كبيرة، وآثرت العزلة... بعد ذلك".

"إذاً... ستقوم بمقارنتي بباتريشا؟".

وطرف ستيوارت عينَيه، ناظراً إليّ. "إنه أمر محتمَل".

"عظيم. لا أطيق الانتظار".

"تشعر والدتي بالقلق من أن أتعرّض للأذى مجدداً". وأشاح بنظره عني.

"أين باتريشا الآن؟ لا تزال تقيم هنا أم...".

"لا، لقد رحلَت. انتقلت إلى كاليفورنيا. هل يمكننا التحدث عن أمر آخر؟".

فتنهّدتُ وأسندتُ ظهري إلى الأريكة.

"حسناً، هل يعلم والداك بما جرى على الأقل؟ أعني، هل يُسمح لي أن أعرف ذلك؟". قلتُ، لأنني شعرت بومضة غضب، معتبرةً أنه لن يخبرني أموراً هامة بأهمية ذلك الأمر.

"يا سكيتر، لقد أخبرتك، أكره التحدّث عن...". ولكنه صرف أسنانه آنذاك، وأخفض صوته. "فقط والدي يعرف جزءاً من الموضوع. أمـــا والدتي فتعرف القصة الحقيقية، على غرار والدَي باتريشا وباتريشا نفـــسها". وابتلع ما تبقى من الشراب. "هي تعرف ما الذي قامت به، إنه أمر مؤكد".

"يا ستيوارت، أريد أن أعرف كيلا أقوم بالأمر نفسه".

ونظر إليّ وحاول الضحك، ولكن الضحكة خرجت كما لو أنها زمجرة. "لن تفعلي ما فعلَته بعد مليون عام".

"ماذا؟ ماذا فعلَت؟".

"يـــا سكيتر". قال، وتنهّد، ووضع كوبه. "أنا مُتعَب. يُستحسَن بـــي الذهاب إلى المنـــزل".

دخلتُ المطبخ المليء بالبخار في صباح اليوم التالي، مروَّعةً بسبب ما جرى في اليوم السابق. كانت والدتي في غرفتها تستعدّ للقيام برحلة التسوّق لشراء ما يتلاءم وتناولنا العشاء في منـــزل ويتوورث. وكنت أرتدي جينـــزاً أزرق وسترة.

"صباح الخير، يا باسكاغولا".

"صباح الخير، يا آنسة سكيتر. هل تريدين فطورك المعتاد؟".

"أجل، رجاءً". قلت.

كانـــت باسكاغولا صغيرة الحجم وتتنقل بسرعة. لقد أخبرتها في حزيـــران/يونـــيو الماضي، كيف أحب قهوتي السوداء، وشرائح الخبز

المحمّـــص مع قليل من الزبدة، ولم تسألني مجدداً عن ذلك. كانت على غـــرار كونستنتين في ما يتعلق بنسيان كل ما يتعلق بنا، فتساءلتُ عن عدد وجبات الفطور المتأصلة في عقلها، تلك التي قامت بإعدادها لنساء بيضاوات البشرة. وتساءلتُ عما تكون عليه حال تمضية حياتكم كلها محـــاولين تذكّـــر كمّية الزبدة التي يفضّلها الآخرون على شرائح الخبز المحمَّص، وكمية النشاء، وتبديل الملاءات...

فوضـــعَت قهـــوتي أمامي، ولم تسلّمني إيّاها باليد. لقد أخبرتني كونـــستنتين أن الأمـــر لا يجـــري على ذلك النحو، ولا أتذكّر كيف اعتادت كونستنتين تقديم القهوة.

"شكراً لك". قلت: "شكراً جزيلاً".

فطـــرفَت عينَـــيها للحظات، ناظرةً إليّ، وابتسمَت قليلاً. "على الـــرَّحب... والسَّعة". لقد أدركتُ أنها المرة الأولى التي أشكرها فيها بإخلاص، وبدت غير مرتاحة.

"يـــا ســـكيتر، هل أنت جاهزة؟". سمعتُ والدتي تقول من الجهة الخلفـــية للمنـــزل. فصرختُ، مجيبةً أنني كذلك. فتناولتُ شريحة الخبز المحمَّـــص، وأملتُ في القيام برحلة التسوق هذه بسرعة. كان يُفترض بـــوالدتي الكفّ عن اختيار ملابسي منذ عشر سنوات. وألقيتُ نظرة ســـريعة مـــن حولي ولاحظتُ أن باسكاغولا تراقبني من أمام حوض الغسيل. فاستدارت عندما نظرتُ إليها.

وتـــناولتُ صـــحيفة *جاكسون جورنال* الموضوعة على الطاولة. فعمود الآنسة ميرنا التالي لن يتم نشره حتى يوم الاثنين، وهو سيكشف الـــنقاب عن لغز البُقع المستعصية. وفي قسم الأنباء المحلية، كانت هناك مقالة عن حبّة دواء جديدة يدعونها *فاليوم*، تساعد النساء على التعاطي مع التحديات اليومية. يا الله، في استطاعتي تناول عشر حبات في الحال.

ورفعتُ نظري، وتفاجأتُ برؤية باسكاغولا واقفة بجانبـــي.
"هل أنت... هل تريدين شيئاً ما، يا باسكاغولا؟". سألتُ.
"أريد أن أخبرك بأمر ما، يا آنسة سكيتر، شيء ما عن ذلك...".
"لا يمكـــنك ارتـــداء ثياب قطنية للذهاب إلى متجر كنينغتون".
قالـــت والـــدتي من مدخل الباب. واختفت باسكاغولا من جانبـــي كالـــبخار، وعادت إلى حوض الغسيل لتمدّ خرطوماً مطاطياً أسود من الحنفيّة إلى الجلاّية.
"اصعدي إلى الطابق العلوي وارتدي شيئاً ملائماً".
"يـــا أمـــي، هذا ما أرتديه. ما الفكرة من ارتداء أفضل الملابس لشراء ثياب جديدة؟".
"يا أوجينيا، رجاءً، دعينا لا نـــزيد الأمر صعوبة".
وعادت والدتي إلى غرفة نومها، ولكنني كنت أعلم أن النقاش لم ينـــته عند هذا الحد. وملأ صوت الجلاّية الغرفة، واهتزّت الأرض تحت قدمَيّ العاريتَين، وكان الدويّ مهدّئاً ومرتفعاً بما يكفي لمنع حدوث أي نقاش. ورأيت باسكاغولا أمام حوض الغسيل.
"هل كنت تريدين قول أمر ما لي، يا باسكاغولا؟". سألتُ.
فألقت باسكاغولا نظرة على الباب. كانت بنصف حجمي وذات طبع خجول جداً، وأُنـــزل رأسي لدى التحدث إليها. فاقتربت مني.
"يول ماي هي نسيبتي". قالت باسكاغولا تحت غطاء هدير الآلة. كانت همس، ولكن لم يكن يبدو عليها أي خجل.
"لم... أكن أعرف ذلك".
"نحن نسيبتان مقرّبتان من بعضنا بعضاً، وتزورني في منـــزلي كل نهايـــة أســـبوع للاطمئنان عليّ. لقد أخبرتني بما تقومين به". وضيّقَت عينَيها، فظننتُ أنها ستطلب مني أن أترك نسيبتها وشأنها.

"أنا... نحن نبدّل الأسماء. لقد أطلعَتك على الأمر، أليس كذلك؟ لا أريد التسبب لأحد بأي مشاكل".

"قالـــت لي يوم السبت إنها ستساعدك. لقد اتصلَت بآيبيلين من دون أن تتمكن من التحدث إليها. أردت إطلاعك على الأمر قبل ذلك ولكن...". وألقت نظرة سريعة على مدخل الباب مرة أخرى.

لقد صُعقتُ. "تريد أن تساعدني؟!". ووقفتُ، ولم أتمالك نفسي عـــن طرح السؤال التالي: "يا باسكاغولا، هل... تريدين المساعدة في القصص أيضاً؟".

فـــرمقتني بنظرة طويلة وثابتة. "تعنين أن أخبرك عما تكون عليه حال العمل... لدى والدتك؟".

ونظـــرنا إلى بعـــضنا بعضاً، مفكرتَين على الأرجح بالأمر نفسه، انـــزعاجها من إخباري، وانـــزعاجي من الاستماع إليها.

"ليس والدتي". قلت بسرعة. "نساء أخريات قمتِ بخدمتهنّ من قَبل".

"إنها المرة الأولى التي أقوم فيها بأعمال منـــزلية. كنت أعدّ الغداء في دار *السيدة العجوز* قبل أن تنتقل إلى فلوود".

"تعنين أن والدتي لم تمانع أن تكون خدمتك لنا هي تجربتك الأولى في العمل المنـــزلي؟".

ونظـــرت باسكاغولا إلى الأرض المكسوّة باللينوليوم الأحمر، وقد انتابها الخجل مجدداً. "لم يشأ أحد غيري العمل لديها". قالت: "بعد ما حدث لكونستنتين".

فوضعتُ يدي بحرص على الطاولة. "ما رأيك... بذلك؟".

وخلا وجه باسكاغولا من أي تعبير. وطرفت عينَيها بضع مرات، ومن الواضح أنها تفوقني دهاءً. "لا أعرف شيئاً عن الأمر. أردت فقط

أن أخبرك بما قالته يول ماي". وتوجهَت إلى البرّاد، وفتحته وانحنت في داخله.

وأطلقتُ نفَساً طويلاً وعميقاً. فلأعالج كل مسألة على حِدة.

لم يكن التسوق مع والدتي أمراً لا يُحتمَل كالعادة، ربما لأنني كنت في مزاج جيد بسبب الخبر الذي تلقّيته من يول ماي. فجلست والدتي على الكرسي في غرفة ارتداء الملابس، واخترت ارتداء بذلة ذكرى السيدة الأولى، المصنوعة من البوبلين الأزرق الفاتح، والمرفَقة بسترة ذات ياقة مستديرة. وتركناها في المتجر نفسه لتطويل الهُدب. لقد فاجأني عدم قيام والدتي بقياس أي شيء. وبعد نصف ساعة طويلة، قالت إنها مُتعَبة، لذلك قدتُ السيارة في طريق عودتنا إلى لونغليف. وتوجهت والدتي إلى غرفتها مباشَرةً للحصول على قيلولة.

فاتصلتُ بمنزل إليزابيت وقلبي يخفق بقوة، ولكن إليزابيت التقطت الهاتف. لم أكن أملك الجرأة للسؤال عن آيبيلين. فبعد حال الذُّعر التي أحدثتها الحقيبة المدرسية، قطعتُ عهداً على نفسي بالتزام مزيد من الحذر.

لذلك، انتظرتُ حتى المساء، آملةً في العثور على آيبيلين في منزلها. فجلستُ على صفيحتي المعدنية التي تحتوي على دقيق، محرّكةً أصابعي على كيس أرزّ جاف. لقد أجابت من الرنّة الأولى.

"ستساعدنا، يا آيبيلين. لقد وافقت يول ماي".

"ماذا قالت؟ متى اكتشفتِ الأمر؟".

"بعد ظهر هذا اليوم. لقد أخبرتني باسكاغولا. لم تستطع يول ماي التحدث إليك".

"يا الله، كان خطي الهاتفي مقطوعاً بسبب تأخري في تسديد الفاتورة هذا الشهر. هل تحدثتِ إلى يول ماي؟".

"لا، ظننت أنه من الأفضل أن تكلّميها أولاً".

"الغريب في الأمر أنني اتصلتُ بمنزل الآنسة هيلي بعد ظهر هذا اليوم من منزل الآنسة ليفولت، وقالت لي إن يول ماي لم تعُد تعمل هناك، وأنهت المكالمة الهاتفية. لقد سألتُ عنها، ولكن أحداً لا يعرف شيئاً".

"قامت هيلي بطردها؟".

"لا أعلم. آمل في أن تكون قد تخلّت عن العمل تلقائياً".

"سأتصل بهيلي وأعرف ما جرى. يا الله، آمل في أن تكون بخير".

"سأستمر في محاولة العثور على يول ماي بعد إعادة تشغيل خطي الهاتفي".

لقد اتصلتُ بمنزل هيلي أربع مرات ولكن أحداً لم يُجب. أخيراً، اتصلت بمنزل إليزابيت وقالت لي إن هيلي قصدت بورت غيبسون وستمضي الليلة هناك لأن والد وليام مريض.

"هل حدث شيء ما... مع خادمتها؟". سألتُ بطريقة عرَضية.

"لقد ذكرَت شيئاً ما عن يول ماي، ولكنها قالت إنها تأخرت وعليها وضع الأمتعة في السيارة".

وأمضيت بقية الليل في الرُّواق الخارجي الخلفي، مقلّبةً الأسئلة في عقلي، وشاعرةً بالتوتر بسبب القصص التي قد تخبرني إيّاها يول ماي عن هيلي. فبالرغم من عدم اتفاقنا على بعض الأمور، تبقى هيلي إحدى صديقاتي المقرّبات. ولكن الكتاب أهم من أي شيء آخر، لا سيّما وأن آمالي انتعشت في إمكانية إنجازه.

فاستلقيتُ على السرير النقّال عند منتصف الليل. كان صرير الجداجد خارج الستار الواقي، وغرقتُ في الفراش الرقيق، وتدلّت قدماي، وشعرتُ بارتياح للمرة الأولى منذ عدة أشهر. لم يبلغ عدد

الخادمـــات اثنتَـــي عشرة، بل ازداد عدد الراغبات في إخبار قصصهنّ واحدة.

في اليوم التالي، كنت جالسة أمام التلفاز أتابع أخبار الساعة الثانية عـــشرة. كـــان تشارلز وارينغ يقول في تقرير إخباري إن ستِّين جندياً أميركياً قُتلوا في فييتنام. فشعرتُ بحزن كبير. كان على ستين رجلاً أن يقـــضوا في مكـــان ما بعيداً عن أحبائهم. لقد أزعجني هذا الخبر كثيراً بسبب ستيوارت كما أعتقد، ولكن تشارلز وارينغ بدا مهزوز المشاعر إلى حد كبير.

فالـــتقطتُ ســـيجارة وأعـــدتها إلى مكانها. كنت أحاول عدم التدخين، ولكنني كنت عصبية المزاج بسبب تلك الليلة. فوالدتي تتذمر باســـتمرار من قيامي بالتدخين، وأعلم أنه يُفترض بـــي الامتناع عنه، ولكـــن لم يكن يبدو أنه سيودي بحياتي. وتمنّيتُ لو كان في استطاعتي طلـــب المزيد من المعلومات من باسكاغولا عما قالته يول ماي، ولكن باسكاغولا اتصلت في صباح ذلك اليوم، وقالت إنها تواجه مشكلة ولن تتمكن من القدوم حتى بعد الظهر.

كان في استطاعتي سماع والدتي في الرُّواق الخارجي الخلفي تساعد جيمـــسو علـــى صنع المثلجات، لا بل أيضاً سماع صوت تكسّر الثلج وســـحق الملـــح. فالصوت لذيذ، وقد جعلني ذلك أتمنى الحصول على بعض المثلجات التي لن تكون جاهزة إلا بعد ساعات. بالطبع، لا أحد يُعـــدّ المـــثلجات عند الثانية عشرة ظهراً من يوم حارّ لأنه عمل ليلي، ولكن والدتي كانت تعتزم إعداد مثلجات بالدرّاق، وتبّاً للحرارة.

وخـــرجتُ إلى الـــرُّواق الخلفي وألقيتُ نظرة. كان جهاز إعداد المثلجات الكبير الفضّي بارداً ومتعرّقاً، والأرضية تهتزّ، وجيمسو جالساً على دلو موضوع رأساً على عقِب، واضعاً ركبتَيه على جانبـــي الآلة

ويحرك المِرفق الخشبـــي بيدَيه، مرتدياً قفّازَين. كان البخار يتصاعد من وعاء المثلجات الجافة.

"ألم تـــأت باســـكاغولا بعد؟". سألت والدتي، واضعةً المزيد من الكريما داخل الآلة.

"ليس بعد". قلت. كانت والدتي تتعرّق، فدفعَت خصلة شعر وراء أذنها. "سأسكب الكريما بدلاً منك، يا أمي. تشعرين بالحرّ كما يبدو".

"لـــن تقومـــي بـــذلك على النحو الصحيح. عليّ القيام بالأمر بنفسي". قالت، وطردتني إلى الداخل.

في النـــشرة الإخـــبارية، كان رودجر ستيكر يُدلي بتقريره أمام مكتب بريد جاكسون، وعلى وجهه الابتسامة الغبية نفسها التي ترتسم علـــى وجـــه مراسلي الحرب. "... يدعى هذا النظام البريدي الحديث شـــيفرة زد - زد - زيب، هذا صحيح، شيفرة زد - زد - زيب التي تقضي بكتابة خمسة أعداد عند أسفل مغلّفكم...".

ورفـــع رسالة، ودلّنا على مكان كتابة الأعداد. وقال رجل ببذلة عمل ولا أسنان لديه: "لن يقوم أحد باستخدام هذه الأعداد. سيستمر الناس في محاولة الاعتياد على استخدام الهاتف".

وسمعـــتُ الـــباب الأمامي يُغلَق. وبعد دقيقة، دخلت باسكاغولا غرفة الاستجمام.

"والـــدتي في الرُّواق الخلفي". قلت لباسكاغولا، ولكنها لم تبتسم أو تنظر إليّ. لقد سلّمتني مغلّفاً صغيراً فحسب.

"كانت سترسله عبر البريد، ولكنني قلت لها إنني سأحمله لك".

كـــان يوجد على الناحية الأمامية من المغلّف عنوان منـــزلي من دون أن يكـــون هـــناك اسم المرسِل ولا حتى شيفرة زيب. وخرجت باسكاغولا إلى الرُّواق الخلفي.

وفتحتُ الرسالة. كان خط اليد مكتوباً بحبر أسود على السطور الزرقاء المستقيمة لورقة مدرسية:

عزيزتي الآنسة سكيتر،

أريـــد أن أعرب لك عن مدى أسفي لأنني لن أتمكن من مساعدتك بقصصك. لم أكن راغبة في إطلاعك على السبب، ولكنني أردت أن أكــون مــن يطلعــك علــيه. كما تعرفين، كنت أقوم بخدمة إحدى صديقاتك. لم أكن أحب العمل لديها وأردت التوقف عن العمل مرات عدة، ولكنني كنت أخشى ذلك. كنت أخشى عدم الحصول على عمل آخر إذا أغضبتُها.

لا تعــرفين على الأرجح أنني ارتدتُ الكلّية بعد إنهاء دراستي في المدرسة الثانوية. كنت أنوي التخرّج ولكنني قررت الزواج. وعدم حــصولي علـــى إجـــازة جامعية هو من الأمور القليلة التي أسفتُ عليها في حياتي. ولكنْ، لديّ توأمان جديران بالتضحية. لقد ادّخرتُ وزوجـــي المال طوال عشر سنوات لإرسالهما إلى مدرسة توغالو، ولكنـــنا لا نــــزال لا نملك المال الكافي لكليهما بالرغم من عملنا الشاق. ويتمتع فتياي بالذكاء وهما توّاقان إلى التعلم. ولكننا نملك مـــالاً يكفي لأحدهما فقط، وأطلب منك أن تقولي لي: أيّ من فتييك التوأمَين تختارين لارتياد المدرسة، وأيّ منهما تختارين للعمل في بـــيع القـــار؟ كيف تقولين لأحدهما إنك تحبينه بقدر محبتك للآخر، ولكنك تقررين أنه لن يكون الذي سيحصل على الفرصة في الحياة؟ أنت لا تقولين أي شيء، بل تجدين طريقة لحدوث الأمر.

أفترض أن في استطاعتك اعتبار الأمر رسالة اعتراف. لقد سرقتُ من تلــك المرأة خاتماً قبيحاً من الياقوت، آملةً في أن يغطي تكلفة التعليم، خاتماً لم تضعه يوماً في إصبعها، وشعرتُ أنها تدين لي بكل ما عانيت مـــنه في أثناء عملي لديها. بالطبع، إن أيّاً من فتيَيّ لن يرتادا المدرسة الآن. فالغرامة التي حدّدتها المحكمة تساوي تقريباً ما ادّخرناه.

بإخلاص،
يول ماي كروكل
مجمّع النساء 9
سجن ولاية ميسيسيبي

السجن. فارتعدتُ، ونظرت من حولي بحثاً عن باسكاغولا، ولكنها كانت قد غادرت الغرفة. أردت أن أعرف منها متى حصل ذلك وكيف حصل بهذه السرعة؟ وما الذي يمكن القيام به؟ ولكنها خرجت لمساعدة والدتي، ولم يكن في استطاعتنا التحدث هناك. فشعرتُ بالغثيان وبالرغبة في التقيّؤ، وأطفأتُ التلفاز.

فتخيّلتُ يول ماي جالسةً في زنزانة السجن تكتب هذه الرسالة. لقد عرفت الخاتم الذي تحدّثَت عنه، لقد قدّمته والدة هيلي لابنتها بمناسبة ذكرى مولدها الثامنة عشرة. واكتشفت هيلي قبل سنوات قليلة أن الحجر الموجود فيه ليس ياقوتاً بل كان عقيقاً أحمر يكاد لا يساوي شيئاً، ولم تضعه في إصبعها بعد ذلك. فأطبقتُ قبضتَي يدَيّ.

وبدا صوت مَخض المثلجات في الخارج كسحق عظام. فقصدتُ المطبخ لأنتظر باسكاغولا وأحصل منها على إجابات. لقد قررتُ إطلاع والدي على الأمر والتحقق مما إذا كان في استطاعته القيام بأي شيء، وإذا كان على معرفة بمحام ما مستعدّ لتقديم المساعدة لها.

قصدت منزل آيبيلين عند الساعة الثامنة من تلك الليلة. كان من المفترَض إجراء مقابلتنا الأولى مع يول ماي، ولكنني قررتُ القدوم على كل حال. كان الطقس ماطراً وعاصفاً، فأمسكتُ معطفي وحقيبتي المدرسية بإحكام. كنت قد فكرت في الاتصال بآيبيلين لمناقشة الوضع معها، ولكنني لم أستطع القيام بذلك، بل دعوتُ باسكاغولا لصعود الطابق العلوي بدلاً من ذلك كيلا ترانا والدتي نتحدث، وطلبتُ منها إخباري بكل شيء. "كان ليول ماي محامٍ ممتاز". قالت باسكاغولا. "ولكن الجميع قالوا إن زوجة القاضي هي صديقة مقرَّبة من الآنسة هولبروك، وإن سرقة تافهة تستوجب حُكماً بالسجن لمدة

ستة أشهر، ولكن الآنسة هولبروك مارست ضغوطات لرفع مدة السجن إلى أربع سنوات. لقد انتهت المحاكمة قبل أن تبدأ".

"في استطاعتي أن أسأل والدي. قد يكون في استطاعته توكيل... محام أبيض البشرة لها".

فهزت باسكاغولا رأسها، وقالت: "*كان* محامياً أبيض البشرة".

وقرعتُ باب منزل آيبيلين، وانتابني شعور بالخجَل. لم يكن يُفترض بي التفكير في مشاكلي الخاصة في أثناء وجود يول ماي في السجن، ولكنني كنت أدرك آثار ذلك على الكتاب. فإذا كانت الخادمات يخشين مساعدتنا يوم أمس، فلا بد من أن يكنّ مذعورات اليوم.

وفُتح الباب، ورأيتُ زنجياً واقفاً ينظر إليّ، وياقته الكهنوتية البيضاء تومض. فسمعتُ آيبيلين تقول: "لا بأس، أيها المبجّل". فتردّد، ولكنه عاد إلى الوراء لأتمكن من الدخول.

فدخلتُ ورأيت عشرين شخصاً على الأقل متجمّعين في غرفة الجلوس الصغيرة والمدخل. لم أستطع رؤية الأرض. كانت آيبيلين قد أخرجت كراسيَ من المطبخ، ولكن معظم الأشخاص كانوا واقفين. ورأيت ميني في الزاوية بلباسها الرسمي الأبيض، وبجانبها لوفينيا، خادمة لو آن تامبلتن، ولكنني لم أعرف الآخرين.

"مرحباً، يا آنسة سكيتر". همست آيبيلين التي كانت لا تزال بلباسها الرسمي الأبيض وحذائها الطبّي الأبيض.

"هل...". وأشرتُ بإصبعي إلى الباب. "سأعود في وقت لاحق". همستُ.

فهزت آيبيلين رأسها. "حدث أمر مروّع ليول ماي".

"أعـــرف". قلـــت. وساد الغرفةَ هدوء لم يكن يشوبه إلا بعض الـــسعال وصـــريف كرسيّ. كانت هناك كتب ترانيم مكدَّسة على الطاولة الخشبية الصغيرة.

"لقـــد عرفتُ بالأمر اليوم". قالت آيبيلين. "تم اعتقالها يوم الاثنين وأودعت السجن يوم الثلاثاء. يقال إن المحاكمة لم تدُم أكثر من خمس عشرة دقيقة".

"لقـــد تـــسلّمتُ رسالة منها". قلت: "أخبرتني فيها عن ابنَيها، وقامت باسكاغولا بتسليمي إيّاها".

"هل أخبرَتك أنه كان ينقصها خمسة وسبعون دولاراً فقط لجمع رسم التعليم؟ لقد طلبَت قَرضاً من الآنسة هيلي على أن تفي جزءاً منه كل أسبوع، ولكن الآنسة هيلي رفضت ذلك، قائلةً إن المؤمن الحقيقي لا يعطي الحسنات إلى الذين يتمتعون بصحة جيدة وإلى القادرين على إعالـــة أنفـــسهم. قالـــت إنه من الأفضل لهم أن يتعلموا تدبّر أمورهم بأنفسهم".

يـــا الله، كان في استطاعتي تخيُّل هيلي تُلقي تلك المحاضرة اللعينة، ولم أستطع النظر إلى وجه آيبيلين.

"ولكن دور العبادة ستتضامن لإرسال ابنَيها إلى المدرسة".

وســـاد الغـــرفةَ هدوءٌ تام، باستثناء صوت آيبيلين وهمسي. "هل يمكنني القيام بأي شيء برأيك؟ تقديم المساعدة بأي طريقة من الطرائق؟ بالمال أو...".

"لا. لقـــد وضعَت دار العبادة خطة لتسديد أتعاب المحامي إلى أن يتم عرض إطلاق سراحها المشروط على بساط البحث". ودلّت آيبيلين رأسها. كنت على ثقة تامة بتأثّرها بالكارثة التي ألمّت بيول ماي، ولكن شـــعوراً خامرني أنها تدرك أيضاً فشل مشروع الكتاب. "سيكونان في

سنة التخرج عندما تخرج من السجن. لقد حكمت عليها المحكمة بالسجن لمدة أربع سنوات وبدفع غرامة بقيمة خمسمئة دولار".

"أنا آسفة يا آيبيلين". قلت. وألقيت نظرة سريعة من حَولي على الناس الموجودين في الغرفة. كانوا مطأطئي الرؤوس كما لو أن النظر إليّ يُحرقهم. فوجّهتُ نظري إلى الأسفل.

"تلك المرأة شريرة!". قالت ميني بغضب من الناحية الأخرى من الأريكة، وأُجفلتُ، آملةً في أنها لم تكن تعنيني.

"لقد أُرسلت هيلي هولبروك إلى هنا من قبل الشرير لتدمير أكبر قدر ممكن من حياة الناس!". همست ميني، ماسحةً أنفها بكمّها.

"يا ميني، لا بأس". قال المبجَّل. "سنجد سبيلاً لمساعدتها". ونظرتُ إلى الوجوه المتغضّنة، متسائلةً عما يمكن أن يكون ذلك السبيل.

وساد الغرفةَ مجدداً هدوء لا يُطاق. كان الهواء حارّاً، وانتشرت رائحة مماثلة لرائحة البُنّ المحروق. لقد شعرتُ بوحدة عميقة في ذلك المكان الذي اعتدتُ الشعور براحة كبيرة فيه، وأحسستُ بحرارة الكره والذّنب.

فمسح المبجَّل الأصلع عينَيه بمنديل. "شكراً لك، يا آيبيلين، لأنك استقبلتنا في منزلك للدعاء". وبدأ الناس يتحركون، متمنّين تمضية ليلة هانئة لبعضهم بعضاً، وموميئين برؤوسهم برزانة. والتُقطت حقائب اليد، واعتُمرت القبّعات. وفتح المبجّل الباب، مُدخلاً الهواء الرطب، وتبعته امرأة ذات شعر رمادي مجعَّد توقفت أمامي حيث كنت أقف مع حقيبتي المدرسية.

وفُتح معطفها قليلاً، كاشفاً عن لباس رسمي أبيض.

"يا آنسة سكيتر". قالت من دون أن تبتسم: "سأساعدك في قصصك".

فنظرتُ إلى آيبيلين التي رفعَت حاجبَيها وفتحت فمها. واستدرتُ نحو المرأة، ولكنها كانت خارجة من الباب.

"سأساعدك، يا آنسة سكيتر". قالت امرأة أخرى، طويلة القامة ونحيلة، وارتسمت على وجهها نظرة هادئة مماثلة لنظرة المرأة الأولى.

"أمم، شكراً... لك". قلت.

"أنا أيضاً، يا آنسة سكيتر، سأساعدك". ومرّت امرأة بمعطف أحمر بجانبي بسرعة من دون أن تنظر إليّ.

وبدأتُ بالعدّ. لقد أصبحنَ خمس، ست، سبع نساء، فأومئ لهنّ برأسي، ولكن كل ما كان في استطاعتي قوله لكل منهنّ هو *شكراً لك، أجل، شكراً لك*. وشعرت بمرارة لأن الأمر تطلّب سجن يول ماي لدفع عجَلة الكتاب إلى الأمام.

ثماني، تسع، عشر، إحدى عشرة امرأة، ولم تكن أي منهنّ تبتسم عندما تُطلعني على رغبتها في المساعدة. وفرغت الغرفة باستثناء ميني. كانت واقفة في الزاوية البعيدة، وذراعاها مشدودتان على صدرها. وبعد مغادرة الجميع، رفعَت نظرها الذي وقع على نظري للحظة من الزمن، ومن ثم أشاحت به بسرعة باتجاه الستائر البنّية المشبوكة ببعضها بعضاً بالدبابيس، وبصورة مُحكَمة، حاجبةً الرؤية من خلال النافذة. ولكنني رأيتُ الرعشة على فمها، ذلك المقدار الضئيل من الرّقة الكامن وراء غضبها. لقد تقصّدَت ميني حدوث ذلك.

بسفر الجميع، يكون قد مرّ شهر على توقف مجموعتنا عن لعب البريدج. وفي يوم الأربعاء، التقينا في منزل لو آن تامبلتن، وحيّينا بعضنا بعضاً بضرب الكف على الكف، والإعراب عن سرورنا برؤية إحدانا الأخرى.

"مسكينة لو آن بهذين الكمين الطويلين في هذا الطقس الحارّ. هل هي الإكزيمة مجدداً؟". سألَت إليزابيت لأن لو آن كانت ترتدي فستاناً صوفياً رماديّ اللون في فصل الصيف الحار.

ونظــرت لو آن إلى حضنها، مُحرَجة قائلة: "أجل، الأمر يزداد سوءاً".

ولكــني لم أتمالك نفسي من لمس هيلي عندما دنت مني. وعندما تحــررتُ من عناقها، تصرّفَت كما لو أنها لم تلاحظ رد فعلي. ولكنها استمرت في النظر إليّ بعينَين ضيّقتَين في أثناء ممارسة لعبة الورق.

"ماذا ستفعلين؟". سألَت إليزابيت هيلي. "أهلاً وسهلاً بك متى أردتِ اصطحاب الأطفال إلى هنا في أي وقت، ولكن... حسناً...". فقبل انعقاد نادي البريدج، اصطحبت هيلي هيذر ووليام إلى منــزل إليزابيت لتتولى آيبيلين أمر الاعتناء بهما في أثناء لعب الورق. ولكنني فهمــتُ الرســالة الكامــنة وراء ابتــسامة إليزابيت، كانت تحب هيلــي، ولكن إليزابيت لم تكن تمانع مشاطرة تقديم المساعدة مع أي شخص.

"كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أن تلك الفتاة سارقة منذ اليوم الأول مــن شروعها بالعمل". وبينما كانت هيلي تروي لنا قصة يول مــاي، رسمت دائرة كبيرة بإصبعها للإشارة إلى الحجر الكريم الضخم، تلك *الياقوتة* التي لا تساوي شيئاً.

"لقــد أمــسكتُ بها تأخذ الحليب بعد انقضاء تاريخ صلاحيّة تــناوله، وهكــذا بــدأ الأمــر، وتلا ذلك مسحوق الغسيل، وبعد ذلــك المناشــف والمعاطف. وقبل أن تُدركنَ ذلك، يكنّ قد أخذنَ الــتُحَف المــتوارَثة عــن الأجداد، ويقمن برهنها لقاء الحصول على باينتات من الشراب".

لقد قاومتُ رغبتي الشديدة في قطع أصابعها الملوّحة إلى نصفَين، ولكنني كبحتُ جماح لساني. فلتعتقد أن كل شيء يسير بشكل جيد لأنها الوسيلة الأكثر أمناً للجميع.

وبعد انتهاء اللعبة، هرعتُ إلى المنزل للإعداد للقاء آيبيلين في ليلة ذلك اليوم، وقد شعرتُ بالارتياح بسبب عدم وجود أحد في المنزل. فألقيتُ نظرة سريعة على رسائل باسكاغولا التي تركتها لي شريكتي في كرة المضرب باستي، سيليا فوت التي أكاد لا أعرفها. لماذا تتصل بي زوجة جوني فوت؟ لقد جعلتني ميني أُقسم على عدم الاتصال بها، ولم أكن أملك الوقت للتساؤل. عليّ الاستعداد لإجراء المقابلات.

جلستُ إلى طاولة المطبخ في منزل آيبيلين في السادسة من مساء ذلك اليوم. لقد اتفقنا على قدومي إلى منزلها كل مساء تقريباً حتى انتهاء المقابلات. فكل يومَين، كانت امرأة ملوّنة البشرة تقرع الباب الخلفي لمنزل آيبيلين وتجلس إلى الطاولة معي، وتخبرني قصصها. لقد وافقت إحدى عشرة خادمة على التحدث إلينا، ناهيكم عن آيبيلين وميني، مما يجعل المجموع ثلاث عشرة خادمة، علماً أن السيدة شتاين اشترطت توافر اثنتَي عشرة منهنّ، لذلك اعتبرتُ أننا محظوظات. فاسم الخادمة الأولى أليس، ولم أسأل عن الأسماء الأخيرة، وكانت آيبيلين تقف في آخر المطبخ تستمع.

وشرحتُ لأليس أن المشروع يتمحور بوضع مجموعة من القصص الحقيقية ترويها الخادمات عن خبراتهنّ في أثناء عملهنّ لدى عائلات من ذوي البشرة البيضاء. وسلّمتها مغلّفاً يحتوي على أربعين دولاراً قمتُ باقتطاعها من أجري الذي أتقاضاه عن عمود الآنسة ميرنا، والعلاوات التي أحصل عليها، والمال الذي وضعته والدتي في يدي رغماً عنّي لتغطية تكلفة مواعيدي في صالونِ التجميل الذي لم أقصده أبداً.

"هناك احتمال كبير في ألا يتم نشره أبداً". كنت أقول لكل منهنّ علـــى حِدة. "وإذا تم نشره، فإن عائداته ستكون قليلة جداً". وعندما قلت ذلك في المرة الأولى، وجّهتُ نظري إلى الأسفل، شاعرةً بالخجل، مـــن دون أن أعـــرف السبب. فكوني بيضاء البشرة، شعرتُ أنه من واجبـــي مساعدتهنّ.

"لقد أوضحت لي آيبيلين الأمر". قالت العديدات منهنّ: "لا أقوم بذلك لهذا السبب".

وكنت أكرّر لهنّ ما سبق أن توافقنا عليه، وهو أن أخفي أسماءهنّ الـــواردة في القصص عن غير المنتسبات إلى المجموعة. لقد بُدّلت على الورق أسماؤهنّ وأسماء المدن والعائلات التي عملنَ لديها. وتمنّيتُ لو أن في اســـتطاعتي إضـــافة ســـؤال أخـــير: "بالمناسبة، هل كنت تعرفين كونـــستنتين بيتس؟". ولكنني كنت على ثقة تامة أن آيبيلين ستقول لي إنها فكرة سيئة. فما يشعرن به من خوف يكفيهنّ.

"الآن، ستكون المقابلة مع أُولا كَمَن يُمعن النظر إلى محارة ميتة". قالت لي آيبيلين قبل الشروع بإجراء مقابلة مع أولا. كانت تخشى على غراري القيام بإخافتهنّ حتى قبل بدء المقابلة. "لا تشعري بالإحباط إذا لم تبح بالكثير".

ولكـــن أولا، المحـــارة الميتة، بدأت بالكلام قبل أن أجلس على الكرسي، وقبل أن أتمكن من شرح أي شيء، ولم تتوقف حتى العاشرة ليلاً.

"عـــندما طلـــبتُ علاوة، منحوني إيّاها. وعندما كنت بحاجة إلى منـــزل، اشتروا لي منـــزلاً. لقد قدِم الطبيب تاكر بنفسه إلى منـــزلي وانتزع رصاصة من ذراع زوجي لأنه كان يخشى التقاط هنري جرثومة مـــا في مستـــشفى ذوي البشرة الملوّنة. لقد عملتُ أربعين عاماً لدى

الطبيب تاكر والآنسة سيسي. كانا شديدَي اللطف معي. كنت أغسل شـــعرها كل يوم جمعة. لم أرَ يوماً تلك المرأة تغسل شعرها". وتوقفَت للمرة الأولى طوال الليل، وبدت كما لو أنها تشعر بوحشة وقلق. "إذا مـــتُّ قـــبلها، لا أعرف ما الذي ستفعله الآنسة سيسي كي يتم غسل شعرها".

وحاولـــتُ عدم الابتسام بحماسة. لم أكن أريد أن أثير الشكوك. فأليس، وفاني أموس، ووييي، خجولات، ويحتجن إلى الملاطفة، ويبقين أنظـــارهنّ مـــوجَّهة نحـــو أحضانهنّ. أما فلورا لو وكليونتين فتجعلان الأبـــواب تنفـــتح والكلمـــات تتشقلب في أثناء طبعي إيّاها على الآلة الكاتـــبة بأقـــصى سرعة ممكنة، راجيةً منهما التمهّل كل خمس دقائق. كانـــت معظم القصص حزينة، ومريرة. لقد توقّعتُ ذلك. ولكن كان هناك عدد مفاجئ من القصص الجيدة أيضاً. وكانت كلهنّ يلتفتن إلى آيبيلين في مرحلة من المراحل كما لو أهنّ يسألنها، *هل أنت واثقة؟ هل في استطاعتي إخبار امرأة بيضاء البشرة بهذا الأمر؟*

"يـــا آيبيلين؟ ما الذي سيحدث إذا... طُبع هذا الشيء واكتشف الناس من نحن؟". سألَت وييي الخجولة. "ما الذي سيفعلونه بنا برأيك؟".

كانـــت تـــشكل أنظارنا مثلّثاً في المطبخ في أثناء نظرنا إلى بعضنا بعضاً. فأخذتُ نفَساً عميقاً، واستعددت لطمأنتها أننا شديدات الحذر والحِرص.

"نـــسيبة زوجي... لقد سحبوا لسانها منذ مدة لأنها تحدّثت إلى بعـــض الأشـــخاص في واشنطن عن كلان. هل تظنين أنهم سيسحبون ألسنتنا؟ بسبب تحدّثنا إليك؟".

لم أعرف بما أجيب. *ألسنة*... يا الله، لم تتبادر الفكرة إلى ذهني. كنت أعتقد أنهنّ قد يُسجنّ، أو توجَّه إليهنّ اتهامات ملفَّقة، أو يُغرَّمن.

"كنت... شديدة الحرص". قلت ولكن بطريقة غير مُقنعة. ونظرتُ إلى آيبيلين، ولكنها بدت قلقة أيضاً.

"لـــن نعـــرف حتى يحين الوقت، يا ويني". قالت آيبيلين بهدوء. "ولكـــن الأمـــر لن يكون مماثلاً لما نشاهده على التلفاز. السيدة بيضاء البشرة تقوم بأمور مختلفة عن الرجل أبيض البشرة".

فنظرتُ إلى آيبيلين. لم يسبق لها أن شاطرتني رأيها في ما يمكن أن يحدث. وأردتُ تغيير الموضوع لأنه لن يُفيدنا بشيء.

"لا". قالت ويني، هازّةً رأسها. "لا أظن ذلك. في الواقع، قد تقوم السيدة بيضاء البشرة بأمور أسوأ".

"أيـــن تذهبين؟". نادت والدتي من غرفة الاستحمام. كنت أحمل حقيبتي المدرسية ومفاتيح الشاحنة، وواصلت سيري نحو الباب.

"إلى السينما". أجبت.

"لقد ذهبت إلى السينما مساء أمس. تعالي إلى هنا، يا أوجينيا".

فعـــدتُ ووقفـــتُ عند مدخل الباب. كانت والدتي تشكو من القـــرحة ولا تتناول سوى مرَق الدجاج على العشاء، فأشعر بالأسف لحالهـــا. كـــان والدي قد لجأ إلى السرير قبل ساعة، ولكن لم يكن في إمكاني المكوث معها. "آسفة، يا والدتي، لقد تأخرتُ. هل تريدينني أن أحضر لك أي شيء؟".

"أي سينما ومع من؟ لقد خرجتِ كل مساء تقريباً هذا الأسبوع".

"مـــع بعض الفتيات... فحسب. سأعود عند العاشرة. هل أنت بخير؟".

"أنا بخير". قالت، وتنهّدَت: "هيا اذهبـــي، إذاً".

وتوجّهتُ إلى السيارة، شاعرةً بالذّنب لأنني أترك والدتي بمفردها عـــندما لا تكون بخير. لقد شكرتُ الله لأن ستيوارت في تكساس، ولا

أستطيع أن أكذب عليه بهذه السهولة. فعندما زارني منذ ثلاث ليالٍ، جلسنا على الأُرجوحة في الرُّواق الخارجي واستمعنا إلى صوت الجداجد. كنت مُتعَبة جداً من العمل حتى وقت متأخر من الليلة السابقة لدرجة أنني كدت لا أستطيع إبقاء عينيّ مفتوحتين، ولكنني لم أُرده أن يرحل. فألقيتُ رأسي على حضنه، ومددتُ يدي وفركت وجهه المكسوّ بشُعيرات قاسية.

"متى ستسمحين لي بقراءة شيء ما قمت بكتابته؟". سأل.

"يمكنك قراءة عمود الآنسة ميرنا. لقد كتبتُ مقالة رائعة عن العَفَن الفُطري الأسبوع الماضي".

فابتسم، وهزّ رأسه. "لا، أعني أريد قراءة شيء ما *عما يجول في ذهنك*. أنا على ثقة تامة أنه لا يتناول أمور تدبير شؤون المنزل".

وتساءلتُ حينذاك عما سيكون موقفه إذا علِم أنني أُخفي أمراً ما عنه. لقد خشيتُ من أن يكتشف أمر القصص، وشعرت بالسعادة بسبب اهتمامه لما أكتب.

"عندما تصبحين مستعدّة. لن أضغط عليك". قال.

"ربما أُطلعك على الأمر يوماً ما". قلت، وشعرتُ أن عينَيّ تُغمَضان.

"اخلدي إلى النوم، يا حبيبتي". قال، ورفع شعري عن وجهي وأعاده إلى الوراء. "دعني أجلس قليلاً معك هنا".

وبخروج ستيوارت من المدينة للأيام الستة التالية، بات في استطاعتي التركيز على القصص لا غير، فأتوجّه كل ليلة إلى منزل آيبيلين بأعصاب مشدودة كالمرة الأولى. كانت النساء طويلات القامة، قصيرات القامة، سوداوات كالأسفلت أو بنّيات كالكاراميل. وقيل لي إنه لن يتمّ استخدامك أبداً إذا كانت بشرتك شديدة البياض، فكلما

كانت بشرتك ملونة أكثر كان الأمر أفضل. وأصبح الحديث رتيباً مع الـــوقت مـــع تذمّرات من انخفاض الراتب، والعمل في أوقات صعبة، ووجـــود أطفال مزعجين. ولكن، كانت هناك قصص عن أطفال من ذوي البـــشرة البيـــضاء يقضون نحبهم على الأذرعة، مُحتفظين بتلك النظرة الهادئة الخالية من أي تعبير في عيونهم الزرقاء.

"لقـــد دُعـــيَت أوليفيا. كانت مجرّد طفلة صغيرة الحجم، تُمسك إصـــبعي بـــيدها بالغة الصِّغر، وتتنفّس بصعوبة". قالت فاني أموس في مقابلتـــنا الـــرابعة. "لم تكن والدتها في المنـــزل لأنها ذهبت إلى المتجر لشراء مستخلص النعناع، وبقيتُ مع الوالد الذي لم يسمح لي بإنـــزالها عن ذراعَيّ، طالباً مني حملها حتى وصول الطبيب. وغدت الطفلة باردة بين ذراعَيّ".

كـــان هناك كُره للسيدة بيضاء البشرة لا يمكن إخفاؤه، ومحبة لا يمكـــن تفـــسيرها. ولم تستطع فاي بيل المصابة بشلل ارتجافي، وذات البـــشرة الرمادية، تذكّر عمرها، ولكنها تتذكر اختباءها في قِدر كبيرة للطهـــو مـــع فـــتاة صـــغيرة بيضاء البشرة عندما دخل جنود اليانكي المنـــــزل. ومنذ عشرين عاماً، حملَت تلك الفتاة بين ذراعيها في أثناء نـــــزاعها الأخـــير، وكانت فاي قد غدت متقدّمة في السنّ آنذاك. وأعـــربت فـــاي والفتاة عن محبّتهما لبعضهما بعضاً، وأقسمتا على أن الموت لا يمكنه تغيير واقع كونهما صديقتين مقرّبتين، لم يكن يعني لون البـــشرة شيئاً بالنسبة إليهما. ولا يزال حفيد المرأة بيضاء البشرة يسدّد إيجار منـــزل فاي بيل التي تقصد منـــزله أحياناً لتنظيف مطبخه عندما تشعر بالقوة.

وكانـــت لوفينـــيا هي موضوع مقابلتي الخامسة. إنها خادمة لو آن تامـــبلتن، وأعـــرفها منذ كانت تخدم أعضاء نادي البريدج. لقد أخبرتني

لوفينـــيا كيف أن حفيدها، روبرت، أصبح ضريراً في وقت مبكّر من ذلك العام على يد رجل أبيض البشرة لأنه استخدم حمّاماً مخصَّصاً لذوي البشرة البيضاء. وتذكّرتُ قراءة الحادث الذي تعرّض له في الصحيفة، بينما كانت لوفينيا تومئ برأسها وتنتظرني للانتهاء من الطبع على الآلة الكاتبة. لم يكن هـــناك غـــضب في صوتها على الإطلاق. لقد علمتُ أن لو آن التي كنت أعتـــبرها حمقاء، مُملّة، ولا أكترث لها أبداً، أعفت لوفينيا من عملها لمدة أســـبوعين مدفـــوعين كـــي تتمكن من مساعدة حفيدها. لقد أحضرَت كَسرولات إلى منـــزل لوفينيا سبع مرات في أثناء تلك الأسابيع، وهرعَت بلوفينـــيا إلى مستشفى ذوي البشرة الملوّنة عندما وردها أول اتصال بشأن روبـــرت، وانتظرَت معها هناك ست ساعات حتى انتهاء العملية. لم تذكر لو آن هذا الأمر لأيٍّ منا من قبل، وفهمتُ تماماً سبب قيامها بذلك.

لم نتمكن من التحدث إلا لبضع دقائق بعد مغادرة غريتشن.

"لنـــستأنف عملنا". قالت آيبيلين. "لسنا ملزمين... بإدراج تلك القصة".

فغريتـــشن هي نسيبة يول ماي، وقد حضرت لقاء الدعاء لأجل يول ماي الذي أقامته آيبيلين في منـــزلها منذ أسابيع، ولكنها تنتمي إلى دار عبادة مختلفة.

"لا أعـــرف سبب موافقتها إذا...". وأردتُ الذهاب إلى المنـــزل لأنـــني شعرت بتشنّج في أوتار عنقي، وكانت أصابعي ترتجف بسبب الطباعة والاستماع إلى كلمات غريتشن.

"آسفة، لم أكن أعرف أنها ستتصرف على ذلك النحو".

"لـــست المسؤولة عن ذلك". قلت. وأردت أن أسألها عن مدى صحة ما قالته غريتشن، ولكنني لم أستطع. لم يكن في استطاعتي النظر إلى وجه آيبيلين.

كنت قد شرحتُ لغريتشن *القواعد* المتّبَعة على غرار الأخريات، وأسندَت ظهرها إلى الكرسي. فظننتُ أنها تفكر في القصة التي ترغب في إخبارها، ولكنها قالت: "انظري إلى نفسك. امرأة أخرى، بيضاء البشرة، تحاول جني المال من ذوي البشرة الملوّنة".

فألقيتُ نظرة سريعة على آيبيلين، غير واثقة من ردّ فعلي حيال ذلك. ألم أكن واضحة بشأن المال؟ وأمالت آيبيلين رأسها كما لو أنها غير واثقة من أنها سمعت بشكل صحيح.

"هل تعتقدين أن هناك من سيقرأ هذا الشيء؟". سألت غريتشن، وضحكَت. كانت ترتدي لباساً رسمياً أنيقاً، وتضع أحمر شفاه زهريّ اللون مماثلاً لذلك الذي أضعه وصديقاتي. كانت صغيرة السنّ وتتكلم بهدوء وحِرص كشخص أبيض البشرة. لم أعرف السبب، ولكن ذلك زاد الأمر سوءاً.

"كل النساء ملوّنات البشرة التي أجريتِ مقابلات معهنّ، كنّ لطيفات حقاً، أليس كذلك؟".

"أجل". قلت: "كنّ لطيفات جداً".

ونظرت غريتشن إلى عيني مباشرةً. "هنّ يكرهنك، تعرفين ذلك، صحيح؟ كل أمر صغير يتعلّق بك. ولكنك غبيّة، تظنين أنك تقدّمين إليهنّ معروفاً".

"ليس عليك القيام بذلك". قلت: "لقد تطوّعتِ...".

"هل تعرفين ما ألطف شيء قدّمته إلي امرأة بيضاء البشرة يوماً؟ فُتات خبزها. النساء ملوّنات البشرة يخدعنك بمجيئهنّ إلى هنا. لن يخبرنك بالحقيقة أبداً، يا سيدة".

"لا فكرة لديك عمّا قالته لي النساء الأخريات". قلت، وتفاجأتُ بمدى ازدياد غضبي وسهولة انفجاري غضباً.

"قولـــيها، يا سيدة، قولي الكلمة التي تفكّرين فيها كلما دخلت إحدانا المنـــزل، *زنجية*".

ووقفَـــت آيبـــيلين. "هــــذا يكفــــي، يا غريتشن. اذهبــــي إلى منـــزلك".

"وهل تعلمين، يا آيبيلين؟ أنت غبيّة مثلها". قالت غريتشن.

لقـــد صُـــدمتُ عندما أشارت آيبيلين بإصبعها إلى الباب وقالت مهسهسة، "*اخرجي من منـــزلي*".

وغـــادرَت غريتـــشن، ولكـــنها رمقتني بنظرة غاضبة عبر الباب المُنخُلي أصابتني بالقشعريرة.

بعـــد ليلتين، جلستُ قبالة كالي. كانت في السابعة والستين من العمـــر، ولا تزال بلباسها الرسمي. كان شعرها مجعداً ورمادياً بمعظمه، عريـــضة الجسم وثقيلة الوزن، وتتدلى أقسام منها فوق الكرسي. كنت لا أزال متوترة الأعصاب بسبب المقابلة التي أجريتها مع غريتشن.

وانتظـــرتُ انتهاء كالي من تحريك شايها. كان هناك كيس بقالة في زاويـــة مطـــبخ آيبيلين مليء بالثياب، وفي الأعلى كان هناك بنطال أبيض. لم أعرف سبب احتفاظ آيبيلين بذلك الكيس، علماً أن منـــزلها يكون مرتَّباً على الدوام.

وشـــرعت كالي بالتكلم ببطء، وبدأتُ أطبع على الآلة الكاتبة، ممتنّةً. كانت تحدّق ورائي كما لو أن في استطاعتها رؤية فيلم سينمائي يعرض المشاهد التي تصفها.

"لقـــد عملتُ لدى الآنسة مارغريت طوال ثمانية وثلاثين عاماً. كانـــت تـــصاب ابنتها بالمَغص، والشيء الوحيد الذي يوقف ألمها هو القـــيام بحملـــها. لذلك، كنت أقيّدها بخصري، وأجول بها في أرجاء المنـــــزل طوال اليوم ولمدة عام كامل. كانت تلك الطفلة تحب كسر

ظهـــري، فأضع صرّة ثلج عليه كل ليلة، ولا أزال أقوم بذلك. ولكنني أحببتُ تلك الفتاة، وأحببتُ الآنسة مارغريت".

وتـــناولَت رشـــفة شاي بينما كنت أطبع آخر كلماتها. ورفعتُ نظري، وأكملَت قصتها.

"كانت الآنسة مارغريت تجعلني على الدوام أرفع شعري بواسطة قطعـــة قمـــاش لأنها تعتقد *أن ملوّني البشرة لا يغسلون شعرهم*، كما قالت. وكانت تَعُدّ كل قطعة فضيّة بعد قيامي بتلميعها. وعندما توفّيت الآنسة مارغريت بعد ثلاثين عاماً، ذهبتُ إلى الجنازة. فعانقني زوجها، وبكـــى علـــى كتفي. وبعد انتهاء الجنازة، أعطاني مغلّفاً يحتوي على رســـالة من الآنسة مارغريت، وجاء فيها، *شكراً لك لأنك أوقفتِ ألم طفلتي. لن أنسى ذلك أبداً*".

ونـــزعت كالي نظارتها ذات الإطار الأسود، ومسحَت عينيها.

"إذا قرأت كل سيدة بيضاء البشرة قصتي، فهذا ما أريد منهنّ أن يعـــرفنه، توجيه الشكر عندما يعنين ذلك حقاً، وعندما يتذكرن الخدمة الـــتي قـــدّمها إليهن شخص ما". وهزّت رأسها، وحدّقَت إلى الطاولة المخدوشة وتابعت: "إنه أمر جيد جداً".

ونظرت كالي إليّ، ولكن نظري لم يلتقِ نظرها.

"أحـــتاج إلى دقيقة فقط". قلت. وضغطتُ بيدي على جبيني. لم أتمالك نفسي عن التفكير في كونستنتين، فأنا لم أشكرها أبداً على نحو ملائم. لم أعتقد أبداً أن الفرصة لن تُتاح لي مجدداً.

"هل تشعرين أنك بخير، يا آنسة سكيتر؟". سألت آيبيلين.

"أنا... بخير". قلت: "لنُكمل".

وأكملـــت كالي، راويةً قصتها التالية. كانت علبة حذاء الدكتور شول الصفراء موضوعة على المِنضدة وراءها، ولا تزال مليئة بالمغلفات.

فباســـتثناء غريتشن، طالبت النساء العشر بأجمعهنّ تخصيص المال لتعليم فتيي يول ماي.

الفصل العشرون

كانـــت عائلـــة فيلان تنتظر مشدودة الأعصاب عند درج الآجرّ لمنـــــزل الـــسيناتور ويتوورث القائم في شارع نورث ستريت وسط المديـــنة. إنه منـــزل مرتفع ذو أعمدة بيضاء تحيط به الشُجيرات دائمة الخـــضرة، وتـــؤكد لوحة ذهبية أنه مَعلم تاريخي، وتخفق نار الفوانيس بالرغم من شمس الساعة السادسة الحارّة.

"يـــا أمي". قلت هامسة لأنني لم أكن أستطيع الكف عن تكرار ذلك. "رجاءً، رجاءً لا تنسي الأمر الذي تحدّثنا عنه".

"قلتُ إنني لن أذكره، يا عزيزتي". ولمسَت الدبابيس التي ترفع بها شعرها. "ما لم يكن الأمر مناسباً".

كنت أرتدي تنورة ذكرى السيدة الزرقاء الفاتحة مع سترة ملائمة، ويـــرتدي والدي بذلة الجنازة السوداء، وكان حزامه مشدوداً جداً على وســـطه ليكون مريحاً لا ليبدو على الموضة، وترتدي والدتي فستاناً أبيض بـــسيطاً كعروس ريفية، قلت لنفسي، وشعرتُ بالذُعر لأننا ارتدينا كلنا ثياباً مُفرطة في الأناقة، كما لو أن والدتي تعرض للمدّخرات المالية الخاصة بالفتاة القبيحة، وبدَونا كسكان من الريف يزورون المدينة.

"يا أبـــي، أرخِ حزامك، هو يشدّ بنطالك نحو الأعلى".

فنظـــر إليّ مقطّب الجبين، ووجّه نظره إلى بنطاله. لم يسبق لي أن قلت لوالدي ما يتعيّن عليه القيام به. وفُتح الباب.

"مـــساء الخـــير". وأومأَت لنا برأسها امرأة ملوّنة البشرة بلباسها الرسمي الأبيض. "إنهم يترقّبون مجيئكم".

ودخلـــنا الـــرَّدهة، وأول شـــيء رأيته هو الثُريّا الشفافة المتلألئة بالأضواء. ورفعت نظري إلى الالتفافة المجوَّفة للدرَج، وبدا الأمر كما لو أننا داخل صَدَفة ضخمة.

"مرحباً".

فوجهتُ نظري إلى الأسفل مشدوهة، وكانت الآنسة ويتوورث تُحدث طقطقةً بحذائها في الرَّدهة، ويداها ممدودتان، وترتدي بذلة مماثلة لبذلتي - والحمد لله - ولكن قرمزيّة اللون. وعندما أومأت برأسها، لم يتحرك شعرها الأشقر المائل إلى اللون الرمادي.

"مرحباً، يا آنسة ويتوورث، أنا شارلوت بودرو كانتريل فيلان. نشكرك كثيراً لاستقبالنا".

"يـــسرّني ذلك". قالت، وصافحت والدَيّ. "أهلاً وسهلاً بكم في منـــزلنا".

والتفـــتت إليّ. "ولا بـــد من أنك أوجينيا. حسناً، من الجيد أن ألتقيك أخيراً". وأمسكت السيدة ويتوورث بذراعَيّ ونظرت إلى عينَيّ. كانت عيناها زرقاوَين، جميلتَين كالماء البارد، ووجهها أملس حولهما. كانت بطول قامتي تقريباً بكعبـــي حذائها الحريري.

"يُـــسعدني لقـــاؤك". قلت. "أخبرني ستيوارت الكثير عنك وعن السيناتور ويتوورث".

فابتـــسمَت وأنـــــزلت يدها على امتداد ذراعي. فلهثتُ عندما خدشت سنّ من خاتمها بشرتي.

"ها هي!". ومن وراء السيدة ويتوورث، توجّه نحوي رجل طويل القامـــة، قـــويّ البنـــية، بخطى متثاقلة. فضمّني إليه بقوة وأبعدني عنه بالسرعة نفسها. "لقد طلبتُ من ستو الصغير اصطحاب هذه الشابة إلى المنـــزل. ولكن بصدق". وخفّض صوته: "لا يزال قليل الخجل".

ووقفتُ هناك أطرف عينَيّ. "يُسعدني لقاؤك، يا سيدي".

وضـــحك الـــسيناتور بـــصوت مـــرتفع. "تعرفين أنني لا أزال أمازحـــك". قال، وعانقني مجدداً بقوة، مربّتاً على ظهري. فابتسمتُ، وحاولـــتُ التقاط أنفاسي. وذكّرتُ نفسي أنه رجل ليس لديه سوى أبناء.

والتفتَ إلى والدتي، وانحنى بوقار ومدّ يدَيه.

"مرحباً، أيها السيناتور ويتوورث"، قالت والدتي. "أنا شارلوت".

"سُـــررت بلقائـــك، يا شارلوت. ناديني ستولي. فكل أصدقائي ينادونني بهذا الاسم".

"أيها السيناتور". قال والدي، وصافحه بقوة. "نشكرك على كل ما قمتَ به لأجل فاتورة المزرعة تلك. لقد أحدث ذلك فَرقاً كبيراً".

"تـــبّاً. خـــاول بـــيلابس ذاك التهرّب من الأمر ولكنني قلت له، يا شيكو، إذا لم تكن الميسيسيبـــي تملك القطن، فهي لا تملك شيئاً".

وربّت على كتف والدي، ولاحظتُ مدى قصر قامة والدي بجانبه.

"ادخلـــوا جميعكم". قال السيناتور. "لا يمكنني التحدث بالسياسة من دون أن أحمل شراباً بيدي".

وتـــوجّه السيناتور بخطى متثاقلة إلى خارج الرَّدهة وتبعه والدي، وشـــعرتُ بالانقبـــاض لرؤية خط الوحل على حذائه. فلو قام بمسحه مـــسحة إضـــافية بواسطة الخِرقة لأزال أي أثر، ولكن والدي لم يعتَد انتعال حذاء جيد يوم السبت.

وتبعته والدتي، وألقيت نظرة سريعة وأخيرة على الثُريّا المتلألئة.

وعندما التفتُّ، رأيتُ الخادمة تحدّق إليّ من الباب. فابتسمتُ لها وأومأَت برأسها. وأومأت برأسها مجدداً، ووجّهَت نظرها نحو الأرض.

آه، وازدادت عصبيّة مزاجي حدّة عندما أدركتُ ذلك، هي *تعلم*.

فوقفتُ وتسمّرتُ مكاني، مفكرةً في مدى ازدواجية حياتي. قد تحضر إلى منزل آيبيلين وتشرع بإطلاعي على كل ما يتعلق بعملها لدى السيناتور وزوجته.

"لا يزال ستيوارت في طريق عودته من شريفبورت". صاح السيناتور. "سمعتُ أن هناك كمية كبيرة من النفط هناك".

لقد حاولتُ عدم التفكير في الخادمة، وأخذتُ نفَساً عميقاً. وابتسمتُ كما لو أن كل شيء يسير على نحو جيد، وكما لو أنني قابلتُ العديد من أهالي أصدقائي من قبل.

وانتقلنا إلى غرفة الجلوس الرسمية التي تحتوي على حلية معمارية مُقَولبة ومزخرَفة، وأرائك مخملية خضراء، وكانت مليئة بالأثاث لدرجة أنني لم أستطع رؤية الأرض.

"ما الذي يمكنني تقديمه لكم من شراب؟". قال السيد ويتوورث، مُطلقاً ابتسامة عريضة كما لو أنه يعرض سكاكر على الأطفال. كان يملك جبيناً عريضاً، وكتفَي خبّاز متمرّس، وحاجبَين كثّين يهتزان عندما يتكلم.

فطلب والدي فنجان قهوة، وطلبت ووالدتي شاياً مثلّجاً. وخبَت ابتسامة السيناتور ونظر إلى الخادمة، طالباً منها إحضار تلك المشروبات الرتيبة والمُملّة. وفي الزاوية، سكب لنفسه ولزوجته شراباً بنّي اللون، وصرفَت الأريكة المخملية عندما جلس.

"منزلكم جميل جداً. سمعتُ أنه مركز اهتمام سياحي". قالت والدتي. هذا ما كانت تتلهّف والدتي لقوله منذ عرفَت بذلك العشاء.

كانت عضوة دائمة في المجلس المحلي التاريخي لمقاطعة ريدجلاند، ولكنها تعتبر السياحة المحلية في جاكسون بمثابة *قطن غالي الثمن* مقارنةً مع السياحة في ريدجلاند. "هل تفكرون في تعزيز الأهمية السياحية لمنزلكم؟".

فألقى السيناتور والسيدة ويتوورث نظرةً سريعة على بعضهما بعضاً، وابتسمت السيدة ويتوورث بعد ذلك قائلة: "لقد أخرجناه من لائحة الجولات السياحية هذا العام. لقد... سئمنا ذلك".

"أخرجتماه من اللائحة! ولكنه أحد المنازل الأكثر أهمية في جاكسون. لقد سمعتُ شيرمان يقول إن المنزل جميل جداً، ولا يجب استثناؤه".

فأومأت السيدة ويتوورث برأسها فحسب. إنها تصغر والدتي بعشر سنوات، ولكنها بدت أكبر سنّاً منها، لا سيّما وأن وجهها غدا طويلاً وعليه ملامح الوقار المُفرط.

"لا بد من أنكما تشعران ببعض الالتزام حيال التاريخ...". قالت والدتي، ورمقتُها بنظرة لتقوم بتغيير الموضوع.

لم يقل أحد شيئاً للحظات، ومن ثم ضحك السيناتور عالياً. "كان هناك نوع من الارتباك". قال بصوت هادر. "فوالدة باتريشا فان ديفندر رئيسة المجلس. لذلك، وبعد كل... ما حدث مع ابننا وابنتها، قررنا إخراجه من جدول الجولات السياحية".

وألقيتُ نظرة على الباب، داعية لانضمام ستيوارت إلينا في وقت قريب. كانت المرة الثانية التي يُذكَر فيها اسم باتريشا. ورمقت السيدة ويتوورث السيناتور بنظرة مُحبَطة.

"حسناً، ماذا سنفعل يا فرانسين؟ عدم التحدث عن الأمر مجدداً؟ هناك البناء المُطلّ الذي بنيناه في الفناء الخلفي لأجل الزفاف".

فأخذت السيدة ويتوورث نفَساً عميقاً، وتذكّرتُ ما قاله لي ستيوارت وهو أن السيناتور لا يعرف إلا جزءاً من موضوع علاقته بباتريشا، ولكن والدته تعرف كل شيء. ولا بد من أن يكون ما تعرفه أكثر سوءاً.

"يا أوجينيا" قالت السيدة ويتوورث وابتسمَت: "أفهم أن هدفك هو أن تصبحي كاتبة. ما الأمور التي تحبين الكتابة عنها؟".

وأعدتُ الابتسامة إلى وجهي. ها نحن ننتقل من موضوع مشوّق إلى آخر. "أُعدّ عمود الآنسة ميرنا في صحيفة جور*نال جاكسون*. هو يصدر كل يوم اثنين".

"آه، أعـــتقد أن بيـــسي تقرأه، أليس كذلك، يا ستولي؟ سأسألها عندما أدخل المطبخ".

"حـــسناً، فإذا لم تكن تقرأه، فهي ستبدأ بقراءته". قال السيناتور وضحك.

"قال ستيوارت إنك تحاولين معالجة موضوعات أكثر جدية. هل هناك موضوع معيَّن؟".

وتوجّهت كل الأنظار إليّ، بما فيها نظرات الخادمة التي رمقتني بها في أثـــناء تقديم كوب الشاي إلي. فلم أنظر إلى وجهها، مروَّعة مما قد أراه هناك. "أعمل على... قليل...".

"تكـــتب أوجينيا عن أمور دينية". قالت والدتي فجأةً، وتذكّرتُ أحدث كذبة لي لتغطية الليالي التي كنت أمضيها في الخارج.

"حـــسناً". قالت السيدة ويتوورث وأومأت برأسها، وقد ترك ذلك انطباعاً جيداً في نفسها كما يبدو: "إنه موضوع يستحق التكريم بالتأكيد".

فحاولـــتُ الابتـــسام، وشعرتُ بالاشمئزاز من صوتي. "الكتابة في الأمور الدينية هامة جداً". ورمقتُ والدتي بنظرة سريعة. لقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مُشرقة.

وأُغلق الباب الأمامي بقوة، متسبّباً برنين كل المصابيح الزجاجية.

"آسف لتأخري". قال ستيوارت، ودخل بخطوات واسعة وثياب متجعّدة بسبب جلوسه في السيارة، وخلع معطفه الرياضي الكُحلي. فوقفنا جميعاً، ومدّت والدته ذراعَيها إليه، ولكنه توجّه نحوي مباشَرةً، ووضع يدَيه على كتفَيّ وقبّل وجنتي. "آسف". قال هَمساً وتنفّس الصُّعداء، واسترخى أخيراً فانخفض طوله نصف بوصة. فاستدرتُ ورأيتُ والدته تبتسم كما لو أنني انتزعتُ أفضل منشفة ضيوف لديها ومسحتُ يدَيّ القذرتَين بها.

"اسكب لنفسك كأساً، يا بُنَيّ، اجلس". قال السيناتور. وعندما حصل ستيوارت على شرابه، جلس بجانبي على الأريكة، وأمسك بيدي وضغط عليها و لم يُفلتها.

وألقت السيدة ويتوورث نظرة سريعة على طريقة إمساكنا بيدَي بعضنا وقالت: "يا شارلوت، لماذا لا أصطحبك وأوجينيا في جولة على أنحاء المنزل؟".

في الدقائق الخمس عشرة التالية، تبعتُ والدتي والسيدة ويتوورث من غرفة مُعَدّة للفت الانتباه إلى أخرى. ولهثت والدتي لدى رؤية ثقب رصاصة أصلية أحدثها اليانكي في جدار غرفة الاستقبال، وكانت الرصاصة لا تزال مستقرة في الخشب. كانت هناك رسائل لجنود اتحاديين على مكتب فدرالي وُضعت عليه نظارات ومناديل قديمة العهد. فالمنزل هو معلَم أثري للحرب بين الولايات، وتساءلتُ عما كانت عليه حال ستيوارت في أثناء نشأته في منزل لا يمكنك لمس أي شيء فيه.

وفي الطابق الثالث، انحنت والدتي فوق سرير تعلوه ظُلّة كان روبرت إي لي ينام عليه. وعندما نزلنا أخيراً على درَج سرّي، مررتُ

بجانب صور للعائلة في الرُّواق. ورأيت ستيوارت وشقيقَيه عندما كانوا أطفالاً، وستيوارت يحمل كرة حمراء، وتحمله امرأة ملوّنة البشرة ترتدي لباسها الرسمي الأبيض.

وعبرت والدتي والسيدة ويتوورث الرَّدهة، ولكنني استمررت في النظـــر بسبب وجود أمر ما محبَّب في وجه ستيوارت عندما كان فتى. كانت وجنتاه سمينتَين، وكانت عينا والدته الزرقاوان تشعّان على غرار عينَـــيه كما عرفته. كان شعره بلون الهندباء البرّية الصفراء الذي يميل لونها إلى البياض. وفي سن التاسعة أو العاشرة، كان يقف حاملاً بندقية صـــيد وبطة. وفي سن الخامسة عشرة، كان يقف بجانب أيّل مقتول. كـــان بهـــيّ الطلعة، مجعَّد الشعر فدعوت الله ألا يرى ستيوارت أبداً صوري عندما كنت في سنّ المراهقة.

وتقـــدّمتُ خطى قليلة ورأيت صورة تخرّجه من المدرسة الثانوية، والصورة التي يظهر فيها فخوراً بلباسه الرسمي في المدرسة الحربية. وفي وســـط الجدار، رأيت فسحة مستطيلة الشكل لا يوجد فيها أي إطار، وكان لون ورق الجدران أكثر قتامة بقليل. لقد تمت إزالة صورة ما.

وسمعتُ ستيورات يقول: "يا أبـــي، كفانا الحديث عن...". وبدا علـــى صوته التوتّر. وساد الصمت بالسرعة نفسها التي لُفظت بها هذه العبارة.

"العشاء جاهز". قالت الخادمة، وعدتُ إلى غرفة الجلوس. ودخلنا جمـــيعاً غـــرفة الطعام وتوجهنا إلى مائدة طويلة وقاتمة اللون. وجلست عائلة فيلان إلى جانب، وعائلة ويتوورث إلى الجانب الآخر، وكنت في الطـــرف القطري الآخر من ستيوارت على أبعد مسافة ممكنة منه. وفي أنحـــاء الغرفة، كانت ألواح الكساء الخشبية تحمل رسوماً لمشاهد عن أزمنة ما قبل الحرب الأهلية، ولزنوج سعداء يقطفون القطن، وجِياد تجرّ

عــــربات لنَقل البضائع، ورجال دولة ملتحين على درَجات الكابيتول. وانتظـــرنا وصـــول الـــسيناتور الذي كان لا يزال في غرفة الجلوس. "ســـأكون هـــناك في الحال، تفضّلوا وابدأوا الطعام". وسمعتُ صوت الثلج، وصوت الزجاجة توضَع مرتَين على الطاولة قبل أن يدخل أخيراً ويجلس على رأس الطاولة.

وقُـــدّمت ســـلَطة والدورف. كان ستيوارت ينظر إليّ كل بضع دقائق ويبتسم. فانحنى السيناتور ويتوورث فوق والدي وقال: "أنا رجل عصامي، كما تعلم، من مقاطعة جيفرسون، ميسيسيبـــي. كان والدي يجفف الفول السوداني لقاء أحد عشر سنتاً للرطل".

وهز والدي رأسه. "لم يكن أفقر حالاً من مقاطعة جيفرسون".

وراقـــبتُ والدتي تتناول قضمات صغيرة جداً من التفاح، فتتردد، وتمـــضغ لأطول مدة ممكنة، وتجفل عندما تبتلعها. لم تسمح لي بإطلاع والدَي ستيوارت على المشكلة التي تعاني منها في المعدة، بل سلبَت لُبّ السيدة ويتوورث بإطراءاتها. واعتبرت والدتي ذلك العشاء نقلة هامة في لعبة تدعى *هل في استطاعة ابنتي الإيقاع بابنك؟*".

"يـــستمتع *الـــشابان* كثيراً برفقة بعضهما بعضاً". قالت والدتي، وابتسمَت. "يزورنا ستيوارت في منـــزلنا مرتَين في الأسبوع".

"هل هذا صحيح؟". قالت السيدة ويتوورث.

"يُـــسعدنا أن تقومي والسيناتور بزيارتنا في مزرعة القطن لتناول العشاء، والقيام بنـــزهة في البستان (orchard)؟".

ونظرتُ إلى والدتي. فعبارة *مزرعة القطن* عبارة قديمة العهد تحب اســـتخدامها لإضـــفاء الـــرَّونق على كلمة مزرعة، في حين أن كلمة (orchard) تعـــني شـــجرة تفاح غير مثمرة، شجرة إجّاص تعاني من مشكلة الديدان.

ولكن فم السيدة ويتوورث تصلّب. "تزورهم مرتَين في الأسبوع؟ يــا ستيوارت، لم أكن أملك أي فكرة عن قدومك إلى المدينة بشكل متكرر".

وتوقفت شوكة ستيوارت في الهواء، ورمق والدته بنظرة خجولة.

"لا تــزالان صغيرَي السنّ". قالت السيدة ويتوورث، وابتسمَت. "استمتعا بحياتكما. لا حاجة إلى أخذ الأمور بجدية بهذه السرعة".

وأسند السيناتور مِرفقَيه إلى الطاولة. "هل نسيتَ المرأة التي كانت على عجَلة من أمرها للزواج".

"*يا أبــي*". قال ستيوارت، صارفاً أسنانه وضارباً شوكته بالطبق.

وساد الهدوءُ باستثناء قيام والدتي بالمضغ بطريقة مُتقَنة ومنهجية، محاوِلــةً تحويل الطعام الصلب إلى عجينة. ولمستُ الخدش الذي كان لا يزال زهريّ اللون على امتداد ذراعي.

ووضــعت الخادمــة الدجاج المضغوط في أطباقنا، وأضافت فوقه كمــية من صلصة المايونيز، وابتسمنا جميعاً، فرحين بتبدّل المزاج. وفي أثناء تناولنا الطعام، كان والدي والسيناتور يتحدثان عن أسعار القطن وسوسة جوزة القطن. لقد شعرت بالغضب يظهر على وجه ستيوارت مــنذ أن ذكر السيناتور باتريشا، وكنت أرمقه بنظرة سريعة كل بضع ثــوانٍ، ولكــن غضبه لم يخفّ كما يبدو. فتساءلتُ عما إذا كان هذا الأمر هو نفسه الذي تجادلا في شأنه من قبل عندما كنت في الرَّدهة.

وأســند السيناتور ظهره إلى الكرسي. "هل رأيت تلك المقالة في مجلــة *لايف ماغازين*؟ التي سبقت حادثة مقتل ميدغار إيفرز، وتناولت ذلك الشخص كارل... روبرتس؟".

فرفعتُ نظري وتفاجأتُ بقيام السيناتور بتوجيه ذلك السؤال إليّ. فطــرفتْ عينَــيّ، مُربَكة، آملةً في أن يكون عملي في الصحيفة سبباً

لطـــرحه. "لقد... لقد أُعدم بلا محاكمة لأنه قال عن الحاكم إنه...". وتوقفتُ ليس لأنني نسيتُ الكلمات بل لأنني تذكرتها.

"*مـــثير للشفقة*". قال السيناتور، واستدار نحو والدي: "*ومتخلّق بأخلاق البغايا*".

وزفـــرتُ، شاعرةً بالارتياح لأن الأنظار رُفعت عني. فنظرتُ إلى ستيوارت لتخمين رد فعله حيال ذلك الأمر. لم يسبق لي أن سألته عن موقفه من الحقوق المدنية، ولكنني لم أكن أعتقد أنه يُصغي إلى المحادثة. لقد ظهر الغضب حول فمه.

وتنحنح والدي قائلاً: "سأكون صادقاً". قال ببطء: "لقد شعرت بالغثيان عندما سمعت بحدوث ذلك النوع من القسوة". ووضع شوكته بهـــدوء. فنظـــر الـــسيناتور ويتوورث إلى عينَيه وتابع: "لديّ خمسة وعشرون زنجياً يعملون في حقولي، وإذا قام شخص ما بوضع يده على أحدهم أو على أي فرد من عائلاتهم...". وتسمّر نظر والدي، ومن ثم أنـــزل عينَيه. "أشعر بالخجل أحياناً، أيها السيناتور. أشعر بالخجل مما يحدث في الميسيسيبـــي".

كانت والدتي تنظر إلى والدي بعينَين واسعتَين. وصُدمتُ بسبب سماع ذلك الرأي، وكانت صدمتي أكبر لأنه عبّر عن رأيه لسياسي على تلـــك المائدة. ففي المنـــزل، تُطوى الصحف بحيث تكون الصور نحو الأســـفل، ويُطفـــأ التلفاز عندما يتم التطرق إلى موضوع العِرقية. لقد شـــعرتُ فجـــأةً بفخر كبير بوالدي لعدة أسباب، وأقسم إنني رأيتُ للحظـــات ذلـــك الانطباع في عينَيّ والدتي يخفيه قلقها من أن يكون والـــدي قد أفسد مستقبلي. فنظرتُ إلى ستيوارت الذي بدا القلق على وجهه.

ونظر السيناتور إلى والدي، مضيّقاً عينَيه.

"أقــول لك أمراً، يا كارلتون". قال السيناتور، وهزهز قِطع الثلج في كأســه. "يا بيسي، أحضري لي كأساً أخرى، لو سمحتِ". وسلّم كأسه للخادمة، وعادت بسرعة مع كأس مليئة.

"مــن الحكمــة ألا نقــول كلمــات مماثلة عن حاكمنا". قال السيناتور.

"أوافقك الرأي مئة بالمئة". قال والدي.

"ولكــن السؤال الذي كنت أطرحه على نفسي مؤخراً هو، هل هي كلمات حقيقية؟".

"*يا ستولي*". قالت السيدة ويتوورث، مُهسهسة. ولكنها ابتسمَت علــى الفَــور وجلــسَت بشكل قويم. "يا ستولي". قالت كما لو أنها تــتحدث إلى طفــل، "لا يريد ضيوفنا الدخول في جدال سياسي في أثناء...".

"يــا فرانــسين، دعيني أعبّر عن رأيي بصراحة. الله يعلم أنني لا أستطيع القيام بذلك بين التاسعة والخامسة. لذلك، دعيني أعبّر عن رأيي بصراحة في منــزلي".

ولم تــرتعش ابتسامة السيدة ويتوورث، ولكن لوناً زهرياً خفيفاً علا وجنتَيها. وتأمّلَت ورود الفلورادورا البيضاء الموجودة وسط المائدة. وحدّق ستيوارت إلى طبقه، وعلى وجهه ملامح الغضب نفسها كما في الــسابق. لم ينظــر إليّ منذ تقديم الدجاج. ولزم الجميع الهدوء، وقام أحدهم بعد ذلك بتغيير موضوع النقاش، متناولاً حالة الطقس.

بعــد انتهاء العشاء أخيراً، طُلب منا الانتقال إلى الرُّواق الخارجي الخلفــي لتناول مشروب وقهوة ما بعد العشاء. وبقيت وستيوارت في الرَّدهة. فلمستُ ذراعه، ولكنه سحبها.

"كنت أعلم أنه سيفقد رشده".

"يا ستيوارت، لا بأس". قلت لأنني ظننتُ أنه يتحدث عن سياسة والده. "نمضي كلنا وقتاً ممتعاً".

ولكـــن ستيوارت بدأ بالتعرّق وارتسمت على وجهه نظرة قلقة. "يذكـــر باتريـــشا علـــى الدوام، وطوال الليل". قال: "كم مرة يريد ذكرها؟".

"انسَ الأمر، يا ستيوارت. كل شيء بخير".

ومـــرّر يـــده على شعره، ونظر إلى كل اتجاه من دون النظر إليّ. وبدأتُ أشعر أنه لا يشعر بوجودي، وأدركتُ من ثم ما لاحظتُه طوال اللـــيل، ينظر إليّ ولكنه يفكر... *فيها*. كانت في كل مكان، في عينَيّ ســـتيوارت الغاضبتين، على لسانَي السيناتور والسيدة ويتوورث، على الجدار حيث انتُزعت صورها.

فقلت له إنني بحاجة إلى دخول الحمّام.

ورافقني في الرَّدهة. "نلتقي في الرُّواق الخارجي الخلفي". قال من دون أن يبتسم. في الحمّام، حدّقتُ إلى انعكاس صورتي في المرآة، وقلتُ لنفـــسي إنه سرعان ما تمضي الليلة ويصبح كل شيء بخير عندما نخرج من منـــزله.

بعد خروجي من الحمّام، مررتُ بجانب غرفة الجلوس حيث كان السيناتور يسكب كأساً أخرى له. كان يضحك في سرّه، ويربّت على قميصه، وينظر بعد ذلك حَوله للتحقق مما إذا كان هناك من رآه يُريق المـــشروب علـــى ملابسه. فحاولتُ المرور على أطراف أصابعي أمام مدخل الباب من دون أن يراني.

"لقد رأيتك!". صاح بينما كنت أنسلّ أمام الباب. فعدتُ ببطء إلى مدخل الباب، وأشرق وجهه قائلاً: "هل أنتِ تائهة؟". وخرج إلى الرّدهة.

"لا، يا سيدي، كنت... ذاهبة للانضمام إلى الجميع فحسب".

"تعالَــي إلى هــنا يا فتاة". ووضع ذراعه حولي، فأحرقَت رائحة الــشراب عينَيّ، ورأيتُ الناحية الأمامية من قميصه مُشبَعة بالشراب.

"هل تمضين وقتاً ممتعاً؟".

"أجل يا سيدي. شكراً لك".

"لا تدعي والدة ستيوارت تخيفك. إنها حمائية، هذا كل شيء".

"آه لا، كانت... شديدة اللطف، وكل شيء بخير". وألقيتُ نظرة سريعة عبر الرَّدهة حيث كان في استطاعتي سماع أصواتهم.

فتنهّد، وحدّق بعيداً. "لقد أمضينا عاماً قاسياً مع ستيوارت. أظن أنه أخبرك بما جرى".

وأومأتُ برأسي، شاعرةً بوخز في بشرتي.

"آه، كــان الوضع سيّئاً". قال: "سيّئاً جداً". وابتسم بعد ذلك. "انظــري هنا! انظري من جاء ليُلقي التحية عليك". وحمل كلباً أبيض صــغير الحجم، ومدّده على ذراعه كمنشفة كرة مضرب. "قل مرحباً، يــا ديكسي". قال مدندناً: "قل مرحباً للآنسة أوجينيا". كان الكلب يقاوم، ومدّ رأسه بكل قوته للابتعاد عن قميصه التي تنبعث منها رائحة كريهة.

والــتفت السيناتور إليّ بنظرة محدّقة خالية من أي تعبير. أظن أنه نسي ما الذي كنت أفعله هناك.

"كنت متجهة إلى الرُّواق الخارجي الخلفي فحسب". قلت.

"هــيا، تعالَــي إلى هنا". وشدّني بمرفقي بقوة، واقتادني عبر باب مكسوّ بألواح خشبية. فدخلتُ غرفة صغيرة تحتوي على مكتب كبير، ويضيء ضوء أصفر الجدران الخضراء القاتمة بطريقة تثير شعوراً بالغثيان. ودفــع الباب ورائي وأغلقه، وشعرت على الفور بتبدّل الهواء وبرُهاب الأماكن المغلَقة.

"انظري، الجميع يقولون إنني أتكلم كثيراً عندما أتناول القليل من الـــشراب، ولكـــن...". ونظر السيناتور إليّ، مضيّقاً عينَيه كما لو أننا متآمران قديمان وقال: "أريد أن أُطلعك على أمر ما".

وتخلّى الكلب عن كل مقاومة بعد أن هدّأت رائحة القميص من رَوعه. وشعرتُ فجأةً برغبة شديدة في الذهاب للتحدث إلى ستيوارت كما لو أنني أشعر بفقدانه كلما أمضيت ثانيةً بعيدةً عنه. فتراجعتُ إلى الوراء.

"أظـــن يُفتـــرض بـــي الذهاب والعثور...". وأمسكتُ مِقبض الـــباب، واثقةً تماماً من تصرّفي الفظ، ولكنني لم أكن قادرة على تحمّل الهواء ورائحة الشراب والسيجار هناك.

فتـــنهّد السيناتور، وأومأ برأسه بينما كنت أمسك بالمِقبض. "آه. أنتِ أيضاً". وأسند نفسه إلى المكتب، وقد بدا مُحبَطاً.

وشـــرعتُ بفـــتح الباب، ولكن النظرة التي ارتسمت على وجه الـــسيناتور كانـــت مماثلة للنظرة التي بدت على وجه ستيوارت عندما وصـــل إلى الرُّواق الخارجي في منـــزل والدَي. وشعرتُ أنني لا أملك خياراً آخر، فسألته: "أنا ماذا... يا سيدي؟".

ونظـــر الـــسيناتور إلى صورة السيدة ويتوورث الكبيرة والرزينة الموضـــوعة على جدار مكتبه كما لو أنها تحذير. "أراها في عينيك، هذا كـــل ما في الأمر". وضحك في سرّه بمرارة. "وها أنا آمل في أنك قد تكـــونين ربمـــا الشخص الذي يحب الرجل المُسنّ نوعاً ما. أعني، إذا انضممتِ يوماً إلى هذه العائلة المسنّة".

فنظـــرتُ إلـــيه، وشـــعرتُ بوخز في بشرتي بسبب كلماته... *انضممتِ إلى هذه العائلة المسنّة*.

"أنا... لا أكرهك، يا سيدي". قلت، وبدّلتُ وقفتي.

"لا أقصد إقحامك بمشاكلنا، ولكن الأمور كانت صعبة جداً هنا، يــا أوجينيا. لقد أعيانا القلق بعد كل تلك الفوضى التي حدثت العام الماضـــي مع تلك الفتاة". وهز رأسه، ونظر إلى الكأس في يده. "غادر ســتيوارت شقته في جاكسون، ونقل كل شيء إلى منـــزل التخييم في فيكسبرغ".

"أعلم أنه كان... مستاءً جداً". قلت، ولكنني لم أكن أعرف شيئاً البتة في الحقيقة.

"الأمـــر أشبه بالموت. تبّاً، لقد قصدتُه لأراه، وكان جالساً هناك أمـــام النافذة يكسر جوز البَقّان فحسب، حتى إنه لم يكن يتناولها بل يُخـــرجها من غلافها ويرميها في سلّة المُهمَلات. لم يتحدث إليّ أو إلى أمه... طوال *أشهر*".

وتقوقـــع ذلك الرجل الضخم على نفسه، وأردت الفرار وطمأنته في الوقت نفسه لأنه بدا مثيراً للشفقة، ولكنه نظر إليّ بعينَيه المُحتقنتَين، وقـــال: "يـــبدو الأمر كما لو أنني كنت أعلّمه منذ عشر دقائق تلقيم بندقيـــته الأولى، واصـــطياد أول طائر يمام. ولكنه أصبح... مختلفاً منذ حـــدوث ذلك الأمر مع تلك الفتاة. لا يريد أن يخبرني بأي شيء. أريد أن أعرف فقط، هل ابني بخير؟".

"أعتقد... أعتقد أنه بخير. ولكن بصدق، لا... أعرف في الواقع". وأشـــحتُ بنظري. وبدأت أُدرك في أعماقي أنني لا أعرف ستيوارت. فـــإذا ألحقت تلك الحادثة ضرراً به ولا يستطيع التحدث إليّ عن الأمر، إذاً مـــاذا أكون بالنسبة إليه؟ أأكون مجرّد لهو، مجرد شيء يجلس بجانبه يمنعه من التفكير في ذاك الذي يمزّقه في الواقع من الداخل؟

ونظـــرتُ إلى السيناتور، وحاولتُ التفكير في أمر مريح، أمر قد تقوله لي والدتي. ولكنني كنت وسط سكون كلّي.

"لأرادت فرانسين سلخ جلدي إن هي عرفت أنني أسألك عن ستيوارت".

"لا تبالِ، يا سيدي". قلت. "لا أمانع قيامك بذلك".

وبدا مُرهَقاً من كل شيء، وحاول الابتسام. "شكراً لك، يا عزيزتي. اذهبي وانضمّي إلى ابني. سأنضمّ إليكم جميعاً بعد قليل".

وفررتُ إلى الرُّواق الخارجي الخلفي، ووقفتُ بجانب ستيوارت. كان البرق يومِض في السماء ويضيء الحدائق للحظات على نحو مخيف، ويسود الظلام الدامس بعد ذلك. ولاح البناء المُطلّ الشبيه بالهيكل العظمي في آخر طريق الحديقة. وشعرتُ بالرغبة في الغثيان بسبب كوب الشاي الذي تناولته بعد العشاء.

وخرج السيناتور، وبدا صاحياً وأكثر رزانة، ويرتدي قميصاً نظيفة ومكوية مماثلة للتي كان يرتديها. كانت والدتي والسيدة ويتوورث تتمشيان بتأنٍّ، مشيرتَين إلى الوردة النادرة نفسها التي تمدّ عُنُقها فوق الرُّواق. ووضع ستيوارت يده على كتفي. كان أفضل حالاً، ولكن حالي كانت تزداد سوءاً.

"هل يمكننا...؟". وأشرتُ إلى الداخل فتبعني ستيوارت. وتوقفتُ في الرَّدهة التي تحتوي على الدرَج السرّي.

"هناك أمور كثيرة لا أعرفها عنك، يا ستيوارت". قلت.

وأشار إلى جدار الصور ورائي حيث توجد فسحة فارغة. "حسناً، تجدين كل شيء هنا".

"يا ستيوارت، والدك، أخبرني...". وحاولتُ العثور على العبارة الملائمة.

فنظر إليّ مضيّقاً عينَيه. "ماذا قال لك؟".

"كـــم كان الأمر سيّئاً. كم كان الأمر صعباً عليك". قلت. "مع باتريشا".

"هو لا يعرف *أي* شيء. هو لا يعرف واقع الأمور، أو...".

وأســـند ظهـــره إلى الجدار، وشبك ذراعَيه على نحو متصالب، ورأيـــت ذلـــك الغضب القديم والعميق مجدداً في عينَيه المحتقنتَين. كان الغضب يتآكله.

"يـــا ستيوارت، ليس عليك أن تخبرني الآن. ولكننا سنُجري يوماً مـــا حديثاً عن هذا الأمر". لقد أدهشني كم بدوتُ واثقة بنفسي، في حين أنني لم أكن أشعر بهذه الثقة بالتأكيد.

ونظـــر إلى عينَيّ بعمق، وهز كتفَيه قائلاً: "لقد أقامت علاقة مع شخص آخر، هناك".

"شخص... تعرفه؟".

"لا أحـــد يعرفه. كان أحد أولئك الطُفيليين الذين يتسكعون في أنحـــاء المدرسة، مُحرِجاً المدرّسين للقيام بشيء ما حيال قوانين الدمج العنصري. حسناً، لقد قامت بأمر صائب".

"تعني... كان ناشطاً؟ لإقرار الحقوق المدنية...؟".

"أجل. الآن بتّ تعرفين".

"هـــل كـــان... ملـــوّن البشرة؟". وغصصت بسبب التفكير في العواقب، لأن الأمر قد يكون مروِّعاً وكارثياً بالنسبة إليّ أيضاً.

"لا، لم يكـــن ملوّن البشرة. كان من حثالة المجتمع. إنه يانكيّ ما مـــن نـــيويورك، من النوع الذي تشاهدينه على التلفاز، طويل الشعر ويرفع رمز السلام".

وبحـــثتُ في عقلي عن السؤال الصحيح الذي يجب طرحه، ولكن لم يكن في استطاعتي التفكير في أي شيء.

"هـــل تعرفين ما الذي يثير جنوني أكثر من سواه، يا سكيتر؟ لم أتمكن من تخطي الأمر. لم أتمكن من الصفح عنها. لقد طلبت مني ذلك، وأعـــربت لي عـــن مدى أسفها، ولكنني كنت أعرف أن حياة والدي ستتدمّر إذا تسرّب خبر إقامة كنّة السيناتور ويتوورث علاقة حميمة مع ناشط يانكيّ لعين. سيدمّر ذلك حياته المهنيّة". وطقطق أصابعه بحركة غاضبة.

"ولكـــن والـــدك قال عندما كان جالساً إلى المائدة إنه يعتقد أن روس بارنيت مخطئ".

"تعلمـــين أنـــه ليس واقع الحال. لا يهمّ بما يعتقد، بل بما تعتقد الميسيسيبـــي. سيخوض الانتخابات في الخريف القادم للفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأميركي، ويؤسفني هذا الوضع".

"إذاً، لقد انفصلت عنها بسبب والدك؟".

"لا، لقد انفصلتُ عنها بسبب خداعها". ونظر إلى يدَيه، واستطعت رؤية الخجل يتآكله. "ولكنني لم أستعِدها كخطيبة بسبب... والدي".

"يا ستيوارت، هل... لا تزالَ تحبها؟". سألتُ، وحاولتُ الابتسام كمـــا لو أنه مجرّد سؤال، علِماً أنني شعرت بالدم يتدفّق إلى قدمَيّ. لقد شعرتُ كما لو أنه سيُغمى عليّ لدى طرحي هذا السؤال.

وأرخى بجسده قليلاً على ورق الجدران الذي يحمل نقوشاً ذهبية، ولان صوته.

"لـــن تفعلي ذلك أبداً. لن تكذبـــي بتلك الطريقة. ليس عليّ، ليس على أحد".

لم تكـــن لديـــه فكرة عن عدد الأشخاص الذين أكذب عليهم، ولكـــن ذلك الأمر لم يكن موضوع النقاش. "أجبني، يا ستيوارت. هل لا تزال تحبها؟".

وفــرك صُــدغيه، ووضع يده على عينيه. لقد ظننتُ أنه يُخفي عينيه.

"أعتقد أنه يتعيّن علينا الانفصال لبعض الوقت". قال هَمساً.

فمــددتُ يــدي لألمسه بشكل لاإرادي، ولكنه عاد إلى الوراء. "أحــتاج إلى بعض الوقت، يا سكيتر، إلى البقاء على مسافة منك كما أعــتقد. أحــتاج إلى الــذهاب إلى العمــل واستخراج النفط و... واستجماع أفكاري لبعض الوقت".

وشعرتُ أن فمي انفتح. في الرُّواق الخارجي، سمعت المناداة العذبة لأهلنا. لقد حان وقت المغادرة.

وتبعتُ ستيوارت إلى الناحية الأمامية من المنــزل. وتوقفت عائلة ويــتوورث في الــبَهو اللولبـــــي، في حين توجّهنا ثلاثتنا إلى الباب وخــرجنا. وفي ما يشبه تعرّضي لغيبوبة سطحية، سمعتُ الجميع يعدون بتكــرار العــشاء في منــزل فيلان. فألقيتُ تحية الوداع عليهم جميعاً، وشــكرتهم، ولكــن صوتي بدا غريباً بالنسبة إليّ. ولوّح ستيوارت من أعلى الدرجات وابتسم لي كي يشعر أهلنا أن شيئاً لم يتغيّر.

الفصل الحادي والعشرون

جلسنا، والدتي ووالدي وأنا، في غرفة الاستجمام نحدّق إلى الصندوق الفضّي المثبَّت على النافذة. كان الصندوق بحجم محرك شاحنة فيه أزرار، ومصنوعاً من الكروم اللماع، ويشعّ منه أمل في يوم جديد. لقد كُتب عليه *فيدرز*.

"من هؤلاء الفيدرز على كل حال؟". سألَت والدتي: "من أين يتحدّرون؟".

"هيا، حرّكي ذراع التدوير، يا شارلوت".

"آه، لا أستطيع. إنه رطب جداً".

"يا الله، يا أمي، يقول الطبيب نيل إنك بحاجة إلى ذلك. تنحّي جانباً". وحدّق والداي إليّ. لم يكونا على عِلم أن ستيوارت قطع علاقته بي بعد العشاء في منزل ويتوورث، وأنني أتلهّف لتشغيل تلك الآلة والشعور بالراحة. لقد شعرتُ بحرارة كبيرة في تلك الدقيقة، وبألم كبير، وأنني أشتعل.

وضغطت الزر على السرعة "1"، فخفت ضوء الثريّا فوقنا. وارتفع صوت الأزيز ببطء كما لو أنه يشق طريقه باتجاه أعلى الهضبة، ورأيت عدداً قليلاً من خُصَل شعر والدتي ترتفع برِفق في الهواء.

"آه... يـــا". قالت والدتي وأغمضَتْ عينيها. كانت متعبة كثيراً مؤخّـــراً وتـــزداد حالـــة القرحة لديها سوءاً. لقد قال الطبيب نيل إن المحافظة على برودة المنـــزل يُشعرها بارتياح أكبر.

"لم يعمـــل بعـــد بكامل طاقته". قلت وانتقلتُ إلى السرعة "2". فازدادت سرعة الهواء، وغدا أكثر برودة. فابتسمنا جميعاً، وتبخّر عرقنا عن جبيننا.

"حسناً، لنكتشف قدراته". قال والدي، ووضعه على السرعة "3"، وهـــي الأعلـــى والأكثـــر برودة، والوضعية الأكثر روعة، فضحكت والـــدتي. وفتحـــنا أفواهنا كما لو أن في استطاعتنا أكل الهواء. ولمعت الأضواء مجدداً، وازداد صوت الأزيز، وانبسطت أساريرنا أكثر فأكثر، ومن ثم توقف كل شيء وساد الظلام.

"ماذا... حدث؟". قالت والدتي.

فنظر والدي إلى السقف، وخرج إلى الرّدهة.

"تبّاً، لقد قطع شيء ما التيار الكهربائي".

وحـــرّكت والدتي منديلها كالمروحة قُبالة عنقها. "حسناً، يا الله، كارلتون، اذهب وأصلح العطل".

طوال ساعة من الزمن، سمعتُ والدي وجيمسو يرفعان وينـــزلان مفاتيح كهربائية ويصلصلان بالأدوات، ويُسمَع صوت وقع خطواهما علـــى أرضـــية الرُّواق الخارجي. وبعد إصلاح العطل واستماعي إلى محاضرة ألقاها والدي كيلا أنتقل مجدداً إلى السرعة "3" وإلا انفجر كل المنـــــزل، راقبتُ ووالدتي تشكّل غشاوة بخارية على النوافذ. وغلب الـــنعاس والـــدتي وهي على كرسيها الأزرق من طراز كوين آن، وقد رفعـــت البطانية الخضراء حتى صدرها. فانتظرتُ حتى نامت، مُستمعةً إلى غطيطها الناعم، وناظرةً إلى تغضّن جبينها. وأطفأتُ كل الأضواء،

والـــتلفاز، وكـــل مِقبس كهربائي في الطابق السفلي، باستثناء البرّاد، متنقّلةً على أطراف أصابعي. ووضعتُ المكيِّف على السرعة "3" بحِرص شديد لأنني كنت أتوق إلى عدم الشعور بشيء. أردتُ تجميد داخلي، وأردت أن يهبّ البرد القارس إلى قلبـــي.

فانقطع التيار الكهربائي بعد ثلاث ثوان.

في الأســـبوعين التالـــيين، انكببتُ علّى المقابلات. وأبقيتُ آلتي الكاتـــبة في الـــرُّواق الخارجي الخلفي، وكنت أعمل في معظم النهار والـلـــيل. كانـــت الأبـــواب المُنخُلية تُضفي الضبابيّة على مشهد الفناء الأخضر والحقول، وأجد نفسي أحدّق إليها من دون أن أكون موجودة هـــناك، بـــل في مطابخ جاكسون القديمة مع الخادمات اللواتي يشعرن بالحـــرارة والـــرطوبة بلباسهنّ الرسمي الأبيض، وأشعر بالأجساد النديّة للأطفـــال البِـــيض وهم يتنفسون، مستلقين على صدري، وأشعر بما شـــعرَت به كونستنتين عندما أحضرتني والدتي من المستشفى إلى المنـــزل وسلّمتني إليها. لقد سمحتُ لذكرياتهنّ الملوّنة بإخراجي من حياتي البائسة.

"يـــا ســـكيتر، لم نرَ ستيوارت منذ أسابيع". قالت والدتي للمرة الثامنة. "أنتما لا تلتقيان، أليس كذلك؟".

في ذلـــك الوقت، كنت أعدّ عمود الآنسة ميرنا، وكدت أتخطى بطـــريقة مـــن الطـــرائق الموعد المحدّد لتسليمه، وذلك للمرة الأولى في غضون ثلاثة أشهر. "إنه بخير، يا أمي. ليس عليه الاتصال كل دقيقة في الـــيوم". ولكـــنني لطّفتُ صوتي، فهي تبدو أكثر نحولاً يوماً بعد يوم، وكانـــت عظمة التَّرقوة مستدقة الرأس كفيلة بتخفيف حدة غضبـــي بسبب تعليقاتها. "إنه يسافر، يا أمي، هذا كل ما في الأمر".

لقـــد أزالَـــت هذه الذريعة شكوكها كما يبدو في ذلك الوقت، وقلـــتُ الشيء نفسه لإليزابيت، وأضفتُ بعض التفاصيل القليلة لهيلي،

ضاغطةً على ذراعها لأتمكن من تحمّل ابتسامتها المتسائلة. ولكنني لم أعرف ماذا أخبر نفسي. فستيوارت بحاجة إلى "مسافة"، و"وقت"، كما لو أننا أمام درس في الفيزياء وليس في العلاقات الإنسانية.

لذلك، وعوضاً عن الشعور بالأسف حيال ذاتي كل دقيقة من اليوم، شغلتُ نفسي بالعمل، والطبع على الآلة الكاتبة، والتعرّق. من كان يعلم أن التعاسة الغامرة ستتسبب بكل تلك الحرارة. وعندما تكون والدتي مستلقية على سريرها، أسحب الكرسي، وأجلس قُبالة مكيّف الهواء، وأحدّق إليه، وقد غدا في تموز/يوليو مزاراً فضّياً. وكنت أجد باساكاغولا تتظاهر برفع الغبار بيد وحمل ضفائر شعرها باليد الأخرى أمام المكيّف. لم يكن ابتكاراً جديداً فحسب لتكييف الهواء، بل إنه حمل كل متجر في المدينة يمتلك مكيِّفاً على وضع لافتة على النافذة تشير إلى ذلك، وإضافة هذه الإشارة إلى إعلاناته، لأن المكيّف حيويّ جداً. فأعددتُ لافتة كرتونية خاصة بمنزل عائلة فيلان تقول **المنزل مكيَّف الآن**، وعلّقتها بمقبض الباب الأمامي. فابتسمت والدتي، ولكنها تظاهرت أنها غير مسرورة.

وفي مساء يندر مرور مثيل له في المنزل، جلست مع والدتي ووالدي إلى مائدة العشاء. ومضغَت والدتي عشاءها. لقد أمضت فترة بعد الظهر مُحاوِلةً منعي من اكتشاف سبب تقيّئها. وضغطت بأصابعها على أنفها كي تخفف من ألم رأسها، وقالت: "كنت أفكر في الخامس والعشرين من الشهر، ألا تعتقدين أن الوقت مُبكر جداً لاستضافتهم في منزلنا؟". وكنت لا أزال أمنع نفسي من إخبارها أنني وستيوارت قطعنا علاقتنا.

ولكن، استطعت رؤية ذلك على وجهها لأن حالتها ازدادت سوءاً في تلك الليلة. كانت شاحبة الوجه وتحاول الجلوس مدة أطول مما

تــريد. فأمسكتُ يدها وقلت: "دعيني أتحقق من التاريخ، يا أمي. أنا علــى ثقــة تامة من أن الخامس والعشرين سيكون مناسباً". فابتسمَت للمرة الأولى في ذلك اليوم.

* * *

ابتسمت آيبيلين لكدسة الأوراق الموجودة على طاولة مطبخها. كانــت بــسماكة بوصة واحدة، وتبدو كما لو أنها شيء ما يمكن وضــعه على الرف. لقد كانت مُنهكة على غراري بسبب عملها طــوال الــيوم والعودة بعد ذلك إلى المنــزل لإجراء المقابلات في المساء.

"انظــري إلى ذلك". قالت: "ذلك الشيء يكاد يكون *كتاباً* إلى حد ما".

فأومأتُ برأسي، وحاولت الابتسام، ولكن، كان هناك الكثير من العمــل المتبقّــي الــذي يجــب القــيام به. كنا على مشارف شهر آب/أغسطس ولا يزال يتعيّن علينا إجراء خمس مقابلات إضافية، علماً أن كانــون الثاني/يناير هو موعد تسليم الكتاب. لقد تمكنتُ، بمساعدة آيبــيلين، مــن صياغة، وتشذيب، وترتيب خمسة فصول بما فيها فصل مــيني، ولكنها كانت لا تزال بحاجة إلى مزيد من العمل. وشكرت الله لأنني أنجزت القسم المتعلق بآيبيلين والمؤلف من إحدى وعشرين صفحة مكتوبة بأسلوب بسيط وخط جميل.

هناك العديد من الأسماء المبتكَرة لأشخاص بيض وملوّنين، وكان يــصعب أحــياناً تذكّــرها. وعُرفت آيبيلين منذ البداية بساره روس، واختارت ميني اسم غرترود بلاك لسبب أجهله. واخترت لنفسي اسم أنونيموز (أي مجهول الاسم)، علماً أن إلين شتاين لم تكن تعرف ذلك بعــد. ونايــسفيل، ميسيسيبــي، هو اسم مدينتنا لأن لا وجود لهذا

الاسم، ولكننا قررنا أن اختيار اسم ولاية حقيقية قد يثير الاهتمام. وبما أن ولاية الميسيسيبـــي هي الأسوأ، تصوّرنا أنه من الأفضل اختيارها.

وهـــبّ نسيم عبر النافذة، ورفرفت الصفحات العُلوية. فوضعنا راحات أيدينا عليها بسرعة للإمساك بها.

"هل تعتقدين... أنها ستطبعه؟". سألَت آيبيلين: "متى نعرف ذلك؟".

فحاولـــتُ الابتسام لآيبيلين، وإظهار بعض الثقة الزائفة بالنفس. "آمـــل ذلك". قلت بأكبر قدر من البراعة. "لقد بدت مهتمّة بالفكرة وهي... حسناً، المسألة مطروحة على بساط البحث، و...".

وسمعـــتُ صوتي يتوقف تدريجياً. لم أكن أعرف إذا كانت السيدة شتاين تريد طبعه أم لا. ولكن، ما أعرفه هو أن مسؤولية المشروع مُلقاة علـــى عاتقـــي وأرى ذلك في العمل الشاق الذي تقوم به الخادمات، ومـــدى رغبتهنّ في نشر ذلك الكتاب. كنّ قلقات وينظرن إلى الباب الخلفـــي كل عشر دقائق، شاعرات بالخوف من الإمساك بهنّ يتحدّثن إليّ، ومـــن تعرّضهنّ للضرب على غرار حفيد لوفينيا، أو إطلاق النار عليهنّ في الفناء الأمامي على غرار ميدغار إيفرز. فالمجازفة التي يقمن بها هي خير دليل على رغبتهنّ في طباعة الكتاب، وكنّ يُردن ذلك بشدة.

لقـــد كففتُ عن الشعور بالحصانة كوني بيضاء البشرة. وكنت أنظـــر مـــن فوق كتفي أحياناً عندما أقود الشاحنة إلى منـــزل آيبيلين للتحقق من عدم وجود من يلاحقني. فالشرطي الذي أوقفني منذ أشهر قليلة حملني على التنبّه، لقد أصبحتُ مصدر تهديد لكل عائلة بيضاء في المديـــنة. وبالـــرغم من كون العديد من القصص جيدة تشيد بالروابط القائمة بين النساء ملونات البشرة والعائلات، فالقصص السيئة هي التي ســـتلفت انتـــباه ذوي البـــشرة البيضاء، وتجعل دمهم يغلي وقبضاتهم تتمايل. كان يجب علينا إبقاء الأمر سرّياً.

لقد تأخرتُ عمداً خمس دقائق عن اجتماع الرابطة مساء يوم الخميس، وكان الأول منذ شهر. كانت هيلي على الشاطئ ولا تجرؤ على السماح بعقد الاجتماع من دون حضورها. لقد اكتسبَت سُمرة وباتت جاهزة للقيادة. فرفعَت مِطرقتها كما لو أنها سلاح. وكانت النساء جالسات من حولي يدخنّ ويملن سجائرهن فوق المنافض الزجاجية الموضوعة على الأرض، وكنت أقضم أظافري كي أمتنع عن التدخين، لم أدخّن منذ ستة أيام.

وبالإضافة إلى عدم وجود سيجارة في يدي، زادت الوجوه المحيطة بي من عصبية مزاجي. لقد رأيت سبع نساء في القاعة على صلة بأشخاص في الكتاب، هذا إن لم يكنّ المعنيات مباشَرةً. وأردت الخروج من هناك والعودة إلى العمل، ولكن مرت ساعتان طويلتان وحارّتان قبل أن تضرب هيلي بمطرقتها أخيراً. لقد بدت مرهقة بسبب سماع صوتها.

ووقفت النساء واستعدن نشاطهنّ، وخرجت بعضهنّ متلهفات للاعتناء بأزواجهنّ. وتبطأَت اللواتي لديهنّ أطفال يملأون المطبخ من دون أن تكون عاملة المنزل موجودة. فجمعتُ أغراضي بسرعة، آملةً في تجنّب التحدث إلى أحد، ولا سيما إلى هيلي.

ولكن، قبل أن أتمكن من الفرار، وقع نظر إليزابيت على نظري، ولوّحت لي. لم أكن قد رأيتها منذ أسابيع، ولم أستطع الحؤول دون التحدث إليها. وشعرتُ بالذّنب لأنني لم أقم بزيارتها. فأمسكَت بالجزء الخلفي من كرسيّها ورفعَت نفسها. كانت في شهرها السادس ومُصابة بدُوار بسبب العقارات المهدّئة الخاصة بالحَمل.

"كيف تشعرين؟". سألتُ. لم يتغيّر شيء في جسمها باستثناء معدتها الكبيرة والمنتفخة. "هل هناك أي تحسّن؟".

"يا الله، لا، الأمر رهيب ولا تزال هناك ثلاثة أشهر".

ولـــزمنا الهـــدوء. وتجشّأت إليزابيت بوَهَن ونظرَت إلى ساعتها. أخـــيراً، التقطت حقيبتها وهمّت بالمغادرة، ولكنها أخذَت بيدي. "لقد سمعتُ". همسَت: "ما جرى بينك وبين ستيوارت. أنا آسفة".

فوجّهتُ نظري إلى الأسفل. لم تفاجئني معرفتها بالأمر بل الوقت الـــذي مرّ قبل انتشار الخبر. لم أُخبر أحداً، ولكن ستيوارت هو من قام بـــذلك كمـــا أعتقد. ففي صباح ذلك اليوم، كان عليّ الكذب على والدتي والقول لها إن أفراد عائلة ويتوورث سيكونون خارج المدينة في الخـــامس والعـــشرين مـــن الشهر، وهو الموعد الذي حدّدته والدتي لاستقبالهم في منـــزلنا.

"آســـفة لأنـــني لم أخـــبرك". قلـــت. "لا أحب التحدث عن الأمر".

"أفهم ذلك. آه، يُستحسَن بـــي الذهاب. قد يصاب راليه بسورة غـــضب بـــسبب وجـــوده معها". وألقت نظرة أخيرة على هيلي التي ابتسمَت وأومأَت مُعتذرة.

فجمعتُ ملاحظاتي بسرعة، وتوجهتُ إلى الباب. وقبل أن أتمكن من الخروج، سمعتُ صوتها.

"انتظري قليلاً، هلاّ فعلت، يا سكيتر؟".

فتـــنهّدتُ، واستدرتُ. كانت هيلي ترتدي بذلة البحّار الكحليّة، وهـــي ملابس ترتدوها في سنّ الخامسة، والثّنيات عند ردفيها مفتوحة كمِنفاخ الأكورديون. لم يكن في القاعة سوانا.

"هـــل يمكنـــنا مناقـــشة هذا الأمر، رجاءً، يا سيدتي؟". ورفعَت الإصدار الأخير للنشرة الدّورية، وعرفتُ ما ينتظرني.

"لا يمكنني البقاء. والدتي مريضة...".

"لقد طلبتُ منك طباعة مبادرتي *منذ خمسة أشهر*، وها هو أسبوع آخر يمرّ و لم تتبعي تعليماتي".

وحدّقتُ إليها، وانتابني غضب شديد. فكل ما حاولتُ كبته طيلة أشهر صعد إلى حلقي وثار.

"لن أطبع تلك المبادرة".

فنظـــرت إليّ مـــن دون القيام بأي حركة. "أريد تلك المبادرة في النـــشرة الدَّورية قبل موعد الانتخابات". قالت وأشارت إلى السقف: "وإلا قمتُ بما يلزم في الطابق العلوي، يا آنستي".

"إذا حاولـــتِ رميـــي خـــارج الـــرابطة، سأتصل بجنفييف فون هابـــسبورغ بنفـــسي في مدينة نيويورك". قلت مُهسهِسة لأنني عرفتُ بالـــصُّدفة أن جنفييف هي المِثال الأعلى لهيلي. كانت الرئيسة الأصغر سنّاً لرابطة وطنية في التاريخ، وربما الشخص الوحيد في هذا العالم الذي تخشاه هيلي. ولكن هيلي لم تجفل.

"وماذا ستقولين لها، يا سكيتر؟ تقولين لها إنك لا تقومين بعملك؟ تقولين لها إنك تحملين موادّ خاصة بالناشطين المؤيدين للزنوج؟".

فـــشعرتُ بغـــضب شديد لم أتمكن من كبته. "أريد استرجاعها، يا هيلي. لقد أخذتِها وهي ليست لك".

"لقد أخذتها بالطبع. لا يجدر بك حمل أشياء مماثلة. ماذا لو رآها أحدهم؟".

"مـــن تكـــونين لـــتحدّدي ما الذي أستطيع حمله وما الذي لا أستطيع، هل...".

"إنـــه عملـــي، يـــا سكيتر! تعرفين جيداً كما أعرف أن الناس لـــن يـــشتروا قطعـــة كعكـــة واحدة من منظمة تأوي دُعاة للدمج العِرقي!".

"يا هيلي". لقد أردت أن أسمعها تقول ذلك بنفسها: "لمن تُجمَع كل أموال الكعك تلك على كل حال؟".

فقلّبت عينيها. "للأطفال المتضوّرين جوعاً في أفريقيا؟".

وانتظـــرتها حتى تدرك المغزى، وهو أنها ترسل المال لملوّني البشرة وراء الـــبحار وليس لأولئك الموجودين في المدينة. ولكن فكرة أفضل تـــبادرت إلى ذهني. "سأتصل بجنفييف على الفور وأُطلعها على مدى ادّعائك الإصلاح".

ووقفـــت هيلـــي بشكل مستقيم. لقد ظننت للوهلة الأولى أنني تمكّنت من التأثير فيها بواسطة هذه الكلمات، ولو قليلاً. ولكنها مرّرت لسانها على شفتيها، وأخذَت نفساً عميقاً.

"تعلمين، لا عجب في أن يقوم ستيوارت ويتوورث بالتخلي عنك".

فأبقـــيتُ فكّـــي مُطبَقاً كيلا تستطيع رؤية أثر تلك الكلمات في نفسي. ولكنني كنت في صميمي كسلّم ينـــزلق ببطء. لقد شعرت أن كل ما في داخلي ينـــزلق على الأرض. "أريد استعادة تلك القوانين". قلت بصوت مرتجف.

"إذاً، اطبعي المبادرة".

فاســـتدرتُ وخـــرجتُ من الباب. ووضعتُ حقيبتي المدرسية في سيارة الكاديلاك وأشعلتُ سيجارة.

كـــان ضـــوء غرفة نوم والدتي مُطفَأً عندما وصلتُ إلى المنـــزل، وكـــنت ممتـــنَّة. وعـــبرتُ الرّدهة على أطراف أصابعي باتجاه الرُّواق الخارجي الخلفي، وأغلقتُ الباب الذي يُحدث صريراً بهدوء، وجلستُ أمام آلتي الكاتبة.

ولكنني لم أتمكن من الطباعة. فحدّقتُ كثيراً إلى المربّعات الرمادية بالغـــة الـــصِّغر للباب المُنخُلي، لدرجة أنني انـــزلقتُ بينها. حينذاك،

شــعرتُ بــشيء ما يُفتَح في صميمي، وغدوتُ مجنونة لا أسمع ذلك الهاتــف الصامت المُملّ، ومحاولة تقيّؤ والدتي في المنــزل، وصوتها عبر الــنافذة: "أنــا بخير، يا كارلتون، لقد زالت". لقد سمعتُ كل ذلك، ولكنني لم أكن أسمع شيئاً، لا أسمع سوى أزيز قوي في أُذُنَيّ.

فمــددتُ يدي إلى حقيبتي المدرسية، وسحبتُ ورقة مبادرة حمّام هيلــي. كانــت رخوة ورطبة، وطارت عُثّة كانت على إحدى زوايا الورقة، مخلّفةً وراءها بقعة بنّية من مادة طبشورية يفرزها جناحاها.

وبــبطء، وبضربات متعمَّدة، بدأت أطبع النشرة الدَّورية؛ ساره شلبــي تتزوج بروبرت بريور، رجاءً، احضروا عَرضاً لملابس الأطفال تقدّمه ماري كاترين سيمبسون، حفل شاي تكريماً لمؤيّدينا المخلصين. وطــبعتُ بعــد ذلك مبادرة هيلي، ووضعتها في الصفحة الثانية قُبالة صــفحة الصور حيث يراها الجميع بالتأكيد بعد النظر إلى أنفسهم في احــتفال المرح الصيفي. وكل ما استطعت التفكير فيه في أثناء الطباعة هو، *ماذا سيكون رأي كونستنتين بــي؟*

آيبيلين

الفصل الثاني والعشرون

"كم أصبح عمرك اليوم، أيتها الفتاة الكبيرة؟".

كانت ماو موبلي لا تزال على السرير. فرفعَت إصبعَين نعسانتين وقالت، *ماو موبلي اثنان*".

"لا، بات عمرنا ثلاث سنوات اليوم!". ورفعتُ إحدى أصابعها، وأنشدتُ ما اعتاد والدي أن يقوله لي في ذكرى مَولدي: "ثلاثة جنود أخرجوا الظَّبية، اثنان قالا توقف، والآخر قال هيا".

لقد بدأت بالنوم على سرير فتاة كبيرة منذ إصلاح سرير الأطفال للمولــود الجديــد. "في العام التالي، ننشد أغنية الجنود الأربعة الذين يبحثون عن طعام".

وتغضّن أنفها لأنه يجب عليها أن تتذكّر قول "ماو موبلي ثلاثة"، بدلاً من "ماو موبلي اثنان" التي اعتادت قولها. فعندما تكونون صغاراً، يُطــرَح عليكم سؤالان، ما اسمك وكم يبلغ عمرك، لذلك يُستحسَن بكم أن تُجيبوا بشكل صحيح.

"أنـــا ماو موبلي ثلاثة". قالت. واندفعت خارج السرير، منفوشة الشعر. وظهرت مجدداً تلك البقعة الصلعاء على رأسها التي كنت أراها

عـــندما كانـــت طفلة صغيرة. لقد اعتدتُ تمشيط بعض الشعر فوقها وإخفاءها لدقائق قليلة، ولكن ليس لمدة طويلة. كانت ماو موبلي نحيلة وتفقد خُصَل شعرها المعقوفة، وفي نهاية النهار، يغدو شعرها قاسياً. لم أكـــن قلقـــة في شأن عدم ظُرفها، ولكنني حاولت ترتيب شعرها قدر الإمكان لأجل والدها.

"تعالَي إلى المطبخ". قلت: "سنُعِدّ لك فطور ذكرى الميلاد".

كانـــت الآنـــسة ليفولت عند مزيّن الشعر، غير مبالية بوجوب الـــتواجد هناك عند الصباح كي تكون بجانب طفلتها الوحيدة في يوم ذكـــرى مولدها. ولكن الآنسة ليفولت تُحضر لها ما تريد على الأقل. كانت قد اصطحبتني إلى غرفة نوم الطفلة وأشارت لي بإصبعها إلى علبة كبيرة على الأرض.

"ألـــن تكـــون سعيدة؟". قالت الآنسة ليفولت. "إنها دمية تسير وتتكلم وتبكي أيضاً".

كانـــت هناك علبة كبيرة زهرية اللون، منقّطة، مغطاة بالسلّوفان من الأمـــام، وتحـــتوي علـــى دُمية طويلة القامة مشابهة لماو موبلي، وتدعى أليسون. لديها شعر أشقر معقوف وعينان زرقاوان، وترتدي فستاناً زهريّ اللـــون، مزركَشاً. وكلما ظهر إعلان تجاري على المحطة التلفازية، كانت مـــاو موبلي تركض نحو التلفاز مُمسكةً العلبة من جانبَيها، وتضع وجهها بالقرب من الشاشة وتحدق بجدّية. وبدت الآنسة ليفولت كما لو أنها تريد البكاء على نفسها في أثناء النظر إلى اللعبة. أظن أن والدها المسنّة البخيلة لم تُحضر لها أبداً ما كانت ترغب في الحصول عليه في صغرها.

في المطبخ، قمت بإعداد بعض البُرغل من دون إضافة التوابل إليه، ووضـــعت بعض حلوى الخِطمي على وجهه، وحمّصتُ الوجبة قليلاً، وزيّنتها بعد ذلك بقطع الفراولة.

كانت الشموع الثلاث الصغيرة وزهرية اللون التي أحضرتها معي من المنـــزل موجودة في محفظة يدي. فأخرجتُها، وأزلت الورق المشمَّع عـــنها الـــتي لففتها به كيلا تنثني. وبعد إشعالها، وضعتُها على منصة صغيرة على طاولة اللينوليوم البيضاء الموجودة وسط الغرفة.

وقلت: "ذكرى ميلاد سعيدة، يا ماو موبلي اثنان!".

فضحكَت وقالت: "أنا ماو موبلي ثلاثة!".

"أنـــت كذلك بالتأكيد! الآن، انفخي الشمعات، يا طفلتي، لأنها وصلت إلى بُرغلك".

وحدّقَت إلى الشعلات الصغيرة، مبتسمة.

"انفخيها، أيتها الفتاة الكبيرة".

ونفخَت، وأطفأتها معاً. وامتصّت البُرغل عن الشمعات وشرعَت بالأكل. بعد قليل، ابتسمَت لي وقالت: "كم عمرك؟".

"آيبيلين ثلاثة وخمسون".

واتسعَت عيناها. ربما كان عمري ألف عام.

"هل... لديك ذكرى ميلاد؟".

"أجل". وضحكتُ. "إنه أمر يدعو للأسف، ولكنني أقوم بذلك. ذكـــرى مـــولدي في الأسبوع القادم". لم أستطع التصديق أنني سأبلغ الرابعة والخمسين من العمر أين ذهب كل هذا العمر؟

"هل لديك أطفال؟"، سألَت.

فضحكتُ قائلة: "لديّ سبعة عشر طفلاً".

لم تكـــن قد وصلت بعد إلى العدد سبعة عشر في التعداد، ولكنها علِمت أنه عدد كبير.

"يكفي هذا العدد لملء المطبخ بكامله". قلت.

واتسعت عيناها البنّيّتان والكبيرتان. "أين هم الأطفال؟".

"في مختلف أنحاء المدينة. هم الأطفال الذين اعتنيتُ بهم".
"لماذا لا يأتون ويلعبون معي؟".
"لأن معظمهم كبروا. وأصبح للعديد منهم أطفال".
يا الله، لقد بدت مُربَكة. كانت تتخيّل الأطفال كما لو أنها تحاول عـدّهم. وقلـت أخيراً: "أنت واحدة منهم، أيضاً. هم الأطفال الذين اعتنيتُ وأعتني بهم".
فأومأت برأسها، وشبكت يديها على نحو متصالب.
وشـرعتُ بغـسل الأطـباق. فالعائلة تحتفل في مساء ذلك اليوم بذكـرى مـولد ماو موبلي، وكان عليّ إعداد الكعكات. سأُعدّ أولاً الكعكـة بالفـراولة المجلّدة. فلو كان الأمر مَنوطاً بماو موبلي لأضافت الفراولة إلى كل وجباتها. وأقوم بإعداد الكعكة الأخرى في وقت لاحق.
"لنُعِدّ كعكة بالشوكولا". كانت الآنسة ليفولت قد قالت لي في اليوم السابق. كانت في شهرها السابع وتحب تناول الشوكولا.
لم أكـن قد خطّطتُ لذلك في الأسبوع السابق، وأحضرتُ كل اللـوازم. "أمم-هممم. ما رأيك بالفراولة؟ إنه المفضَّل لدى ماو موبلي كما تعرفين".
"آه لا، هي تريد الشوكولا. سأقصد المتجر اليوم لإحضار كل ما تحتاجين إليه".
ففكـرتُ في إعـداد الكعكتين، وسيكون على ماو موبلي نفخ مجموعتين من الشموع.
نظّفـتُ طبق البُرغل، وقدّمتُ إليها بعض عصير العنب لتشربه. كانـت قد أحضرت معها إلى المطبخ دُميتها التي تدعى كلوديا، وهي ذات شـعر ملوّن، ويمكنها إغماض عينيها، وإصدار صوت بكاء مثير للشفقة عندما تُلقى على الأرض.

"هـــا هي طفلتك". قلت، وربّتَت على ظهرها كما لو أنها تقوم بتجشئتها، وأومأت برأسها.

وقالت بعد ذلك: "يا آيبـــي، أنت والدتي الحقيقية". من دون أن تنظر إليّ. لقد قالت ذلك كما لو أنها تتحدث عن الطقس.

فـــركعتُ على الأرض حيث تلعب. "والدتك عند مزيّن الشعر. تعرفين أيتها الطفلة من هي والدتك".

ولكـــنها هـــزّت رأســـها، ضامّةً تلك الدُمية إلى صدرها. "أنا *طفلتك*". قالت.

"يا ماو موبلي، تعلمين أن ما رويتُه عن أطفالي السبعة عشر مُربِك بالنسبة إليك؟ هم ليسوا حقيقيين. لديّ طفل واحد فقط".

"أعلـــم". قالت. "أنا طفلتك الحقيقية. أولئك الأطفال الآخرون مختلَقون".

لقـــد أشـــرفتُ علـــى تربية أطفال شعروا بالإرباك. فأول كلمة خـــرجت مـــن فم جون غرين دادلي هي *أمي* وكان ينظر إليّ مباشَرةً. ولكـــنه بدأ يدعو الجميع، بمن فيهم هو نفسه، أمي، ويدعو أباه أيضاً أمـــي. لقـــد قام بذلك لمدة طويلة، و لم يقلق أحد حيال الأمر. ولكننا شعرنا ببعض القلق عندما بدأ يلعب وهو مرتدٍ تنورة شقيقته من طراز جويل تايلر، ويشاهد القناة الخامسة.

لقـــد اعتنـــيتُ بعائلة دادلي لمدة طويلة من الزمن فاقت السنوات الست. كان يصطحبه والده إلى المرأب ويضربه بخرطوم مياه مطاطي، محـــاولاً إخراج الفتاة من ذلك الفتى من خلال الضرب حتى لم يعد في إمكـــاني تحمّـــل الأمر. وعندما أعود إلى المنـــزل، أعانق تريلور بشدة لدرجـــة أنه يكاد يختنق. وعندما بدأنا بالعمل على القصص، طرحت الآنـــسة سكيتر عليّ سؤالاً حول أسوأ يوم أتذكّره في عملي كخادمة.

فقلتُ لها إنه اليوم الذي وُلد فيه طفل مَيتاً. ولكنه لم يكن كذلك، بل كــل يــوم بين عامَي 1941 و1947 عندما كنت أنتظر بجانب الباب المُنخُلــي توقف الوالد عن ضرب الفتى. وتمنّيتُ لو أنني أخبرت جون غــرين دادلي أنه لن يذهب إلى الجحيم، وأنه ليس غير سوي لأنه يشبه الفتــيان. وتمنّــيتُ لــو أنني ملأتُ أُذنَيه بأمور جيدة كالتي أقولها لماو موبلــي. ولكــنني كنت ألازم المطبخ بدلاً من ذلك في انتظار بلسمة الجروح التي تَسبّب بها خرطوم المياه.

عندها، سمعنا الآنسة ليفولت تتوقف في الطريق الخاصة بالمنــزل. وشعرتُ ببعض القلق حيال رد فعلها عندما تسمع طفلتها تناديني *أمي*. وكانــت مــاو موبلــي عــصبية المزاج أيضاً، وبدأت يداها تخفقان كالدجاجة. "شههه! لا تخبريها!". قالت. "ستضربني على مؤخرتي".

كانــت ماو موبلي قد تحدثت إلى والدتها عن هذا الشأن، ولكن الآنسة ليفولت لم يُعجبها الأمر.

وعندما دخلت الآنسة ليفولت مصفَّفة الشعر، لم تُلقِ ماو موبلي التحــية عليها، بل عادت إلى غرفتها راكضة كما لو أنها تخشى تمكّن والدتها من سماع ما يدور داخل رأسها.

* * *

جــرت حفلة ذكرى ميلاد ماو موبلي بشكل جيد، أقلّه وفقاً لما أخــبرتني بــه الآنسة ليفولت في اليوم التالي. وفي صباح يوم الجمعة، دخلــتُ المنــزل ووجدتُ ثلاثة أرباع كعكة الشوكولا موجودة على المنــضدة، ولا أثر لكعكة الفراولة. بعد ظهر ذلك اليوم، مرّت الآنسة ســكيتر لتــسليم الآنسة ليفولت بعض الأوراق. وبعد قليل، دخلت الآنسة ليفولت الحمّام، متهادية. فانسلّت الآنسة سكيتر إلى المطبخ.

"هل لا يزال موعدنا قائماً لهذا المساء؟". سألتُ.

"أجـــل. سأكون هناك". لم تكن الآنسة سكيتر تبتسم كثيراً منذ ابتعادها والسيد ستيوارت عن بعضهما بعضاً. لقد سمعتُ الآنسة هيلي والآنسة ليفولت تتحدثان كثيراً عن الأمر.

فأحـــضرَت الآنـــسة سكيتر لنفسها زجاجة كوكا - كولا من البرّاد، وتكلّمَت بصوت خفيض. "الليلة، سننهي مقابلة ويني، وسأبدأ بفـــرز الكتاب في نهاية هذا الأسبوع. ولكنني لن أتمكن من التقاء أحد حتى يوم الخميس. لقد وعدتُ والدتي بإقلالها إلى ناتشيز يوم الاثنين". وضيّقت الآنسة سكيتر عينيها، وهو أمر اعتادت القيام به عندما تفكر في أمر هام. "سأغيب لمدة ثلاثة أيام، اتفقنا؟".

"حسناً". قلت: "أنت بحاجة إلى استراحة".

وتـــوجهَت إلى غـــرفة الطعـــام، ولكـــنها التفتت إلى الوراء وقالت: "تذكّري. أغادر صباح يوم الاثنين وسأغيب لمدة ثلاثة أيام، اتفقنا؟".

"أجل يا سيدتي". قلت، متسائلةً عن سبب تكرار الأمر مرتين.

كانت الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الاثنين، ورنّ هاتف الآنسة ليفولت.

"منـــزل الآنسة ليفولت...".

"*صليني بإليزابيت!*".

وذهـــبتُ لإخبار الآنسة ليفولت. فنـــزلت عن سريرها، وجرّت قدميها على أرض المطبخ، مرتدية قميص النوم، وواضعةً لُفافات الشعر، والـــتقطَت سمّاعـــة الهاتف. بدا الأمر كما لو أن الآنسة هيلي تستخدم مكبّر صوت وليس هاتفاً. كان في استطاعتي سماع كل كلمة.

"*هلاّ مررت بمنـــزلي؟*".

"ماذا. ما الذي تتحدثين...؟".

"لقـــد وضعَت موضوع الحمّامات في النشرة الدّورية. لقد قلت بالتحديد إنه يجب إيصال الملابس القديمة إلى منـــزلي وليس...".

"دعيني أحصل على... بريدي. لا أعرف عما...".

"عندما أعثر عليها سأقتلها بنفسي".

وأُقفل الخط بقوة في أُذن الآنسة ليفولت. ووقفَت هناك للحظات تحـــدّق إلى الهاتـــف، وارتدت بعد ذلك معطفاً منـــزلياً فوق قميص نومها. "عليّ الذهاب". قالت، باحثةً عن مفاتيحها. "سأعود".

فخرجَت من الباب راكضة بالرغم من حملها، وهوَت على مقعد سيارتها، وانطلقَت. ونظرتُ إلى ماو موبلي، ورفعَت نظرها إليّ.

"لا تسأليني، أيتها الطفلة. لا أعرف كذلك".

ما كنت على معرفة به هو أن عائلة هيلي قد عادت صباح ذلك الـــيوم من مِمفيس بعد تمضية نهاية الأسبوع فيها. فكل ما تتحدث عنه الآنسة ليفولت هو المكان الذي قصدته الآنسة هيلي ومتى تعود.

"هـــيا، أيتها الطفلة". قلت بعد قليل. "لنقم بنـــزهة على الأقدام ونكتشف ما الذي يحدث".

فـــسلكنا طـــريق ديفين، واستدرنا إلى اليسار مرتين، وبلغنا شارع ميرتـــل الـــذي تقطـــن فـــيه الآنسة هيلي. وبالرغم من كوننا في شهر آب/أغـــسطس، كانت النـــزهة جميلة لأن الطقس لم يكن شديد الحرارة بعد، والعصافير تطير مسرعةً في الأرجاء، مغرّدة. كانت ماو موبلي تمسك بيدي، فقمنا بأرجحة ذراعَينا، ممضيتين وقتاً جميلاً. لقد مرّت بجانبنا العديد من الهررة في ذلك اليوم، وهو أمر غريب لأن ميرتل شارع غير نافذ.

وانعطفنا باتجاه منـــزل الآنسة هيلي الكبير الأبيض، ورأينا المشهد.

فأشـــارت مـــاو موبلـــي بيدها وضحكت. "انظري. انظري، يا آيبـــي!".

لم يسبق لي أن رأيتُ أمراً مماثلاً. كانت هناك العشرات منها، كانت هناك مراحيض من مختلف الألوان والأشكال والأحجام مُلقاة في مرجة الآنسة هيلي، بعضها زرقاء، وبعضها الآخر زهرية اللون، والأخرى بيضاء. كانت هناك القديمة، والجديدة، والمراحيض التي تعلوها سلاسل، ويبدو بعضها كحشد من الناس بأغطيتها المفتوحة كما لو أنهم يتحدثون، وبعضها الآخر بأغطيتها المُقفَلة كما لو أنهم أشخاص يُنصتون.

وعبرنا فوق قناة تصريف المياه لأن حركة السير بدأت تزداد في ذلك الشارع. كان الناس يدورون حول جزيرة العشب الصغيرة في آخر الطريق ونوافذ سياراتهم مفتوحة، ويضحكون عالياً، قائلين: "انظروا إلى منزل هيلي". "انظروا إلى تلك الأشياء". كانوا يحدّقون إلى المراحيض كما لو أنهم لم يروا مثيلاً لها من قبل.

"واحد، اثنان، ثلاثة". بدأت ماو موبلي تعدّ. ووصلت في العدد إلى اثنتَي عشرة، وكان يتعيّن عليّ الإكمال. "تسع وعشرون، ثلاثون، واحد وثلاثون، أيتها الطفلة".

واقتربنا قليلاً، ورأيت المزيد منها على الطريق المؤدية إلى المنزل موضوعة بجانب بعضها بعضاً كما لو أنها أزواج. كان هناك مرحاض عند الدرجة الأمامية كما لو أنه ينتظر قيام الآنسة هيلي بفتح الباب.

"أليس ذلك الأمر مضحكاً...".

ولكن الطفلة أفلتت من يدي، وركضَت في الباحة، ووصلَت إلى المرحاض زهريّ اللون في الوسط، ورفعت الغطاء. وأنزلَت بنطالها على غفلة مني وتبوّلَت فيه، فقمتُ بمطاردتها منادية إيّاها، وكان هناك رجل يلتقط الصور.

كانت سيارة الآنسة ليفولت في الطريق الخاصة بالمنزل وراء سيارة الآنسة هيلي، ولكنهما لم تكونا ظاهرتين للعيان. لا بد من أنهما

في الـــداخل تـــصيحان في شأن ما الذي ستفعلانه بكل تلك الفوضى. كانت الستائر مُغلَقة، ولم أرَ أي حركة. فعقدتُ أصابعي، آملةً في ألا تُمسكا بالطفلة. وحان وقت العودة.

في طـــريق العـــودة إلى المنـــزل، كانت الطفلة تطرح أسئلة عن المـــراحيض. لماذا كانت هناك؟ من أين أتت؟ هل يمكنها الذهاب لرؤية هيذر واللعب معها بالمراحيض؟

وعندما وصلتُ إلى منـــزل الآنسة ليفولت، لم أُجب على الهاتف الذي رنّ طوال فترة الصباح. لقد انتظرت توقفه مدة كافية كي أتمكن مـــن الاتصال بميني. ولكن عندما دخلت الآنسة ليفولت المطبخ، بدأت تـــتحدث عبر الهاتف بسرعة مليون مايل في الساعة. ولم يتطلّبني الأمر طويلاً لأعرف تفاصيل الحديث الذي يدور.

لقـــد طبعت الآنسة سكيتر مشروع الحمّام الخاص بهيلي في النشرة الدَّوريـــة، معدّدة الأسباب التي تمنع ذوي البشرة البيضاء وذوي البشرة الملـــوّنة مـــن مشاطرة مقعد المرحاض نفسه. وأتبعَت ذلك بتذكير بحملة الملابـــس أيـــضاً، أو أقلّه هذا ما كان يُفترض بالآنسة سكيتر القيام به. ولكن بدلاً من ذِكر الملابس، جاء في المشروع *ضعوا مراحيضكم القديمة في شارع ميرتل 228. سنكون خارج المدينة، لذلك دعوها أمام الباب*.

لـــسوء حظ الآنسة هيلي، لم تكن هناك أخبار أخرى متداولة. لا أنـــباء عـــن فييتنام، ولا جديد عن المسيرة الكبيرة المتوقَّعة في واشنطن بـــرفقة المبجَّل كينغ. وفي اليوم التالي، تصدّرت صورة منـــزل الآنسة هيلـــي مـــع المـــراحيض الموجودة أمامه الصفحة الأولى في *جاكسون جـــورنال*. كـــان مشهداً مُضحكاً، وتمنّيتُ لو كان ملوّناً لتتمكنوا من رؤيـــة الألوان الزهريّة والزرقاء والبيضاء. كان يُفترض بهم دعوة هذه الحالة إلغاء التفرقة العنصرية بين المراحيض.

وجـــاء في العـــنوان الرئيس، *تفضّلوا واجلسوا!* لم تكن هناك أي مقالـــة مُـــرفَقة بالـــصورة والتعليق القائل، *كان منـــزل هيلي ووليام هولبروك، من جاكسون، مشهداً جديراً بالمشاهدة صباح اليوم.*

لا أعـــني أن جاكسون فقط لم تكن تشهد أحداثاً، بل الولايات المتحدة بأكملها. لقد أخبرتني لوتي فريمن التي تعمل في منـــزل الحاكم الكـــبير حـــيث تصل إليه كل الصحف الكبيرة أنها رأت الخبر في ذي نـــيويورك *تايمـــز* في قسم كسب العيش. وجاء في كل من الصحف، *منـــزل هيلي ووليام هولبروك، جاكسون، ميسيسيبـــي.*

في منـــــزل الآنسة ليفولت، كان هناك الكثير من الأحاديث عبر الهاتـــف في ذلك الأسبوع، وإيماءات كثيرة بالرأس عندما تسمع الآنسة ليفولت تذمّر الآنسة هيلي. لقد قامت الآنسة سكيتر التي عادت مساء ذلـــك اليوم من ناتشيز بمجازفة كبيرة لأنها أثارت الآنسة هيلي ضدها. وأملـــتُ في أن تقـــوم بالاتصال بـــي. لقد عرفتُ كما أعتقد سبب مغادرتها.

في صباح يوم الخميس، لم يكن قد بلغني بعد أي خبر عن الآنسة سكيتر. وشرعتُ بالكيّ في غرفة الجلوس. وعادت الآنسة ليفولت مع الآنـــسة هيلي وجلستا إلى مائدة غرفة الطعام. لم أرَ الآنسة هيلي هناك مـــنذ ما قبل حادثة المراحيض، فافترضتُ أنها لم تغادر المنـــزل كثيراً. وشغّلتُ التلفاز وأخفضت صوته، وأصغيتُ.

"ها هو. هذا الذي أخبرتك عنه". وفتحت الآنسة هيلي الكتيّب، ومرّرت إصبعها على السطور. كانت الآنسة ليفولت تهز رأسها.

"تعـــرفين ما يعني ذلك، أليس كذلك؟ تريد تغيير هذه القوانين. لماذا تحمله إذاً، إن لم تكن تريد ذلك؟".

"لا أستطيع التصديق". قالت الآنسة ليفولت.

"لا يمكنني أن أُثبت أنها وضعت تلك المراحيض في باحة منـــزلي. ولكـــنه". وحملَت الكتيب وربّتت عليه وتابعت: "دليل دامغ على أنها تُعِدّ لأمر ما، وأنوي إطلاع ستيوارت ويتوورث على ذلك أيضاً".

"ولكنهما انفصلا".

"حسناً، يجب إعلامه بالأمر تحسّباً لوجود أي رغبة لديه في إعادة علاقـــته بهـــا، ودرءاً لمـــا قـــد يُلحـــق ذلك من أذى بمهنة السيناتور ويتوورث".

"ولكن، ربما حدث خطأ ما، في النشرة الدَّورية. ربما لم...".

"يـــا إليزابيت". قالت هيلي وشبكت ذراعيها على نحو متصالب. "لا أتحـــدث عـــن المراحيض. أتحدث عن قوانين هذه الولاية العظيمة. أريـــدك أن تسألي نفسك، هل تريدين أن تجلس ماو موبلي بجانب فتى ملـــوّن البـــشرة في صف اللغة الإنكليزية؟". والتفتت هيلي إلى الوراء وألقـــت نظرة سريعة عليّ في أثناء قيامي بالكيّ. لقد أخفضت صوتها، ولكنها لم تُجد أبداً الهمس. "هل تريدين من الزنوج أن يُقيموا في هذا الحيّ؟ وأن يلمسُوا مؤخرتك عندما تمرّين في الشارع؟".

فـــرفعتُ نظـــري ووجدتُ أن الآنسة ليفولت بدأت تُدرك الأمر جيداً. وجلَست هيلي بشكل قويم.

"لقـــد أُصـــيب ولـــيام بسَورة غضب عندما رأى ما الذي فعلَته بمنـــــزلنا، ولم يعـــد في إمكاني التواجد معها تحسّباً لتشويه سمعتي، لا ســـيّما وأن الانتخابات وشيكة. لقد طلبتُ من جاني كالدويل الحلول مكان سكيتر في نادي البريدج".

"لقد طردتها من نادي البريدج؟".

"بالتأكيد، وأفكر في طردها من الرابطة أيضاً".

"هل في استطاعتك القيام بذلك؟".

"بالطبع أستطيع. ولكنني قررت إجلاسها في تلك القاعة لتتيقّن غباوة أعمالها". وأومأت الآنسة هيلي برأسها. "يجب أن تعلم أنه ليس في استطاعتها الاستمرار على هذا النحو. أعني أنها ستواجه مشكلة كبيرة مع الآخرين".

"صحيح، هناك بعض العنصريين في هذه المدينة". قالت الآنسة ليفولت.

وبعد قليل، نهضتا وانطلقتا بالسيارة. كنت مسرورة لأنني لن أرى وجهيهما لمدة قصيرة من الزمن.

عند الظهر، عاد السيد ليفولت إلى المنزل لتناول الغداء، وكان أمراً نادر الحدوث. فجلس إلى طاولة الفطور الصغيرة. "يا آيبيلين، أعدّي لي بعض الطعام من فضلك". ورفع الصحيفة، وقوّم عموده الفقري. "سأتناول لحم بقر مشويّاً".

"أجل يا سيدي". ووضعتُ أمامه طبقاً، وفوطة مائدة، وأواني طعام فضيّة. كان طويل القامة، نحيلاً، ولن يمر وقت طويل حتى يصبح أصلع بالكامل، لديه حلقة سوداء حول رأسه.

"هل تبقين هنا مدة إضافية من الوقت لمساعدة إليزابيت بالطفل الجديد؟". سأل بينما كان يطالع صحيفته. لم يكن يكترث لي بصورة عامة.

"أجل يا سيدي". قلت.

"لأنني سمعتُ أنك تتنقلين كثيراً".

"أجل يا سيدي". قلت. هذا صحيح، فمعظم الخادمات يقمن لدى العائلة نفسها طوال حياتهنّ، ولكن ليس أنا. فقد كانت لديّ أسبابي الخاصة للانتقال عندما يصبح الأطفال في سنّ الثامنة أو التاسعة. لقد تطلّبني الأمر العمل لدى عدد قليل من العائلات قبل أن أعي ذلك. "أعمل بشكل أفضل مع الأطفال".

"إذاً، أنت لا تعتبرين نفسك خادمة بل أشبه بحاضنة أطفال".
ووضع صحيفته على الطاولة، ونظر إليّ. "أنت متخصصة على غراري".
فلم أقل شيئاً، وأومأت برأسي فحسب.
"أنا أتولى احتساب الضرائب للشركات، وقليلون هم الذين يقومون بذلك".
وشعرتُ بتوتر. كانت المرة الأولى منذ وجودي هناك التي يوجّه فيها إليّ هذا القدر من الكلام.
"لا بد من أن العثور على عمل جديد كلما بلغ الأطفال سنّاً تسمح لهم بارتياد المدرسة هو أمر صعب".
"كنت أجد عملاً آخر على الدوام".
ولم يقل شيئاً، لذلك أكملتُ عملي وأخرجتُ اللحم المشويّ من جهاز الطهو.
"لا بد من أنك تتمتعين بالمؤهّلات بسبب استمرارك في الانتقال من منزل إلى آخر".
"أجل يا سيدي".
"بلغني أنك على معرفة بسكيتر فيلان. إنها صديقة قديمة لإليزابيت".
فأبقيتُ رأسي منخفضاً، وشرعتُ بقطع اللحم إلى شرائح ببطء شديد. كان قلبي يخفق بسرعة مضاعَفة.
"تطرح عليّ أحياناً أسئلة عن أعمال التنظيف لأجل المقالة".
"هل هذا كل شيء؟". قال السيد ليفولت.
"أجل يا سيدي. تطلب مني بعض المعلومات".
"لا أريدك أن تتحدثي إلى تلك المرأة بعد الآن، لا لأجل معلومات، ولا حتى لإلقاء التحية عليها، هل تسمعين؟".

"أجل يا سيدي".

"بلغني أنكما تتحدثان وستواجهين متاعب جمّة. هل فهمتِ؟".

"أجـــل يـــا سيدي". أجبتُ هَمساً، وتساءلت عما يعرفه ذلك الرجل.

والـــتقط السيد ليفولت صحيفته مجدداً. "سأتناول ذلك اللحم في شطيرة. ضعي بعض المايونيز عليها ولا تحمّصيها كثيراً، لا أريدها جافة كثيراً".

في ذلـــك المساء، كنت وميني جالستين إلى طاولة المطبخ. كانت يداي لا تزالان ترتجفان منذ بعد ظهر ذلك اليوم.

"ذلك الأحمق القبيح أبيض البشرة". قالت ميني.

"تمنّيتُ معرفة ما الذي يدور في خُلده".

وقُـــرع الباب الخلفي، فنظرت وميني إلى إحدانا الأخرى. هناك شخص واحد فقط يقرع بابـــي على هذا النحو، أما الباقيات فيدخلن من دون استئذان. ففتحته ووجدت الآنسة سكيتر. "ميني هنا". همستُ لأنه من الأفضل دائماً أن تعرفوا بوجود ميني في الغرفة التي تدخلونها.

كـــنت سعيدة بحضورها بسبب وجود كثير من الأمور التي يتعيّن عليّ إطلاعها عليها، ولم أعرف من أين أبدأ. ولكنني تفاجأتُ بوجود شيء ما أشبه بالابتسامة على وجهها. لقد افترضتُ أنها لم تتحدث إلى الآنسة هيلي بعد.

"مرحباً، يا ميني". قالت عندما دخلَت.

ونظرت ميني عبر النافذة. "مرحباً، يا آنسة سكيتر".

وقـــبل أن أتمكـــن من التفوّه بأي كلمة، جلست الآنسة سكيتر وقالـــت: "تبادرت بعض الأفكار إلى ذهني عندما كنت خارج المدينة. يـــا آيبيلين، أعتقد أنه يُفترض بنا استهلال الكتاب بفصلك". وسحبَت

بعض الأوراق من تلك الحقيبة المدرسية الحمراء الرثّة. "وسنبدّل بعد ذلك قصة لوفينيا بقصة فاي بيل لأننا لا نريد ثلاث قصص مأساوية متتالية. وسنختار في وقت لاحق القصة التي نضعها بينهما، ولكن يا ميني، أظن أنه يُفترض وضع قصتك في نهاية الكتاب".

"يا آنسة سكيتر... لدي ما أُخبرك به". قلت.

فنظرت وميني إلى بعضنا بعضاً. "أنا ذاهبة". قالت ميني مقطّبَة الجبين كما لو أنه بات من الصعب عليها الجلوس على كرسيّها. وتوجهت إلى الباب، ولمست كتف الآنسة سكيتر بسرعة كبيرة، مُبقية نظرها إلى الأمام كما لو أنها لم تقُم بذلك، وغادرَت.

"كنتِ خارج المدينة لمدة قصيرة، يا آنسة سكيتر". وفركتُ الجزء الخلفي من عُنُقي.

وأخبرتها بعد ذلك أن الآنسة هيلي أخرجت ذلك الكتيّب وأرَته للآنسة ليفولت، والله يعلم ما الذي أشاعته في المدينة.

فأومأت الآنسة سكيتر برأسها، وقالت: "يمكنني التعاطي مع هيلي. هذا الأمر لا يعنيكِ، ولا يعني الخادمات الأخريات، ولا الكتيب".

وأخبرتها بعد ذلك بما قاله السيد ليفولت، وكيف أوضح لي أنه لا يجب عليّ التحدث إليها أبداً عن مقالة التنظيف. لم أشأ إطلاعها على تلك الأمور، ولكنها كانت ستعرفها من شخص آخر وأردتها أن تسمعها مني أولاً.

فأصغت بانتباه، وطرحَت بعض الأسئلة. وعندما انتهيتُ، قالت: "يتفوّه راليه بالكثير من الكلام الفارغ. مع ذلك، عليّ التزام مزيد من الحذَر عندما أقصد منزل إليزابيث. لن أدخل إلى المطبخ أبداً". يمكنني القول إن ذلك الأمر لم يؤثّر فيها، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في ما

ســـتواجهه مـــع صديقاتها، ومدى خوفنا مما يجري. فأخبرتُها بما قالته الآنـــسة هيلي عن رغبتها في وضعها في مواجهة مع عضوات الرابطة، وفي طردها من نادي البريدج، وأخبرتها أن الآنسة هيلي ستُطلع السيد ســـتيوارت على كل شيء تحسّباً لوجود أي *مَيل* لديه إلى إعادة العلاقة بينهما.

وأشاحت سكيتر بنظرها عني، وحاولَت الابتسام. "لا يهمّني أمر أي مـــن هـــؤلاء، على كل حال". وأطلقَت ما يشبه الضحكة، وآلمني ذلك في الصميم.

"لقـــد... فضّلتُ أن تسمعي هذه الأمور مني على أن تعرفيها من أشـــخاص آخـــرين في المدينة". قلت: "أنت تعرفين ما الذي سيحدث ويمكنك التزام الحذر الشديد".

فعضّت شفتها، وأومأَت برأسها وقالت: "شكراً لك، يا آيبيلين".

الفصل الثالث والعشرون

كـــان الـــصيف الحـــار يمضي، وتابع كل شخص ملوّن البشرة في جاكـــسون البرامج المتوافرة على شاشة التلفاز، كالبرنامج الذي ظهر فيه مارتن لوثر كينغ واقفاً في عاصمة بلدنا ويخبرنا أن لديه حلُماً كبيراً. كنت في الطابـــق الـــسفلي لدار العبادة أشاهد التلفاز، وكان المبجّل جونسون مشاركاً في المسيرة. فوجدت نفسي أمسح وجوه الحشود بنظري، بحثاً عن وجهـــه. لم أستطع تصديق وجود ذلك الكمّ الكبير من الناس، كان هناك *مئتان وخمسون ألف شخص*، ستة آلاف منهم *بيض البشرة*.

"الميسيسيبـــي والعالم مكانان مختلفان جداً". قال مدبّر أعمال دار العبادة الخاصة بنا، وأومأنا كلنا برؤوسنا لأنها الحقيقة.

وحـــلّ شـــهر أيلول/سبتمبر، وحدث انفجار مدمّر في دار عبادة بـــبرمينغهام كانـــت فيها أربع فتيات ملوّنات البشرة. لقد أزال ذلك الحـــادث كـــل ابتسامة عن وجوهنا بسرعة كبيرة. يا الله، لقد ذرفنا الدموع كما لو أن الحياة غير قابلة للاستمرار. آه، ولكنها تستمر.

وكلمـــا رأيت الآنسة سكيتر، بدت لي أكثر نحولاً مع مزيد من الـــسرور في عينـــيها. كانـــت تحاول الابتسام كما لو أن فقدان كل صديقاتها ليس بتلك الصعوبة.

في شــــهر تشرين الأول/أكتوبر، جلست الآنسة هيلي إلى مائدة الآنسة ليفولت في غرفة الطعام. كانت الآنسة ليفولت قد بلغت مرحلةً مــن الحمل جعلتها عاجزة تقريباً عن تركيز نظرها. في غضون ذلك، كانت الآنسة هيلي تضع قطعة فِراء كبيرة حول عُنُقها بالرغم من بلوغ الحــرارة في الخـــارج ستين درجة. فأخرجَت المغلف زهري اللون من كوب الشاي وقالت: "ظنت سكيتر أنها شديدة الذكاء برمي كل تلك المــراحيض في باحـــة منـــزلي الأمامية. حسناً، كل شيء يسير بشكل جــيد حـــتى الآن. لقد وضعنا ثلاثة منها في مرائب وأكواخ، حتى إن وليام قال إنها نعمة مموَّهة".

لم أكـــن أريد إخبار الآنسة سكيتر بالأمر كيلا تدرك أنها دعمت مـــن دون أن تـــدري القضية التي تحاربها. ولكن إخفائي الأمر عنها لم يكن ذا أهمية لأنني سمعت الآنسة هيلي تقول: "قررت ليلة أمس إرسال كلمـــة شـــكر إلى سكيتر أخبرها فيها كيف أنها ساعدت على تنفيذ المشروع بسرعة أكبر مما كان متوقَّعاً له".

بانـــشغال الآنـــسة ليفولت كثيراً بإعداد الملابس للطفل الجديد، أمضينا، ماو موبلي وأنا، كل دقيقة من اليوم معاً. لقد بدت كبيرة جداً بالنـــسبة إليّ لأقـــوم بحملها على الدوام، ربما أصبحت متقدّمة جداً في السن. وكنت أعانقها بشدة عوضاً عن ذلك.

"تعالَـــي وأخبريني قصتي السرّية". قالت همساً، وبابتسامة كبيرة. كانـــت تـــريد علـــى الدوام سماع قصتها السرّية بعد دخولي المنـــزل مباشـــرةً، وقـــبل القيام بأي شيء. كنت أقوم بابتكار تلك القصص السرّية.

ولكـــن الآنـــسة ليفولت دخلت ممسكة حقيبة يدها، ومستعدّة للمغادرة. "يا ماو موبلي، سأغادر الآن. تعالَي وعانقي أمك".

ولكن ماو موبلي لم تتحرك من مكانها.

فوضعت الآنسة ليفولت يدها على وركها، منتظرةً ابنتها. "هيا، يـــا ماو موبلي". همستُ. فدفعتُها برِفق، وذهبَت لمعانقة والدها بشدة كما لو أنها متلهّفة للقيام بذلك، ولكن الآنسة ليفولت كانت تنظر إلى حقيـــبة يدها بحثاً عن المفاتيح. و لم يُزعج ذلك الأمر ماو موبلي كثيراً كما لو أنها اعتادت الأمر، وهو ما كنت أجد صعوبة في تقبّله.

"هـــيا، يـــا آيــــي". قالت ماو موبلي بعد ذهاب والدها. "حان وقت قصتي السرّية".

ودخلـــنا غرفتها حيث كنا نحب الاختلاء بنفسينا. فجلستُ على الكرســـي الكبير، واعتلت حضني وابتسمَت. "أخبريني، أخبريني قصة ورقـــة التغلـــيف البنّية والهدية". لقد شعرَت بإثارة شديدة لدرجة أنها كانـــت تـــتلوّى في مكانها، وتقفز عن حضني تعبيراً عن تلك الإثارة، وتزحف مجدداً إلى حضني.

كانت قصتها المفضّلة لأنها تحصل على هديّتَين عندما أخبرها بها. كنت أُخرج ورقة التغليف البنية من كيس بقالة بيغلي ويغلي وألف بها شيئاً صغيراً، كقطعة حلوى مثلاً. وألتقط بعد ذلك الورقة البيضاء من كيس صيدلية كول، وألف بها قطعة حلوى أخرى. كانت تنظر بجدّية إلى عملية فضّ الغطاء والورقة، حاملةً إيّاي على إخبار القصة التي تفيد أن ما يهمّ هو ما يوجد داخل الغطاء وليس لون الغطاء نفسه.

"ســـأخبرك قصة أخرى اليوم". قلت، ولكنني أصغيتُ قبل ذلك للـــتأكد من عدم عودة الآنسة ليفولت إلى المنـــزل بسبب نسيان شيء ما. علينا توقّي الحذر.

"سأروي لك اليوم قصة رجل من الفضاء الخارجي". كانت تحب سمـــاع قصص عن أشخاص من الفضاء الخارجي، وبرنامج *رجل المرّيخ*

المفضَّل لدي هو برنامجها المفضَّل على التلفاز. فأخرجتُ هوائياتي التي كنت قد صنعتها في الليلة السابقة من صفائح قصديرية، وربطتُها برأسينا. لقد بدَونا كمجنونتين بهذه الأشياء.

"ذات يوم، نزل رجل حكيم من سكان المريخ (Martian) إلى الأرض لتعليم الناس أمراً واحداً أو أمرَين". قلت.

"من سكان المريخ؟ كم يبلغ طوله؟".

"آه، هو بطول اثنتين وستين قدماً".

"ما اسمه؟".

"مارشان لوثر كينغ".

فأخذَت نفَساً عميقاً وأحنت رأسها على كتفي. وسمعتُ قلبها البالغ من العمر ثلاث سنوات يسابق قلبي، خافقاً كالفراشات على لباسي الرسمي الأبيض.

"كان السيد كينغ مرّيخياً لطيفاً جداً، يشبهنا في أنفه وفمه وشعره ورأسه، ولكن الناس يعتبرونه مُضحكاً أحياناً، وأظن أنهم تصرفوا معه بدناءة أحياناً أخرى".

كنت أعلم أنني قد أواجه الكثير من *المتاعب* لأنني أروي لها تلك القصص الصغيرة، ولا سيما مع السيد ليفولت. ولكن ماو موبلي تعرف أنها *قصصنا السرّية*.

"لماذا يا آيبي؟ لماذا كانوا يتصرفون معه بدناءة؟". سألَت.

"لأن بشرته خضراء".

كان هاتف منزل الآنسة ليفولت قد رنّ مرتين في صباح ذلك اليوم من دون أن أُجيب، لأنني، أولاً، كنت أطارد الطفلة وهي عارية في الباحة الخلفية. ثانياً، لأنني دخلتُ حمّام المرأب. ثالثاً، لأنني لم أكن أتوقّع منها الرد على أي اتصال هاتفي لأنّ ثلاثة أسابيع قد مضت على

موعد ولادة ذلك الطفل. ولكنني لم أتوقع منها توجيه انتقادات لاذعة لي لأنني لم أُجب على الهاتف في الوقت المناسب. يا الله، كان يُفترض بـي التنبّه إلى ذلك عندما استيقظتُ في صباح ذلك اليوم.

ففـي الليلة السابقة، عملتُ مع الآنسة سكيتر على القصص حتى الثانـية عـشرة إلا ربعاً ليلاً. لقد شعرتُ بإرهاق شديد، ولكننا أنهينا القصة الثامنة مما يعني أنه كان لا يزال يتعيّن علينا العمل على إنهاء أربع قصص إضافية. فالعاشر من كانون الثاني/يناير هو الحد الزمني الأقصى لتسليم القصص، و لم أكن واثقة من إنهائها في ذلك التاريخ.

كـنا في الأربعـاء الثالث من تشرين الأول/أكتوبر، وهو اليوم المخصص للآنسة ليفولت لاستضافة عضوات نادي البريدج. لقد تبدّل كـل شيء منذ طرد الآنسة سكيتر من النادي واستبدالها بالآنسة جاني كالـدويل الـتي تنادي الجميع بيا حبيبتي، وحلول لو آن مكان الآنسة والتـرز. كنّ جميعهنّ مهذّبات حقاً ومتفقات مع بعضهنّ بعضاً طوال ساعتين. لم يعُد الاستماع إلى ما يقلنه أمراً مسلّياً.

كـنت أسـكب آخر كوب من الشاي المثلّج عندما رنّ جرس الـباب. فتوجهت إلى الباب بسرعة كبيرة لأُظهر للآنسة ليفولت أنني غير بطيئة كما دأبَت على اتهامي.

وعـندما فتحـته، فإن أول كلمة تبادرت إلى ذهني هي *زهريّ اللون*. لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، ولكن الأحاديث التي أجريتها مع ميني ساعدتني على معرفتها. من غيرها في هذه الناحية لديه صدر كبير جداً تتسع له كنـزة صوفية صغيرة جداً؟

"مـرحباً". قالت، ومرّرَت لسانها على شفتيها المكسوّتين بأحمر الـشفاه. ومـددتُ يـدي لاستلام ما تحمله بيدها، ولكنها صافحتني بطريقة مُضحكة.

"أدعـــى ســـيليا فوت، وأنا هنا لرؤية الآنسة إليزابيت ليفولت، رجاءً".

لقـــد اســـتحوذ اللون الزهري على انتباهي كلّياً لدرجة أن الأمر تطلـــب مني بضع ثوانٍ للتيقّن من مدى خطورة الأمر عليّ وعلى ميني. لقد مرّ على تلك الكذبة وقت طويل.

"أنا... هي...". كنت أريد أن أقول لها إن لا أحد في المنـــزل، ولكـــن طاولة البريدج كانت على بُعد خمس أقدام مني. فنظرتُ إلى الـــوراء، وكانـــت الـــسيدات الأربـــع يحدقن إلى الباب وأفواههنّ مفتوحة كما لو أهنّ يلتقطن الذباب. وهمست الآنسة كالدويل بأُذُن الآنـــسة هيلـــي. وترنّحت الآنسة ليفولت، وارتسمت ابتسامة على وجهها.

"مـــرحباً، يا سيليا". قالت الآنسة ليفولت. "لقد مرّ وقت طويل من دون شك".

فتنحـــنحت الآنـــسة ســـيليا وقالـــت بصوت مرتفع: "مرحباً، يـــا إليزابيت. أزورك اليوم لـــ...". ونظرت إلى الطاولة حيث تجلس السيدات الأخريات.

"آه لا، أنا أقاطع. سوف... سأعود في وقت آخر".

"لا، لا، بماذا أخدمك؟". قالت الآنسة ليفولت.

وأخـــذت الآنسة سيليا نفساً عميقاً في تلك التنورة زهرية اللون الضيّقة، وأعتقد أننا ظننّا كلنا للحظات أنها ستنفجر.

"أنا هنا لأعرض مساعدتي للحفلة الخيرية".

فابتسمت الآنسة ليفولت وقالت: "آه. حسناً، أنا...".

"أنا بارعة جداً بتنسيق الزهور، أعني، إنه رأي كل سكان شوغر ديـــتش، ورأي خادمتي أيضاً بعد أن قالت إنني أسوأ طاهية وقع عليها

نظـــرها يوماً". وقهقهَت للحظات، وحبستُ أنفاسي لدى سماع كلمة *خادمة*. وعادت الآنسة سيليا إلى جدّيتها مجدداً. "ولكن، يمكنني كتابة العناوين، وإلصاق الطوابع، و...".

ونهـــضت الآنـــسة هيلي، وانحنت نحوها وقالت: "لسنا بحاجة في الواقع إلى أي مساعدة إضافية، ولكن يُسعدنا أن تحضري وجوني الحفلة الخيرية، يا سيليا".

فابتـــسمت الآنـــسة سيليا وبدت ممتنّة لدرجة أنها فطرت قلوب الجميع. ولكن من منهنّ لديها قلب.

"آه، شكراً لك". قالت. "أتشوّق إلى القيام بذلك".

"ســـينعقد مـــساء يـــوم الجمعـــة، في الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، في...".

"... فـــندق روبرت". أكملت الآنسة سيليا. "أعرف كل شيء عن الموضوع".

"نـــودّ أن نبيعك بعض البطاقات. سيقوم جوني بمرافقتك، أليس كذلك؟ اذهبـــي وأحضري لها بعض البطاقات، يا إليزابيت".

"وإذا كان هناك ما يمكنني القيام به للمساعدة...".

"لا، لا". قالت هيلي، وابتسمَت. "لقد اهتممنا بكل شيء".

وعـــادت الآنـــسة لـــيفولت بالمغلّف، وأخرجت عدداً قليلاً من البطاقات، ولكن الآنسة هيلي أخذت المغلّف من يدها.

"بما أنك هنا، يا سيليا، لماذا لا تشترين بعض البطاقات لأصدقائك وصديقاتك؟".

فتسمّرت الآنسة سيليا في مكانها للحظات. "أمم، حسناً".

"مـــا رأيك بعشر بطاقات؟ أنت وجوني وعشرة أصدقاء. عندها، تحصلون على طاولة كاملة".

وابتسمت الآنسة سيليا بصعوبة لدرجة أنها بدأت بالارتجاف.

"أعتقد أن اثنتين ستكونان كافيتين".

وأخرجت الآنسة هيلي بطاقتين وأعادت المغلّف إلى الآنسة ليفولت التي قصدت الناحية الداخلية من المنزل لإعادته إلى مكانه.

"دعيني أحرّر لك شيكاً. أنا محظوظة بسبب وجود ذلك الشيء الكبير معي اليوم. لقد أخبرتُ خادمتي ميني أنني سأُحضر لها عظاماً للطهو من المدينة".

وحرّرت الآنسة سيليا ذلك الشيك بصعوبة على ركبتها. وحافظتُ على رباطة جأشي قدر المستطاع، آملةً في ألا تكون الآنسة هيلي قد سمعت ما قالته. وسلّمتها الشيك، ولكن الآنسة هيلي كانت متغضّنة الوجه تفكر.

"من؟ ما اسم خادمتك؟".

"ميني جاكسون. آو! تبّاً". ووضعت الآنسة سيليا يدها على فمها. "لقد جعلتني إليزابيت أُقسم بألا أقول إنها من أوصى بها، وها أنذا أُفشي السر".

"إليزابيت... أوصت بميني جاكسون؟".

وعادت الآنسة ليفولت من غرفة النوم. "يا آيبيلين، لقد استيقظَت. اذهبي وأحضريها. لا يمكنني رفع مِبرد أظافر".

فتوجهتُ بسرعة كبيرة إلى غرفة ماو موبلي التي استغرقت في النوم مجدداً ما إن دخلتُ. وهرعتُ إلى غرفة الطعام. كانت الآنسة هيلي تُغلق الباب الأمامي.

وجلست الآنسة هيلي، وبدت كما لو أنها ابتلعت للتوّ الهرّ الذي التهم عصفور الكنار.

"يا آيبيلين". قالت الآنسة ليفولت. "اذهبـــي وأعدّي السلَطة في الحال، نحن في الانتظار".

فـــدخلتُ المطبخ. وعندما عدتُ، كانت أطباق السلطة تصطكّ كالأسنان على الصينية.

"... تعنين تلك التي سرقت كل أواني والدتك الفضية، و...".

"... ظننتُ أن كل من في المدينة علم أن تلك الزنجية سارقة...".

"... لَما أوصيتُ بها ولو بعد مليون عام...".

"... هل رأيتِ ما الذي خططَت له؟ من تظنّ...".

"سأقوم باكتشاف الحقيقة حتى ولو أدى ذلك إلى مقتلي". قالت الآنسة هيلي.

ميني

الفصل الرابع والعشرون

كنت أمام حوض الغسيل في المطبخ أنتظر عودة الآنسة سيليا إلى المنـــزل، والخرقة التي أمسح بها ممزّقة. لقد استيقظت تلك المرأة المجنونة صـــباح ذلـــك اليوم، وعصرت نفسها بالكنـــزة الصوفية زهرية اللون الضيقة والأكثر التصاقاً بجسدها، وصاحت قائلة: "أنا ذاهبة إلى منـــزل إليـــزابيت ليفولت في الحال بينما لا أزال أملك الشجاعة للقيام بذلك، يا ميني". وانطلقت بسيارتها المكشوفة من طراز بِل إير، وتنورتها متدلّية خارج الباب.

لقـــد بقـــيتُ قلقة إلى أن رنّ الهاتف. كانت آيبيلين مستاءة جداً لدرجـــة إصـــابتها بالحازوقة. فالآنسة سيليا لم تخبر السيدات أن ميني جاكسون تعمل لديها فحسب، بل قامت بإعلامهنّ أن الآنسة ليفولت هـــي التي أوصت بـــي. هذا ما سمعَته آيبيلين. ولم يتطلّب الأمر تلك الدجاجات المقوقآت سوى خمس دقائق تقريباً لاكتشاف الأمر.

لذلك، فإن كل ما كان عليّ القيام به هو الانتظار للتحقق مما إذا سيتم طرد صديقتي المفضّلة في كل العالم بسبب الحصول لي على عمل، أولاً؛ وإذا أخـــبرت الآنـــسة هيلي الآنسة سيليا بكل تلك الأكاذيب

مدّعـــيةً أنني سارقة، ثانياً؛ وإذا أخبرها كيف أنني صرختُ في وجهها بسبب تلفيق تلك الأكاذيب، ثانياً ونصف. لم أكن آسفة بسبب ذلك الأمر الشنيع والمروّع الذي فعلتُه بها. وتساءلتُ عما يمكن لتلك السيدة أن تفعله بـــي بعد أن أودعت خادمتها السجن لتتعفّن فيه.

لم أرَ ســـيارة الآنـــسة سيليا تتوقف أمام المنـــزل إلا عند الرابعة وعـــشر دقائق، أي قبل ساعة من موعد مغادرتي. كانت تقهقه في مجاز الحديقة كما لو أن لديها ما تقوله. فسحبتُ جوربيّ نحو الأعلى.

"يا ميني، لقد تأخر الوقت!". صاحت.

"مـــاذا حـــدث في منـــزل الآنسة ليفولت؟". قلت، و لم أحاول تصنّع الحياء. لقد أردت معرفة الحقيقة.

"اذهبـــــي، رجـــاءً! سيعود جوني إلى المنـــزل في أي دقيقة". ودفعتني إلى غرفة غسل الملابس حيث أحتفظ بأغراضي.

"ســـنتحدث غـــداً". قالت، ولكنها المرة الأولى التي لم أشأ فيها الـــذهاب إلى المنـــــزل. أردت سماع ما الذي قالته الآنسة هيلي عني. فـــسماع أحدهم يقول عن خادمتكم إنها سارقة هو أمر مماثل لسماع أحـــدهم يقول إن مدرّسة طفلكم تهدر الوقت سُدىً، فتسارعون إلى الاقتصاص منها.

ولكـــن الآنسة سيليا لم تخبرني بأي شيء. لقد قامت بطردي إلى الخـــارج لتتمكن من مواصلة تمثيليتها. فالسيد جوني على عِلم بأمري، والآنـــسة سيليا تعرف أن السيد جوني على عِلم بأمري. ولكن السيد جـــوني لا يعـــرف أن الآنـــسة سيليا على عِلم بذلك. وبسبب ذلك الـــسخف، كـــان يجب عليّ أن أغادر عند الرابعة إلا عشر دقائق وأن أصاب بالأرق طوال الليل بسبب الآنسة هيلي.

في صباح اليوم التالي، اتصلت آيبيلين بـــي قبل ذهابـــي إلى العمل.

"لقد اتصلتُ ببور فاني هذا الصباح لأنني علمتُ أنك كنت قلقة طـوال اللـيل بسبب ما حدث". فبور فاني هي خادمة الآنسة هيلي الجديدة، وكان يجب عليّ أن أدعوها فول فاني (أي فاني المخبولة) لأنها تعمل هناك. "سمعَت الآنسة ليفولت والآنسة هيلي تقولان إنك اختلقتِ أمر التوصية كي تمنحك الآنسة سيليا العمل".

وزفـرتُ مطوَّلاً. "سعيدة لأنك لن تتعرّضي للمشاكل". قلت. وبالرغم من ذلك، فالآنسة هيلي لا تزال تدعوني كاذبة و*سارقة*.

"لا تقلقي في شأني". قالت آيبيلين. "احذري فقط من قيام الآنسة هيلي بالتحدث إلى سيدة عملك".

وعندما عدتُ إلى العمل، كانت الآنسة سيليا مندفعة إلى الخارج بهدف الذهاب لشراء فستان للحفلة الخيرية التي تُقام في الشهر القادم. وقالـت إنها تريد أن تكون أول شخص في المتجر. فالأمر مختلف عن تلـك الأيام عندما كانت حاملاً، فهي لم تستطع الانتظار للخروج من الباب.

وخرجتُ إلى الباحة الخلفية ومسحتُ كراسي المرجة. لقد بدأت الطـيور بالتغـريد باسـتياء عندما رأتني قادمة، وأحدثت جلبة داخل شُـجيرة الكاميلـيا. في الربيع الماضي، كانت الآنسة سيليا تُلحّ عليّ باسـتمرار لأخـذ تلـك الأزهار إلى منـزلي. ولكنني أعرف أزهار الكاميلـيا. تُدخلـون باقـة منها، متأملين مدى نضارتها، ولكن حالما تقومـون بتنـشّق رائحتها تكتشفون أنكم أدخلتم جيشاً من العناكب الصغيرة إلى المنـزل.

وسمعتُ صوت انكسار قضيب، وانكسار آخر وراء الشُجيرات. فـدخلتُ المنـزل، ولم أقم بأي حركة. نحن في مكان ناءٍ ولا أحد يـسمع اسـتغاثتنا على بُعد أميال. وأصغيتُ ولكنني لم أسمع أي شيء

آخـــر. فقلتُ لنفسي إن ما أسمعه هو من الرواسب الماضية عندما كنت أتـــرقّب دخول السيد جوني إلى المنـــزل، أو إنه ذُهان ارتيابـــي لأنني عملـــت مع الآنسة سكيتر في الليلة السابقة على الكتاب. كنت أشعر بالقلق باستمرار بعد التحدث إليها.

أخـــيراً، استأنفتُ تنظيف كراسي بركة السباحة، ملتقطةً مجلات الـــسينما الخاصة بالآنسة سيليا إضافةً إلى الأنسجة التي خلّفتها الأوراق هـــناك. ورنّ الهاتـــف في الداخل. لم يكن يُفترض بـــي الإجابة على الهاتف لأن الآنسة سيليا تحاول الاستمرار في الكذبة الكبيرة على السيد جـــوني. ولكنها ليست هناك، وقد تكون آيبيلين مع مزيد من الأخبار. فدخلتُ، وأقفلتُ الباب ورائي.

"منـــــزل الآنسة سيليا". يا الله، أملتُ في ألا تكون الآنسة سيليا المتصلة.

"هيلي هولبروك تتكلم. من أنت؟".

واندفع دمي من رأسي إلى قدمَيّ، وغدوتُ كصدفة فارغة خالية من الدماء لنحو خمس ثوان.

فأخفـــضتُ صوتي، وجعلته مماثلاً لصوت شخص غريب. "معك دوريـــنا، عاملة المنـــزل لدى الآنسة سيليا". *دورينا؟ لماذا استخدمتُ اسم شقيقتي!*

"يا دورينا، ظننتُ أن ميني جاكسون هي خادمة الآنسة فوت".

"لقد... تركت العمل".

"صحيح؟ دعيني أتحدث إلى السيدة فوت".

"إنهـــا... في المدينة، على الساحل، لكي... لـــ...". كان عقلي يسير بسرعة ألف ميل في الساعة، محاوِلةً ابتكار التفاصيل.

"حسناً، متى تعود؟".

"بعد وقت طويل".

"حـــسناً، عندما تعود، أخبريها أنني اتصلتُ بها. هيلي هولبروك، إمرسون، 3608040؟".

"أجل يا سيدتي، سأُخبرها بذلك". ولكن بعد مئة عام.

وأمـــسكتُ حافة المِنضدة، وانتظرت توقف قلبـــي عن الخفقان بـــسرعة لـــيس لأن الآنسة هيلي لا تستطيع العثور عليّ، أعني أن في استطاعتها البحث عن اسم ميني جاكسون في دليل الهاتف، وتحت خانة تـــيك روود، والحـــصول على عنواني. وليس لأنني لا أستطيع إخبار الآنسة سيليا بما حدث وأنني لست سارقة فهي قد تصدّقني بالرغم من كـــل شـــيء، بل لأن ذلك الأمر الشنيع والمروّع هو الذي أفسد كل شيء.

بعـــد أربـــع ساعات، دخلت الآنسة سيليا مع خمس علب كبيرة موضـــوعة فـــوق بعضها بعضاً. فساعدتها على حملها إلى غرفة نومها، ووقفـــتُ بعـــد ذلك بلا حراك خارج الباب، وأصغيتُ للتحقق مما إذا كانت ستتصل بسيدات المجتمع ككل يوم. وسمعتها تلتقط سمّاعة الهاتف وتعيدها إلى مكانها للتحقق من أنني لا أستخدم الهاتف.

بالـــرغم من كوننا في الأسبوع الثالث من تشرين الأول/أكتوبر، كان الصيف يمضي ببطء إيقاع مجفّفة الملابس. فالعشب لا يزال أخضر مكـــتمل النموّ في فناء الآنسة سيليا، وأشجار الأضاليا البرتقالية تبتسم ثملةً للشمس. وفي كل مساء، يخرج البعوض لصيد بعض الدماء، وارتفع سعر ضمادات امتصاص العرَق ثلاثة سنتات للعلبة الواحدة، وسقطت مروحتي الكهربائية على أرض مطبخي وتعطّلت.

في صباح ذلك اليوم من تشرين الأول/أكتوبر، وبعد ثلاثة أيام من اتصال الآنسة هيلي، وصلتُ إلى العمل قبل ساعة من الوقت المعتاد بعد

تكليف شوغر مهمة إيصال شقيقيها وشقيقتيها إلى المدرسة. ووضعتُ البن المطحون في المصفاة المزخرفة، والماء في القدر. وألقيتُ مؤخرتي على المنضدة، وساد الهدوء، هذا ما كنت أنتظره طوال الليل.

وأصدر البرّاد أزيزاً، ووضعت يدي عليه لأتحسس الذبذبة.

"لقد أبكرتِ في المجيء، يا ميني".

ففتحتُ البرّاد وأقحمتُ رأسي فيه. "صباح الخير". قلت، وكل ما كان في إمكاني التفكير فيه هو، *لم يحن الوقت بعد*.

فعبثتُ ببعض حبات الخُرشوف ووخزَت شوكاها الباردة يدي، وخفق رأسي بقوة. "سأُعدّ لك وللسيد جوني لحماً مشويّاً، وسأُعدّ... بعض...". ولكن الكلمات خرجت من فمي بطبقة صوتية عالية.

"يا ميني، ماذا حدث؟". سألت الآنسة سيليا، واتجهت نحو باب البرّاد من دون أن أُدرك ذلك. فصدمتُ وجهي، وانفتح الجرح الموجود على حاجبي مجدداً، وشعرتُ بالدم الحار يخزني كشفرة حلاقة. لم تكن تظهر كدماتي في العادة.

"يا عزيزتي، اجلسي. هل وقعتِ؟". وأسندَت يدها إلى خصر قميص نومها زهرية اللون. "هل تعثّرتِ بسلك المروحة مجدداً؟".

"أنا بخير". قلت، وحاولتُ الالتفات إلى الناحية الأخرى كيلا تراني. ولكن الآنسة سيليا كانت تستدير معي، وتحدّق إلى الجرح كما لو أنها لم ترَ يوماً أمراً مروّعاً مماثلاً. لقد قالت لي سيدة بيضاء البشرة ذات مرة إن الدم يبدو أكثر احمراراً لدى ملوّني البشرة. فأخرجتُ قطنة من جيبي، ووضعتها على وجهي.

"إنه جرح بسيط". قلت. "لقد صدمتُ وجهي بحوض الاستحمام".

"يا ميني، إن ذلك الشيء ينزف. أظن أنك بحاجة إلى بعض القُطَب. دعيني أُحضر الطبيب نيل إلى هنا". فرفعَت سمّاعة الهاتف عن

الجدار وأعادها إلى مكانها بقوة. "آه. إنه في معسكر الصيد مع جوني. سأتصل بالطبيب ستيل إذاً".

"يا آنسة سيليا، لست بحاجة إلى طبيب".

"أنت بحاجة إلى رعاية طبّية، يا ميني". قالت، والتقطت الهاتف.

هل يجب عليّ إطلاعها على الموضوع؟ فصرفتُ أسناني لأخرج ما في صدري. "لن يعالج الأطباء شخصاً ملوّن البشرة، يا آنسة سيليا".

وأعادت السمّاعة إلى مكانها مجدداً.

فأدرتُ وجهي إلى حوض الغسيل، واستمررت في التفكير. *لا علاقة لأحد بالموضوع، قومي بعملك فحسب*، ولكنني لم أنم دقيقة واحدة. كان ليروي يصيح في وجهي طوال الليل، وقذف وعاء السكّر على رأسي، ورمى ملابسي إلى الرُّواق الخارجي. أعني أن الأمر مختلف عندما يحتسي الشراب... *آه*، كان شعوري بالخجل كبيراً جداً لدرجة أنني أردت الارتماء على الأرض لإخفاء ذلك الشعور. لقد ضربني هذه المرة بدم بارد.

"اخرجي من هنا، يا آنسة سيليا، دعيني أقوم ببعض الأعمال". قلت لأنني كنت بحاجة إلى تمضية بعض الوقت بمفردي. كنت قد ظننتُ في بادئ الأمر أن ليروي اكتشف أمر عملي مع الآنسة سكيتر، إنه السبب الوحيد الذي تبادر إلى ذهني في أثناء قيامه بضربي، ولكنه لم يقل شيئاً عن الأمر. كان يضربني بدافع المتعة فحسب.

"يا ميني؟". قالت الآنسة سيليا، محدّقةً إلى الجرح مجدداً. "هل أنت واثقة من أنك جرحت نفسك بحوض الاستحمام؟".

وفتحتُ الحنفيّة لإحداث ضجيج في الغرفة. "قلتُ لك إنني جرحت نفسي. اتفقنا؟".

فرمقتني بنظرة متشككة وأشارت إليّ بإصبعها. "حسناً، ولكنني سأُعدّ لك كوب قهوة، وأريد منك أن تعتبري هذا اليوم يوم عطلة،

اتفقنا؟". وتوجّهت الآنسة سيليا إلى مِصفاة القهوة، وسكبت كوبين، وتوقفَت، ونظرت إليّ مستغرِبة.

"لا أعرف كيف تتناولين قهوتك، يا ميني".

فقلّبتُ عينَيّ. "كما تتناولينها أنت".

ووضـــعَت حبتي سكّر في الكوبين، وأعطتني قهوتي، ووقفَت بعد ذلـــك محدّقةً إلى النافذة الخلفية مشدودة الفَكّ. وشرعتُ بغسل أطباق الليلة السابقة، متمنّيةً أن تدعَني وشأني.

"تعلمين". قالت بصوت منخفض: "يمكنك التحدث إليّ عن أي شيء، يا ميني".

فاستمررت في غسل الأطباق، وشعرتُ أن أنفي بدأ بالتوهّج.

"لقـــد رأيتُ بعض الأمور عندما كنت أُقيم في شوغر ديتش. في الواقع...".

ورفعتُ نظري، وكنت على وشك الطلب منها عدم التدخل في شـــؤوني الخاصـــة، ولكـــن الآنسة سيليا قالت بصوت غريب: "علينا الاتصال بالشرطة، يا ميني".

فوضعتُ الكوب من يدي بقوة كبيرة لدرجة أن القهوة تطايرت منه. "انظري إليّ، لا أريد تدخّل الشرطة...".

وأشـــارت بإصـــبعها إلى خـــارج النافذة الخلفية. "يوجد رجل، يا ميني! هناك!".

والـــتفتُّ إلى المكـــان الذي تنظر إليه. كان هناك رجل عارٍ بجانب الـــشُجيرات دائمـــة الخضرة. وطرفتُ عينَيّ للتحقق من أنه حقيقيّ. كان طـــويل القامة، شاحب اللون، أبيض البشرة، يقف على بُعد خمس عشرة قدماً مُديراً ظهره لنا، وشعره البنّي المتشابك طويلاً كشعر شخص متشرّد. كان في استطاعتي القول إنه يلمس نفسه حتى وإن كان مُديراً ظهره.

"من هو؟". همسَت الآنسة سيليا. "ماذا يفعل هنا؟".

واستدار الرجل نحونا كما لو أنه سمعنا، وصُعقنا عندما رأيناه...

"آه... *يا الله*". قالت الآنسة سيليا.

ونظر إلى النافذة، ووقع نظره على نظري، محدّقاً إلى خط قاتم عبر المرجة. فارتعدتُ لأنه عرفني كما يبدو. كان يحدّق وشفته متغضّنة كما لو أنني أستحق كل يوم سيّئ عشته، وكل ليلة لم أنم فيها، وكل ضربة تلقّيتها من ليروي. كنت أستحقّ أكثر من ذلك.

وبدأ يقوم بحركات لم تعجبني كما لو أنه يعرف بالتحديد ما الذي سيفعله بي. وشعرتُ بعيني تنبض مجدداً.

"علينا الاتصال بالشرطة!". همست الآنسة سيليا. وحدّقت بعينيها المفتوحتَين واسعاً إلى الهاتف الموجود في الجانب الآخر من المطبخ، ولكنها لم تتحرك قَيد أُنمُلة.

"يتطلّبهم الأمر خمساً وأربعين دقيقة للوصول إلى المنزل". قلت: "يمكنه خلع الباب في هذه الأثناء!".

وركضتُ إلى الباب الخلفي، وأقفلته. وتوجهتُ إلى الباب الأمامي وأقفلته أيضاً، وانحنيتُ عندما مررتُ بجانب النافذة الخلفية. ووقفتُ على أطراف أصابعي، واختلست النظر عبر النافذة الصغيرة المربّعة الموجودة في الباب الخلفي. وكانت الآنسة سيليا تختلس النظر عبر النافذة الكبيرة.

وسار الرجل ببطء شديد باتجاه المنزل، وصعد درج الباب الخلفي. فحاول إدارة مقبض الباب الذي رأيته يهتزّ، وشعرت أن قلبي يخفق بقوة مصطدماً بأضلعي. وسمعت الآنسة سيليا تتحدث على الهاتف، قائلةً: "الشرطة؟ هناك من يحاول اقتحام المنزل! هناك رجل! رجل عارٍ يحاول الدخول إلى...".

وقفزتُ إلى الوراء مبتعدةً عن النافذة الصغيرة المربّعة بينما كان حجر يرتطم بالزجاج، محطّماً إيّاه، وشعرتُ بقطع الزجاج تصطدم بوجهي. وعبر النافذة الكبيرة، رأيت الرجل يتراجع كما لو أنه يحاول البحث عن مكان آخر يقتحم المنزل من خلاله. *يا الله*، دعوت؛ *لا أريد القيام بذلك، لا تحملني على القيام بذلك...*

وحدّق إلينا مجدداً عبر النافذة، وعلمتُ أنه ليس في استطاعتي الجلوس هناك كما لو أنني عشاء بط في انتظار قيام ذلك الرجل بالتهامه. فكل ما عليه القيام به هو تحطيم زجاج نافذة ممتدة من السقف إلى الأرض، والدخول.

يا الله، وعرفتُ ما الذي يتعيّن عليّ القيام به. عليّ الخروج والنّيل منه *أولاً*.

"ابتعدي عن النافذة، يا آنسة سيليا". قلت بصوت مرتجف. وذهبتُ لإحضار سكين الصيد الخاص بالسيد جوني، وكان لا يزال موجوداً في غِمده داخل جلد الدب. ولكن الشفرة قصيرة جداً، ويجب على ذلك الوغد أن يكون قريباً مني لجرحه، لذلك أخذتُ المكنسة ذات العصا الطويلة أيضاً. وألقيتُ نظرة إلى الخارج، كان وسط الفناء ينظر إلى المنزل، ويخطط.

ففتحتُ الباب الخلفي وانسللت إلى الخارج. وابتسم الرجل لي عبر الفناء، كاشفاً عن سنَّين في فمه. وتوقف عن القيام بالحركات التي لم تعجبني سابقاً ثم عاد للقيام بها ولكن بشكل سلس وهادئ.

"أقفلي الباب". قلت مهسهسة. "أبقيه مُقفَلاً". وسمعتُ طقّة القفل.

ودسستُ السكين في زنّار لباسي الرسمي، وتأكدت من ثباته، وأمسكتُ المكنسة بيدَيّ.

"اذهب من هنا، أيها المجنون!". صحتُ. ولكن الرجل لم يتحرك. وتقـــدّمت خطى قليلة باتجاهه، وقام بالمِثل. وسمعتُ نفسي أدعو، *يا الله احمني من هذا الرجل الأبيض العاري...*

"معـــي ســـكين!". صرختُ. وتقدّمتُ بضع خطى، وقام بالمِثل أيضاً. وعندما أصبحت على بُعد سبع أو ثماني أقدام منه، لهثتُ. وحدّقنا إلى بعضنا بعضاً.

"أنـــت زنجـــية بدينة". قال بصوت غريب ومرتفع، وتابع قيامه بالأمور التي لم تكن قد أعجبتني في السابق وبنفس السلاسة والهدوء.

فأخذتُ نفَساً عميقاً، وركضتُ باتجاهه، ملوّحةً بالمكنسة. *ووش!* لقـــد أخطأتـــه ببـــضع بوصات، ووثب. واندفعتُ بقوة مرة أخرى، وركض الرجل نحو المنـــزل، واتجه إلى الباب الخلفي مباشَرةً حيث كان وجه الآنسة سيليا خلف النافذة.

"لا تـــستطيع الزنجية الإمساك بـــي! الزنجية لا تستطيع الركض لأنها بدينة جداً!".

وصعد الدرج. فأُصبت بالذُّعر بسبب إمكانية قيامه بمحاولة خلع الباب، ولكنه نظر من حوله وركض على امتداد جانب الفناء.

"اخـــرج من هنا!". صرختُ، وركضتُ وراءه، شاعرةً بألم حادّ بسبب اتساع جرحي.

وأخـــرجته بـــصعوبة من بين الشُّجيرات، وطاردتُه باتجاه بركة الـــسباحة، لاهثة. فأبطأ عند حافة البركة، واقتربتُ منه، ووجّهتُ إليه ضربة قوية على مؤخرته.

"لم تؤلميني!". وحرك يديه بطريقة مقرفة وتفوه بكلام مقرف.

وطاردتُـــه حـــتى وســـط الفناء، ولكن الرجل كان طويل القامة وسريعاً جداً، وغدوت أكثر بُطئاً. لقد أصبحت ضرباتي عشوائية، ولم

أعـــد أســـتطيع الركض. فتوقفتُ، وانحنيتُ، متنفّسةً بصعوبة، وعصا المكنسة المكسورة بيدي. ونظرتُ إلى الأسفل، ووجدتُ أن السكين *قد اختفى*.

وحالمـــا نظرتُ إلى الوراء، تلقّيتُ لكمة على وجهي وترنّحتُ. كـــان الرَّنين في أُذُنَيّ مُزعجاً ومرتفعاً، مما حملني على التمايل. وغطّيتُ أُذُني، ولكن الرنين ازداد ارتفاعاً. لقد لكمني على جانب الجرح.

فاقتـــرب مني وأغمضتُ عينَيّ، عالمةً بما سيحلّ بـــي، مُدركةً أنه يتعـــيّن علـــيّ الفـــرار من دون أن يكون في إمكاني القيام بذلك. أين السكين؟ هل يملك السكين؟ كان الرنين كحلم مزعج.

"اخـــرج من هنا قبل أن أقتلك". سمعت ذلك كما لو أنه صوت صـــادر مـــن صفيحة معدنية، لقد فقدتُ سمعي جزئياً. وفتحتُ عينَيّ، فرأيتُ الآنسة سيليا بقميص نومها زهرية اللون المصنوعة من الساتان. كانت تحمل مِحراك نار ثقيل الوزن، حادّ الأطراف، بيدها.

عندها تفوه بالكلام المقرف الذي أسمعني إياه وأدى الحركات المقرفة الـــتي أداها أمامي للسيدة سيليا، وتقدمَت من الرجل ببطء كهرة. فأخذتُ نفـــساً عميقاً بينما كان الرجل يقفز إلى اليسار، ضاحكاً وكاشفاً عن لِثّتيه الخاليتين من الأسنان. ولكن الآنسة سيليا وقفت من دون حراك.

وبعـــد ثوان قليلة، قطّب جبينه، وبدا مخيَّب الأمل من عدم إقدام الآنـــسة سيليا على أي أمر. لم تكن تتمايل، أو تصيح، أو تعبس. فنظر إليّ. "ماذا عنك؟ الزنجية مُتعَبة جداً لـــ...".

كراك!

ومـــال فـــك الـــرجل، وخرج الدم من فمه. فتمايل، واستدار، وسدّدت الآنسة سيليا ضربة أخرى على الجانب الآخر من وجهه، كما لو أنها أرادت إرجاع التوازن إلى فكّيه.

ومشى الرجل بخطى متعثّرة نحو الأمام، وسقط على وجهه.

"يــا الله، لقــد... نلت منه...". قلت، ولكن، كان هناك ذلك الصوت في الجزء الخلفي من رأسي يسألني بهدوء تام كما لو أننا نحتسي الــشاي هناك في الخارج، *هل يحدث ذلك حقّاً؟* هل تقوم امرأة بيضاء البــشرة بضرب رجل أبيض البشرة حقاً لإنقاذي؟ أم أنه خضّ دماغي وأنا مُمدَّدة هناك على الأرض ميتة...

وحاولــتُ تركيــز نظري. كانت شفتا الآنسة سيليا متغضّنتين. فرفعَت عصاها، ووجهت إليه ضربة على الجزء الخلفي من ركبتيه.

لا يحدث هذا الأمر، قلتُ لنفسي. إنه أمر غريب جداً.

ووجّهــت ضــربة أخــرى إلى كتفــيه، وكان يتأوّه مع كل ضربة.

"لقد، لقد قلتُ إنك نلتِ منه الآن، يا آنسة سيليا". قلت. ولكن الآنسة سيليا لم تكن تظن ذلك كما يبدو. فبالرغم من الرنين في أُذُنَيّ، بــدا الأمر وكأن عظام الدجاج تتكسّر تحت وطأة الضربات. فوقفتُ بــشكل مستقيم، وركّزتُ نظري قبل أن يتحوّل هذا الأمر إلى جريمة قتل. "لقد سقط، لقد سقط، يا آنسة سيليا". قلت: "في الواقع، قد" - وبذلتُ جهداً للإمساك بمحراك النار - "قد يكون مَيتاً".

وأمسكتُ المِحراك أخيراً، ورميته بعيداً في الفناء. فارتدّت الآنسة سـيليا عنه، وبصقَت على العشب. كانت الدماء متناثرة على قميص نومها، والقماش ملتصقاً بساقيها.

" لم يمُت". قالت الآنسة سيليا.

"إنه على وشك الموت". قلت.

"هــل ضــربك بقــوة، يا ميني؟". سألَت محدّقةً إليه: "هل آلمك كثيراً؟".

كـــان في اســـتطاعتي الشعور بالدم يسيل على صدغي، ولكنني علمتُ أن الجرح الذي أحدثه وعاء السكّر انفتح مجدداً. "ليس بقدر ما آلمته". قلت.

وتأوّه الرجل، وقفزنا إلى الوراء. فالتقطتُ المحراك وعصا المكنسة عن العشب، و لم أُعطها أيّاً منهما.

وتدحـــرج جزئياً. كان وجهه دامياً من الجانبين، عيناه متورّمتين ومُطبقـــتين، فكّـــاه محطّمين عند المفصل، ولكنه حاول الوقوف على قدمـــيه. وشرع ذلك الشيء المتمايل المثير للشفقة بالابتعاد من دون أن يلتفت إلى الوراء. فوقفنا هناك فحسب وشاهدناه يعرج عبر شُجيرات البَقس الشائكة، ويتوارى عن الأنظار.

"لـــن يبـــتعد كثيراً". قلت، ممسكةً بذلك المِحراك بإحكام. "لقد أبرحته ضرباً".

"هل تعتقدين ذلك؟". قالت.

فنظرتُ إليها. "على غرار جو لويس وإطاره الحديدي".

ورفعَـــت خصلاً من الشعر الأشقر عن وجهها، ونظرت إليّ كما لـــو أن تعرّضـــي للضرب آلمها. وفجأةً، أدركتُ أنه يتعيّن عليّ توجيه الـــشكر إليها، ولكنني لم أكن قادرة على البَوح بأي كلمة في الواقع. لقد وضعنا ابتكاراً جديداً للشكر، وكل ما كان في استطاعتي قوله هو: "تبدين قوية... واثقة بنفسك".

"كـــنت مقاتلة جيدة". ونظرَت إلى شُجيرات البَقس، ومسحت عرقها براحة يدها. "لو كنت تعرفينني قبل عشر سنوات...".

لم تكـــن تـــوجد على وجهها أي مادة لزجة، وأي رذاذ على شـــعرها، وكانـــت قميص نومها أشبه بثوب قديم للمروج. فأخذَت نفـــساً عمـــيقاً من أنفها، ورأيتها. لقد رأيت فيها تلك الفتاة بيضاء

البشرة كما كانت قبل عشر سنوات، قوية، ولا تقبل الكلام الهُراء من أحد.

واستدارت الآنسة سيليا، وتبعتها إلى المنـــزل. ورأيت السكين في شُجيرة الورد، فالتقطته. يا الله، لو حصل ذلك الرجل عليه لكنّا ميتتين. في حمّام الضيوف، نظّفتُ جرحي، وغطّيته بضمادة بيضاء. كنت أشعر بألم شديد في الرأس. وعندما خرجتُ، سمعت الآنسة سيليا تتحدث عبر الهاتف إلى شرطة مقاطعة ماديسون.

فغســلتُ يديّ، متسائلةً كيف يغدو يوم مروِّع أكثر ترويعاً. لقد بــدا الأمـــر كمـــا لو أنكم استنفدتم كل الأمور المروِّعة التي يمكن أن يواجهها إنسان. وحاولتُ العودة إلى الحياة الواقعية مجدداً، وفكرتُ في أنــه من المُستحسَن لي تمضية ليلتي في منـــزل شقيقتي أوكتافيا، لأُظهر للـــيروي أنـــي لـــن أتحمّله بعد ما حدث. فدخلتُ المطبخ، ووضعتُ القـــرنيات علـــى النار لتغلي. من أخدع؟ كنت أعلم أنني سأعود إلى المنـــزل في ذلك المساء.

وسمعتُ الآنسة سيليا تُنهي المكالمة الهاتفية وتتحقق كالعادة من أن الخط الهاتفي مُتاح لها.

بعـــد ظهر ذلك اليوم، قمتُ بعمل رهيب. لقد مررتُ بالسيارة بجانـــب آيبيلين في أثناء عودتها إلى المنـــزل. فلوّحَت لي بيدها، ولكنني تظاهرت بعدم رؤية صديقتي المفضّلة على جانب الطريق بلباسها الرسمي الأبيض الزاهي.

وعـــندما وصلتُ إلى منـــزلي، أعددتُ صُرّة ثلج لعيني. لم يكن ابناي وبناتي قد عادوا إلى المنـــزل بعد، وكان ليروي نائماً في الداخل. لم أعـــرف ما يتعيّن عليّ القيام به حيال ليروي، وحيال الآنسة هيلي. ولم أبـــالِ بتلقّـــي لكمة على الأُذُن من رجل عارٍ أبيض البشرة صباح

ذلـــك اليوم، بل جلست وحدّقت إلى جدراني الصفراء المائلة إلى اللون الزيتي. لماذا لا أستطيع تنظيف تلك الجدران؟

"يا ميني *جاكسون*. أنت لطيفة جداً لتُقلّي آيبيلين المسنّة؟".

فتنهدتُ وأدرتُ رأسي المتألّم لتتمكن من رؤيته.

"آه". قالت.

ونظرتُ إلى الجدران مجدداً.

"يـــا آيبيلين". قلت، وسمعتُ نفسي أتنهّد. "لن تصدّقي ما الذي جرى معي هذا اليوم".

"تعالي إلى منـــزلي. سأُعدّ لك بعض القهوة".

وقـــبل أن أخـــرج، رفعتُ تلك الضمادة الزاهية، ووضعتها في جيبـــي مع صُرّة الثلج. فرؤية أحدهم مجروح العين في محيط إقامتي أمر لا يسترعي الانتباه. ولكنني أفتخر بعائلتي، لديّ ابنان وبنات صالحون، وسيارة بإطارات، وبرّاد. والخجل بالعين أسوأ من الألم.

وتـــبعتُ آيبيلين عبر الفناءات الجانبية والفناءات الخلفية، متجنّبتين حركة السير والأنظار. لقد شعرت بالسعادة لأنها تعرفني جيداً.

وفي مطـــبخها الـــصغير، وضعت آيبيلين إبريق القهوة على النار خصيصاً لي، ووضعت غلاّية الشاي لها.

"إذاً، مـــاذا ستفعلين حيال الأمر؟". سألَت آيبيلين، وعرفتُ أنها تقـــصد عيني. و لم نتحدث عن قيامي بالتخلي عن ليروي. فالعديد من الرجال السود يتخلون عن عائلاتهم كما لو أنها نُفاية في كومة قُمامة، ولكن المرأة ملونة البشرة لا تقوم بذلك. هناك أبناء وبنات يجب التفكير فيهم.

"أفكـــر في الذهاب إلى منـــزل شقيقتي، ولكن ليس في استطاعتي اصطحاب ابنيّ وبناتي معي. عليهم ارتياد المدرسة".

"لن يلحق بهم أي ضرر إذا تغيّبوا عن المدرسة لأيام قليلة، لا سيّما وأنك تحمين نفسك".

وأعـــدتُ إلصاق الضمادة، ووضعتُ صُرّة الثلج عليها كيلا يبدو التورّم شديداً عندما يراني ابناي وبناتي في المساء.

"أخبرتِ الآنسة سيليا أنك انــزلقتِ في حوض الاستحمام مجدداً؟".

"أجل، ولكنها تعرف الحقيقة".

"لماذا، ماذا قالت؟". سألَت آيبيلين.

"لقـــد فعلَت الأمر نفسه". وأخبرتُ آيبيلين كل شيء عن كيفية قـــيام الآنسة سيليا بضرب الرجل العاري بمحراك النار في صباح ذلك اليوم. لقد بدا الأمر كما لو أن الحادثة وقعت قبل عشر سنوات.

"لـــو كان ذلك الرجل ذا بشرة ملونة، لقُتل، ولأقامت الشرطة حواجز في ثلاث وخمسين ولاية". قالت آيبيلين.

"كانت على وشك قتله بالرغم من كل تصرفاتها الطفولية وانتعاله حذاء ذي الكعب العالي". قلت.

وضحكت آيبيلين. "ما الألفاظ المقرفة التي كان يتفوه بها؟".

"لا تـــبالي. أحمـــق ويتفيلد المخبول". وكان عليّ منع نفسي من الابتسام لأنني علمت أن من شأن ذلك أن يُعيد فتح الجرح مجدداً.

"يا الله، يا ميني، لقد حدثت معك بعض الأمور حقاً".

"أتـــساءل كيف أنها لم تجد أي مشكلة في الدفاع عن نفسها ضد ذلـــك الـــرجل المجـــنون، في حـــين أنها تلاحق الآنسة هيلي بحثاً عن الإهانـــات؟". قلـــت بالرغم من عدم اكتراثي في ذلك الوقت لتعرّض مشاعر الآنسة سيليا للأذى. لقد بدا لي أنه من المريح التحدث عن حياة شخص آخر يواجه المتاعب.

"يبدو لي أنك تهتمين بأمرها". قالت آيبيلين، وابتسمت.

"هي لا ترى حدوداً لتصرفاتها بينها وبيني، وبينها وبين هيلي".

وتناولت آيبيلين رشفة طويلة من الشاي. أخيراً، نظرت إليها. "لماذا أنت هادئة إلى هذا الحد؟ أعلم أنك تملكين رأياً في شأن كل ذلك".

"ستتهمينني بفلسفة الأمور".

"هيا". قلت. "لستُ خائفة من أي فلسفة".

"غير صحيح".

"ماذا قلتِ؟".

"أنت تتحدثين عن أمر غير موجود".

فهززت رأسي لصديقتي. "هناك حدود وتعلمين جيداً على غراري أين رُسمت".

وهزّت آيبيلين رأسها. "كنت أعتقد بوجودها، ولكنني توقفت عن ذلك. هي موجودة في رؤوسنا. فالأشخاص كالآنسة هيلي يحاولون حملنا باستمرار على الاعتقاد أنها موجودة، ولكنها ليست كذلك".

"أعلم أنها موجودة لأنك تتعرّضين للمعاقبة إذا قمتِ بتخطّيها". قلت. "كما هي حالي على الأقل".

"يظن الكثيرون أنك إذا أجبتِ زوجك بفظاظة، تكونين قد تخطيتِ الحدود، مما يبرّر تعرّضك للعقوبة. هل تعتقدين حقاً بوجود تلك الحدود؟".

فنظرتُ إلى الطاولة مقطّبة الجبين. "تعرفين أنني لم أكن أفكّر مليّاً في هذه الحدود".

"لأنها غير موجودة إلا في عقل ليروي. والحدود بين ذوي البشرة الملونة وذوي البشرة البيضاء غير موجودة أيضاً. لقد اخترعها بعض الأشخاص منذ زمن بعيد وقام البيض التافهون وسيدات المجتمع أيضاً بتبنّيها".

وفكرتُ في الآنسة سيليا تخرج حاملةً محراك النار ذاك، في حين أنه كان في استطاعتها الاختباء وراء الباب. لَست أدري. وشعرتُ بألم خفيف. لقد أردت إفهامها واقع الحال مع الآنسة هيلي. ولكن، كيف تُفهمون غبيّة مثلها؟

"إذاً، تقولين إن لا وجود للحدود أيضاً بين عاملة المنـــزل وسيدة المنـــزل؟".

فهـــزّت آيبيلين رأسها. "إنها مواقع ليس إلا، كما هي الحال على لوحة الشطرنج. من يعمل لدى من لا يعني أي شيء".

"إذاً، أنا لا أتخطى الحدود إذا أخبرتُ الآنسة سيليا بالحقيقة المتمثلة أنهـــا ليـــست من مستوى هيلي؟". والتقطتُ كوبـــي. كنت أحاول جاهـــدةً فهم الأمر، ولكن ألم جرحي أثّر في دماغي. "ولكن انتظري، إذا قلتُ لها إن الآنسة هيلي تُدخل عضوات جديدات إلى الرابطة... ألا تكون هناك حدود؟".

وضـــحكت آيبيلين، وربّتت على يدي. "كل ما أقوله هو أنه لا حدود للّطف".

"همـــم". ووضعتُ الثلج على رأسي مجدداً. "حسناً، ربما سأحاول إخبارها قبل أن تذهب إلى الحفلة الخيرية وتجعل من نفسها غبية زهرية اللون".

"ستذهبين هذا العام إلى الحفلة الخيرية؟". سألَت آيبيلين.

"إذا كانـــت الآنـــسة هيلـــي مع الآنسة سيليا في الغرفة نفسها تطلق أكاذيبها عنّي، أريد أن أكون موجودة. كما أن شوغر تريد جَني بعض المال لذكرى الميلاد. سيكون أمراً جيداً بالنسبة إليها لتبدأ بتعلّم خدمة الحفلات".

"ســـأكون موجـــودة أيضاً". قالت آيبيلين. "لقد سألتني الآنسة ليفولت قبل ثلاثة أشهر عما إذا كنت أريد إعداد كعكة إصبع السيدة للمزاد العلني".

"ذلك الشيء غير المثير مجدداً؟ لماذا يحب ذوو البشرة البيضاء إصبع السيدة كثيراً؟ يمكنني إعداد عشر كعكات بنكهات أفضل من نكهة تلك الكعكة".

"يعتقدن أنها أوروبية الطابع". وهزت آيبيلين رأسها. "أشعر بالأسى على الآنسة سكيتر. أعرف أنها لا تريد الذهاب، ولكن الآنسة هيلي أعلمتها أنها ستفقد عملها إذا لم تحضر".

وشربتُ ما تبقى من قهوة آيبيلين اللذيذة، وراقبتُ الشمس تغرق. وغدا الهواء الداخل من النافذة أكثر برودة.

"أعتقد أنه يتعيّن عليّ الذهاب". قلت، عِلماً أنني كنت أفضّل تمضية بقية حياتي هناك في مطبخ آيبيلين الصغير والحميم، لتشرح لي واقع العالم. هذا ما أحببته بآيبيلين، في استطاعتها تبسيط أكثر الأمور تعقيداً في الحياة وتصغيرها بحيث تتسع جيوبكم لها.

"هل تريدين القدوم مع ابنيك وبناتك للإقامة معي؟".

"لا". قلتُ، ورفعتُ الضمادة، وأعدتُها إلى جيبي. "أريده أن يراني". قلت، محدّقة إلى كوب القهوة الفارغ. "يرى ما الذي فعله بزوجته".

"اتصلي بي عبر الهاتف إذا غدا فظّاً. هل سمعتني؟".

"لا أحتاج إلى إجراء أي اتصال هاتفي. ستسمعينه يصرخ طالباً الرحمة".

انخفض ميزان الحرارة الموجود قرب نافذة الآنسة سيليا من سبع وتسعين درجة إلى ستين درجة، وصولاً إلى خمس وخمسين درجة في أقل من ساعة. وأخيراً، هبّت كتلة هوائية باردة من كندا، أو شيكاغو، أو أي مكان آخر. كنت ألتقط الحجارة الصغيرة من بين البازلاء، مفكرةً في كيف أننا نتنفس الهواء نفسه الذي تنفّسه سكان شيكاغو

قبل يومين، ومتسائلةً عما إذا كنت قد بدأت بالتفكير في سيرز وروباك في شايك آند بايك، لأن بعض سكان إيلينوي فكروا فيهما قبل يومين. وقد أنساني ذلك الأمر متاعبـــي لنحو خمس ثوان.

لقد تطلب مني الأمر أياماً قليلة لوضع خطةً، ولكنني قمتُ بذلك أخيراً. لم تكن خطة جيدة، ولكنها خطة على الأقل. كنت أعرف أن كـــل دقيقة أمضيها منتظرة، هي فرصة ملائمة للآنسة سيليا للاتصال بالآنـــسة هيلي. لقد انتظرتُ طويلاً، وكانت ستلتقيها في الحفلة الخيرية في الأسبوع التالي. والتفكير في الآنسة سيليا المتلهّفة لإقامة صداقة وثيقة مع تلك النساء، ونظرتها إليّ عندما تسمع ما يخبرها عني، جعلاني أشعر بالغثيان. لقد رأيت في الصباح اللائحة بجانب سرير الآنسة سيليا. فمن بين الأمور التي تريد القيام بها استعداداً للحفلة الخيرية، تقليم أظافرها، تنظيف سترة السهرة وكيّها، والاتصال بهيلي هولبروك.

"يا ميني، ألا يبدو اللون الجديد للشعر جديراً بالازدراء؟".

فنظرتُ إليها فحسب.

"غداً، سأقصد صالون فاني ماو لإعادة صبغه". كانت جالسة إلى طاولة المطبخ تستعرض مجموعة من النماذج المستطيلة الموضوعة كورق لعب. "ما رأيك؟ باترباتش أو ماريلين مونرو؟".

"لماذا لا تحبين لون شعرك الطبيعي؟". سألتُ، ليس لأنني لا أملك أي فكرة عما قد يكون عليه لون شعرها، بل لأنني أرغب في ألا يكون هـــذا اللـــون أيّـــاً من لونَي الجرس النحاسي، أو الأبيض الذي يدعو للغثيان، الموجودَين على تلك البطاقات.

"أظـــن أن لـــون باتـــرباتش ذو مظهر احتفالي أكثر من الآخر، للمناسبات وكل شيء. أليس كذلك؟".

"إذا كنت تريدين أن يبدو رأسك كديك باتربول الرومي".

فقهقهت الآنسة سيليا. لقد ظنّت أنني أمازحها. "آه، وعليّ أن أُريك هذا الطلاء الجديد للأظافر". وبحَثت في حقيبة يدها، وعثرت على زجاجة تحتوي على سائل زهري اللون من النوع الذي يمكنكم أكله كما يبدو. وفتحت الزجاجة وبدأت بوضع الطلاء على أظافرها.

"رجاءً، يا آنسة سيليا، لا تلوّثي الطاولة لأنه لن يعود في الإمكان إزالته...".

"انظري، أليس اللون المطلوب؟ لقد عثرتُ على فستانين ملائمين له تماماً!".

وانطلقَت مُسرعة، وعادت حاملة فستانين زهريَّين، وابتسمت لهما. كانا طويلين حتى الأرض، متلألئين وبرّاقين، وفيهما شقّان طويلان عند الساق، وفي الوسط حزام مماثل للأسلاك التي يُصنع منها سياج الدجاج. ستقوم النساء بتمزيقها في الحفلة.

"أي فستان أعجبك أكثر من الآخر؟". سألَت الآنسة سيليا.

فأشرتُ إلى ذلك الذي لا حافة منخفضة له عند العُنُق.

"آه، أودّ اختيار الآخر. استمعي إلى الصوت الذي يحدثه عندما أسير". وحرّكت الفستان من الجانبين.

وفكرتُ في الصوت الذي سيحدثه في الحفلة. فهم سيدعونها فتاة ملهى جُكبُكس مهما كانت النسخة البيضاء لهذه الفتاة خليعة. وهي لن تدرك ما سيحدث، بل ستسمع الهسيس فحسب.

"تعلمين يا آنسة سيليا". قلت ببطء كما لو أن الفكرة تبادرت إلى ذهني للتوّ. "بدلاً من الاتصال بالسيدات الأخريات، ربما يُفترض بك الاتصال بسكيتر فيلان. سمعتُ أنها لطيفة جداً".

لقد طلبتُ هذه الخدمة من الآنسة سكيتر منذ أيام قليلة، وهي أن تحاول ملاطفة الآنسة سيليا لإبعادها عن تلك السيدات. حتى ذلك

الحين، كنت أُلحّ على الآنسة سكيتر عدم الاتصال بالآنسة سيليا، ولكنه بات الخيار الوحيد المتبقّي.

"أظـــن أنـــك والآنسة سكيتر ستتفقان جيداً". قلت، وأطلقتُ ابتسامة كبيرة.

"آه، لا". قالت الآنسة سيليا، ونظرت إليّ بعينين واسعتين، حاملةً الفـــستانين وتابعـــت: "هل تعلمين؟ لم تعُد عضوات الرابطة *يتحملن* الآنسة سكيتر فيلان".

وأطبقتُ قبضتي يديّ. "ألم تلتقيها أبداً؟".

"آه، لقد سمعتُ كل ذلك في صالون فاني ماو بينما كنت جالسة تحـــت قُلنـــسوّة التسخين. لقد قُلنَ إنها تسببت بالإحراج الأكبر الذي شـــهدته هـــذه المدينة يوماً، وإنها التي وضعت كل تلك المراحيض في الباحة الأمامية لهيلي هولبروك. هل تتذكرين تلك الصورة التي ظهرت في الصحيفة منذ أشهر قليلة؟".

فصرفتُ أسناني كيلا أبوح بحقيقة مشاعري. "*قلتُ*، هل التقيتِها يوماً؟".

"حسناً، لا. ولكن، إذا لم تكن كل أولئك النساء يحببنها، فلا بد إذاً من أن تكون... حسناً...". وجرجرَت كلماتها كما لو أنه يؤلمها ما ستقول.

شـــعور بالغثـــيان، اشمئزاز، عدم تصديق، لقد أحاطت كل تلك المـــشاعر بـــي كلفافة لحم مقدّد. ولمنع نفسي من إنهاء تلك الجملة، التفتُّ إلى حوض الغسيل، وجفّفتُ يديّ ضاغطة عليهما بقوة، فآلمتاني. كنت أعلم أنها غبية، ولكنني لم أعرف أبداً أنها منافقة.

"يا ميني؟". قالت الآنسة سيليا من الخلف.

"سيدتي".

وأبقـــت صـــوتها هادئاً، ولكنني سمعتُ الخجل فيه. "حتى إنهنّ لم يوجّهن إليّ الحديث في منـــزل الآنسة ليفولت. لقد جعلنني أقف على الأدراج في الخارج كبائعة مكانس كهربائية".

فاستدرتُ، وكان نظرها موجَّهاً نحو الأرض.

"لماذا، يا ميني؟". همسَت.

مـــا الذي كان في إمكاني أن أقوله؟ ملابسك، شعرك، صدرك. وتذكـــرتُ ما قالته آيبيلين عن الحدود واللطف، وما سمعَته في منـــزل الآنـــسة ليفولت عن سبب عدم محبتهنّ لها. لقد بدا كما لو أنه السبب الأكثر لطفاً الذي يمكنني التفكير فيه.

"لأنهـــنّ عـــرفن بحملك في تلك المرة الأولى. لقد أغضبهنّ ذلك إضافةً إلى زواجك بأحد رجالهنّ".

"هنّ يعرفن ذلك؟".

"ولا ســـيما العلاقة طويلة الأمد التي جمعَت الآنسة هيلي بالسيد جوني".

ونظـــرَت إليّ للحظـــات، طارفـــة عينيها. "قال جوني إنه كان يواعدها، ولكن... هل لمدة طويلة حقاً؟".

وهززت كتفيّ كما لو أنني لا أعرف، ولكنني كنت أعرف كل شـــيء. فعندما بدأتُ العمل لدى الآنسة والترز قبل ثماني سنوات، كل مـــا كانـــت الآنـــسة هيلي تتحدث عنه هو كيف أنها والسيد جوني سيتزوجان يوماً ما.

قلـــت: "أظـــن أنهمـــا قطعـــا علاقتهما ببعضهما بعضاً عندما التقاك".

وكنت أنتظر أن يترك ذلك الأمر أثراً في نفسها، فتعي أن حياتها الاجتماعـــية محكـــوم عليها بالإخفاق، وأن لا معنى للاتصال بسيدات

الرابطة بعد الآن. ولكن الآنسة سيليا بدت كما لو أنها تُجري تحليلاً لما جرى، واتضحت لها الأمور بعد ذلك.

"إذاً، ربما... تظن هيلي أنني كنت أعبث مع جوني بينما كانا لا يزالان على علاقة ببعضهما بعضاً".

"ربمـــا. واستناداً إلى ما سمعتُ، لا تزال الآنسة هيلي متيَّمة به. لم تنـــسه أبداً". وفكّرتُ في أن أي امرأة طبيعية ستحقد على امرأة أخرى تكـــنّ مـــشاعر الحب لزوجها. ولكنني نسيت أن الآنسة سيليا ليست شخصاً طبيعياً.

"حسناً، لا عجب في عدم تحمّلهن رؤيتي!". قالت، مبتسمةً ابتسامة عريضة زائفة: "هنّ لا يكرهنني، بل يكرهن ما يعتقدن أنني قمت به".

"مـــاذا؟ هـــنّ يكـــرهنك لأنهنّ يعتقدن أنك امرأة بيضاء البشرة مبتذَلة!".

"حـــسناً، ســـيكون عليّ شرح الأمر لهيلي، وإعلامها أنني لست سارقة صديقها. في الواقع، سأُخبر هيلي مساء يوم الجمعة عندما ألتقيها في الحفلة الخيرية".

كانـــت تبتـــسم كما لو أنها اكتشفت علاجاً لالتهاب سنجابية الدماغ واستمالة الآنسة هيلي.

فشعرتُ بتعب شديد، وتخلّيتُ عن محاولة إقناعها.

* * *

يوم الجمعة، عملتُ حتى وقت متأخر في تنظيف ذلك المنـــزل من الأعلـــى إلى الأسفل. وقليتُ بعد ذلك طبق لحم. لقد ظننتُ أنه كلما كانـــت الأرضـــيات أكثر لمعاناً، وزجاج النوافذ أكثر نظافة، تعززت فـــرص عودتي إلى العمل يوم الاثنين. ولكن العمل الأكثر ذكاءً الذي كان في إمكاني القيام به، هو تقديم طبق لذيذ إلى السيد جوني.

لم يكـــن يُفتـــرض به العودة إلى المنـــزل حتى السادسة مساءً، لذلك مسحتُ المناضد للمرة الأخيرة عند الرابعة والنصف، وتوجّهت بعد ذلك إلى الناحية الداخلية من المنـــزل حيث تستعدّ الآنسة سيليا للحفلـــة بعـــد أربع ساعات. كنت أحب ترتيب سريرهما وتنظيف حمّامهمـــا قـــبل رحيلي ليبدُوَا نظيفين عندما يعود السيد جوني إلى المنـــزل.

"يـــا آنـــسة سيليا، ماذا يجري هنا؟". أعني أن جوارها كانت متدلية عن الكراسي، وحقائب يدها مُلقاة على الأرض، وكان هناك كـــمّ كـــبير مـــن المجوهـــرات غير الثمينة تكفي عائلة كاملة من الـــساقطات، وخمسة وأربعون حذاء ذات الكعوب العالية، وملابس تحتـــية، ومعاطـــف، وسراويل داخلية، وحمّالات صدر، وزجاجات مليـــئة جـــزئياً بشراب فرنسي أبيض موضوعة مباشرةً على خزانة ملابـــس بـــأدراج مـــن دون أن يوضع تحتها أي شيء لمنع اتساخ الخشب.

وبـــدأتُ بالـــتقاط كل أشيائها الحريرية الغبية، وتكديسها على الكرسي. فأقلّ ما كان في إمكاني القيام به هو تنظيف الأرض بالمكنسة الكهربائية.

"كم الساعة، يا ميني؟". سألت الآنسة سيليا من الحمّام. "سيعود جوني إلى المنـــزل عند السادسة".

"لم تـــصبح الـــساعة الخامسة بعد". قلت: "ولكن عليّ الذهاب قـــريباً". كان عليّ اصطحاب شوغر والذهاب إلى الحفلة عند السادسة والنصف للقيام بالخدمة.

"آه، يا ميني، أشعر بحماسة كبيرة". وسمعتُ صوت حفيف فستان الآنسة سيليا ورائي. "ما رأيك؟".

فاســـتدرتُ. "آه، يا الله". وبدوت مشدوهة بذلك الفستان مثل ســـتيفي واندر الصغيرة. كانت القطع الصغيرة الفضية والزهرية اللون تتلألأ من صدرها الكبير حتى أخمص قدميها.

"يا آنسة سيليا". همستُ: "حاذري أن تفقدي شيئاً ما".

وهزّت الآنسة سيليا فستانها. "أليس رائعاً؟ أليس أجمل شيء رأيتِه يوماً؟ أشعر كما لو أنني نجمة سينمائية في هوليوود".

وطـــرفَت عينـــيها اللـــتين تحمـــلان أهداباً زائفة. كانت تضع مستحـــضراً لـــتحمير الخدود، ومستحضرات تجميل أخرى، ويغطي شعرها المصبوغ بلون باتربانش كل رأسها كقبُّعة إيستر. وتظهر إحدى ســـاقيها خلـــسةً مـــن الشق الطولي العالي الذي يكشف عن فخذها، فأشـــحتُ بنظـــري، مُحرجةً من النظر. فكل ما فيها يوحي بالإثارة، والإثارة، والمزيد من الإثارة.

"من أين حصلتِ على أظافرك؟".

"من بيوتي بوكس في الصباح. آه، يا ميني، أنا شديدة التوتر".

وتـــناولَت جـــرعة كبيرة من كوب الشراب الفرنسي، وترنّحت قليلاً بكعبـــي حذائها العاليين.

"ما الطعام الذي ستتناولينه اليوم؟".

"لا شيء، أنا عصبية المزاج جداً، ولا أريد تناول أي طعام. ماذا عن هذه الأقراط؟ هل هي متدلّية بشكل كافٍ؟".

"اخلعـــي ذلك الفستان. دعيني أُعدّ لكِ بعض الكعكات الطريّة بسرعة".

"آه، لا، لا يمكنني جعل معدتي نائتة. لا يمكنني تناول أي شيء".

وتـــوجّهتُ إلى زجاجـــة الشراب الفرنسي الموضوعة على خزانة الملابـــس والأدراج، ولكن الآنسة سيليا وصلت إليها قبلي، وسكبت

المتبقّـــي في كأســـها، وناولتني الزجاجة الفارغة، وابتسمَت. فالتقطتُ معطف الفراء الذي رمته على الأرض، لقد اعتادت على وجود خادمة لديها.

كنت قد رأيت ذلك الفستان منذ أربعة أيام، وعلمتُ أنه سيلفت الأنظـــار بالطبع، كان عليها اختيار الفستان ذات الحافة المنخفضة عند العُــنُق، ولكـــنني لم أكن أملك أي فكرة عما قد يحدث عندما تحشر نفسها فيه. كانت تبدو فيه كعرنوس ذُرة مطهو بالكريسكو. فلم أرَ في اثنتي عشرة حفلة خيرية مرفقين وصدراً وكتفين تنتأ على ذلك النحو.

ودخلت الحمّام، ووضعت مزيداً من مستحضر تحمير الخدود على وجنتيها المبهرجتين.

"يا آنسة سيليا". قلت، وأغمضتُ عينَيّ، طالبةً من اللّٰه مساعدتي علـــى اختـــيار الكلمـــات المناسبة. "هذا المساء، عندما ترين الآنسة هيلي...".

وابتـــسمَت أمام المرآة. "لقد خططتُ لكل شيء. فعندما يقصد جوني الحمّام، سأقوم بإخبارها أن علاقتهما كانت منتهية عندما بدأت علاقتي بجوني".

وتـــنهّدتُ. "ليس هذا ما أعنيه. قد... قد تقول بعض الأمور... عني".

"تـــريدين مني أن أُخبر هيلي أنك ترسلين إليها التحية؟". قالت، وخـــرجَت مـــن الحمّـــام. "بما أنك عملت كل تلك السنوات لدى والدها؟".

وحـــدّقتُ إلـــيها مرتدية ذلك الفستان زهري اللون المثير، ومنتشية بالشراب الفرنسي لدرجة أنها باتت حولاء تقريباً. وتجشأَت قليلاً. لم تكن هناك أي فائدة من إخبارها بأي شيء في ذلك الحين وهي بتلك الحال.

"لا، يا سيدتي. لا تقولي لها شيئاً". قلتُ، وتنهّدتُ.

فعانقــتني. "أراك هذا المساء. أنا سعيدة جداً بوجودك هناك لأنه سيكون لديّ من أتحدث إليه".

"سأكون في المطبخ، يا آنسة سيليا".

"آه، وسيكون عليّ العثور على تلك الزجاجة التي أجهل اسمها... وترنّحَت فوق خزانة المطبخ، وعبثَت بكل الأشياء التي وضعتُها جانباً.

ابقَي في المنــزل فحسب، أيتها الغبية، هو ما أردت أن أقوله لها، ولكنني لم أفعل. لم تعُد للأمر أي فائدة. فبوجود الآنسة هيلي، لم تعُد للأمر أي فائدة بالنسبة إلى الآنسة سيليا وبالنسبة إليّ أيضاً.

الحفلة الخيرية

الفصل الخامس والعشرون

تُعــرف حفلة الرقص الخيرية السنوية لرابطة راشدات جاكسون باسم *الحفلة الخيرية* ببساطة من قبل كل من يعيش في نطاق عشرة أميال مـــن المدينة. وعند الساعة السابعة من مساء يميل إلى البرودة في تشرين الــثاني/نوفمــبر، يــصل الضيوف إلى مَقصِف فندق روبرت لحضور كوكتيل طوال ساعة من الزمن. وعند الثامنة، تُفتح أبواب القاعة العامة على قاعة الرقص حيث عُلّقت حبال مخملية خضراء حول النوافذ مزيَّنة بباقات من العِنَبية الحقيقية.

وتقــوم على امتداد النوافذ طاولات وُضعت عليها لوائح بالسلع المعروضــة في المــزاد العلــني وبأسعارها. لقد تم وهب السلع من قِبل عــضوات في الــرابطة ومتاجر محلية، وكان من المنتظر أن يحقق المزاد العلــني في ذلك العام أكثر من ستة آلاف دولار، أي أكثر مما حققه في العــام الأســبق بخمسمئة دولار. وتذهب العائدات إلى أطفال أفريقيا المتضوّرين جوعاً.

في وسط القاعة، وتحت ثريّا ضخمة، كانت هناك ثمانٍ وعشرون طاولــة مُعَدّة للعشاء عند التاسعة. وتوجد باحة للرقص ومنصة للجوقة

الموسيقية في أحد جوانب القاعة المقابلة للمنبر حيث ستقوم هيلي هولبروك بإلقاء كلمتها.

وبعد العشاء، تجري حفلة راقصة، فيثمل بعض الرجال، ولكن الزوجات العضوات لا يثملن أبداً. فكل عضوة في الرابطة تعتبر نفسها مضيفة، وتسمعوهنّ يطرحن على بعضهنّ بعضاً السؤال التالي: "هل يسير الأمر بشكل جيد؟ هل قالت هيلي شيئاً؟". فجميعهن يعرفن أنها ليلة هيلي.

عند الساعة السابعة تماماً، بدأ الأزواج بالدخول من الأبواب الأمامية، مسلّمين الفراء والمعاطف إلى رجال ملوّني البشرة يرتدون بذلات الصباح الرمادية. وكانت هيلي، التي وصلت عند الساعة السادسة تماماً، ترتدي فستان تَفتة طويلاً كستنائيّ اللون، والكشاكش تضغط على عُنُقها، والكاتالوغات تغطي جسمها، والكمان الضيقان يغطيان ذراعيها. فأصابعها ووجهها هي الجزء الأصلي لهيلي الذي يمكنكم رؤيته.

وكانت بعض النساء يرتدين فساتين مسائية جذّابة، وترون أكتافاً عارية هنا وهناك، وتضمن قفّازات مصنوعة من جلد الجدي ظهور بوصات قليلة فقط من البشرة. بالطبع، وككل عام، تكشف ضيفة عن ساقها أو عن بعض صدرها. ومع ذلك، لا يمكن التعليق على الأمر لأنهنّ لسن عضوات في الرابطة.

ووصلت سيليا فوت وزوجها عند السابعة وخمس وعشرين دقيقة، متأخرين عن موعدهما الذي خطّطا للوصول فيه. فعندما عاد جوني إلى المنزل من العمل، توقف عند مدخل باب غرفة النوم، ونظر إلى زوجته شذَراً، وكان لا يزال حاملاً حقيبته. "يا سيليا، ألا تعتقدين أن ذلك الفستان قد يكون... أمم... مفتوحاً من الأعلى؟".

فدفعته سيليا باتجاه الحمّام. "آه، يا جوني، أنتم الرجال لا تعرفون شيئاً عن الموضة. الآن، أسرع واستعدّ".

وتخلّى جوني عن الأمر قبل أن يحاول تغيير رأي سيليا. لقد كانا متأخرين عن موعدهما.

لقد دخلا القاعة بعد الطبيب بول وزوجته. واتجه الزوجان بول إلى اليسار، في حين اتجه جوني إلى اليمين وبقيت سيليا واقفة تحت العنَبيات بفستانها زهري اللون المثير والبرّاق.

في غرفة الانتظار، بدا الجوّ هادئاً. كان الأزواج يحتسون الشراب الاسكتلندي برشفات متوسطة وينظرون إلى المرأة زهرية اللون عند الباب. وتطلب الأمر لحظات قليلة لتترسخ الصورة في أذهانهم. كانوا يحدّقون من دون أن يستوعبوا ما يرون. ولكن وجوههم أشعّت ببطء عندما عادوا إلى الواقع ورأوا بشرة حقيقية، وهدة عند الصدر، وربما شعراً أشقر مصبوغاً. كانوا يفكرون جميعاً في الأمر نفسه كما يبدو اخيراً... ولكن جَبهاتهم تغضّنت عندما شعروا بأظافر زوجاتهم المحدّقات أيضاً والمتأبطات أزواجهنّ. لقد بدا الندم في عيونهم، وهزأوا بحياتهم الزوجية (لا تدعني أبداً أقوم بأي عمل مسلٍّ)، وعادوا إلى شبابهم (لماذا لم أذهب إلى كاليفورنيا في ذلك الصيف؟)، وتذكّروا حبهم الأول (روكسان...) لقد حدث كل ذلك في غضون خمس ثوان تقريباً، وعادوا للتحديق.

وأمال وليام هولبروك كأسه المليئة بخليط الشراب، وأراق نصفها على حذائه الجلدي الملتصق بقدمي المساهم الأكبر في حملته.

"آه، يا كليربون، اعذري زوجي الذي يفتقر إلى اللياقة". قالت هيلي: "يا وليام، أعطِه منديلاً!". ولكن أيّاً من الرجلين لم يتحرك، ولم يتعدَّ الأمر تحديق أحدهما إلى الآخر.

فتبعَت عينا هيلي الأنظار المحدّقة، ووقعتا أخيراً على سيليا. لقد أصبحت السنتمترات البادية من بشرتها في العُنُق مشدودة.

"انظر إلى صدر تلك المرأة". قال رجل عجوز. "أشعر لدى النظر إلى هذه الأشياء أنني لست في السادسة والسبعين من عمري".

فتجهّم وجه زوجة العجوز، إليانور كوزويل، وهي مؤسِّسة أصيلة للرابطة. "النهدان". قالت، ووضعت يدها على صدرها وتابعت: "هما لغرف النوم والإرضاع، وليسا للمناسبات المهيبة".

"حسناً، ماذا تريدين منها أن تفعل يا إليانور؟ أتتركهما في المنزل؟".

"أريد منها تغطيتهما حتى الأعلى".

وأمسكَت سيليا ذراع جوني في أثناء توجههما إلى داخل القاعة. كانت تترنّح قليلاً في مشيتها، ولكن هل الشراب هو السبب أم أنّ حذاءها بكعبيه العاليَين هو السبب؟ لم يكن الأمر واضحاً. وطافا المكان، متحدّثَين إلى أزواج آخرين. في الحقيقة كان جوني يتحدث وسيليا تبتسم ليس إلا. لقد احمرّ وجهها مرات قليلة، ونظرت إلى نفسها. "يا جوني، هل تعتقد أنني أرتدي ملابس مفرطة في الأناقة لهذه المناسبة؟ جاء في الدعوة أنه يُفترض بالملابس أن تكون رسمية، ولكن النساء هنا يرتدين ملابس محتشمة جداً".

وابتسم لها جوني بطريقة متعاطفة. فهو لن يقول لها أبداً: "هذا ما قلته لكِ". بل همس عِوَضاً عن ذلك: "تبدين رائعة. ولكن، إذا كنت تشعرين بالبرد، يمكنك وضع سترة عليك".

"لا يمكنني ارتداء سترة رجل على فستان حفلة راقصة". ونظرَت إليه، مقلّبةً عينيها، وتنهّدت. "ولكن شكراً، يا حبيبي".

وضغط جوني على يدها، وأحضر لها كأس شراب أخرى من المقصف، هي الخامسة حتى تلك اللحظة، بالرغم من عدم معرفته

بذلك. "حاولي اتخاذ بعض النساء صديقات لك. سأعود على الفور".
وتوجّه إلى قاعة الرجال.

وتُـــركت سيليا واقفة بمفردها. فسحبت حافة فستانها عند العُنُق نحو الأعلى، وهزّته عند الخصر.

وغـــنّت سيليا لنفسها أغنية ريفية قديمة برِفق: "... *هناك ثقب في الدّلو يا عزيزتي ليزا، يا عزيزتي ليزا*...". ضاربةً الأرض بقدمها، وناظرةً حولها في أرجاء القاعة بحثاً عن شخص ما تعرفه. ووقفت على أطراف أصـــابعها ولـــوّحَت فوق رؤوس الناس المتجمّعين. "هِيه، هيلي، يو - هو".

ورفعـــت هيلي نظرها في أثناء تحدّثها إلى إحداهنّ، ورأت سيليا علـــى بُعـــد زوجين منها. فابتسمَت ولوّحـت بيدها، ولكنها ابتعدت واختلطت بالحشد بينما كانت سيليا تتجه نحوها.

وتـــوقفت سيليا في المكان حيث كانت هيلي موجودة، وتناولت رشـــفة أخرى من كأسها. كانت هناك مجموعات صغيرة ومتراصة من الـــناس حولها يتحدثون عن كل تلك الأمور التي يتناولها الناس في أثناء الحفلات، كما اعتقدَت، ويضحكون.

"آه، هِـــيه، يـــا جوليا". نادت سيليا. كانتا قد التقيتا في إحدى الحفلات القليلة التي حضرها جوني وسيليا منذ تزوّجهما.

فابتسمت جوليا فنواي، وألقت نظرة سريعة على من حولها.

"أنـــا ســـيليا، ســـيليا فوت. كيف حالك؟ آه، كم أحب ذلك الفستان. من أين اشتريته؟ من جويل تايلر شوب؟".

"لا، كنت ووارن في نيو أورليانـــز منذ أشهر قليلة...". ونظرت جولـــيا حـــولها، ولكن لم يكن هناك شخص قريب بما يكفي لإنقاذ نفسها. "وأنت تبدين... فاتنة الليلة".

وانحنت سيليا باتجاهها وقالت: "حسناً، لقد سألتُ جوني، ولكنك تعرفين الرجال جيداً. هل تظنين أنني مفرطة في التأنّق؟".

فضحكت جوليا، ولكنها لم تنظر إلى عيني سيليا أبداً. "آه، لا، لا عيب في *مظهرك*".

وضغطت إحدى زميلات جوليا في الرابطة على ساعدها. "يا جوليا، نحن بحاجة إليك قليلاً، اعذرينا". وابتعدتا، ملقيتين رأس إحداهما على الآخر، وباتت سيليا بمفردها مجدداً.

بعد خمس دقائق، فُتحت أبواب غرفة الطعام واسعاً، وتقدّم الحشد. وعرف الضيوف طاولاتهم بمساعدة بطاقات صغيرة يحملونها بأيديهم، بينما كانت التأوّهات تصدر من طاولات عرض الأسعار الموجودة على امتداد الجدار. كانت مليئة بقِطع فضيّة، وملابس للأطفال مُخاطة باليد، ومناديل قطنية، ومناشف للأيدي طُرِّزت عليها الأحرف الأولى للأسماء، وكان هناك طقم شاي للأطفال مستورَد من ألمانيا.

كانت ميني عند إحدى الطاولات في الناحية الخلفية من القاعة تلمّع الكؤوس. "يا آيبيلين". همسَت: "ها هي".

فرفعت آيبيلين نظرها، وشاهدت المرأة التي قرعت باب منزل الآنسة ليفولت قبل شهر. "من الأفضل للسيدات أن يتمسكن بأزواجهنّ الليلة". قالت.

ومرّرت ميني قطعة القماش على حافة إحدى الكؤوس. "أعلميني إذا رأيتها تتحدث إلى الآنسة هيلي".

"سأفعل. لقد دعوت لأجلك طوال اليوم".

"انظري، ها هي الآنسة والترز، الخفاش المسنّ. وها هي الآنسة سكيتر".

كانت سكيتر ترتدي فستاناً مخملياً أسود، طويل الكمين، محفوراً عـــند العُـــنُق، شعرها أشقر، وتضع أحمر شفاه. لقد قدمت بمفردها، ووقفَـــت في فـــسحة فارغة. فألقت نظرة شاملة على الغرفة، وبدت سئمة، ورأت بعد ذلك آيبيلين وميني. فأشاحت ثلاثتهنّ بنظرهنّ على الفور.

وتـــوجهت إحدى عاملات المنـــزل ملونات البشرة، كلارا، إلى طاولـــتهما، وتـــناولت كأساً. "يا آيبيلين". همسَت، مُبقيةً نظرها على عملية التلميع. "هل تلك هي المرأة؟".

"أي امرأة؟".

"تلـــك التي تدوّن قصصاً عن عاملات المنـــزل ملونات البشرة. لمـــاذا تقـــوم بـــذلك؟ لماذا هي مهتمة بالأمر؟ لقد سمعتُ أنها تأتي إلى منـــزلك كل أسبوع".

فأنـــزلَت آيبيلين ذقنها. "انظري، علينا أن نُبقي الأمر سرّاً".

وأشاحت ميني بنظرها. لا يعلم أحد من المجموعة أنها مشاركة في هذا الأمر. هنّ على عِلم بآيبيلين فحسب.

وأومأت كلارا برأسها. "لا تقلقي، لن أخبر أحداً بأي شيء".

ودوّنـــت ســـكيتر كلمات قليلة على دفترها، ملاحظات لمقالة عن الحفلـــة الخيرية تُنشَر في النشرة الدَّورية. ونظرت إلى أرجاء الغرفة، متأمّلةً الحـــبال المخملـــية الخضراء، والعنبيات، والورود، وأوراق المغنوليا المجفَّفة الموضـــوعة على وسط كل طاولة. واستقرّ نظرها على إليزابيت الموجودة علـــى بُعـــد أقدام قليلة وهي تنقّب في حقيبة يدها. لقد بدت مُرهَقة بعد إنجـــاب طفلـــها قبل شهر فقط. وشاهدت سكيتر سيليا فوت تقترب من إليـــزابيت. وعندما رفعت إليزابيت نظرها ورأت من يتجه نحوها، بدأت تسعل، ووضعت يدها على حلقها كما لو أنها تحمي نفسها من هجمة ما.

"لست واثقة من وُجهتي، يا إليزابيت؟". سألت سكيتر.

"ماذا؟ آه، يا سكيتر، كيف حالك؟". وأطلقت إليزابيت ابتسامة سريعة وواسعة. "كنت... أشعر بالحرارة هنا. أعتقد أنني بحاجة إلى هواء نقيّ".

وراقبت سكيتر إليزابيت تغادر مُسرعة وتتبعها سيليا فوت مصدرة صوتاً بفستانها المريع. *إنها القصة الواقعية*، قالت سكيتر لنفسها. *ليس تنسيق الزهور أو عدد الثنايا في الناحية الخلفية من فستان هيلي. هذا العام، سيكون الحدث موضة سيليا فوت الكارثية.*

بعد لحظات، أُعلن عن موعد العشاء وجلس الجميع على المقاعد المخصصة لهم. وجلست سيليا وجوني مع عدد قليل من الأزواج من خارج المدينة، أصدقاء أصدقاء ليسوا في الواقع أصدقاء أحد. وجلست سكيتر مع عدد قليل من الأزواج المحليين، ولكن ليس مع هيلي الرئيسة، أو أمينة السر في ذلك العام، إليزابيت. كانت القاعة مليئة بالثرثرة، وبإطراء على الحفلة والشاتوبريون. وبعد الطبق الرئيس، وقفت هيلي وراء المنبر، وحدثت جولة من التصفيق، وابتسمت هيلي للحاضرين.

"مساء الخير، أشكركم كلكم بسبب مجيئكم الليلة. هل يستمتع الجميع بعشائهم؟".

وظهرت إيماءات بالرؤوس تعبيراً عن الرِّضى.

"قبل أن نبدأ بالبلاغات، أودّ شكر الأشخاص الذين يُنجحون هذه الليلة". ومن دون إشاحة نظرها عن الحاضرين، أومأت هيلي إلى يسارها حيث اصطفت اثنتا عشرة عاملة منزل ملوّنة البشرة بملابسهنّ الرسمية البيضاء، ووقف وراءهنّ اثنا عشر رجلاً من ملوَّني البشرة يرتدون التوكسيدو الرمادية والبيضاء.

"لنصفّق لعاملات المنزل ولكل الطعام الرائع الذي طهونه وقدّمنَه، ولأطباق التحلية التي أعددنها لمناسبة المزاد العلني". عندها، التقطت هيلي بطاقة وقرأت، "بطريقتهنّ الخاصة، هنّ يساعدن الرابطة على بلوغ هدفها المتمثل بإطعام أطفال أفريقيا المتضوّرين جوعاً، وأنا على ثقة تامة أنه أمر عزيز على قلوبهنّ أيضاً".

وصفّق ذوو البشرة البيضاء للخادمات والخدّام، وابتسم بعض الخدّام، ولكن العديد منهم كانوا يحدّقون إلى الفضاء فوق رؤوس الحشد.

"نودّ بالتالي شكر تلك غير المنتسبات إلى عضوية الرابطة في هذه الغرفة اللواتي خصصن وقتهنّ ومساعدتهنّ، لأنهن جعلن مهمتنا أكثر سهولة".

وجرى تصفيق خفيف، وشوهدت بعض الابتسامات الفاترة وإيماءات رؤوس وسط العضوات وغير العضوات. *يا للأسف*، كانت تقول العضوات لأنفسهنّ كما يبدو. *يا للعار لأنكنّ لم تتمتعن أيتها الفتيات بالكياسة الضرورية للانضمام إلى نادينا*. وأكملت هيلي شاكرةً بصوت وطني موسيقي. وقُدّمت القهوة، وشرب الأزواج أكوابهم، ولكن معظم النساء كنّ مأخوذات بهيلي. "... شكراً لبون هاردوير... دعونا لا ننسى متجر بن فرانكلين للسلع الرخيصة...". واختتمت اللائحة بقولها: "وبالطبع نشكر المساهم مجهول الاسم لما قدّمه من تجهيزات لمبادرة تعزيز الصحة المنزلية".

وضحك قليل من الأشخاص بعصبية، ولكن معظمهم أداروا رؤوسهم للتحقق مما إذا كانت سكيتر تملك الجرأة الكافية للظهور.

"بدلاً من الشعور بالخجل، أودّ أن تصعد وتقبل امتناننا. صدقاً، لما تمكنّا من تحقيق العديد من الأمور من دونك".

وأبقت سكيتر أنظارها على المنبر بوجه هادئ غير متأثر. وأطلقت هيلي ابتسامة سريعة ومُشرقة. "وأخيراً، أوجّه شكراً خاصاً لزوجي، ولـيام هولبروك، الذي قدّم جائزة يمضي بموجبها الفائز نهاية أسبوع في معسكره الخاص لصيد الأيائل". وابتسمت لزوجها، وأضافت بنبرة أكثر انخفاضاً: "ولا تنسوا أيها الناخبون الاقتراع لهولبروك سيناتوراً للولاية".

وضحك الضيوف بوِدّ لإعلان هيلي.

"ماذا، يا فرجينيا؟". ووضعت هيلي يدَها على أُذُنها لتسمع بشكل أفضل. "لا، أنا لا أخوض الانتخابات معه. ولكن أعضاء الكونغرس موجودون معنا الليلة، وإذا لم تعدّلي موقفك من المدارس المنفصلة، لا تعتقدي أنني لن أقصدك وأقوم بالأمر بنفسي".

وكان هناك مزيد من الضحك. فأومأ السيناتور والسيدة ويتوورث الجالسان إلى طاولة في الناحية الأمامية برأسيهما وابتسما. ووجّهت سكيتر الجالسة إلى طاولتها في الناحية الخلفية نظرها إلى حضنها. كانا قد تبادلا الحديث في وقت مبكّر في أثناء ساعة الكوكتيل، ولكن السيدة ويتوورث اقتادت السيناتور بعيداً عن سكيتر قبل أن يتمكن من معانقتها مجدداً. ولم يأتِ ستيوارت.

بعد انتهاء العشاء والخطاب، نهض الناس للرقص، وتوجّه الأزواج إلى المقِصف، وأسرع آخرون إلى طاولة المزاد العلني لمزايدات الدقيقة الأخيرة. كانت هناك جدّتان تخوضان حرب مزايدات على طقم شاي قديم العهد خاص بالأطفال. لقد أطلق أحدهم شائعة تقول إن ذلك الطقم يخصّ عائلة مالكة، وقد هُرِّب على متن عربة نقل يجرّها حمار إلى خارج ألمانيا حتى وصل في النهاية إلى متجر مغنوليا للسلع قديمة العهد في شارع فيرفيو ستريت. فارتفع السعر من خمسة عشر دولاراً إلى خمسة وثمانين دولاراً بلحظات.

في الزاوية القائمة بجانب المقصف، كان جوني يتثاءب وكان جبين سيليا متغضناً. "لا يمكنني أن أصدّق ما قالته عن غير العضوات اللواتي يقدمن المساعدة. قالت لي إهنّ لسنَ بحاجة إلى أي مساعدة هذا العام".

"حسناً، يمكنك تقديم المساعدة في العام التالي". قال جوني.

ورأت سيليا هيلي التي كانت مُحاطة في ذلك الوقت بعدد قليل من الأشخاص.

"يا جوني، سأعود". قالت سيليا.

"وبعد ذلك، دعينا نخرج من هنا. لقد سئمتُ بذلة القرد هذه".

وضرب ريتشارد كروس، وهو عضو في معسكر جوني لصيد البط، بيده على ظهر جوني. لقد قالا أمراً ما، ومن ثم ضحكا. ومرّرا نظريهما على الحشد.

وكادت سيليا هذه المرة تتمكن من التحدث إلى هيلي لولا قيام هذه الأخيرة بالانسلال وراء المنبر. وعادت سيليا كما لو أنها تخشى الاقتراب من هيلي التي بدت قوية جداً قبل دقائق قليلة.

وبتواري سيليا عن الأنظار في غرفة السيدات، توجهت هيلي إلى الزاوية.

"يا جوني فوت". قالت هيلي. "لقد تفاجأت برؤيتك هنا. الكل يعرفون أنه لا يمكنك تحمّل حفلات كبيرة كهذه". وضغطت على ذراعه.

فتنهّد جوني. "هل تعرفين أن موسم الظّباء يُفتتح غداً؟".

ووجّهت إليه هيلي ابتسامة بأحمر شفاه خرّوبيّ اللون. فاللون يتلاءم تماماً مع فستانها. لا بد من أنها بحثت عنه طوال أيام.

"أنا مُرهَقة من سماع ذلك من الجميع. يمكنك تفويت يوم واحد من موسم الصيد، يا جوني فوت. كنت تقوم بذلك لأجلي".

وقلّب جوني عينيه. "لما فوّتت سيليا هذا الأمر مقابل أي شيء".

"أيـــن زوجتك تلك؟". سألَت. وشدّت على ذراعه. "ليست في لعبة أل أس يو تقدّم النقانق الساخنة، أليس كذلك؟".

وعبس جوني في وجهها. كان قد التقى سيليا في ذلك المكان.

"آه، أنت تعلم أنني أغيظك. لقد تواعدنا طوال مدة كافية تمكّنني من القيام بذلك، أليس كذلك؟".

وقبل أن يتمكن جوني من الإجابة، ربّت أحدهم على كتف هيلي التي توجهت إلى الزوج التالي، ضاحكة. وتنهّد جوني عندما رأى سيليا قادمـــة نحـــوه. "جيد". قال لريتشارد: "يمكننا الذهاب إلى المنـــزل. سأُسرع في الذهاب". ونظر إلى ساعته قائلاً: "خمس ساعات".

واســـتمر ريتشارد في التحديق إلى سيليا في أثناء توجهها إليهما بخطـــى واســـعة. فتوقفت وانحنت لالتقاط منديلها عن الأرض، مقدّمةً مشهداً سخيّاً لصدرها. "الانتقال من هيلي إلى سيليا كان نقلة نوعية، يا جوني".

فهز جوني رأسه. "كما لو أنني كنت أعيش في الأنتاركتيكا طوال حياتي، وانتقلتُ صباح ذات يوم إلى هاواي".

وضـــحك ريتشارد قائلاً: "كمن يذهب إلى السرير في كلية من الكليات المحافظة ويستيقظ في أولي ميس". وضحك الاثنان.

بعد ذلك، أضاف ريتشارد بصوت أكثر انخفاضاً: "كفتى يتناول المثلجات للمرة الأولى في حياته".

فرمقه جوني بنظرة. "أنت تتحدث عن زوجتي".

"آســـف، يا جوني". قال ريتشارد، ونظر إلى الأسفل. "لم أقصد الإساءة".

ووصلت سيليا، وتنهدت بابتسامة مُحبَطة.

"مـــرحباً، يا سيليا، كيف حالك؟". سأل ريتشارد وتابع: "تبدين جميلة الليلة".

"شكراً، يا ريتشارد". وأصابت الحازوقة سيليا التي قطّبت جبينها وغطّت فمها بمنديل ورقي.

"هل أنت ثملة؟". سأل جوني.

"هي تمرح فحسب، أليس كذلك، يا سيليا؟". قال ريتشارد. "في الواقع، سأُحضر لك شراباً ستحبّينه كثيراً".

وقلّب جوني عينيه لصديقه. "ونذهب إلى المنـــزل بعد ذلك".

وتم تناول ثلاث كؤوس من الشراب، وأُعلن عن الفائزين في المزاد العلـــني الـــصامت. فوقفت سوزي برنيل وراء المِنبر بينما كان الناس يحرّكون كؤوسهم أو يدخّنون وهم جالسون إلى طاولاتهم، أو يرقصون علـــى أغـــاني لِن ميلر وفرانكي فالي، أو يتحدثون بالرغم من ضجيج الميكـــروفون. وفي أثناء تلاوة الأسماء، تسلّم الفائزون السلع بحماسة من فـــاز بمسابقة حقيقية، وكما لو أن الغنيمة كانت مجانية ولم يُدفع ثمنها ثلاثـــة، أربعـــة، أو خمسة أضعاف ثمنها في المتجر. وحققت شراشف المائدة وقمصان النوم التي تحتوي على أربطة تُعْقَد باليد أسعاراً مرتفعة. وشـــهدت أواني المائدة المصنوعة من الفضة الخالصة رواجاً كبيراً، ولا سيما تلك التي تُستخدَم لنقل البَيض كثير التوابل، وإزالة الجبن المفلفل عـــن حـــبوب الزيتون، وقطع سيقان السُّماني. وحان وقت التحلية، كاتوه، شرائح البرالين، قشدية، وبالطبع، فطيرة ميني.

"... والفائـــزة بفطـــيرة مـــيني جاكسون المصنوعة من الكسترد بالشوكولا وذات الشهرة العالمية هي... هيلي هولبروك!".

وكان هناك تصفيق أقل، ليس لأن ميني تشتهر بأطباقها، بل لأن اسم *هيلي* يثير موجة من التصفيق في أي مناسبة.

وأوقفت هيلي حديثها. "ماذا؟ هل كان ذلك اسمي؟ لم أزايد على أي شيء".

لم تـــزايد على أي شيء، قالت سكيتر لنفسها، وكانت جالسة بمفردها إلى طاولة بعيدة.

"يـــا هيلي، لقد فزتِ للتوّ بفطيرة ميني جاكسون! أهنّئك". قالت المرأة بجانبها.

وجالت أنظار هيلي على الموجودين في القاعة، مضيّقةً عينيها.

وبـــسماع اسمها واسم هيلي في جملة واحدة، التزمت ميني الحذر الشديد على الفور. كانت تحمل كوب قهوة متسخاً بيد، وصينيّة فضية ثقيلة باليد الأخرى. ولكنها تسمّرت في مكانها.

ورأتهـــا هيلـــي، ولكـــنها لم تتحرك كذلك، بل ابتسمت قليلاً. "حسناً. ألم يكن ذلك لطيفاً؟ لا بد من أن أحدهم أدرج اسمي في المزاد العلني الخاص بتلك الفطيرة".

ولم تـــرفع نظرها عن ميني. كان في استطاعة ميني الشعور بذلك، فكـــوّمت بقية الأكواب على الصينية، وتوجهت إلى المطبخ بأسرع ما يمكن.

"أهنّـــئك، يا هيلي. لم أكن أعلم أنك من مُحبّي فطائر ميني!". قالت سيليا بصوت مرتفع. كانت قد قدِمت إليها من الخلف من دون أن تلاحظ ذلك. وفي أثناء توجهها إليها، تعثّرت سيليا بقائمة كرسي، فقهقه الحاضرون.

وتـــسمّرت هيلـــي في مكانها، مراقبةً اقترابها. "يا سيليا، هل هذه دُعابة؟".

واقتـــربت سكيتر أيضاً. كانت تشعر بملل كبير بسبب الأحداث التي يمكن التوقع بها في تلك الأمسية، ومُرهَقة من رؤية وجوه مُحرَجة

لـــصديقات قديمات يشعرن بخوف كبير من الاقتراب منها والتحدث إليها. فسيليا هي الأمر الوحيد المثير للاهتمام الذي حدث طوال الليل.

"يا هيلي". قالت سيليا، ممسكةً ذراع هيلي: "حاولت طوال الليل الــتحدث إلــيك. أظـــن أن هـــناك سوء فهم بيننا، وأعتقد أنني إذا شرحتُ...".

"مـــاذا فعلـــتِ؟ دعيني أذهب...". قالت هيلي، صارفةً أسنانها. وهزّت رأسها، وحاولت الابتعاد.

ولكـــن سيليا أمسكت بكمّ هيلي الطويل. "لا، انتظري! تريّثي قليلاً، عليك أن تصغي...".

وسحبت هيلي ذراعها، ولكن سيليا لم تُفلتها. لقد مرّتا بلحظات عـــزم وتـــصميم، تحاول فيها هيلي الفرار وسيليا تُمسك بها، وسُمع صوت تمزّق.

وحـــدّقت سيليا إلى المادة الحمراء بين أصابعها. لقد مزّقت طرف الكمّ خروبـــي اللون لفستان هيلي.

فنظـــرت هيلي إلى الأسفل، ولمست رسغها التي باتت مكشوفة. "مـــاذا تحـــاولين أن تفعلي بـــي؟". قالت، مزمجرة. "هل تلك الزنجية حرّضـــتك على القيام بذلك؟ أيّاً يكن ما قالته لك، وأيّاً تكن الثرثرات التي تفوّهتِ بها هنا لأي شخص -".

وتجمّع مزيد من الأشخاص حولهما، مستمعين، وناظرين إلى هيلي بوجوه متجهّمة وقلقة.

"ثرثرتُ! لا علِم لي بما -".

وأمسكت هيلي ذراع سيليا. "من أخبرتِ؟". صاحت، غاضبة.

"لقـــد قالت لي ميني. أعرف لماذا لا تريدين أن نكون صديقتين".

وعـــلا صوت سوزي برنيل على الميكروفون، مُعلنةً أسماء الفائزين، مما

حمــل ســيليا على رفع صوتها. "أعلم أنك تعتقدين أنني وجوني غدرنا بــك". صاحت، وسُمع ضحك من الناحية الأمامية من القاعة بسبب بعــض التعليقات، وحدث مزيد من التصفيق. وحالما وضعت سوزي بــرنيل الميكروفون للنظر إلى ملاحظاتها، صرخت سيليا: "... ولكنني أصبحت حاملاً *بعد* أن قطعتما علاقتكما". وتردد صدى الكلمات في القاعة، وساد الهدوء طوال ثوانٍ قليلة.

وغضّنت النساء المحيطات بهما أنوفهنّ، وبدأت بعضهنّ بالضحك.

"زوجة جوني ث – م – ل – ة". قالت إحداهنّ.

فنظــرت سيليا حولها، ومسحت العرق المتقطّر على جبينها. "لا ألــومك على عدم محبتك لي، لا سيّما وأنك تظنين أن جوني خدعك برفقتي".

"ما كان جوني لـــ –".

"– وآســفة لقــول ذلك، أعتقد أنك كنت متلهّفة للفوز بتلك الفطيرة".

وانحنت هيلي، وانتزعت زر اللؤلؤ عن الأرض، وانحنت نحو سيليا بطريقة لا تسمح لأحد بسماع ما تقول. "أخبري تلك الخادمة الزنجية أنني سأجعلها تعاني الأمرَّين إذا أخبرَت أحداً عن تلك الفطيرة. تعتقدين أنك ظريفة جداً بإشراكي في ذلك المزاد العلني، أليس كذلك؟ تعتقدين أن في استطاعتك شق طريقك إلى الرابطة من خلال الابتزاز؟".

"ماذا؟".

"أخبريني الآن على الفور، من أخبرتِ أيضاً عن –".

"لم أُخبر أحداً أي شيء عن أي فطيرة، لقد –".

"أيــتها *الكاذبــة*". قالت هيلي، ولكنها وقفت بشكل مستقيم وابتسمت. "يا جوني، يا جوني، أظن أن زوجتك بحاجة إلى *عنايتك*".

ونظرت هيلي بعينين غاضبتين إلى النساء حولها كما لو أهنّ مشاركات في الدُّعابة.

"يا سيليا، ما الخطب؟". قال جوني.

فعبست سيليا به، ومن ثم عبست بهيلي. "لا تتكلم بشكل منطقي، لقد نعتتني بالكاذبة، وهي الآن تتهمني بوضع اسمها للمشاركة في ذلك المزاد العلني المتعلق بتلك الفطيرة، و...". توقفت سيليا، ونظرت حولها كما لو أن أحداً غير موجود هناك. وترقرقت عيناها بالدموع، وتأوّهت، وشعرت بتشنّجات، وتقيأت على السجادة.

"آه تبّاً!". قال جوني، وسحبها إلى الوراء.

فأزاحت سيليا ذراع جوني عنها، وركضت إلى الحمّام، وتبعها.

كانت هيلي تُطبق قبضتيها، ووجهها قرمزيّ اللون على غرار لون فستانها تقريباً. فابتعدت قليلاً وأمسكت ذراع نادل. "نظّفوا المكان قبل أن تفوح الرائحة".

بعد ذلك، أحاطت النساء بهيلي بوجوه متجهّمة، طارحات أسئلة، وأذرعتهنّ ممدودة كما لو أهنّ يحاولن حمايتها.

"سمعتُ أن سيليا تعاقر الشراب، ولكن مسألة الكذب الآن؟". قالت هيلي لإحدى النساء الثرثارات بهدف إطلاق شائعة عن ميني تدحض قصة الفطيرة إذا ما انتشرت. "ماذا يدعون تلك المرأة؟".

"كاذبة لا تستطيع الامتناع عن الكذب؟".

"هذه هي التسمية، كاذبة لا تستطيع الامتناع عن الكذب". وابتعدت هيلي مع بعض النساء. "لقد نصبت له سيليا شركاً للزواج به، مُخبرةً إيّاه أنها حامل. أعتقد أنها كاذبة لا تستطيع الامتناع عن الكذب مذاك الحين".

بعـــد مغـــادرة ســـيليا وجوني، انتهت الحفلة بسرعة. لقد بدت الزوجات العضوات مُرهَقات من كثرة الابتسام. وتناول الحديث المزادَ العلـــني، ومغادرةَ حاضنات الأطفال إلى منازلهنّ، ولا سيما تقيّؤ سيليا فوت وسط كل ذلك.

وعـــندما غدت القاعة شبه فارغة في منتصف الليل، وقفت هيلي وراء المنـــبر، وقلّـــبت أوراق المـــزاد العلـــني الصامت. كانت شفتاها تتحـــركان في أثناء إجراء عملية الاحتساب، ولكنها استمرت في رفع نظـــرها، هـــازّةً رأسها. وكان عليها إعادة عملية الاحتساب، مُطلقةً الشتائم.

"يا هيلي، أنت متوجهة إلى منـــزلك".

فرفعت هيلي نظرها، ورأت والدها السيدة والترز التي بدت أكثر وَهَناً من المعتاد بلباسها الرسمي. كانت ترتدي فستاناً ممتداً حتى الأرض بلـــون أزرق سمـــاوي ومزركشاً بالخرَز، يعود تاريخه إلى العام 1943، وتـــتهدّل زهرة أوركيديا عند عظمة التَّرقوة. وكانت هناك امرأة ملوّنة البشرة بلباس رسمي أبيض بجانبها.

"يـــا أمي، لا تدخلي ذلك البرّاد الليلة. لا أريد أن أبقى مستيقظة طوال الليل بسبب شعورك بعسر الهضم. اذهبـــي إلى السرير مباشرةً، هل سمعت؟".

"ألا يمكنني الحصول على قطعة من فطيرة ميني أيضاً؟".

فنظرت هيلي إلى والدها، مضيّقةً عينيها. "أصبحت تلك الفطيرة في القُمامة".

"حسناً، لماذا رميتها؟ لقد فزتُ بها من أجلك".

وتـــسمّرت هيلي في مكانها للحظات، محاولةً استيعاب ما جرى.

"*أنت!* أأنت التي أضفتِ اسمي إلى لائحة المشاركين في المزاد العلني؟".

"قد لا أتذكر اسمي أو البلد الذي أعيش فيه، ولكن حادثة الفطيرة أمر لن أنساه أبداً".

"يـــا لك من مسنّة عديمة النفع...". قالت هيلي، ورمت الأوراق التي كانت تحملها، مبعثرةً إيّاها في كل مكان.

واستدارت السيدة والترز، واتجهت نحو الباب بمشية عرجاء وهي في عُهـــدة ممرضة ملوّنة البشرة. "حسناً، اتصلي بالصحف، يا بيسي". قالت: "جُنّ جنون ابنتي مجدداً".

مينى

الفصل السادس والعشرون

في صـــباح يـــوم السبت، استيقظتُ مُتعَبة ومُصابة بألم. فدخلتُ المطبخ حيث كانت شوغر تعُدّ دولاراها التسعة والخمسين سنتاً، وهو المـــبلغ الذي كسبته في الحفلة الخيرية مساء اليوم السابق. ورنّ الهاتف، فوصـــلت إليه شوغر بسرعة أكبر من سرعة نار مُستعرة. كان لشوغر صديق، و لم تشأ أن تعرف والدها بذلك.

"أجل، يا سيدي". همست شوغر وسلّمتني الهاتف.

"آلو؟". قلت.

"جوني فوت يتكلم". قال. "أنا في معسكر صيد الأيائل، ولكنني أريـــد أن أُعلمك فقط أن سيليا تشعر باستياء كبير. لقد مرّت بوقت عصيب في الحفلة ليلة أمس".

"أجل يا سيدي، أعرف ذلك".

"هـــل سمعـــتِ، إذاً؟". وتـــنهّد. "حسناً، أبقي نظرك عليها في الأســـبوع القـــادم، هلاّ فعلتِ، يا ميني؟ أكون قد ذهبتُ إلى العمل لا أعلم. اتصلي بـــي فحسب إذا لم تستعد عافيتها. سأعود إلى المنـــزل باكراً إذا اضطُرني الأمر إلى ذلك".

"سأعتني بها. ستكون بخير".

لم أرَ ما حدث في الحفلة، ولكن بلغني ما جرى بينما كنت أنظف الصحون في المطبخ. كان كل الخدّام يتحدثون عن الأمر.

"هل رأيتِ ذلك؟". كانت فارينا قد قالت لي. "السيدة زهرية اللون التي تعملين لديها ثملة جداً".

فرفعتُ نظري عن حوض الغسيل ورأيت شوغر قادمة نحوي ويدها على شفتها. "أجل، يا أمي، لقد تقيّأت على الأرض، وكل من في الحفلة رأوا ذلك!". واستدارت شوغر، وضحكت مع الأخريات. ولكنها لم ترَ الصفعة متّجهة إليها، وتطايرت رغوة الصابون في الهواء.

"أغلقي فمك، يا شوغر". ودفعتُها إلى الزاوية. "لا تدعيني أبداً أسمعك تتحدثين بالسوء عن السيدة التي تُطعمك، وتكسوك! هل سمعتني؟".

فأومأت شوغر برأسها، وعدتُ إلى أطباقي، ولكنني سمعتها تتذمّر. "تقومين بذلك طوال الوقت".

فاستدرتُ بسرعة ووضعتُ إصبعي على وجهها. "يحقّ لي ذلك لأنني أعمل كل يوم لدى تلك المرأة المجنونة".

عندما ذهبتُ إلى العمل يوم الاثنين، كانت الآنسة سيليا لا تزال مستلقية على السرير، داسّةً وجهها تحت الملاءات.

"صباح الخير، يا آنسة سيليا".

ولكنها استدارت إلى الناحية الأخرى و لم تنظر إليّ.

عند وقت الغداء، حملتُ لها صينية شطائر لحم.

"لست جائعة". قالت، ورمت الوسادة على رأسها.

فوقفتُ هناك أنظر إليها محنَّطةً بالملاءات.

"ماذا ستفعلين، هل ستستلقين هناك طوال اليوم؟". سألتُ، علماً أنني رأيتها تقوم بذلك مرات عدة من قبل. لم تكن هناك أي مادة لزجة على بشرتها، أو أي ابتسامة على وجهها.

"رجاءً، دعيني بمفردي فحسب".

وبدأتُ أقول لها إنها بحاجة إلى النهوض من سريرها، وارتداء ملابسها المبهرَجة، ونسيان ما جرى، ولكنني توقفتُ عن الكلام بسبب كيفية استلقائها هناك بطريقة يرثى لها. فأنا لست طبيبتها النفسية، ولا تدفع لي أجراً لأكون كذلك.

في صباح يوم الثلاثاء، كانت الآنسة سيليا لا تزال على السرير بقميص نومها الزرقاء التي أحضرتها معها من مقاطعة تونيكا كما يبدو، وكان الكشكش المخطَّط ممزقاً عند العُنُق. كان هناك ما يشبه بُقع فحم خشبي من الأمام. لقد بقيت صينية الغداء على الأرض منذ اليوم السابق من دون أن يُمَسّ الطعام.

"هيا، دعيني أبدّل الملاءات. لن تصدّقي ما فعلته تلك المخبولة جوليا يوم أمس بالطبيب بيغماوث".

ولكنها بقيت مستلقية هناك.

وفي وقت لاحق، أحضرت لها صينية يوجد عليها طبق يخنة دجاج، علماً أن ما أردت القيام به حقاً هو الطلب من الآنسة سيليا استجماع قواها والانتقال إلى المطبخ لتناول الطعام بشكل ملائم.

"يا آنسة سيليا، أعرف أن ما حدث في الحفلة الخيرية أمر مروّع. ولكن، لا يمكنك الجلوس هنا إلى الأبد وأنت تشعرين بالأسى على نفسك".

فنهضت الآنسة سيليا ودخلت الحمام، وأقفلت على نفسها.

وبــدأتُ بتجــريد السرير من كل ملاءة وغطاء. وعندما أنهيت ذلــك، التقطتُ كل المناديل الورقية المبلّلة وكوباً عن منصة الشراب، ورأيــت كدســة من البريد. لقد ذهبت المرأة على الأقل إلى صندوق الــبريد. فرفعتُ تلك الكدسة لمسح الطاولة ورأيت على أعلى إحدى الــبطاقات حروف إيتش دبليو إيتش. فقرأتُ محتوى البطاقة على الفور من دون أن أعرف اسم المرسل:

عزيزتي سيليا

بدلاً من التعويض عليّ بثمن الفستان الذي مزّقته، يسعدنا، نحن في الــرابطة، أن نتلقى منحة لا تقلّ عن مئتي دولار. إضافةً إلى ذلك، نرجو منك الامتناع عن التطوع للقيام بأي نشاطات لصالح الرابطة فــي المستقبل، كما وأن اسمك وُضع على لائحة المراقبة. نقدّر لك تعاونك في هذه المسألة.

من فضلك، حرّري الشيك باسم مجلس رابطة جاكسون.

بإخلاص،
هيلي هولبروك،
الرئيسة ورئيسة مجلس إدارة المخصصات.

صــباح يوم الأربعاء، كانت الآنسة سيليا لا تزال تحت الأغطية. فأنجــزتُ عملــي في المطبخ، وحاولتُ تقدير أهمية عدم وجودها معي هــناك. ولكــنني لم أتمكن من الاستمتاع بالأمر لأن الهاتف كان يرنّ طوال الصباح، ولم تقم الآنسة سيليا بالرد على الاتصالات وذلك للمرة الأولى مــنذ أن بدأت العمل لديها. وبعد المرة العاشرة، لم أعُد أستطيع الاستماع إلى رنينه، فالتقطتُ السمّاعة وقلت *آلو*.

وذهــبتُ إلى غــرفة نــومها وقلــت لها: "السيد جوني على الهاتف".

"ماذا؟ لا يُفترض به أن يعرف أنني أعرف أنه على عِلم بشأنك".

فأطلقـــتُ تنهيدة كبيرة لأُظهر لها أنني غير مستعدة للاستمرار في تلك الكذبة. "لقد اتصل بـــي في منـــزلي. انتهت اللعبة يا آنسة سيليا".

وأغمضت الآنسة سيليا عينيها وقالت: "قولي له إنني نائمة".

فالتقطتُ هاتف غرفة النوم، ونظرتُ إلى الآنسة سيليا، مستنكرة، وقلت له إنها في حوض الاستحمام.

"أجل يا سيدي، هي بخير". قلت، ونظرتُ إليها مضيّقةً عينيّ.

وأنهيت المكالمة الهاتفية، وحملقتُ بها.

"يريد أن يعرف ماذا تفعلين".

"لقد سمعتُ".

"لقد كذبتُ إكراماً لك، تعرفين ذلك".

وأعادت وضع الوسادة فوق رأسها.

لم أعـــد قادرة على احتمال الأمر في فترة بعد ظهر اليوم التالي. فالآنـــسة ســـيليا كانت لا تزال في المكان نفسه طوال أسبوع، وغدا وجهها نحيلاً، وشعرها زيتيّ المظهر، وبدأت رائحة الأشخاص القذرين تفوح من الغرفة أيضاً. لقد راهنتُ على أنها لم تستحمّ منذ يوم الجمعة.

"يا آنسة سيليا". قلت.

فنظرت إليّ من دون أن تبتسم أو تتكلم.

"سيعود السيد جوني إلى المنـــزل مساءً، ولقد أخبرته أنني سأعتني بـــك. ما الذي سيظنّه إذا رآك مستلقية بقميص نومك القديمة والقذرة التي ترتدينها؟".

وسمعـــت الآنـــسة سيليا تشهق، وتطلق بعد ذلك العَنان لبكائها.

"لَمـــا حدث أي من ذلك لو بقيت في المكان الذي أنتمي إليه. لَتزوّج بالمرأة الملائمة له. لَتزوّج ب... *هيلي*".

"هيا يا آنسة سيليا. ليس...".

"إن نظرة هيلي إليّ... كما لو أنني نكرة، كما لو أنني نفاية على جانب الطريق".

"ولكـــن، لا أهمـــية للآنسة هيلي. لا يمكنك الحكم على نفسك انطلاقاً من نظرة تلك المرأة إليك".

"لستُ مناسبة لهذا النوع من الحياة. لست بحاجة إلى الجلوس إلى طاولـــة عـــشاء تتـــسع لاثني عشر شخصاً. لا أستطيع حمل اثني عشر شخصاً على القدوم حتى ولو توسلتُهم".

فهززت رأسي لأن تذمّراها لا تنتهي.

"لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟ هي لا تعرفني". قالت الآنسة سيليا، وبكت. "ونعتتني بالكاذبة أيضاً، واهمتني أنني من فاز بتلك... *الفطيرة* لأجلها". وضربَت قبضتي يديها على ركبتيها. "لم يسبق لي أن تعرضتُ لإهانة مماثلة".

"أي فطيرة؟".

"لقد فازت إيتش - إيتش - هيلي بفطيرتك، واهمتني بإشراكها بالمـــزاد العلني و... بالتحايل عليها". وناحت وشهقت بالبكاء. "لماذا أقوم بذلك؟ أدوّن اسمها على لائحة؟".

وأدركت ما يجري ببطء شديد. فلم أكن أعرف من أشرك هيلي في مـــسابقة الفوز بالفطيرة، ولكنني كنت أعرف بالتأكيد سبب قيامها باهام كل من ظنّت أنه الفاعل.

وألقـــيت نظـــرةً سريعة على الباب، وقال ذلك الصوت في رأسي، *اخرجـــي، يا ميني من هذا المكان*. ولكنني نظرت إلى الآنسة سيليا تصيح بقميص نومها القديمة، وشعرتُ بذنب كثيف على غرار كثافة طين يازو.

"لم يعُد في استطاعتي التسبب لجوني بكل ذلك. لقد اتخذتُ قراراً، يا ميني. سأعود". وناحت: "إلى شوغر ديتش".

"ستتخلّين عن زوجك لأنك تعرّضت للإهانة في إحدى الحفلات؟". *تمهّلي*، قلتُ لنفسي، وفُتحت عيناي واسعاً. لا يمكن للآنسة سيليا أن تتخلى عن السيد جوني ما الذي سيحلّ بي؟

وكان بكاء الآنسة سيليا يشتد كلما تذكّرت ذلك. فتنهّدتُ وراقبتها، متسائلةً عما يجب القيام به.

يا الله، وافترضتُ أن الوقت قد حان لإطلاعها على الأمر الوحيد الذي لم أشأ إخبار أحد به. كنت سأفقد عملي على كل حال، وباتت في إمكاني المجازفة.

"يا آنسة سيليا...". قلت، وجلست على الكرسي الأصفر بذراعين الموجود في الزاوية. لم يسبق لي أن جلست في أي مكان من هذا المنزل إلا في المطبخ وعلى أرض حمّامها، ولكن ذلك اليوم استدعى اتخاذ تدابير قصوى.

"أعرف سبب الغضب الشديد للآنسة هيلي". قلت. "في ما يخص الفطيرة، أعني".

وأطلقت الآنسة سيليا صيحة عالية في ذلك المنديل الورقي، ونظرت إليّ.

"لقد فعلتُ لها أمراً ما. كان الأمر شنيعاً ومروِّعاً". وبدأ قلبي ينبض بمجرد التفكير في ذلك. وأدركتُ أنه ليس في استطاعتي الجلوس على ذلك الكرسي وإخبارها تلك القصة في الوقت نفسه. فنهضتُ وتوجهتُ إلى الجانب الأبعد من السرير.

"ماذا؟". ونخرت أنفها متسائلة: "ماذا حدث، يا ميني؟".

"اتصلت بي الآنسة هيلي في منزلي العام الماضي، عندما كنت لا أزال أعمل لدى الآنسة والترز لتخبرني أنها سترسل الآنسة والترز إلى

دار السيدة العجوز. فأُصبتُ بالهلع لأن لديّ خمسة أبناء وبنات، وزوجي ليروي يقوم بنوبتي عمل".

وشعرتُ بحرقة ترتفع في صدري. "أعلم أن ما قمتُ به ليس تصرفاً يقوم به الصالحون. ولكن، أي نوع من النساء تلك التي تُرسل والدها إلى دار رعاية ليقوم الغرباء بالاعتناء بها؟ لا بد من أن تكون تلك المرأة مجنونة لتعتقد أن ما تقوم به صواب".

وجلست الآنسة سيليا على السرير، ومسحَت أنفها. وبدت كما لو أنها تركز انتباهها.

"لقد بحثت عن عمل طوال ثلاثة أسابيع. كنت أذهب كل يوم بعد انتهائي من العمل لدى الآنسة والترز للبحث عن عمل آخر. فذهبتُ إلى منزل الآنسة تشيلد، ومنزل عائلة رولي، ولكن من دون جدوى. وقصدتُ أيضاً منزل عائلة ريتشز، وباتريك سميث، لا بل أيضاً منزل الزوجين ثيبودو الكاثوليك اللذين رُزقا بسبعة أبناء وبنات، من دون أن أحظى بأي عمل".

"آه يا ميني...". قالت الآنسة سيليا. "إنه أمر مروّع".

وأطبقتُ فكّي بإحكام. "عندما كنت فتاة صغيرة، طلبت مني والدتي عدم مخاطبة الآخرين بوقاحة. ولكنني لم أستمع إليها، وذاع صيتي في أنحاء المدينة. لقد اعتقدتُ أن أحداً لا يريد الاستعانة بخدماتي لهذا السبب".

"وبدأتُ أشعر بخوف حقيقي قبل يومين من التوقف عن العمل لدى الآنسة والترز، ولم أكن قد وجدت عملاً آخر بعد. فبإصابة بيني بداء الرَّبو، واستمرار شوغر في الدراسة، وقيام كيندرا... و... كان وضعنا المالي حرِجاً. في ذلك الوقت، قدِمت الآنسة هيلي إلى منزل الآنسة والترز للتحدث إليّ".

"قالـــت، *تعالَي للعمل لديّ، يا ميني. سأدفع لك خمسة وعشرين ســنتاً إضــافية في اليوم*. ودعَت ذلك جزرة *متدلّية* كما لو أنني بغل مِحراث". فشعرتُ بقبضتي يديّ تُطبقان. "وأتسبب بطرد صديقتي يول مــاي كروكل من العمل لأحلّ مكانها. تظن الآنسة هيلي أن الجميع ذوو وجهين على غرارها".

ومــسحت وجهــي بيدي. كنت أتعرّق، والآنسة سيليا تصغي مفتوحة الفم، مذهولة.

"قلــت لهــا *لا شكراً لك، يا آنسة هيلي*. فقالت إنها ستدفع لي خمسين سنتاً إضافية، وأجبت، *لا يا سيدتي. لا، شكراً لك*. فقالت لي إنها تعرف أن عائلات تشيلدس وورلي، والعائلات الأخرى، لم تمنحني أي عمــل، وإنها حرِصت على أن يعرف الجميع أنني سارقة. لم أسرق أي شــيء في حياتي، ولكنها أخبرت الجميع أنني سارقة، ولم يشأ أحد في المدينة الاستعانة بخدمات زنجية سارقة ووقحة، وذلك كي أُضطرّ إلى العمل لديها مجّاناً".

"ولذلك قمتُ بما قمتُ به".

وطرفت الآنسة سيليا عينيها وسألت: "ماذا فعلتِ يا ميني؟".

"قلت لها أن تأكل غائطي".

كانت الآنسة سيليا لا تزال جالسة هناك، مذهولة.

"وعــدتُ بعــد ذلــك إلى المنــزل، وأعددت فطيرة الكسترد بالــشوكولا تلك. لقد وضعتُ فيها سكّراً، وشوكولا بايكر، والفانيلا التي أحضرتها لي نسيبتي من المكسيك".

"وحملتُها إلى منــزل الآنسة والترز، وكنت أعلم أن الآنسة هيلي موجــودة هناك في انتظار انتقال والدتها إلى دار العجزة كي تتمكن من الحصول على أوانيها الفضية وبيع المنــزل".

"وعندما وضعتُ تلك الفطيرة على المنضدة، ابتسمت الآنسة هيلي، معـــتقدةً أهـــا هديـــة إحلال سلام معها، وإبداء لأسفي العميق لما قلتُ. حينـــئذ، رأيـــتها بنفسي تلتهم قطعتين كبيرتين وتقول، *كنت أعلم أنك ستبدّلين رأيك، يا ميني. كنت أعلم أنني سأحصل على ما أريد في النهاية.* وضحكَت بشكل مبالغ فيه كما لو أن الأمر مضحك بالنسبة إليها".

"عندها، قالت الآنسة والترز إنها جائعة قليلاً وتريد الحصول على قطعة من تلك الفطيرة. فقلت لها: *لا، يا سيدتي. تلك الفطيرة للآنسة هيلي.*

"فقالت الآنسة هيلي، *يمكن لوالدتي الحصول على بعضٍ منها إذا أرادت ذلـــك، ولكـــن قطعـــة صغيرة فقط. ماذا وضعت في الفطيرة، يا ميني، ليبدو مذاقها لذيذاً؟*".

"فقلـــت *تلك الفانيلا الجيدة من المكسيك*، وأخبرتُها عما وضعتُه أيضاً في تلك الفطيرة".

كانت الآنسة سيليا مسمَّرة في مكانها تحدّق إليّ، ولكن لم أستطع النظر إلى عينيها.

"وفـــتحت الآنسة والترز فمها، ولم تقل إحداهما في ذلك المطبخ أي شـــيء لمدة كافية سمحت لي بالخروج من الباب قبل أن تدركا أنني غـــادرت. ولكـــن الآنـــسة والترز شرعت بالضحك بقوة لدرجة أنها كـــادت تقـــع عن الكرسي، وقالت، *حسناً، يا هيلي، هذا ما حصلت علـــيه، كما أظن. ولو كنت مكانك، لكففتُ عن إطلاق الأكاذيب علـــى مـــيني وإلا عُـــرفتِ في مختلف أنحاء المدينة بالسيدة التي تناولت قطعتين من غائط ميني*".

واختلستُ نظرةً إلى الآنسة سيليا. كانت تحدّق بعينين مفتوحتين واسعاً، مشمئزة. وبدأتُ أشعر بالذُّعر لأنني أخبرتها بذلك. فهي لن تثق بـــي مجدداً. وتوجهتُ إلى الكرسي الأصفر وجلستُ عليه.

"ظنت الآنسة هيلي أنك تعرفين القصة، وأنك تسخرين منها. لَما هجّمت عليك لو لم أقم بما قمتُ به".

كانت الآنسة سيليا تحدّق إليّ فحسب.

"ولكنني أريد أن أُعلمك أن الآنسة هيلي ستفوز باللعبة إذا تخلّيت عن السيد جوني. عندها، تكون قد تغلّبت عليّ، وعليك...". وهززت رأسي، مفكّرةً في يول ماي وهي في السجن، وفي السيدة سكيتر من دون أصدقاء. "قلّة هم الأشخاص في هذه المدينة الذين لم تقم بسحقهم".

ولزمت الآنسة سيليا الهدوء لفترة قصيرة، ونظرت إليّ بعد ذلك وبدأت بقول شيء ما، ولكنها أطبقت فمها.

وقالت أخيراً: "شكراً لك لأنك... أخبرتني بذلك".

واستلقت مجدداً. ولكن، قبل أن أُغلق الباب، استطعت رؤية عينيها مفتوحتين واسعاً.

في صباح اليوم التالي، وجدتُ الآنسة سيليا خارج سريرها، وقد غسلَت وجهها، ووضعَت كل مساحيق التبرّج مجدداً. كان الطقس بارداً في الخارج، لذلك قامت بارتداء إحدى كنزاها الصوفية الضيّقة.

"هل أنت سعيدة بعودة السيد جوني إلى المنزل؟". سألتُ، ليس لأنني أهتمّ بذلك، بل لأنني أردت أن أعرف إذا كانت فكرة التخلي عن زوجها تتبادر إلى ذهنها.

ولكن الآنسة سيليا لم تقل الكثير. كان الإرهاق بادياً في عينيها، ولم تكن سريعة في الابتسام لأي شيء. وأشارت بإصبعها إلى خارج النافذة. "أظن أنني سأزرع صفاً من شجيرات الورد على امتداد الناحية الخلفية من المُلكية".

"متى تُزهر؟".

"يُفترض بنا أن نرى شيئاً ما في الربيع القادم".

واعتبرتُ ذلك علامةً جيدة لأنها تخطط للمستقبل. واعتبرتُ أن شخصاً مغادراً لا يتكبّد عناء زرع زهور لن تُزهر حتى العام التالي.

عملت الآنسة سيليا طوال اليوم في حديقة الزهور، واعتنت بالأُقحوان. وفي اليوم التالي، دخلتُ المنزل ورأيتها جالسة إلى طاولة المطبخ، مُمسكة بالصحيفة ومحدّقة إلى شجرة الميموزا تلك. كان الطقس ماطراً وبارداً في الخارج.

"صباح الخير، يا آنسة سيليا".

"مرحباً، يا ميني". كانت الآنسة سيليا جالسة تنظر إلى تلك الشجرة وتحرّك قلماً بيدها. وبدأت تُمطر.

"ماذا تريدين للغداء اليوم؟ لدينا لحم مشوي أو بعض من فطيرة الدجاج هذه...". وانحنيتُ، وأدخلتُ رأسي في البرّاد. كان يتعيّن عليّ اتخاذ قرار في شأن ليروي، ووضع حد لتصرفاته. *إما أن تتوقف عن ضربي، أو أذهب. ولن آخذ الابنين والبنات معي*. فعدم اصطحاب ابنيّ وبناتي معي أمر غير صحيح، ولكن من شأن ذلك أن يخيفه أكثر من أي شيء آخر.

"لا أريد شيئاً". قالت الآنسة سيليا، ووقفَت، وخلعَت حذاءً أحمر اللون ذا كعب عالٍ. ومدّدت ظهرها بينما كانت لا تزال تحدّق عبر النافذة إلى تلك الشجرة، وطقطقَت بُرجُماتها، وخرجَت من الباب الخلفي.

ورأيتها في الجانب الآخر من الزجاج حاملةً فأساً. لقد أجفلني الأمر قليلاً لأن أحداً لا يحب رؤية امرأة مجنونة تحمل فأساً بيدها.

كانـــت تؤرجحها عالياً في الهواء كعصا غليظة، لقد بدت متمرّسة في استخدام الفأس.

"يـــا سيدة، لقد فقدتِ لون شعرك هذه المرة". كان المطر ينهمر علـــى الآنـــسة ســـيليا من دون أن تكترث للأمر. وبدأت بقطع تلك الشجرة، فتساقطت الأوراق عليها وانغرزت في شعرها.

فوضـــعتُ طبق اللحم المشوي الكبير على طاولة المطبخ وراقبتُ، آملـــةً في ألا يـــتحول ذلـــك الأمر إلى شيء آخر. كانت تفتح فمها، وتمـــسح المطـــر عـــن عينـــيها، وتزداد ضرباتها قوة بدلاً من الشعور بالإرهاق.

"يا آنسة سيليا، ادخلي من المطر". صرختُ. "دعي السيد جوني يقوم بذلك عندما يعود إلى المنـــزل".

ولكـــنها لم تكتـــرث. لقد قطعت نصف الجذع وبدأت الشجرة تـــتمايل قلـــيلاً على غرار والدي. أخيراً، ارتميتُ على الكرسي الذي كانـــت تجلـــس عليه الآنسة سيليا تقرأ، وانتظرت انتهاءها من المهمة. فهززت رأسي ونظرتُ إلى الصحيفة. حينئذ، رأيت رسالة الآنسة هيلي مثنـــيّة تحـــتها مـــع الشيك الموجَّه إلى الآنسة هيلي بقيمة مئتي دولار. ونظرتُ عن قُرب. فعلى امتداد أسفل الشيك في الفراغ الصغير الخاص بالمـــدوّنات، كتـــبت الآنسة سيليا بخط جميل وحروف متصلة: *لأجل قطعَتي هيلي*.

وسمعـــتُ صريفاً، ورأيتُ الشجرة تسقط على الأرض، وتتطاير أوراق الـــشجرة وأوراق السرخـــسية اليابسة في الهواء، وتعلق بشعرها المصبوغ بلون باترباتش.

الفصل السابع والعشرون

حـــدّقتُ إلى الهاتف في المطبخ. كان كشيء مَيت معلَّق على الجدار لأن أحداً لم يتصل بالمنـــزل منذ مدة طويلة، ويسود سكون مـــروّع الأماكن كافة في المكتبة، في الصيدلية حيث أشتري الدواء لوالدتي، في متجر هاي ستريت حيث أشتري حبر الآلة الكاتبة، وفي منـــــزلنا. فاغتيال الرئيس كنيدي الذي حدث قبل أسبوعين صعق العـــالم. لقـــد بدا الأمر كما لو أن أحداً لا يُريد أن يكون أول من يكـــسر جدار الصمت لأن عملية الاغتيال حوّلت الأنظار عن بقية الأحداث.

وعندما يرنّ الهاتف في وقت متأخر وفي حالات نادرة، يكون المتصل الطبيب نيل للإبلاغ عن نتائج مِخبرية سيّئة، أو أحد الأنسباء للاطمئـــنان عـــن صـــحة الوالدة. ومع ذلك، كنت لا أزال أفكر في ســـتيوارت أحـــياناً بالـــرغم من مرور خمسة أشهر على اتصاله الأخـــير، وانفـــصالي عـــنه في الـــنهاية وإخبار والدتي بالأمر. لقد بـــدت والـــدتي مـــصدومة كما توقّعتُ، ولكنها تنهّدت فحسب، والحمد لله.

فأخـــذتُ نفساً عميقاً، وطلبتُ رقم عاملة الهاتف، وأقفلتُ على نفسي في غرفة المؤونة. وزوّدتُ عاملة الهاتف المحلية برقم هاتف مكان بعيد، وانتظرتُ.

"هاربر آند روو، ناشرون، بمن أصلك؟".

"بمكتب إلين شتاين، رجاءً".

وانتظـــرتُ إجابة سكرتيرتها على الهاتف، متمنّيةً لو أنني أجريت الاتـــصال قـــبل ذلـــك. ولكن، بدا لي أن من الخاطئ الاتصال خلال أســـبوع مقـــتل كنيدي، كما أنني سمعت على النشرات الإخبارية أن معظـــم المكاتـــب مقفَلـــة. وتلا ذلك أسبوع مناسبة الشكر. وعندما اتصلتُ، أعلمني عامل الهاتف أن أحداً لا يجيب في مكتبها، لذلك قمتُ بالاتصال بها بعد أسبوع من الموعد الذي حدّدتُه.

"إلين شتاين".

فطـــرفتُ عينيّ، متفاجئةً أنها المُجيبة وليست سكرتيرتها. "يا سيدة شتاين، أنا آسفة، معك أوجينيا فيلان، من جاكسون، ميسيسيبـــي".

"أجـــل... يـــا أوجينـــيا". وتنهّدَت، وقد بدت منـــزعجة لأنها جازفت بالإجابة عبر هاتفها الخاص.

"أتـــصل لأُعلمـــك أن المخطـــوط سيكون جاهزاً بعد العام الجديد مباشرةً. سأرسله لك عبر البريد في الأسبوع الثاني من كانون الثاني/يناير". وابتسمتُ لأنني ألقيت بشكل ممتاز ما كنت أتدرّب على إلقائه.

وســـاد الصمت باستثناء زفر دخان سيجارة. وانتقلتُ للجلوس على صفيحة الدقيق. "أنا... التي تكتب عن النساء ملونات البشرة؟ في الميسيسيبـــي؟".

"أجـــل، أتذكّر". قالت، ولكن لم يكن في استطاعتي القول إذا كانـــت قد عرفتني حقاً. ولكنها قالت بعد ذلك: "أنت التي تقدّمتِ

بطلـــب شـــغل منـــصب رئـــيس في مؤســـستنا. كيف يسير ذلك المشروع؟".

"لقـــد أنهيته تقريباً. لا تزال لدينا مقابلتان لإنجازه، وتساءلتُ عما إذا كان يُفترض بـــي إرساله إليك مباشرةً أو عبر سكرتيرتك".

"آه لا، كانون الثاني/يناير غير مقبول".

"يا أوجينيا؟ هل أنت في المنـــزل؟". سألت والدتي.

فغطّـــيت سمّاعة الهاتف. "دقيقة فقط، يا أمي". أجبتُ، عِلماً مني أنني لو لم أقم بذلك، لدخلت غرفة المؤونة.

"اللقاء الأخير للمحررين لهذا العام يجري في الحادي والعشرين من كانـــون الأول/ديـــسمبر". أكملت السيدة شتاين. "إذا كنت تريدين فرصة لتتم قراءة ما أعددته، يجب أن يكون بين يديّ قبل ذلك التاريخ، وإلا ذهـــب إلى المحرقة. أنت لا تريدينه أن يذهب إلى المحرقة، يا آنسة فيلان".

"ولكن... قلتِ لي إن الموعد النهائي هو كانون الثاني/يناير...". وكنا في الثاني من كانون الأول/ديسمبر، و لم يكن يتبقى لي سوى تسعة عشر يوماً لإنهاء كل شيء.

"في الحـــادي والعـــشرين من كانون الأول/ديسمبر يغادر الجميع لتمضية إجازاتهم، وفي العام الجديد نُغرَق بمشاريع الكتّاب والصحافيين المُدرَجة على لائحتنا الخاصة. وإذا لم تكوني معروفة، كما هي حالك، يـــا آنـــسة فـــيلان، فموعد ما قبل الحادي والعشرين هو نافذتك. إنه نافذتك الوحيدة".

وابتعلتُ ريقي قائلة: "لا أعلم إذا...".

"بالمناســـبة، هـــل كـــنت تكلّمـــين والدتك؟ ألا تزالين تقيمين في المنـــزل؟".

وحاولتُ التفكير في كذبة ما، كأنها تزورني فحسب، أو أنها مريضة، لأنني لم أشأ أن تظن السيدة شتاين أنني لم أفعل أي شيء في حياتي. ولكنني تنهّدتُ. "أجل، لا أزال أقيم في المنزل".

"والزنجية التي أشرفت على تربيتك، أفترض أنها لا تزال هناك؟".

"لا، لقد رحلَت".

"أمم، إنه أمر مؤسف للغاية. هل تعرفين ماذا حلّ بها؟ لقد خطر في بالي أنك ستكونين بحاجة إلى تخصيص قسم في الكتاب لخادمتك".

فأغمضتُ عينيّ، وقاومتُ الإحباط. "لا... أعرف مكانها حقاً".

"حسناً، اعرفي مكانها وأضيفي ذلك القسم. سيُضفي طابعاً شخصياً على كل ذلك".

"أجل يا سيدتي". قلت، عِلماً أن لا فكرة لديّ عن كيفية قيامي بإنهاء القسمين المتبقيين في الوقت المحدد، فكيف بوضع قصص عن كونستنتين. لقد جعلتني فكرة الكتابة عنها أتمنى لو كانت موجودة هناك.

"وداعاً، يا آنسة فيلان. آمل في أن تتمكني من تقديم المخطوط قبل الحد الزمني الأقصى". قالت، ولكنها تمتمت قبل أن تُنهي المكالمة الهاتفية، قائلة: "وحباً بالله، أنت امرأة مثقّفة في الرابعة والعشرين من العمر. اذهبي واحصلي على شقة".

أنهيت المكالمة الهاتفية، مصعوقةً بالحد الزمني الأقصى وبإصرار السيدة شتاين على إدخال قصة كونستنتين في الكتاب. كنت أعلم أنني بحاجة إلى استئناف العمل على الفور، ولكنني مررتُ على والدتي في غرفة نومها. ففي الأشهر الثلاثة الماضية، ازدادت حال قرحتها سوءاً. لقد فقدَت مزيداً من وزنها ولا يمرّ يومان من دون أن تتقيّأ. حتى إن الطبيب نيل بدا منذهلاً عندما اصطحبتُها إلى عيادته في الأسبوع السابق.

ونظـــرت إليّ والدتي من الأعلى إلى الأسفل. "أليس لديك نادي بريدج اليوم؟".

"لقـــد أُلغي. طفل إليزابيت ممغوص". قلتُ، كاذبة. لقد قيل عدد كبير من الأكاذيب، وباتت الغرفة مُثقَلة بها. "كيف تشعرين؟". سألتُ. فالوعاء الأبيض المصقول موجود بقربها على السرير. "هل تقيّأتِ؟".

"أنا بخير. لا تُغَضّني جبينك على هذا النحو، يا أوجينيا. سيسيء ذلك إلى مظهرك".

كانـــت والدتي لا تزال لا تعرف أنني طُردت من نادي البريدج، وأن باستي حصلت على شريكة جديدة في لعبة كرة المضرب. و لم أكن أُدعـــى إلى حفلات الكوكتيل، أو لحضور عملية تحميم الطفل، أو إلى أي مناســـبات تكـــون هيلـــي موجـــودة فيها، باستثناء الرابطة. ففي اجتماعات الرابطة، تكون النساء جافيات معي للغاية لدى مناقشة أمور مـــرتبطة بالنشرة الدَّورية، فأحاول إقناع نفسي بعدم الاكتراث لذلك. كـــنت أعمـــل على الآلة الكاتبة، ولا أغادر المنـــزل في معظم الأيام، وأقـــول لنفـــسي، هذا ما تحصلين عليه عندما تضعين واحداً وثلاثين مرحاضاً في الباحة الأمامية للمرأة الأكثر شعبية. وكان الناس يميلون إلى معاملتك بطريقة مختلفة عن السابق.

كانت أربعة أشهر قد مرّت على إيصاد الباب بشكل مُحكَم بين هيلي وبيني، باب مصنوع من الجليد السميك الذي يتطلب مئة صيف مماثل لصيف الميسيسيبـــي لإذابته. كنت أتوقع تلك النتائج، ولكنني لم أظن أنها ستدوم طويلاً.

كان صوت هيلي على الهاتف مدوّياً، كما لو أنها أمضت الصباح في الـــصياح. "أنت مريضة". قالت مهسهِسة. "لا تكلّميني، لا تنظري إليّ. لا تحيّي طفليّ".

"كانـــت غلطة مطبعية، يا هيلي". هو كل ما كان في استطاعتي التفكير في قوله.

"سأقـــصد منـــزل السيناتور ويتوورث بنفسي لأخبره، يا سكيتر فيلان، أنك ستكونين آفة في حملته الانتخابية في واشنطن، ثُؤلولة على وجه سمعته إذا صادقك ستيوارت مجدداً!".

لقد شعرتُ بالانقباض لدى ذكر اسمه، علماً أن أسابيع مرت على انقطـــاع علاقتنا. كان في استطاعتي تخيّله مُشيحاً بنظره، وغير مُبالٍ بما أقوم به.

"لقـــد حـــوّلتِ بـــاحتي إلى مكان تافه". قالت هيلي. "منذ متى تخططين لإذلال عائلتي؟".

فمـــا لم تفهمه هيلي هو أنني لم أخطط لذلك أبداً. فعندما بدأتُ بإعـــداد مـــبادرتها للنشرة الدَّورية، طابعةً كلمات مثل مرض و*حماية أنفـــسكم وأهـــلاً وسهلاً بكم!* بدا الأمر كما لو أن أمراً ما انفتح في داخلـــي، ليس على غرار البطيخ الأحمر، بل شيئاً بارداً، مهدّئاً، وحُلو المـــذاق. كـــنت أعتقد على الدوام أن الجنون هو شعور مُظلم ومرير، ولكـــن تبيّن لي أنه لذيذ ومُشبَع بالعصارة. لقد دفعتُ لكل من أشقاء باســـكاغولا خمـــسة وعشرين دولاراً لوضع تلك المراحيض في مَرجة منـــزل هيلـــي. لقد شعروا بالخوف ولكنهم رغبوا في القيام بذلك. وتذكّرتُ كم كان الليل دامساً، وتذكّرتُ كم شعرتُ أن الحظ يحالفني بسبب وجود ذلك العدد من المراحيض في باحة النفايات بعد إفراغ مبنى قـــديم مـــن محتوياته. لقد حلمتُ مرتين أنني موجودة هناك أقوم بالأمر مجدداً. لم آسف على ما جرى، ولكنني لم أعد أشعر أن الحظ يحالفني.

"وتعتبرين نفسك مؤمنة حقاً". تلك كانت الكلمات الأخيرة التي قالتها لي هيلي. فقلتُ لنفسي، *يا الله، لم يسبق لي أن قمت بذلك*.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام، فاز ستولي ويتوورث في الانتخابات لشغل مقعد في مجلس الشيوخ في واشنطن. ولكن وليام هولبروك خسر في الانتخابات لشغل منصب سيناتور محلّي. كنت على ثقــة أن هيلــي تُلقــي اللوم عليّ في ذلك أيضاً، ناهيكم عن أن كل محاولاتها للإيقاع بيني وبين ستيوارت باءت بالفشل.

بعــد ساعات قليلة من التحدث إلى السيدة شتاين على الهاتف، عــدتُ على أطراف أصابعي للتحقق من وضع والدتي للمرة الأخيرة. كــان والدي نائماً بجانبها، وهناك كوب حليب لوالدتي على الطاولة. كانت تُسند نفسها إلى وسائدها ولكن عينيها مغمضتان. ففتحتهما في أثناء اختلاسي النظر.

"هل أُحضر لك شيئاً، يا أمي؟".

"أنــا أرتاح فقط لأن الطبيب نيل طلب مني ذلك. أين تذهبين، يا أوجينيا؟ إنها السابعة تقريباً".

"سأعود بعد قليل. سأقوم بنــزهة بالسيارة". وقبّلتها، آملةً في ألا تطــرح علــيّ مزيداً من الأسئلة. وعندما أغلقتُ الباب، استغرقَت في النوم.

وقــدتُ بسرعة إلى المدينة لأُطلع آيبيلين على الحد الزمني الأقصى الجديد. كانت الشاحنة القديمة تُحدث ضجيجاً لدى سقوطها بالحُفَر، وقــد ازدادت حالهــا ســوءاً بعد موسم قطن آخر شاق. كان رأسي يــصطدم عملياً بالسقف، وأقود والزجاج مفتوح، واضعةً ذراعي على الباب كيلا يُصدر ضجيجاً. ويحمل الزجاج الأمامي آثار اصطدام على صورة مغيب الشمس.

تــوقفتُ عــند إشارة مرور في شارع ستيت ستريت قبالة مبنى الــصحيفة. وعندما نظرتُ إلى جانبــي، رأيت إليزابيت وماو موبلي

وراليه جالسين على المقعد الأمامي لسيارتهم البيضاء من طراز كورفير، عائدين إلى المنزل بعد تناول العشاء في مكان ما، كما اعتقدتُ. فأشحتُ بنظري عنهم، وتسمّرتُ في مكاني كيلا تراني وتسألني عما أفعله في الشاحنة. ولم أنطلق قبلهم، بل بقيتُ متوقفة أشاهد الأضواء الخلفية لسيارتهم، وأقاوم سخونة ترتفع في حلقي. كان قد مرّ وقت طويل على تحدّثي إلى إليزابيت.

فبعد حادث المراحيض، ناضلتُ وإليزابيت لنبقى صديقتَين. كنا نجري اتصالات هاتفية ببعضنا بعضاً من حين إلى آخر، ولكنها كفّت عن القيام بذلك في ما بعد، مكتفيةً بإلقاء التحية عليّ، والتوجه إلي ببعض العبارات الخالية من أي معنى في أثناء اجتماعات الرابطة مخافة أن تراها هيلي. والمرة الأخيرة التي مررتُ فيها إلى منزل إليزابيت كانت قبل شهر.

"لا أستطيع أن أصدّق كم كبرت ماو موبلي". قلت، وابتسمت ماو موبلي بخجل واختبأت وراء ساق والدها. كانت أطول قامة، ولكنها لا تزال تتمتع ببعض بدانة الأطفال.

"تنمو كعشب ضارّ". قالت، ناظرةً عبر النافذة، وفكرت في مدى غرابة تشبيه طفلتكم بعشب ضار.

كانت إليزابيت لا تزال في بُرنُس الحمّام، واللُفافات في شعرها، وقد بدت نحيلة بعد الحمل. وبقيت ابتسامتها مشدودة، واستمرّت في النظر إلى ساعتها، لامسةً لُفافات تجعيد الشعر كل بضع ثوانٍ. ودخلنا المطبخ.

"هل تريدين الذهاب إلى النادي لتناول الغداء؟". سألتُ. وخرجت آيبيلين من باب المطبخ، ولمحتُ أواني فضيّة وقماش باتنبرغ مخرماً في غرفة الطعام.

"لا أستطيع أن أطلب منك المغادرة، وأكره ذلك، ولكن... والدتي ستلتقيني في جويل تيلور شوب". ونظرَت خارج النافذة مجدداً. "تعلمين كم تكره والدتي الانتظار".

"آه، أنا آسفة، لن أؤخّرك". وربّتُّ على كتفها وتوجهتُ إلى الباب. عندها، تبادرت الفكرة إلى ذهني. كيف يمكنني أن أكون بهذا الغباء. إنها الثانية عشرة ظهراً من يوم الأربعاء، موعد نادي البريدج.

وأرجعتُ السيارة إلى الوراء على الطريق الخاصة بمنـزلها، آسفةً بسبب إحراجي لها على هذا النحو. وعندما استدرتُ، رأيتها عند النافذة تراقبني أغادر بوجه مشمئز. حينئذٍ أدركتُ أنها لم تكن مُحرَجة لحملي على الشعور بالسوء. كانت تتجنّب الشعور بالإحراج إذا ما رآها أحدهم برفقتي.

ركنتُ سيارتي في شارع آيبيلين، وعلى بُعد عدة منازل من منـزلها، مُدركةً أننا بحاجة إلى التزام الحذر أكثر من أي وقت مضى. وبالرغم من أن هيلي لن تقصد هذه الناحية من المدينة أبداً، لقد كانت بمثابة تهديد بالنسبة إلينا كلنا، وشعرتُ أن عينيها في كل مكان. كنت أعرف مدى شعورها بالسعادة إذا أمسكت بي. لم أستهِن بما يمكنها القيام به لحملي على المعاناة طوال حياتي.

كانت ليلة باردة من شهر كانون الأول/ديسمبر، وبدأت تُمطر. فعبرتُ الشارع مُسرعة ومطأطأ الرأس. كنت لا أزال أفكر في حديثي مع السيدة شتاين بعد الظهر، محاولةً وضع الأعمال المتبقية لنا وفقاً لأولويّاتها. ولكن الجزء الأكثر صعوبة هو اضطراري إلى سؤال آيبيلين مجدداً عما حلّ بكونستنتين. لم يكن في استطاعتي الحصول على قصة كونستنتين إذا لم أعرف ما الذي حلّ بها. فسرد جزء من القصة يُضعف مصداقية الكتاب لأنه لا يعرض الحقيقة في هذه الحال.

واندفعتُ مسرعة إلى مطبخ آيبيلين. لا بد من أن النظرة المرتسمة على وجهي حملتها على الاعتقاد بحدوث مكروه ما.

"ما الأمر؟ هل رآك أحد؟".

"لا". قلــت، مُخرجةً الأوراق من حقيبتي المدرسية. "لقد تحدثت إلى السيدة شتاين هذا الصباح". وأخبرتها كل ما أعرفه عن الحد الزمني الأقصى وعن إحالة المخطوط إلى المحرقة.

"حــسناً، إذاً...". وكانــت آيبيلين تَعدّ الأيام في رأسها كما كنت أفعل طوال فترة بعد الظهر. "إذاً، لدينا أسبوعان ونصف بدلاً مــن ســتة أسابيع. آه، يا الله، هذا الوقت لا يكفي. لا يزال يتعيّن علينــا إنهاء كتابة قسم لوفينيا، وتنقيح قسم فاي بيل، وقسم ميني يحــتاج إلى مــزيد من العمل... يا آنسة سكيتر، حتى إننا لم نضع عنواناً بعد".

فوضعتُ رأسي بين يدَيّ، وشعرتُ أنني أنــزلق تحت الماء. "هذا لــيس كــل شيء". قلت: "تريدني... أن أكتب عن كونستنتين. لقد طلبت مني... إضافة ما حدث لها".

ووضعَت آيبيلين كوب الشاي من يدها.

"لا يمكــني كــتابة أي شــيء إذا لم أكــن أعرف ما حدث، يا آيبيلين. لذلك، إذا لم يكن في استطاعتك إخباري... كنت أتساءل عما إذا كان في إمكان شخص آخر إخباري".

فهــزّت آيبــيلين رأسها. "أعتقد أن هناك شخصاً آخر". قالت: "ولكنني لا أريد أن يخبرك شخص آخر بتلك القصة".

"إذاً... هل ستخبرينني؟".

ونـــزعت آيبيلين نظارتها ذات الإطار الأسود، وفركت عينيها، وأعادت وضعها. كنت أتوقع رؤية وجه مُرهَق. لقد عملَت طوال اليوم

وستعمل بجهد أكبر، محاولةً عدم تخطي الحد الزمني الأقصى. فتململتُ على الكرسيّ، منتظرةً إجابتها.

ولكنها لم تكن تبدو مُرهَقة على الإطلاق. كانت جالسة بشكل مستقيم وتومئ لي بطريقة تنمّ عن تحدٍّ. "سأدوّن ذلك. أمهليني أياماً قليلة. سأخبرك بكل ما حدث لكونستنتين".

عملتُ على مقابلة لوفينيا خمس عشرة ساعة متتالية. وفي مساء الخميس، ذهبت إلى اجتماع الرابطة. كنت متلهّفة للخروج من المنزل بسبب عصبيّة مزاجي الناجمة عن الحد الزمني الأقصى، وازدياد رائحة شجرة الميلاد قوة، وتفسّخ البرتقال المزوَّد بالتوابل على نحو يدعو للغثيان. وكانت والدتي تشعر بالبرد باستمرار، ويبدو منزل والدَيّ كما لو أنه منقوع في وعاء كبير من الزبدة الحارة.

وتوقفتُ قليلاً عند درج الرابطة، وأخذتُ نفساً عميقاً من هواء الشتاء النقيّ. كان الوضع بائساً، ولكنني كنت سعيدة لأنني لا أزال أحتفظ بعملي في النشرة الدَّورية، وأشعر مرةً واحدة في الأسبوع، في الواقع، أنني أقوم بنشاط ما. ومن يعلم، ربما كانت تلك المرة مختلفة مع بدء المناسبات.

ولكن ما إن دخلتُ، حتى استدارت الظهور. كان استبعادي أمراً ملموساً كما لو أن جدراناً من الإسمنت ارتفعت حَولي. وأطلقت هيلي ابتسامة رضا عن النفس، وأدارت رأسها للتحدث إلى شخص آخر. ودخلتُ وسط الحشد ورأيتُ إليزابيت. فابتسمَت، ولوّحتُ بيدي. كنت أريد مكالمتها عن والدتي، وإخبارها أنني قلقة في شأنها. ولكن، قبل أن أقترب منها، استدارت، مطأطأة الرأس، وابتعدَت. إنه تصرّف جديد من قِبَلها.

وبدلاً من الجلوس في مقعدي المألوف في الصف الأمامي، انسللت إلى الصف الخلفي، شاعرةً بالغضب لأن إليزابيت لا تريد إلقاء التحية. كانــت هــناك راشــيل كول برانت بجانبــي. لم تكن راشيل تحضر الاجــتماعات باستمرار بسبب أطفالها الثلاثة وعملها على نَيل شهادة الماجــستير في اللغــة الإنكليــزية من كلّية ميلسابس. فتمنّيتُ لو أننا صــديقتان مقــربتان، ولكنني كنت أعلم أنها شديدة الانشغال. ومن الجانب الآخر، كانت هناك ليسلي فولربين وسحابة من رذاذ الشعر. لا بــد مــن أنها تجازف بحياتها كلما أشعلَت سيجارة، وتساءلت عما إذا كان الرذاذ سيخرج من فمها إذا ضغطتُ على أعلى رأسها.

كانــت كــل امرأة في القاعة تقريباً متشابكة الساقين، وفي يدها ســيجارة مُــشعَلة، ويتجمّع الدخان ويتجعّد عند السقف. لم أكن قد دخّنتُ منذ شهرين، وحملتني الرائحة على الشعور أنني مريضة. واعتلت هيلــي المنــبر، وأعلنت عن الحفلات التي توزَّع خلالها جوائز (حفلة المعاطــف، حفلة الصفائح المعدنية، حفلة الكتب، وحفلة العملة القديمة العادية)، ووصلنا بعد ذلك إلى الجزء المفضَّل لهيلي في الاجتماع، لائحة المصاعب التي يتعيّن مواجهتها. في هذا الجزء، تذكر هيلي أسماء كل من تلكّــأت في القيام بواجباتها، أو تأخرت في القدوم إلى الاجتماعات، أو أنهــا لم تنجز مهامها الانتخابية. كنت على تلك اللائحة باستمرار في تلك الفترة بسبب أمر ما.

كانت هيلي ترتدي فستاناً صوفياً أحمر واسعاً من الأسفل وضيّقاً مــن الأعلــى، وتضع فوقه معطفاً بقلنسوّة من طراز شيرلوك هولمز، بالرغم من الحرارة الشديدة في الداخل المماثلة لحرارة النار، وتقوم بين الفيــنة والفينة برمي الحاشية الأمامية المتدلية إلى الوراء كما لو أنها تسدّ طريقها، ولكنها بدت مستمتعة كثيراً بتلك الحركة لدرجة أنها أصبحت

مشكلة حقيقية بالنسبة إليها. كانت مساعدتها ماري نيل واقفة بجانبها تحمل ملاحظاتها، وتبدو ككلب صغير أشقر يوضَع في الحضن من نوع بكينغيز ذا قوائم صغيرة وأنف مرفوع عند أسفله.

"الآن، علينا مناقشة أمرٍ مشوّق". وتسلّمت هيلي الملاحظات من الكلب الحضني وألقت نظرة عليها.

"قـررت اللجـنة أنـه في الإمكـان إدخال تعديل على نشرتنا الدَّورية".

فجلـستُ بـشكل مستقيم. ألا يُفترض بـي اتخاذ قرار بشأن التغييرات التي يتعيّن إدخالها على النشرة الدَّورية؟

"قبل كل شيء، نحن نبدّل النشرة الدَّورية من نشرة أسبوعية إلى شـهرية. لقـد ارتفـع سعر الطوابع إلى ستة سنتات، وظهرت أيضاً مـصاريف إضافية. ونضيف عموداً للموضة يسلّط الضوء على أفضل الملابس التي ترتديها عضواتنا، وعموداً للتبرّج يعرض لأحدث ما توصّل إلـيه عـالم الموضـة. آه، وهـناك بالطبع لائحة المصاعب التي يتعيّن مواجهتها". وأومأت برأسها، ناظرةً إلى عيون عدد قليل من العضوات.

"وأخـيراً، إلـيكنّ التغيير الأكثر تشويقاً، لقد قررنا دعوة هذه النشرة الجديدة *ذي تاتلر*، تيمّناً باسم المجلّة الأوروبية التي تقرأها معظم السيدات".

"ألـيس الاسـم الأكثر لطافة؟". قالت ماري لو وايت، وكانت هيلـي شديدة الاعتداد بنفسها لدرجة أنها لم تضرب المنبر بالمِطرقة لأن ماري لو تكلمت من دون إذن.

"حسناً إذاً. حان وقت اختيار محرر لنشرتنا الشهرية الحديثة. هل من مرشحين؟".

وارتفع عدد كبير من الأيدي. ولزمتُ مكاني من دون حراك.

"جاني برايس، من تختارين؟".

"أختار هيلي. أنا أرشّح هيلي هولبروك".

"ألستِ الأكثر لطافة. حسناً، هل من أخريات؟".

واســتدارت راشيل كول برانت ونظرت إليّ قائلة: "*هل تصدقين ذلــك؟*". من الواضح أنها الوحيدة في القاعة التي لا تعرف عما جرى بيني وبين هيلي.

"هل من مساعدات لــ...". ونظرت هيلي إلى المنبر كما لو أنها لا تستطيع تذكّر أسماء المرشَّحات. "مساعِدات لهيلي هولبروك المحرِّرة؟".

"أنا مساعدة ثانية".

"أنا مساعدة ثالثة".

وضربت هيلي بالمطرقة مرتين، وفقدتُ منصبــي كمحررة.

وحــدّقت ليسلي فولربين إليّ بعينين واسعتين لدرجة أنه كان في استطاعتي التحقق من عدم وجود أي شيء في دماغها.

"يا سكيتر، أليس هذا عملك؟". قالت راشيل.

"كــان عملي". تمتمتُ وتوجّهتُ إلى الأبواب مباشرةً بعد انتهاء الاجــتماع. لم تــتحدث إليّ إحــداهن، ولم تنظر إحداهن إلى عينيّ، وأبقيتُ رأسي مرفوعاً.

في الــرَّدهة، كانــت هيلي وإليزابيت تتحدثان. ووضعَت هيلي شــعرها القــاتم وراء أذنــيها، ووجهَت إليّ ابتسامة لبِقة، وتوجهَت بخطوات واسعة نحو شخص آخر لمحادثته، ولكن إليزابيت بقيت مكانها. فلمسَت ذراعي بينما كنت سائرة.

"مرحباً، يا إليزابيت". تمتمتُ.

"آســفة، يــا ســكيتر". همسَت، ونظرنا إلى أعين بعضنا بعضاً، ولكــنها أشــاحت بنظــرها. ونــزلتُ الدرج، وخرجتُ إلى موقف

السيارات المُظلم. كنت أعتقد أن لديها أمراً إضافياً تريد قوله لي، ولكنني كنت مخطئة.

لم أذهب إلى المنزل مباشَرةً بعد اجتماع الرابطة. فأنزلتُ كل نوافذ الكاديلاك، وسمحتُ لهواء الليل بلفح وجهي، كان دافئاً وبارداً في آن معاً. كنت أعلم أنه يتعيّن عليّ الذهاب إلى المنزل للعمل على القصص، ولكنني سلكتُ المجازات الواسعة لشارع ستيت ستريت وقدتُ. لم يسبق لي أن شعرت بهذا الفراغ في حياتي، ولم أستطع تمالك نفسي من التفكير في كل ذلك العبء على كاهلي. *لن أتمكن أبدًا من إنجاز عملي في الحد الزمني الأقصى، وصديقاتي يحتقرنني، وستيوارت تخلّى عني، ووالدتي...*

لم أكن أعرف مما تشكو والدتي، ولكننا أدركنا جميعاً أن الأمر يتعدّى إصابتها بقرحة في المعدة.

كان مقهى صن وستاند بار مُغلَقاً، فمررتُ بقربه ببطء، وتأمّلتُ لافتة النيون ومدى برودتها عندما تكون مطفأة. ومررتُ بمحاذاة مبنى لامار لايف الشاهق، وبجانب الأضواء الوامضة في الشارع. كانت الثامنة مساءً فقط، ولكن الجميع على أسرّتهم. فالكل نائمون في تلك المدينة بكل طريقة ممكنة.

"أتمنّى لو أنني أستطيع المغادرة فحسب". قلت، وبدا صوتي غريباً لأن أحداً لا يسمعه. وفي الظلام، ألقيت نظرة إلى نفسي من أعلى الطريق كما في الأفلام السينمائية. لقد غدوتُ أحد أولئك الأشخاص الذين يطوفون الشوارع في الليل بسياراتهم. يا الله، أنا مثل بو رادلي في *قتل طائر مقلّد*.

وضغطتُ على زر تشغيل الراديو، متلهّفة لسماع صخب يملأ أذنيّ. كانت هناك أغنية *إنها حفلتي*، فبحثتُ عن شيء آخر. كنت قد

بـــدأت أكره أغاني سنّ المراهقة عن الحب وعن اللاّشيء. استمعت إلى محطـــة دبليو كيه بيي أو في ممفيس، فإذ بصوت رجل ثمل كما يبدو يغني بسرعة وحزن. وفي شارع مسدود، دخلت ببطء موقف سيارات متجر توت - سام، واستمعتُ إلى الأغنية. كانت أفضل من أي شيء آخر سمعتُه يوماً.

... ستغرق كحجر

وتتغيّر الأزمنة.

أعلـــن المذيـــع عبر الراديو أن اسم المغنّي هو بوب ديلن، ولكن المـــوجة الإذاعـــية خـــبت مع بدء الأغنية التالية. فأسندتُ ظهري إلى مقعـــدي، وحدّقتُ إلى النوافذ المُظلمة للمتجر. لقد شعرتُ بارتياح لا يمكن تفسيره، وشعرت أنني سمعت شيئاً ما من المستقبل.

في مقـــصورة الهاتـــف خـــارج المتجر، وضعتُ عشرة سنتات، واتـــصلتُ بـــوالدتي. كـــنت أعلم أنها ستبقى مستيقظة حتى أعود إلى المنـــزل.

"آلو؟". كان صوت والدي عند الثامنة والربع ليلاً.

"أبـــي... لماذا أنت مستيقظ؟ ماذا يجري؟".

"عليك العودة إلى المنـــزل الآن، يا عزيزتي".

بـــدا ضوء الشارع ساطعاً فجأةً في عينيّ، والليل شديد البرودة.

"هل هي والدتي؟ هل تشعر بالغثيان؟".

"ســـتيوارت جـــالس في الرُّواق الخارجي منذ ساعتين تقريباً. إنه ينتظرك".

ستيوارت! لم أفهم. "ولكن أمي... هل هي...".

"آه، أمـــك بخير. في الواقع، لقد أشرق وجهها قليلاً. عودي إلى المنـــزل يا سكيتر، واعتني بستيوارت".

لم يسبق لطريق العودة إلى المنزل أن بدت بهذا الطول. وبعد عشر دقائق، توقفتُ أمام المنزل، ورأيت ستيوارت جالساً على درجة الرُّواق الخارجي. كان والدي جالساً على الكرسي الهزاز. ووقف كلاهما عندما أوقفت عمل محرك السيارة.

"مرحباً، يا أبي". قلت، ولم أنظر إلى ستيوارت. "أين أمي؟".

"نائمة، لقد تحققتُ من ذلك". قال والدي وتثاءب. لم أرَه مستيقظاً بعد الساعة السابعة في السنوات العشر الأخيرة عندما تتجمد نبتة القطن في الربيع.

"عُمتما مساءً. أطفئا الأنوار عندما تنتهيان". ودخل والدي، وبقيت وستيوارت بمفردنا. كان الظلام دامساً، والليل شديد السكون، لدرجة أنني لم أستطع رؤية النجوم أو القمر، أو حتى رؤية كلب واحد في الباحة.

"ماذا تفعل هنا؟". قلت، وبدا صوتي ضعيفاً.

"جئت لأتحدث إليك".

فجلستُ على الدرجة الأمامية، ووضعتُ رأسي على ذراعيّ. "قُل ما تريد بسرعة وارحل". كنت أشعر بتحسن. لقد سمعتُ هذه الأغنية، وشعرت بقليل من التحسن قبل عشر دقائق.

اقترب مني من دون أن يلامس جسده جسدي، وتمنّيتُ لو أنهما تلامسا.

"جئت لأقول لك أمراً ما. جئت لأقول لك إنني رأيتها".

فرفعتُ رأسي. كانت *أناني* أول كلمة تتبادر إلى ذهني. يا أيها الأناني، تأتي إلى هنا للتحدث عن باتريشا.

"ذهبتُ إلى سان فرانسيسكو منذ أسبوعين. لقد دخلتُ سيارتي، وقدتُ طوال أربعة أيام، وقرعتُ باب منزلها، وأعطتني والدتها عنوان إقامتها".

غطّيتُ وجهي. فكل ما استطعت رؤيته هو ستيوارت يدفع بشعرها الأسود إلى الخلف كما اعتاد أن يفعل لي. "لا أريد أن أعرف".

"قلت لها إنني أظن أنّ ما قامت به هو العمل الأكثر قباحة الذي يمكنك القيام به بحق شخص ما، الكذب بهذه الطريقة. لقد بدت مختلفة جداً. كانت ترتدي ذلك الفستان الذي بدا كسهل مُعشَوشب ورمز سلام. رأيت شعرها الطويل، ولم تكن تضع أحمر شفاه. لقد ضحكت عندما رأتني ودعتني فاجراً". وفرك عينيه بقوة. "هي التي خلعت ملابسها أمام ذلك الرجل قالت لوالدي إنني فاجر، فاجر الميسيسيبي".

"لماذا تخبرني بذلك؟". وأطبقتُ قبضتي يديّ، وشعرتُ بطعم المعدن في فمي. لقد قضمتُ لساني.

"ذهبتُ إلى هناك لأجلك. بعد انفصالنا، أدركت أنه يجب عليّ إخراجها من رأسي. وقمتُ بذلك، يا سكيتر. لقد قطعتُ ألفي ميل إلى هناك وعدتُ، وأنا هنا لأخبرك. لم تعُد تعني لي شيئاً".

"حسناً، جيد، يا ستيوارت". قلت. "جيد بالنسبة إليك".

اقترب مني، وانحنى كي أنظر إليه، فشعرت بالغثيان والاشمئزاز من رائحة الشراب في أنفاسه. ومع ذلك، كنت لا أزال أريد وضع كل جسدي بين ذراعيه. فأنا أحبه وأكرهه في آن معاً.

"اذهب إلى المنزل". قلت، غير مصدّقة أنني طلبتُ منه ذلك. "لا مكان متبقٍّ لك في داخلي".

"لا أصدّق ذلك".

"لقد تأخرتَ، يا ستيوارت".

"هل يمكنني القدوم يوم السبت؟ للتحدث قليلاً؟".

فهززت كتفيّ، وترقرقت عيناي بالدموع. لن أسمح له برميي مجدداً. لقد حدث ذلك عدة مرات، معه، ومع أصدقائي وصديقاتي. سأكون غبية إذا سمحت لذلك بالحدوث مجدداً.

"لا أبالي حقاً بما تفعل".

استيقظت عند الخامسة صباحاً، وبدأت العمل على القصص. وبتبقي سبعة عشر يوماً فقط كحدٍّ زمني أقصى، عملت طوال النهار والليل بسرعة وفعالية لم أكن أعلم أنني أملكهما. وأنهيتُ قصة لوفينيا بنصف الوقت الذي استلزمني لكتابة قصص الأخريات، وبعد شعوري بألم حاد ومُحرق في الرأس، أطفأتُ النور مع دخول أولى أشعة الشمس عبر النافذة. فإذا سلّمتني آيبيلين قصة كونستنتين في أوائل الأسبوع التالي، قد أتمكن من إنجاز المخطوط.

أدركت حينذاك أنه ليست لديّ سبعة عشر يوماً. يا *لغبائي*. كانت لديّ عشرة أيام عمل لأنني لم أحتسب الوقت الذي يتطلبه إرسال المخطوط عبر البريد إلى نيويورك.

لقد رغبت في البكاء لو كنت أملك الوقت لذلك.

بعد ساعات قليلة، استيقظت وواصلت العمل. وعند الخامسة بعد الظهر، سمعت صوت سيارة تتوقف، ورأيت ستيوارت يخرج من سيارته. فسحبتُ نفسي من أمام الآلة الكاتبة، وخرجت إلى الرُّواق الخارجي الأمامي.

"مرحباً". قلت، واقفةً عند مدخل الباب.

"مرحباً، يا سكيتر". وأومأ برأسه لي، شاعراً بالخجل كما ظننت، مقارنةً مع ما كانت عليه حاله قبل ليلتين. "مرحباً، يا سيد فيلان".

"مرحباً، يا بُنَيّ". وقام والدي عن كرسيه الهزاز. "سأدعكما تتحدثان هنا".

"لا تـــذهب يا أبـــي. آسفة، ولكن لديّ الكثير من العمل اليوم، يا ستيوارت. أهلاً وسهلاً بك. اجلس مع والدي هنا قدر ما تشاء".

عـــدت إلى داخـــل المنـــزل، ومررتُ بوالدتي الجالسة إلى طاولة المطبخ تشرب الحليب.

"هل مَن رأيتُه هناك في الخارج هو ستيوارت؟".

دخلـــتُ غـــرفة الطعام، ووقفت بعيداً عن النافذة حيث أعلم أنه ليس في استطاعة ستيوارت أن يراني. وراقبته حتى مغادرته، وبعد ذلك استمررت بالمراقبة.

في تلك الليلة، وكالعادة، ذهبت إلى منـــزل آيبيلين. فأخبرتها أنه لم يتـــبقَّ لنا عملياً سوى عشرة أيام كحدٍّ زمني أقصى، وبدت كما لو أنهـــا تريد البكاء. وسلّمتها بعد ذلك فصل لوفينيا لقراءته، وهو الفصل الوحيد الذي كتبتُه بسرعة البرق. كانت ميني جالسة إلى طاولة المطبخ معـــنا تحتسي الكوك، ناظرةً خارج النافذة. لم أعرف أنها أمضت الليلة هناك، وتمنّيتُ لو أنها تدعنا نعمل.

وضـــعته آيبيلين من يدها، وأومأت برأسها. "أظن أن هذا الفصل جيد جداً. قراءته مماثلة لقراءة الفصول المكتوبة بتأنٍّ".

فتـــنهدتُ، مُسندةً ظهري إلى الكرسي، ومفكرةً في ما يتعيّن عليّ أيـــضاً القـــيام بـــه. "يجب اتخاذ قرار في شأن العنوان". قلت وفركت صدغيّ. "لقد عملتُ على عدد قليل من العناوين. أعتقد أنه يُفترض بنا دعـــوته *الخادمات المنـــزليات الملوّنات، والعائلات الجنوبية التي يعملن لديها*".

"ماذا قلت؟!". قالت ميني، ناظرةً إليّ للمرة الأولى.

"إنها أفضل طريقة لوصفه، ألا تعتقدين ذلك؟". قلت.

"كما لو أنك تدوسين على أكواز ذرة".

"إنــه ليس كتاباً خيالياً، يا ميني. إنه كتاب اجتماعي. يجب على العنوان أن يبدو دقيقاً".

"ولكن، ذلك لا يعني أن يبدو مُملاًّ". قالت ميني.

"يـا آيبيلين". قلت وتنهدتُ، آملةً في أن نتمكن من حل مسألة العنوان في تلك الليلة. "ما رأيك؟".

فهـزت آيبـيلين كتفيها، وكان في إمكاني فهم تلك الابتسامة المـسالمة. لقـد بدا الأمر كما لو أنه يجب عليها تلطيف الأجواء كلما تـواجدتُ مع ميني في الغرفة نفسها. "إنه عنوان جيد. ستتعبين بالطبع مـن طبعه كله فوق كل صفحة". قالت. فقلتُ لها إن الأمور يجب أن تجري على ذلك النحو.

"حسناً، يمكننا تقصيره قليلاً...". قلت، وأخرجتُ قلمي.

وفـركت آيبـيلين أنفها، وقالت: "ما رأيك لو دعيناه... *عاملة المنـزل* فقط؟".

"*عاملة المنـزل*". كررت ميني، كما لو أنه لم يسبق لها أن سمعت بتلك العبارة.

"*عاملة المنـزل*". قلت.

فهزّت آيبيلين كتفيها، ووجهت نظرها إلى الأسفل خجِلة كما لو أنهـا شعرت بقليل من الحرج. "لا أحاول استبعاد فكرتك، أحب... تبسيط الأمور فحسب، أنت تعرفين ذلك؟".

"أعـتقد أن عـنوان *عاملة المنـزل* يبدو لي جيداً". قالت ميني وشبكت ذراعيها على نحو متصالب.

"أحـب... *عاملـة المنـزل*". قلت، لأنني أحببت العنوان حقاً. وأضـفتُ: "أظـن أنه يبقى علينا إضافة شرح تحته لإيضاح الفئة التي ينتمي إليها الكتاب، ولكنني أظن أنه عنوان جيد".

"جـــيد هي الكلمة الصحيحة". قالت ميني: "لأنه إذا تمّت طباعة هذا الشيء، فالله يعلم أننا سنكون بحاجة إلى أن نكون في حال جيدة".

بعـــد ظهـــر يوم الأحد، وبتبقي ثمانية أيام، نـــزلتُ إلى الطابق السفلي، مصابةً بدُوار، وطارفةً عينيّ بسبب التحديق إلى الحروف طوال الـــيوم. لقد شعرت بالسعادة إلى حدٍّ ما عندما سمعت سيارة ستيوارت تـــتوقف على الطريق الخاصة بمنـــزلنا. ففركت عينيّ. ربما أجلس معه قليلاً، فيصفو ذهني، وأعود بعد ذلك للعمل طوال الليل.

خـــرج ستيوارت من سيارته الموحلة. كان لا يزال بربطة العنق ذاتها الـــتي كان يضعها نهار الأحد، وحاولتُ تجاهل مدى وسامته. فمددتُ ذراعيّ. كان الطقس حارّاً في الخارج على نحو مثير للسخرية، علمـــاً أن المـــيلاد يحلّ بعد أسبوعين ونصف. كانت والدتي جالسة في الرُّواق الخارجي على كرسيٍّ هزاز تلفّ نفسها بأغطية.

"مرحباً، يا سيدة فيلان. كيف تشعرين اليوم؟". سأل ستيوارت.

فأومأت له والدتي برأسها برزانة. "أفضل، شكراً لسؤالك". لقد تفاجـــأتُ بفتور صوتها. ووجهت نظرها إلى نشرتها، و لم أتمالك نفسي من الابتسام. كانت والدتي تعرف أنه يمرّ بمنـــزلنا، ولكنها لم تشر إلى الأمر إلا مرة واحدة.

"مـــرحباً". قال لي بهدوء، وجلسنا على الدرجة السفلية للرُّواق الخارجـــي. وراقبـــنا بـــصمت هرّنا المسنّ شيرمن ينسلّ وراء شجرة، مؤرجحاً ذنبه، تابعاً مخلوقاً ما لا نستطيع رؤيته.

وضـــع ســـتيوارت يـــده على كتفي. "لا يمكنني البقاء اليوم. أنا مـــتوجه إلى دالاس على الفور لعقد اجتماع متعلق بالنفط، وسأغيب لثلاثة أيام". قال: "لقد مررتُ لأخبرك بذلك".

"حسناً". وهززت كتفيّ كما لو أنني غير آبهة بالأمر.

"حسناً إذاً". قال، ودخل سيارته.

وعـــندما توارى عن الأنظار، تنحنحت والدتي. فلم أستدر وأنظر إليها على كرسيِّها الهزاز. لم أشأ أن ترى أمارات الإحباط على وجهي بسبب رحيله.

"هيا، يا أمي". تمتمتُ أخيراً: "قولي ما تريدين قوله".

"لا تدعيه يقلّل من احترامك".

فاستدرتُ نحوها، ونظرت إليها بارتياب، علماً أنها كانت ضعيفة جـــداً تحـــت الغطـــاء الـــصوفي. أشعر بالأسف حيال كل من يحاول الاستهانة بوالدتي.

"إذا لم يعـــرف ستيوارت أنني ربّيتك لتكوني ذكية ولطيفة، يمكنه العودة على الفور إلى شارع ستيت ستريت". ونظرت إلى أرض الشتاء مـــضيّقةً عينيها. "بصدق، لا أبالي كثيراً بستيوارت. لا يعلم كم كان محظوظاً بلقائه بك".

تركتُ كلمات والدتي تستقر على لساني كقطعة حلوى صغيرة وطيّبة المذاق. ونهضت عن الدرجة، وتوجهت إلى الباب الأمامي. فهناك الكثير من العمل الذي يجب القيام به، و لم أكن أملك الوقت الكافي لذلك.

"شكراً لك، يا أمي". وقبّلتها برفق على خدّها، ودخلتُ.

كـــنت مـــرهقة وســـريعة الغضب. فكل ما قمت به طوال ثمان وأربعـــين ســـاعة هو الطباعة. كنت مأخوذة بوقائع حياة الأخريات، وعيناي تلذعانني بسبب رائحة حبر الطباعة، كما ظهرت شقوق على أصـــابعي بـــسبب أطراف الأوراق المسنَّنة. من يعرف أنه يمكن للورق والحبر أن يُلحقا هذا القدر من الضرر.

بتبقّـــي ستة أيام فقط، قصدتُ منـــزل آيبيلين. كانت في إجازة لـــيوم واحد بالرغم من انـــزعاج إليزابيت. لقد شعرتُ أنها تعرف ما

نحتاج إلى مناقشته قبل أن أتفوّه بأي كلمة. فتركتني في المطبخ وعادت برسالة في يدها.

"قبل أن أسلّمك هذه... أعتقد أنه يجب عليّ إطلاعك على بعض الأمور كي تستطيعي الفهم بشكل جيد".

فأومــأتُ برأسي. كنت متوترة الأعصاب، وأردت فتح المغلف وإخراج الرسالة.

وضــعت آيبــيلين مفكــرتها بشكل مستقيم على طاولة المطبخ، وراقبــتها تــضع قلمــي الرصاص الصفراوين بجانب بعضهما بعضاً. "تذكــرين عــندما أخــبرتك أن لكونستنتين ابنة. حسناً. كان اسمها لولابيل. يا الله، لقد وُلدت بيضاء كالثلج، وشعرها بلون التِّبن. لم يكن مجعَّداً كشعرك، كان مستقيماً".

"هل كانت شديدة البياض؟". سألتُ. كنت أتساءل عن ذلك مذ أخبرتني آيبيلين عن طفلة كونستنتين في أثناء عودتها إلى مطبخ إليزابيت. وفكــرتُ في مــدى اندهاش كونستنتين بتربية طفلة بيضاء تعرف أنها ابنتها.

فأومــأت برأسها وتابعت: "عندما كانت لولابيل في الرابعة من عمرها، أخذتها كونستنتين...". وبدّلت آيبيلين وضعتها على الكرسي. "إلى... ميتم في شيكاغو".

"ميتم؟ تعنين... تخلت عن طفلتها؟". كان في استطاعتي أن أتخيّل مدى حب كونستنتين لطفلتها الوحيدة لأنها كانت تحبني كثيراً.

نظرت آيبيلين إليّ مباشرةً، ورأيتُ في عينيها أمراً نادراً ما أراه؛ رأيت إحباطاً ونفوراً. "تخلت كثيرات من النساء ملونات البشرة عن أطفــالهنّ، يــا آنــسة سكيتر. كنّ يتخلّين عن أطفالهنّ للعمل لدى عائلات البيض".

وجهتُ نظري إلى الأسفل، متسائلةً عما إذا لم يكن في استطاعة كونستنتين الاعتناء بطفلتها لأنه كان عليها الاعتناء بنا.

"ولكـــن معظمهنّ كنّ يتخلّين عن أطفالهنّ لتقوم عائلات أخرى بتربيتهم. والميتم... مختلف بالإجمال".

"لماذا لم ترسل الطفلة لشقيقتها؟ أو لنسيبة أخرى؟".

"لم يكـــن في استطاعة شقيقتها... التعاطي مع الوضع. أن تكوني زنجـــية ببـــشرة بيضاء... في الميسيسيبـــي، هو أشبه بعدم انتمائك إلى أحـــد. ولكـــن الأمـــر لم يكـــن صعباً على الفتاة فحسب، بل على كونـــستنتين أيـــضاً. لقد خشيت... من أن يراها ذوو البشرة البيضاء فيوقفوها ويسألوها عما تفعله مع طفلة بيضاء. لقد اعتاد رجل الشرطة إيقافهـــا في شارع ستيت ستريت، والقول لها إن عليها ارتداء لباسها الرسمي الأبيض. حتى إن ملوَّني البشرة... كانوا يعاملونها بشكل مختلف وبارتياب، كما لو أنها ارتكبت عملاً غير صحيح. لم تستطع إيجاد من يهـــتم للولابيل في أثناء دوام عملها. لقد ذهبت كونستنتين إلى المكان الذي لا يكون عليها فيه إخراج... لولا كثيراً".

"هل كانت تعمل لدى والدتي آنذاك؟".

"كانـــت تعمـــل لدى والدتك قبل سنوات قليلة من لقاء الوالد، كونور. كان يعمل في مزرعتكم، ويقيم في هوتستاك". فهزت آيبيلين رأســـها. "لقد تفاجأنا كلنا بتصرف كونستنتين. ولم يستحسن بعض الأشـــخاص في دار العبادة الأمر، لا سيما وأن الطفلة بيضاء ووالدها ملوّن البشرة مثلي".

"أنـــا واثقة من أن والدتي لم تكن مسرورة أيضاً". كنت على ثقة بمعـــرفة والدتي بكل ما جرى. كانت تُخضِع، باستمرار، كل عاملات المنـــــزل ملـــونات البشرة للمراقبة الشديدة كمراقبة مكان إقامتهنّ،

معرفة إن كنّ متزوجات أم لا، كم عدد أطفالهنّ... كانت تريد معرفة من يتجوّل داخل ملكيتها.

"هـــل كان ميتماً لملوّني البشرة أو لذوي البشرة البيضاء؟". لأنني فكـــرت، كما أملتُ، أن كونستنتين أرادت حياة أفضل لطفلتها. ربما ظنت أن عائلة بيضاء ستقوم بتبنّيها كيلا تشعر بالاختلاف.

"لملوّني البشرة. لم ينشأ مدراء مياتم ذوي البشرة البيضاء تسلّمها، كما سمعتُ، لأنهم كانوا يعلمون كما أظن... ربما مرّت عليهم حالات مماثلة".

"عندما ذهبت كونستنتين مع لولابيل إلى محطة القطار لاصطحابها إلى هـــناك، سمعـــتُ أن أشخاصاً من ذوي البشرة البيضاء كانوا على الرصـــيف يحدّقـــون، بانتظار معرفة سبب وجود فتاة بيضاء البشرة في سيارة يوجد فيها ملوّنو البشرة. وعندما أودعتها كونستنتين ذلك الميتم في شـــيكاغو... لم تتقبّل ابنتها الأمر لأنها كانت في الرابعة من العمر، وبـــدأت بالصراخ. هذا ما قالته كونستنتين لشخص ما في دار العبادة. قالـــت إن لولا كانت تصرخ وتقاوم، محاولةً حمل والدتها على العودة إلـــيها. ولكـــن كونـــستنتين تركتها هناك... بالرغم من قساوة الأمر عليها".

في أثناء استماعي إلى ما تخبرني به آيبيلين، بدأت الفكرة تراودني. لو لم تكن لديّ هذه الوالدة لما فكرتُ في الأمر. "تخلت عنها بسبب... خجلها؟ لأن ابنتها بيضاء البشرة؟".

ففـــتحت آيبيلين فمها لتعارضني الرأي، ولكنها أطبقته، ووجهت نظـــرها إلى الأسفل. "بعد سنوات قليلة، وجهت كونستنتين رسالة إلى الميتم، وقالت لهم إنها ارتكبت خطأً وتريد استعادة ابنتها. ولكن، كان قد تمّ تبنّي لولا. كانت كونستنتين تقول على الدوام إنها ارتكبت أسوأ

خطأ في حياتها". وأسندت آيبيلين ظهرها إلى الكرسي. "وقالت إنها لن تتخلّى أبداً عن لولابيل إذا تمكنت من استعادتها".

فجلستُ بهدوء، دامية القلب على حال كونستنتين. وبدأت أخشى علاقة والدتي بالأمر.

"ولكن قبل عامين، تلقت كونستنتين رسالة من لولابيل. أعتقد أنها كانت في الخامسة والعشرين من عمرها آنذاك، وقالت إن والديها بالتبنّي أعطياها العنوان. وبدأتا تكتبان لبعضهما بعضاً، وقالت لولابيل إنها تريد القدوم والبقاء معها لفترة قصيرة من الزمن. يا الله، كانت كونستنتين عصبية المزاج بسبب عدم تمكنها من السير بشكل مستقيم. لم تكن تتناول الطعام أو تشرب الماء. لقد أضفتُها إلى لائحة الأشخاص الذين أدعو لهم".

منذ عامين، كنت في الكلية. لماذا لم تخبرني كونستنتين في رسائلها بما يجري؟

"لقد أخذت كل مدّخراتها، واشترت للولابيل ملابس جديدة ومستحضرات تجميل لشعرها، وخاطت لحافاً جديداً للسرير الذي ستنام عليه. وقالت لنا في أحد اجتماعات المؤمنين، *ماذا لو كانت تكرهني؟ ستسألني عن سبب قيامي بالتخلي عنها، وما إذا كنت أقول لها الحقيقة... ستكرهني بسبب ما فعلتُ*".

رفعت آيبيلين نظرها عن كوب الشاي، وابتسمَت قليلاً. "قالت لنا، لا أستطيع انتظار حلول لحظة تقوم سكيتر بمقابلتها بعد العودة من الكلية إلى المنزل. لقد نسيتُ ذلك. لم أكن أعرف من تكون سكيتر آنذاك".

تذكرتُ الرسالة الأخيرة التي كنت قد تلقيتها من كونستنتين، وقالت فيها إن لديها مفاجأة لي. وأدركتُ حينذاك أنها تريد تعريفي

إلى ابنـــتها. فابـــتلعتُ دموعـــي. "ماذا حدث عندما قدمت لولابيل لرؤيتها؟".

دفعت آيبيلين الرسالة عبر الطاولة. "أظن أنه يجدر بك قراءة ذلك الجزء في المنـــزل".

في المنـــــزل، صعدتُ إلى الطابق العُلوي. وقبل الجلوس، فتحتُ رســـالة آيبـــيلين. كانت مكتوبة على صفحتي ورقة من مفكّرتها بقلم رصاص وحروف متصلة.

بعد ذلك، حدّقتُ إلى الصفحات الثماني التي كنت قد كتبتها عن الـــذهاب سيراً على الأقدام مع كونستنتين إلى هوتستاك، والأُحجيات الـــتي أنجزناها معاً، والضغط بإبهامها على يدي. وأخذتُ نفساً عميقاً، ووضـــعت يديّ على مفاتيح الآلة الكاتبة. لم يعُد في استطاعتي تضييع مزيد من الوقت. كان عليّ إنهاء قصتها.

لقـــد كتـــبتُ مــــا أخبرتني به آيبيلين، وهو أن لكونستنتين ابنة اضـــطُرت إلى التخلي عنها لتتمكن من العمل لدى عائلتنا، وقد دعوتها عائلة ميلرز، تيمّناً بهنري كاتبـــي المفضَّل المحظَّرة أعماله. ولم أذكر أن لون بشرة ابنة كونستنتين بيضاء مائلة إلى الصُّفرة، أردت التركيز على أن حـــب كونـــستنتين لي بدأ مع افتقادها لابنتها لأن هذا الأمر يجعل القـــصة فـــريدة وعميقة، ولم يكن لون بشرتي البيضاء ذا أهمية. كنت أتـــوق إلى عدم شعور والدتي بالإحباط مني، مقارَنةً مع كونستنتين التي تريد استعادة ابنتها.

طـــوال يـــومين، كتبت عن طفولتي، والسنوات التي أمضيتها في الكلـــية، وتوجـــيه الرسائل إلى بعضنا بعضاً أسبوعياً. ولكنني توقفت آنـــذاك، واستمعتُ إلى سعال والدتي في الطابق السفلي. وسمعتُ وقع خطـــى والـــدي متوجّهاً إليها. فأشعلتُ سيجارة وأطفأتها، مفكرةً، لا

تعودي إلى التدخين. واندفع ماء المرحاض، حاملاً معه المزيد من جسد والدتي. فأشعلتُ سيجارة أخرى، ودخّنتها إلى أن بلغت أصابعي. لم أستطع كتابة ما جاء في رسالة آيبيلين.

بعد ظهر ذلك اليوم، اتصلتُ بآيبيلين إلى منزلها. "لا يمكنني وضع ذلك في الكتاب". قلت لها: "عن والدتي وكونستنتين. سأنهي الفصل بذهابي إلى الكلية. لقد...".

"يا آنسة سكيتر...".

"أعلم أنه يُفترض بي ذلك. أعلم أنه يُفترض بي التضحية بقدرك وبقدر ميني وبقدركنّ جميعاً. ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بوالدتي".

"لا أحد يتوقع منك القيام بذلك، يا آنسة سكيتر. في الحقيقة، من غير اللائق أن تقومي بذلك".

في مساء اليوم التالي، قصدتُ المطبخ لتناول بعض الشاي.

"يا أوجينيا؟ هل أنت في الطابق السفلي؟".

توجهتُ إلى غرفة والدتي. لم يكن والدي قد لجأ إلى السرير بعد لأنني سمعتُ صوت التلفاز في غرفة الاستجمام. "أنا هنا، يا أمي".

كانت على سريرها منذ السادسة مساءً، والإناء الأبيض بجانبها. "هل كنت تبكين؟ تعرفين أن ذلك يجعل بشرتك تشيخ، يا عزيزتي".

جلستُ على كرسي القصب المستقيم بجانب سريرها. وفكرتُ في كيفية التطرق إلى الموضوع. كان جزء مني يفهم سبب تصرّف والدتي بتلك الطريقة، لأن ما فعلته لولابيل أغضب الجميع، ولكنني كنت بحاجة إلى سماع القصة كما ترويها والدتي. أردت أن أعرف إذا أغفلت آيبيلين أمراً ما عن والدتي في الرسالة.

"أريد التحدث عن كونستنتين". قلت.

"آه، يا أوجينيا". قالت والدتي موبِّخة، وضربتني برفق على يدي. "لقد مضى على ذلك عامان".

"يـــا أمي". قلت، ونظرت إلى عينيها. فبالرغم من نحولها المروِّع وطـــول عظمة ترقوتها وضيقها كما بدت تحت بشرتها، كانت عيناها تكشفان عن حدة في الذكاء كما هي حالها على الدوام. "ماذا حدث؟ ماذا حدث لابنتها؟".

تـــصلّب فك والدتي، وتفاجأت بمعرفتي هذا الأمر. فتوقعتُ منها رفض التحدث عن الأمر كما في السابق. وأخذَت نفساً عميقاً، وقرّبَت الإنـــاء الأبيض منها، وقالت: "أرسلتها كونستنتين للعيش في شيكاغو. لم يكن في استطاعتها الاعتناء بها".

أومأتُ برأسي، وانتظرتُ.

"إنهـــم مخـــتلفون مـــن هذه الناحية، كما تعرفين. يُرزق هؤلاء الأشخاص بأطفال ولا يفكرون في العواقب إلا بعد فوات الأوان".

إنهـــم، هؤلاء الأشخاص. لقد ذكّرني ذلك بهيلي. ورأت والدتي الاشمئزاز على وجهي.

"انظـــري، لقد أحسنتُ معاملة كونستنتين. آه، كانت تجيبني في كثير من الأوقات بفظاظة وقلة احترام، وتحمّلتُ ذلك. ولكنها لم تترك لي خياراً في تلك المرة، يا سكيتر".

"أعلم، يا أمي. أعرف ما حدث".

"من أخبرك؟ من غيرك يعرف بذلك؟". ورأيت الذُّهان الارتيابـــي في عينيها. لقد تحقق خوفها الأكبر، وشعرتُ بالأسف عليها.

"لـــن أخـــبرك أبداً من أخبرني بذلك. كل ما يمكنني قوله هو أنه شـــخص... غـــير ذي أهمية بالنسبة إليك". قلت: "لا أستطيع تصديق أنك تفعلين ذلك، يا أمي".

"كيف تجرؤين على الحكم عليّ بعد كل ما قامت به. هل تعرفين حقــاً ما حدث؟ هل كنت هناك؟". ورأيت المرأة المسنّة الغاضبة، امرأة يصعب التغلب عليها تحمّلت نــزف قرحتها طوال سنوات.

"تلك الفتاة...". وهزّت إصبعها المكوَّرة باتجاهي. "لقد حضرَت إلى المنــزل. كان هناك اجتماع في المنــزل لأعضاء منظمة دي أيه أر كافة. كنتِ في الكلية، وكان جرس الباب يرنّ بلا توقف، وكونستنتين في المطــبخ تُعِــدّ كل تلك الكمية من القهوة التي أُريقت من مصفاة القهــوة على إناءين". ولوّحت والدتي بيدها، تعبيراً عن رائحة القهوة المحــروقة. "كانوا كلهم في غرفة الجلوس يتناولون الكيك، كان هناك خمــسة وتــسعون شخــصاً في المنــزل، وهي تشرب القهوة. كانت تــتحدث إلى ساره فون سيسترن، وتجوب المنــزل كما لو أنها ضيفة، وتتناول الكيك، وتملأ الاستمارة لتصبح عضوة".

أومأتُ برأسي مجدداً. ربما لم أكن أعرف تلك التفاصيل، ولكنها لا تبدّل ما حدث.

"لقــد بدت بيضاء كالجميع، وكانت تعرف ذلك أيضاً. كانت تعرف بالتحديد ما الذي تقوم به، فقلتُ لها، *كيف حالك؟* فضحكَت وقالــت، *بخــير*، فقلتُ، *وما اسمك؟* قالت، *تعنين أنك لا تعرفين؟ أنا لولابيل بيتس. أنا راشدة الآن وانتقلتُ للإقامة مع والدتي. وصلتُ إلى هنا صباح يوم أمس*. وذهبَت بعد ذلك لتناول قطعة كيك أخرى".

"بيتس". قلت لأنه تفصيل آخر لم أكن على علم به، بالرغم من عدم أهميته. "لقد اعتمدت الاسم الأخير لكونستنتين".

"شكراً لله لأن أحداً لم يسمعها. ولكنها بدأت تتحدث بعدئذ إلى فوب ميلر، رئيس الولايات الجنوبية في منظمة دي أيه أر. فسحبتُها إلى المطــبخ وقلــت، *يا لولابيل، لا يمكنك البقاء هنا. عليك الاستمرار في*

حياتك، ونظرت إليّ بتكبّر، وقالت، *ماذا، لا تسمحين بدخول زنجيات إلى غـــرفة الجلوس إذا لم يكنّ يقمن بأعمال التنظيف؟* عندها، دخلت كونــستنتين إلى المطـــبخ، ونظـــرت مصعوقة على غراري. فقلت، *يا لولابيل، اخرجي من هذا المنـــزل قبل أن أتصل بالسيد فيلان*، ولكنها لم تتزحزح من مكانها، وقالت إنني عندما كنت أظن أنها بيضاء البشرة، كـــنت أعاملها بشكل لائق، وقالت إنها كانت منتسبة في شيكاغو إلى جماعـــة ســـرّية. فقلت لكونستنتين، *أخرجي ابنتك من منـــزلي على الفور*".

وبدت عينا والدتي غائرتين أكثر من أي وقت مضى. وكان أنفها متوهِّجاً غضباً.

"هكـــذا، طلـــبت كونستنتين من لولابيل العودة إلى منـــزلهما، فقالـــت لولابيل، *حسناً، كنت مغادرة على كل حال*، وتوجهَت إلى غرفة الطعام، ولكنني أوقفتها بالطبع. *آه، لا* ، قلتُ، *أخرجي من الباب الخلفي، وليس من الباب الأمامي مع الضيوف البيض*. لم أشأ أن تعرف الـــدي أيه أر هذا الأمر. وطلبتُ من تلك الفتاة البذيئة، التي كنا نعطي أمهـــا عـــشرة دولارات إضافية كل ميلاد *ألا تطأ أرض هذه المزرعة مجدداً*. وهل تعرفين ماذا فعلَت؟".

أجـــل، قلـــتُ لنفسي، ولكنني أبقيت وجهي خالياً من أي تعبير لأنني كنت أبحث عن أمر ما يعوّض عمّا ارتكبته والدتي من أخطاء.

"لقد بصقت في وجهي. زنجية في منـــزلي تحاول التصرف كفتاة بيضاء البشرة".

فارتعدتُ. من تجرّأ يوماً على البصق في وجه والدتي؟

"فقلـــتُ لكونستنتين إنه من الأفضل لتلك الفتاة ألا تُريني وجهها هـــنا، أو في هوتستاك، أو في ولاية ميسيسيبـــي، مرة أخرى، وإنني لن

أحـــتمل وجـــود علاقـــة بينها وبين لولابيل ما دام والدك يدفع إيجار منـــزل كونستنتين ذاك".

"ولكن، لا علاقة لكونستنتين بذلك".

"مـــاذا لـــو بقـــيَت؟ لم أســـتطع أن أتخيّل تلك الفتاة تجوب أنحاء جاكسون، وتتصرف كما لو أنها بيضاء البشرة، في حين أنها ملوّنة البشرة، وتخبر الجميع أنها باتت عضوة في منظمة دي أيه أر في لونغليف. فشكرتُ الله لأن أحـــداً لم يعـــرف ما جرى. لقد حاولَت إحراجي في منـــزلي، يا أوجينيا. وقبل خمس دقائق، كانت تملأ استمارة *الانتساب*".

"لم ترَ ابنتها طوال عشرين عاماً. لا يمكنك... أن تقولي لشخص ما إنه لا يستطيع رؤية ابنه أو ابنته".

لكـــن والـــدتي تمـــسكت بروايتها. "وظنت كونستنتين أن في اســـتطاعتها حملي على تغيير موقفي. فقالت، *يا آنسة فيلان، أرجوك، دعيها تبقى في المنـــزل، لن تقترب من هذه الناحية مجدداً، لم أرَها منذ وقت طويل*".

"قالـــت لولابيل تلك ويدها على شفتها، *أجل، لقد توفّي والدي وكانـــت والـــدتي مريضة جداً ولم تستطع الاعتناء بـــي عندما كنت طفلة. كان عليها أن تَهبني لعائلة أخرى. لا يمكنك فصلنا عن بعضنا*".

أخفضَت والدتي صوتها، وبدت واقعية. "نظرتُ إلى كونستنتين، وشـــعرتُ أنها مصدر خزي وعار. لقد أصبحَت حاملاً أولاً، وكذبَت بعد ذلك...".

فشعرتُ بالحرارة وبرغبة في الغثيان، وبتّ مستعدة لإنهاء الحديث.

وضـــيّقت والدتي عينيها. "حان الوقت لتعلمي، يا أوجينيا، كيف هـــي الأمـــور في الواقـــع. أنت تحبين كونستنتين كثيراً، ولطالما كنت كذلك". وأشارت بإصبعها إليّ. "ليسوا *كالأشخاص* المألوفين".

لم أستطع النظر إليها، فأغمضتُ عينيّ. "وماذا حدث بعد ذلك، يا أمي؟".

"سـألتُ كونستنتين سؤالاً واضحاً بوضوح النهار، *هل هذا ما أخبرتها به؟ هل تتستّرين على أخطائك على هذا النحو؟*".

كان الجزء الذي أملتُ في ألا يكون صحيحاً، وأن تكون آيبيلين غير مصيبة في شأنه.

"لقـد أخبرتُ لولابيل الحقيقة. قلت لها، *والدك لم يمت. غادر في اليوم التالي لولادتك. ولم تكن والدتك مريضة في يوم من الأيام. لقد منحتك لعائلة أخرى بسبب لون بشرتك الأبيض المائل إلى الصُّفرة. لم تكن تريدك*".

"لمـاذا لم تستطيعي تركها تعتقد بما قالته لها كونستنتين؟ كانت كونستنتين خائفة جداً من ألا تحبها، لذلك قالت لها تلك الأمور".

"لأن لولابـيل كانت بحاجة إلى معرفة الحقيقة. كانت بحاجة إلى العودة إلى شيكاغو حيث تنتمي".

غرق رأسي بين يديّ. لا وجود لما يعوّض عما ارتكبته والدتي من أخطاء. لقد عرفتُ أن آيبيلين لم تشأ إخباري. يُفترض بالابن أو الابنة ألا يواجَه أبداً بحقيقة والدته.

"لم أفكـر أبـداً في أن كونـستنتين ستغادر معها إلى إيلينوي، يا أوجينيا. صدقاً، لقد... أسفتُ لدى رؤيتها تغادر".

"لم تأسفي". قلت. وفكرتُ في كونستنتين جالسة في شقة صغيرة في شـيكاغو بعـد مـرور خمـسين عاماً في الريف، ومدى شعورها بالوحدة، ومدى سوء حال ركبتيها في ذلك الطقس البارد.

"لقـد أسـفتُ. وبالرغم من أنني طلبت منها عدم الكتابة لك، لَقامت بذلك ربما لو كانت تملك مزيداً من الوقت".

"مزيداً من الوقت؟".

"لقد توفيت كونستنتين، يا سكيتر. أرسلتُ لها شيكاً بمناسبة ذكرى مولدها إلى عنوانها مع ابنتها الذي عثرت عليه، ولكن لولابيل... أعادته مع نسخة عن ورقة النَّعي".

"*كونستنتين*...". وبكيتُ، وتمنيتُ لو أنني لم أعرف. "لماذا لم تخبريني، يا أمي؟".

شهقَت الوالدة، مُبقيةً نظرها إلى الأمام. ومسحَت عينيها بسرعة. "لأنني كنت أعرف أنك ستُلقين اللوم عليّ، في حين أنه ليس خطأي".

"متى توفيت؟ ما المدة التي أمضتها في شيكاغو؟". سألتُ.

وسحبت الوالدة الإناء باتجاهها، وضمّته إلى جنبها. "ثلاثة أسابيع".

فتحت آيبيلين الباب الخلفي لمنزلها، وأدخلتني. كانت ميني جالسة إلى الطاولة تحرك قهوتها. وعندما رأتني، سحبت كمّ فستانها إلى الأسفل، ولكنني رأيت حافة ضمادة على ذراعها. فألقت التحية، مزمجرة، وأكملت التحريك.

فوضعتُ المخطوط على الطاولة بعزم.

"إذا أرسلتُه عبر البريد في الصباح، يتبقى ستة أيام ليصل إلى هناك. قد ننجح في ذلك". وابتسمتُ بالرغم من شعوري بالإنهاك.

"يا الله، إنه كبير الحجم. انظري إلى صفحاته". وابتسمت آيبيلين ابتسامة عريضة، وجلسَت على كرسيّها الذي لا ظهر له. "مئتان وست وستون صفحة".

"الآن، ننتظر... فحسب ونرى". قلت، وحدّقنا ثلاثتنا إلى كدسة الورق.

"أخيراً". قالت ميني، واستطعت رؤية أمر ما على وجهها، لم يكن ابتسامة بالتحديد بل ما يشبه الرضى.

ساد الهدوءُ الغرفة. كان الظلام دامساً خارج النافذة. وكان مكتب البريد مُقفَلاً، لذلك حملتُه إلى هناك لأُريه لآيبيلين وميني للمرة الأخيرة قبل إرساله عبر البريد. في العادة، كنت أحمل معي أقساماً من الكتاب.

"ماذا لو اكتشفوا الأمر؟". سألَت آيبيلين بهدوء.

فرفعَت ميني نظرها عن قهوتها.

"ماذا لو اكتشفوا أن نايسفيل هي جاكسون وعرفوا شخصيات الكتاب".

"لن يعرفوا ذلك". قالت ميني. "جاكسون ليست مكاناً استثنائياً. هناك عشرة آلاف مدينة مثلها".

كففنا عن التحدث عن ذلك لقليل من الوقت. فإلى جانب تعليقات ميني عما سيقوله الناس، لم نناقش في الواقع العواقب الفعلية لافتضاح أمرنا وفقدان الخادمات لأعمالهنّ. فطوال الأشهر الثمانية السابقة، كان إنجاز الكتاب شغلنا الشاغل.

"يا ميني، قد يكتشف ابناك وبناتك الأمر". قالت آيبيلين. "وإذا عرف... ليروي...".

تبدّلت النظرات الواثقة في عيني ميني إلى حركات مفاجئة، وذُهان ارتيابي. "سيُجنّ ليروي". وسحبت كمها نحو الأسفل مجدداً. "سيُجَنّ ويحزن إذا ألقى ذوو البشرة البيضاء القبض عليّ".

"هل تظنين أنه يجدر بنا ربما إيجاد مكان يمكننا الذهاب إليه... إذا ازداد الأمر سوءاً؟". سألَت آيبيلين.

فكّرتا في الأمر، ومن ثم هزتا رأسيهما. "لا أعرف إلى أين نذهب". قالت ميني.

"فكــري في ذلــك، يــا آنــسة سكيتر. فكري في إيجاد مكان لنفسك". قالت آيبيلين.

"لا يمكــنني تــرك والدتي". قلت. كنت واقفة، وجلستُ على الكرســي. "يــا آيبيلين، هل تظنين حقاً أنهم... سيُلحقون بنا الأذى؟ أعني، كما نقرأ في الصحف؟".

نظــرت إليّ آيبيلين، مُميلةً رأسها ومُربَكة. وغضّنت جبينها كما لــو أن هناك سوء فهم. "سيضربوننا. سيأتون إلى هنا حاملين مضارب البيسبول. قد لا يقتلوننا، ولكن...".

"ولكــن... مــن هــم بالــتحديد الــذين سيقومون بذلك؟ النساء البيضاوات اللواتي كتبنا عنهنّ... لن يؤذيننا. هل سيؤذيننا؟". سألتُ.

"ألا تعــرفين أن أكثــر مــا يحبه الرجال البيض هو *حماية* النساء البيضاوات في مدينتهم؟".

فــشعرتُ بوخز في بشرتي. لم أكن خائفة على نفسي، بل بما قد أتــسبب به لآيبيلين، وميني، ولوفينيا، وفاي بيل، وثماني نساء أخريات. وكــان الكتاب موضوعاً على الطاولة هناك، فأردتُ وضعه في حقيبتي المدرسية وإخفاءه.

لكــن بــدلاً من ذلك، نظرت إلى ميني لأنني ظننتُ لسبب من الأســباب أنها الوحيدة بيننا التي تفهم حقاً عواقب ما قد يحدث. ومع ذلــك، لم تكن تنظر إليّ. كانت غارقة في التفكير، وتمرّر إبهامها على شفتها ذهاباً وإيّاباً.

"يا ميني، ما رأيك؟". سألتُ.

أبقــت ميني نظرها مُركّزاً على النافذة، وأومأت في أثناء التفكير.

"أظن أننا بحاجة إلى *ضمانة* ما".

"لا وجود لأمر مماثل". قالت آيبيلين: "ليس لنا".

"ماذا لو أضفنا الأمر الشنيع والمروِّع إلى الكتاب؟". سألت ميني.

"لا يمكننا ذلك، يا ميني". قالت آيبيلين: "سيُفتضح أمرنا".

"لكــن، إذا أضفناه إلى الكتاب، لن تسمح الآنسة هيلي لأحد أن يكتشف أن الكتاب يتناول جاكسون. لن تريد أن يعرف أحد أن تلك القــصة تتــناولها. وإذا بدأوا بالاقتراب من اكتشاف الحقيقة، ستقوم بتحويل انتباههم".

"يا الله، يا ميني، في الأمر مجازفة كبيرة. لا أحد يستطيع التوقع بما يمكن لتلك المرأة أن تفعل".

"لا أحــد يعرف تلك القصة سوى الآنسة هيلي ووالدتها". قالت ميني. "والآنسة سيليا، ولكن لا صديقات لها لتخبرهنّ على كل حال".

"ماذا حدث؟". سألتُ. "هل الأمر مروّع إلى هذا الحد؟".

نظرت آيبيلين إليّ، وارتفع حاجباي.

"لمــن ســتُقرّ بالأمر؟". سألت ميني آيبيلين. "لن ترغب أيضاً في افتــضاح أمرك وأمر الآنسة ليفولت، يا آيبيلين، لأن الناس سيكونون علــى بُعد خطوة واحدة منا. برأيي، إن الآنسة هيلي هي أفضل ضمانة يمكننا الحصول عليها".

فهــزت آيبــيلين رأســها، وأومأت به بعد ذلك، وهزته مجدداً. فراقبناها وانتظرنا.

"إذا أضــفنا الأمــر الشنيع والمروِّع إلى الكتاب واكتشف الناس أمرك وأمر الآنسة هيلي، ستواجهين مشكلة كبيرة". وارتعدَت آيبيلين قائلة: "لا مثيل لها".

"إنهــا مجازفــة ســأقوم بها. لقد اتخذتُ قراري. إما تضعونه أو تسحبون الجزء المتعلق بــي".

نظـــرت آيـــيلين ومـــيني إلى بعضهما بعضاً. لم يكن في إمكاننا سحب الجزء المتعلق بميني، إنه الفصل الأخير في الكتاب الذي يشير إلى تعرّضـــها للطرد تسع عشرة مرة في المدينة الصغيرة نفسها، وإلى كيفية كبتها مشاعر الغضب من دون أن تنجح في ذلك. يبدأ الفصل بقواعد والدها حول كيفية العمل لدى نساء بيضاوات البشرة، وينتهي بالتوقف عـــن العمل لدى السيدة والترز. وأردت إبداء رأيي بصراحة، ولكنني أبقيتُ فمي مُطبَقاً.

أخيراً، تنهدت آيبيلين.

"حـــسناً". قالـــت آيـــيلين، هازةً رأسها: "أظن أن من الأفضل إخبارها إذاً".

فنظرت ميني إليّ، مضيّقة عينيها. وسحبتُ قلم رصاص وإضمامة ورق.

"أخـــبرك بذلك لأجل الكتاب فقط، هل تفهمين. لا نتشاطر هنا أسرارنا".

"سأُعدّ بعض القهوة". قالت آيبيلين.

في طـــريق عـــودتي إلى لونغليف، كنت مُرتعدة، وأفكر في قصة فطـــيرة مـــيني. لم أكـــن أعرف أيّاً من الخطوتين ستوفر لنا أمناً أكبر، إضـــافتها إلى الكـــتاب أم لا. ناهيكم عن أنني إذا لم أتمكن من إرسال الكـــتاب عبر البريد في اليوم التالي، سنتأخر يوماً إضافياً، مما يقلل فرص وصول الكتاب في الحد الزمني الأقصى. كان في استطاعتي تخيّل الغضب الأحمر على وجه هيلي، والكره الذي كانت لا تزال تكنّه لميني. أعرف صديقتي القديمة جيداً. فإذا افتُضح أمرنا، ستكون هيلي عدوّتنا اللدودة. وإذا لم يُفتضَح أمرنا، ستتسبب طباعة قصة الفطيرة بسورة غضب لهيلي لم نشهد لها مثيلاً. ولكن ميني مُحقة، إنها ضمانتنا الفضلى.

كنت أنظر فوق كتفي كلما اجتزتُ ربع ميل. ولم أتخطَّ حدود السرعة، وسلكتُ الطرقات الخلفية. كانت كلمة *سيضربوننا* تَرنّ في أذنيّ.

لقد أمضيت الليل كله واليوم التالي بأكمله في الكتابة، مقطَّبة الجبين بسبب تفاصيل قصة ميني. وفي الرابعة بعد الظهر، وضعتُ المخطوط في مغلّف رسائل من الورق المقوّى، ولففته بسرعة بورقة تغليف بنّية اللون. فالأمر يتطلب في العادة سبعة أو ثمانية أيام لوصول البريد إلى مدينة نيويورك، ولكن كان عليه الوصول في غضون ستة أيام بطريقة من الطرائق.

انطلقتُ بأقصى سرعة إلى مكتب البريد بالرغم من خوفي من الشرطة، علماً أنه يُقفل عند الرابعة والنصف، واندفعتُ إلى النافذة في الداخل. لم أنم منذ ليلتين، وكان شعري متطايراً. فاتسعَت عينا ساعي البريد.

"هل الطقس عاصف في الخارج؟".

"رجاءً. هل يمكنك إرسال هذا اليوم؟ هو مُرسَل إلى نيويورك".

فنظر إلى العنوان. "لقد انطلقت الشاحنة المخصصة لنقل البريد خارج المدينة، يا سيدتي. سيكون عليه الانتظار حتى الغد".

ووضع الطابع البريدي، وعدت إلى المنزل.

حالما دخلتُ، توجهتُ إلى غرفة المؤونة مباشرةً واتصلتُ بمكتب إلين شتاين. فحوّلتني سكرتيرتها لها، وأخبرتها بصوت أجشّ ومُرهَق أنني أرسلتُ المخطوط عبر البريد في ذلك اليوم.

"سيجري الاجتماع الأخير للمحررين بعد ستة أيام، يا أوجينيا. ليس عليه الوصول إلى هنا في الوقت المحدد فحسب، بل يجب أن يكون لديّ الوقت لقراءته. برأيي، من غير المحتمَل أن يتم التطرق إليه في أثناء الاجتماع".

لم يتــبقَّ لي شــيء أقوله، لذلك، همهمتُ قائلة: "أعرف ذلك. شكراً لمنحي الفرصة". وأضفت: "ميلاد مجيد يا سيدة شتاين".

"ندعوه هانوكاه، ولكن شكراً لك يا آنسة فيلان".

الفصل الثامن والعشرون

بعـــد إنهـــاء المكالمة الهاتفية، قصدتُ الرُّواق الخارجي، وحدّقتُ إلى الأرض الـــباردة. كنت مُنهَكة لدرجة أنني لم ألاحظ وجود سيارة الطبيب نيل هناك. لا بد من أنه وصل في أثناء وجودي في مكتب البريد. فانحنيت على الدرابزين منتظرةً خروجه من غرفة والدتي. وعبر الرّدهة، ومن خلال الباب الأمامي المفتوح، استطعت رؤية باب غرفة نومها مُغلَقاً.

بعد قليل، خرج الطبيب نيل إلى الرواق وأغلق باب غرفتها وراءه برفق، ووقف بجانبـــي.

"لقد أعطيتها شيئاً يساعد على التخفيف من ألمها". قال.

"الـــ... ألم؟ هل كانت والدتي تتقيّأ هذا الصباح؟".

فحدّق الطبيب نيل المسنّ إليّ بعينيه الزرقاوين العكرتين. ونظر إليّ مطـــوَّلاً كمـــا لـــو أنه يحاول اتخاذ قرار ما في شأني. "والدتك مصابة بالسرطان، يا أوجينيا، في غشاء المعدة".

فأســـندتُ يدي إلى الجدار. لقد شعرت بصدمة، ومع ذلك، ألم أكن أرتاب بذلك؟

"لم تشأ إخبارك". وهزّ رأسه. "ولكن، بما أنها ترفض المكوث في المستـــشفى، كان يجب إعلامك بالأمر. ستكون الأشهر القليلة

القادمـــة... قاسـية جـــداً". ورفـــع حاجبيه لي. "عليها وعليك أيضاً".

"أشهر قليلة؟ هل هذا... كل ما تبقى لها؟". وغطّيتُ فمي بيدي، وسمعتُ نفسي أتأوّه.

"ربمـــا مدة أطول، ربما مدة أقصر، يا عزيزتي". وهز رأسه. "ومع ذلـــك، وبمـــا أنني أعرف والدتك". وألقى نظرة على المنـــزل وتابع القول: "فهي ستقاوم المرض كما لو أنه الشرير".

ووقفتُ هناك مذهولة، غير قادرة على الكلام.

"اتـــصلي بـــــي في أي وقـــت، يـــا أوجينيا. في العيادة أو في المنـــزل".

دخلتُ المنـــزل، عائدةً إلى غرفة والدتي. كان والدي جالساً على الأريكـــة بجانـــب الـــسرير يحدّق إلى الفراغ، ووالدتي جالسة بشكل مستقيم. فقلّبت عينيها عندما رأتني.

"حسناً، أظن أنه أخبرك". قالت.

سالت الدموع على وجنتيّ قطرات قطرات، وأمسكتُ يديها.

"منذ متى تعرفين؟".

"منذ شهرين تقريباً".

"آه، *يا أمي*".

"الآن، كفّي عن ذلك، يا أوجينيا. لن يفيد ذلك بشيء".

"ولكـــن، مـــاذا يمكـــنني أن... لا يمكنني الجلوس هنا فحسب وأراك...". ولم أستطع اختيار الكلمة المناسبة. فكل الكلمات مروِّعة.

"لـــيس علـــيك *الجلـــوس* هنا بالتأكيد. سيغدو كارلتون محامياً، وأنت...". وهزت إصبعها باتجاهي. "لا تعتقدي أنك تستطيعين إهمال نفـــسك بعد رحيلي. سأتصل بمركز فاني ماو للتجميل حالما أتمكن من

السير إلى المطبخ، وأحدد لك مواعيد لتصفيف شعرك طوال العام 1975".

فجلستُ على الأريكة، ووضع والدي ذراعه حولي. فانحنيتُ عليه وبكيت.

جفّت شجرة الميلاد التي نصبها جيمسو، وكانت أوراقها الإبرية تتساقط كلما دخل أحدهم غرفة الاستجمام. كانت لا تزال هناك ستة أيام لحلول الميلاد، ولكن أحداً لم يسقِها. فالهدايا القليلة التي اشترها والدتي وغلّفتها في تموز/يوليو الأسبق موجودة تحت الشجرة. هدية لوالدي ومن الواضح أنها ربطة عُنُق ليضعها عندما يذهب إلى دار العبادة، وشيء صغير ومربّع لكارلتون، وعلبة ثقيلة لي اشتبهتُ أنها تحتوي كتاباً جديداً. وبعد أن عرف الجميع بمرض والدتي، بدا الأمر كما لو أن الخيوط القليلة التي تُبقيها منتصبة أفلتت. لقد انقطعت خيوط الدُّمية المتحركة، حتى إن رأسها بدا مترنحاً على قاعدته. فأقصى ما كان في إمكانها القيام به هو النهوض والذهاب إلى الحمّام، أو الجلوس في الرُّواق الخارجي لبضع دقائق كل يوم.

بعد الظهر، حملتُ البريد لوالدتي، مجلة *التدبير الجيد لشؤون المنزل*، والنشرات الدَّورية لدار العبادة، وآخر نشاطات منظمة دي أيه أر.

"كيف حالك؟". وأعدتُ شعرها إلى الوراء، وأغمضَت عينيها كما لو أنها تستمتع بذلك الشعور. لقد أصبحت الطفلة وأنا الوالدة.

"أنا بخير".

دخلت باسكاغولا، ووضعت صينية حساء على الطاولة. وهزت والدتي رأسها قليلاً عندما غادرَت، محدّقةً إلى مدخل الباب الفارغ.

"آه، لا". قالت، متجهّمة الوجه: "لا أستطيع الأكل".

"ليس عليك أن تأكلي، يا أمي. سنقوم بذلك في وقت لاحق".

"لم يعد الأمر كما في السابق بوجود باسكاغولا، أليس كذلك؟". قالت.

"أجل". قلت: "الأمر مختلف". كانت المرة الأولى التي تذكر فيها كونستنتين منذ نقاشنا الرهيب.

"يقولـــون إن عاملة المنـــزل الجيدة هي أشبه بالحب الحقيقي. لا تحصلين عليه إلا مرة واحدة في الحياة".

فأومأتُ برأسي، مفكرةً في مدى لهفتي لتدوين ذلك، وإضافته إلى الكتاب. ولكن لا جدوى من ذلك، بالطبع؛ لقد أُرسل عبر البريد. ولم تكن بيدي حيلة، وكل ما كان في إمكاننا القيام به هو انتظار الآتي.

كانت عشية الميلاد مُحزنة، ماطرة، دافئة، يخرج والدي من غرفة والـــدتي كل نصف ساعة، وينظر خارج النافذة الأمامية ويسأل: "هل وصـــل؟". بالرغم من أن أحداً لم يكن يُصغي. كان شقيقي كارلتون عائداً من كلية الحقوق أل أس يو، وسنشعر كلنا بالارتياح لرؤيته معنا. لقـــد أمضت والدتي اليوم كله بالتقيّؤ، وتكاد لا تستطيع إبقاء عينيها مفتوحتين، ولا تتمكن من النوم.

"يـــا شارلوت، أنت بحاجة إلى مستشفى". قال الطبيب نيل بعد ظهـــر ذلك اليوم، ولا أعرف كم مرة قال ذلك في الأسبوع السابق. "دعيني على الأقل أصطحب الممرضة إلى هنا لتبقى معك".

"يـــا تـــشارلز نـــيل". قالت والدتي من دون أن ترفع رأسها عن الفراش: "لن أمضي أيامي الأخيرة في مستشفى، ولن أحوّل منـــزلي إلى مستشفى".

تنهد الطبيب نيل فحسب، وأعطى والدي كمية إضافية من دواء جديد، وشرح له كيفية إعطائه لها.

وسمعتُ والدي يهمس في الرَّدهة: "ولكن هل سيساعدها؟ هل سيحملها على الشعور بتحسن؟".

فوضع الطبيب نيل يده على كتف والدي وقال: "لا".

عند الساعة السادسة من ذلك المساء، وصل كارلتون أخيراً، ودخل المنزل.

"مرحباً، يا سكيتر". قال، وعانقني. كانت ملابسه متغضّنة بسبب قيادة السيارة، ويبدو وسيماً بكنزة كليته الصوفية، وتفوح منه رائحة الهواء المنعش. من الجيد أن يكون هناك شخص آخر معنا. "يا الله، لمَ الجو حار في هذا المنزل؟".

"تشعر بالبرد". قلت بهدوء: "طوال الوقت".

ذهبتُ معه إلى الناحية الخلفية من المنزل. كانت والدتي جالسة عندما رأته، ومدّت له ذراعيها النحيلتين. "آه، يا كارلتون، أنت في المنزل". قالت.

فتسمّر كارلتون في مكانه، وانحنى بعد ذلك، وعانقها برِفق شديد. وألقى عليّ نظرة سريعة، استطعت رؤية هَول الصدمة على وجهه. فاستدرتُ وغطيتُ فمي كيلا أبكي لأنه لم تكن في استطاعتي المغادرة. وأخبرتني نظرة كارلتون بأكثر مما أريد معرفته.

عندما مرّ ستيوارت بمنزلنا في الميلاد، لم أوقفه عندما حاول تقبيلي، ولكنني قلت له: "أسمح لك بذلك لأن والدتي على فراش الموت".

"يا أوجينيا". نادت والدتي. كنا في عشية رأس السنة أُعدّ بعض الشاي في المطبخ. لقد مضت فترة الميلاد، وأخرج جيمسو الشجرة في صباح ذلك اليوم. كانت الأوراق الإبرية لا تزال مبعثَرة في أرجاء المنزل، ولكنني تمكنت من رفع الزينة ووضعها جانباً. كنت مُتعَبة

ومُحبَطة، وأحاول لف كل قطعة على غرار والدتي، ووضعها في الخزانة بحـــيث تكـــون جاهـــزة للاســـتخدام في العام التالي. لم أسمح لنفسي بالتساؤل حول جدوى الأمر.

لم يَردني أي خبر من السيدة شتاين منذ مدة، ولم أعرف كذلك إذا وصل الطرد البريدي في الوقت المحدد. ففي الليلة السابقة، لم أتمكن مـــن تمالك نفسي واتصلتُ بآيبيلين لأخبرها أن أي خبر لم يصلني بعد، ولأشعر ببعض الارتياح لدى التحدث إلى أحدهم عن الأمر. "لا أزال أفكـــر في أمـــور كان يتعيّن علينا إضافتها إلى الكتاب". قالت آيبيلين. "وأستمر في تذكير نفسي أننا أرسلناه".

"أنا أيضاً". قلت. "أتصل بك حالما يردني أي خبر".

ذهبتُ إلى الناحية الخلفية من المنـــزل. كانت والدتي تُسنِد نفسها إلى الوســـادة. لقد تعلّمنا أن الجلوس بشكل مستقيم يساعد على إخماد الشعور بالتقيّؤ. كان الإناء المصقول الأبيض بجانبها.

"مرحباً، يا أمي". قلت: "ماذا يمكنني أن أُحضر لك؟".

"يا أوجينيا، لا يمكنك ارتداء بنطال فضفاض إلى حفلة هولبروك بمناســـبة رأس الـــسنة". وعـــندما تطرف والدتي عينيها، فإنها تُبقيهما مُغمـــضتين لحظة إضافية. كانت مرهقة وأشبه بهيكل عظمي في قميص نـــوم بيضاء ذات شرائط أنيقة على نحو سخيف ورباط مُنشّى، وعُنُقها يسبح في حافة القميص كإوزة تزن ثمانين رطلاً. لم يكن في استطاعتها تـــناول الطعام إلا من خلال أنبوب ورقي، كما فقدت قدرتها الكاملة علـــى الـــشم، ومـــع ذلك، فهي تعرف عندما تكون خزانة ملابسي الموجودة في غرفة مختلفة مخيِّبة للآمال.

"لقـــد ألغوا الحفلة، يا أمي". ولكن وفقاً لما أخبرني به ستيوارت، فقـــد أُلغيت كل الحفلات بسبب وفاة الرئيس، وليس لأنني لن أُدعى

لحضورها. وفي ذلك المساء، كان ستيوارت قادماً لمشاهدة ديك كلارك على التلفاز.

وضـــعت والدتي يدها شديدة النحول على يدي، وكانت شديدة الـــضعف لدرجة أن مفاصلها ظهرت تحت الجلد. كان مقاس ملابس والدتي مماثلاً لمقاس ملابسي عندما كنت في الحادية عشرة من العمر.

فنظـــرت إليّ بهدوء. "أعتقد أنك بحاجة إلى وضع تلك البناطيل الفضفاضة على اللائحة الآن".

"ولكنها مريحة، ودافئة، و...".

وهزت رأسها، وأغمضَت عينيها. "أنا آسفة، يا سكيتر".

لم يعُد هناك أي جدال. "لا بأس". قلتُ، وتنهدتُ.

ســـحبت والـــدتي إضمامة الورق من تحت الأغطية، ووضعتها في الجيب غير المرئي الذي خاطته في كل ثوب، حيث تحتفظ بحبوب الدواء المضادة للتقيّؤ، وبالمناديل الورقية، واللوائح الدكتاتورية الصغيرة. فبالرغم مـــن نحـــولها الشديد، تفاجأتُ بثبات يدها عندما كتبت على لائحة *لا ترتدي*: "بناطيل رمادية، سيّئة المظهر، وتَليق برجل". وابتسمَت، راضية.

كانت توحي والدتي بالموت، ولكن عندما أدركَت أنها لن تتمكن بعـــد وفاتها من إطلاعي على ما يجب الكفّ عن ارتدائه، وضعَت ذلك النظام المبتكَر لما بعد الوفاة. كانت تفترض أنني لن أذهب أبداً بمفردي لشراء ملابس جديدة مناسبة. ربما كانت مُحقة.

"لم تتقـــيّأي بعـــد؟". سألتُ، لأنها الساعة الرابعة، وكان هناك بجانب والدتي وعاءان من الحساء، ولم تتقيّأ مرة واحدة في ذلك اليوم. كانت تتقيّأ في العادة ثلاث مرات على الأقل حتى تلك الساعة.

"أبـــداً". قالت، ولكنها أغمضت عينيها، واستغرقت في النوم في غضون ثوان.

في يــوم رأس الــسنة، نــزلتُ إلى الطابق السفلي لأتعلّم طهو الــبازلاء المرقّطة طلَباً للحظ السعيد. كانت باسكاغولا قد وضعتها في الليلة السابقة في الخارج لتنتقع، وعلّمتني كيف أضعها في القدر وأشعل الــنار، وأُضــيف مأبض اللحم إليها. كانت عملية بخطوتين، علماً أن الجميع بدوا عصبيي المزاج بسبب إشعال جهاز الطهو. وتذكرتُ قدوم كونــستنتين على الدوام في أول كانون الثاني/يناير لتُعدّ وجبة البازلاء الجالــبة للحظ السعيد بالرغم من أنه يوم إجازة. كانت تُعدّ قدراً مليئة ولكــنها تضع حبة واحدة في كل طبق من أطباق أفراد العائلة، وتراقبنا لتــتأكد مــن تناولنا إيّاها، كانت تعتقد بالخُرافات. وتقوم بعد ذلك بغــسل الأطــباق وتــذهب إلى الناحية الخلفية من المنــزل. غير أن باســكاغولا لم تعــرض علينا القدوم في يوم إجازتها، و لم أطلب منها ذلك، مفترضةً أنها تمضي يوم الإجازة مع عائلتها.

لقد شعرنا بالحزن لأنه كان يتعيّن على كارلتون المغادرة في صباح ذلــك الــيوم. فمن الجميل أن يكون شقيقي موجوداً للتحدث إليه. وكانت كلماته الأخيرة لي قبل أن يعانقني ويعود إلى الكلّية: "لا تُحرقي المنــزل". وأضاف بعد ذلك: "سأتصل غداً للاطمئنان على حالها".

أطفــأتُ الــنار، وخرجتُ إلى الرُّواق. كان والدي منحنياً على الدرابــزين يقلّب بذور القطن بين أصابعه، ويحدّق إلى الحقول الفارغة التي لن تُزرَع إلا بعد شهر.

"يــا أبــــي، هل أنت قادم لتناول الغداء؟". سألتُ. "البازلاء جاهزة".

فاستدار وابتسم قليلاً، راغباً بشدة في إيجاد تفسير.

"هــذا الــدواء الــذي وصفوه لها...". وتفحّص بذوره وتابع: "يُجدي نَفعاً كما أعتقد. تستمر في القول إنها تشعر بتحسن".

فهززت رأسي غير مصدّقة. لا يمكنه تصديق ذلك في الواقع.

"لقد مر يومان و لم تتقيّأ سوى مرة واحدة...".

"آه، يــا أبـــــي. لا... ليس سوى... يا أبـــي، لا تزال مصابة بالمرض".

كانت هناك نظرة خالية من أي تعبير في عينيه، فتساءلتُ عما إذا سمعني أم لا.

"أعلـــم أن هـــناك أمـــاكن أفضل لتتواجدي فيها، يا سكيتر". وترقـــرقت عيناه بالدموع. "ولكن، لا يمر يوم واحد لا أشكر فيه الله على وجودك معها".

أومأتُ برأسي، شاعرةً بالذّنب لاعتقاده أنني ألازم المنـــزل بملء إرادتي. فعانقته وقلت له: "أنا سعيدة بوجودي هنا، يا أبـــي".

عـــندما أعـــاد الـــنادي فتح أبوابه في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير، ارتديتُ تنورتي والتقطتُ المضرب، وعبرتُ مطعم الوجبات الـــسريعة، متجاهلةً باسيّ، شريكتي القديمة في لعبة كرة المضرب التي تخلـــت عني. كانت هناك ثلاث فتيات أخريات يدخنّ عند الطاولات الحديدية السوداء، فانحنينَ وهمسنَ لبعضهنّ بعضاً عندما مررتُ. لم أكن أريـــد حضور اجتماع الرابطة في مساء ذلك اليوم، وللأبد. كنت قد وجهتُ رسالة استقالة قبل ثلاثة أيام.

ضـــربتُ الكـــرة بقوة على اللوح الخشبـــي، محاولةً بجهد عدم التفكير في أي شيء. وفي وقت لاحق، وجدت نفسي أدعو الله هَمساً بجُمل طويلة لا تنتهي، ملتمسةً منه منح والدتي بعض الشعور بالارتياح، ومناشـــدةً إيّاه وصول أنباء جيدة عن الكتاب، وطالبةً منه أحياناً إشارة مـــا حول ما يتعيّن عليّ القيام به في شأن ستيوارت. كنت أجد نفسي في بعض الأحيان أدعو عندما لا أعرف ماذا أفعل.

عـــندما عدت من النادي إلى المنـــزل، توقفت سيارة الطبيب نيل ورائـــي. فرافقته إلى غرفة والدتي حيث كان والدي بالانتظار، وأغلقا الباب وراءهما. ووقفتُ في الرَّدهة، متململة كطفل. كان في استطاعتي فهـــم سبب تمسّك والدي بقليل من الأمل. لقد مضت أربعة أيام من دون أن تتقيّأ والدتي السائل الأصفر المائل إلى الخُضرة، وكانت تتناول دقيق الشوفان كل يوم وتطلب المزيد.

بعد خروج الطبيب نيل، بقي والدي جالساً على الكرسي بجانب السرير، وتبعتُ الطبيب إلى الرُّواق الخارجي.

"هل أخبرتكَ؟". سألتُ: "عن تحسن حالها؟".

فأومـــأ برأســـه، وهزّه بعد ذلك. "لا معنى لنقلها إلى المستشفى لإجراء صورة بأشعة إكس. سيكون الأمر قاسياً عليها".

"ولكن... هل هي؟ هل من الممكن أنها تتحسن؟".

"لقد رأيتُ حالات مماثلة من قبل، يا أوجينيا. في بعض الأحيان، يـــشعر المرضى ببعض القوة. إنها هبة من الله، كما أعتقد، كي يتمكنوا من إنهاء أعمالهم. هذا كل ما في الأمر، يا عزيزتي. لا تتوقعي أكثر من ذلك".

"لكن، هل رأيتَ لون وجهها؟ تبدو أفضل حالاً بكثير، ولا تتقيّأ الطعام...".

فهز رأسه قائلاً: "حاولي توفير الراحة لها".

في أول شـــباط/فبرايـــر 1964، لم يعـــد في استطاعتي الانتظار، فسحبتُ الهاتف إلى داخل غرفة المؤونة. كانت والدتي نائمة بعد تناولها وعـــاءً ثانياً من دقيق الشوفان، وتركتُ باب غرفة نومها مفتوحاً كي أتمكن من سماعها عندما تنادي.

"مكتب إلين شتاين".

"آلــو، أنــا أوجينــيا فــيلان أتصل من مسافة بعيدة. هل هي موجودة؟".

"آســفة يــا آنسة فيلان، ولكن السيدة شتاين لم تعُد تتلقى أي اتصالات في شأن المجموعة المختارة من المخطوطات".

"آه. ولكن... هل يمكنك أن تقولي لي على الأقل إذا تلقّته؟ لقد أرسلتُه عبر البريد قبل انتهاء الحد الزمني الأقصى و...".

"لحظة من فضلك".

وساد الصمت عبر الهاتف، وعادت بعد دقيقة تقريباً.

"يمكنني التأكيد أننا تلقّينا طردك البريدي في أثناء الأعياد. سيقوم شــخص ما من مكتبنا بإبلاغك بعد اتخاذ السيدة شتاين قرارها. شكراً لاتصالك".

وسمعتُ صوت إقفال الخط في الجانب الآخر.

بعــد ليالٍ قليلة، وبعد فترة بعد ظهرٍ أمضيتها مسمَّرة في مكاني أجــيب علــى رســائل الآنــسة ميرنا، جلست وستيوارت في غرفة الاستجمام. كنت سعيدة برؤيته وبمحو الصمت من المنــزل. فجلسنا نشاهد التلفاز بسكون. وبُثّ إعلان تاريتون الذي تظهر فيه فتاة تدخّن ســيجارة وتوجد كدمة حول عينها *يفضّل مدخّنو تاريتون الأميركية المقاومة بدلاً من تغيير الدخان!*

كــنت وســتيوارت نرى بعضنا مرة واحدة في الأسبوع في تلك المرحلة. لقد ذهبنا إلى السينما بعد الميلاد، وتناولنا العشاء ذات مرة في المديــنة، ولكنه كان يقصد المنــزل في العادة لأنني لم أشأ ترك والدتي. كان متردداً في شأني ويشعر بخجل ملؤه الاحترام. وحلّ الصبر في عينيّ مكان الذُّعر الذي كنت أشعر به عندما أكون برفقته. لم نكن نتحدث عــن أي أمــر جِدّي، فيروي لي قصصاً عن الصيف، وعن المدة التي

أمضاها في الكلية، وعن العمل في أبراج حفر آبار النفط في خليج المكسيك حيث يستحمون بالمياه المالحة للمحيط الأزرق والنقيّ حتى قعره. كان الأشخاص الآخرون يزاولون هذا العمل الشاق لإطعام عائلاتهم، ولكن ستيوارت الثري يعود إلى الكلية. إنها المرة الأولى، كما قال، التي اضطُر فيها إلى الكد في العمل.

"أنا سعيد لأنني كنت أعمل على ذلك البرج آنذاك. لم يعُد في استطاعتي القيام بذلك الآن". كان قد قال لي، كما لو أن الأمر حدث منذ زمن طويل وليس قبل خمس سنوات. لقد بدا أكبر سنّاً.

"لماذا لا تستطيع العمل هناك الآن؟". سألت. كنت أبحث عن مستقبلٍ لي، وأحب سماع الاحتمالات التي يطرحها الآخرون.

فنظر إليّ، مغضّناً جبينه. "لأنني لا أستطيع تركك".

فتقبّلتُ الأمر بنَهَم، وخشيت الإقرار بمدى سعادتي لسماع ذلك.

وانتهى الإعلان التجاري وتابعنا التقرير الإخباري. كانت هناك مناوشات في فييتنام، ولكن الأمر سينتهي من دون كثير من الجلَبة برأي المراسل.

"اسمعي". قال ستيوارت بعد فترة قصيرة من الصمت: "لم أشأ مناقشة الأمر معك من قبل ولكنني... أعرف ما يقوله الناس في المدينة، عنك. أنا لا أبالي. أريدك أن تعرفي ذلك".

فأول ما تبادر إلى ذهني هو *الكتاب*. لقد سمع شيئاً ما، وشعرت بالتوتر في أنحاء جسمي كافة. "ماذا سمعتَ؟".

"تعرفين. عن تلك الخدعة التي استهدفتِ بها هيلي".

وشعرت بالارتياح قليلاً، ولكن ليس بالكامل. لم يسبق لي أن تحدثت مع أحد عن ذلك الأمر باستثناء هيلي نفسها. فتساءلتُ عما إذا قامت هيلي بالاتصال به تنفيذاً لتهديدها.

"وفي استطاعتي تصوّر رأي الناس، وظنّهم أنك ليبرالية مجنونة متورطة في كل تلك الفوضى".

وحدّقتُ إلى يديّ، قلقةً في شأن ما يمكن أن يكون قد سمع، وشاعرةً بالانزعاج أيضاً. "كيف تعرف؟". سألت: "بمَ أنا متورطة؟".

"لأنني أعرفك، يا سكيتر". قال برِفق: "أنت أذكى من التورط في أمر مماثل. لقد قلت لهم ذلك أيضاً".

فأومأت برأسي، وحاولت الابتسام. وبالرغم من ظنّه أنه يعرفني، سُررتُ بوجود شخص ما يهتمّ بأمري ويؤيّدني.

"لن نتحدث عن هذا الأمر مجدداً". قال. "أردتك أن تعرفي رأيي، هذا كل شيء".

مساء يوم السبت، تمنّيتُ لوالدتي تمضية ليلة هانئة. كنت أرتدي معطفاً طويلاً كيلا تتمكن من رؤية ملابسي، وأبقيتُ الأضواء مُطفأة كيلا تستطيع التعليق على شعري. لقد طرأ تحسّن بسيط على صحتها، وحالها مستقرة توقّفت عن التقيّؤ ولون بشرتها أبيض مائل إلى الرمادي، وبدأ شعرها بالتساقط. فلمست يديها، ومسستُ وجنتيها برِفق.

"يا أبي، اتصل بالمطعم إذا احتجت إليّ؟".

"سأفعل، يا سكيتر. اذهبي واحصلي على بعض المرح".

فدخلتُ سيارة ستيوارت الذي اصطحبني للعشاء في فندق روبرت. كانت القاعة مبهرَجة بالفساتين الطويلة، والورود الحمراء، ورنين أواني المائدة الفضية. كان هناك جوّ مثير وشعور أن الأمور تعود إلى طبيعتها شيئاً فشيئاً بعد وفاة الرئيس كنيدي؛ فالعام 1964 عام جديد بالرغم من كل شيء. لقد كنا محطّ الأنظار.

"تـبدين... مختلفة". قال ستيوارت، و لم يفارقه هذا التعليق طوال الليل، وبدا مُربَكاً أكثر من كونه متأثراً. "ذلك الفستان... قصير جداً".

فأومأتُ برأسي، وأعدتُ شعري إلى الوراء كما اعتاد أن يفعل.

في صباح ذلك اليوم، كنت قد قلت لوالدتي إنني سأخرج للتسوق. ولكنها كانت مُتعَبة جداً، فبدّلتُ رأيي. "ربما لا يُفترض بي الخروج".

فطلبت مني والدتي أن أُحضر لها دفتر الشيكات. وعندما عدتُ، أعطتني شيكاً على بياض بالإضافة إلى ورقة نقدية من فئة مئة دولار مثنيّة وموضوعة في الناحية الجانبية من محفظة نقودها. كانت كلمة *تسوّق* تجعلها تشعر أنها في حال أفضل.

"لا تقتصدي، ولا بناطيل فضفاضة. تأكدي من قيام الآنسة لافول بمساعدتك". وألقت رأسها على وسادتها. "تعرف كيف يُفترض بالشابات أن يرتدين".

لكنني لم أتمالك نفسي من التفكير في يديّ الآنسة لافول المتجعّدتين موضوعتين على جسمي وتفوح منهما رائحة القهوة والنفتالين. وتوجهتُ بالسيارة إلى وسط المدينة، وسلكتُ الطريق العامة 51، وتوجهتُ إلى نيو أورليانز. فقُدتُ، شاعرةً بالذّنب بسبب ترك والدتي طوال تلك المدة، عالمةً أن الطبيب نيل سيمرّ بمنزلنا بعد الظهر، وأن والدي سيلازمها طوال اليوم.

بعد ثلاث ساعات، دخلتُ متجر ميزون بلانش في شارع كانال ستريت. لقد قصدت المتجر مع والدتي عدة مرات، ومرتين مع إليزابيت وهيلي، وقد استرعت الأرض المكسوة بالرخام الأبيض، والصفوف الطويلة من القبّعات والقفازات والسيدات السعيدات اللواتي يضعن ذُرور البودرة على وجوههنّ ويبدين بصحة جيدة، انتباهي الكلّي.

وقبل أن أتمكن من طلب المساعدة، قال رجل نحيل: "تعالي معي، لديّ ما يناسبك في الطابق العُلوي". ورافقته إلى المصعد، وانتقلنا إلى الطابق الثالث حيث توجد قاعة تدعى **ملابس النساء العصريات**.

"ما كل هذا؟". سألتُ. كانت هناك عشرات النساء، وموسيقى الروك آند رول، وكؤوس شراب خفيف، وأضواء برّاقة متلألئة.

"عزيـــزي إميليو بوتشي، أخيراً!". وابتعد عني وقال: "ألستِ هنا للعرض المُسبَق؟ لديك بطاقة دعوة، أليس كذلك؟".

"في مكان ما". قلت، ولكنه كفّ عن الاهتمام بذلك بينما كنت أتظاهر بالتنقيب في حقيبة يدي.

لقد بدت الملابس من حولي متجذّرة في الأرض ومُزهرة على علاّقات الثـــياب. وفكّرتُ في الآنسة لافول وضحكتُ. لم تكن هناك ملابس بَيض الفـــصح، بل كانت هناك زهور، وشرائط كبيرة وبرّاقة، وأهداب تكشف عن *عدة بوصات من الفخذ!* كان الأمر مثيراً، رائعاً، ومسبِّباً للدُّوار.

فاشتريتُ، بواسطة الشيك على بياض، ملابس تكفي لملء مقعد الكاديلاك الخلفي. وبعد ذلك، دفعتُ في شارع ماغازين ستريت خمسة وأربعـــين دولاراً لتفتيح لون شعري، وتصفيفه، وكيّه لإزالة التجاعيد مـــنه. لقـــد ازداد طولاً في أثناء الشتاء واكتسب لون الماء القذر الذي غُـــسلت بـــه الصحون. وفي الرابعة، كنت في طريق العودة أعبر جسر لـــيك بونتـــشارترين وأستمع إلى أغنية لفرقة تدعى رولينغ ستونـــز، والهواء يداعب شعري الحريري، وأقول لنفسي، *الليلة، سأزيل كل ذلك التكلّف وأعود إلى عهدي السابق مع ستيوارت*.

تـــناولت وستيوارت الشراب، مبتسمَين، ومتحدّثَين. ووجّه نظره إلى الطـــاولات الأخرى، معلّقاً على الأشخاص الذين يعرفهم. ولكن أحداً لم ينهض ويلقي التحية.

"نخب بدايتنا الجديدة". قال ستيوارت ورفع كأس شرابه.

فأومأتُ برأسي، راغبةً في القول إن كل البدايات تكون جديدة. ولكنني ابتسمتُ بدلاً من ذلك وشربت كأس الشراب الفرنسي الثانية. لم أحب الشراب قط في الواقع حتى ذلك اليوم.

بعد العشاء، خرجنا إلى الرَّدهة، ورأينا السيناتور والسيدة ويتوورث جالسَين إلى إحدى الطاولات يتناولان شراباً، والناس من حولهما يشربون ويتحدثون. لقد أمضينا نهاية الأسبوع في المنزل، كما سبق لستيوارت أن قال لي، وذلك للمرة الأولى منذ انتقالهما إلى واشنطن.

"يا ستيوارت، ها هما والداك. هل يُفترض بنا الذهاب وإلقاء التحية عليهما؟".

ولكن ستيوارت اقتادني باتجاه الباب، ودفعني إلى الخارج.

"لا أريد أن تراك والدتي بذلك الفستان القصير". قال. "أعني، صدّقيني، هي تحترمك، ولكن...". ووجّه نظره إلى هدب الفستان. "ربما لم يكن الخيار الأفضل لهذا المساء". وفي طريق العودة إلى المنزل، فكرتُ في إليزابيت وفي لفافات شعرها، ولكنني خشيتُ من أن تراني عضوات نادي البريدج. لماذا يوجد باستمرار شخص ما يخجل بي؟

ووصلنا إلى لونغليف عند الحادية عشرة. فملّستُ فستاني، مفكرةً في أن ستيوارت على حق، إن الفستان قصير جداً. كانت الأضواء في غرفة نوم والدَيّ مطفأة، لذلك، جلسنا على الأريكة.

ففركتُ عينيّ وتثاءبتُ. وعندما فتحتهما، كان يحمل خاتماً في يده.

"آه... يا الله".

"أردت القيام بذلك في المطعم، ولكن...". وابتسم ابتسامة عريضة. "هنا أفضل".

فلمستُ الخاتم. كان من الذهب ويأسر الألباب، وعلى جانبـــي الماســـة ثلاث ياقوتات. ونظرتُ إليه، شاعرةً فجأةً بحر شديد. فرفعتُ كنـــزتي الصوفية عن كتفيّ، وابتسمتُ، وكنت على وشك البكاء في الوقت نفسه.

"عليّ أن أقول لك أمراً ما يا ستيوارت". قلتُ: "هل تعدني بعدم إخبار أحد؟".

فحدّق إليّ وضحك قائلاً: "تمهّلي، هل وافقت؟".

"نعم، ولكن...". كان عليّ معرفة أمر ما أولاً. "هل تعدني؟".

فتـــنهّد، وبـــدا مُحـــبَطاً لأنـــني أُفسد لحظته وقال: "بالتأكيد، أعدك".

لقـــد صدمني عرضه الزواج بـــي، ولكنني بذلت جهدي لأشرح وجهـــة نظري. فنظرت إلى عينيه، وأطلعته على الوقائع والتفاصيل التي كـــان في إمكاني تشاطرها معه بأمان في ما يخص الكتاب وما قمت به في العام الماضي. ولم أتطرّق إلى الأسماء، بل ركّزتُ على المعنى الضمني للكتاب، علماً مني أنه أمر غير جيد. وبالرغم من عرضه الزواج بـــي، لم أكن أملك معلومات كافية عنه تجعلني أثق به كلّياً.

"هذا ما كنت تكتبين عنه في الأشهر الاثني عشر الماضية، لم يكن كتاباً دينياً؟".

"لا، يا ستيوارت. لا".

وعـــندما أخبرته أن هيلي عثرت على قوانين جيم كرو في حقيبتي المدرسية، انخفض ذقنه، وكان في إمكاني التحقق من أنني أكدت له أمراً سبق لهيلي أن أخبرته به، أمراً لم يصدّقه بسبب ثقته الساذجة.

"الحـــديث... في المديـــنة. قلت لهم إنهم مُخطئون تماماً. ولكنهم كانوا... مُحقّين".

عـــندما أخبرته عن الخادمات الملوّنات اللواتي مررن أمامي واحدة تلـــو الأخـــرى بعد لقاء...، امتلأتُ فخراً بما قمنا به. فنظر إلى كأس شرابه الفارغة.

وأخبرته بعد ذلك عن إرسال المخطوط إلى نيويورك، وأنه سيظهر وفقـــاً لاعـــتقادي بعد ثمانية أشهر إذا قرروا نشره. وقلت لنفسي إن الخطوبة قد تتحول إلى زواج في هذا التاريخ تقريباً.

"كُـــتِب بأسماء مستعارة". قلت: "ولكن، وبوجود هيلي، هناك احتمال كبير في أن يكتشف الناس أنني الكاتبة".

لكـــنه توقف عن الإيماء برأسه أو دفع شعري وراء أُذُني، وكان خاتم جدته قابعاً على أريكة والدتي المخملية كما لو أنها استعارة لغوية مثيرة للسخرية. ولزمنا الصمت، وبقيت عيناه ثابتتين على بُعد بوصتين من وجهي من دون أن ينظر إليّ.

بعد دقيقة، قال: "لا... لا أفهم سبب قيامك بهذا الأمر. لماذا... تهتمين بذلك، يا سكيتر؟".

فاقشعرّ بدني، ونظرتُ إلى الخاتم الأنيق والبرّاق.

"لم... أعـــنِ ذلـــك". قال مجدداً: "ما عنيتُه هو أن الأمور تسير بشكل جيد. لماذا تريدين إثارة المشاكل؟".

كـــان في اســـتطاعتي الجـــزم من خلال صوته أنه يريد جواباً مـــني. ولكـــن، كيف يمكنني شرح ذلك؟ فستيوارت رجل صالح، وفهمتُ ارتباكه وارتيابه بقدر ما كنت متيقّنة من صوابية ما قمت به.

"أنـــا لا أثير المشاكل، يا ستيوارت. المشكلة قائمة ولا حاجة إلى من يثيرها".

من الواضح أنه لم يكن الجواب المطلوب. "أنا لا أعرفك".

فـــوجّهت نظري إلى الأسفل، متذكّرةً أنني فكرت في الأمر نفسه مـــنذ لحظات. "أظن أننا نملك ما تبقى من العمر لمعالجة الأمر". قلت، محاوِلةً الابتسام.

"لا... لا أظن أن في استطاعتي الزواج بشخص لا أعرفه".

فحبـــستُ أنفاســـي، وفُتح فمي من دون أن أتمكن من قول أي شيء للحظة من الزمن.

"كان عليّ إخبارك". قلت لنفسي أكثر مما قلت ذلك له. "كنتَ بحاجة إلى معرفة الأمر".

نظـــر إليّ للحظـــات، مفكّـــراً. "أعدك. لن أخبر أحداً". قال، وصدّقته. قد يكون ستيوارت أي شيء، ولكنه ليس كاذباً.

فوقف، ورمقني بنظرة أخيرة مستغرِقة، والتقط الخاتم، وخرج.

في تلـــك اللـــيلة، وبعـــد مغادرة ستيوارت، طفتُ من غرفة إلى أخـــرى، شـــاعرةً بالجفـــاف في فمي وبالبرد. فالشعور بالبرد هو ما تضرعت لأجله عندما تخلى عني ستيوارت في المرة الأولى، وهذا الشعور هو ما حصلت عليه.

وفي منتصف الليل، سمعت صوت والدتي تنادي من غرفة نومها.

"يا أوجينيا؟ هل هذا أنت؟".

فعبرتُ الرَّدهة. كان الباب مفتوحاً جزئياً ووالدتي جالسة بقميص نومها البيضاء المنشّاة، وكان شعرها منسدلاً على كتفيها. لقد صعقني مدى جمالها. كان مصباح الرُّواق الخارجي الخلفي مضاءً ويضفي هالةً بيضاء حول جسمها. فابتسمَت، وظهر طقم أسنانها الاصطناعي الجديد الـــذي أعـــدّه لهـــا الطبيب سايمون عندما بدأت أسنانها تتآكل بسبب الحمض الذي تفرزه معدتها. كانت ابتسامتها أكثر براءةً منها في صور الاحتفال في سنّ المراهقة.

"يا أمي، ماذا يمكنني أن أُحضر لك؟ هل تشعرين بألم؟".

"تعالي، يا أوجينيا. أريد أن أقول لك أمراً ما".

توجهتُ إليها بهدوء. كان والدي قطعة طويلة نائمة، مُديراً ظهره لهـــا. ففكرتُ في إمكانية إخبارها بما جرى الليلة بطريقة معدَّلة. كلنا نعلـــم أنه ليس لدينا سوى قليل من الوقت، وفي استطاعتي إسعادها في أيامها الأخيرة، والادّعاء أن الزواج سيتمّ.

"لديّ شيء أقوله لك، أيضاً". قلت.

"آه؟ أخبريني أولاً".

"طلـــب ستيوارت يدي للزواج". قلت، مُطلقةً ابتسامة مصطنعة. وشعرتُ بالذُّعر بعد ذلك، عِلماً مني أنها ستطلب رؤية الخاتم.

"أعرف". قالت.

"تعرفين؟".

فأومـــأت برأســـها. "بالطبع. لقد جاء قبل أسبوعين وطلب من كارلتون ومني يدك للزواج".

منذ أسبوعين؟ وضحكتُ قليلاً. بالطبع، فوالدتي أول من يعرف أمراً بهذه الأهمية. كنت سعيدة لأنها استمتعت بهذا الخبر مدة أطول من الزمن.

"ولـــدي أمر أخبرك به". قالت. كان الإشراق المحيط بوالدتي غير أرضـــي، وضّـــاءً كالفوســـفور، ومردّ ذلك هو ضوء مصباح الرُّواق الخارجـــي. ولكـــنني تـــساءلتُ عن سبب عدم رؤيتي ذلك من قبل. وأمسكت بيدي كما تمسك الوالدة بيد ابنتها المخطوبة. وتحرك والدي، وجلس بشكل مستقيم.

"ماذا؟". سأل لاهثاً: "هل تتقيّئين؟".

"لا، يا كارلتون. أنا بخير. لقد قلت لك ذلك".

فأومــأ برأسه على نحو خَدِر، وأغمض عينيه، ونام قبل الاستلقاء مجدداً.

"ما الذي تريدين إخباري به يا أمي؟".

"أجريتُ حديثاً مطوّلاً مع والدك، واتخذتُ قراراً".

"آه، يــا الله"، قلتُ، متنهّدة. كان في استطاعتي أن أتخيّلها تشرح الأمــر لــستيوارت عــندما طلــب يدي. "هل الأمر مرتبط بالوديعة المصرفية؟".

"لا". قالت، وفكرتُ، *إذاً لا بد أنه أمر مرتبط بالزفاف*. وشعرتُ بحــزن مروِّع لأن والدتي لن تقوم بالتخطيط لزفافي، ليس لأنها ستكون مــتوفاة بل لأنه لن يحدث أي زفاف. ومع ذلك، شعرتُ أيضاً بارتياح يغلّفه شعور رهيب بالذّنب لدرجة أنني لم أشأ مناقشة الأمر معها.

"أعرف أنك لاحظت تلك الأمور التي حدثت في الأسابيع القليلة الماضــية". قالــت: "وأعرف ما قاله الطبيب نيل عمّا أشعر به من قوة زائفــة". وســعلَت، وتقوّس جسدها النحيل كصَدَفة. فناولتُها منديلاً ورقياً، وقطّبَت جبينها، وربّتت على فمها.

"ولكن كما قلت، لقد اتخذت قراراً".

وأومــأتُ برأســي، وأصغيت بالخدر نفسه الذي بدا على وجه والدي منذ لحظات.

"قررت الصمود".

"آه... يا أمي. يا الله، أرجوك...".

"لقد اتخذت قراري وانتهى الأمر". قالت، مُبعدةً يدي.

ومــرّرَت راحتي يديها على بعضهما بعضاً، كما لو أنها تتخلص مــن مرض السرطان. وجلسَت بشكل مستقيم في قميص نومها، تلفّ هالــةُ الــضوء المــشرق شعرَها، و لم أستطع الكفّ عن تقليب عينيّ.

يا لغبائي. بالطبع، ستكون والدتي عنيدة حيال موتها كما كانت حيال كل تفصيل في حياتها.

* * *

حـــلّ يوم الجمعة، 18 كانون الثاني/يناير، 1964. كنت أرتدي فـــستاناً أسود واسعاً من الأسفل وضيّقاً من الأعلى، وأظافري مقلمة، وظنـــنتُ أنني سأتذكر كل تفصيل من ذلك اليوم، وما قاله الناس عن عدم نسيان الشطائر التي كانوا يتناولونها أو الأغنية التي كانوا يسمعونها على الراديو عندما بلغهم خبر مقتل كنيدي.

ودخلتُ مطبخ آيبيلين الذي أصبح مكاناً مألوفاً لي. كان الظلام لا يزال مخيّماً في الخارج، والمصابيح الكهربائية الصفراء ساطعة. فنظرت إلى ميني ونظرَت إليّ. كانت آيبيلين جالسة بيننا كما لو أنها تحول دون وقوع أمر ما.

"هاربر آند روو". قلت: "تريد نشره".

ولزم الجميع الهدوء، حتى إن الذبابات توقفت عن الأزيز.

"أنت تمازحينني". قالت ميني.

"تحدثتُ إليها بعد ظهر هذا اليوم".

أطلقـــت آيبيلين صيحة لم أسمعها تخرج منها من قبل. "يا الله، لا يمكـــنني التـــصديق!". صـــرخت، ومن ثم تعانقنا آيبيلين وأنا، وميني وآيبيلين. ونظرت آيبيلين باتجاهي.

"اجلـــسا كلتيكما!". قالت آيبيلين. "أخبريني، ماذا قالت؟ ماذا سنفعل الآن؟ يا الله، لم أُعدّ القهوة بعد!".

فجلـــسنا، وحدّقتا إليّ، منحنيتين. كانت عينا آيبيلين مفتوحتين واســـعاً. لقد بُلّغتُ بالأمر قبل أربع ساعات، وقالت لي السيدة شتاين بوضوح إنها صفقة صغيرة، ويجب علينا إبقاء توقعاتنا في حدّها الأدنى.

فـــشعرتُ أنّ الواجب يقتضي إبلاغ آيبيلين بالأمر كيلا تشعر بالخَيبة، وذلك قبل أن أكتشف وَقع الخبر عليّ.

"اسمعـــي، قالت إنه ليس علينا الشعور بحماسة كبيرة، وإن عدد النسخ التي سيطبعونها ستكون قليلة *جداً*".

وانتظرتُ عبوس آيبيلين، ولكنها قهقهت، وحاولت إخفاء الأمر بيدها.

"ربما بضعة آلاف من النسخ".

وضغطت آيبيلين بيدها على شفتيها أكثر فأكثر.

"لقد اعتبرته السيدة شتاين... *مُحزناً*".

بات وجه آيبيلين أكثر قتامة. وقهقهت مجدداً داخل براجمها؛ من الواضح أنها لم تفهم المقصود.

"وقالت إنها من أصغر الدفعات المُسبَقة التي شهدَتْها من قَبل...". كنت أحاول أن أبدو جدّية، ولكنني لم أستطع لأن آيبيلين كانت على وشك الانفجار ضحكاً، وترقرقت عيناها بالدموع.

"ما مدى... صِغر الدفعة المُسبقة؟". سألَت من وراء يدها.

"ثمانمئة دولار". قلت: "مُقَسَّمة إلى ثلاث عشرة حصة".

انفجـــرت آيبيلين ضحكاً، ولم أتمالك نفسي من الضحك معها. ولكن النتيجة متواضعة، كانت بضعة آلاف من النسخ وواحداً وستين دولاراً وخمسة سنتات للشخص؟

ســـالت الدموعٍ على وجنتيّ آيبيلين. وأخيراً، ألقت رأسها على الطاولة. "لا أعرف لماذا أضحك. لقد بدا الأمر مضحكاً فجأة".

نظرت إلينا ميني، مقلّبةً عينيها. "كنت *أعرف* أنكما مجنونتان".

بـــذلتُ جهدي لأروي لهما التفاصيل. لم أتصرّف بشكل أفضل في أثـــناء تحدثي إلى السيدة شتاين على الهاتف. كانت قد بدت واقعية

وغـــير مهتمة تقريباً. وماذا فعلتُ؟ هل بقيتُ عمليّة، وطرحتُ أسئلة ذات صـــلة بالموضـــوع؟ هـــل شكرتُها بسبب تبنّي موضوع محفوف بالمخاطـــر؟ لا، فبدلاً من الضحك، حدّقتُ إلى الهاتف منتحبة وباكية كطفلة تلقت حقنة لالتهاب سنجابية الدماغ.

"اهـــدأي، يـــا آنـــسة فيلان". قالت لي: "قد لا يشهد الكتاب رواجـــاً". ولكـــنني استمررت في البكاء في أثناء تزويدي بالتفاصيل. "نعرض دفع أربعمئة دولار فقط مُسبَقاً، وأربعمئة دولار أخرى عندما ينتهي... هل... تسمعين؟".

"أجل، يا سيدتي".

"علـــيك القيام ببعض أعمال التحرير. فقسم ساره هو الأفضل". قالت. وأخبرتُ آيبيلين بذلك بين نوبة انفعال وأخرى.

نخرت آيبيلين أنفها، ومسحَت عينيها، وابتسمَت. فهدأنا أخيراً، وتناولنا القهوة التي قامت ميني بسكبها لنا.

"لقد أحبت غرترود أيضاً". قلت لميني. والتقطتُ الورقة، وقرأتُ الاقتـــباس الذي كنت قد دوّنته كيلا أنساه. "غرترود هي كابوس كل امرأة جنوبية بيضاء البشرة. أنا أهيم بها".

نظـــرت إليّ مـــيني مباشـــرة، ولانت ملامح وجهها، وابتسمَت كطفلة. "ماذا قالت؟ عني؟".

فـــضحكت آيـــبلين. "كمـــا لو أنها تعرفك من مسافة خمسمئة ميل".

"قالـــت إنـــه ســـيظهر بعـــد ستة أشهر على الأقل خلال شهر آب/أغسطس".

كانت آيبيلين لا تزال تبتسم، غير آبهة لما أقول، وشعرتُ بالامتنان بصدق. لقد عرفتُ أنها ستشعر بالحماسة، ولكنني خشيت من أن تشعر

بالخيـــبة أيضاً. فرؤيتها بتلك الحال جعلتني أدرك أنني غير مخيَّبة الأمل. كنت سعيدة ليس إلا.

جلـــسنا، وتحدثنا لدقائق قليلة أخرى، محتسيات القهوة والشاي، إلى أن نظـــرتُ إلى ساعتي. "قلتُ لوالدي إنني سأعود إلى المنـــزل بعد ساعة". كان والدي في المنـــزل مع والدتي، فجازفتُ بترك رقم هاتف آيبيلين إذا ما حدث أي طارئ، قائلةً له إنني ذاهبة لزيارة صديقة تدعى ساره.

فـــرافقتاني إلى الباب، وهو أمر لم يسبق لميني أن قامت به. وقلت لآيبـــيلين إنني سأتصل بها ما إن أحصل على ملاحظات السيدة شتاين عبر البريد.

"إذاً، بعـــد ستة أشهر سنعرف ماذا سيحدث". قالت ميني: "أمر جيد، أمر سيّئ، أو لا شيء".

"قد لا تكون هناك أي ردود فعل". قلت، متسائلةً عما إذا كان شخص ما سيقوم بشراء الكتاب.

"حسناً، أنا أعتمد على ردود الفعل الجيدة". قالت آيبيلين.

فـــشبكت ميني ذراعيها على نحو متصالب فوق صدرها. "أعتمد على ردود الفعل السيئة إذاً. على أحدنا الاعتماد على ذلك".

لم تـــبدُ ميني قلقة حيال مبيعات الكتاب. لقد بدت قلقة حيال ما سيحدث عندما تقرأ نساء جاكسون ما كتبنا عنهنّ.

آيبيلين

الفصل التاسع والعشرون

لقـــد تسرّب الحر داخل كل شيء، وبلغت الحرارة طوال أسبوع مــئة درجــة مــع تسعة وتسعين بالمئة من الرطوبة، ولو قمنا بممارسة الـــسباحة لغدونا أكثر ابتلالاً. لم تكن ملاءاتي تجفّ على حبل الغسيل، ولم يُغلَق بابـــي الخارجي بسبب الرطوبة. ولم يكن في استطاعتي خفق مزيج المرنغ، حتى إن شعري المستعار الخاص الذي أضعه عندما أذهب إلى دار العبادة بدأ يتجعّد.

في صـــباح ذلك اليوم، لم أستطع ارتداء جوربيّ. كانت ساقاي منتفخـــتَين. ففكـــرت في القيام بذلك عندما أصل إلى منـــزل الآنسة لـــيفولت المكيَّف. لا بد من أن الحرارة بلغت درجة عالية لا سابق لها، لأنني أعمل على خدمة ذوي البشرة البيضاء طوال واحد وأربعين عاماً، وهي المرة الأولى في التاريخ التي أذهب فيها إلى العمل من دون جوربيّ.

لكـــن منـــزل الآنسة ليفولت كان أكثر حرارة من منـــزلي. "يا آيبـــيلين، اذهبـــــي واغلـــي الـــشاي و... نشّفي أطباق السلَطة... الآن...". لم تـــدخل إلى المطبخ في ذلك اليوم. كانت في غرفة الجلوس على كرسي بجانب فتحة التهوئة في الجدار، والهواء الصادر عن مكيّف

الهـــواء يلفح قميصها التحتية. فهذا كل ما كانت ترتديه، مجرد قميص تحتـــية وقـــرطيها. لقد عملتُ على خدمة نساء بيضاوات البشرة كنّ يخـــرجن من غرفة النوم عاريات، ولكن الآنسة ليفولت لم تكن تحب ذلك.

كان مكيّف الهواء يُصدر صوتاً بين الحين والآخر كما لو أنه على وشك التوقف عن العمل. لقد اتصلت الآنسة ليفولت مرتين بالمصلّح، ووعدها بالقدوم، ولكنني راهنتُ على أنه لن يأتي. كان الحر شديداً.

"ولا تنسي... ذلك الشيء الفضي، إنه في...".

ولكـــنها تـــوقفت عن الكلام كما لو أن الحر الشديد حال دون تمكّنها من إعلامي بما يتعيّن عليّ القيام به. لقد بدا الأمر كما لو أن كل مـــن في المديـــنة أصيب بجنون الحرّ. كان كل شيء غامضاً ومخيفاً في الخـــارج تمامـــاً كما هي عليه الحال قبل هبوب الإعصار، أم أن ذلك الشعور، أي عصبيّة مزاجي، كان بسبب الكتاب. كان من المتوقع أن يصدر يوم الجمعة.

"هـــل تعـــتقدين أنه يجدر بنا إلغاء نادي البريدج؟". سألتها من المطـــبخ. لقـــد انتقل موعد نادي البريدج إلى أيام الاثنين، ومن المتوقع وصول السيدات بعد عشرين دقيقة.

"لا، لقـــد تمّ إعداد... كل شيء". قالت، ولكنني كنت أعلم أنها لا تفكر بشكل سليم.

"سأحاول خفق الكريما مجدداً، وعليّ بعد ذلك الذهاب إلى المرأب لارتداء جوربيّ".

"آه، لا تقلقـــي في شـــأن ذلك يا آيبيلين. الحر شديد جداً، ولا تستطيعين تحملهما". ونهضت الآنسة ليفولت أخيراً، وجرّت نفسها إلى المطـــبخ، ملوِّحةً بمروحة المطعم الصيني شوو - شوو. "آه يا الله، لا بد

مـــن أن الحـــرارة في المطبخ أكثر ارتفاعاً منها في غرفة الجلوس بخمس عشرة درجة!".

"سأُطفئ الفرن بعد دقيقة. لقد خرج الطفلان مجدداً للّعب".

فنظـــرت الآنـــسة ليفولت عبر النافذة إلى الطفلين اللذين يلعبان برشّاشة الماء. كانت ماو موبلي بسروالها الداخلي، وروس الذي أدعوه الـــرجل الـــصغير بحفاضه. لم يبلغ بعد عامه الأول، ولكنه يسير كفتى كبير، حتى إنه لم يدبّ.

"لا أعلـــم كيف يستطيعون تحمّل الحر في الخارج". قالت الآنسة ليفولت.

كانت ماو موبلي تحب اللعب مع شقيقها الصغير والاهتمام له كما لـــو أنها والدته، ولكنها لم تعُد تُطيق البقاء معنا في المنـــزل طوال اليوم. فطفلـــتي بدأت بارتياد روضة برودمور باتيست كل صباح. وكان ذلك الـــيوم، يوم العمال، وكل العالم في إجازة، لذلك فهي لم تقصد روضة الأطفال. كنت سعيدة جداً ولا أعرف عدد الأيام المتبقية لي معها.

"انظـــري إليهما في الخارج". قالت الآنسة ليفولت، واقتربتُ من الـــنافذة حـــيث تقف. كان الماء المقذوف يبلغ أعلى الشجرة، مُشكّلاً قوس قُزَح، وماو موبلي تمسك بيدي الرجل الصغير ويقفان تحت الرّذاذ مُغمضي الأعين.

"هما مميَّزان حقاً". قالت، متنهّدة كما لو أنها اكتشفت الأمر للتوّ.

"همـــا كـــذلك بالتأكيد". قلت، وظننتُ أننا سنتشاطر، الآنسة لـــيفولت وأنـــا، تلك اللحظة، ناظرتين عبر النافذة إلى الطفلين اللذين نحبهما كلانا. وحملني ذلك على التساؤل عما إذا تبدّلت الأمور قليلاً. كـــنا في العام 1964 بالرغم من كل شيء، وقد سُمح للزنوج بالجلوس على منضدة وولورث في وسط المدينة.

لقد انتابني شعور بالقنوط في ذلك الوقت، متسائلةً عما إذا ذهبتُ بعـــيداً لأنه قد لا تتسنى لي رؤية هذين الطفلين مجدداً إذا افتُضح أمرنا بعـــد صدور الكتاب. ماذا لو لم أتمكن من إلقاء تحية الوداع على ماو موبلـــي، والقول لها للمرة الأخيرة إنها فتاة لطيفة؟ والرجل الصغير، من سيروي له قصة مارشان لوثر كينغ الأخضر؟

لقـــد ســـبق لي أن فكرت في ذلك أكثر من عشرين مرة. ولكن الأمر بدا أكثر واقعيةً في ذلك اليوم. فلمستُ زجاج النافذة كما لو أنني ألمسهما. فإذا اكتشفَت... آه، سأفتقد هذين الطفلين.

والتفتُّ إلى الآنسة ليفولت ورأيتها تنظر إلى ساقيّ العاريتين. لقد ظنـــنتُ أنهـــا فضولية، كما تعلمون، وراهنتُ على أنه لم يسبق لها أن رأت ســـاقين ملونتين عاريتين من هذه المسافة القريبة. ولكنها قطّبت جبيـــنها، ورفعَـــت نظرها إلى ماو موبلي، رامقةً إيّاها بذلك العبوس المُـــبغض نفـــسه. لقد لوّثت الطفلة جبينها بالوحل والعشب، وها هي تـــزيّن شـــقيقها بتلك المادة كما لو أنه حيوان في زريبة، ورأيتُ ذلك الاشمئـــزاز القـــديم الذي تكنّه الآنسة ليفولت لابنتها الوحيدة، وليس للرجل الصغير، لقد خصصَته لها من دون سواها.

"هي تخرّب الباحة!". قالت الآنسة ليفولت.

"سأذهب لإحضارهما. سأعتني...".

"ولا يمكنك خدمتنا بهذا الشكل، كاشفةً عن ساقيك!".

"لقد قلت لك...".

"ستـــصل هيلـــي بعـــد خمس دقائق، وقد أفسدَت *كل شيء*!". صـــرخَت. لقد سمعتها ماو موبلي عبر النافذة كما أعتقد لأنها نظرت إليـــنا، وتسمّرَت في مكانها، وخبت بسمتها. وبعد ثانية، بدأت تمسح الوحل عن وجهها ببطء شديد.

فوضعتُ مريولاً لأنني أردتُ غسلهما بخرطوم المياه، وذهبتُ بعد ذلك إلى المرأب لارتداء جوربيّ. سيصدر الكتاب بعد أربعة أيام.

* * *

كنا نعيش أنا، ميني، الآنسة سكيتر، وكل الخادمات اللواتي روين قصـــصهنّ، في حال من التوقعات المستمرة. لقد بدا الأمر كما لو أننا كـــنا ننتظر طوال الأشهر السبعة السابقة بلوغ الماء، في قدر غير مرئية، درجـــة الغليان. وبعد الشهر الثالث من الانتظار تقريباً، كنا قد كففنا عن التحدث عن الأمر لأنه يثير مشاعرنا.

طـــوال الأســـبوعين السابقين، كان هناك فرح وهلع سريان في داخلـــي لدرجـــة أن عملية تلميع الأرضيات كانت تجري ببطء أكبر، وأصبح غسل الملابس الداخلية أشبه بخوض سباق صعودي. وتحوّل كيّ الثنـــيات إلى عملية أزلية، ولكن ما العمل؟! كنا على ثقة تامة أن شيئاً لن يقال عن الأمر في البداية. فكما قالت السيدة شتاين للآنسة سكيتر، لـــن يـــشهد هذا الكتاب رواجاً مما أبقى *توقعاتنا ضعيفة*. وطلبت منا الآنـــسة سكيتر ألا نتوقع شيئاً لأن معظم الشعب الجنوبـــي مكبوت. وإذا شـــعروا بـــشيء، فقد لا يقولون أي كلمة، بل يحبسون أنفاسهم وينتظرون مرور المرحلة كالغاز.

قالت ميني: "آمل في أن تحبس نفسها حتى تنفجر في أنحاء مقاطعة هيـــندس كافـــة". عانيةً الآنسة هيلي. وتمنّيتُ لو أن ميني تصبح أكثر لطافة، ولكنها لا تتغيّر أبداً.

"تـــريدين تناول وجبة خفيفة، أيتها الطفلة؟". سألتُ ماو موبلي عـــندما عادت من المدرسة إلى المنـــزل يوم الثلاثاء. آه، لقد أصبحت فتاة كبيرة! تكاد تبلغ الرابعة من العمر. كانت طويلة القامة بالنسبة إلى ســـنّها، معظـــم الناس يظنون أنها في الخامسة أو السادسة من العمر.

وبالـــرغم من كونها نحيفة كوالدتها، فقد بدت سمينة مقارنة بمن هم في مـــثل سنها، ولا يبدو شعرها في حال جيدة. لقد قررَت قصّ شعرها بنفـــسها بواســـطة مقص الورق، وتعرفون كيف ينتهي الأمر بالشعر. فاصـــطحبتها الآنـــسة ليفولت إلى صالون تجميل البالغين، ولكنهم لم يتمكنوا من تحسينه بشكل جيد، كان لا يزال قصيراً من أحد الجوانب من دون وجود شيء من الأمام.

فأعددتُ لها طعاماً ذا سُعرات حرارية منخفضة لأن هذا ما تسمح لي الآنسة ليفولت بتقديمه إليها. بسكويتات رقيقة هشة وسمك طون أو جيلو من دون كريمة مخفوقة.

"مـــاذا تعلّمـــتِ الـــيوم؟". سألتُها، علماً أنها ليست في مدرسة حقيقـــية. وعـــندما طَرحتُ عليها السؤال نفسه في يوم سابق، قالت: "الأوروبيون. جاؤوا و لم يجدوا ما يأكلونه، فأكلوا الهنود".

ما هذا الذي يضعونه في رؤوس هؤلاء الأطفال! وفي كل أسبوع، كانت تحصل على درس آيبيلين، فأروي لها القصة السرّية. وعندما يكبر الرجل الصغير بما يكفي ليتمكن من الاستماع، سأروي له القصة أيضاً. أعـــني، إذا احتفظتُ بوظيفتي هناك. ولكنني لم أظن أن الأمر سيكون ممـــاثلاً مع الرجل الصغير. كان يحبني، ولكنه كحيوان غير مروَّض يأتي ويتمسك بركبتيّ بقوة، وسرعان ما يبتعد للاهتمام بأمر آخر. و لم أشعر بالـــسوء إذا لم أتمكن من الاهتمام له على غرار شقيقته لأنه يُصغي إلى كـــل مـــا تقوله ماو موبلي بالرغم من عدم قدرته على قول أي كلمة بعد.

عـــندما سألتُها في ذلك اليوم عما تعلّمته، قالت ماو موبلي: "لا شيء". ومدّت شفتيها.

"كيف تبدو مدرّستك؟". سألتها.

"إنها جميلة". قالت.

"جيد". قلت: "أنت جميلة أيضاً".

"لماذا أنت ملوّنة البشرة، يا آبيلين؟".

لقد طرح أطفالي الآخرون، ذوو البشرة البيضاء، عليّ هذا السؤال، وكنت أكتفي بالضحك، ولكنني أردتُ إجابتها. "لأن الله خلقني ملوّنة البشرة". قلت: "ولا وجود لأي سبب آخر في العالم".

"تقول الآنسة تايلر إن الأطفال ملوني البشرة لا يستطيعون الذهاب إلى المدرسة لأنهم لا يتمتعون بالذكاء الكافي".

فخرجتُ من وراء المِنضدة حينذاك، ورفعتُ ذقنها، وملّستُ شعرها ذا المظهر المضحك. "هل تظنين أنني خرقاء؟".

"لا". همسَت، مؤكّدةً، كما لو أنها تعني ما قالت.

"ماذا يمكنك القول عن الآنسة تايلر إذاً؟".

فطرفَت عينيها كما لو أنها تُصغي بشكل جيد.

"هذا يعني أن الآنسة تايلر غير مُحِقة على الدوام". قلت.

عانقتني، وقالت: "أنت مُحِقة أكثر من الآنسة تايلر". كانت كلمات جديدة بالنسبة إليّ.

عند الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم، مشيتُ بأقصى سرعة ممكنة من موقف الحافلة إلى دار عبادة الحمَل. وانتظرتُ في الداخل، موجهةً نظري إلى الخارج عبر النافذة، ومراقبةً. وبعد عشر دقائق من محاولة التنفس وضرب العتبة بأصابعي، رأيت سيارة تتوقف وتخرج منها سيدة بيضاء البشرة. فاختلستُ النظر. لقد بدت تلك السيدة كإحدى الهيبيات اللواتي أَراهنّ على تلفاز الآنسة ليفولت. كانت ترتدي فستاناً أبيض قصيراً وتنتعل خفّاً، كان شعرها طويلاً مجعداً، ولا رذاذ عليه.

فضحكتُ مُخفيةً ضحكتي بيدي، متمنّيةً لو أن في استطاعتي الخروج ركضاً ومعانقتها. لم أتمكن من مقابلة الآنسة سكيتر طوال ستة أشهر منذ إنهائها الأعمال التحريرية وتسليم النسخة النهائية.

سحبت الآنسة سكيتر صندوقاً كبيراً بنّي اللون من المقعد الخلفي، وحملَته إلى باب دار العبادة كما لو أنها تضع ملابس قديمة. وتوقفَت للحظات ونظرَت إلى الباب، ولكنها عادت إلى سيارتها وابتعدَت. لقد شعرتُ بالحزن لأنه كان عليها القيام بذلك بهذه الطريقة، ولكننا لم نكن نريد إفساد الأمر قبل أن يبدأ.

بعد قليل من مغادرتها، ركضتُ إلى الخارج، وحملتُ الصندوق إلى الداخل، والتقطتُ نسخة، وحدّقتُ إليها، و لم أحاول البكاء. إنه أجمل كتاب رأيته يوماً، كان الغلاف أزرق باهتاً بلون السماء، وكان هناك طائر أبيض كبير كحمامة سلام يبسط جناحيه بين جانبي الغلاف، وكان العنوان *عاملة المنزل* مكتوباً بحروف سوداء كبيرة. الأمر الوحيد الذي أزعجني هو اسم واضع الكتاب *أنونيموز* (أي مجهول الاسم). لقد تمنّيتُ لو أن الآنسة سكيتر تمكنت من وضع اسمها عليه، ولكنها مجازفة تنطوي على مخاطر جمّة.

وقررتُ في اليوم التالي القيام بتسليم النسخ الأولى إلى كل النساء اللواتي نُشرت قصصهنّ في الكتاب، على أن تتولى الآنسة سكيتر مهمة تسليم نسخة إلى يول ماي في الستيت بن، لأن الخادمات الأخريات وافقن على مساعدتها. ولكنني سمعت أن يول ماي قد لا تستلم العلبة لأن السجينات لا يستلمن إلا غرضاً واحداً من أصل عشرة أغراض تُرسَل إليهنّ بسبب قيام الحارسات بمصادرتها لأنفسهنّ. وقالت الآنسة سكيتر إنها سترسل عشر نسخات، نسخة في كل مرة، للتأكد من تسلّم يول ماي نسخة عن الكتاب.

حملـــتُ ذلك الصندوق الكبير إلى المنـــزل، وأخرجتُ نسخة واحدة، ووضعت الصندوق تحت سريري. وتوجّهتُ بعد ذلك إلى منـــــزل مـــيني التي كانت حاملاً في شهرها السادس من دون أن يكـــون في إمكـــان أحد ملاحظة الأمر. وعندما وصلتُ إلى هناك، كانت جالسة إلى طاولة المطبخ تتناول كوب حليب، وليروي نائماً في الـــداخل، وبِـــيني وشـــوغر وكيندرا يقشّرون الفول السوداني في الـــباحة الخلفـــية. كان المطبخ هادئاً. فابتسمتُ وسلّمتُ ميني نسختها.

فألقت نظرةً عليها. "أظن أن طائر الحمام يبدو جيداً".

"تقـــول الآنـــسة سكيتر إن حمامة السلام هي دلالة على أزمنة أفضل، وتقول إن الناس يضعونها على ملابسهم في كاليفورنيا".

"لا يهمّني أمر أي شخص في كاليفورنيا". قالت ميني، محدّقةً إلى ذلـــك الغـــلاف: "كل ما يهمّني هو ما سيقوله الناس في جاكسون، ميسيسيبـــي، عن الكتاب".

"ســـتظهر النـــسخ في متاجـــر بيع الكتب والمكتبات غداً. ألفان وخمـــسمئة نـــسخة في الميسيسيبـــي، والنصف الآخر في مختلف أنحاء الولايات المتحدة". كان العدد أكبر بكثير من العدد الذي سبق للسيدة شـــتاين أن حددته، ولكنها قالت إن الناس يتابعون أخبار الولاية بمزيد من الاهتمام منذ بدء مسيرات الحرية، واختفاء عاملين في ميدان الحقوق المدنية في سيارة الستايشن تلك في الميسيسيبـــي.

"كـــم عـــدد النسخ التي ستُرسَل إلى مكتبة جاكسون؟". سألَت ميني: "لا شيء؟".

فهـــززت رأســـي، مبتسمة وقلت: "ثلاث نسخ. أخبرتني الآنسة سكيتر بالأمر هذا الصباح عبر الهاتف".

وبـــدت ميني مصعوقة. فقبل شهرين فقط، بدأت المكتبة المخصصة لذوي البشرة البيضاء بالسماح لملوّني البشرة بدخولها. لقد قصدتُها مرتين.

وفـــتحت ميني الكتاب، وبدأت بقراءته على الفور. ودخل ابناها وبـــناها، وزوّدهم بتوجيهات حول ما يتعيّن عليهم القيام به من دون رفـــع نظـــرها عـــن الكـــتاب. ولم تتوقف عيناها عن مسح محتويات الـــصفحة. كـــنت قـــد قرأته عدة مرات في أثناء انشغالي به في العام السابق. ولكن ميني قالت إنها لا تريد قراءته حتى صدوره، لم تكن تريد إفساده.

جلـــستُ هناك مع ميني لمدة وجيزة. كانت تطلق ابتسامة عريضة بـــين حين وآخر، وضحكَت مرات قليلة، وزمجرَت أكثر من مرة من دون أن أسألها عن السبب. فلم أشأ مقاطعتها، وتوجهتُ إلى المنـــزل. وبعـــد أن كتـــبتُ كـــل أدعيتي، لجأتُ إلى السرير مع ذلك الكتاب الموضوع على الوسادة بجانبـــي.

في اليوم التالي، كل ما كان في استطاعتي التفكير فيه في العمل هو كيفـــية عـــرض المتاجر لكتابـــي على الرفوف. لقد مسحتُ الأرض، وكويتُ، وبدّلتُ حفاضات، ولكنني لم أسمع كلمة واحدة عن الأمر في منـــــزل الآنسة ليفولت. لقد بدا الأمر كما لو أنني لم أضع كتاباً. لا أعرف ما الذي أصابني، بدا كأنه نوع من أنواع الاضطراب. كان يوم جمعة حاراً عاديّاً، والذباب يئزّ على الباب المُنخلي.

في تلـــك اللـــيلة، اتـــصلت بمنـــزلي ست خادمات شاركن في الكـــتاب، وسألن عما إذا قال أحد شيئاً عن الأمر. وتحدّثنا طويلاً كما لو أن الواقع يتبدّل إذا تنفسنا لمدة طويلة عبر الهاتف.

واتـــصلت الآنسة سكيتر أخيراً. "مررتُ بالقرب من بوك وورم بعد الظهر، ووقفتُ هناك لفترة وجيزة، ولكن أحداً لم يأبه له".

"قالـــت أُولا إنها مرّت بمتجر الكتب الخاص بملوّني البشرة. لقد حدث الأمر نفسه".

"حسناً". قالت، متنهّدة.

ولكننا لم نسمع شيئاً طوال نهاية الأسبوع تلك وفي بداية الأسبوع الـــتالي. كانت الكتب القديمة نفسها موضوعة على طاولة الليل التابعة للآنسة ليفولت. *إتيكيت لفرانسز بنتون، بايتون بلايس*، الكتاب القديم والمكـــسوّ بالغـــبار الذي تُبقيه بجانب السرير من دون قراءته. ولكن، يا الله، ليتني لا أستمر في النظر إلى تلك الكدسة من الكتب كما لو أنها لطخة.

يوم الأربعاء، لم يكن هناك ما يشير إلى اكتشاف محتوى الكتاب. فلـــم يـــشترِ أحـــد أي نسخة من متجر الكتب الخاص بذوي البشرة البيـــضاء. وقال متجر شارع فاريش ستريت إنهم باعوا نحو اثنتي عشرة نسخة، وهو أمر جيد. ربما قامت الخادمات الأخريات بشراء نسخات لصديقاتهنّ.

في يـــوم الخميس، وهو اليوم السابع، رنّ هاتفي قبل مغادرتي إلى العمل.

"لديّ أخبار". همست الآنسة سكيتر. لقد افترضتُ أنها تُقفل على نفسها في غرفة المؤونة.

"ماذا حدث؟".

"اتـــصلت السيدة شتاين وقالت إننا سنظهر في برنامج المقابلات لدنيس جايمس".

"*الناس يتحدثون*؟ البرنامج التلفازي؟".

"ســـتتم مراجعة الكتاب. قالت إنه سيظهر على القناة الثالثة يوم الخميس المقبل عند الواحدة ظهراً".

يا الله، سنظهر على دبليو أل بـــي تي – تي في! إنه برنامج محلي في جاكسون يُعرَض بالألوان بعد نشرة أخبار الساعة الثانية عشرة.

"ماذا تعتقدين أن مراجعة الكتاب ستكون؟ جيدة أم سيئة؟".

"لا أعرف. حتى إنني لا أعرف إذا قام دنيس بقراءة الكتاب أم أنه سيقول ما يُطلَب منه قوله".

فشعرتُ بالإثارة والخوف في آن معاً. سيحدث أمر ما بعد ذلك.

"قالت السيدة شتاين إن شخصاً ما شعر بالأسف حيالنا في قسم الإعـــلان التابع لهاربر آند روو، وأجرى بعض الاتصالات. وقالت إن كتابنا هو أول كتاب لا يحظى بأي ميزانية إعلانية".

فضحكنا، ولكننا بدونا عصبيّتَي المزاج.

"آمـــل في أن تتمكني من مشاهدة البرنامج في منـــزل إليزابيت. وإذا لم تستطيعي، أتصل بك وأخبرك بكل ما قيل".

* * *

مـــساء يوم الجمعة، وبعد أسبوع من صدور الكتاب، استعددت للذهاب إلى دار العبادة. كان مدير أعمال دار العبادة توماس قد اتصل بـــــي في صـــباح ذلـــك اليوم، وطلب مني حضور اجتماع خاص ســـيعقدونه. وعـــندما ســـألته عن موضوع الاجتماع، قال إن عليه الـــذهاب. وقالـــت ميني إنها تلقت الاتصال نفسه. لذلك، قمت بكيّ فـــستان جمـــيل من الكتّان أعطتني إياه الآنسة غرينلي، وتوجهتُ إلى منـــزل ميني لنسير معاً إلى دار العبادة.

كالعـــادة، كان منـــزل ميني أشبه بقفص دجاج مشتعل. فميني تـــصرخ، والأغراض تتطاير في الأرجاء، وابناها وبناتها يصيحون. لقد رأيـــتُ أولى دلالات الحَمْل على بطن ميني تحت فستانها، وكنت ممتنّة لأنهـــا كـــشفت عن الأمر أخيراً. فليروي لا يضرب ميني عندما تكون

حاملاً، وميني تعرف ذلك، فافترضتُ أنهما سيُرزقان بمزيد من الأطفال بعد ذلك الطفل.

"يا كيندرا! انهضي عن الأرض!". صاحت ميني: "من الأفضل أن تكون حبوب القرنيات ساخنة عندما يستيقظ والدك!".

أما كيندرا، البالغة من العمر سبع سنوات، فأجابت بوقاحة، وتوجهَت إلى جهاز الطهو بمؤخّرتها الناتئة وأنفها المرفوع في الهواء. وملأ دويّ اصطدام قدر الطهو المكان. "لماذا أُعدّ العشاء؟ إنه دور شوغر!".

"لأن شوغر في منزل الآنسة سيليا وتريدين أن تعيشي لترى شقيقك الثالث".

ودخل بِيني وغمرني من الوسط. فابتسم ابتسامة عريضة، وكشف لي عن السنّ التي فقدها، وركض.

"يا كيندرا، أطفئي النار قبل أن تحرقي المنزل بأكمله!".

"يُستحسن بنا الذهاب، يا ميني". قلت لأن هذا الوضع قد يدوم طوال الليل. "سنتأخر".

نظرت ميني إلى ساعتها، وهزت رأسها. "لماذا لم تعُد شوغر إلى المنزل بعد؟ لم تكن الآنسة سيليا تُبقيني حتى هذا الوقت المتأخر".

في الأسبوع السابق، كانت ميني قد بدأت باصطحاب شوغر إلى العمل لتدريبها كي تحل مكانها عندما تُرزق بالطفل. وفي تلك الليلة، طلبت الآنسة سيليا من شوغر العمل حتى وقت متأخر، ووعدَت أن تقلّها إلى المنزل.

"يا كيندرا، لا أريد رؤية الكثير من حبوب القرنيات في حوض الغسيل ذاك لدى عودتي. نظّفي المكان جيداً". وعانقتها ميني وقالت: "يا بِيني، اذهب وقل لأبيك إنه يُستحسن به النهوض من ذلك السرير".

"أوو، يا أمي، لماذا...".

"هيا، كن شجاعاً. لا تقف بقربه عندما يستيقظ".

فخرجنا من الباب، وسلكنا الشارع قبل أن نسمع صراخ ليروي بسبب قيام بيني بإيقاظه. وسرتُ بسرعة أكبر كيلا تعود وتسدّد لليروي ما يستحقّه.

"سعيدة لأننا ذاهبتان إلى دار العبادة هذا المساء". قالت ميني، وتنهدت. ومررنا حول شارع فاريش ستريت، وصعدنا الدرج. "أعطيني ساعة لا أفكر فيها في كل ذلك".

بعد دخولنا ردهة دار العبادة، انسلّ وراءنا أحد الأخوة براون، وأقفل الباب. كنت على وشك السؤال عن السبب عندما بدأ الأشخاص الثلاثون غريبو الأطوار بالتصفيق، وشرعنا ميني وأنا بالتصفيق معهم. لقد تصوّرتُ أن أحداً ما دخل الكلية أو ما شابه.

"لمن نصفّق؟". سألتُ راشيل جونسون، زوجة المبجَّل.

فضحكت وساد الهدوء، وانحنت راشيل نحوي.

"يا عزيزتي، نحن نصفّق لك". ومدّت يدها بعد ذلك، وسحبت نسخة عن الكتاب من حقيبة يدها. فنظرتُ حولي، وكان الجميع يحملون نسخات في أيديهم، بمن فيهم الموظفون الهامّون ومدبّرو شؤون دار العبادة.

اقترب مني المبجَّل جونسون. "يا آيبيلين، إنها مناسبة هامة لك ولدار العبادة".

"لا بد من أنك اشتريت كل النسخ الموجودة في متجر الكتب". قلت، فضحك الحشد بتهذيب.

"نريد أن نُعلمك أنها المرة الأولى والأخيرة التي تُقرّ دار العبادة بإنجازك، وذلك حفاظاً على سلامتك. أعلم أن العديد من الأشخاص

ســـاهموا في هـــذا الكـــتاب، ولكـــن بلغـــني أنه ما كان ليُنجز من دونك".

فنظـــرتُ إلى ميني التي كانت تبتسم، وعلمتُ أنها مشاركة بهذه المفاجأة.

"وُجّهت رسالة سرّية إلى جماعة المؤمنين وكل أفراد الجالية الملونة بعـــدم الـــبَوح بالأسماء الحقيقية لشخصيات الكتاب واسم كاتبته إذا عرفوها. وهذه الليلة استثناء. آسف" وابتسم، وهزّ رأسه قائلاً: "ولكننا لم نتمكن من غضّ الطرف من دون الاحتفال بذلك".

سلّمني الكتاب. "نعرف أنك لم تستطيعي وضع اسمك فيه، لذلك وقّعـــنا كـــل أسمائنا عليه لأجلك". وفتحتُ الغلاف الأمامي ولم يكن هناك ثلاثون أو أربعون اسماً فقط، بل مئات الأسماء، وربما خمسمئة اسم علـــى الـــصفحات الأمامية والخلفية، وعلى امتداد حاشية الصفحات الداخلـــية. لقـــد وقّـــع كـــل الأشخاص في دار العبادة حيث أمارس شعائري، ودور العبادة الأخرى أيضاً أسماءهم. آه، انهرتُ حينذاك، لقد حدث كل شيء دُفعةً واحدة بعد عامَين من الكدّ والأمل. وبعد ذلك، اصـــطف الجمـــيع، ومرّوا أمامي، وعانقوني، وقالوا لي إنني شجاعة، ولكـــنني أجبـــتهم أن هناك العديد من الشَجعى الأخريات أيضاً. لقد كـــرهت الاستئثار بكل الاهتمام، ولكنني كنت ممتنّة لعدم ذِكر الأسماء الأخرى. لم أشأ أن يعانين من المشاكل، ولم يكنّ يعرفن، كما أعتقد، أن ميني مشاركة أيضاً في الكتاب.

"قـــد تكون هناك أوقات عسيرة". قال لي المبجَّل جونسون: "إذا حدث ذلك، ستساعدك دار العبادة بشتى الوسائل".

فبكـــيتُ وبكيتُ هناك أمام الجميع. نظرتُ إلى ميني التي كانت تـــضحك. من الغريب كيف أن الناس يعبّرون عن مشاعرهم بطرائق

مختلفة. وتساءلتُ عن رد فعل الآنسة سكيتر لو كانت موجودة هناك، وقـــد أحزنني ذلك. فما من شخص في المدينة سيوقّع كتابها ويقول لها إنها شجاعة، ولن يقول لها أحد إنه سيعتني بها.

وبعـــد ذلك، سلّمني المبجَّل علبة ملفوفة بورقة بيضاء، ومربوطة بـــشريط أزرق فاتح بلون الكتاب. ووضع يده عليه كما لو أنه يقوم بمباركته. "هذا الكتاب، إنه للآنسة البيضاء. قولي لها إننا نحبها كما لو أنها فرد من عائلتنا".

يـــوم الخميس، استيقظتُ مع شروق الشمس، وذهبت إلى العمل باكـــراً. كـــان ذلك اليوم يوماً عظيماً. لقد أنجزتُ الأعمال المطبخية بسرعة، وعند الساعة الواحدة، قمت بالكيّ أمام تلفاز الآنسة ليفولت الموضـــوع على القناة الثالثة. كان الرجل الصغير في قيلولة وماو موبلي في المدرسة.

حاولـــتُ كيّ بعض الثَّنيات، ولكن يدَيّ كانتا ترتجفان وأصابعي ملـــتوية. فرششتُ بعض الماء وكويتها مجدداً، عابسةً ومُظهرةً اهتماماً زائداً. أخيراً، حان الوقت.

ظهر دنيس جايمس على الشاشة، وأشار إلى ما سيقوم بمناقشته في ذلـــك اليوم. كان هناك الكثير من الرذاذ على شعره الأسود لدرجة أنه لم يكن يتحرك. إنه المتحدث الجنوبـــي الأسرع، وقد حملني صوته على الشعور أنني على سكة حديد الملاهي. كنت عصبية المزاج جداً لدرجة أنني شعرت بالرغبة في التقيّؤ على بذلة السيد راليه التي يرتديها إلى دار العبادة.

"... وننهـــي البرنامج بمراجعة كتاب". وبعد الإعلان التجاري، عرض لغرفة إلفيس بريسلي، ولمبنى إنترستيت 55 الذي سيتم تشييده، وتطـــرّق إلى أمـــور في جاكـــسون وصولاً إلى نيو أورليانـــز. وعند

الــواحدة واثنــتين وعشرين دقيقة، قدمت امرأة وجلست بجانبه. هي تدعى جولين فرانش، وقالت إنها مراجعة الكتب المحلية.

في تلك اللحظة بالذات، دخلت الآنسة ليفولت المنــزل، مرتدية بذلــة الــرابطة ومنــتعلة حذائها ذي الكعبين العاليين اللذين يُحدثان ضجيجاً، وتوجهت مباشرةً إلى غرفة الجلوس.

"أنـــا سعيدة جداً لهدوء موجة الحر، لدرجة أنني قادرة على القفز من شدة الفرح". قالت.

كـــان السيد دنيس يتحدث عن كتاب ما بعنوان **الرجل الكبير الصغير**. فحاولتُ أن أوافق الآنسة ليفولت الرأي ولكنني شعرتُ فجأةً بتصلّب وجهي. "سأُطفئ ذلك الشيء".

"لا، أبقــيه مُشغَّلاً!". قالت الآنسة ليفولت. "إنها جولين فرانش على التلفاز! من الأفضل أن أتصل بهيلي وأخبرها".

فـــدخلت المطـــبخ، وتحدثت إلى الخادمة الثالثة لهيلي في غضون شـــهر. لم تكن إرنستين تملك سوى ذراع واحدة. فمكاسب الآنسة هيلي تتناقص باستمرار.

"يا إرنستين، الآنسة إليزابيت تتكلم... آه، غير موجودة؟ حسناً، قـــولي لهـــا حالما تصل إن زميلتنا في الأخوية على التلفاز... صحيح، شكراً لك".

عـــادت الآنسة ليفولت بسرعة إلى غرفة الجلوس، وجلست على الأريكـــة، ولكن كان هناك إعلان تجاري. كنت أتنفس بصعوبة. ماذا تفعل؟ لم يسبق لنا أن شاهدنا التلفاز معاً. كانت مأخوذة كمن يشاهد نفسه على شاشة التلفاز!

انتهى إعلان صابونة دايل فجأةً، وعاد السيد دنيس مع كتابـــي بيده. لقد بدا الطائر الأبيض أكبر من الحياة. كان يحمل الكتاب، مشيراً

بإصـــبعه إلى كلمة *أنونيموز*. وللحظات قليلة، شعرت بالفخر أكثر من شعوري بالخوف، وأردتُ أن أصرخ *هذا كتابـــي! هذا كتابـــي على التلفاز!* ولكن، كان يتعيّن عليّ التزام الهدوء كما لو أنني أشاهد برنامجاً تافهاً. كنت أتنفس بصعوبة!

"... بعـــنوان **عاملة المنـــزل** مع شهادات لبعض مدبّرات المنازل في الميسيسيبـــي...".

"آه، ليت هيلي في المنـــزل! بمن يمكنني الاتصال؟ انظري إلى ذاك الحذاء اللطيف الذي تنتعله، أراهن على أنها اشترته من باغالو شوب".

رجـــاءً اصـــمتي! ومـــددتُ يدي، ورفعتُ صوت التلفاز قليلاً، ولكـــنني تمنّـــيتُ آنذاك لو أنني لم أقم بذلك. ماذا لو تحدّثا عنها؟ هل ستعرف الآنسة ليفولت حيالها؟

"... قـــرأته اللـــيلة الماضية وتقوم زوجتي بقراءته الآن...". كان الـــسيد دنـــيس يـــتحدث كرجل يدير مزاداً علنياً، ويضحك، ويرفع حاجبيه ويُخفضهما، مشيراً إلى كتابنا. "... وهو مؤثّر حقاً. إنه منوِّر، يمكنني القول إنهم استخدموا اسم مدينة نايسفيل، ميسيسيبـــي، المبتكَر، ولكـــن من يعلم؟". وغطى فمه جزئياً، وهمس بصوت منخفض: "قد تكون جاكسون!".

ماذا قال؟

"الآن، أنا لا أقول إنها جاكسون، ولكن يمكن أن تكون أي مكان آخـــر. وإذا أردتم الحـــصول على هذا الكتاب، تأكدوا من ألا تكونوا مذكورين فيه! تحسّباً ليس إلا. ها - ها - ها - ها...".

تـــسمّرتُ في مكـــاني، وشعرتُ بخدر في عنقي. *لا* يوجد فيه ما يـــشير إلى جاكسون. قُل لي مجدداً إنه يمكن أن يكون أي مكان آخر، يا سيد دنيس!

ورأيتُ الآنسة ليفولت تبتسم لصديقتها على التلفاز كما لو أن الغبيّة لم تــرَها منذ مدة طويلة، والسيد دنيس يضحك ويتكلم، ولكن وجه تلك الزميلة في الأخوية، الآنسة جولين، غدا أحمر اللون كإشارة مرور.

"... إنه عار على الجنوب! عار على النساء الجنوبيات الصالحات اللــواتي أمــضين حياتهنّ بالاعتناء بعاملات المنازل. ما أعرفه هو أنني أعامل عاملة المنــزل لديّ كما لو أنها فرد من العائلة، وكل صديقاتي يقمن بالمِثل...".

"لمــاذا تقطِّب جبينها بهذه الطريقة على التلفاز؟". قالت، شاكية: "يا جولين!". وانحنت وربّتت بإصبعها على جبين الآنسة جولين قائلة: "لا تعبسي! لا تبدين ظريفة على هذا النحو!".

"يـــا جـــولين، هـــل قرأتِ تلك الخاتمة؟ عن الفطيرة؟ لو كانت خادمتي، بيسي ماو، تستمع، يا بيسي ماو، أنا أحترم ما تقومين به كل يوم. ولن أتناول الفطيرة بالشوكولا بعد الآن! *ها* - *ها* - *ها*...".

لكن الآنسة جولين كانت تحمل الكتاب كما لو أنها تريد إحراقه. "لا تشتروا هذا الكتاب! يا سيدات جاكسون، لا تدعمن هذا الافتراء بالمال الذي يكدّ أزواجكنّ لجنيه...".

"هاه؟". سألت الآنسة ليفولت. وظهر إعلان تجاري عن تايد.

"ما الذي كانا يتحدثان عنه؟". سألتني الآنسة ليفولت.

فلم أُجب. كان قلبـــي يخفق بقوة.

"تحمل صديقتي جولين كتاباً بيدها".

"أجل يا سيدتي".

"ما عنوانه؟ **عاملة المنــزل** أو ما شابه؟".

ضـــغطتُ رأس المكـــواة على ياقة قميص السيد راليه. كان عليّ الاتصال بميني، والآنسة سكيتر، ومعرفة ما إذا سمعتا ذلك. ولكن الآنسة

لـــيفولت كانت واقفة هناك تنتظر جوابـــي، وعرفتُ أهما مصرّة على ذلك. لم يسبق لها أن أصرّت على هذا النحو.

"هل سمعتهما يقولان إنه يتناول جاكسون؟". قالت.

وواصلتُ التحديق إلى مكواتي.

"أظن أهما قالا جاكسون. ولكن، لماذا لا يريداننا أن نشتريه؟".

كانـــت يداي ترتجفان. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ وواصلتُ الكيّ، محاوِلةً تمليس ما قمتُ بتمليسه.

بعـــد لحظـــات، انتهى الإعلان التجاري عن تايد، وظهر دنيس جايمس مجدداً حاملاً الكتاب، والآنسة جولين محمرّة الوجه. "هذا كل شـــيء للـــيوم". قال: "ولكن، تأكدوا من الحصول على نسختكم من كتابَي **الرجل الكبير الصغير وعاملة المنـــزل** من راعينا ستيت ستريت بوكـــستور. وتأكدوا بأنفسكم إذا كانت جاكسون هي المعنية أم لا". وسُيّرت الموسيقى التصويرية، وصاح: "نهارك سعيد، يا ميسيسيبـــي!".

فنظـــرت الآنسة ليفولت إليّ وقالت: "هل رأيتِ ذلك؟ قلتُ لك إن الكتاب يتناول جاكسون!". وبعد خمس دقائق، خرجت إلى متجر الكتب لشراء نسخة عن الكتاب الذي كتبتُه عنها.

ميني

الفصل الثلاثون

بعـــد بـــرنامج المقابلات *الناس يتحدثون*، التقطتُ جهاز سبيس كومند للتحكم عن بُعد وضغطتُ على زر *إطفاء*. فقصصي على وشك الانتـــشار، ولكنني لم آبه لذلك، وكان على الطبيب سترونغ والآنسة جوليا أن يجولا العالم من دوني في ذلك اليوم.

فكـــرتُ في إجـــراء اتصال هاتفي بدنيس جايمس والقول له، من *تظـــن نفسك لتنشر أكاذيب مماثلة؟* لا يمكنك إخبار كل منطقة قطار الأنفـــاق أن كتابـــنا يتناول جاكسون! لا تعرف المدينة التي هي محور كتابنا!

ســـأقول لكـــم ما الذي يقوم به هذا المغفّل. هو يتمنى أن يكون الكـــتاب عن جاكسون. هو يتمنى أن تكون جاكسون، ميسيسيبـــي، مـــثيرة للاهتمام بما يكفي لوضع كتاب كامل عنها... حسناً، وبالرغم من أن جاكسون هي المعنية في الكتاب، *فهو* لم يكن على علم بذلك.

دخلتُ المطبخ مُسرِعة واتصلت بآيبيلين، ولكن الخط كان لا يزال مشغولاً بعد محاولتين، فأقفلتُ الخط. في غرفة الجلوس، تناولتُ المكواة بعـــنف، وانتـــشلت قمـــيص السيد جوني البيضاء من سلّة الغسيل،

وتـــساءلتُ للمرة الألف عما سيحدث عندما تقرأ الآنسة هيلي الفصل الأخـــير، مـــن الأفـــضل لهـــا أن تخبر الجميع أن مدينتنا ليست المعنيّة بالكـــتاب. وقد تمضي فترة بعد الظهر طالبةً من الآنسة سيليا أن تقوم بطـــردي، ولكـــن الآنسة سيليا لن تلبّي طلبها. فكره الآنسة هيلي هو الأمر الوحيد المشترك بين تلك المرأة المجنونة وبيني. ولكنني لا أعرف ما ســـتقوم به هيلي بعد فشل محاولتها، ستكون حربنا الخاصة، بيني وبين الآنسة هيلي، ولن يؤثّر ذلك في الأخريات.

آه، لا، كـــنت في مزاج سيّئ. ومن حيث أقوم بالكيّ، استطعت رؤية الآنسة سيليا في الفناء الخلفي ببنطالها الزهري الخمري المصنوع من الساتان وقفازيها البلاستيكي الأسود. كان هناك تراب على ركبتيها، وقـــد طلـــبتُ منها مئة مرة الكف عن حفر التراب بملابسها الأنيقة. ولكن، تلك الآنسة لا تُصغي أبداً.

كـــان العـــشب أمام بركة السباحة مغطّى بمدمّات تمشيط التُّربة وأدوات يدوية. فكل ما تقوم به الآنسة سيليا هو نَكش الباحة وزراعة المـــزيد مـــن الأزهـــار متعددة الألوان، بالرغم من قيام السيد جوني باستخدام عامل بدوام كامل منذ أشهر قليلة للاهتمام بالباحة، ويدعى جـــون ويليس. لقد أمل في أن يوفر نوعاً من الحماية بعد ظهور الرجل العاري، ولكنه كان مُسنّاً ومقوَّس الظهر كمشبك ورق، ونحيلاً كذلك الـــرجل. كـــنت أشعر أنه يتعيّن التحقق من أنه لا يتصرف على غرار الـــرجل العاري وسط الشُجَيرات. أظن أن السيد جوني لم يكن يريد استبداله بشخص أصغر سنّاً لأنه يشفق عليه.

رشـــشتُ مزيداً من النشاء على ياقة السيد جوني، وسمعتُ الآنسة ســـيليا تـــوجّه تعليمات بصوت مرتفع حول كيفية زرع شُجَيرة. "تلك الأَرطنسية، لنضع مزيداً من الحديد في تُربتها. اتفقنا، يا جون ويليس؟".

"أجل يا سيدتي". أجاب جون ويليس، صائحاً.

"اصمتي، يا سيدتي". قلت. فطريقة صياحها تحمله على الظن أنها صمّاء.

رنّ الهاتف، وأسرعتُ للإجابة.

"آه، يـــا ميني". قالت آيبيلين على الهاتف: "لقد اكتشفوا المدينة، ولن يمرّ وقت طويل قبل أن يكتشفوا الشخصيات".

"إنه مجنون".

"كـــيف نعرف أن الآنسة هيلي ستقرأه؟". قالت آيبيلين بصوت مرتفع. وأملتُ في ألا تتمكن الآنسة ليفولت من سماعها. "يا الله، يجب أن نفكر في الأمر، يا ميني".

لم يسبق لي أن سمعت آيبيلين تتكلم بتلك الطريقة. لقد بدا الأمر كمـــا لو أننا نملك شخصيتين مماثلتين. "اسمعي". قلت، لأن شيئاً ما بدا لي منطقـــياً: "بما أن السيد جايمس أثار ضجة حول الكتاب، *نعلم* أنها ستقرأه. كل من في المدينة سيقوم بقراءته". وفي أثناء قولي ذلك، بدأتُ أُدرك أن ما أقوله صحيح. "لا تفقدي الأمل لأن الأمور تجري ربما على النحو الذي نريد".

بعد خمس دقائق من إنهاء المكالمة الهاتفية، رنّ هاتف الآنسة سيليا.

"منـــزل الآنسة سيليا...".

"تحـــدثتُ للتوّ إلى لوفينيا". همست آيبيلين. "قدِمت الآنسة لو آن إلى المنـــزل مع نسخة لها ونسخة لصديقتها المفضَّلة، هيلي هولبروك".

ها قد بدأنا.

طوال الليل، أُقسم إنني استطعت رؤية الآنسة هيلي تقرأ الكتاب همساً بصوت بارد وهائج. وعند الثانية بعد منتصف الليل، نهضتُ من الـــسرير، وفتحتُ نسختيَ الخاصة، وحاولتُ أن أحزر أي فصل تقرأ.

هل هو الأول أو الثاني أو العاشر؟ أخيراً، حدّقتُ إلى الغلاف الأزرق. لم يـسبق لي أن رأيت كتاباً بهذا اللون الجميل. ومسحتُ اللطخة عن الغلاف الأمامي.

بعد ذلك، أعدتُ إخفاءه في جيب معطفي الشتوي الذي لم أرتدِه أبداً بما أنني لم أقرأ أي كتاب بعد زواجي بليروي، ولم أشأ إثارة ريبته في شـأن ذلك الكتاب. أخيراً، عدتُ إلى السرير، قائلةً لنفسي إنني لن أتمكن من معرفة المكان الذي بلغته الآنسة هيلي في قراءة الكتاب. فما أعـرفه أنها لم تصل بعد إلى الجزء المتعلق بها. لقد عرفتُ ذلك لأنني لم أسمع زعيقها في رأسي بعد.

عند الصباح، أُقسم إنني كنت سعيدة بذهابـي إلى العمل. كان يـوم فـرك الأرض، وأردت نسيان كل شيء. فارتميتُ في السيارة، وقدتُ خارج مقاطعة ماديسون. كانت الآنسة سيليا قد قصدت طبيباً آخـر بعد ظهر اليوم السابق للتحقق من قدرتها على الإنجاب، ومما قلتُه لها إن في استطاعتها إنجاب طفل. كنت على ثقة تامة أنها ستطلعني على التفاصيل كافة. لقد تخلّت تلك المجنونة على الأقل عن الطبيب تايت.

توقفتُ أمام المنـزل. كنت قد بدأتُ أركن سيارتي أمام المنـزل بعـد أن كفّـت الآنسة سيليا عن اعتماد الحيلة مع السيد جوني الذي عـرف كل شيء. وأول ما رأيته هي سيارة السيد جوني الذي كان لا يـزال في المنـزل. فانتظرتُ في سيارتي. لم يسبق لي أن وجدتُه في المنـزل عندما أصل.

دخلتُ المطبخ، ووقفتُ في الوسط ونظرتُ. هناك من أعدّ القهوة. وسمعتُ صوت رجل في غرفة الطعام؛ يحدث أمر ما في المنـزل.

فانحنـيتُ نحو الباب، وسمعت صوت السيد جوني الذي كان لا يزال في المنـزل عند الثامنة والنصف من صباح يوم عمل، وطلب مني

صـــوت في رأسي الفرار من الباب. من المؤكد أن الآنسة هيلي اتصلت به وقالت له إنني سارقة، وعرف بأمر الفطيرة. لقد علم بأمر الكتاب. "يا ميني؟". نادت الآنسة سيليا.

دفعتُ الباب الدوّار بحذر شديد، واختلستُ النظر. كانت الآنسة سيليا جالسة إلى رأس الطاولة والسيد جوني جالساً بجانبها. فنظرا إليّ.

لقد بدا السيد جوني أكثر ابيضاضاً من ذلك الرجل الأمهق الذي يقيم وراء منـــزل الآنسة والترز.

"يـــا ميني، أحضري لي كوب ماء، رجاءً؟". قال، وانتابني شعور سيّئ.

فأحـــضرتُ له الماء. وعندما وضعتُ الكوب على فوطة المائدة، وقف السيد جوني، ورمقني بنظرة مطوَّلة وعميقة. يا الله، لقد بدأنا.

"أخبرتُه عن الطفل". همست الآنسة سيليا: "عن كل الأطفال".

"يا ميني، لولاكِ لَفقدتُها". قال، ممسكاً بيدي بإحكام. "أشكر الله على وجودك هنا".

نظـــرتُ إلى الآنسة سيليا التي بدت شديدة الحزن. لقد عرفتُ ما قـــال لهـــا الطبيب؛ لن يولَد لها أي طفل حيّ. فشدّ السيد جوني على يـــديّ، وتوجّه نحوها بعد ذلك، وركع على ركبتيه، ووضع رأسه على حضنها. فملّست شعره مراراً وتكراراً.

"لا تغادري. لا تتخلّي عني أبداً، يا سيليا". صاح.

"أخبرها، يا جوني. أخبر ميني ماذا قلت لي".

فـــرفع الـــسيد جوني رأسه، منفوش الشعر، ونظر إليّ. "سيكون لديك عمل عندنا باستمرار، يا ميني، ولبقية حياتك إذا أردت".

"شـــكراً لك يا سيدي". قلت، وعنيتُ ذلك. كانت تلك أفضل كلمات سمعتها في ذلك اليوم.

ومددتُ يدي إلى الباب، ولكن الآنسة سيليا قالت بلطف شديد: "ابقَي هنا قليلاً. هلاّ فعلتِ، يا ميني؟".

فأســـندتُ يدي إلى خزانة غرفة الطعام لأن الطفل يزداد وزناً في أحـــشائي، وتساءلتُ عن سبب إنجابـــي العديد من الأطفال، في حين أهـــا لا تستطيع إنجاب طفل واحد. وبكى، وبكت. كنا ثلاثة مجانين يبكون في غرفة الطعام.

"كمـــا قلـــتُ لـــك". قلـــتُ للـــيروي في المطبخ بعد يومين. "تـــضغط علـــى الـــزر فتتـــبدّل القـــناة، وليس عليك النهوض عن كرسيّك".

و لم يرفع ليروي عينيه عن صحيفته. "غير معقول، يا ميني".

"لقد حصلت الآنسة سيليا عليه، ويدعى سبيس كومند. هو علبة بنصف حجم رغيف الخبز".

فهـــز لـــيروي رأســـه. "يـــا لذوي البشرة البيضاء الكسالى. لا يستطيعون النهوض لكبس زر".

"أعتقد أن الناس سيطيرون إلى القمر في وقت قريب". قلت، من دون أن أستمع إلى ما يخرج من فمي. كنت أستمع إلى الصراخ مجدداً. متى ستنتهي تلك السيدة؟

"ماذا لدينا للعشاء؟". قال ليروي.

"أجل، يا أمي، متى سنأكل؟". سألت كيندرا.

وسمعـــتُ صـــوت ســـيارة تتوقف في الطريق الخاصة بالمنـــزل. فأصـــغيتُ، وانـــزلقت الشوكة داخل قِدر حبوب القرنيات. "كريما بالحنطة".

"لن أتناول عشاء كريما بالحنطة!". قال ليروي.

"لقد تناولتها على الفطور!". صرخت كيندرا.

"أعني لحماً مقدداً وقرنيات". وتوجهتُ إلى الباب وأغلقتُه بقوة، وأنـــــزلتُ المِزلاج، ونظرتُ خارج النافذة. كانت السيارة تعود إلى الخلف، إنها تستدير.

فـــنهض لـــيروي، وأعاد فتح الباب الخلفي بقوة. "الطقس حار هنا!". واقترب من جهاز الطهو حيث أقف. "ماذا دهاك؟". سأل، على بُعد بوصة واحدة من وجهي.

"لا شـــيء". قلت، ورجعتُ قليلاً إلى الوراء. في العادة، لم يكن يعـــبث معـــي عندما أكون حاملاً. ولكنه اقترب مجدداً، وضغط على ذراعي بقوة.

"ماذا فعلتِ هذه المرة؟".

"لم... لم أفعل شيئاً". قلت. "أنا مُتعَبة فحسب".

شـــد قبضته على ذراعي، وبدأ وجهي يتّقد. "أنت لا تتعبين ولا حتى في الشهر التاسع".

"لم أفعـــل شيئاً، يا ليروي. اذهب فحسب واجلس، ودعني أُعدّ العشاء".

فأفلتني، رامقاً إيّاي بنظرة مطوَّلة. لم أستطع النظر إلى عينيه.

آيبيلين

الفصل الحادي والثلاثون

كلما ذهبت الآنسة ليفولت للتسوق، أو خرجت إلى الباحة، أو دخلت الحمّام، أقوم بتفقّد الطاولة بجانب السرير حيث تضع الكتاب، متظاهــــرةً أنني أرفع الغبار، ومتحققةً من موقع المؤشرة في الكتاب وما إذا حققت تقدّماً في قراءته. لقد بدأت بقراءته منذ خمسة أيام، وكانت لا تــــزال في الفصل الأول وفي الصفحة *الرابعة عشرة*، وتتبقى لها مئتان وخمس وثلاثون صفحة. يا الله، هي تقرأ ببطء.

مع ذلك، فقد أردت أن أقول لها، أنت تقرأين عن الآنسة سكيتر، ألا تعــــرفين؟ وعــــن نشأتها مع كونستنتين. كنت خائفة حتى الموت، ولكنني أردت أن أقول لها، استمري في القراءة، يا سيدتي، لأن الفصل الثاني سيكون عنك.

كنت عصبية المزاج كهرة بسبب رؤية ذلك الكتاب في منــــزلها، وتــــنقلتُ على أطراف أصابعي في المنــــزل طوال الأسبوع. لقد اقترب مــــني الــــرجل الصغير ذات مرة من الخلف ولمس ساقي، وكنت على وشــــك القفز من حذاء العمل. لقد لزمتُ الحذر الشديد يوم الخميس بــــصفة خاصــــة عندما قدِمت الآنسة هيلي، وجلستا إلى طاولة غرفة

الطعام، وعملتا على الحفلة الخيرية. فقد كانتا ترفعان نظرَيهما بين الحين والآخر وتبتسمان، وتطلبان مني أن أحضر لهما شطيرة بالمايونيز أو شاياً مثلَّجاً.

لقد دخلت الآنسةِ هيلي مرتين المطبخ، ونادت خادمتها إرنستين. "هـــل تنقعين ثوب هيذر الخارجي الفضفاض كما علّمتُك؟ آه - هاه، وهل رفعتِ الغبار عن قُبّة المظلة؟ آه، لم تفعلي، حسناً اذهبـــي وقومي بذلك في الحال".

ودخلـــتُ لأرفـــع طبقـــيهما، وسمعتُ الآنسة هيلي تقول: "لقد وصـــلتُ إلى الفـــصل الـــسابع". وتسمّرتُ في مكاني، وبدأ الطبقان يطقطقان في يدي. فرفعت الآنسة ليفولت نظرها وغضّنت أنفها.

ولكـــن الآنسة هيلي كانت تهز إصبعها للآنسة ليفولت. "وأعتقد أنهم مُحِقّون، يبدو أن أحداث الكتاب تجري في جاكسون".

"هل تعتقدين ذلك؟". سألت الآنسة ليفولت.

فانحنت الآنسة هيلي وهمست. "أراهن على أننا نعرف بعض هذه الخادمات الزنجيات".

"هـــل تعـــتقدين ذلك حقاً؟". سألت الآنسة ليفولت، وشعرتُ بـــبرودة في جـــسمي، وبالكاد تمكنتُ من تحريك قدمي باتجاه المطبخ. "قرأتُ القليل...".

"أعتقد ذلك حقاً. وهل تعرفين؟". وابتسمت الآنسة هيلي بمَكر. "سأعرف كل واحدة منهنّ".

في صباح اليوم التالي، كان قلبـــي يخفق بقوة وسرعة عند موقف الحافلة لدرجة شعوري بالاختناق بسبب التفكير في ما قد تفعله الآنسة هيلـــي عندما تصل إلى القسم الذي يتناولها، وتساءلتُ عما إذا قرأت الآنـــسة ليفولت الفصل الثاني. وعندما دخلتُ منـــزلها، كانت الآنسة

ليفولت تقرأ كتابي وهي جالسة إلى طاولة المطبخ. فرفعتِ الرجل الصغير عن حضنها، وسلّمتني إيّاه من دون رفع نظرها عن الصفحة. واتجهت بعد ذلك إلى الناحية الخلفية من المنزل وهي تقرأ وتسير في آن معاً. لقد بدت مهتمة بالكتاب فجأةً بعد أن أعربت الآنسة هيلي عن اهتمامها به.

بعد بضع دقائق، عدت إلى غرفة نومها لجمع الثياب المتّسخة. كانت الآنسة ليفولت في الحمّام، ففتحتُ الكتاب عند المؤشرة. لقد وصلت إلى الفصل السادس، فصل ويني، حيث أُصيبت السيدة البيضاء بداء المحنَّكين وكانت تتصل بقسم الشرطة كل صباح بسبب دخول امرأة ملوّنة البشرة منزلها. وهذا يعني أن الآنسة ليفولت قرأت الجزء الخاص بها، وهي *مستمرة في القراءة*.

لقد شعرتُ بالخوف، ولم أتمالك نفسي من تقليب عينيّ، وراهنتُ على أن الآنسة ليفولت لم تَعي أنها المعنيّة في ما كتبتُ، وشكرتُ الله على ذلك. ربما هزت رأسها في السرير في الليلة السابقة في أثناء القراءة عن تلك المرأة المروِّعة التي لا تعرف كيف تحب طفلتها الوحيدة.

بعد قليل من مغادرة الآنسة ليفولت إلى موعدها مع مزيّن الشعر، اتصلتُ بميني. فكل ما كنا نقوم به في الفترة الأخيرة هو رفع قيمة فاتورة الهاتف لسيداتنا البيضاوات.

"لا، لا شيء، هل أنهته الآنسة ليفولت؟". سألت.

"لا، ولكنها وصلت إلى فصل ويني مساء أمس. ألم تشترِ الآنسة سيليا أي نسخة بعد؟".

"لا تبحث تلك السيدة إلا عن الأشخاص التافهين. *قادمة*". صاحت ميني. "لقد علقت المجنونة مجدداً في قلنسوة تجفيف الشعر. لقد طلبتُ منها عدم وضع رأسها هناك عندما تكون فيه لُفافات كبيرة".

"اتصلي بــي إذا سمعتِ أي شيء". قلت: "سأقوم بالمِثل".

"سيحدث أمر ما قريباً، يا آيبيلين. يجب أن يحدث شيء ما".

بعــد ظهــر ذلك اليوم، توجّهتُ إلى متجر جيتني لشراء بعض الفاكهة والجبن الأبيض البلدي لماو موبلي. لقد فعلتها الآنسة تايلر تلك مجــدداً. كانت الطفلة قد خرجت من السيارة في ذلك اليوم وتوجهت إلى غــرفة نــومها مباشــرةً، وارتمت على سريرها. "ماذا هناك، أيتها الطفلة؟ ماذا حدث؟".

"لقد لوّنتُ نفسي بالأسود". صاحت.

"مــاذا تعــنين؟". سألتُ: "قمتِ بذلك بواسطة قلم التأشير؟". والتقطتُ يدها، ولكن لم يكن هناك أي حبر على بشرتها.

"طلبت منا الآنسة تايلر أن نرسم أكثر ما نحبّه في أنفسنا". ورأيت بعــد ذلك ورقة مجعَّدة في يدها. ففتحتُها، ووجدتُ أن طفلتي رسمت نفسها ولوّنت الرسمة بالأسود.

"قالت إن الأسود يعني وجهاً متّسخاً وسيّئاً". فدسّت وجهها في الوسادة وبكت بشدة.

الآنــسة تايلــر. بعد كل ذلك الوقت الذي أمضيته في تعليم ماو موبلي كيف تحب كل الناس ولا تحكم عليهم من خلال لون بشرتهم. لقد شعرت بانقباض في صدري. هل هناك من لا يتذكر مدرّسة الصف الأول؟ ربمــا لا يتذكرون ما يتعلمون، ولكنني أقول لكم إنني أشرفتُ على تربية ما يكفي من الأطفال لأعرف أنهم *يتأثرون* بمدرّساتهم.

كانت هناك برودة على الأقل في جيتني. لقد شعرتُ بالسوء لأنني نسيت أن أشتري لماو موبلي وجبة طعام سريعة في الصباح. فأسرعتُ كــيلا يكون عليها الجلوس مع والدتها لمدة طويلة. لقد أخفت ورقتها تحت السرير كيلا تراها والدتها.

في قـــسم الأغذيـــة المعلَّبة، التقطتُ علبتي سمك طون، وواصلتُ الـــسير فعثـــرتُ علـــى بودرة الجيلو الأخضر، والتقيتُ لوفينيا اللطيفة بلباســـها الرسمي الأبيض تنظر إلى زبدة الفول السوداني. سأربط لوفينيا بالفصل السابع بقية حياتي.

"كيف حال روبرت؟". سألتُ، مربّتةً على ذراعها. فلوفينيا تعمل طـــوال الـــيوم لـــدى الآنـــسة لو آن، وتعود إلى منـــزلها بعد ذلك لاصـــطحاب روبـــرت إلى *مدرسة الضرير* ليتعلّم القراءة بأصابعه. و لم يسبق لي أن سمعتُ لوفينيا تتذمّر.

"يـــتعلّم الـــتأقلم مع محيطه". قالت، وأومأت برأسها. "هل أنت بخير؟ هل تشعرين أنك بخير؟".

"أنا عصبية المزاج فحسب. هل سمعتِ شيئاً ما؟".

فهزت رأسها. "تقوم سيدة عملي بقراءته". لقد أحسنت الآنسة لو آن التصرف مع لوفينيا بعد الحادث الذي تعرّض له روبرت.

ســـرنا في الممرّ حاملتين السلّتين. كانت هناك سيدتان من ذوي البشرة البيضاء تتحدثان بجانب مفرقعات غراهام. لقد بدتا مألوفتين لي، ولكـــنني لم أعرف اسميهما. وعندما اقتربنا منهما، صمتتا ونظرتا إلينا. من الغريب أنهما لم تكونا تضحكان.

"عُـــذراً". قلـــت ومررتُ أمامهما. وبعد تقدّمنا خطوات قليلة، سمعـــتُ إحـــداهما تقول: "تلك الزنجية التي تعمل لدى إليزابيت...". وأحدثت عربة النقل ضجيجاً حال دون سماع ما تقول.

"أراهن على أنك مُحقة". قالت الأخرى: "أراهن على أنها...".

وواصـــلتُ ولوفينيا السير بهدوء تام، موجّهتين أنظارنا إلى الأمام. فـــشعرتُ بوخـــز في عنقي لدى سماع طقطقة كعاب السيدتين وهما تبتعدان. كنت أعرف أن لوفينيا سمعت بشكل أفضل لأن أذنيها أصغر

مــن أذنيّ بعشر سنوات. وفي آخر الممرّ، بدأنا باتخاذ وجهتين مختلفتين، ولكننا استدرنا، ونظرنا إلى بعضنا بعضاً.

هل ما سمعتُه صحيح؟ قلت بعينيّ.

ما سمعته صحيح، أجابت لوفينيا.

رجاءً، يا آنسة هيلي، *اقرأيه*. اقرأيه بسرعة.

ميني

الفصل الثاني والثلاثون

مــرّ يوم آخر ولا أزال غير قادرة على سماع الآنسة هيلي تنطق بالكلمــات في أثناء قراءة السطور. لم أسمع الصراخ، ليس بعد. ولكنها تقترب.

لقــد أخــبرتني آيبيلين بما قالته السيدتان في متجر جيتني في اليوم الــسابق، ولكننا لم نسمع شيئاً منذ ذلك الحين. واستمررت في إيقاع الأغراض، وكسرتُ آخر كوب للمقادير لديّ في المساء، وكان ليروي ينظــر إلي كما لو أنه يعرف ما يجري. كان يتناول القهوة إلى الطاولة، وكان ابناي وبناتي منتشرين في كل مكان من المطبخ يُنجزون فروضهم المدرسية.

أُجفلــتُ عندما رأيت آيبيلين واقفةً عند الباب المُنخُليّ. فوضعت إصبعها على شفتيها وأومأت لي، وتوارت بعد ذلك.

"يا كيندرا، ضعي الأطباق، يا شوغر، راقبــي حبوب القرنيات، يـــا فيليتشيا، ليوقّع والدك على ذلك الامتحان، فالماما بحاجة إلى تنشق الهواء". وتواريتُ عن الأنظار خارج الباب المُنخُلي.

كانت آيبيلين واقفة إلى جانب المنــزل بلباسها الرسمي الأبيض.

"ماذا حدث؟". سألتُ. في الداخل، سمعت ليروي يصيح. فهو لن يلمس أحداً بل يصرخ فحسب، هذا ما يُفترض بالآباء أن يقوموا به.

"اتصلت إرنستين ذات الذراع الواحدة وقالت إن الآنسة هيلي تتحدث في أنحاء المدينة كافة عن محتويات الكتاب. هي تطلب من السيدات بيضاوات البشرة طرد خادماتهنّ من دون أن تعرف الهويات الحقيقية لشخصيات الكتاب!". وبدت آيبيلين قلقة، وترتجف. كانت تلفّ فوطة بواسطة حبل أبيض. أراهن على أنها لم تدرك أنها تحمل فوطة مائدة العشاء.

"ممن تطلب ذلك؟".

"لقد طلبت من الآنسة سينكلير طرد أنابيل. فطردتها، وأخذت منها مفاتيح السيارة لأنها أقرضتها نصف ثمنها. كانت أنابيل قد سدّدت معظم القرض، ولكنها لم تحصل على السيارة".

"تلك *المشعوذة*". همستُ، صارفةً أسناني.

"ليس هذا كل شيء، يا ميني".

وسمعتُ وقع خطوات حذاء في المطبخ. "أسرعي قبل أن يُمسك بنا ليروي نتهامس".

"قالت الآنسة هيلي للآنسة لو آن، *خادمتك لوفينيا مشاركة في الكتاب. أعرف أنه يجب عليك طردها. يجب عليك إرسال تلك الزنجية إلى السجن*".

"لكن لوفينيا لم تقل أمراً سيئاً عن الآنسة لو آن!". قلت: "وعليها الاعتناء بروبرت! ماذا قالت الآنسة لو آن؟".

فعضّت آيبيلين شفتها، وهزت رأسها، وسالت الدموع على وجهها.

"قالت... إنها ستفكر في الأمر".

"بأي أمر؟ الطرد أو السجن؟".

فهزت آيبيلين كتفيها قائلة: "في الأمرين معاً كما أعتقد".

"يا الله". قلت، وأردت ركل شيء ما، شخص *ما*.

"يا ميني، ماذا لو لم تُنهِ الآنسة هيلي قراءة الكتاب أبداً؟".

"لا أعرف، يا آيبيلين. لا أعرف".

تحـــوّلت أنظـــار آيبيلين نحو الباب فجأةً ورأت ليروي يراقبنا من وراء الباب المُنخُلي. لقد وقف هناك بهدوء حتى ألقيت تحية الوداع على آيبيلين، وعدت إلى الداخل.

عـــند الخامسة والنصف من صباح ذلك اليوم، ارتمى ليروي على الـــسرير بجانبــــي، واســـتيقظت على صرير سدة زجاجة الشراب، وصـــرفتُ أسناني، داعية ألا يفتعل شجاراً. كنت مُنهَكة، ناهيكم عن أنني لم أنم بشكل جيد بسبب قلقي على آيبيلين ومن أخبارها. فبالنسبة إلى الآنـــسة هيلـــي، ستكون لوفينيا مفتاح سجن آخر في حزام تلك المشعوذة.

كـــان ليروي يُحدث ضجيجاً، غير آبه أن زوجته الحامل تحاول النوم. وعندما هدأ المجنون، سمعتُه يهمس: "ما السر الكبير، يا ميني؟".

كـــان في اســـتطاعتي الـــشعور بمراقبته لي، وبنفَسه على كتفي، وبرائحة الشراب. فلم أتحرك.

"تعرفين، سأكتشف الأمر". قال، مهسهساً: "لطالما فعلتُ ذلك".

بعـــد نحو عشر ثوانٍ، تباطأت أنفاسُهُ لدرجة أنه بدا مَيتاً، ورمى ذراعه عليّ. *أشكركَ على هذا الطفل*، دعوت، لأن هذا الطفل الموجود في بطني هو الشيء الوحيد الذي أنقذني، وهي الحقيقة المروِّعة.

اســـتلقيتُ هناك، صارفةً أسناني، متسائلةً، وقلقة. فليروي يخطط لأمر ما، والله يعلم ماذا سيحدث لي إذا اكتشف الحقيقة. هو يعلم بأمر

الكـــتاب، فالجميع يعلمون، ولكن ما لا يعرفه هو أن زوجته مشاركة في الكـــتاب، ربما يعتقد الناس أنني لا أبالي باكتشافه الأمر، أعرف ما يفكـــر فيه الناس. هم يعتقدون أن في استطاعة ميني القوية الدفاع عن نفـــسها، ولكنهم لا يعرفون أنني أصبح امرأة مثيرة للشفقة عندما يقوم ليروي بضربـــي. فأنا أخشى قيامي بضربه كيلا يتخلى عني. أعلم أن لا أهمـــية لوجـــوده معي، وأشعر بغضب شديد بسبب ضعفي! كيف أحب رجلاً يضربني بشدة؟ لماذا أحب مُدمناً مجنوناً؟ ذات مرة، طرحت عليه السؤال التالي: "لماذا؟ لماذا تضربني؟". فانحنى ونظر إلى وجهي.

"لـــو لم أضـــربك، يـــا ميني، *من يعلم* الحال التي كنت ستغدين عليها".

كنت عالقةً في زاوية غرفة النوم ككلبة، ويضربني بحزامه. عندها، فكـــرت في الأمر للمرة الأولى. *من يعلم* الحال التي كنت سأغدو عليها إذا كفّ ليروي عن ضربـــي.

في مـــساء اليوم التالي، حملتُ الجميع على الخلود إلى النوم باكراً، بمـــن فـــيهم أنا. كان ليروي في منشأة الأنابيب حتى الخامسة صباحاً، وشعرت بتأثير الحَمْل عليّ. يا الله، ربما كنت حاملاً بتوأم. لم أكن أدفع للطبيب ليُطلعني على ذلك الخبر السيّئ. فهذا الطفل أكبر من الآخرين ليس إلا، وكنت لا أزال في الشهر السادس.

استـــسلمتُ لنوم عميق، وحلمتُ أنني جالسة إلى طاولة خشبية طويلة في أثناء وليمة. كنت أقضم ساقاً كبيرة لديك رومي مشويّ.

فاستيقظتُ فجأةً، وجلستُ على سريري ألهث. "من هناك؟".

كـــان قلبـــي يصطدم بصدري. ونظرتُ إلى أرجاء غرفة نومي المُظلمـــة. كان الوقت قد تخطى منتصف الليل بنصف ساعة، وليروي غير موجود، شكراً لله، ولكن أمراً ما أيقظني بالتأكيد.

أدركتُ حينذاك ما الذي أيقظني. لقد سمعتُ ما أنتظر سماعه، وما كنا كلنا في انتظاره.

لقد سمعت صراخ الآنسة هيلي.

الفصل الثالث والثلاثون

فـــتحتُ عينيّ فجأةً، وكان قلبــــي يخفق بقوة، وأتعرّق، والكَرمة المنقوشـــة على ورق الجدران الأخضر تشق طريقها متلوّية باتجاه أعلى الجدار. ما الذي أيقظني؟ ما *كان* ذلك؟

نهضتُ عن السرير وأصغيتُ. لم يكن الصوت صادراً عن والدتي. كان صوتاً عالي الطبقة، إنه صراخ شبيه باندفاع مادة ما بصعوبة داخل قطعتين ممزَّقتَين.

فجلستُ مجدداً على السرير، ووضعتُ يدي على قلبــــي، كان لا يزال يخفق بقوة. لم يجرِ أي شيء كما هو مخطَّط له، وعرف الناس أن الكتاب يتناول جاكسون. لم يكن في إمكاني التصديق أنني نسيت مدى بطء هيلي في القراءة، وراهنتُ على أنها تخبر الناس أنها قرأته مراراً. لقد بـــدأت الأمـــور تخـــرج عن السيطرة، وطُردت خادمة تدعى أنابيل، وتـــتهامس النـــساء بيضاوات البشرة في شأن آيبيلين ولوفينيا وغيرهما. والمثير للسخرية أنني أقضم أظافري بانتظار قيام هيلي بالتعبير عن رأيها بصراحة عندما أكون الوحيدة المتبقية في المدينة التي لا تأبه لما ستقوله.

ماذا لو كان الكتاب خطأً مروِّعاً؟

أخذتُ نفساً عميقاً ومؤلماً، وحاولت التفكير في المستقبل، وليس في الحاضـــر. فقبل شهر، أرسلتُ خمسة عشر موجَزاً عن سيرتي الذاتية إلى دالاس، ومِمفـــيس، وبرمينغهام، وخمسة موجَزات إلى مدن أخرى، وموجَـــزاً إلى نيويورك مرةً أخرى. لقد قالت لي السيدة شتاين إن في اســـتطاعتي ذِكر اسمها كمرجع، وربما تكون التوصية من شخص ما في مـــيدان النشر الأمر الوحيد البارز في الصفحة. وأضفتُ الوظائف التي شغلتُها في السنة السابقة:

كاتبة عمود أسبوعي في موضوع تدبّر شؤون المنـــزل في صحيفة جاكسون جورنال.

محـــررة النـــشرة الدَّوريـــة فـــي جاكـــسون، الصادرة عن رابطة الراشدات.

كاتبة عاملة المنـــزل، وهو كتاب مثير للجدل عن مدبرات المنازل ملونات البشرة ومستخدماتهنّ بيضاوات البشرة، هاربر آند روو.

لم أشـــأ في الواقع الإشارة إلى الكتاب في الرسالة، ولكنني ذكرته مرة واحدة فقط. ولكن، حتى ولو حصلتُ على عرض عمل في مدينة كـــبيرة، لم يكن في استطاعتي التخلي عن آيبيلين وسط حال الفوضى هذه، لا سيّما وأن الأمور تزداد سوءاً.

لكـــن يـــا الله، عليّ الخروج من الميسيسيبـــي. فباستثناء والدتي ووالـــدي، لم يتبقَّ لي شيء هناك، لا أصدقاء، لا عمل آبه له حقاً، ولا ســـتيوارت. وعـــندما وجّهتُ موجَزاً عن سيرتي الذاتية إلى *نيويورك بوســـت*، وذي *نـــيويورك تايمـــز*، و*هاربرز ماغازين*، وذي *نيويوركر ماغازين*، شعرتُ مجدداً بما شعرتُ به في الكلّية في شأن مدى رغبتي في أن أكـــون هـــناك، لا في دالاس، ولا في مِمفيس بل في *نيويورك سيتي* حيث يُفترض بالكتّاب أن يعيشوا. ولكن، لم يردني أي جواب منهم. ماذا لو لم أغادر أبداً؟ ماذا لو علقتُ هنا إلى الأبد؟

فاستلقيتُ وشاهدتُ أولى أشعة الشمس تدخل عبر النافذة، وارتعدتُ. لقد أدركت أن ذلك الصراخ هو صراخي.

كنت في صيدلية برِنتس دراغستور أُحضر مرهم لاستر، ولوح صابون فينولسيا لوالدتي، بينما كان السيد روبرتس يعمل على إعداد وصفتها الطبية. لقد قالت والدتي إنها لم تعُد بحاجة إلى الدواء، وإن الدواء الوحيد لداء السرطان هو أن تكون لديها ابنة لا تقص شعرها، ولا ترتدي أيام الآحاد فساتين قصيرة لا يتخطى طولها الرُّكبتين، لأنه لا أحد يعرف كيف ستكون عليه حالي بعد وفاتها.

كنت ممتنّة لأن والدتي تتحسن. فإذا كانت خطوبتي بستيوارت التي دامت خمس عشرة ثانية هي التي حرّكت رغبة والدتي في الحياة، فإن واقع فقداني هذا الشريك مجدداً شدّد عزيمتها أكثر فأكثر. من الواضح أن انفصالنا خيَّب أملها، ولكنها نهضت بسرعة من كَبوتها، حتى إن والدتي ذهبت بعيداً في ذلك لدرجة أنها عرّفتني بنسيب بَعيد القُربى في الخامسة والثلاثين من العمر، بهيّ الطلة، ولكنه كان يبدو غير سوي من الناحية الجنسية. "يا أمي". قلت عندما غادر بعد العشاء، عانيةً بذلك كيف أنها لم تلاحظ الأمر. "إنه...". ولكنني توقفتُ، وربّتّ على يدها. "قال إنني لست نوعه المفضَّل".

أسرعتُ بالخروج من الصيدلية قبل أن يدخل شخص ما أعرفه. كان يُفترض بـي أن أكون قد اعتدتُ عزلتي، ولكن ذلك لم يحدث. كنت أفتقد وجود أصدقاء لي. ليس هيلي، بل إليزابيت أحياناً، إليزابيت اللطيفة كما كانت في أيام المدرسة الثانوية. لقد ازداد الأمر صعوبة بعد إنهاء الكتاب، ولم أعد أستطيع أن أزور آيبيلين، لقد قررنا أن في الأمر مجازفة. فأكثر ما افتقدتُه ذهابـي إلى منزلها والتحدث إليها.

كنت أتحدث إلى آيبيلين عبر الهاتف كل بضعة أيام، ولكن الأمر ليس مماثلاً للجلوس معها. *أرجوك*، قلتُ لنفسي عندما كانت تزوّدني بالمستجدات في المدينة، *أرجوك يا الله، لتكن هناك بعض النتائج الحسنة*. ولكن حتى تلك اللحظة، لم يتحقق أي شيء مما تمنّيته. نساء فقط يُطلقن إشاعات ويعتبرن الكتاب لعبة، محاولات اكتشاف الشخصيات، بينما تتهم هيلي أشخاصاً لا علاقة لهم بالأمر. أنا التي أكّدتُ للخادمات ملونات البشرة أنه لن يُكشَف أمرنا، وأنا المسؤولة عن ذلك.

رنّ جرس الباب الأمامي. فنظرتُ ورأيتُ إليزابيت ولو آن تامبلتن تدخلان. فانسللت وراء رفوف مستحضرات التجميل، آملةً في ألا تـرياني. ومددتُ رأسي لأرى أين أصبحتا. كانتا متجهتين إلى منضدة الغداء، ملتصقتين ببعضهما بعضاً كتلميذتين. كانت لو آن ترتدي كميها الطويلين المعتادين في حر الصيف، وتبتسم ابتسامة ثابتة. فتساءلتُ عما إذا كانت تعرف أنها مذكورة في الكتاب.

كان شعر إليزابيت منفوشاً من الأمام، وتغطي الناحية الخلفية من شعرها بشال، ذلك الشال الأصفر الذي أهديتها إيّاه بمناسبة ذكرى ميلادها الثالثة والعشرين. ووقفتُ هناك للحظات، شاعرةً بمدى غرابة كل ذلك، مراقبةً إيّاهما، وعالمةً بما أعلم. لقد قرأت حتى الفصل العاشر كما قالت لي آيبيلين مساء اليوم السابق، ولم تلاحظ بعد أنها تقرأ عن نفسها وعن صديقاتها.

"يا سكيتر؟". نادى السيد روبرتس من مقعده فوق مسجّلة النقد. "دواء والدتك جاهز".

فتوجّهتُ إلى الناحية الأمامية من المتجر، وكان عليّ المرور بجانب إليزابيت ولو آن الجالستين إلى منضدة الغداء. فأدارتا ظهريهما لي،

ولكـــني اســـتطعت رؤيـــة أعينهما في المرآة تلاحقني. كانتا توجّهان نظريهما إلى الأسفل في الوقت نفسه.

دفعـــتُ ثمن الدواء، وثمن أنبوب معجون الأسنان لوالدتي، والمادة اللـــزجة، وعدتُ إلى الناحية الخلفية عبر الممرات. وبينما كنت أحاول الفرار من الجانب الأبعد للمتجر، خرجت لو آن تامبلتن من وراء رف فراشي الشعر.

"يا سكيتر". قالت: "هل لديك دقيقة؟".

فوقفتُ هناك مستغربة، طارفةً عينَيّ. لم يطلب أحد التحدث إليّ ولـــو لثانـــية واحدة منذ أكثر من ثمانية أشهر."أمم، بالتأكيد". قلت بحذر.

ألقـــت لـــو آن نظرة خارج النافذة، ورأيت إليزابيت متجهة إلى ســـيارتها، وكوب مزيج الحليب بيدها. فأومأت لي لو آن لأقترب إلى جانب رفوف غَسول الشعر.

"والـــدتك، آمـــل في أهـــا تتحسن؟". سألت لو آن، ولم تكن ابتسامتها مُشرقة كالعادة. وسحبت كمَّي فستانها الطويلين نحو الأسفل بالرغم من وجود قليل من العرق على جبينها.

"هي بخير. تتحسن... باستمرار".

"أنـــا سعيدة جداً". وأومأت برأسها ووقفنا هناك محرجتين، ننظر إلى بعـــضنا بعـــضاً. وأخذت لو آن نفساً عميقاً. "أعلم أننا لم نتبادل أطراف الحديث منذ مدة، ولكنني". وأخفضت صوتها وتابعت: "قلتُ لنفـــسي إنه يُفترض بك معرفة ما تقوله هيلي. هي تقول إنك وضعتِ الكتاب... عن الخادمات".

"سمعتُ أن واضع الكتاب أغفل اسمه". كان جوابـــي السريع، غـــير راغـــبة في التـــصرف كما لو أنني قمت بقراءته، علماً أن كل

شـــخص في المدينة قام بقراءته. لقد نفذت النسخ من متاجر الكتب الثلاثة، وهناك أشخاص ينتظرون شهرَين للحصول على نسخاتهم من المكتبة.

رفعــــت راحة يدها كما لو أنها تطلب مني التوقف. "لا أريد أن أعرف إذا كان الأمر صحيحاً. ولكن هيلي...". واقتربت مني وقالـت: "اتـــصلت بـــــي هيلـــي هولبروك منذ أيام وطلبت مني طرد خادمتي لوفينيا". وتصلّب فكها، وهزت رأسها.

رجاءً. وحبستُ أنفاسي. *رجاءً، لا تقولي إنك طردتِها*.

"يـــا سكيتر، لوفينيا...". ونظرت لو آن إلى عينَيّ، وقالت: "هي السبب الوحيد الذي يمكّنني من النهوض عن سريري أحياناً".

فلم أقل شيئاً. ربما كانت مكيدة أعدّتها هيلي.

"أنـــا على ثقة تامة أنك تعتبرينني فتاة خرقاء... لأنني أوافق هيلي الـــرأي بكل ما تقول". وترقرقت عيناها بالدموع، وارتجفت شفتاها. "يـــريدني الأطباء أن أذهب إلى ممفيس لـ... تلقيّ العلاج *بالصدمات الكهــــربائية*...". وغطت وجهها، ولكن دمعة انـــزلقت عبر أصابعها. "بسبب الكآبة، و... محاولات الانتحار". همست.

فنظـــرتُ إلى كمَّـــيها الطويلين، وتساءلتُ عما إذا كانت تُخفي تحتهما شيئاً. لقد أملتُ في ألا أكون مُحقّة، ولكنني ارتعدتُّ.

"بالطـــبع، يقول هنري إنني بحاجة إلى تحسين مظهري وإلا تخلّى عـــني". وقامــــت بحركة ابتعاد، محاوِلةً الابتسام، ولكن سرعان ما عاد الحزن إلى وجهها.

"يـــا سكيتر، لوفينيا هي أشجع شخص عرفته يوماً. فبالرغم من كـــل متاعـــبها، هي تجلس معي وتتحدث إليّ، وتساعدني على عيش أيامـــي. وعـــندما قرأتُ ما كتبت عني وعن المساعدة التي أقدّمها إليها

للاهتمام لحفيدها، كنت شديدة الامتنان ولم يسبق لي أن شعرتُ بذلك في حياتي. كان أفضل ما شعرتُ به طوال أشهر".

لم أدرِ ما أقول. إنه الأمر الجيد الوحيد الذي سمعتُه عن الكتاب، وأردتها أن تخبرني بالمزيد. أظن أن آيبيلين لم تسمع ذلك بعد، ولكنني شعرت بالقلق أيضاً لأن لو آن على عِلم بالأمر كما يبدو.

"إذا كتبَته حقاً، وإذا كانت الشائعة التي تطلقها هيلي صحيحة، أريدك أن تعرفي أنني لن أطرد لوفينيا أبداً. قلت لهيلي إنني سأفكر في الأمر، ولكنني سأقول لهيلي هولبروك في وجهها إنها تستحق تلك الفطيرة وأكثر إذا طلبت مني مرة أخرى طرد لوفينيا".

"كيف، ما الذي يجعلك تظنين أنها هيلي؟". *حمايتنا ضمانتنا، نفقد كل شيء إذا كُشف سر الفطيرة.*

"ربما كانت هي، وربما لا. إنه الحديث المتداول". وهزت لو آن رأسها. "في هذا الصباح، سمعتُ هيلي تقول للجميع إن الكتاب لا يتناول جاكسون. من يعرف السبب".

فتنهدتُ سرّاً، وهمستُ: "شكراً لله".

"حسناً، سيعود هنري إلى المنزل قريباً". ووضعت حقيبة يدها على كتفها وقوّمت وقفتها، وعادت البسمة إلى وجهها كما لو أنها قناع.

توجهت إلى الباب، ونظرت إليّ في أثناء فتحه. "سأقول لك أمراً إضافياً واحداً. لن تحصل هيلي هولبروك على صوتي لرئاسة الرابطة في كانون الثاني/يناير، ولا في أي وقت آخر".

خرجت، وأحدث الجرس رنيناً وراءها.

بقيتُ مكاني عند النافذة. في الخارج، بدأ مطر خفيف بالهطول غامراً السيارات المتوقفة بغشاوة من الماء، وصاقلاً الرصيف الأسود.

وشاهدتُ لو آن تغادر موقف السيارات، قائلةً لنفسي، *هناك أمور كثيرة تجهلينها عن شخص ما*. وتساءلتُ لو أنه كان في استطاعتي جعل أيامها أكثر اطمئناناً لو عاملتها بلطف أكبر. أليست الفكرة الرئيسة في الكتاب؟ *نحن شخصان لا نختلف عن بعضنا كثيراً بخلاف ما اعتقدتُ*.

لكن، لو آن فهمت مغزى الكتاب قبل أن تقرأه. من فاته المغزى هذه المرة هو أنا.

* * *

في مساء ذلك اليوم، اتصلت بآيبيلين أربع مرات، ولكن خطها الهاتفي كان مشغولاً. فأقفلتُ الخط، وجلست قليلاً في غرفة المؤونة، محدّقةً إلى مراطبين مربّى التين التي أعدّتها كونستنتين قبل يباس شجرة التين. لقد قالت لي آيبيلين إن الخادمات يتحدثن طوال الوقت عن الكتاب وما تجري فيه من أحداث. كانت تتلقى ستة أو سبعة اتصالات هاتفية في الليلة.

وتنهّدتُ. كان يوم الأربعاء، وسأسلّم في اليوم التالي عمود الآنسة ميرنا الذي كتبتُه منذ ستة أسابيع. لقد أعددتُ نحو عشرين مقالة بشكل مُسبَق لأنه لم يكن لديّ ما أقوم به. وبعد ذلك، لم يعُد لديّ ما أفكر فيه، وكل ما تبقى لي هو القلق.

أحياناً، وعندما أشعر بالملل، لم أكن أتمالك نفسي عن التفكير في ما ستؤول إليه حياتي لو لم أضع الكتاب. لَلَعبتُ البريدج يوم الاثنين، ولَذهبتُ في صباح اليوم التالي إلى اجتماع الرابطة، وسلّمتُ النشرة الدَّورية، ولاصطحبني ستيوارت مساء يوم الجمعة إلى العشاء، وبقينا في الخارج حتى وقت متأخر. ولَشعرتُ بالإرهاق عندما أستيقظ يوم السبت لمزاولة كرة المضرب، مُرهَقة، قانعة، و... *مُثبَطة العزيمة* لأن هيلي ستدعو خادمتها سارقة بعد الظهر، ولجلستُ هناك واستمعتُ،

ولأمسكت إليزابيت بذراع طفلتها بقوة، وأشحتُ بنظري غاضّةً الطّرف عما يجري. ولكنت مخطوبة لستيوارت، ولما ارتديتُ فساتين قصيرة، لاكتفيت بشعري القصير. ولما فكرتُ في المجازفة بأي شيء كوضع كتاب عن مدبّرات المنازل ملونات البشرة، ولما خشيتُ كثيراً عدم موافقتهن. لن أكذب على نفسي، وأقول إنني بدّلتُ رأي أشخاص مثل هيلي وإليزابيت، ولكن لم يكن عليّ التظاهر على الأقل أنني أوافقهم الرأي.

خرجتُ من غرفة المؤونة تلك ذات التهوئة السيئة مع شعور بالذُّعر. وانتعلت حذاء منخفض الكعبين، وخرجتُ إلى الليل الدافئ. كان القمر بَدراً، ويوجد مقدار كافٍ من الضوء. لقد نسيتُ تفحّص صندوق البريد بعد ظهر ذلك اليوم، وكنت الوحيدة التي تقوم بذلك على الدوام. ففتحته، ووجدتُ فيه رسالة واحدة من هاربر آند روو؛ لا بد من أنها السيدة شتاين. لقد أُصبت بالدهشة بسبب قيامها بتوجيه الرسالة إلى هناك، علماً أن كل العقود المتعلقة بالكتاب أُرسلت إلى صندوق البريد في مكتب البريد، تحسُّباً لافتضاح الأمر. كان الظلام دامساً، ولم أتمكن من قراءة المضمون، لذلك وضعتُه في الجيب الخلفي للجينز الأزرق.

بدلاً من القيام بنزهة على الطريق سيراً على القدمين، عبرتُ *البستان* متحسّسةً العشب الطريّ تحت قدميّ، ومتنقّلةً بين حبات الإجاص التي سقطت عن الأشجار. لقد حلّ شهر أيلول/سبتمبر مجدداً، وكنت لا أزال هناك، في حين انتقل ستيوارت إلى مكان آخر. لقد جاء في مقالة عن السيناتور تعود إلى أسابيع خلت أن ستيوارت نقل شركته النفطية إلى نيو أورليانز ليتمكن من تمضية الوقت مجدداً للعمل على أبراج آبار النفط في البحر.

سمعـــتُ صوت صريف الحصى، ولكنني لم أستطع رؤية السيارة تـــسلك الطـــريق الخاصة بالمنـــزل بالرغم من أن مصابيحها الأمامية مُضاءة.

رأيـــتها تـــركن سيارة الأولدزموبيل أمام المنـــزل وتوقف عمل المحرك، ولكنها بقيت داخلها. كانت مصابيح رُواقنا الخارجي الأمامي مـــضاءة بلون أصفر تحوم حوله حشرات الليل الطائرة. كانت منحنية على عجلة القيادة كما لو أنها تحاول رؤية من الموجود في المنـــزل. ماذا تريد؟ فراقبتُ لثوان قليلة، وقلتُ لنفسي بعد ذلك، *اذهبـــي إليها أولاً*. اذهبـــي إليها قبل أن تنفّذ ما تخطط للقيام به.

فعبرتُ الباحة بهدوء. وأشعلَت سيجارة، ورمت عود الثّقاب من النافذة المفتوحة على طريقنا الخاصة.

واقتربتُ من سيارتها من الخلف، ولكنها لم ترَني.

"هل تنتظرين شيئاً؟". سألت عند النافذة.

فأُجفلـــت هيلـــي، وأسقطت سيجارتها على الحصى. واندفعت خارج السيارة، وأغلقت الباب بقوة، مبتعدةً عني.

"لا تقتربـــي بوصة واحدة". قالت.

فـــتوقفتُ مكـــاني، ونظرتُ إليها. من يستطيع النظر إليها؟ كان شـــعرها الأســـود أشعث، وهناك خُصلة معقوفة ومنتصبة إلى الأعلى، وكنـــزتها الصوفية مرفوعة جزئياً، وبدانتها تضغط على الأزرار، وكان في اســـتطاعتي الـــتحقق من زيادة وزنها. كانت هناك... بقعة يغطيها القشب عند طرف فمها الأحمر. لم يسبق لي أن رأيت هيلي على هذه الحال منذ أن قطع جوني علاقته بها في الكلّية.

نظرت إليّ من الأعلى إلى الأسفل قائلة: "من أنت، هيبيّة من نوع ما؟ يا الله، لا بد من أن والدتك المسكينة مُحرَجة بمظهرك".

"يا هيلي، لماذا أنت هنا؟".

"لأخـــبرك أني اتصلت بمحاميّ، هيبـــي غودمان، الذي صودِف أنـــه أفـــضل خبير في قوانين التشهير في الميسيسيبـــي، وأنت في مأزق كبير. ستذهبين إلى السجن، هل تعرفين ذلك؟".

"لا يمكنك إثبات أي شيء، يا هيلي". كنت قد ناقشتُ الأمر مع الدائـــرة القانونـــية في هاربر آند روو، والتزمنا الحذر الشديد، مُضفين طابع السرّية على تحرّكنا.

"حـــسناً، كـــنت على ثقة تامة أنك كتبته، لأنه لا وجود لأي شخص عديم الذَّوق مثلك في المدينة يناصر الزنجيات على هذا النحو".

مـــن المحيِّر حقاً كيف أننا كنا صديقتين في ما مضى. ففكرتُ في الدخـــول وإقفال الباب، ولكن كان هناك مغلّف في يدها، وقد جعلني ذلك عصبية المزاج.

"أعرف أن هناك الكثير من الأقاويل، والكثير من الشائعات...".

"آه، تلـــك الأقاويـــل لا تهمّـــني. كـــل من في المدينة يعرف أن جاكـــسون ليست المدينة المعنية. إنها مدينة ابتكرتها في رأسك الصغير المريض، وأعرف من عاونك أيضاً".

فتـــصلّب فكّاي. من الواضح أنها كانت على عِلم بميني ولوفينيا، وأعرف ذلك، ولكن هل هي على عِلم بآيبيلين؟ أو بالأخريات؟

لـــوّحت هيلـــي بالمغلّـــف وقهقهت. "أنا هنا لأُبلِغ والدتك بما *فعلت*".

"ستخبرين *والدتي* عني؟". ضحكتُ، ولكن الحقيقة هي أن والدتي لا تعـــرف شيئاً عن الموضوع. لقد أردتُ عدم إطلاعها على ما يجري كـــيلا تُجرَح مشاعرها وتخجل بـــي و... نظرتُ إلى المغلف. ماذا لو حملها ذلك على التقيّؤ مجدداً؟

"سأقوم بذلك بالتأكيد". وصعدت هيلي الدرج الأمامي، مرفوعة الرأس.

تبعتُها بسرعة إلى الباب الأمامي. ففتحته ودخلَت كما لو أنها في منـــزلها.

"يـــا هيلـــي، أنـــا لم أدعُك للدخول". قلت، ممسكةً بذراعها. "عليك...".

ولكن والدتي ظهرت من وراء الزاوية، وأنـــزلتُ يدي.

"آه، *هيلي*". قالت والدتي. كانت في بُرنُس الحمّام وعكّازها يهتزّ بيدها في أثناء سيرها. "لقد مضى وقت طويل، يا عزيزتي".

نظـــرت هيلـــي إليها، طارفةً عينيها مرات عدة. لم أدرِ ما الذي صـــدم هيلـــي أكثر؛ طريقة نظر والدتي إليها أم مظهرها. فوالدتي التي كانـــت في ما مضى ذات شعر بنّي كثّ، أصبح شعرها خفيفاً وأبيض كبـــياض الثلج. ويخيَّل لمن لم يرَها، بعد ازدياد حالها الصحية سوءاً، أن يدها المرتجفة على عكّازها تشبه الهيكل العظمي. لكن الأسوأ من ذلك أن والـــدتي لم تكـــن تضع كل أسنانها بل تلك الأمامية فقط. كانت التجويفات في خدَّيها عميقة إلى أقصى حدّ.

"يا سيدة فيلان، أنا... أنا هنا لـــ...".

"يا هيلي، هل أنت مريضة؟ مظهرك مُريع". قالت والدتي.

مـــرّرت هيلـــي لسانها على شفتيها. "حسناً، لم... لم يتسنَّ لي الوقت للاهتمام بمظهري...".

هـــزّت والدتي رأسها. "يا هيلي، *يا عزيزتي*. لا يوجد زوج صغير الـــسن يـــرغب في العودة إلى المنـــزل ورؤية هذا. انظري إلى شعرك، وإلى...". وعبست والدتي، وألقت نظرة عن قُرب على تلك البقعة التي يغطيها القشب. "تلك البقعة ليست جذّابة، يا عزيزتي".

أبقيتُ نظري على الرسالة. وأشارت والدتي بإصبعها إليّ.

"سأتصل بفاني ماو غداً، وأحدد موعداً لكليكما".

"يا سيدة فيلان، ليس...".

"لا حاجة إلى شكري". قالت والدتي: "هو أقلّ ما يمكنني القيام به لأجلك، لا سيّما وأن والدتك العزيزة لم تعُد بالقرب منك لمساعدتك. الآن، سألجأ إلى السرير". وتوجهت والدتي إلى غرفة نومها متكئةً على العكّاز. "لم يفُتِ الأوان، أيتها الفتاتان".

وقفت هيلي هناك للحظات، فاتحةً فمها. أخيراً، توجهت إلى الباب، وفتحته بقوة وخرجت. كانت لا تزال تمسك الرسالة بيدها.

"تواجهين متاعب جمّة، يا سكيتر". قالت مهسهسة بفم أشبه بقبضة اليد. "وكذلك زنجياتك تلك؟".

"ما الذي تتحدثين عنه بالتحديد، يا هيلي؟". قلت: "أنت لا تعرفين شيئاً".

"لا أعرف، أليس كذلك؟ لوفينيا تلك؟ آه، لقد اهتممتُ بأمرها وبأمر لو آن أيضاً". وتمايلت خصلة الشعر المعقوفة في أعلى رأسها بينما كانت تومئ به.

"قولي لآيبيلين تلك عندما تريد أن تكتب عن صديقتي العزيزة إليزابيت، أه - هاه". قالت، مُطلقةً ابتسامة جلِفة: "تتذكرين إليزابيت؟ دعتك إلى زفافها؟".

توهّج أنفي، وأردت ضربها لدى سماع اسم آيبيلين.

"لنقُل إنه كان يُفترض بآيبيلين أن تكون أكثر ذكاءً وعدم ذكر ذلك الشق الذي يشبه حرف L الموجود في طاولة طعام إليزابيت المثيرة للشفقة".

توقّف قلبي. يا لغبائي، كيف أمكنني قول ذلك؟

"ولا تظني أنني نسيت ميني جاكسون. لديّ مخططات كبيرة لتلك الزنجية".

"حذارِ يا هيلي". قلت من بين أسناني. "لا تفضحي أمرك". وبدوتُ شديدة الثقة بالنفس، ولكنني كنت أرتجف من الداخل، متسائلةً عن تلك المخططات.

فتحت عينيها واسعاً. "لستُ من **تناول تلك الفطيرة!**".

استدارت، وتوجهت إلى سيارتها، وفتحتِ الباب بقوة. "أخبري أولئك الزنجيات أن يبقين أنظارهنّ فوق أكتافهنّ. من الأفضل لهنّ الاحتراس من الآتي".

اهتزت يدي عندما طلبتُ رقم هاتف آيبيلين. وأدخلتُ سمّاعة الهاتف إلى غرفة المؤونة، وأغلقتُ الباب. كانت رسالة هاربر آند روو بيدي الأخرى. لقد بدا الأمر كما لو أننا في منتصف الليل، ولكنها لم تكن سوى الثامنة والنصف.

فأجابت آيبيلين، وقلتُ بسرعة: "قدِمت هيلي هذا المساء، وهي تعرف".

"الآنسة هيلي؟ تعرف ماذا؟".

من ثم سمعتُ صوت ميني في الخلفية، كانت تسأل: "هيلي؟ ماذا عن هيلي؟".

"ميني موجودة... هنا معي". قالت آيبيلين.

"حسناً، أظن أن عليها سماع ذلك أيضاً". قلت، علِماً أنني تمنّيتُ أن تقوم آيبيلين بإخبارها في وقت لاحق بعد إنهاء المكالمة الهاتفية. كنت أنتظر قيامها بتكرار كل شيء لميني بين حين وآخر، في أثناء وصفي كيفية قدوم هيلي واقتحامها المنزل.

عادت آيبيلين إلى الهاتف، وتنهّدت.

"لقـــد اكتشفت هيلي الأمر بالتأكيد... لأنني أدرجت في قصتي الشقّ في طاولة طعام إليزابيت".

"يا الله، ذلك *الشق*. لا أستطيع التصديق أنني ذكرتُ ذلك".

"لا، كان *يُفترض بـــي* الانتباه إلى الأمر. أنا آسفة، يا آيبيلين".

"هـــل تظنين أن الآنسة هيلي ستخبر الآنسة ليفولت أنني كتبت عنها؟".

"لا يمكنها إخبارها". صاحت ميني: "وإلا أقرّت أن المدينة المعنيّة في الكتاب هي جاكسون".

أدركتُ مدى أهمية خطة ميني. "أوافق ميني الرأي". قلت: "أعتقد أن هيلـــي مـــروَّعة، يا آيبيلين. هي لا تعرف *ما* يتعيّن عليها القيام به. قالت إنها ستخبر *والدتي* عني".

بعد مرور الصدمة التي تسببت بها كلمات هيلي، هزأتُ من فكرة قـــيامها بإخبار والدتي. كان هذا الأمر من آخر اهتماماتنا. فوالدتي التي تجـــاوزت فسخ خطوبتي يمكنها تجاوز هذه المسألة. سأتعاطى مع الأمر عندما يحدث.

"أعـــتقد أنه ليس بيدنا حيلة سوى الانتظار، إذاً". قالت آيبيلين، وبـــدت عـــصبية المزاج. وقد لا يكون الوقت الأفضل لإطلاعها على أخباري الأخرى، ولكنني لم أستطع ذلك.

"تلقّيتُ... رسالة اليوم من هاربر آند روو". قلت: "اعتقدتُ أنها من السيدة شتاين، ولكنها لم تكن كذلك".

"من أرسلها إذاً؟".

"إنـــه عـــرض عمـــل في مجلة *هاربرز ماغازين* في نيويورك، في منـــصب مـــساعدة محررة. أنا على ثقة تامة أن السيدة شتاين تدبّرت العمل لي".

"إنه أمر جيد!". قالت آيبيلين، وأضافت: "يا ميني، تلقّت الآنسة سكيتر عرض عمل في مدينة نيويورك!".

"يا آيبيلين، لا يمكنني قبول العرض. أردت فقط تشاطر الأمر معك. أنا...". كنت ممتنّة لتمكّني على الأقل من إخبار آيبيلين.

"ماذا تعنين، لا يمكنك قبول العرض؟ هذا ما كنت تحلمين به".

"لا يمكنني المغادرة الآن، لا سيّما وأن الأمور تزداد سوءاً. لن أترككنّ وسط هذه المعمعة".

"ولكن... ستحدث أمور سيئة سواءً أكنت موجودة أم لا".

يا الله، لقد أردت البكاء لدى سماعها تقول ذلك. وأطلقتُ تأوّهاً.

"لم أعنِ ذلك. نحن لا نعرف ما الذي سيحدث. يا آنسة سكيتر، عليك قبول ذلك العمل".

لم أكن أعرف حقاً ما الذي يتعيّن عليّ القيام به. فجزء مني يقول إنه لم يكن يُفترض بي إخبار آيبيلين لأنها ستطلب مني الذهاب بالطبع، ولكن كان عليّ إخبار شخص ما. وسمعتها همس لميني: "تقول إنها لن تقبل العرض".

"يا آنسة سكيتر". قالت آيبيلين: "لا أقصد زيادة آلامك ولكنك... لا تحظين بحياة جيدة هنا في جاكسون. فوالدتك في تحسن، و...".

سمعتُ كلمات خفيضة، وإمساك أحدهم بالسمّاعة، وظهر صوت ميني عبر الهاتف. "أصغي إليّ، يا آنسة سكيتر. سأعتني بآيبيلين وستعتني بي. ولكن، لم يتبقَّ لك شيء هنا سوى عدوات في رابطة الراشدات، ووالدة سيقودك وضعها الصحي إلى معاقرة الشراب. لقد قطعتِ الطريق على كل إمكانية للتراجع، ولن تحصلي على أي صديق آخر في

هـــذه المدينة، والكل يعرفون ذلك. لذلك، لا تتباطأي في الانتقال إلى نيويورك".

أنهـــت ميني المكالمة الهاتفية، وجلستُ محدّقة إلى سمّاعة الهاتف التي أُمـــسكها بيد، وأحمل الرسالة باليد الأخرى. *هل أستطيع القيام بذلك حقاً؟*

فميني مُحِقة، وآبيلين كذلك. لم يتبقَّ لي شيء هنا سوى والدتي ووالدي، والبقاء هنا لأجل والدَيّ سيفُسد بالتأكيد العلاقة القائمة بيننا، ولكن...

انحنـــيتُ على الرفوف، وأغمضتُ عينيّ. سأذهب، سأذهب إلى نيويورك.

آيبيلين

الفصل الرابع والثلاثون

كان يوجد على أواني المائدة الفضية للآنسة ليفولت بقع غريبة في ذلك اليوم بسبب ارتفاع درجة الرطوبة كما يبدو. فقمت بتلميع كل قطعة موجودة على طاولة نادي البريدج أكثر من مرة للتأكد من أنها لا تـــزال موجـــودة هناك. كان الرجل الصغير قد بدأ بانتشال الأغراض، والملاعـــق، ودبابيس الشعر، ودسّها في حفاضه لإخفائها، وغدا تغيير الحفاض أحياناً أشبه باكتشاف كنـــز.

رنّ الهاتف، فدخلتُ المطبخ، وأجبت.

"لديّ أخبار قليلة اليوم". قالت ميني.

"ماذا سمعت؟".

"قالـــت الآنـــسة رنفرو إنها تعرف أن من أكل تلك الفطيرة هي الآنـــسة هيلـــي". وقهقهت ميني، ولكن خفقان قلبـــي ازداد أضعافاً مضاعفة.

"يا الله، ستصل الآنسة هيلي بعد خمس دقائق. من الأفضل لها أن تُـــثير تلـــك المـــسألة علـــى الفور". لقد بدت مناصرها أمراً جنونياً، واختلطت الأمور في رأسي.

"اتصلتُ بإرنستين ذات الذراع الواحدة...". ولكن ميني صمتت. لا بد من أن الآنسة سيليا دخلت الغرفة.

"حسناً، لقد ذهبت. لقد اتصلتُ بإرنستين، وقالت إن الآنسة هيلي استمرت في الصراخ على الهاتف طوال اليوم. والآنسة كلارا على عِلم بفاني أموس".

"هل طردها؟". لقد أدخلت الآنسة كلارا ابن فاني أموس إلى الكلّية، وهو ما ذُكر في إحدى القصص المُشيدة.

"لا. لقد جلست هناك، فاتحةً فمها والكتاب في يدها".

"شكراً لله. اتصلي بي إذا سمعتِ المزيد". قلت: "لا تقلقي في شأن اتصالاتك الهاتفية. سأقول للآنسة ليفولت إن الأمر مرتبط بشقيقتي المريضة". يا الله، لا تحاسبني على تلك الكذبة أرجوك. فآخر ما كنت بحاجة إليه هو شقيقة مريضة.

بعد دقائق قليلة من إنهاء المكالمة الهاتفية، رنّ جرس الباب، وتظاهرتُ أنني لم أسمع. كنت عصبية المزاج بسبب اضطراري إلى رؤية وجه الآنسة هيلي بعد ما قالته للآنسة سكيتر. لم أستطع التصديق أنني ذكرت ذلك الشق الذي يشبه حرف L. فخرجتُ إلى حمّامي وجلستُ، مفكرةً في ما سيحدث إذا كان عليّ ترك ماو موبلي. يا الله، تضرعت، إذا كان عليّ تركها فليكن ذلك لصالحها. لا تدَعها مع الآنسة تايلر، ومع ما تخبرها به أن الأسود هو علامة الاتساخ، ومع الآنسة ليفولت الباردة، وجدتها التي تنتزع منها كلمات الشكر. ورنّ جرس باب المنزل مرة أخرى، ولكنني لزمت مكاني. سأقوم بذلك يوم غد، قلت لنفسي. سألقي تحية الوداع على ماو موبلي يوم غد تحسّباً لأي طارئ.

عـــندما عدتُ، سمعتُ كل السيدات يتحدثن وهنّ جالسات إلى الطاولـــة. كـــان صوت الآنسة هيلي عالياً، ووضعتُ أذني على باب المطبخ، خائفةً من الدخول.

"... ليـــست جاكـــسون. هذا الكتاب هراء، هذا ما هو عليه. أراهن على أن كل الأمر من اختلاق زنجية ما...".

سمعـــتُ صرير كرسيّ، وعرفتُ أن الآنسة ليفولت قادمة للبحث عني. لم أستطع إرجاء الأمر.

ففـــتحتُ الباب، حاملةً إبريق الشاي المثلّج بيدي. وبرمتُ حول الطاولة، مُبقيةً نظري على حذائي.

"سمعـــتُ أن شخصية بيتي قد تكون شارلين". قالت الآنسة جاني بعينين مفتوحتين. وبجانبها، كانت الآنسة لو آن مُشيحةً بنظرها كما لو أنها غير مبالية بطريقة أو بأخرى. لقد تمنّيتُ لو أن في استطاعتي التربيت علـــى كتفها وإطلاعها على مدى سعادتي كونها سيدة العمل البيضاء للوفينيا من دون الإفصاح عن أي شيء، ولكنني لم أتمكن من ذلك. لم يكن في استطاعتي قول أي شيء عن الآنسة ليفولت لأنها مقطّبة الجبين كالعادة، ولكن وجه الآنسة هيلي كان أرجوانيّ اللون كالخَوخ.

"والخادمـــة في الفـــصل الرابع؟". أكملت الآنسة جاني: "سمعتُ سيسي تاكر تقول...".

"الكتاب *ليس عن جاكسون*!". صاحت الآنسة هيلي، وأُجفلتُ في أثناء سكب الشاي. فسقطت نقطة بشكل عرضي على طبق الآنسة هيلي الفارغ، ونظرت إليّ، وتحوّلت أنظاري إلى أنظارها كالمغناطيس.

فقالت بصوت منخفض وبارد: "لقد أرقتِ القليل، يا آيبيلين".

"آسفة، لم...".

"امسحيه".

فمسحتُه، مرتجفة، بفوطة كنت أُمسك مِقبض الإبريق بها.

حدّقت إلى وجهي، وكان عليّ توجيه نظري إلى الأسفل. لقد شعرتُ بالسر الكبير الذي نتشاطره. "أحضري لي طبَقاً نظيفاً لم تلوّثيه بفوطتك المتّسخة".

فأحضرتُ لها طبقاً نظيفاً، وتأملته، وشمّته على نحو مسموع. استدارت من ثم إلى الآنسة ليفولت وقالت: "حتى إنه لا يمكنك *تعليم* هؤلاء الناس كيفية التنظيف".

كان عليّ العمل على خدمة الآنسة ليفولت حتى وقت متأخر من ذلك المساء. وفي أثناء نوم ماو موبلي، سحبتُ كتاب الأدعية، وشرعتُ بالدعاء لأجل الأشخاص المذكورين على لائحتي. كنت سعيدة جداً لأجل الآنسة سكيتر التي اتصلت بي في صباح ذلك اليوم، وقالت إنها وافقت على العمل، وستنتقل إلى نيويورك بعد أسبوع! ولكن يا الله، لم أتمكن من التوقف عن الإجفال كلما سمعتُ صوتاً، مفكرةً في أن الآنسة ليفولت ربما ستدخل من الباب وتقول إنها تعرف الحقيقة. وعندما عدت إلى المنزل، كنت عصبية المزاج جداً لدرجة أنني لم أستطع الخلود إلى النوم. فعبرتُ الظُلمة القاتمة كالزفت إلى الباب الخلفي لميني. كانت جالسة إلى طاولتها تقرأ الصحيفة. إنه الوقت الوحيد من يومها الذي لا تقوم فيه بتنظيف شيء ما، أو إطعام شخص ما، أو حثّ أحد الأشخاص على القيام بأمر ما بالطريقة الصحيحة. كان المنزل شديد الهدوء لدرجة أنني شعرت بوجود خطب ما.

"أين الجميع؟".

فهزت كتفيها. "خلدوا إلى النوم، أو ذهبوا إلى العمل".

وســـحبتُ كرســـيّاً وجلستُ. "أردتُ فقط أن أعرف ما الذي سيحدث". قلت: "أعلم أنه يجدر بـــي الشعور بالامتنان لأن الأمر لم ينفجر بوجهي بعد، ولكن هذا الانتظار يثير جنوني".

"ســـيحدث في وقت قريب". قالت ميني كما لو أننا نتحدث عن نوع القهوة التي نتناولها.

"يا ميني، كيف يمكنك أن تكوني هادئة إلى هذا الحد؟".

فنظرت إليّ، ووضعت يدها على بطنها الذي انتفخ في الأسبوعين الأخيريـــن. "تعرفين الآنسة شوتارد التي تقوم ويلي ماي بخدمتها؟ لقد ســـألت ويلي ماي يوم أمس إذا كانت تعاملها بشكل سيّئ على غرار تلـــك السيدة في الكتاب". ونخرت ميني أنفها. "قالت لها ويلي ماي إن في إمكانها التعاطي معها بشكل أفضل، ولكنها ليست سيّئة جداً".

"هل سألتها ذلك حقاً؟".

"بعـــد ذلك، أخبرتها ويلي ماي كيف كانت السيدات بيضاوات البـــشرة الأخريات، الجيدات منهنّ والسيئات، يعاملنها، وأن السيدات بيـــضاوات البـــشرة كنّ يُصغين إليها. وقالت ويلي ماي إنه مرّ سبعة وثلاثون عاماً على وجودها في منـــزل الآنسة شوتارد، وهذه هي المرة الأولى التي تجلسان فيها إلى الطاولة نفسها".

فـــإلى جانـــب خـــبر لوفينيا، لقد كان أول خبر جيد نسمعه، وحاولـــتُ الاســـتمتاع بالأمر، ولكنني عدتُ إلى الواقع. "ماذا عن الآنسة هيلي؟ ماذا قالت الآنسة سكيتر؟ يا ميني، ألستِ عصبية المزاج قليلاً؟".

ووضعت ميني الصحيفة من يدها. "انظري، يا آيبيلين، لن أكذب علـــيك. أخشى من أن يقوم ليروي بقتلي إذا اكتشف الأمر. وأخشى مـــن أن تقـــوم الآنسة هيلي بإضرام النار في منـــزلي. ولكن". وهزت

رأسها: "لا يمكنني شرح الأمر. لديّ هذا الشعور أن الأمور تحدث ربما تماماً كما يُفترض بها أن تحدث".

"حقاً؟".

ضحكت ميني، وقالت: "يا الله، أبدو مثلك، أليس كذلك؟ لا بد من أنني أتقدم في السنّ".

نكزتها بقدمي. لقد قمنا بأمر شجاع وجيد، ولا تريد ميني ربما أن تُحــرَم من الأمور التي تتماشى مع الشجاعة والصلاح، وتلك التي تُظهــر ســوءها أيــضاً. ولكنني لم أفهم ذلك الشعور بالهدوء الذي يملأها.

بعد قليل، نظرت ميني إلى صحيفتها مجدداً، ويمكنني القول إنها لم تكــن تقرأ. كانت تحدّق إلى الكلمات فحسب، مفكرةً في أمر آخر. وأُغلــق باب سيارة أحدهم بقوة في الجوار، فأُجفلت. ورأيت عندئذ القلــق الذي تحاول إخفاءه. ولكنني تساءلتُ عن السبب، لماذا تُخفي عني الأمر؟

كلما أمعنت النظر، فهمتُ أكثر فأكثر ما الذي يجري هناك، وما قامــت بــه مــيني. لم أكــن أعرف سبب تفكيري في ذلك في تلك اللحظات. لقد حملتنا ميني على إضافة قصة الفطيرة لتحمينا، لا لتحمي نفــسها بل لتحميني وتحمي الخادمات الأخريات. كانت تعلم أن تلك الخطوة ستزيد الأمر سوءاً بينها وبين هيلي، ولكنها قامت بها لأجلنا. لم تكن تريد أن تُظهر لأحد مدى خوفها.

فمــددتُ يــدي وضــغطتُ على يدها. "أنت إنسانة صالحة، يا ميني".

قلّبت عينيها، ومدّت لسانها كما لو أنني أقدّم لها طبق بسكويت هشّ. "كنت أعرف أنك تغدين خرفة". قالت.

ضـــحكنا في ســـرّنا. وتأخـــر الوقت وشعرنا بالإرهاق، ولكنها نهـــضت وأعادت ملء كوبها بالقهوة، وأعدّت لي كوب شاي ارتشفتُه ببطء. وتحدّثنا حتى وقت متأخر من الليل.

في اليوم التالي، يوم السبت، كنا كلنا في المنـــزل؛ كل أفراد عائلة لـــيفولت بالإضافة إليّ. وكان السيد ليفولت في المنـــزل أيضاً. لم يكن كتابـــي موجوداً على الطاولة بجانب السرير. وتساءلتُ للحظات عن المكـــان الذي وضعته فيه. ورأيت بعد ذلك محفظة يَد الآنسة ليفولت علـــى الأريكـــة، وكان الكتاب موضوعاً داخل المحفظة، مما يعني أنها تأخـــذه معهـــا إلى مكان ما. واختلستُ النظر، ووجدتُ أن مؤشرة الكتاب غير موجودة.

أردت النظـــر إلى عينـــيها لأعرف ما الذي تعرفه، ولكنها بقيت في المطبخ معظم اليوم محاوِلةً إعداد كعكة، ولم تسمح لي بالدخول لمساعدتها. لقـــد قالـــت إنها ليست مماثلة لكعكاتي التي أُعدّها، إنها وصفة غير عادية حصلت عليها من مجلة غورميه. كانت تُعدّ العدة لاستضافة أشخاص على الغـــداء في اليوم التالي، وغرفة الطعام مليئة بأغراض خاصة بالحفلات. لقد اقترضت ثلاث أقدار ذات سخّانات من الآنسة لو آن، وثمانية أطقم أواني مائدة فضية من الآنسة هيلي، بسبب قدوم أربعة عشر شخصاً يرتادون دار العبادة، ويحظّر عليهم استخدام شوكات معدنية عادية.

كان الرجل الصغير في غرفة نوم ماو موبلي يلعب معها، والسيد لـــيفولت يتجول في أنحاء المنـــزل، ويتوقف أمام غرفة نوم الطفلة من حين إلى آخر، ويواصل سيره بعد ذلك. ربما كان يفكر في أنه يُفترض به اللعب مع طفليه، ولكنني افترضت أنه لا يعرف كيفية القيام بذلك.

هكذا، لم يتبقَّ لي الكثير من الأماكن للذهاب إليها. لقد أصبحت الـــساعة الثانـــية، وقـــد نظّفتُ المنـــزل بأكمله، ولّمعتُ الحمّامات،

وغسلتُ الثياب، وكويتُ كل الملابس من دون أن ألاحظ التغضّن على وجهـــي. لقـــد حُرمتُ من دخول المطبخ، ولا أحب أن يظن السيد لـــيفولت أن كـــل مـــا أقوم به هو اللعب مع الطفلين. أخيراً، بدأتُ بالتجول في أنحاء المنـــزل أيضاً.

عـــندما كـــان السيد ليفولت في غرفة الطعام، اختلستُ النظر، ورأيـــت مـــاو موبلي تحمل ورقة في يدها، وتعلّم روس أمراً جديداً. كانت تحب أن تلعب مع شقيقها الصغير لعبة المدرسة.

دخلـــتُ غرفة الجلوس، وشرعتُ بإزالة الغبار عن الكتب للمرة الثانية. من الواضح أنني لن أُلقي عليها تحية الوداع في ذلك اليوم بسبب وجود هذا الحشد من الناس.

"ســـنلعب لعبة". سمعتُ ماو موبلي تقول لشقيقها. "الآن، اجلس علـــى المنـــضدة لأنك ستكون السيد وولوورف، وأنت ملوّن البشرة، وعليك البقاء هناك مهما فعلتُ وإلا ذهبتَ إلى السجن".

فتوجّهتُ إلى غرفة نومها بأسرع ما يمكن، ولكن السيد ليفولت كان هناك يشاهدهما عند الباب. فوقفتُ وراءه.

وشـــبك الـــسيد ليفولت ذراعيه على نحو متصالب فوق قميصه البيضاء، وأمال رأسه. كان قلبـــي ينبض بسرعة ألف ميل في الساعة. لم يـــسبق لي أن سمعت ماو موبلي تخبر قصصنا السرّية بصوت مرتفع لأي شـــخص آخـــر غيري، عندما تكون والدها خارج المنـــزل، ولا يـــوجد أحد لسماع ما نقول. ولكنها لم تكن تدرك أن والدها يستمع إليها.

"حـــسناً". قالت ماو موبلي، واقتادت شقيقها المترنّح، وأجلستْه علـــى الكرسي. "يا روس، ستبقى هناك جالساً إلى منضدة وولوورف. لا تنهض".

وأردتُ الـتكلم، ولكـن لم أستطع قول أي شيء. كانت ماو موبلي تسير وراء روس على أطراف أصابعها، وتُفرغ علبة من الأقلام علـى رأسه. فقطّب الرجل الصغير جبينه، ولكنها نظرت إليه بصرامة، وقالت: "لا يمكنك التحرك. يجب أن تكون شجاعاً. ولا تدَع وجهك يحمـرّ". وبعد ذلك، مدّت له لسانها وبدأت تُصدر أزيزاً ممسكةً بحذاء الدمية. فنظر إليها الرجل الصغير كما لو أنه يقول *لماذا عليّ تحمّل هذا الهراء؟* وزحف خارج الكرسي، نائحاً ومتذمّراً.

"لقـد خـسرتَ!". قالت: "الآن، تعالَ، سنلعب لعبة *في الجزء الخلفي من الحافلة* واسمك روزا باركس".

"مـن علّمك هذه الأشياء، يا ماو موبلي؟". سأل السيد ليفولت. وأدارت الطفلـة رأسها بسرعة، وكانت عيناها مفتوحتين كما لو أنها رأت شبحاً.

لقد شعرتُ بعجز عن الوقوف. كان كل شيء يطلب مني الدخول للتأكد من عدم تعرّضها للمتاعب، ولكنني لم أكن أتنفس بشكل جيد، وكنت عاجزة عن التحرك. ونظرت الطفلة إليّ، وأنا واقفة وراء والدها مباشرةً، فاستدار السيد ليفولت ورآني، ونظر مجدداً إليها.

حـدّقت ماو موبلي إلى والدها. "لا أعلم". وأشاحت بنظرها إلى لعبة اللوح الخشبـي المُلقى على الأرض كما لو أنها تحاول اللعب به. لقـد رأيـتها تقوم بذلك من قبل، وعلمتُ في ما تفكر. هي تفكر في الانشغال بأمر آخر وتجاهل والدها كي يذهب.

"يـا مـاو موبلي، طرح عليك والدك سؤالاً. أين تعلّمتِ هذه الأشـياء؟". وانحنى باتجاهها. لم أستطع رؤية وجهه، ولكنني عرفتُ أنه يبتـسم لأن مـاو موبلي بدت خجلة، فكل الطفلات يحببن آباءهنّ. وقالت بعد ذلك بصوت مرتفع وواضح:

"السيدة تايلر علّمتنا إيّاها".

وقف السيد ليفولت بشكل مستقيم، ودخل المطبخ، فتبعتُه. وأدار الآنسة ليفولت بكتفيها نحوه وقال: "غداً، تذهبين إلى تلك المدرسة، وتضعين ماو موبلي في صف آخر. لا أريد الآنسة تايلر بعد اليوم".

"ماذا؟ لا يمكنني تغيير مدرّستها...".

فحبستُ أنفاسي، ودعوت. *بلى، يمكنك. رجاءً*.

"قومي بذلك فحسب". وكما يفعل الرجال، خرج السيد راليه من الباب من دون أن يكون عليه شرح أي شيء لأحد.

طوال يوم الأحد، لم أكفّ عن شكر الله بسبب إبعاد الطفلة عن الآنسة تايلر. كانت عبارة *شكراً لك يا الله، شكراً لك يا الله، شكراً لك يا الله* تتردد في رأسي كترنيمة. وفي صباح يوم الاثنين، توجهت الآنسة ليفولت إلى مدرسة ماو موبلي بملابسها الأنيقة، فابتسمتُ لأنني أعرف ما الذي ستقوم به.

بينما كانت الآنسة ليفولت خارج المنزل، انكببتُ على تنظيف أواني المائدة الفضية للآنسة هيلي. لقد وضعتها الآنسة ليفولت على طاولة المطبخ بعد غداء اليوم السابق. فغسلتُها، وأمضيت الساعة التالية ألّمعها، متسائلةً كيف تقوم إرنستين ذات الذراع الواحدة بذلك. فتلميع أواني المائدة من ماركة الغران باروك بمقابضها وأشكالها المعقوفة يتطلب العمل بذراعين.

عندما عادت الآنسة ليفولت، وضعت محفظة نقودها على الطاولة وقالت: "آه، كنت أعتزم إعادة تلك الأواني الفضية هذا الصباح، ولكنني اضطُررت إلى الذهاب إلى مدرسة ماو موبلي التي تعاني من رشح لأنها كانت تعطس طوال الصباح، وإنها العاشرة تقريباً...".

"هل ماو موبلي مريضة؟".

"ربمــا". وقلّبت الآنسة ليفولت عينيها. "آه، لقد تأخرتُ على موعد تصفيف الشعر. عندما تُنهين تلميعها، أعيديها إلى منـــزل هيلي بدلاً مني. سأعود بعد الغداء".

عـــندما أنهـــيت تلميعها، لففتُ أواني الآنسة هيلي الفضية بقطعة قمـــاش زرقـــاء، وذهبتُ لإخراج الرجل الصغير من السرير. كان قد استيقظ من قيلولته، فطرف عينيه لي وابتسم.

"هـــيا، أيها الرجل الصغير، لنضع لك حفاضاً جديداً". ووضعته علـــى طاولـــة تبديل الملابس، ونـــزعتُ الحفاض المبتلّ، ووجدت فيه ثـــلاث لعـــب وأحد مشابك الآنسة ليفولت. فشكرت الله لأنه كان حفاضاً مبتلاًّ وليس جافّاً.

"يـــا فـــتى". وضـــحكتُ قائلة: "أنت تحب فورت نوكس". فابتـــسم ابتـــسامة عريـــضة وضـــحك. وأشار إلى المهد، فذهبتُ وبحـــثتُ بـــين الأغطـــية، وعثرتُ على لُفافة شعر، وملعقة لقياس المقاديـــر، وفوطة مائدة للعشاء. يا الله، سيكون علينا القيام بأمر ما حـــيال ذلك، ولكن ليس الآن. كان يجب عليّ التوجه إلى منـــزل الآنسة هيلي.

فوضـــعتُ الرجل الصغير في عربة الأطفال، ودفعتُه باتجاه منـــزل الآنـــسة هيلي. كان الطقس حارّاً، مُشمساً، وهادئاً. وسلكنا الطريق الخاصة بمنـــزلها، وفتحت إرنستين الباب. كانت كتلة صغيرة بنّية اللون تنـــتأ خـــارج كمّها الأيسر. فكل ما كنت أعرفه عنها، هو أنها تحب التكلم بشكل ملائم، وترتاد دار العبادة الميثودية.

"مرحباً، يا آيبيلين". قالت.

أومـــأت برأســـها، ونظرت إلى الرجل الصغير. كان يراقب تلك الكتلة الصغيرة كما لو أنه يخشى انقضاضها عليه.

"قـــدمتُ إلى هـــنا قبل أن تأتي الآنسة هيلي". همست إرنستين وقالت: "أظن أنك سمعتِ بالأمر".

"سمعتُ بماذا؟".

التفتت إرنستين إلى الوراء، ومن ثم انحنت. "الآنسة هستر بيضاء البشرة، سيدة عمل فلورا لو؟ صاحت في وجه فلورا لو هذا الصباح".

"هل طردهّا؟". لقد روت فلورا لو بعض القصص السيّئة، كانت غاضـــبة. فالآنسة هستر التي يعتقد الجميع أنها لطيفة، أعطت فلورا لو غَسولاً خاصاً بالأيدي لتستخدمه كل صباح. اتّضح في ما بعد أنه مادة مبيّضة. لقد أرتني فلورا أثر الحرق.

هـــزت إرنستين رأسها. "أخرجت الآنسة هستر ذلك الكتاب، وبـــدأت بالصياح، *هل هذه أنا؟ هل كتبت عني؟* فقالت فلورا لو، *لا يـــا ســـيدتي، لم أضع أي كتاب. لم أُنهِ الصف الخامس*، ولكن الآنسة هستر صاحت قائلة، *لم أكن أعرف أن الكلوروكس يحرق البشرة، لم أكن أعرف أن الحد الأدنى للأجور هو دولار واحد وخمسة وعشرون سنتاً. لو لم تقل هيلي للجميع إن المدينة المشار إليها في الكتاب ليست جاكـــسون لطردتُك بسرعة تحمل رأسك على الدوران*. فقالت فلورا لـــو، *تعنين أنني لست مطرودة؟* وصرخت الآنسة هستر، *مطرودة؟ لا أستطيع طردك وإلا علم قومك أنني شخصية الفصل العاشر*. ستعملين هـــنا *لبقية حياتك!* ومن ثم، ألقت الآنسة هستر رأسها على الطاولة، وطلبت من فلورا لو إنهاء غسل الأطباق".

"يا الله". قلت، شاعرةً بالدُّوار: "آمل... في أن تجري كل الأمور على نحو جيد".

صاحت الآنسة هيلي، مناديةً إرنستين. "لو كنت مكان فلورا لو لمـــا انتظـــرتُ تلك النتيجة". همست إرنستين، وسلّمتُها قطعة القماش

المليـــئة بأواني المائدة الفضية. فمدّت يدها السليمة وتناولتها، وامتدّت الكتلة الصغيرة أيضاً، فظننتُ أنها عادة.

في تلك الليلة، هبّت عاصفة مروِّعة، ودوّى الرَّعد، وكنت جالسة إلى طاولـــة مطبخي أتعرّق، وأرتجف، محاوِلةً كتابة أدعيتي. لقد حالف الحـــظ فلورا لو، ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك؟ كان هناك الكثير من القلق والأمور المجهولة و...

قرع أحدهم بابـــي الأمامي.

مـــن *هناك؟* وجلستُ بشكل مستقيم. كانت الساعة فوق الفرن تـــشير إلى الثامنة وخمس وثلاثين دقيقة. في الخارج، كان المطر ينهمر بغزارة، ولو كان الطارق يعرفني لاستخدم الباب الخلفي.

تـــوجهتُ على رؤوس أصابعي إلى الباب الأمامي. وقُرع الباب مجدداً، وكنت على وشك القفز خارج حذائي.

"من، من الطارق؟". سألت، وتحققتُ من أن الباب مُقفَل.

"*هذه أنا*".

يـــا *الله*. وتنفـــستُ الـــصُعداء، وفتحتُ الباب. كانت الآنسة ســـكيتر، مبتلّة ومرتجفة، وتضع حقيبتها المدرسية الحمراء تحت معطف المطر.

"رحمتك يا الله...".

"لم أســـتطع الوصـــول إلى الـــباب الخلفـــي، فالـــباحة مليـــئة بالوحل".

كانـــت عاريـــة القدمين وتحمل حذاءها الموحل بيدها. فأغلقتُ الباب وراءها بسرعة. "لم يرَك أحد، أليس كذلك؟".

"لا يمكـــنك رؤية أي شيء في الخارج. كنت أريد الاتصال بك، ولكن الهاتف متوقف عن العمل بسبب العاصفة".

كنت أعرف أن أمراً ما سيحدث، ولكنني شعرت بسعادة كبيرة لـــدى رؤية وجهها قبل أن تغادر إلى نيويورك. لن نرى بعضنا شخصياً طوال ستة أشهر. فعانقتها مطوَّلاً.

"يـــا الله، دعيني أرى شعرك". ورفعت الآنسة سكيتر قلنسوتها، وهزت شعرها الطويل على امتداد كتفيها.

"إنه جميل". قلتُ، عانيةً ذلك.

ابتـــسمت كما لو أنها مُحرَجة، ووضعت حقيبتها المدرسية على الأرض. "والدتي تكرهه".

فضحكتُ وأخذتُ نفساً عميقاً، محاولةً الاستعداد لما ستخبرني به مهما كان سيّئاً.

"المتاجـــر تطالب بمزيد من النسخ، يا آيبيلين. لقد اتصلت السيدة شـــتاين بعـــد ظهر هذا اليوم". وأخذت بيدَيّ. "ستكون هناك طبعة أخرى، خمسة عشر *ألف* نسخة إضافية".

نظـــرتُ إليها فحسب. "لم... لم أعرف أن في استطاعتهم القيام بـــذلك". قلت وغطّيتُ فمي. كتابنا موجود في خمسة آلاف منـــزل على الرفوف، على طاولات الليل، ومنضدات التبرّج؟

"سيـــصلنا مزيد من المال، أقلّه مئة دولار لكل منكنّ. ومن يعلم؟ قد يكون هناك المزيد".

فوضـــعتُ يـــدي على قلبـــي. لم أُنفق أي سنت من الدولارات الواحد والستين الأولى، وها هي تقول لي إن هناك المزيد؟

"هـــناك أمـــر آخر". نظرت الآنسة سكيتر إلى الحقيبة المدرسية. "قـــصدتُ الـــصحيفة يوم الجمعة، واستقلتُ من عمل الآنسة ميرنا". وأخـــذت نفساً عميقاً. "وقلتُ للسيد غولدن، أظن أنه يُفترض بكِ أن تكوني الآنسة ميرنا التالية".

"أنا؟".

"قلت له إنك من كان يزوّدني بالإجابات طوال الوقت. فقال إنه سيفكر في الأمر، واتصل بـي اليوم ووافق ما دمتِ لا تُخبرين أحداً، وتكتبين الإجابات على غرار الآنسة ميرنا".

سحبت مفكرة زرقاء من حقيبتها وسلّمتها إليّ. "قال إنه سيدفع لك كما كان يدفع لي، عشرة دولارات في الأسبوع".

أنا؟ أعمل لصحيفة ذوي البشرة البيضاء؟ وجلستُ على الأريكة، وفتحتُ المفكرة، ورأيتُ الرسائل والمقالات السابقة. وجلست الآنسة سكيتر بجانبي.

"شكراً لك، يا آنسة سكيتر على هذا الأمر، وعلى كل شيء".

فابتسمت، وأخذت نفساً عميقاً كما لو أنها تمتنع عن ذرف الدموع.

"لا أستطيع التصديق أنك ستكونين في نيويورك غداً". قلت.

"في الواقع، سأذهب إلى شيكاغو أولاً لليلة واحدة فقط. أريد رؤية كونستنتين، أعني ضريحها".

فأومأتُ برأسي. "أنا سعيدة".

"لقد أرتني والدتي ورقة النّعي. الضريح موجود داخل المدينة، وسأتوجه إلى نيويورك في صباح اليوم التالي".

"بلّغي كونستنتين تحياتي".

فضحكتُ. "أنا عصبية المزاج جداً. لم أزُر شيكاغو أو نيويورك من قبل. لم يسبق لي أن سافرتُ على متن طائرة".

جلسنا هناك للحظات، مستمعتين إلى العاصفة. وفكرتُ في المرة الأولى التي قدمت فيها الآنسة سكيتر إلى منزلي، وكم كانت مُحرَجة. ولكنني شعرتُ في تلك اللحظات أننا عائلة واحدة.

"هل أنت خائفة، يا آيبيلين؟". سألت. "مما قد يحدث؟".

استدرتُ كيلا ترى عينيّ. "أنا بخير".

"أحـــياناً، لا أعلم إذا كان الأمر جديراً بالمحاولة. فلو حدث أمر لك... كيف سأحيا في ذلك الواقع، لا سيما وأنه حدث بسببـــي؟". ووضـــعت يـــدها علـــى عينـــيها كما لو أنها لا تريد رؤية ما الذي سيجري.

قـــصدتُ غرفة نومي، واصطحبتُ معي رزمة سلّمني إيّاها المبجّل جونـــسون. فنـــــزعتِ الورقة وحدّقت إلى الكتاب وإلى كل الأسماء المـــوقَّعة فيه. "كنت سأرسله إليك إلى نيويورك، ولكنني شعرتُ أنك تحتاجين إليه الآن".

"لا... أفهم". قالت: "هل هو لي؟".

"أجـــل يا سيدتي". وأبلغتُها بعد ذلك رسالة المبجّل وهي أنها فرد من عائلتنا. "عليك أن تتذكري أن كلاًّ من هذه التواقيع يعني أن الأمر جدير بالمحاولة". وقرأت كلمات الشكر، والأمور الصغيرة التي كتبوها، ومرّرت أصابعها فوق الحبر، وترقرقت عيناها بالدموع.

"أظن أن كونستنتين كانت لتفخر بك حقاً".

ابتـــسمت الآنسة سكيتر، وتأمّلتُ مدى صِغر سنّها. فبعد كل ما كتبناه، والساعات التي أمضيناها مُنهَكات وقلقات، لن أرى الفتاة لمدة طويلة جداً.

"هـــل أنت واثقة من أن الأمور ستكون بخير؟ إذا تركتُك وكل شيء...".

"اذهبـــــي إلى نيويورك، يا آنسة سكيتر. اذهبـــي للبحث عن حياتك".

فابتسمت، وطرفت عينيها لكبح دموعها، وقالت: "*شكراً لك*".

في تلــك الليلة، استلقيتُ على السرير أفكر. كنت سعيدة للغاية لأجـــل الآنـــسة سكيتر لأنها ستُعيد بناء حياتها. وسالت الدموع على صـــدغيّ وصولاً إلى أذنيّ، مفكرةً في سيرها في الجادات الكبيرة لتلك المدن التي أراها على التلفاز، مسدولة الشعر. وتمنّى جزء مني أن تكون لي بداية جديدة أيضاً. فمقالات التنظيف تلك جديدة، ولكنني لم أعُد صغيرة السن، وحياتي على وشك الانتهاء.

وكلما صعُب عليّ النوم، علمتُ أكثر فأكثر أنني سأبقى مستيقظة معظـــم اللـــيل. وبدا الأمر كما لو أن في استطاعتي سماع الشائعات في مختلف أنحاء المدينة، وتحدّث الناس عن الكتاب. كيف يستطيع الجميع الـــنوم مع هذا المقدار من الهواجس؟ وفكرتُ في فلورا لو، وفي كيفية قـــيام الآنسة هيلي بإخبار الجميع أن الكتاب لا يتناول جاكسون، وفي رغـــبة الآنـــسة هستر في طردها. آه، يا ميني، قلتُ لنفسي. لقد قمتِ بعمـــل جيد. في استطاعتك الاعتناء بالجميع باستثناء الاعتناء بنفسك. ليتني أستطيع حمايتك.

ظهـــر ما يشير إلى إمكانية افتضاح أمر الآنسة هيلي. فكل يوم، كـــان شـــخص آخـــر يقول إنه يعلم أنها من تناولت تلك الفطيرة، وكافحتِ الآنسة هيلي بصعوبة أكبر لإخفاء الحقيقة. وتساءلتُ للمرة الأولى في حـــياتي، في الواقع، عمن سيفوز بهذه المواجهة. كنت أقول الآنـــسة هيلـــي من قبل، ولكنني لم أعد أعرف. فهي، قد تخسر هذه المرة.

لقـــد تمكـــنتُ مـــن النوم لبضع ساعات قبل بزوغ الفجر. ومن الغـــريب أنـــني لم أشعر بالتعب عندما نهضتُ عند السادسة. فارتديتُ لباســـي الرسمـــي النظيف الذي غسلتُه في الليلة السابقة في وعاء غسل الثـــياب. وفي المطـــبخ، شربتُ كوب ماء معتدل البرودة من الصنبور.

وأطفأتُ ضوء المطبخ، وتوجّهتُ إلى الباب، ولكنني سمعت رنين الهاتف. يا الله، الوقت مبكّر للاتصالات الهاتفية.

فرفعتُ السمّاعة، وسمعتُ *نواحًا*.

"يا ميني؟ هل هذه أنتِ؟ ماذا...".

"لقد طردوا ليروي مساء أمس! وعندما سأل ليروي عن السبب، قال صاحب عمله إن وليام *هولبروك* طلب منه ذلك. قال له هولبروك إن *زوجة* ليروي الزنجية هي السبب، وقدِم ليروي إلى المنزل وحاول قتلي بيدَيه!". كانت ميني تلهث وتتنهّد. "لقد رمى ابنينا وبناتنا في الباحة، وأقفل عليّ في الحمّام، وقال إنه سيُضرم النار في المنزل!".

يا الله، *الأمر يحدث*. فغطّيتُ فمي، وشعرتُ أننا نقع في تلك الحفرة السوداء التي حفرناها بأنفسنا. لقد بدت ميني في كل تلك الأسابيع شديدة الوثوق بنفسها، وها هي...

"تلك *المشعوذة*". صرخت ميني: "سيقتلني بسببها!".

"أين أنت الآن، يا ميني، أين ابناك وبناتك؟".

"في محطة الوقود، لقد ركضتُ إلى هنا حافية القدمين! هرب ابناي وبناتي إلى المنزل المجاور...". كانت تلهث، وتشهق، وتزمجر. "أوكتافيا قادمة لاصطحابنا. قالت إنها ستقود بأقصى سرعة ممكنة".

كانت أوكتافيا في كانُن على بُعد عشرين دقيقة من المكان، وإلى الشمال من المنطقة التي يقع فيها منزل الآنسة سيليا. "يا ميني، سأتوجه إلى هناك بأقصى سرعة...".

"لا، لا تُقفلي الخط، أرجوك. ابقي معي على الهاتف حتى تصل إلى هنا".

"هل أنتِ بخير؟ هل لحق بك أي مكروه؟".

"لم يعد في استطاعتي تحمّل الأمر، يا آيبيلين. لم يعُد في استطاعتي القيام بذلك...". وانفجرت بالبكاء على الهاتف.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها ميني تقول ذلك. فأخذتُ نفساً عميقاً، مدركةً ما يتعيّن عليّ القيام به. كانت الكلمات شديدة الوضوح في رأسي، وارتأيت أنها الفرصة المناسبة الوحيدة لكي تسمعني وهي واقفة حافية القدمين عند هاتف محطة الوقود. "يا ميني، أصغي إليّ. لن تفقدي عملك أبداً لدى الآنسة سيليا. لقد قال لك السيد جوني ذلك بنفسه. هناك المزيد من المال من عائدات الكتاب، كما أوضحت الآنسة سكيتر ليلة أمس. يا ميني، أصغي إلى ما أقول، *لستِ مضطرة إلى التعرض للضرب من قِبل ليروي بعد الآن*".

وشهقت ميني.

"لقد حان الوقت، يا ميني. هل تسمعينني؟ أنت حرة".

تراجع بكاء ميني ببطء حتى هدأت تماماً. ولو لم أسمع تنفّسها لظننتُ أنها أقفلت الخط. *رجاءً، يا ميني*، قلت لنفسي. *رجاءً، استفيدي من هذه الفرصة للخروج من حياته*.

أخذت نفساً عميقاً ومرتعشاً، وقالت: "سمعتُ ما قلتِ، يا آيبيلين".

"دعيني آتي إلى محطة الوقود لأنتظر معك. سأقول للآنسة ليفولت إنني سأتأخر".

"لا". قالت: "ستصل... شقيقتي قريباً. سنمكث معها الليلة".

"يا ميني، هل ستبتعدين عنه هذه الليلة فقط، أم...".

أطلقت نفساً طويلاً عبر الهاتف "لا". قالت: "لا أستطيع. سأبتعد عنه لمدة طويلة". وبدأت ميني جاكسون تلتقط أنفاسها مجدداً. كان

صوتها يرتجف، وعلمتُ أنها خائفة، ولكنها قالت: "ليساعده الله، ولكن ليروي لا يعرف *ما* الذي ستغدو عليه ميني جاكسون".

فخفق قلبي بسرعة وقلت: "يا ميني، لا يمكنك قتله، وإلا ذهبتِ إلى السجن كما تأمل الآنسة هيلي".

يا الله، وساد صمت طويل ورهيب.

"لن أقتله، يا آيبيلين. أعدك بذلك. سنبقى مع أوكتافيا حتى نجد مكاناً خاصاً بنا".

فتنهّدتُ.

"لقد وصلت". قالت: "سأتصل بك الليلة".

عندما وصلتُ إلى منزل الآنسة ليفولت، كان المنزل هادئاً تماماً. فافترضتُ أن الرجل الصغير لا يزال نائماً، وماو موبلي في المدرسة. ووضعتُ حقيبتي في غرفة غسل الملابس. كان الباب الدوّار لغرفة الطعام مُغلَقاً، والمطبخ مجرّد مربَّع معتدل البرودة.

فوضعتُ القهوة على النار، ودعوت متضرعة لأجل ميني. في استطاعتها البقاء في منزل أوكتافيا لفترة من الزمن، وهو منزل مزارع متوسط الحجم كما أخبرتني ميني. كانت ميني قريبة من عملها، ولكن منزل شقيقتها بعيد عن مدرسة ابنيها وبناتها. ومع ذلك، والأهم من كل ذلك، فإن ميني بعيدة عن ليروي. لم يسبق لي أن سمعتُها تقول إنها تريد التخلي عن ليروي، وهي لا تكرّر الأمور مرتين.

أعددتُ زجاجة حليب للرجل الصغير، وأخذت نفساً عميقاً. لقد شعرتُ أن يومي انقضى علماً أننا لا نزال في الثامنة صباحاً. ولكنني لم أكن مُتعَبة، ولم أعرف السبب.

فتحتُ الباب الدوّار، ورأيتُ الآنسة ليفولت والآنسة هيلي جالستين إلى جانب واحد من طاولة الطعام تنظران إليّ.

فوقفتُ هناك، ممسكةً زجاجة الحليب. كانت الآنسة ليفولت لا تزال مجعّدة الشعر، مُرتديةً بُرنُس الحمّام الأزرق المبطّن. ولكن الآنسة هيلي كانت ترتدي ملابس رسمية بالإضافة إلى بنطال أزرق ذا نقوش مربّعة، ولا تزال تلك البقعة الحمراء، التي يغطيها القشب على طرف شفتها.

"صباح الخير". قلت، وشرعتُ بالسير إلى الناحية الخلفية.

"روس نائم". قالت الآنسة هيلي: "لا حاجة إلى الذهاب إلى هناك".

فتوقفتُ مكاني، ونظرتُ إلى الآنسة ليفولت، ولكنها كانت تحدّق إلى ذلك الشق المضحك الذي يشبه حرف L الموجود على طاولة الطعام.

"يا آيبيلين". قالت الآنسة هيلي، ومرّرت لسانها على شفتيها. "عندما أعدت أواني المائدة الفضية يوم أمس، كانت هناك ثلاث قطع مفقودة في تلك اللفافة. لم أجد الشوكة الفضية، والملعقتين الفضيتين".

فتنهّدتُ سرّاً. "دعيني... دعيني أذهب لألقي نظرة في المطبخ، ربما نسيتُ وضع بعضٍ منها". ونظرتُ إلى الآنسة ليفولت لأتحقق مما إذا كانت تريد مني القيام بذلك، ولكنها أبقت عينيها على الشق. وشعرتُ بوخز يمتد إلى عُنُقي.

"تعلمين كما أعلم أن تلك الأواني الفضية ليست في المطبخ، يا آيبيلين". قالت الآنسة هيلي.

"يا آنسة ليفولت، هل بحثتِ في سرير روس؟ لقد اعتاد أخذ بعض الأشياء ودسّها...".

فصاحت الآنسة هيلي: "هل تسمعينها، يا إليزابيت؟ هي تحاول إلقاء اللوم على طفلك الدارج".

كان عقلي في سباق مع الزمن، وحاولتُ أن أتذكّر ما إذا عددتُ الأواني الفضية قبل وضعها في اللفافة. أعتقد أنني قمت بذلك كما كانت الحال على الدوام. يا الله، قل لي إنها لن تقول ما أعتقد أنها ستقوله...

"يا آنسة ليفولت، هل بحثتِ في المطبخ؟ أو في خزانة أواني المائدة الفضية؟ يا آنسة ليفولت؟".

لكنها كانت لا تزال ترفض النظر إليّ، و لم أعرف ما يتعيّن عليّ القيام به. لم أكن أعرف بعد مدى سوء الوضع. ربما لم يكن الأمر مرتبطاً بالأواني الفضية بل بالآنسة ليفولت و*الفصل الثاني*...

"يا آيبيلين". قالت الآنسة هيلي: "يمكنك إعادة تلك القطع إلي هذا اليوم، وإلا وجّهت إليك إليزابيت تُهَماً".

فنظرت الآنسة ليفولت إلى الآنسة هيلي، وتنهّدت سرّاً كما لو أنها استغربت الأمر. وتساءلتُ عن صاحبة تلك الفكرة. هل هي الآنسة هيلي فقط أم كلاهما؟

"لم أسرق أي أوانٍ فضية، يا آنسة ليفولت". قلت، وأردتُ الفرار.

فهمست الآنسة ليفولت: "قالت إنها ليست معها، يا هيلي".

تظاهرت الآنسة هيلي بعدم سماع ذلك، ونظرت إليّ، رافعةً حاجبيها، وقالت: "إذاً، من المناسب لي أن أُعلمك أنك مطرودة، يا آيبيلين". ونخرتْ الآنسة هيلي أنفها. "سأتصل بالشرطة. هم يعرفونني".

"ما - مااا". صاح الرجل الصغير من مهده في الناحية الخلفية من المنزل. فنظرت الآنسة ليفولت وراءها، ومن ثم إلى هيلي، كما لو أنها غير واثقة مما يتعيّن عليها القيام به. فافترضتُ أنها تفكر في ما ستكون عليه الحال إذا لم تعُد لديها أي خادمة.

"*يا آي - بي*". نادى الرجل الصغير، وشرع بالبكاء.

"يـــا آي - بـــــي". نادى صوت صغير آخر، وأدركتُ أن *ماو موبلـــي في المنـــزل*، ولم تذهب إلى المدرسة في ذلك اليوم. فضعطتُ على صدري. *يا الله، لا تدَعها ترى ذلك، أرجوك. لا تدَعها تسمع ما تقوله الآنسة هيلي عني.* فُتح باب الرَّدهة وخرجت ماو موبلي. فنظرت إلينا، طارفةً عينيها، وسعلت.

"يا آيــــي، حَلقي يؤلمني".

"سأذهب إلى غرفتك في الحال، يا طفلتي".

ســـعلت ماو موبلي مجدداً، وبدا الأمر سيئاً كنباح كلب، وبدأتُ بالسير نحو الرَّدهة، ولكن الآنسة هيلي قالت: "يا آيبيلين، ابقَي مكانك، في استطاعة إليزابيت الاهتمام لطفليها".

فنظـــرت الآنسة ليفولت إلى هيلي كما لو أنها تقول لها، *هل عليّ القـــيام بذلك؟* ولكنها نهضت، وعبرت الرَّدهة بعناء، واصطحبت ماو موبلي إلى غرفة الرجل الصغير، وأغلقتِ الباب. وبقيت والآنسة هيلي بمفردنا.

أســـندت الآنسة هيلي ظهرها إلى الكرسي، وقالت: "لن أتساهل مع الكاذبين".

وتمايـــل رأســـي، وأردت الجلـــوس. "لم أسرق أي أوانٍ فضية، يا آنسة هيلي".

"لا أتكلـــم عـــن الأواني الفـــضية". قالت، منحنية إلى الأمام. وهسهست، هامسة، كيلا تسمعها الآنسة ليفولت. "أنا أتكلم عن تلك الأمـــور التي كتبتِها عن إليزابيت. لا فكرة لديها عن أن الفصل الثاني يتناولها، وأعتبر نفسي صديقة حميمة لها كيلا أُطلعها على الأمر. وقد لا أتمكن من إرسالك إلى السجن بسبب ما كتبتِه عن إليزابيت. ولكن، في استطاعتي إرسالك إلى السجن كونك سارقة".

لــــن أذهـــب إلى أي ســـجن. *لــــن أذهب*، هو كل ما كان في استطاعتي التفكير فيه.

"وصــــديقتك ميني؟ ستتلقّى مفاجأة جميلة. سأتصل بجوني فوت وأخبره أن عليه طردها في الحال".

سادت الضبابية الغرفة. فهززتُ رأسي، وضغطتُ على قبضتي يديّ.

"أنا على صلة وثيقة بجوني فوت. هو يستمع إلى ما...".

"يـــا آنسة *هيلي*". قلت بصوت مرتفع وواضح، فتوقّفت. أراهن على أن أحداً لم يقاطع الآنسة هيلي منذ عشر سنوات.

وقلت: "هناك أمر أعرفه عنك ولا تنسي ذلك".

فنظرت إليّ، مضيّقةً عينيها، ولكنها لم تقل شيئاً.

"اســـتناداً إلى ما سمعتُه، لديّ المتّسع من الوقت لكتابة العديد من الرسائل في السجن". كنت أرتجف، وبدا نفسي كالنار. "لدي الوقت لأكـــتب لكل شخص في جاكسون عن حقيقتك. الكثير من الوقت، والورق مجّانيّ".

"لن يصدّق أحد أي شيء مما تكتبينه، أيتها الزنجية".

"لا أعلم. لقد قيل لي إنني كاتبة جيدة".

فمدّت لسانها، ولمست تلك البقعة المغطاة بالقشب، ونظرت إلى الأسفل، مُشيحةً بنظرها عن نظري.

قـــبل أن تـــتمكن من قول أي شيء، فُتح باب الرَّدهة واسعاً. لقد عـــادت ماو موبلي بقميص نومها، وتوقفت أمامي. كانت تشهق وتبكي، وأنفها الصغير أحمر كوردة. لا بد من أن والدتها أخبرتها أنني مغادرة.

يا الله، تضرعت، *قل لي إنها لم تكرر أكاذيب الآنسة هيلي*.

فالـــتقطت الطفلة تنورة لباسي الرسمي و لم تُفلِتها. ووضعتُ يدي على جبينها، كان يغلي بسبب الحمّى.

"يا طفلتي، عليك العودة إلى السرير".

"لووو". صاحت: "لا تذهبـــي، يا آيبـــي".

خـــرجت الآنسة ليفولت من غرفة النوم، مقطّبة الجبين، وحاملةً الرجل الصغير.

"يا آيبـــي!". نادى، مبتسماً ابتسامة عريضة.

"مـــرحباً... أيها الرجل الصغير". همستُ. كنت سعيدة لأنه لا يفهم ما يجري. "يا آنسة ليفولت، دعيني أصطحبها إلى المطبخ، وأعطيها بعض الدواء. إنها تعاني من حمى شديدة".

فألقـــت الآنـــسة لـــيفولت نظرة سريعة على الآنسة هيلي التي بقـــيت جالـــسة متصالبة الذراعين. "حسناً، اذهبـــي". قالت الآنسة ليفولت.

فأمسكتُ الطفلة بيدها الصغيرة الساخنة واصطحبتُها إلى المطبخ. وأطلقـــت ذلك السعال المخيف مجدداً، وأعطيتها حبة أسبيرين للأطفال وشـــراباً للـــسعال. وهدأت قليلاً بسبب وجودي معها هناك، ولكن الدموع كانت لا تزال تنهمر على وجهها.

وضـــعتُها علـــى المِنضدة، وسحقتُ لها حبة صغيرة زهرية اللون، ومزجتُها مع بعض عصير التفاح، وناولتها إياها بملعقة. فابتلعتِ المزيج، وعرفتُ أنها شعرت بألم في حلقها. وملستُ شعرها إلى الوراء. كانت كـــتلة الشعر تلك التي قصّتها بالمقص تنمو مجدداً. لم يكن في استطاعة الآنسة ليفولت النظر إليها في الفترة الأخيرة.

"رجاءً لا تغادري، يا آيبـــي". قالت، وشرعت بالبكاء.

"عليّ المغادرة، يا طفلتي، أنا آسفة جداً". حينئذ، بدأتُ بالبكاء. لم أشأ المغادرة، ومن شأن هذا الأمر أن يزيد من سوءٍ حالها، ولكنني لم أتمكن من التوقف.

"لمـــاذا؟ لماذا لا تريدين رؤيتي مجدداً؟ هل ستذهبين للاهتمام لفتاة صـــغيرة أخـــرى؟". وتغـــضّن جبينها تماماً كما تفعل عندما تزعجها والدها. يا الله، شعرت أن ذلك يُدمي قلبـــي حتى الموت.

فأخذتُ وجهها بين يدَيّ، متحسسةً الحرارة المخيفة الصادرة عن خـــدَّيها. "لا، يـــا طفلـــتي، إنه ليس السبب. لا أريد التخلي عنك، ولكـــن...". كـــيف أفسّر لها الأمر؟ لم يكن في إمكاني القول لها إنني طُردتُ، و لم أشأ أن تُلقي اللوم على والدها وزيادة الأمر سوءاً بينهما. "لقـــد حان الوقت لأتقاعد. أنتِ طفلتي الصغيرة الأخيرة". قلت، لأنها الحقيقة، و لم أتخذ القرار بملء إرادتي.

تركتُها تبكي لدقيقة من الزمن على صدري، وأخذتُ من ثم وجهها بين يديّ مجدداً. وأخذتُ نفساً عميقاً، وطلبتُ منها أن تقوم بالمِثل.

"يـــا طفلـــتي". قلت. "أريدك أن تتذكري كل ما قلته لك. هل تتذكرين ما قلت لك؟".

اســـتمرت في الـــبكاء، ولكـــنها كفّت عن الشهيق. "أن أمسح مؤخرتي جيداً عندما أنتهي من التغوّط؟".

"لا، يا طفلتي، الأمر الآخر، ما أنتِ عليه".

نظـــرتُ بعمـــق داخل عينيها البنّيّتين الصافيتين، ونظرت داخل عينَـــيّ. يـــا الله، لديها عينا شخص مُسنّ كما لو أن عمرها يبلغ ألف عـــام. وأُقـــسم إنني رأيت فيهما المرأة التي ستكون عليها عندما تكبر، كانـــت ومـــضة من المستقبل. رأيتها طويلة القامة، مستقيمة الوقفة، فخـــورة بنفسها، تعتمد طريقة أفضل لقص شعرها، وتتذكر الكلمات التي وضعتُها في رأسها وقد غدت امرأة مكتملة النضج.

بعـــد ذلـــك، قالت الأمر الآخر، وكنت بحاجة إلى سماعه: "أنت لطيفة جداً". قالت: "أنت لطيفة، أنت ذكية، أنت هامّة".

"آه، *يـــا الله*". وضـــممتُ جـــسدها الحار الصغير إلى صدري، وشعرتُ كما لو أنها قدّمت إلي هدية. "شكراً لك، يا طفلتي الصغيرة".

"على الرَّحب والسَّعة". قالت، كما علّمتُها. ولكنها ألقت رأسها على كتفي، وبقينا على هذه الحال، وبكينا لمدة قصيرة من الزمن إلى أن دخلت الآنسة ليفولت المطبخ.

"يا آبيلين". قالت الآنسة ليفولت بهدوء.

"يا آنسة ليفولت، هل... أنت واثقة من أن هذا ما...". ودخلت الآنـــسة هيلي وراءها وحدّقت إليّ. وأومأت الآنسة ليفولت برأسها، وبدت كما لو أنها تشعر بذنب حقيقي.

"آســـفة، يا آبيلين. يا هيلي، إذا كنت تريدين توجيه تُهَم، فهذا الأمر عائد إليك".

نظرت الآنسة هيلي إليّ، ونخرت أنفها، وقالت: "الأمر غير جدير بتضييع وقتي لأجله".

تنهّدت الآنسة ليفولت كما لو أنها شعرت بالارتياح. وللحظات، التقت نظراتنا ببعضها بعضاً، وكان في استطاعتي التحقق من أن الآنسة هيلـــي مُحِقة؛ فالآنسة ليفولت لا تعرف أبداً أن الفصل الثاني يتناولها. وحتى وإن كانت ترتاب بذلك، فهي لن تُقرّ أبداً بالأمر.

أبعدتُ ماو موبلي عني بطريقة لطيفة ونظرت إليّ، ونظرت من ثم إلى والـــدتها بعينـــيها المحمومتين الناعستين. لقد بدت كما لو أنها تخشى السنوات الخمس عشرة القادمة من حياتها، ولكنها تنهّدت كما لـــو أنهـــا مُتعَـــبة جداً لتتمكن من التفكير في ذلك. وأنـــزلتُها على قدمـــيها، وقبّلتها على جبينها، ولكنها بسطت يديها باتجاهي. كان عليّ الابتعاد.

ودخلتُ غرفة غسل الثياب، وأخذتُ معطفي وحقيبة يدي.

وخرجتُ من الباب الخلفي، مُصغيةً إلى صوت بكاء ماو موبلي المروِّع. وعبرتُ الطريق الخاصة بالمنزل، باكيةً أيضاً، مدركةً كم سأفتقد ماو موبلي، داعية أن تتمكن والدها من إظهار بعض الحب لها. ولكنني شعرتُ، في الوقت نفسه، أنني حرة على غرار ميني، وأكثر حرّية من الآنسة ليفولت المُغلَقة على نفسها لدرجة أنها لم تعرف نفسها عندما قرأت الكتاب، وأكثر حرّية من الآنسة هيلي التي ستمضي بقية حياتها محاوِلةً إقناع الناس أنها لم تتناول تلك الفطيرة. وفكرتُ في يول ماي قابعة في السجن، ولكن الآنسة هيلي كانت في سجنها الخاص مع حكم بالسجن لمدى الحياة.

سلكت رصيف الشارع الحارّ عند الثامنة والنصف من الصباح، متسائلةً عما سأفعله في ما تبقى من يومي، وما تبقى من حياتي. كنت أرتجف وأبكي، ومرّت بي سيدة بيضاء البشرة ونظرت إليّ، وقطّبت جبينها. ستدفع لي الصحيفة عشرة دولارات في الأسبوع، وهناك المبلغ الذي سأتلقاه عن الكتاب بالإضافة إلى أموال أخرى قادمة. ومع ذلك، ليس هناك ما يكفي لتمضية بقية حياتي. فلن أتمكن من الحصول على عمل آخر كخادمة، لا سيّما وأن الآنسة ليفولت والآنسة هيلي تدعوانني سارقة. كانت ماو موبلي طفلتي البيضاء الأخيرة، وكان لباسي الرسمي آخر لباس اشتريته.

كانت الشمس ساطعة، وعيناي مفتوحتين واسعاً بالرغم من ذلك. فانتظرتُ عند موقف الحافلة كما كنت أفعل طوال أربع سنوات غريبة. لقد تبدّلت حياتي بأكملها في غضون ثلاثين دقيقة. ربما يتعيّن عليّ مواصلة وضع مقالات للصحيفة بالإضافة إلى كتابة شيء آخر أيضاً عن كل الناس الذين عرفتُهم وعن الأمور التي صادفتُها وقمتُ بها. ربما لم أكن مُسنّة جداً لاستهلال عمل جديد، ففكرتُ، وضحكتُ، وبكيتُ، في الوقت نفسه. وتيقّنتُ في تلك الليلة من أنني أعيش حياة جديدة.

قليل من الوفاء ولو بعد حين

كاترين ستوكيت، بكلماتها

كانت خادمة عائلتنا، ديمتري، تقول إن قطف القطن في الميسيسيبي في عزّ الصيف هو أسوأ تسلية، إذا لم تأخذوا بالاعتبار قطف الباماياء، وهي نبتة أخرى شائكة ومنخفضة الارتفاع. واعتادت ديمتري سرد مختلف أنواع القصص عن قطف القطن عندما كانت فتاة صغيرة، فتضحك وتهز إصبعها لنا، محذّرةً إيّانا من المساوئ المرافقة لقطف القطن كتدخين السجائر أو الإدمان على الشراب، كما لو أننا مجموعة من أطفال بِيض أثرياء معرضين للابتلاء بهذه المساوئ.

"قطفتُ وقطفتُ طوال أيام. ونظرتُ إلى بشرتي بعد ذلك، ووجدتُ أنني مُصابة بحروق. فأخبرتُ والدتي. لم يسبق لأي منا أن رأى شخصاً أسود البشرة مُصاباً بحروق شمس. كان ذوو البشرة البيضاء يصابون بتلك الحروق!".

كنت صغيرة جداً لأدرك أن ما دأبت ديمتري على إخبارنا به لم يكن ضرباً من ضروب الخيال. لقد وُلدت ديمتري في لامبكين، ميسيسيبي، في العام 1927، ومن المروِّع أن تولد قبل حدوث أزمة الركود الاقتصادي مباشرةً، وتعيش حياتها بأدق تفاصيلها كطفلة فقيرة، ملوّنة البشرة، في مزرعة يتم استثمارها بالمشاركة.

قدمت ديمتري للقيام بأعمال الطهو والتنظيف لعائلتي عندما كانت في الثامنة والعشرين من العمر، وكان والدي آنذاك في سنّ الرابعة عشرة، وعمّي في سنّ السابعة. كانت ديمتري جريئة، داكنة البشرة، ومتزوّجة بمُدمن على الشراب، بخيل، ويسيء معاملتها. لم تكن تجيبني عندما أطرح عليها أسئلة عنه. ولكنها كانت تحدّثنا طوال اليوم من دون التطرق إلى زوجها كلايد.

يا الله، كم كنت أحب التحدث إلى ديمتري، فأجلس معها بعد المدرسة في مطبخ جدتي، أستمع إلى قصصها، وأراقبها تُعدّ الكعك والدجاج المقلي. كان طهوها متميّزاً، ويتحدث عنه الناس مطوّلاً بعد تناول الطعام إلى مائدة جدتي. أنتم تقعون في غرام الكعك بالكاراميل الذي تُعدّه ديمتري عندما تتذوّقونه.

لكن، لم يكن يُسمح لشقيقي الأكبر ولشقيقتي ولي بإزعاج ديمتري في أثناء استراحة الغداء الخاصة بها، فتقول جدتي: "دعوها وشأنها الآن، دعوها تتناول الطعام، هذا الوقت مخصص لها". وأقف عند باب المطبخ، متلهّفة للاستمتاع برفقتها. فجدتي تريد من ديمتري أن تستريح كي تتمكن من إنهاء عملها، علماً أن ذوي البشرة البيضاء لا يجلسون إلى مائدة الطعام عندما يقوم ملوّنو البشرة بتناول طعامهم.

كانت القواعد بين الملونين والبيض جزءاً طبيعياً من الحياة. وكفتاة صغيرة، أتذكر أنني كنت أُشفق على الملونين في ناحية المدينة المخصصة لذوي البشرة الملوّنة، حتى وإن كانوا في ملابس أنيقة أو عادية. وأشعر بحرَج الآن عندما أُقر بذلك.

لكنني لم أكن أُشفق على ديمتري لأنني اعتبرتُ طوال سنوات عدة أنها محظوظة جداً بالعمل لدينا. كان عملاً آمناً في منزل جميل،

وكانت تقوم بأعمال التنظيف لعائلة مؤمنة. وبما أن ديمتري لم تُرزَق بأطفال، كنا نشعر أننا نملأ فراغاً في حياتها. فإذا سألها شخص ما عن عدد أطفالها، رفعت أصابعها وقالت، *ثلاثة*، أي شقيقتي، سوزان، وشقيقي، روب، وأنا.

ويُنكر شقيقي وشقيقتي أنني كنت الأكثر تقرّباً من ديمتري. فلم يكن أحد يتجرّأ على إغضابي عندما تكون ديمتري في الجوار. كانت تضعني أمام المرآة وتقول: "أنت جميلة. أنت فتاة جميلة". في حين أنني لم أكن كذلك في الواقع. كنت أضع نظّارة، وشعري بنّيّ اللون، وَتَريّ المظهر، وأكره حوض الاستحمام. كانت والدتي تمضي الكثير من الوقت خارج المدينة، ولم أكن ألازم سوزان وروب طويلاً لأنهما سئما مني، فشعرتُ أنني وحيدة، وشعرت ديمتري بذلك، فأخذت بيدي وقالت لي إنني فتاة صالحة.

انفصل والداي عندما كنت في السادسة، وأصبحت ديمتري أكثر أهمية بالنسبة إليّ. وعندما كانت والدتي تقوم بإحدى رحلاتها المتكررة، كان يضعنا والدي في الموتيل الذي يملكه، ويصطحب ديمتري للمكوث معنا، فأبكي وأبكي على كتفها، مفتقدةً والدتي كثيراً لدرجة إصابتي بالحمّى.

في تلك المرحلة، فقد شقيقي وشقيقتي اهتمام ديمتري لهما، فكانا يجلسان في ظُلّة الموتيل للعب مع موظفي الاستقبال.

أتذكر أنني كنت أراقبهما بغَيرة لأنهما أكبر سنّاً مني، وأقول لنفسي في الوقت نفسه، *لم أعد طفلة. ليس عليّ مرافقة ديمتري في حين أن الآخرين يلعبون*.

هكذا، دخلتُ اللعبة، وخسرتُ بالطبع وعدت إلى حضن ديمتري، متظاهرةً أنني طُرِدتُ، ومراقبةً الآخرين يلعبون. وبعد دقيقة

واحـــدة فقـــط، أُسنِد جبيني إلى عُنُقها الطري، فهدهدتني كما لو أننا شخصان في مركب.

"إنـــه المكـــان الذي تنتمين إليه، هنا معي". قالت، وربّتت على ســـاقي الـــساخنة بيديها الفاترتين على الدوام. كنت أشاهد الآخرين يلعبون الورق، غير آبهة كثيراً لابتعاد والدتي عني مراراً وتكراراً. كنت في المكان الذي أنتمي إليه.

لقد جعلتنا سلسلة الروايات السلبية المتداولة عن الميسيسيبـــي في الأفـــلام الـــسينمائية، والصحف، والتلفاز، مجموعة دفاعية وحذرة من المواطنين الأميركيين. كنا نشعر باعتداد كبير في النفس والخجل، ولكن اعتدادنا بأنفسنا كان أكبر.

مـــع ذلـــك، خـــرجتُ من ذلك المكان. لقد انتقلتُ إلى مدينة نيويورك عندما كنت في الرابعة والعشرين من العمر. وتعلّمتُ أن أول سؤال يطرحه أي شخص في هذه المدينة العابرة هو: "من أين تأتين؟". فأقول: "من الميسيسيبـــي". وأنتظر بعد ذلك الجواب.

لأولـــئك الـــذين يتسمون ويقولون: "بلغني أن المكان جميل جداً هناك". أقول: "مدينتي الأم هي الثالثة في الوطن لجهة الجرائم التي ترتكبها عصابات". وللذين يقولون: "يا الله، لا بد من أنك سعيدة بخروجك من *ذلك* المكان". أقول ببرودة: "ما أدراك؟ المكان جميل هناك".

ذات مـــرة، وفي أثناء حفلة راقصة على سطح أحد المباني، سألني رجل ثريّ ثمِل، مماثل لأولئك الذين يستقلون قطار الأنفاق من الناحية الـــشمالية مـــن المديـــنة، عـــن المكـــان الذي أتحدّر منه، فقلت له الميسيسيبـــي. فاستهزأ بالأمر وقال: "أنا متأسف جداً".

فدُســـتُ على قدمه بالجزء مستدق الرأس من حذائي، وأمضيت الدقائـــق العشر التالية أزوّده بمعلومات عن مسقط رأس وأماكن إقامة

وليام فوكنر، وأودورا ولتي، وتنيسي وليامز، وإلفيس بريسلي، وبـــي. بـــــي. كينغ، وأوبرا وينفري، وجيم هانسون، وفيث هيل، وجايمس أيرل جونـــز، وكريغ كليربورن، المحرر والناقد المخبول *لذي نيويورك تايمز*. وأعلمتُه أن الميسيسيبـــي استضافت أول عملية زرع للرئة وأول عملـــية زرع للقلب، وأن أسس النظام القانوني في الولايات المتحدة تم تطويرها في جامعة الميسيسيبـــي.

كنت أشعر بحنين إلى الوطن، وأنتظر شخصاً مثله.

لم أكـــن أتمـــتع بالكياسة أو اللياقة، فشعر المسكين بالحرَج وبدا عصبيّ المزاج طوال الحفلة. ولكنني لم أتمكن من مساعدته.

فالميسيـــسيبـــي هـــي كوالدتي، ويُسمح لي بالتذمّر في شأنها متى شئت. ولكن، ليكن الله في عون الشخص الذي يسيء الكلام عنها في حضوري، ما لم تكن والدتَه أيضاً.

وضعتُ هذا الكتاب في أثناء إقامتي في نيويورك لأنني اعتبرت أن كتابته هناك أكثر سهولة منها في الميسيسبـــي حيث أحدّق إلى وجوه الجمـــيع. لقد عزّز بُعد المسافة طريقة نظري إلى الأمور. فوسط مدينة تغمـــرها السرعة والأزيز، تمكنت من العودة بإفكاري ببطء إلى الوراء والتذكّر.

هذا الكتاب قصة خيالية بالإجمال. ومع ذلك، وبينما كنت أضع الكـــتاب، تـــساءلتُ كثيراً عما سيكون رأي عائلتي به، وأي شخصية أوحـــت لهم بديمتري، علماً أنها توفّيت منذ زمن بعيد. كنت خائفة في كـــثير من الأحيان من تَخطّي حدود رهيبة كوني أعبّر عن رأي شخص ملون البشرة. وخشيتُ من فشلي في وصف علاقة كان لها الأثر الأكبر في حـــياتي، علاقة محبّة كانت للتاريخ والأدب الأميركيين آراء مبسَّطة ومشوَّهة حيالها.

كـــنت شـــديدة الامتنان لقراءة مقالة هويل راينـــز الفائز بجائزة بوليتزر "هدية غرادي":

بالنـــسبة إلى الكاتب الجنوبـــي، لا وجود لموضوع أكثر تعقيداً من موضوع المودّة القائمة بين شخص ذي بشرة ملونة وشخص ذي بشرة بيضاء في عالم التمييز العنصري غير العادل. ذلك أن الكذب الذي يقوم عليه مجتمع ما يضع كل شعورٍ موضع الشبهة، ويجعل مـــن المـــستحيل معـــرفة ما إذا كان الشعور بين شخصين شعوراً صادقاً أم شفقة أم براغماتية.

قـــرأت ذلك وسألت نفسي، *كيف وجد طريقة للتعبير عن واقع الحـــال بكلمـــات موجَزة؟* ووجدتُ نفسي أمام الموضوع الزَّلق نفسه الـــذي ناضـــلتُ للإمساك به كما لو أنه سمكة مبتلّة. لقد تمكن السيد راينـــــز من إيضاحه بجمل قليلة، وشعرتُ بالسعادة عندما علِمت أنني برفقة آخرين في نضالي.

علـــى غـــرار مشاعري حيال الميسيسيبـــي، تتضارب مشاعري حـــيال *عاملة المنـــزل*. ففي ما يتعلق بالحدود القائمة بين النساء ذوات البـــشرة الملونة وذوات البشرة البيضاء، أخشى أن أكون قد استفضتُ بالموضـــوع. لقد لُقّنتُ عدم التحدث عن أمور مزعجة مماثلة، لأن من يسمعنا قد يعتبر أننا نفتقر إلى اللياقة والتهذيب.

أخـــشى أنـــني لم أفِ الموضوع حقه. فبالرغم من أن تلك الحياة كانـــت أكثـــر سوءاً بالنسبة إلى النساء ذوات البشرة الملونة العديدات اللـــواتي عملنَ في منازل الميسيسيبـــي، كان هناك حب بينَ العائلات والخادمات ذوات البشرة الملونة أكبر مما يمكن للحبر أو للزمن وصفه.

فمـــا أنا على ثقة به هو التالي؛ لا أتجرّأ على الاعتقاد أنني أعرف كـــيف تكون عليه حال امرأة ذات بشرة ملونة في الميسيسيبـــي، ولا سيما في الستينيات. ولا أعتقد أنه أمر تفهمه حقاً أي امرأة بيضاء تسلّم

شيكاً لامرأة ذات بشرة ملونة. ولكن محاولة فهم ذلك هي أمر حيوي لإنسانيّتنا. ففي كتاب *عاملة المنزل* هناك حدود واحدة أعتقد بها حقاً...

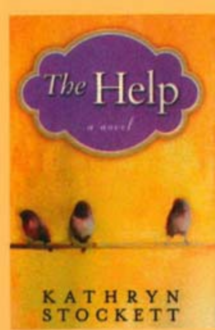
ألم تكن تلك الفكرة الرئيسة في الكتاب؟ ويجب على النساء أن يُدركن *أننا شخصان لا نختلف عن بعضنا كثيراً بخلاف ما اعتقدتُ*.

أنا على ثقة تامة أنه يمكنني القول إن أحداً في عائلتي لم يسأل ديمتري أبداً عما تكون عليه حال شخص ذي بشرة ملونة في الميسيسيبي يعمل لدى عائلتنا البيضاء. ولم يخطر في بالنا أبداً أن نطرح عليها هذا السؤال، لأننا كنا نعيش معاً حياة يومية ولم نشعر أن هناك ما يدعونا إلى ذلك.

لقد تمنّيت طوال سنوات أن أكون كبيرة في السن، وعميقة التفكير بما يكفي لأطرح على ديمتري ذلك السؤال. لقد توفّيت عندما كنت في السادسة عشرة من العمر، وأمضيت سنواتي أتخيّل ما يمكن أن يكون جوابها. لذلك السبب وضعتُ الكتاب.

شابة بيضاء في الميسيسيبي في مطلع الستينيات تقرر الكتابة حول الخادمات والمربيات السود اللواتي يقمن برعاية أولاد عائلات البيض في الجنوب الأميركي وتدبير منازلهم. يبدأ البرعم المتفتح على مشكلة التفرقة العنصرية بسماع قصص النساء المروعة والمفجعة لتحوّلها إلى رواية تعيد الأمل والفخر إلى المجتمع الأسود، وتضخ الشجاعة في نفس الكاتبة لتحطم القيود وتتبع أحلامها مطالبة بحقوق السود المدنية.

إنه فعل ندامة بلسان الكاتبة البيضاء في محاولة للتكفير عن ذنوب مجتمعها المتعصب، والاعتراف بجميل المجتمع الأسود عليه عبر حوارات عاملات المنازل معها. إنه كتاب عن الحب والمعاناة، الحقد والإيمان، الخوف والشجاعة. إنها رواية عن نساء قويات وشريفات أدّين واجباتهن رغم نظام التفرقة العنصرية الظالم.



رائعة إنسانية مؤثرة لا تنسى.

ولدت المؤلفة **كاترين ستوكيت** وترعرعت في جاكسون، الميسيسيبي. بعد تخرّجها من جامعة ألاباما حاملةً إجازة في اللغة الإنكليزية والكتابة المُبدِعة، انتقلت إلى مدينة نيويورك حيث عملت في إحدى المجلات في ميدان النشر والتسويق طوال تسع سنوات. تقيم حالياً في أطلنطا مع زوجها وابنتهما. إنها روايتها الأولى.







تصميم الغلاف: سامح خلف